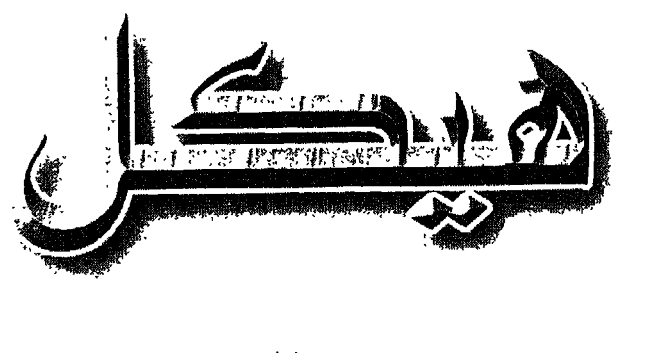
رجب البنا



بين الصحافة والسياسة



دار المعارف

تصميم الغلاف:

الفنان : محمد أبو طالب (الصغير)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهـــداء

إلى قارئ يعرف أقدار الرجـال

مُقَدِّمَة

فكرة هذا الكتاب بدأت فى عام ١٩٧٠. بعد رحيل عبد الناصر كان السؤال: ماذا سيكون مصير هيكل؟ وكيف ستكون أيامه القادمة بعد انحسار المظلة التى كانت تحميه، وكثيرون يتربصون به ويتمنون هذه الفرصة للإيقاع به؟

وبدأت فى عام ١٩٧١ إعداد بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا فى الصحافة بكلية الإعلام. وكان أول لقاء لى معه بمناسبة هذا البحث وكان لقاء حميما أجاب فيه عن كل أسئلتى. وبعدها لم أجد مناسبا أن أعد كتابا عنه بينما كتابه مفتوح مازالت فيه صفحات كثيرة يكتبها هو بنفسه، وظللت أقرأ ما يكتبه وما يكتب عنه، وأحتفظ بأوراقى إلى أن أعلن أنه قرر الانصراف بمناسبة بلوغه سن الثمانين فرأيت أن هذا هو الوقت المناسب، خاصة وقد ابتعد عن السلطة فلن تلحق بى مظنة النفاق، وقد كنت حريصا على ألا أكتب عنه طوال سنوات وجوده فى الأهرام، ولكن مشكلتى كانت فى أن حجم الأوراق التى جمعتها يمكن أن تكون مادة لعدة كتب وليس لكتاب واحد. ذلك لأن حياة هيكل حافلة بالأحداث المثيرة ولا أظن صحفيا فى العالم عاش مثل هذه الحياة المليئة بالتقلبات والصراعات.. وبالأضواء، كما لا أظن ان صحفيا فى العالم كان مؤثرا فى الرأى العام كما كان هيكل. لذلك فإننى أعترف بأن هذا الكتاب تنقصه فصول كثيرة لم أستطع ضمها وإلا فسوف يكون بحجم دليل التليفون!

ولقد حرصت على ألاَّ أكتب فصول هذا الكلام وأنا قريب منه حتى لاتغلبنى المشاعر وأفقد الموضوعية والحياد وهى أكثر ما كنت أحرص عليه. وحاولت أيضا أن

أفصل بين مشاعرى الشخصية وبين الأحداث والأفكار الخاصة بهيكل، وأنا أعلم أنه يحترم الخلاف فى الرأى، ولايطلب من أحد أن يقدم له موافقة دائمة أو موافقة على بياض.

ومحمد حسنين هيكل ظاهرة غير مسبوقة فى مصر ولا فى العالم العربى ولا فى العالم، فقد انفرد بعلاقة خاصة جدا مع الرئيس عبدالناصر وعاش إلى جانبه فترة حكمه كلها، ويعلم الدقائق والأسرار فى هذه الفترة، ولأول مرة فى التاريخ يسمح رئيس دولة لصحفى بالاطلاع على الوثائق السرية للدولة بل والاحتفاظ بنسخ منها. أماعلاقته مع الرئيس السادات فكانت مزيجا من القرب والبعد، ومن الرضا والسخط، ولايمكن الاكتفاء بتفسير هذه التقلبات بالأسباب الموضوعية وحدها - وهى أسباب حقيقية ومقنعة- ولكن لابد أن هناك أسبابا شخصية تضاف إلى هذه الأسباب الموضوعية جعلت العلاقة بينهما مهيأة لهذا التوتر والتذبذب إلى الحد الذى جعل الرئيس السادات يقرر إيداعه السجن! وإن كان هيكل يفسر أسباب القطيعة بأنه كان يختلف مع عبدالناصر فى التفاصيل ولكنه اختلف مع السادات فى الاستراتيجية.

وعندما كنت أعد بحثى لمعهد الإعلام سألت الدكتور عبدالحميد يونس رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة فى ذلك الوقت، وهو صحفى قديم وناقد أدبى كبير: ما رأيك فى هيكل؟ فقال لى: هيكل..؟! إنه كان قبل الثورة صحفيا لامعا، وبعد الثورة اصبح أسطورة!

ووجهت السؤال إلى الدكتور صلاح مخيمر وهو من أبرز أساتذة علم النفس ومن المشاركين فى الدراسات السياسية والحياة السياسية فى الستينات فقال لى: لاتستطيع أن تعرف هيكل إلا من خلال علاقته بعبدالناصر. كان عبد الناصر بحاجة إلى شخصية صحفية تعبر عن أفكاره فى بعض الأحيان، وكان هيكل محتاجا إلى سلطة تحتضنه، فاصبح كلٌّ منهما إجابة لاحتياج الآخر، وبعد أن أصبح صحفيا

للسلطة أصبح سلطة بالنسبة للصحافة، وبذكائه استفاد من موقعه في الدراسة فأصبح الوحيد بين الصحفيين الذى لايذهب ليسأل ولكنه يذهب ليناقش ويعرض فكره، وقد أصبح خبيرا فى السياسة والاستراتيجية ومطلعا على الدقائق والخفايا، واستفاد كثيرا من إشعاعات الزعيم.

وذهبت إلى الدكتور عبد القادر القط رئيس قسم الآدب العربى وعميد كلية الآداب بجامعة عين شمس فى ذلك الوقت والناقد المعروف فقال لى:

- أرجوك.. لا داعى لذكر اسمى..اعتبر حديثى إليك حديثا شخصيا..

وأكتفى بالحديث عن اللغة والتعبيرات والصياغات المميزة فى أسلوب هيكل.

أما موسى صبرى رئيس تحرير جريدة الأخبار فى ذلك الوقت فقد أشعل سيجارته وقال لى بانفعال شديد:

- اكتب . . إن هيكل ظاهرة شاذة فى الصحافة..

وذهبت إلى إحسان عبد القدوس رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم فى ذلك الوقت لكن السكرتيرة قالت لى:

- الأستاذ إحسان يعتذر!

وحاولت أن ألتقى بمصطفى بهجت بدوى رئيس مجلس إدارة دار التحرير التى تصدر جريدتى الجمهورية والمساء، فحدد لى موعدا، وحين ذهبت فى موعدى قيل لى: إن الأستاذ يعتذر ويمكن أن أقابل محمد الحيوان محرر بالجمهورية إذا أردت. وأنصرفت ولم أقابل محمد الحيوان.

وفى مكتب عبد الرحمن الشرقاوى رئيس مجلس إدارة دار روزاليوسف فى ذلك الوقت قالت لى السكرتيرة: إن الأستاذ يرحب بلقائك، ثم عادت بعد قليل لتقول لى بخجل:

- آسفه.. الأستاذ يعتذر!

على الجانب الآخر التقيت بكثيرين سجلت بعض أسمائهم فى البحث ورحبوا بالحديث عنه وقالوا آراء موضوعية أفادتنى كثيرا..

قال لى حافظ محمود نقيب الصحفيين الأسبق:

- هيكل نموذج للصحفى الكبير. هو الوحيد الذى تخطى الحدود وأصبح معدودا من الصحفيين العالميين وهم قلة، ولكنه ليس صحفيا فقط، بل هو سياسى أيضا.

وخرجت من هذه اللقاءات بانطباع واحد: أن موقف زملاء هيكل يمكن تفسيره فى ضوء ما يسميه علماء النفس (الغيرة المهنية)، وهذا طبيعى، فقد كانوا يتنافسون على الاقتراب من الزعيم فلم يصل إلى هذه المكانة سواه، ووصل إلى أبعد مما كان يمكن لأحد أن يتصور.

وحين سألت عالم النفس الدكتور صلاح مخيمر عن تحليل لهذه الظاهرة قال:

- التفسير فى العلاقة الخاصة جدا التى كانت تربطه بالزعيم. والزعيم عند مدرسة التحليل النفسى يمثل الأب، وما دام هيكل قد أصبح الابن الأقرب إليه واستاثر به وحده، فمن الطبيعى أن يشعر الآخرون بالغيرة والرغبة فى النيل منه إذا سنحت لهم فرصة، وقصة سيدنا يوسف تتكرر مع اختلافات طفيفة، ألا ترى كيف يتصيد الجميع له سطرا أو سطرين ويخلقون منهما معركة لا يريدها هيكل ولم يفكر فيها؟

لكن هيكل كان هو النجم حتى بعد رحيل عبد الناصر، وقد أجرت مجلة روز اليوسف استفتاء عن نجم عام ١٩٧١ بين قرائها فكانت النتيجة أن محمد حسنين هيكل هو نجم العام. وجاء بعده مع فارق كبير فى الأصوات: إحسان عبد القدوس ثم مصطفى محمود ثم أحمد رجب ثم عبدالرحمن الشرقاوى. وقالت روز اليوسف فى تعليقها على هذه النتيجة: (هل كان العام الأخير هو مفتاح الشهرة الذى وضع هيكل

على رأس النجوم؟ بالطبع لا.. فقبل ذلك، ولسنوات طويلة كان نموذجا للصحفي المتلئ.. يقدم الرأى، ويقدم الخبر، ويقتحم الأسرار، وعلى رغم قيامه بتقديم مقالات للرأى فقد ظل مخلصا لمهنته التى تقوم وفى الأساس على المعلومات.

هكذا كان هيكل في عيونهم. نجم النجوم فى رأى القراء. وهدفا للعداء من كبار الصحفيين، وللاحترام الشديد من جيل الوسط من الصحفيين ومن المثقفين عموما.

كان هيكل هو الوحيد الذى ينادى باعة الصحف على اسمه يوم الجمعة قبل الأهرام فتسمع صياحهم:

- اقرأ هيكل.. اقرأ هيكل..

ولم يكن فى مصر من يقدر على أن يصبر على قراءة مقالة ((بصراحة)) يوم الجمعة.. وظهر ذلك حين أعطى هيكل لنفسه إجازة لشهر كامل فى أغسطس فهبط توزيع الأهرام فى أيام الجمعة كثيرا..

وهيكل تمرس فى كل مجالات العمل الصحفى.. عمل محررا للحوادث.. ومحررا للفن.. ومراسلا حربيا.. بل هو أول صحفى يتابع المعارك فى ميادين القتال وحين عين رئيسا لتحرير مجلة آخر ساعة - قبل قيام الثورة - كان أصغر رئيس تحرير سنا إذ لم يتجاوز عمره ٢٩ عاما فى ذلك الوقت. ولم يدفعه منصب رئيس التحرير إلى الكتابة من مقعد وثير فى مكتبه بل سافر إلى ميادين القتال ومناطق الصراع والتقى بالزعماء، وليس فى العالم صحفى التقى بزعماء مثله، وليس فى العالم صحفى على صلة وثيقة بكبار الصحفيين فى العالم مثله. وحين اصبح رئيسا لتحرير الأهرام كان أصغر رئيس تحرير فى تاريخ الأهرام الذى كان قد أتم ٩٧ عاما من عمره، إذ كان هيكل فى الرابعة والثلاثين من عمره. وهو رئيس تحرير نزل بنفسه لتغطية أحداث مهمة فى الخارج والداخل، حتى عندما غرقت الباخرة دندرة نزل مع فريق من شباب الصحفيين والمصورين وقضى يوما كاملا على شاطئ النيل مع أهالى الضحايا ورجال الأمن

والنيابة وصدر الأهرام فى اليوم التالى بصورة لم تحدث من قبل ويصلح هذا العدد ليكون درسا فى كليات الإعلام.

وقصة نجاح هيكل فى الأهرام هى ايضا أسطورة..

ولا زلت أذكر عبارة لأستاذ الصحافة الأمريكى رويرت براون فى كتابه (فن الصحافة) قال فيها: (افحص أى جريدة، ستجد أنها ظل رجل واحد، رجل له مبادؤه، وكرامته، وأمانته، وشجاعته، أنشأ مؤسسته الصحفية على شاكلته، وأحاط نفسه برجال من طراز رفيع ذوى صفات تحاكى صفاته). وأعتقد أن هذا الوصف ينطبق تماما على هيكل.

ومفتاح شخصية هيكل - فى رأيى - هو: الجدية واختيار الطريق الأصعب.. فهو يأخذ نفسه بنظام صارم وهذا ما جعله يستفيد بكل دقيقة من وقته فى عمل مفيد..

وقد سألته:

- هل تلخص لى فى عبارة واحدة سر نجاحك؟

فأجابنى:

- إن كل وقتى أقضيه إما فى القراءة، وإما فى المقابلات الهامة، والمناقشات المثيرة.

صحفى من طراز مختلف..

أهم إنجازاته - فى رأيى - أنه جعل الصحفى إنسانا محترما فى المجتمع بعد أن كانت مكانته الاجتماعية والنظرة إليه تفتقد الاحترام.. كانت البداية محمد التابعى، وكان هو النهاية..

ولا شك أن شخصية هيكل وأفكاره ودوره كانت مؤثرة بشكل مًا فى تطورات الأحداث، مما يجعل دراسته ضرورية لفهم عصر بأكمله من عصور التاريخ المصرى القريب..

أما مواقفه السياسية فهى موضع خلاف لن تحسمه سوى الأيام حين تكشف ما كان خافيا. ولا تزال هناك أمور كثيرة تبدو مثل جبل الجليد العائم فى المحيط، لا يظهر على السطح سوى الجزء الأصغر منه، أما الجزء الأكبر فهو لايزال خافيا فى أعماق المحيط.. ولن يطفو إلا بعد سنوات قد تطول كثيرا.

بعد رحيل عبد الناصر قال هيكل: لست من دراويش الناصرية..

وأنا أيضا أقول: لست من دراويش هيكل..

فأنا أرى سلبياته وإيجابياته.. وأضع فى اعتبارى أن الميزان له كفتان وليس كفة واحدة.. واحدة للسلبيات والأخطاء التى لا يخلو منها إنسان، والثانية للإيجابيات التى لا يخلو منها إنسان ايضا..

وقد حاولت أن أضع فى كفتى الميزان بالحق والعدل.. دون تحيز. وقدمت رؤية هيكل ورؤية خصومه.. وأرجو أن أكون قد وفقت.. وإن كنت أعترف بأننى لم أقل كل ما كنت أريد أن أقوله بسبب المساحة وليس لأى سبب آخر. فكل كتاب له حجم يجب ألاَّ يتجاوزه، وهذه هى مشكلتنا دائما.. أن نعبر فى مساحة محدودة عن حياة مليئة بلا حدود..

ومن يدرى.. ربما أعود لاستكمال ما بدأت..

وبالله التوفيق...

القاهرة / يناير ٢٠٠٤

رجب البنا

٨٠ شمعة

يوم ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ احتفل الأستاذ محمد حسنين هيكل بعيد ميلاده الثمانين.

حين اتصلت به لتهنئته بهذه المناسبة - كما تعودت في كل عام - أبلغني مكتبه أنه غير موجود وسيتصل بي فور عودته. في اليوم التالي اتصل بي مكتبه وأبلغني أن الأستاذ في برقاش ويمكنني الاتصال به هناك. حين كلمته وجدت صوته غريبا، وكان واضحا أنه يتكلم بصعوبة. قلت له: أولا «كل سنة وأنت طيب».. وثانيا: سمعت أنك قررت اعتزال الكتابة بمناسبة سن الثمانين، وأنا أحتج على هذا القرار، وأعتقد أن هناك أعدادا يصعب حصرهم في مصر والعالم العربي وفي الخارج يشاركونني هذا الرفض.. وزملائي حمّلوني رسالة أن أبلغك احتجاجهم على هذا القرار.. وطلبوا مني أن أمارس أقصى ضغط عليك للعدول عنه، وقد قلت لهم: لا أظن أنه سيكون لي هذا التأثير كما تتصورون. لأن إقناع الأستاذ هيكل ليس سهلا.. ولأني آخر تلاميذه.. وفي طابور التلاميذ أنا آخرهم.. فماذا أفعل؟.

وجاءني صوت الأستاذ هيكل المبحوح يقول:

- أبدا.. أبدا.. لك تأثير طبعا وسأتحدث معك في هذا الموضوع عندما نلتقي.. لأني الآن أعاني من فيروس يصيب الزور والحلق والحبال الصوتية، والأطباء منعوني من الكلام، وأنا الآن معتقل في برقاش والحارس يجلس معي.. ابني علي (أستاذ في طب قصر العيني).

قلت لـه: سـأنتظر. وأنـا أفكـر فـى تنظيـم مسيرة مـن الزمـلاء والقـراء والأصدقـاء والمحبين. ونأتى إليك فى برقاش فى أتوبيسات لإقناعك بعدم الاعتزال.. يا أستاذ هيكل مثلك لا نستطيع الاستغناء عنه أبدا.. وأنت ما شاء الله فى حيوية الشباب ذهنيا على الأقل، ومتألق، وتكتب كلاما يضىء لنا عقولنا.. ويحفزنا إلى التفكير. نتفق أو نختلف.. لا يهم فلماذا تحرمنا من كاتب كبير يحترم عقولنا.. ويضيف إلينا.. ويسطر صفحات مشرفة فى تاريخ الصحافة المصرية ستذكرها الأجيال القادمة؟. يا أستاذ هيكل صفحتك مفتوحة، فلماذا تغلقها مبكرا؟. لا ثمانين سنة، ولا مائة سنة يمكن أن تمنعك أنت بالذات من التفكير والتحليل والكتابة.. يا أستاذ هيكل..

وقاطعنى بلهجته التى أفتقدها كثيرا:

- طيب.. طيب.. أرجوك بلاش حكاية المسيرة دى.. وسنلتقى ونتكلم.

وأشفقت عليه من إطالة الحديث أكثر من ذلك.

□□□

علاقتى بالأستاذ هيكل قديمة جدا، بدأت فى منتصف الخمسينات، وكنت وقتها طالباً فى جامعة الإسكندرية، وفى كافيتريا الكلية كنا نجتمع كل يوم وندخل فى مناقشات حامية وكأننا مسئولون عن البلد ومستقبله وثورته، بل كأننا أعضاء فى مجلس قيادة الثورة.

فى ذلك الوقت كان نجم هيكل ساطعا فى سماء الصحافة والسياسة فى مصر، وكانت مقالاته مقررة علينا تقريبا، قررناها نحن على أنفسنا، نقرؤها فى الصباح الباكر يوم الجمعة، ونستعد لحوار ساخن حول كل سطر فيها..

وكنت فى ذلك الوقت معجبا بطه حسين، ونجيب محفوظ، وهيكل، وأقرأ كل كلمة يكتبها كل منهم، وأعتقد أننى تأثرت بهم بأكثر مما تأثرت بغيرهم، وإن كانت

دائرة اهتمامى وإعجابى قد اتسعت مع الزمن، إلا أن لهؤلاء الثلاثة مكانة خاصة فى قلبى وعقلى. وما زلت أحتفظ بكل ما كتبه الثلاثة وأكاد أقول إنه لم يفتنى حرف مما كتبه كل منهم.

وعندما كنت فى بداية الشباب، وجدت فى مدرسة دمنهور الثانوية مدرسين كانوا فى الحقيقة أكبر مَنْ ساعدنى على ممارسة الكتابة حتى أصبحت رئيس تحرير مجلة المدرسة، وما زلت أحتفظ ببعض أعدادها، وساعدونى فى التدريب على الخطابة والمناظرات حتى أصبحت رئيس جمعية الخطابة والمناظرات، وفى نفس الوقت كان من حسن حظى أن التقيت فى هذه المرحلة برجل نادر لا أظن أن له مثيلاً، هو عبدالمعطى المسيرى.. وهو صاحب قهوة فى دمنهور. لم يحصل من التعليم الرسمى على قدر كبير. ولكنه علّم نفسه حتى أصبح ندا لأساتذة الجامعات ولكبار الأدباء.. وهو فقير ولكنه عزيز النفس ومعتز بنفسه وبكرامته إلى أبعد الحدود.. كان يكتب فى صحف القاهرة الكبرى واستدعاه طه حسين وشجعه على أن يعمل فى الصحافة فى القاهرة، لكنه لم يستطع أن يتعايش مع صراعات ومتاعب الحياة فيها. فعاد إلى دمنهور ليمارس دور الأب والأستاذ لمجموعات من شباب الأدباء، يشجعهم على الكتابة، ويجمعهم كل ليلة على رصيف القهوة ليقرءوا ما كتبوه ويسهروا الليل بطوله فى مناقشة ونقد كتاباتهم، وفى النهاية أنشأ عبدالمعطى المسيرى جمعية الأدباء فى دمنهور التى جمعت كل هؤلاء الشباب وكان هو رئيس الجمعية وأنا سكرتيرها، ولم تكن الجمعية تملك سوى مكتب اشتريناه من مصروفنا ووضعناه فى القهوة لنضع فيه أوراق وأختام الجمعية.. ومع ذلك كان لهذه الجمعية نشاط لم يحدث مثله أبدا بعد ذلك لا فى دمنهور ولا فى غيرها، وامتد نشاطها إلى العاصمة، وكانت القاطرة التى حملتنا إلى القاهرة لنلتقى بكبار الكتاب: طه حسين، ومحمود تيمور، ويوسف جوهر، ويحيى حقى، ونجيب محفوظ، وعلى أحمد باكثير، ومحمود البدوى، وغيرهم، وغيرهم، وكان بعض هؤلاء الكبار يزورون دمنهور من أجل عبدالمعطى المسيرى ونلتقى بهم على رصيف القهوة.. وملأنا ذلك

بالثقة حتى أصبحنا نعتبر أنفسنا أدباء، وشجعنا ذلك على إرسال إنتاجنا من القصص والمقالات إلى الصحف والمجلات الكبرى، وكانت تنشر لنا بالفعل.. وهكذا ذهبت إلى جامعة الإسكندرية وأنا أعتبر نفسى مشروع كاتب قصة وناقدا أدبيا، وفعلا نشرت فى جريدة المساء بعض القصص والمقالات حين كان خالد محيى الدين رئيسا للتحرير ولطفى الخولى مشرفا على صفحة الأدب والقصة، كما نشرت فى مجلة الأدب التى كان يصدرها أستاذنا أمين الخولى الذى كان يعطينى من وقته الكثير كلما جئت من دمنهور لأطوف على هؤلاء الكبار الذين كانوا يفتحون لنا الأبواب، ولا يبخلون علينا بالنصيحة والتوجيه.

وهذا موضوع طويل.

□□□

المهم أننى تخرجت فى الجامعة وأنا شديد الحب والإعجاب بهيكل.. بأسلوبه.. وطريقته فى بناء المقال.. والتسلسل المنطقى من المقدمات إلى النتائج.. والقدرة على الإقناع.. والبراعة فى استخدام اللغة الجديدة التى ابتدعها، وهى وسط بين لغة الأدب الرفيع ولغة الصحافة البسيطة، بحيث يستطيع كل إنسان أن يقرأه ويفهم ما يكتبه مهما تكن درجة تعليمه.

وتحولت أحلامى وطموحاتى من الأدب إلى الصحافة.. والحقيقة لا أعرف حتى الآن السر فى هذا التحول.. ربما كان رحيل عبد المعطى المسيرى جعلنى أشعر بفقدان المحرك الذى كان يدفعنى فى اتجاه الأدب، ولم أجد بعده التشجيع والاهتمام كما تعودت أن أجدهما منه.. وربما لأن هيكل أصبح هو المثال أو النموذج بالنسبة لى فى هذه المرحلة.. وربما لأنى اكتشفت أن طريق الأدب فى مصر صعب والأديب يلاقى الكثير من المتاعب لنشر إنتاجه، والصحافة أسهل وأسرع.. الحقيقة أننى لا أعرف الدافع الحقيقى لهذا التحول فى حياتى، حتى إننى وضعت القصص التى كتبتها فى

أدراج مكتبى وظلت حبيسة لأكثر من ربع قرن إلى أن فكرت فى نشرها بما فيها من أجواء الحياة فى مصر فى أواخر الخمسينات.

□□□

ودخلت معهد الإعلام بعد ذلك لأحصل على دبلوم الدراسات العليا فى الصحافة، لأنى كنت مقتنعاً بأن الصحافة ليست موهبة واستعدادا فقط، ولكنها علم له أصول ومبادئ وقواعد، وفعلا تعلمت الكثير فى خلال العامين اللذين قضيتهما فى دراسة الصحافة، والتقيت بمجموعة من الأساتذة الكبار من أمثال جلال الحمامصى، والدكتور إبراهيم إمام، والدكتور مختار التهامى، والدكتورة جيهان رشتى، والدكتور سامى عزيز الذى أشرف على البحث الذى أعددته للحصول على الدبلوم، وكان من حظى أن أحصل على تقدير ممتاز وأن يكون ترتيبى الأول على الدفعة، وكانت هذه الدفعة - لحسن الحظ أيضا- هى أول دفعة دبلوم فى معهد الإعلام الذى تحول إلى كلية الإعلام بعد ذلك وكانت تضم مجموعة من الصحفيين المعروفين.

واخترت أن تكون رسالتى عن المقال الصحفى مع دراسة تحليلية عن المقال عند محمد حسنين هيكل، وفى الحقيقة أننى أردت أن تكون هذه فرصة لأتفرغ لإعادة قراءة مقالات هيكل قراءة تحليلية ونقدية لأكتشف سر الصنعة.

وجذبنى أيضا إلى هذا الموضوع أن هيكل هو الذى أعاد المقال إلى عرشه بعد أن كاد يفقده نتيجة طغيان مدرسة أخبار اليوم التى جاءت بمفهوم حديث للصحافة يعتمد على الخبر وعلى الإثارة، والجملة القصيرة، والموضوع الذى يهم القارئ مباشرة ويمس حياته اليومية، والأسلوب السهل جدا، والموضوعات والمقالات القصيرة.. وهكذا.. ونتيجة لذلك ساد الرأى بأن عهد المقال انتهى فى الصحافة الحديثة وأننا أصبحنا فى عصر الخبر والمعلومة، وأن مخاطبة الرأى العام والتأثير فيه لا تكون إلا عن طريق اختيار وتلوين الخبر وطريقة صياغته وإبرازه أو عدم إبرازه فى الصحيفة.. ووجدت نفسى

أتساءل: هل حقيقة انتهى عصر المقال؟ وأريد أن أعرف كيف استطاع هيكل أن يعيد المقال إلى بؤرة الاهتمام بالرغم من أنه يكتب مقالا طويلا يبدأ على عمودين فى الصفحة الأولى ويستكمله فى صفحة كاملة بالداخل هى الصفحة الثالثة ومع ذلك فإن قراءه لا يمكن حصرهم سواء فى مصر أم فى العالم العربى، وهذه المقالات تترجم إلى عدة لغات أو تترجم فقرات منها على الأقل.

وأثناء إعداد البحث أجريت استفتاء بين عينة من قراء الصحف فوجدت نسبة كبيرة جدا منهم يتابعون مقالات هيكل يوم الجمعة، حتى الذين لا يشترون الأهرام ويشترون صحيفة أخرى، أو لا يشترون الصحف على الإطلاق، كانوا يتابعون هذه المقالات إما عن طريق قراءة الأهرام من الجيران وزملاء العمل، وإما بالاستماع إليها من الإذاعة التى كانت تذيع المقال كاملا.

□□□

وحين سألتنى لجنة المناقشة لماذا اخترت هيكل بالذات؟. أذكر أننى قلت: لعدة أسباب.. أولها أننى معجب به إعجابا شخصيا وأشعر أن بينى وبينه خيطا من العاطفة يربطنى به- على البعد- على رغم أننى لم ألتق به أبدا.. وأتابع مقالاته منذ سنوات.. وثانيها: لأننى أعلم أن جميع القادة والسياسيين والمهتمين بالقضايا العامة فى العالم وخارجه يحرصون على قراءة مقاله الأسبوعى فى الأهرام صباح كل يوم جمعة حتى وإن ادعى بعضهم أنه لا يقرأ له ولا يهتم بما يكتب.. وثالثا: لأن آراء السياسيين والصحفيين فى مصر منقسمة حوله.. فريق هو الأكبر يحترمه ويقدر فكره ويهتم بما يطرحه من قضايا خاصة مع ما يحيط به من هالة نتيجة اقترابه من الزعيم الراحل جمال عبد الناصر والعلاقة الخاصة جدا بينهما التى جعلته صديقا لعبد الناصر وأمينا على أسراره وليس مجرد صحفى يلتقط خبرا أو ينتظر توجيها من الزعيم.. والفريق الآخر يضم خصومه فى السياسة والصحافة، وهؤلاء يعملون بكل ما لديهم من

قوة على النيل منه، وغالبا يدفعهم إلى ذلك الشعور بالغيرة؛ لأنه يحظى وحده بمكانة لم يسبق لأحد أن فاز بها، ولم يستطع واحد منهم أن يصل إليها من جيله أو ممن يعتبرون أنفسهم أحق بها منه.. ولابد أن النجاح المبهر الذى حققه فى الأهرام حتى أصبح الأهرام واحدا من عشر صحف لها المكانة الأولى فى العالم.. هذا النجاح لابد أن يخلق الخصوم الذين يحسدونه على ما وصل إليه.. خاصة أن سلوك هيكل المترفع كان يزيد من الحقد عليه.. فهو يسرع فى خطوته بثقة شديدة، ويقف إلى جانب الزعيم رافعا رأسه، ويقابله كل يوم تقريبا، ويطلع على أسرار الدولة ويبدى رأيه فيها، همسا فى أذن الزعيم أو علنا فى مقالاته حسب الأحوال.. ويمسك السيجار الفاخر. ويبدو ملكا متوجا بالفعل.. حتى إن أحد الصحفيين فى لبنان أطلق عليه اسم« امبراطور الصحافة العربية».

والغريب أننى عندما قابلت هيكل لأول مرة ومعى قائمة طويلة من الأسئلة بادرنى هو وسألنى نفس السؤال الذى وجهته إلىّ لجنة المناقشة بعد ذلك وأجبته بنفس الإجابة تقريبا وباختصار..

وقلت فى بحثى: إننى أردت أن أعرف هيكل.. من هو..؟. وماذا يقول..؟. ولمن يكتب..؟. وما هى وسيلته فى الإقناع وطريقته فى الكتابة، وما مدى تأثيره فى الرأى العام..؟. وما هى أهدافه مما يكتبه..؟.

وكانت هذه هى الحقيقة.. كنت أريد أن أعرف لنفسى أولا كيف تبدأ فكرة المقال عند هيكل؟. وهل تكون واضحة منذ البداية وقبل أن يشرع فى الكتابة أو تكون غامضة وتتضح أثناء الكتابة..؟.. وهل يتوقف مع كل جملة لاختيار الألفاظ وصياغتها، أو يكتب بدفقة واحدة وتملى عليه الفكرة الأسلوب والصياغة ربما باللاشعور؟، وكيف يستقبل قراؤه هذه المقالات، وكيف يفهمون ما يريد لهم أن يفهموه..؟ وحين سألته أن يطلعنى

على السر كان كريما معى وأطلعنى على عدد من مسودات المقالات وأجاب على كل أسئلتى برحابة صدر أدهشتنى.

□□□

طبعا من الصعب أن تدرس شخصية كاتب ما زال عطاؤه مستمرا، لأنك ستكون متأثرا بمشاعرك نحوه، ولأنه ما زال يجرى فى الحلبة ولا تعرف كيف سيكون عندما يصل إلى نهاية الشوط، فقد يغير بعض مواقفه، وقد يغير أسلوبه مع تقدم العمر وتراكم التجربة، وقد يغير موضوعاته واهتماماته، ولكن مهما تكن هذه العوامل وجيهة فإنه لايمكن التوقف عن دراسة الشخصيات المعاصرة لنقول عنها كلمتنا، ونعلن رؤيتنا، ثم تأتى أجيال أخرى لتعيد القراءة والفهم والتقويم من منظور مختلف، وبعد مسافة زمنية تسمح برؤية أشمل وأفضل.

والحقيقة أننى استفدت من هذا البحث جدا، لأننى طرحت أسئلة كثيرة على الأستاذ هيكل نفسه وعلى معظم زملائه من نفس جيله وعلى عدد من كبار أساتذة النقد والصحافة، وعلى شرائح من القراء.. وكانت مفاجأة لى عندما طلبت مقابلة هيكل أن وافق على الفور وكان ذلك شيئا غريبا لفت أنظار القيادات الصحفية فى الأهرام، وأذكر أن مديرة مكتبه السيدة العظيمة الراحلة نوال المحلاوى قالت لى قبل أن أدخل: المقابلة لا تزيد على نصف ساعة.. الأستاذ مشغول جدا، ولكن المقابلة استمرت أكثر من ساعتين ونصف الساعة، وعندما خرجت وجدت حشدا من الكبار يحملقون فىّ، وسمعت الصحفى الكبير حمدى فؤاد يقول لنوال المحلاوى: من هو..؟ رئيس تحرير نيويورك تايمز؟. وعرفت أن الرادار الذى جعلنى أنجذب إليه جعله يفتح صدره لى، وكان ذلك من حسن حظى، وما زلت أحمل له الشعور بالفضل، والعرفان بالجميل واعتبره أستاذى الأول فى الصحافة، وإن كنت أنا آخر تلاميذه فى الأهرام.!

□□□

وطلبت مقابلة عدد من كبار الصحفيين لأسألهم عن رأيهم فى هيكل، إلا أن معظمهم اعتذر ولم يقابلنى، وكان من هؤلاء إحسان عبدالقدوس، ومصطفى بهجت بدوى، وعبدالرحمن الشرقاوى، وأنيس منصور، وإبراهيم نوار، وأحمد بهاء الدين، وعرفت أن هيكل يمثل حساسية خاصة عند كبار الصحفيين. ولكن مصطفى أمين وموسى صبرى استقبلانى وأمضيت مع كل منهما أكثر من ساعة ونصف الساعة فى حديث عن هيكل.. كما رحّب بى عدد كبير من أساتذة النقد والصحافة المعروفين.. مثل: حافظ محمود نقيب الصحفيين الأسبق، والدكتور عبدالحميد يونس رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب فى ذلك الوقت، والدكتور عبدالقادر القط الناقد الأدبى الكبير ورئيس قسم اللغة العربية والنقد بآداب القاهرة قبل ذلك، والدكتور صلاح مخيمر أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس وكان قريب الصلة بأفراد من عائلة هيكل، والدكتور سيد عثمان الأستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس، والدكتور عبدالملك عودة عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية الأسبق وكان وقتها حلقة الاتصال بين هيكل وهيئة التحرير بالأهرام وإصداراته ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.

وكان ذلك أيضا من حسن حظى لأنهم تحولوا إلى أصدقاء بعد ذلك.

وهذه حكايات يطول الحديث عنها.

□□□

أجرت مجلة روزاليوسف استفتاء عن نجم عام ١٩٧١ فكانت نتيجة الاستفتاء أن محمد حسنين هيكل هو نجم العام، وكان ترتيبه الأول على الصحفيين، كما كان الأول فى الترتيب العام بين الشخصيات اللامعة فى جميع المجالات فى مصر عموما، وجاء بعده بالترتيب إحسان عبدالقدوس، ثم مصطفى محمود، ثم أحمد رجب، ثم عبد الرحمن الشرقاوى، ونشرت روزاليوسف نتيجة الاستفتاء كاملة فى عددها الصادر فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧١.

وحين ذهبت إلى كل مكان بحثا عن معلومات تفيدنى فى بحثى فوجئت بما لم أكن أتوقع.. لم يكن فى أرشيف عدد من المؤسسات الصحفية فى مصر معلومات كافية عن هيكل، وكان ذلك مصدر دهشتى، فقد وجدت فى أخبار اليوم ثلاثة ملفات تضم مقالاته وبعض معلومات عنه. ووجدت فى الأهرام أكثر من عشرة ملفات تضم الكثير من مقالاته وأحاديثه ومعلومات عن حياته، ولكن ينقصها الكثير عن السنوات السابقة على دخوله الأهرام كرئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير. ولم أجد فى الجمهورية سوى مظروف صغير يضم بعض قصاصات، وبعض معلومات غير دقيقة عنه، ولذلك نشرت الجمهورية يوم ٢٧ إبريل ١٩٧٠ بمناسبة تعيينه وزيرا أنه تولى رئاسة تحرير الأهرام عام ١٩٥٩ والحقيقة أن ذلك كان عام ١٩٥٧، وقالت: إنه تولى رئاسة تحرير آخر ساعة عام ١٩٥٣. والحقيقة أن ذلك كان عام ١٩٥٢، وصدر قرار تعيينه يوم ١٣ يونيو وتولى رئاسة التحرير ابتداء من العدد الصادر فى ١٨ يونيو ١٩٥٢ - أى قبل قيام الثورة بأيام. وهذا التاريخ مهم لأنه يعنى أن هيكل كان قد وصل إلى منصب رئيس تحرير قبل الثورة ولم يكن للثورة أو لعلاقته بعبدالناصر فضل فى وصوله إلى هذا المنصب، أما الهيئة العامة للاستعلامات فوجدت فيها ثلاثة ملفات معظمها يقتصر على الفترة التى شغل فيها منصب وزير الإرشاد القومى، الذى تتبعه هيئة الاستعلامات.

وهيكل نفسه قليل الحديث عن فترة طفولته وصباه، وإن كان قد كتب أكثر من مرة عن التحاقه بالجامعة الأمريكية، وعن (سكوت واطسون) الذى كان يتولى تدريس مادة الصحافة. وكان فى ذات الوقت صحفيا فى صحيفة اجيبشيان جازيت التى تصدر بالإنجليزية عن شركة الإعلانات الشرقية، وهو الذى فتح أمامه الباب لتحقيق حلمه فأصبح محررا فى« الاجيبشيان جازيت»، وكان ذلك فى ٨ فبراير عام ١٩٤٢ وكان عمره ١٩ عاما.. وبدأ محرر حوادث..

وفى سنة ١٩٤٣ عمل هيكل فى مجلة روزاليوسف، وفى حديث له لمجلة روزاليوسف فى ٦ نوفمبر ١٩٦١ تحدث عن ذكرياته عن هذه الفترة فقال: إنه كان قد

قابل السيدة روزاليوسف فى شرفة الصحافة بمجلس النواب، فعرضت عليه العمل فى مجلتها، وكان إغراؤها له بأن المجلة فيها صفحات كثيرة تحتاج إلى تحرير يمكن أن يملأها بعمله.. وفى هذا العام- ١٩٤٢- أجرى أول تحقيق صحفى له مع نجيب الريحانى، لكنه كان التحقيق الأول والأخير له فى الفن، وقد ذكر ذلك فى حديثه مع جليل البندارى الذى نشر فى آخر ساعة يوم ٥ ديسمبر ١٩٦٢.. وظل فى روزاليوسف يكتب فى مجالات عديدة.. كان يكتب الأخبار.. والموضوعات الصحفية.. ويقوم بترجمة بعض الأعمال من اللغة الإنجليزية التى كان يجيدها إجادة تامة ويتفوق فيها على كثير من زملائه، وفى مقال بجريدة الجمهورية يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٦٨ كتب حافظ محمود- نقيب الصحفيين ورئيس تحرير الجمهورية الأسبق- أن هيكل ذهب فى هذه السنة مع إحسان عبدالقدوس إلى أستاذهما محمد التابعى وكان رئيسا لتحرير مجلة آخر ساعة ليعملا معه، وعاد إحسان إلى روزاليوسف، لكن هيكل بقى فى آخر ساعة.. بينما نجد فى الأهرام يوم ١١ فبراير ١٩٧٢ أن هيكل يروى قصة مختلفة فيقول: إنه ذهب إلى آخر ساعة بخطاب توصية من رئيس تحرير الاجيبشيان جازيت لأنه رأى أن مستقبله لابد أن يتحدد فى الصحافة العربية.

وفى كتاب (شارع الصحافة) الذى أصدرته دار المعارف عام ١٩٥٧ من تأليف مى شاهين أن هيكل بدأ حياته مخبرا فى آخر ساعة- وكانت مهمته الحصول على الأنباء، والجرى وراء كبار الشخصيات، وأنه كان مثل غيره لا يحاول أن يستنتج، ولا أن يشم بأنفه ما وراء التصريحات، فيلقى سؤاله، ويكتب الرد تماما كما يسمعه، وكان أكثر من عانوا فى مستهل حياتهم الصحفية. وما كتبته مى شاهين عن هيكل فيه تحامل ظاهر، ويبدو أن الغيرة المهنية والحقد على سرعة انطلاق هيكل من بين أقرانه الذين كانوا يتصورون أنهم لا يقلون عنه موهبة، كان سببا فى امتلاء قلوبهم بالمرارة، وكان ذلك ما لمسته من كثير من زملاء هيكل الذين زاملوه فى بداياته، وكانت منهم مى شاهين.. بينما قال لى موسى صبرى كلاما مختلفا عندما قابلته يوم ٢٢ يوليو ١٩٧٢

وتحدث معى طويلا عن هيكل حديثا فيه مزيج من الإنصاف والتحامل، وهذا طبيعى فى الوسط الصحفى عندما يكون الحديث عن الزملاء، فليس هناك صحفى يقول كلمة حق أو كلمة إنصاف عن صحفى آخر إلا من عصم ربى!.. قال لى موسى صبرى: إن هيكل كان يكتب فى آخر ساعة صفحة أسبوعية عن جريمة الأسبوع بأسلوب التحقيق الصحفى، أى السيناريو، ونجح ككاتب تحقيق، ووصل إلى منصب سكرتير تحرير آخر ساعة مما يدل على نجاحه فيها، وتذكر مى شاهين أنه أصبح سكرتير تحرير دون أن تشعر بالتناقض بين قولها إنه كان محررا بلا تميز وبين صعوده فى المناصب الصحفية فى مجلة يرأس تحريرها محمد التابعى وهو أكبر صحفى فى مصر فى ذلك الوقت.

□□□

وفى سنة ١٩٤٦ باع التابعى مجلة آخر ساعة إلى دار أخبار اليوم، واشترط مصطفى أمين وعلى أمين صاحبا أخبار اليوم على التابعى ألا ينتقل أحد من محرريها إلى دارهما، فطلب منهما التابعى أن تتضمن شروط الاتفاق استثناء واحدا، وكان هذا الاستثناء هو أن ينتقل محمد حسنين هيكل مع التابعى، كما يذكر حافظ محمود، وفى مقال مصطفى محمود فى الجمهورية (٣٠ ديسمبر ١٩٦٨) ذكر أن التابعى قدم حيثيات هذا الطلب بقوله: إن هذا الشاب أصبح يدى اليمنى، واختلف صاحبا أخبار اليوم على هذا الطلب، أحدهما يؤيده، والثانى يعارضه، لكن أستاذية التابعى لهما رجحت كفة القبول، ويبدو أن هيكل شعر بهذا الخلاف، فعمل كما لم يعمل صحفى ناشئ، حتى استطاع أن يضم المعارض إلى جانب التأييد.

لكن مى شاهين- كتبت وهى صحفية مخضرمة- فى كتابها عن شارع الصحافة أن الأخبار التى كان يحصل عليها هيكل لم تكن مهمة فى نظر أخبار اليوم، وفى نظر مصطفى أمين المخبر الذى لا يستطيع أحد أن ينافسه فى هذا المضمار، كانت أخبار هيكل مفككة، سخيفة، لا يفيد نشرها فى شىء (ص ١٧٩) وقالت فى موضع آخر:

فإذا حدث وسأل عنه مصطفى أمين، أو تناول منه خبرا ظهرت على وجه رئيس التحرير ابتسامة التحدى والسخرية التى يعرفها هيكل جيدا، والتى عانى منها الأمّرين، ثم امتدت يده إلى الخبر تمزقه وهو يصيح: « ده كدب» - أو: « ده كلام فارغ».. إلى آخر ذخيرته التى لا تنفد من التهكم (ص ١٧٩). وتروى مى شاهين أن هيكل فشل فى أول تجربة أتيحت له فى أخبار اليوم حين أوفدته إلى مؤتمر بلودان، وكان الوفد المصرى يتكون من النقراشى، ومكرم عبيد، والدكتور هيكل، وحافظ رمضان (ص١٨١) وبعد ذلك ضيع على أخبار اليوم خبطة صحفية، إذ حصلت أخبار اليوم على نبأ اعتزام الحكومة قطع المفاوضات، واعتزمت أن تجعله الموضوع الرئيسى فى اليوم التالى، لكن هيكل حاول أن يقدم هو الآخر خبطة صحفية فسأل الزعماء المصريين عن رأيهم فيما إذا قطعت المفاوضات، فذاع الخبر، وجرت اتصالات لمنع نشره (ص ١٨٥ - ١٨٦).

رحم الله مى شاهين.

□□□

قال لى هيكل فى مقابلة شخصية يوم ٦ مايو ١٩٧٢ فى تعليقه على تلك الفترة إنه كان يختلف كثيرا مع أصحاب أخبار اليوم، لأنه لم يكن مؤمنا بأهمية خبر مثل: قال فلان باشا لفلان باشا أمس فى نادى محمد على: «طظ»! رنت (طظ) فى الأوساط السياسية والدبلوماسية.. الخ، وأنه كان يرى أن القارئ المصرى مستواه أحسن بكثير من مستوى المادة الصحفية التى تقدم إليه، وأنه لهذا طلب أن يخرج لعمل تحقيقات صحفية خارج القاهرة عندما ظهرت جرائم الخُط وعصابته المشهورة فى الصعيد، وذهب إلى الصعيد، وعاش فى الجبال التى اتخذها الخُط مسرحا لجرائمه.. وحين تفشى وباء الكوليرا فى القرين بمحافظة الشرقية عام ١٩٤٧ ذهب إليها، وأغلقت القرية عليه، وكان يكتب إلى أخبار اليوم من داخلها.

□□□

وفى مايو١٩٤٨ عمل هيكل أول مراسل حربى فى تاريخ الصحافة العربية، وذهب إلى فلسطين لتغطية المعارك بين الجيوش العربية والعصابات الصهيونية، ولمع اسمه فى سلسلة المقالات والتحقيقات الصحفية التى كتبها أثناء الحرب، وحين حوصرت الفالوجة استطاع أن يدخلها وهى محاصرة، ويبعث برسائل إلى أخبار اليوم من داخلها، وكان جمال عبدالناصر هو قائد الكتيبة المصرية المحاصرة، وبعد ذلك توالت رحلاته وتحقيقاته الصحفية عن الحرب الكورية، وأحداث اليونان، وإيران، كما سافر إلى إيران، واليونان، وتركيا، وفرنسا، وسوريا، ولبنان، والسودان، والحبشة.. ولفتت تحقيقاته الأنظار عن المعارك والحروب والتوترات السياسية والأحداث الملتهبة فى هذه البلاد، وكان ذلك حدثا فى الصحافة المصرية- ولم يسبق لصحفى مصرى أو عربى أن قام بذلك.

وهيكل له كتاب جميل، هو أول كتاب له، بعنوان (إيران فوق بركان) صدر فى مايو١٩٥١ وقال فيه عن شاه إيران: (إن عرش جلالته يتأرجح، وتاجه يهتز، ولا يكاد يستقر فوق رأسه، وملكه الواسع تمزقه المؤامرات والفتن..) وكان الكتاب مليئا بمثل هذه العبارات، واعتبرت النيابة أن هذه العبارات تشكل جريمة العيب فى حق إمبراطور إيران، وبعد التحقيقات المطولة معه، قدمته النيابة إلى محكمة جنايات مصر، وانتهت القضية بالحكم ببراءته، ونظرت الدعوى يوم ٦ يونيو١٩٥٣ (بعد الثورة) ونشرت تفاصيلها فى جريدة الأخبار يوم ١٠ يونيو١٩٥٣.

□□□

فى ١٣ يونيو١٩٥٢ عُين هيكل رئيسا لتحرير آخر ساعة، قبل الثورة بشهر وعشرة أيام، وكان عمره يومها ٢٩ عاما فقط، وكان بذلك من أصغر رؤساء التحرير فى مصر. والذين يكتبون عن هيكل يخطئون كثيرا فى التواريخ كما يخطئون فى الوقائع، ربما

لقلة المصادر، كما فعل حازم فودة فى كتابه (نجوم شارع الصحافة) فقد ذكر أن هيكل كان عمره ٢٦ عاما عندما أصبح رئيسا لتحرير آخر ساعة.

ولم يمنعه منصب رئيس التحرير من الاستمرار فى السفر وراء الأحداث الساخنة فى ميادين القتال المسلحة ليضيف إلى رصيده كمراسل حربى، وليستفيد من تجارب السفر، وخبرة الاحتكاك بالسياسيين والعسكريين والصحفيين من مختلف دول العالم.. يقول حافظ محمود فى الجمهورية (٣٠ ديسمبر ١٩٦٨): إن الرحلات كانت مدرسة هيكل الصحفية، وكانت أكبر رحلاته فى هذه المرحلة من حياته إلى الولايات المتحدة، إذ عاد منها بحصيلة لم تتسع لها مجلة آخر ساعة الأسبوعية، فكتب عنها فى أخبار اليوم.

□□□

وفى هذا الوقت بدأت تتضح معالم مدرسة هيكل الصحفية، وقد عبّر عنها صلاح هلال الذى عمل إلى جانب هيكل مديرا لتحرير آخر ساعة، فكتب فى آخر ساعة (١٤ أغسطس ١٩٥٧) بعد أن ترك هيكل آخر ساعة وذهب إلى الأهرام فقال: (كان هيكل أول رئيس تحرير رأيته يعتقد أن أية مجلة أو صحيفة لا ينبغى أبدا أن ترتبط باسم واحد معين، ولا يقرؤها الناس إلا إذا كتب هذا الواحد فيها.. وكان أول رئيس تحرير لا يتردد لحظة فى أن يحذف مقاله الافتتاحى لكى ينشر مكانه خبرا مثيرا أو تحقيقا صحفيا لا يحتمل التأجيل حتى ولو كان كاتبه صحفيا صغيرا ناشئا ما زال يخطو أولى خطواته على سلم الصحافة).

□□□

وبعض الذين كتبوا عن هيكل قالوا إنه الصحفى الوحيد الذى لم يتعرض للتحقيق معه أو للمحاكمة أو السجن.. وهذا غير صحيح.. فقد استدعاه مدير المباحث الإنجليزى الميجور سانسون بعد أن نشر خبر هجوم على معسكر إنجليزى قتل فيه واحد من

المهاجمين، وكان هيكل وقتها محررا صغيرا فى الإجيبشيان جازيت، وكانت التهمة الموجهة إليه هى الخيانة العظمى ونشر صورة بعيدة عن الحقيقة تسىء إلى سمعة الأمن وتشكك فى استقرار قواعد الطمأنينة وتسىء إلى سمعة الوطن.. وكتب هيكل عن هذه الواقعة فى آخر ساعة يقول إن الضابط الإنجليزى المكلف بالتحقيق معه- وكان اسمه الكابتن مورلى- كان يضرب بيده المائدة بين كل سؤال وجواب ويقول بالعربية المكسرة: (لازمتو خمسة سنين خبس).. ولم يخرجنى إلا ضمان من ولى أمرى بأن أطلّق الصحافة طلاقا بائنا.. فلم أعد إليها إلا بمحلل!

ومرة ثانية أحيل إلى محكمة الجنايات بتهمة العيب فى الذات الملكية للإمبراطور شاه إيران فى كتابه (إيران فوق بركان) وحكمت المحكمة ببراءته.

وفى ٢ يوليو ١٩٥٣ قدم إلى المحاكمة التأديبية للصحفيين بسبب مقال كتبه بعنوان (حديث صريح عن صحافة مصر) وانتهت المحاكمة ببراءته.

وفى قرارات سبتمبر ١٩٨٠ دخل هيكل السجن لأول مرة فى حياته، ضمن قرارات الرئيس الراحل أنور السادات بسجن عدد كبير من أكبر الشخصيات السياسية والصحفية والنقابية فى مصر جملة واحدة. وهذا موضوع يطول شرحه خاصة أن هيكل كان قد أصبح اسما معروفا فى العالم، وكان الرئيس السادات يعلم أن سجن هيكل سوف يحدث دويا عالميا، وسيحرك المنظمات الدولية ومنظمات حقوق الإنسان، وهذا ما حدث فعلا. وكان هيكل وقتها فى السابعة والخمسين من عمره ويعانى من آلام فى الكلى ويحتاج إلى أدوية ورعاية طبية خاصة، وقد تفاقم مرض الكلى بعد ذلك واضطره إلى السفر إلى الولايات المتحدة لإجراء جراحة كبرى فى مستشفى كليفلاند.

□□□

ولابد من حديث قد يطول عن علاقة هيكل بعبدالناصر، ولكن يكفى الآن أن نشير إلى أن هيكل استفاد من هذه العلاقة الخاصة دون شك، وأن عبدالناصر أيضا استفاد

من قرب هيكل منه. عبدالناصر طبعا منجم أسرار وأخبار تكفى عشرات الصحفيين. وهيكل عقلية يندر أن يجد عبدالناصر مثلها، وقد اختبر بالفعل جميع الصحفيين الكبار. كان يبحث عن صحفى يساعده، ويفكر معه، ويأتمنه على أسراره، ويبوح له بكل شىء ويترك له تقدير ما ينشر وما لا ينشر فى التوقيت المناسب.. وخذله الجميع.. وفاز هيكل بهذه الثقة والمكانة لأنه كان الأجدر بها فى نظر عبدالناصر، وكما أثبتت الأيام بعد ذلك.

لكن عبدالناصر لم يصنع هيكل كما يردد البعض.. فقد كان هيكل صحفيا لامعا قبل الثورة، وبدأت علاقته بعبدالناصر قبل الثورة حين ذهب إليه عبدالناصر فى مكتبه فى آخر ساعة ليتعرف عليه ويطلب منه نسخة من كتابه عن إيران ويطرح عليه أسئلة فهم هيكل منها أن هذا الضابط الشاب يفكر فى شىء ما ستكون له خطورته، وفى ليلة ٢٣ يوليو قام هيكل بدور مهم أنقذ فيه الثورة ورجالها من تحرك القصر.. وهذه قصة أخرى..

وفى كتاب مفيد فوزى (هيكل الآخر) يصف الدكتور مصطفى الفقى هيكل بأنه مؤسسة فكرية، وظاهرة صحفية، ودوره ممتد قبل عبدالناصر ومعه وبعده، وهو يجعلنا نتذكر بالضرورة أن وجود المفكر إلى جانب الأمير، أو وجود الكاتب إلى جانب السياسى، هى ظاهرة تكررت كثيرا فى التاريخ الإنسانى، ولكنها كانت دائما حبيسة إطار من الحوار الصامت داخل جدران قصور السلطة، حتى تمكن هيكل من الخروج بها إلى صفوف الجماهير، ويذكّرنا الدكتور مصطفى الفقى بما حدث منذ أعوام قليلة عندما أبدى هيكل عزوفه عن قبول جائزة قدمت إليه من دولة عربية، زهدا منه فى الأوسمة والنياشين وميداليات التكريم.

المهم أن هيكل أفادته علاقته بعبدالناصر فى تحقيق انتصارات صحفية، حتى إن أنيس منصور كتب أن هيكل لم يكن يفعل شيئا سوى أن يمد يده فى جيب الزعيم

فيحصل على الأخبار! ويعض الكبار الذين قابلتهم قالوا إن صعود هيكل كان مجرد ضرية حظ.. وذكرنى ذلك بقصة الكاتب البريطانى الشهير برنارد شو حين قال له أحد النقاد إن الحظ هو الذى طرق بابك وجعلك مشهورا، فرد عليه برنارد شو قائلاً: هذه هى الحقيقة، ولكن حين طرق الحظ بابى وجدنى خلفه مستعدا أنتظر!

□□□

فمثلا كان العنوان الرئيسى للصفحة الأولى فى أخبار اليوم يوم ١٨ أغسطس ١٩٥٤ بالبنط العريض كما يلى:

□ الأخبار تحصل على أول معلومات عن سياسة مصر الخارجية بعد الجلاء.

هيكل يقوم بتحقيقه الصحفى الأول عما دار وراء الستار.

ونلاحظ أن هذه أول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية يكتب اسم الصحفى فى المانشيت الرئيسى وبالبنط العريض الذى تكتب به العناوين..وإن كان ذلك قد تكرر بعد ذلك كثيرا ومع من هم أصغر كثيرا وأقل قيمة من هيكل وفى موضوعات وأخبار لاتمثل شيئاً فى موازين الصحافة. وكانت السطور الأولى للخبر كما يلى:

إن جمال عبدالناصر سيسافر فى شهر ديسمبر إلى الهند وبورما وإندونيسيا والباكستان. إن الخطوات العملية لتنفيذ المؤتمر الإسلامى ستبدأ فورا، وسيطير أنور السادات إلى الرياض بعد بضعة أسابيع ليطلع الملك سعود عل النتائج.

إن الباكستان قبلت تحكيم مصر فى الخلاف بينها وبين الهند وستتصل مصر ببعض الدول الصديقة لإعداد مقترحات لحسم هذا الخلاف الذى يهدد المنطقة كلها. هذه هى المعلومات الخطيرة الدقيقة التى حصل عليها محمد حسنين هيكل فى التحقيق الصحفى الضخم الذى قام به فى الأراضى المقدسة خلال أيام الحج. والأخبار تبدأ اليوم بنشر المقال الأول عن أسرار ما دار من محادثات فى عرفات ومكة.

هكذا ظهرت الأخبار وصفحتها الأولى مختلفة وكأنها تزهو بما فازت به من أسرار انفردت بها .. وكان هيكل فى السعودية والذى أشرف على النشر والتوضيب مصطفى وعلى أمين، وهما يعرفان قيمة الموضوع ويقرران كتابة اسم المحرر فى العناوين، وبذلك أصبح اسم هيكل فى الخبر هو ذاته خبرا يجذب القارئ، ومنذ ذلك الوقت أصبح معروفا أن بين هيكل وعبدالناصر علاقة خاصة، تجعله الوحيد الذى يحصل على (الخبطات) الصحفية التى ينفرد بها، ولعل هذا المعنى هو ما كان يقصده مصطفى وعلى أمين حين كتبا اسم هيكل فى العناوين كأنهما أرادا الإعلان عن هذه العلاقة الخاصة. فى هذه الفترة نلاحظ تأثر هيكل بمدرسة أخبار اليوم فى اختيار الأخبار وعرضها، وفى الأسلوب، واختيار الكلمات، كما نلاحظ تأثره بمصطفى وعلى أمين فى الحديث بإسراف عن المستقبل الذى سيكون مشرقا، والغد الذى سيكون أجمل من اليوم، والأيام القادمة التى تحمل البشرى بتحقيق الآمال وتجسيد الأحلام ومن أمثلة ذلك مقال فى آخر ساعة فى ١٤ يوليو ١٩٥٤ يقول فيه هيكل (سوف يبدو الذى نعيش فيه كأنه ذكريات عهد رومانتيكى، وسيكون شهر يوليو ١٩٧٤ (أى بعد ٢٠ سنة) شهرا حافلا..

□ سيجتمع البرلمان العربى الكبير فى القدس ليحتفل بذكرى تحرير فلسطين.. ذكرى مرور عشر سنوات على انهيار مؤامرة كان يراد بها اقتطاع جزء من الوطن وفصله عنه تحت اسم اسرائيل..

□ تنشر اللجنة المشتركة للإشراف على الطاقة الذرية فى الاتحاد العربى تقريرها من مقرها فى دمشق، ويطلب فيه من الاتحاد زيادة الاعتمادات المخصصة لأبحاثها بمقدار ألف مليون جنيه..

□ ينظر مجلس رؤساء الوزارات المحلية للاتحاد العربى شكوى الكويت وبعض إمارات الخليج، وتطلب إعانتها على تصريف البترول الذى لم يعد الاتحاد العربى فى حاجة اليه بسبب استعمال القوة الذرية فى الوقود .

□ يعلن عبداللطيف البغدادى المسئول عن المواصلات فى الاتحاد إتمام الطريق البرى بين القاهرة ورأس الرجاء الصالح، كما يعلن الشروع فى إنشاء خط حديدى يعمل بالطاقة الذرية على نفس الخط.

□ تقام فى بغداد حفلة تكريم وزير مالية الاتحاد باعتباره من مواليدها لأنه قدم للاتحاد أقوى ميزانية فى تاريخه بلغت عشرة آلاف بليون من الجنيهات .

□ ينتهى العمل فى أكبر محطة للاتصال بالكواكب قرب عالية (فى لبنان).

□ تحصل مديرية قنا على الجائزة الأولى لخدمة المستشفيات الكاملة، وتحصل مديرية كركوك (فى العراق) على الجائزة الأولى لدقة المواصلات، وتحصل عمان (عاصمة الأردن) على الجائزة الأولى لنظافة العاصمة. وهكذا يمضى المقال..

كان هيكل فى هذه المرحلة، متأثرا بمصطفى وعلى أمين، ومتفائلا مثلهما، وكان يحلم ويتمنى، ويجعل قارئه يحلم ويتمنى معه، وما زلنا حتى الآن نحلم ونتمنى أن يتحقق ذلك من عشر سنوات من اليوم ما دام لم يتحقق فى عام ١٩٧٤ كما كان يحلم.

□□□

فى سنة ١٩٥٥ تزوج هيكل، وعمره ٣٢ عاما، ونشرت الأخبار يوم ٢٧ يناير ١٩٥٥ خبرا يقول: احتفل أمس بعقد قران الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة والمحرر بدار أخبار اليوم على الآنسة هدايت تيمور كريمة السيد علوى تيمور، وقد حضر حفلة القران الرئيس جمال عبدالناصر والصاغ صلاح سالم.

وهذه أيضا إشارة إلى العلاقة الخاصة المبكرة مع عبدالناصر.

وهو يقول عن هذه العلاقة إن (جمال عبدالناصر صديق أعتز به، واحترمه جدا، وأقدره إلى أبعد مدى، وأقدر أيامى معه، وعلاقتنا لم تنشأ بأنى عرفته كصحفى، ولا أنى عرضت عليه شيئا، ولكن حين قامت الثورة وبدأ هو دوره العام، كنت أقرب الناس إليه بالحوار والمشاركة).

وفى ٣ إبريل عين هيكل رئيسا لتحرير الأخبار واشترك مع رؤساء تحرير الأخبار اليومية لأول مرة فى العدد الصادر فى ١٤ إبريل ١٩٥٦ وكان عمره ٣٣ عاما..

ولمع اسم هيكل ككاتب تحقيقات سياسية معروف بصلته الخاصة جدا بقادة الثورة، وتعددت أحاديثه ولقاءاته الصحفية مع جمال عبدالناصر، وكان يكتب أيضا يوميات فى الصفحة الأخيرة من أخبار اليوم، وتتميز يومياته بالعمق، وبالأخبار والتعليقات التى تؤكد فكرة القارئ عنه كصحفى له اتصالات على أعلى المستويات، وعلى علم بأدق الأسرار، وله ثقل خاص، وتتكرر فى يومياته إشارات إلى جمال عبدالناصر، ولقاءات مع نواب رئيس الجمهورية، وأعضاء مجلس قيادة الثورة، والوزراء ومع كبار الصحفيين العالميين ورؤساء تحرير الصحف الكبرى.

□□□

وفى ٣١ يوليو ١٩٥٧ عُين هيكل رئيسا لتحرير الأهرام وعمره ٣٤ عاما، وكان هذا التعيين قنبلة فى الأوساط الصحفية والسياسية ولدى قراء الصحف عموما وقراء الأهرام خصوصا.

وقصة هيكل فى الأهرام فيها حكايات كثيرة.

حكايات هيكل فى الأهرام

كان هيكل فى الأهرام نجما لامعا فى السماء لا يطاوله أحد.. وهو الذى جعل الأهرام كذلك.

فى ٣١ يوليو ١٩٥٧ عُين الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيسا لتحرير الأهرام، ويدأ العمل اعتبارا من العدد الصادر فى أول أغسطس ١٩٥٧. كان يومها أصغر من تولى رئاسة تحرير الأهرام سنا على مدى تاريخه الطويل، ويروى هيكل قصته مع الأهرام فيقول: إنه سبق فى عام ١٩٥٥ أى قبل عامين أن عُرض عليه هذا المنصب، واعتذر، وكان ضمن أسباب اعتذاره- كما يقول- (إننى أنتمى إلى مدرسة صحفية قد تختلف عن المدرسة الصحفية التقليدية للأهرام، فقد بنيت حياتى الصحفية على أساس العمل الإخبارى، وتحركت فى ذلك مراسلا سياسيا وحربيا وراء المتاعب فى كل قارات الأرض ابتداء من حرب الهند الصينية، وحرب كوريا، إلى الحرب الأهلية فى اليونان وحرب فلسطين، وجريت من مشاكل أفريقيا التى لم تكن قد تفجرت بعد إلى مشاكل البلقان التى كانت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية قد تفجرت فعلا، وطوفت من أمريكا وأوربا شرقا وغربا إلى المشاكل حيث تكون، ثم تخصصت فى الشرق الأوسط ابتداء من تأميم البترول فى إيران، إلى انقلابات سوريا، إلى حوادث الاغتيال التى اجتاحت المنطقة فى فترة القلق ما بين سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٢.. وذلك كله اتجاه إلى الحركة يختلف عن ثبات الأهرام..)

كانت عائلة تقلا المالكة للأهرام قد انتابها القلق لما وصل إليه الأهرام من هبوط وجمود، وكان واضحا أن رئيس التحرير الأستاذ أحمد الصاوى محمد قد تجاوزه الزمن، ولم تعد لديه قدرة على التجديد أو التطوير، وهو فى نفس الوقت اسم كبير وله تاريخ، ولكنه رجل كبير فى زمانه، وقد تغير الزمان، ولابد أن تتغير القيادة.. هكذا استقر رأى عائلة تقلا على أن محمد حسنين هيكل هو ألمع نجوم الصحافة فى الزمن الجديد، فأرسلوا إليه على الشمسى باشا يعرض عليه رئاسة تحرير الأهرام، على أن يضع شروطه.

يقول هيكل فى حوار مع مفيد فوزى:

(لم يكن سهلا علىّ اتخاذ قرار خروجى من أخبار اليوم، فأنا مؤمن بفكرة المؤسسة متجاوزا الأفراد، وكانت أخبار اليوم عندى مرتبطة بمصطفى وعلى أمين.. صحيح نشأت بيننا خلافات بسيطة، ربما حول أهمية أن يكون للمنشأة- ولو كانت مملوكة لأفراد- ميزانية محترمة وعرضها على مجلس الإدارة، ولكنى كنت أعرف طبائع الملكية الفردية لأصحاب مشروع، وعندما جاء على الشمسى واقترح علىّ فكرة الأهرام بدت الفكرة مغرية، لأنى وصلت فى أخبار اليوم لآخر ما يمكن الوصول إليه.. والأهرام بالنسبة لى يمثل التحدى، وفى أول عرض لهم عرضوا علىّ أن أكون واحدا من رؤساء التحرير.

وعندما ذهبت لمصطفى وعلى أمين أصارحهما بنيتى وقلت لهما: أنا رايح الأهرام، قام على أمين، وأغلق الغرفة التى نجلس فيها، (وهات يا عياط) ولم أخرج إلا بعد أن كتبت اعتذارا لبشارة تقلا، وظللنا سنة نعمل فى أخبار اليوم، وعندى أمل أن الأمور سوف تنضبط، وأن الوضع المؤسسى سوف ينضبط فى الدار، وأتصور أننى إذا كنت قد فعلت شيئا فى الأهرام فهو فكرة المؤسسة، لأنها باقية، وحية، حتى وأنا بعيد عنها.

وقامت بيننا خلافات- مصطفى وعلى أمين وأنا- حول المدارس الصحفية المختلفة. فأنا طول الوقت أعتقد أن القارئ المصرى جاد أكثر مما نتصور، والأخوان

أمين يتصوران شيئا آخر، وعلى رغم هذه الخلافات كنا نلتقى مرة كل أسبوع لتناول الغداء معا، حتى لا تكون القطيعة نهائية).

وفعلا حرص هيكل على أن تظل علاقته بأخبار اليوم ويمصطفى وعلى أمين حتى بعد انتقاله إلى الأهرام، حتى إنه جمع بين رئاسة تحرير الأهرام، ورئاسة تحرير آخر ساعة لفترة، ووافق مجلس إدارة الأهرام على ذلك. وهذه أول مرة فى التاريخ يجمع فيها شخص واحد بين رئاسة تحرير صحيفة ومجلة فى مؤسستين.

□□□

ويعد أن وقّع العقد مع الأهرام طلب موعدا مع الرئيس جمال عبد الناصر، وقابله فى اليوم التالى.

يقول هيكل: قلت له لقد وقّعت أمس عقدا مع الأهرام، فنظر إلىّ الرئيس بدهشة، ولكنه كان كريما فى فهمه كعادته، وقال: لن أسألك عن أسباب هذا القرار. لكن هل أنت واثق أنه ستتاح لك فرصة العمل؟.

وقصة دخوله الأهرام نشرها فى حياة الرئيس عبد الناصر وبالتحديد فى الأهرام يوم ١٠ يناير ١٩٦٩.

□□□

يقول فى نفس العدد إن الأهرام كان وضعه كما يلى:

كان توزيع الأهرام ٦٨ ألف نسخة يوميا.

كانت الخسائر قرابة المليون ونصف المليون جنيه.

كان متوسط العمر بين العاملين فى التحرير ٥١ عاما.

كانت مطبعة الأهرام فى بولاق يرجع عمرها إلى سنة ١٩٢٨- أى كان عمرها ٢٩ عاما، أى انتهى عمرها الافتراضى منذ زمن وأصبحت قيمتها الدفترية تساوى صفرا!
-وكان عنبر الحفر يحتوى على معدات صنعت فى فرنسا سنة ١٩٠٤ أى عمرها ٥٣ عاما-

وكانت مبانى الأهرام ما بين سراديب تحت الأرض، وجسور معلقة تصل ما بين مبنى ومبنى. لم يكن أى منهما قد أنشئ ليكون دار صحيفة، وكان أهمها، وهو مقر التحرير أصله فيلا خاصة سكنها القنصل الإيطالى فى القاهرة سنة ١٩٠٠، ثم استأجرها الأهرام منه فى تلك السنة عندما انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة.

ومعروف أن الأهرام بدأ نشأته فى الإسكندرية وأسسه سليم وبشارة تقلا فى ٢٧ ديسمبر ١٨٧٥، وصدر العدد الأول فى ٥ أغسطس ١٨٧٦.

كانت نظم العمل الداخلى فى الأهرام بعيدة عن التطور الحديث فى الصحافة العالمية، فكان العمل فى المطبعة يجرى على أساس نظام أدخل فى صحف هيرست بالولايات المتحدة سنة ١٩١٠ ثم عدل عنه إلى نظام أحدث منذ سنة ١٩٢٣، لكن الأهرام ظل يلتزم بالنظام القديم حتى تاريخ دخولى الأهرام سنة ١٩٥٧.

□□□

ولم يكن تعيين هيكل رئيسا لتحرير الأهرام خبرا يمكن أن يمر بسهولة، ولكنه كان قنبلة تجاوزت آثارها الوسط الصحفى إلى الأوساط السياسية، وإلى قراء الأهرام، وقراء الصحف الأخرى، وكانت ردود الفعل مختلفة اختلافا شديدا.. وظهرت حقيقة المشاعر بين زملاء المهنة فيما كتبوه، وإن كان هيكل قد ظل موضوعا للهمس والشائعات ولاحقه الحاسدون له والحاقدون عليه طول حياته. وقد اعتاد ذلك، واعتبره ضريبة النجاح، وطبيعة البشر!

كتب على أمين فى عموده اليومى بجريدة الأخبار يوم أول أغسطس وهو اليوم الذى بدأ فيه نشر اسم هيكل على الصفحة الأولى للأهرام رئيسا للتحرير. يقول:

احتضنته وهو لا يزال يحبو حافى القدمين على بلاط صاحبة الجلالة، رأيت فيه طفولتى وشبابى، ولم أحمله بين ذراعى، ولم أغرقه فى تدليل الآباء، لقد تركته دائما على قدميه، وكانت بينه وبين القمة مسافة طويلة جدا، ومع ذلك لم ييأس، ولم يتذمر، ولم يتطلع إلىّ يوما يطلب منى أن أحمله على كتفى بضع درجات كما يفعل كل الأولاد،

وكانت الصحافة تجرى فى دمه.. ولم يركبه الغرور.. ولما بلغ ٢٦ سنة قررت أن أسند إليه رئاسة تحرير آخر ساعة، وقامت الدنيا وقعدت، وأدى هذا القرار إلى خروج أربعة من المحررين الشبان من المجلة وانضمامهم للحزب الشيوعى احتجاجا على محسوبيتى الصارخة، ولكنى لم أضعه على الكرسى.. كانت كفاءته هى التى وضعته على الكرسى.

وكتب كامل الشناوى فى جريدة الجمهورية يوم ٦ أغسطس ١٩٥٧:

(لقد اشتغل هيكل بالصحافة مع أحمد الصاوى محمد ومعى فى دار أخبار اليوم منذ ثلاثة عشر عاما، وقاسى هيكل فى ذلك الحين أهوالا لا يقوى على مواجهتها إنسان.. كانت الدسائس والمؤامرات تأخذ بتلابيبه فى كل مكان.. وكان رؤساؤه يصدقون فيه كل وشاية.. وكان زملاؤه يحاربونه بكل سلاح.. وقد قاوم هذه الحرب بالعمل الدائم المستمر).

أما رئيس تحرير الأهرام أحمد الصاوى محمد الذى سلم الراية إلى هيكل فقد كتب يوم أول أغسطس ١٩٥٧ يوم بدء رئاسة هيكل للتحرير، فى عموده اليومى فى الأهرام الذى كان ينشر فى الصفحة الأولى: (إنه سيعتزل رياسة تحرير الأهرام، ويحقق حلمه الذى كان يحلم به منذ شبابه وهو أن يتفرغ لكتابة عموده اليومى (ماقل ودل) ويجد بذلك الفرصة ليعيش كما كان يتمنى، ويرسل عموده من أى مكان يذهب إليه، من القاهرة، أو الإسكندرية، أو أى ركن فى العالم.. وقال بعد ذلك: وسيتولى هذه الرئاسة صديقنا وزميلنا الأستاذ محمد حسنين هيكل، ليضطلع بمسئولياتها الكبيرة الخطيرة، ومنذ أربعة أشهر تحدثت عن هيكل باعتباره النجم الساطع فى سماء الصحافة المصرية، وهذا حق، وهو ما تجلى خلال زمالتنا بدار أخبار اليوم منذ بضعة عشر عاما)..

ولعل أصدق ما قيل هو ما قاله كامل الشناوى- وهو ممن أحبهم هيكل واعتبرهم من أهم الشخصيات الصحفية التى قابلها وكان قريبا منها، حين قال (إن هيكل قاسى الأهوال التى لا يقوى على مواجهتها إنسان.. وإن الدسائس والمؤامرات ظلت

تأخذ بتلابيبه فى كل مكان.. وزملاؤه يحاربونه بكل سلاح.. وقد قاوم هذه الحرب بالعمل الدائم المستمر).

هكذا كان قدر هيكل.. وهذه الكلمات تلخص حياته كلها منذ بدء اشتغاله بالصحافة وحتى يوم دخوله أخبار اليوم.. ويوم رئاسته لتحرير آخر ساعة.. ويوم خروجه من أخبار اليوم ورئاسته تحرير الأهرام.. بل يوم خروجه من الأهرام الذى كان أقرب إلى كسوف الشمس.. لكنها أشرقت من جديد أكثر تألقا..

وهذه قصة أخرى..

□□□

لماذا وافق هيكل على أن ينتقل إلى الأهرام؟ .

الأسباب الشخصية شرحها هو بنفسه.. كان قد وصل فى أخبار اليوم إلى نقطة النهاية.. وشخصيته بتكوينها القابلة للتحدى وجدت فى الأهرام الفرصة لإثبات ذاته ووضع بصمته على الأهرام.. وعلى الصحافة المصرية والعربية.. وعلى السياسة المصرية والعربية كذلك.. ويرتفع إلى أفق شاهق يقاسى فيه من الأهوال أكثر مما قاسى.. وتحيط به الدسائس والمؤامرات أكثر مما أحاطت به قبل ذلك.. ويعيش فى صقيع القمة وزوابعها وتياراتها الخطرة..

كان عام ١٩٥٧ يمثل مرحلة حساسة بالنسبة لمصر فى أعقاب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ فلقد قام الإعلام فيها بدور بارز جعل القيادة السياسية تركز على اختيار القيادات الإعلامية، خاصة مع بدء التحول فى السياسات.. فقد بدأ فى هذا العام تمصير بعض الشركات والبنوك الأجنبية، وبدأ إعداد أول برنامج متكامل للتصنيع تشهده مصر بعد عصر محمد على، وبدأ التفكير فى تطوير الاتحاد القومى، وهو التنظيم السياسى الذى كان قائما فى ذلك الوقت، ويضاف إلى هذه العوامل أهمية الأهرام بتاريخه العريق، وما وصل إليه من جمود جعله غير قادر على مواكبة هذه المرحلة بفكرها وتطلعاتها، ولم يكن لدى هيئة تحرير الأهرام القدرة على استيعاب طبيعة

المرحلة، والتجاوب معها، ولا القدرة على فهم حقيقة التغيرات السياسية التى تحدث.. لذلك كان تولى هيكل قيادة الأهرام ضروريا من وجهة النظر السياسية، لأنه هو الذى كان مؤهلا- بشبابه، وتفوقه الصحفى، وثقافته السياسية الواسعة، وفهمه للأبعاد الاستراتيجية فيما يجرى فى مصر والعالم.. وبصداقته الشخصية مع جمال عبد الناصر وبالثقة التى يوليها الرئيس له بغير حدود.. كل ذلك جعل هيكل هو الرجل المناسب لكى يتولى تطوير الأهرام، وقيادة دفته مع التيار السياسى الجديد.

ولذلك فلا أظن أن جمال عبد الناصر فوجئ عندما أبلغه هيكل بأنه سينتقل إلى الأهرام، والأقرب إلى منطق الأمور أن عبد الناصر كان وراء هذا النقل، فى نفس الوقت الذى كان فيه أصحاب الأهرام يريدون مسايرة العهد الجديد دون أن يعرفوا كيف يفعلون ذلك، ورأوا أن هيكل هو طوق النجاة.

وكان هذا تعبيرا عما قاله هيكل يوما: لقاء الرجل مع الظروف.. رجل جاهز ومستعد.. وظروف مواتية ومهيأة..

وهذا هو الحظ..

لكن من يصادفه الحظ يواجه دائما المتاعب من بعض الناس.

وهذا ما حدث.

□□□

ماذا فعل هيكل فى الأهرام؟ .

تاريخ هيكل فى الأهرام طويل.. امتد لأكثر من ١٧ عاما.. بدأ فى ٣١ يوليو ١٩٥٧ حتى أول فبراير ١٩٧٤.. كتب خلالها مقاله الأسبوعى (بصراحة) بانتظام فكان أول مايقرؤه السياسيون وعامة القراء فى مصر والعالم العربى عندما يفتحون عيونهم صباح كل يوم جمعة.. ويسمعه المستمعون فى أنحاء العالم العربى من الإذاعة المصرية.. وقام بتطوير التحقيقات الصحفية، ولأول مرة أصبحت فى الأهرام صفحة كاملة متميزة

للتحقيقات تفوقت فيها مجموعة كبيرة من أفضل شباب الصحفيين الذين عيّنهم هيكل، واختار صلاح هلال الذى عمل معه مديرا لتحرير آخر ساعة ليكون رئيسا لقسم التحقيقات.. وصلاح هلال أستاذ كبير. وصاحب رؤية سياسية وصحفية نادرة.. وله قلم غاية فى الرشاقة والقدرة على التعبير والتأثير بكلمات قليلة.

وقام أيضا بتطوير قسم الأخبار واختار لرئاسته ممدوح طه، وهو شخصية نادرة، باتصالاته وعلاقاته الواسعة مع الوزراء وكبار المسئولين، وبحساسيته العجيبة للخبر، ومقدرته على التقاطه من كلمة ينطق بها المصدر، أو كلمة فى خبر يكتبها محرر ناشئ..

وقام بتطوير الإخراج الصحفى واختار توفيق بحرى ليرأس قسم الإخراج فأعاد تصميم الصفحات من الشكل التقليدى القديم إلى شكل عصرى جعل الأهرام يتحول فعلا إلى صحيفة عالمية..

وأنشأ أرشيف الأهرام.. وهذه قصة طويلة.. لأن هيكل أول من اهتم اهتماماً بالغا بالأرشيف.. واختار له أكفأ العناصر. وكان يستعين به للحصول على المعلومات، وخلفية الأخبار والأحداث، ولم يكن يكتب مقاله إلا بعد أن يطلب معلومات كاملة عن الموضوع، وعلّم محررى الأهرام قيمة الأرشيف على أنه ذاكرة الصحيفة والصحفى، وإهماله يؤدى بالاثنين إلى فقدان الذاكرة، ولم يكن اهتمامه بأرشيف المعلومات فقط، ولكن امتد إلى أرشيف الصور، وإلى قسم التصوير واختار من أخبار اليوم محمد يوسف ليكون كبير مصورى الأهرام وأمده بأحدث أجهزة وآلات التصوير والتحميض..

ولأول مرة فى تاريخ مصر ينشأ مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية فى صحيفة.. كان ذلك فى الأهرام، وبدأ التركيز على دراسات حول الصراع العربى الإسرائيلى، واختار لرئاسته حاتم صادق ، زوج هدى عبد الناصر، وقد اقتربت من حاتم صادق لفترة ولمست فيه تواضعا وجدية وتفرغا للعمل مما كان مثار دهشتى لأنى لم أكن أتوقع أن يكون زوج ابنة الرئيس بمثل هذه البساطة وتعامله مع الناس لا يختلف عن

تعامل غيره من المحررين.. بحيث نسى الجميع أنه زوج بنت الرئيس وكانوا ينادونه: حاتم، ويبدون له ملاحظاتهم وانتقاداتهم ويتقبلها ويناقشهم دون حساسية.

ثم إن هيكل هو الذى بنى مبنى الأهرام فى شارع الجلاء وهو أول مبنى لصحيفة فى العالم العربى.. وقبل أن يشرع فى البناء اختار للإشراف عليه رجل نادر هو سيد ياسين (وهو غير سيد ياسين مستشار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية)، وأرسله إلى أمريكا ليشاهد مبنى صحيفة واشنطن بوست ثم أرسله إلى اليابان ليشاهد أحدث مبنى صحيفة فى العالم هو مبنى صحيفة اساهى التى توزع عشرين مليون نسخة يوميا، واستعان بأكفأ المهندسين، وفى النهاية أنشأ هذا المبنى الذى لا يستطيع أحد أن ينتقد فيه شيئا، ولا يستطيع أحد أن يضيف إليه شيئا، لأنه كامل.. ولأول مرة ينشئ كافتيريا خمسة نجوم فى الدور العاشر يتناول فيها العاملون فى الأهرام الغداء بقروش زهيدة، وكان يقال إن هيكل فعل ذلك لإغراء الجميع على البقاء فى المبنى طول اليوم دون أن يفرض عليهم ذلك، وهذا ما كان يحدث فعلا..

ولأول مرة يكون فى مصر مبنى صحيفة من عشرة أدوار وكله مكيف تكييفا مركزيا.. وفيه قاعات للمكتبة.. والأرشيف.. والاجتماعات.. وصالة تحرير تنافس حتى اليوم أحدث صالات التحرير فى أكبر الصحف العالمية.. والسعاة يرتدون زيا موحدا.. ورجال الأمن لهم زى موحد.. وتليفونات صالة التحرير بدون أجراس ولكن تضاء فيها لمبات صغيرة بدلا من الجرس لتوفير جو الهدوء فى الصالة.. ولذلك كنت لا تسمع صوتا فى الصالة.. والحديث يدور فيها همسا.. على رغم وجود أكثر من مائة صحفى فيها.. والجميع يعملون فى الصالة.. كل قسم فى ركن مع رئيس القسم.. الكبار والصغار.. والاتصالات سهلة.. تستطيع أن تسأل وتستكمل الخبر أو الموضوع فورا.. كان نجيب المستكاوى رئيس القسم الرياضى يجلس مع صغار المحررين فيتعلمون منه.. وممدوح طه يجلس مع عشرات من محررى قسم الأخبار وقسم مراجعة وصياغة الأخبار المحلية- وهو القسم الذى بدأت عملى فى الأهرام فيه- فيتعلمون من احتكاكهم به طول الوقت..

وصلاح هلال رئيس قسم التحقيقات فى ركن.. وهكذا يجلس الجميع معا.. فيشعرون بجو الأسرة.. ويعيشون فى جو العمل كأنهم فى ورشة.

□□□

وهيكل هو الذى حوّل الأهرام من صحيفة يملكها أصحابها ويتصرفون فيها تصرف المالك فيما يملك، إلى مؤسسة لها نظم، وقواعد، وتقاليد، ولائحة، وقيادات، ورئيس مجلس الإدارة يضع السياسات ويتابع تنفيذها، ومعه قيادات غاية فى الكفاءة والأمانة والإخلاص.. لذلك حملوا عنه الكثير من أعباء الإدارة.. لكن الجميع يشهدون أن مقدرة هيكل فى الإدارة لا تقل عن مقدرته فى الصحافة، وهذا هو سر النجاح الذى وصل به إلى القمة.

وهيكل لديه قدرة عجيبة على التقاط أصحاب الكفاءات والمواهب فى الصحافة والإدارة، ولذلك أحاط نفسه بمجموعة نادرة من الصحفيين الموهوبين كل منهم يصلح أن يكون رئيسا للتحرير، واختار مجموعة من الشبان أصبحوا بعد ذلك نجوم الصحافة..

وهذه أيضا قصة طويلة..

□□□

عندما بدأ هيكل عمله فى الأهرام أدرك أنه إذا قام بعمل تغيير مفاجئ وشامل فى شكل الجريدة، فإن ذلك سيحدث هزة لدى القراء ولدى العاملين فيها، ولذلك بدأ التغيير بطيئا.. وتدريجيا.. لكن استراتيجية واتجاه التغيير وأهدافه كانت واضحة، ويحكى هيكل عن أيامه الأولى فى الأهرام فيقول:

كان مدير تحرير الأهرام وقتها هو الأستاذ نجيب كنعان، وجاء يسألنى:

- كيف تريد الأهرام غدا؟ .

وقلت له:

- كما كان الأهرام أمس.. إن أحدا لا يستطيع أن يغير فى الأهرام بهذه البساطة.

وكانت بداية التغيير بالانتقال التدريجى بالأهرام من صحيفة تعتمد أساسا على مقالات الرأى لتصبح صحيفة خبر ورأى.. ويقول فى ذلك:

كان الطابع الذى اخترناه جميعا للأهرام هو الطابع الإخبارى، وأن يكون الأهرام سبّاقا بكل خبر، وأن يكون كل خبر فى الأهرام صادقا إلى أبعد حد، وأن يكون عرض الخبر فى الأهرام عن طريق التحقيق الذى يعطى للخبر كل أبعاده، وليس عن طريق (التزويق) الذى يغطى ملامح الحقيقة فى الخبر.

وعن هذا التحول كتب ادوارد شيهان فى صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية مقالا قال فيه: إن الأهرام أصبحت بفضل هيكل أفضل مصدر للأخبار السياسية فى العالم العربى، وساعدته صداقته للرئيس جمال عبد الناصر على تحقيق هذا الهدف، وقد نشرت صحيفة الأنوار اللبنانية مقال إدوارد شيهان فى عددها يوم ٢٥ أغسطس ١٩٧١.

□□□

والدكتور إبراهيم عبده شيخ أساتذة الصحافة له كتاب شامل لتاريخ الأهرام، أعده بناء على تكليف هيكل، لأنه رأى أن من لا تاريخ له لا مستقبل له، ومن لا يستفيد من تاريخه لايستطيع بناء مستقبله، وأراد أن يجمع تاريخ الأهرام فى كتاب يشرف عليه أستاذ أكاديمى محايد وموضوعى وبمنهج علمى. فجاء هذا الكتاب بعنوان (الأهرام- سجل العرب) وفيه إشارة إلى التطور الذى أدخله هيكل فى الخبر الصحفى فيقول: (إن الأخبار عرضت على القارئ على نحو فريد لم تعرفه جريدتنا من قبل، وهذا النحو الفريد هو سبق الصحف الأخرى فى نشر الأخبار المهمة، واستكمال الخبر من كل جوانبه.. وأدخل هيكل مقدمة الخبر Lead وهو أسلوب تتبعه الصحافة الأوربية والأمريكية.. وأدخلته أخبار اليوم فى الصحافة العربية، وكثيرا ما تكون هذه المقدمة فى الأهرام توجيهية تعد القارئ لقراءة التفاصيل الكاملة بالصورة التى تريدها الجريدة بالنسبة للأخبار المهمة.

هيكل هو الذى جعل الصفحة الأولى للأخبار، وكان مكانها دائما فى صفحتين فى الداخل فى وسط الصحيفة.. وهو الذى جعل أهمية الخبر ظاهرة للقارئ فى اختيار العنوان، ومكانه فى الصفحة، وإبرازه بحروف سوداء أو بحروف عادية بحسب قيمته.

وهو الذى اهتم بالرأى، ومقالات الرأى فى الأهرام فى عهده اختلفت.. كانت المقالات قبله مجرد آراء لا تستند إلى خبر ولا تقدم خلفيات للخبر ولا تحليلا لهذا الخبر. ولا تضع مقدمات تستنتج منها النتائج.. وكانت عبارة عن انطباعات عامة مرسلة. الجديد الذى أدخله هيكل أن يكون المقال تحليلا للأحداث، ولا يكتب المقال إلا كبار الكتاب، ولذلك اجتذب أقدر الأقلام والمتخصصين فى كل مجال من المجالات السياسية والاقتصادية، واختار للإشراف على صفحة الرأى لطفى الخولى ثم محمد سيد أحمد وبدأ الأهرام يتميز بالعمق والإحاطة والتخصص، وكانت صفحة الرأى من أهم صفحات الأهرام بالإضافة إلى كتابات كبار الكتاب والفنانين.

ولأول مرة أصبح الوزراء الحاليون والسابقون يكتبون مقالات للرأى فى الأهرام..

□□□

ويذكر لهيكل أنه بدأ بتعيين عناصر شابة لتطعيم الأهرام بدماء جديدة، يستطيع من خلالها تحقيق خطته للتطوير. وفى سنة ١٩٥٨ دخل الأهرام خمسون شابا وشابة من خريجى قسم صحافة بكلية الآداب ومن الكليات الأخرى، وبدءوا عهدهم بحضور دورات تدريبية، وبعضهم أرسل للتدريب فى الصحف البريطانية، مما لم يحدث قبل أو بعد هيكل.

وفى هامش صفحة ٤٠٥ من كتابه (بين الصحافة والسياسة) يقول هيكل:

لقد كنت أنا- أقولها بكل تواضع ويفخر- الذى تعاقد للأهرام مع صفوة من أقلام مصر، وأحسن صحفييها (الأسماء كلها بترتيب الحروف الأبجدية).

من الأدباء والفنانين: الأستاذ توفيق الحكيم، والدكتور حسين فوزى، والدكتور زكى نجيب محمود، والأستاذ صلاح جاهين، والأستاذ صلاح طاهر، والدكتورة عائشة عبد الرحمن (كتبت فى الأهرام من قبل ولكنها انقطعت سنوات حتى دعوتها للعودة) الدكتور كلوفيس مقصود، الأستاذ كمال الملاخ، الدكتور لويس عوض، الأستاذ محمد يوسف (ومعه مساعداه اميل كرم وأنطون ألبير) الأستاذ محمود درويش، الأستاذ محيى الدين حسين، الأستاذ معين بسيسو، الأستاذ نجيب محفوظ، الدكتور يوسف إدريس، الأستاذ يوسف فرنسيس.

ومن الصحفيين والكتاب: الأستاذ أحمد بهاء الدين، الأستاذ أحمد بهجت، الدكتور جمال العطيفى، الدكتور حسين مؤنس، الأستاذ خالد محمد خالد، الدكتور سامى منصور، الأستاذ صلاح الدين حافظ، الأستاذ على حمدى الجمال، الدكتور عبد الوهاب المسيرى، الأستاذ لطفى الخولى، الدكتور لطفى عبد العظيم، الأستاذ محمد سيد أحمد، الأستاذ مكرم محمد أحمد.

وفى المراكز المتخصصة فى الأهرام لمعت- بصرف النظر عن البريق السياسى- أسماء: عبد المنعم القيسونى (عضوا فى مجلس الإدارة ومحررا اقتصاديا للأهرام) والدكتور مصطفى خليل مشرفا على وحدة دراسات البترول فى مركز الدراسات الاستراتيجية) والدكتور إبراهيم سعد الدين، والأستاذ أبو سيف يوسف، والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله، والدكتور عبد الرازق حسن، والدكتور فؤاد مرسى (فى مجال الكتابة الاقتصادية)

والدكتور بطرس غالى، والدكتور عبد الملك عودة، (فى مجال الدراسات السياسية والاقتصادية).

وفى مجال الكتابة عن التاريخ السياسى برزت على صفحات الأهرام (وبصرف النظر عن المناصب السياسية أو العلمية) أسماء: حسن يوسف (باشا) والدكتور محمد أنيس، والدكتور يونان لبيب رزق، ثم اللواء حسن البدرى (محررا عسكريا للأهرام) والدكتور محمود أمين (محررا لشئون البترول).

وفى هذا الإطار برز جيل واعد من الكتاب السياسيين: الأستاذ جميل مطر، الأستاذ حاتم صادق، الدكتور سعد الدين إبراهيم، الأستاذ سميح صادق، الأستاذ سيد يسين، الدكتور على الدين هلال، الدكتور مجدى حماد.

ومن جيل الصحفيين الذين حملوا ويحملون أكبر المسئوليات فى الصحافة المصرية الأساتذة: إبراهيم عمر، إبراهيم نافع، أحمد عادل، أحمد نافع، إحسان بكر، آدم النواوى، إسماعيل البقرى، آمال بكير، أمينة شفيق، إنجى رشدى، بهيرة مختار، تهانى حافظ، جلال الجويلى، حامد عبد العزيز، حسن أبو العينين، حسن الشرقاوى، حسن سلومة، حسن فؤاد، حسنى جندى، حسين غانم، حمدى فؤاد، حميدة موافى، خيرى عزيز، رائد العطار، رجب البنا، رجب محمود، زغلول عبد المطلب، زكريا نيل، سامى رياض، سامى فريد، سامى متولى، سعيد عبد الغنى، سعيد فريد، سلامة أحمد سلامة، سليم مباشر، سمير صبحى، سميرة غبريال، سناء البيسى، السيد جاد، شويكار على، صلاح جلال، صلاح منتصر، صلاح هلال، صبرى سويلم، عباس مبروك، عبد الحميد سرايا، عبد الملك خليل، عبد المنعم عثمان، عبد الوهاب مطاوع، عبده مباشر، عدلى جلال، عزت السعدنى، غادة شهبندر، فائقة عبده، فاروق جويدة، فاروق كمال، فتحى العشرى، فريد مجدى، فهمى هويدى، فؤاد سعد، كمال مصطفى، لبيب السباعى، ليس الطحاوى، ليليان مرقص، ليلى القبانى، ماجدة مهنا، ماهر الدهبى، محمد الليثى، محمد حقى، محمد حمدى، محمد زايد، محمد سلماوى، محمد صالح، محمد عبد المنعم، محمد عيسى، محمود أحمد، محمود سامى، محمود عطا الله، محمود عبد العزيز حسين، محمود عبد العزيز محمود، محمود كامل، محمود مراد، مرسى عطا الله، مصطفى البرادعى، مصطفى الضمرانى، مصطفى سامى، مكرم حنين، ممدوح طه، نادية عبد الحميد، نبيه الأصفهانى، نوال المحلاوى، نوال حسن، هدايت عبد النبى، وجدى رياض، يوسف صباغ.

وغير هؤلاء جميعا عشرات، وعشرات..

□□□

أليس من حق هيكل أن ينشر سجل المجد هذا؟. ومن حقه أن يشعر بالفخر لأنه قدم للصحافة المصرية صحفيين حقيقيين موهوبين أثبتوا أنه يحسن الاختيار بموضوعية ودون اعتبار للمجاملات أو الاعتبارات الشخصية أو الاجتماعية، ومن حقه أيضا أن يقول: إنه يذكر تلاميذه ولا ينساهم وهذه ميزة نادرة لا تجدها إلا في هيكل، فإن علاقته الإنسانية بتلاميذه مستمرة ولا يبخل عليهم بوقته ونصائحه كلما طلبوا منه ذلك، ويسعد كلما رآهم يكبرون وتلمع أسماؤهم، ولا يفوتنا أن نلاحظ كيف أن هيكل حريص على التسجيل، وأيضا حريص على أن يقدم الدليل على كل ما يقول، فلا يستطيع أحد أن يجادله في صدق ما يقول.

ولحرصه على ذلك ألزم نفسه بقاعدة صارمة لم يخرج عليها أبدا، وهي ألا يذكر كلمة على لسان شخص مات إلا إذا كان ما يذكره موثقا بدليل مكتوب، أو بشاهد عدل ما زال على قيد الحياة، وهذا شيء نادر في زمن نرى فيه كل يوم الذين يتسابقون في ذكر وقائع وأحاديث مع شخصيات كبيرة بعد موتها ودون أن يذكروا في حياتهم كلمة منها، أو حتى يشيروا إلى أن لهم صلة بها..

□□□

هيكل يؤمن بتعدد الآراء ويترك كل موهبة لتنمو دون أن يفرض عليها اتجاها معينا، ولذلك يقول: لم أفرض على أحد منهم رأيي، ولا حاولت أن أصوغ الشباب بينهم على مثالي، إنما تركت الكل يعبّر عن نفسه، والكل ينمو وفق استعداده، بل إن بعضهم- تحت ضغط الظروف- وربما غواياتها- اضطر في بعض الأحيان إلى أن يهاجمني، وعلى صفحات الأهرام نفسها، ولأني كنت أحاول أن أفهم، فقد استطعت أن أعذر، ومعاتبا- وليس مغاضبا- رحت أردد فيما بيني وبين نفسي في تلك الأيام بيتين من الشعر القديم يقول فيهما البدوي العاشق:

هنيئــا مريئــا غــير داء مخــامر لعــزة مــن أعراضنــا مــا اســتحلت
هنيئــا مريئــا غــير داء مخــامر ها هوانى.. ولكن للمليـك استذلت

ويقول بعد ذلك:

ولقد كـان رأيـى أن الصحافـة الحديثـة ليسـت كّتابـا وصحفيـين ومخـبرين فقـط، ولكنها مجالات كثيرة.. ثم يشير إلى بعض ما فعله فى الأهرام، مثل إنشاء مراكز الأهرام المتخصصة، ولأول مرة تشهد مصر مركزاً للدراسات السياسية والاستراتيجية، ومراكزا مستقلا لمتابعة قضية فلسطين والصراع العربى الإسرائيلى، ومركزا لتوثيق تـاريخ مصر المعاصر، ومركزا للدراسات الصحفية. كان مصنعا لإعداد شباب المهنة الجديد.

يشير أيضا إلى المدرسة الجديدة فى إدارة الصحف التى ازدهـرت فـى عـهده فـى الأهرام، كما يشير إلى آلاف من عمـال الأهـرام أصبحـوا يمثـلون فـى عـهده شيئا مختلفـا فى طاقة العمل المصرية، كـان عددهم أقل مـن ثلاثمائـة حـين دخل الأهـرام وأصبحـوا قرابة ستة آلاف حين تركه، كثير منهم أتيحت لهم فرصة التدريب خارج مصر، بل إن بعضهم أضـاف فـى انجلترا نفسـها تحسـينات- تكـاد تصل إلى درجـة الاختـراع- علـى بعض الآلات التى ذهبوا يتدربون عليها.

وفى عهد هيكل كان الأهرام يسبق إلى عصر الكمبيوتر، والذين عملوا فى الأهرام أو تخرجوا فيه هم الذين تولوا زمام القيادة فى هذا القطاع على مستوى مصر كلها.

وفى عهد هيكل اختار معهد الصحافة الدولية الأهرام ضمن أعظم عشر صحف فى العالم.

□□□

من أهم صفات هيكل أنه لا يعتمد على الذاكرة، ويعيب على كثيرين أنهم يغطون مساحات الفراغ فيها بما ينسجه الخيال أو التمنى، ولأنه يدرك أن ذاكرة البشر ضعيفة أمام الأيام، وأمام الأهواء، فقد ظل طول عمره يسجل، ويكتب، ويحتفظ بكل ورقة يشعر أن ملف التـاريخ الذى عاشه قـد يحتـاج إليـها فـى يـوم مـن الأيـام، وسـاعده علـى ذلك

مجموعة من المعاونين ربما يكون أكثرهم دقة وحرصا نوال المحلاوى ثم منير عساف وكلاهما كان أمينا على كل ورقة وكل معلومة وكل سر من أسرار الأستاذ، ودقيقا بشكل مذهل فى الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة، والحقيقة كان هناك كثيرون حول هيكل أحبوه، وأخلصوا له وساعدوه على صنع مجده، وكان وراء هذا النجاح سيدة وقفت دائما إلى جانبه، هى زوجته، السيدة هدايت تيمور.

وهيكل يعتمد دائما على المعلومة الموثقة، ويحرص على تقديم الدليل على صحتها، ولذلك تمتلئ كتبه بالوثائق وكأنه يقدم حافظة مستندات إلى المحكمة، وتفسير ذلك نجده فى فقرة اقتبسها من آرثر سالزبورجر مؤسس جريدة نيويورك تايمز ووضعها فى صدر كتابه (بين الصحافة والسياسة) تقول: إن رأى أى إنسان فى أية قضية لا يمكن أن يكون أفضل من نوع المعلومات التى تقدم إليه فى شأنها، اعط أى إنسان معلومات صحيحة ثم اتركه وشأنه سيظل معرضا للخطأ فى رأيه ربما لبعض الوقت، ولكن فرصة الصواب سوف تظل فى يده إلى الأبد.. احجب المعلومات الصحيحة عن أى إنسان أوقدمها إليه مشوهة أو ناقصة، أو محشوة بالدعاية والزيف .. إذن فقد دمرت كل جهاز تفكيره ونزلت به إلى ما دون مستوى الإنسان.

هذه العبارة تلخص منهج هيكل الذى رأى أن الكلام زاد حتى فقد مصداقيته وابتذل الحرف، وامتهنت حرمة الكلمة، ولم يعد هناك من هو مستعد أن يسمع من غيره قولا مرسلا على عواهنه بغير دليل مهما كان القائل، وأيا كان موقعه، وقد ظهر أن الكبار يكذبون، وأن الكذب أصبح الصناعة الثقيلة الوحيدة فى عصر الانفتاح الاستهلاكى!

□□□

بدأت أول خطوة للتغيير فى تبويب الأهرام بعد أسبوعين فقط من تولى هيكل رئاسة تحريره.. لم يكتب اسمه كرئيس مجلس إدارة، ولكن اكتفى بوضع اسمه كرئيس تحرير. وكان رأيه أن منصب رئيس مجلس الإدارة قرار سياسى، أما دوره كرئيس

تحرير فهو الدور المهنى الدائم، وكتابة اسم رئيس تحرير أية جريدة أو مجلة التزام بالقانون لأنه إعلان عن المسئول قانونا عما ينشر فيها.

وتوالى التغيير والتطوير بعد ذلك خطوة خطوة.. وظهر اهتمام واضح بالسياسة الدولية فى الأهرام وخصصت لها الصفحة الثانية بأكملها، وظهر باب (بريد) فى أول سبتمبر فى الصفحة الرابعة، وزاد الاهتمام بنشر الصور ابتداء من أول أكتوبر، وبخاصة فى الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة، مع اهتمام ملحوظ بالموضوعات والتحقيقات والتقارير الصحفية الميدانية، وظهرت أسماء جديدة، وتغيرت طريقة كتابة عناوين موضوعات الصفحة الأولى. فأصبح للموضوع أكثر من عنوان وكل عنوان محدد ومركز يلخص أهم محاور الموضوع، وعلى سبيل المثال فى عدد ٩ سبتمبر ١٩٥٧ نُشِر على الصفحة الأولى موضوع إخبارى له تسعة سطور للعناوين وكانت هذه بدايات التغيير، وبعده جاء التغيير الشامل على مراحل.

بعد صدور قانون تنظيم الصحافة سنة ١٩٦٠ والذى نقل ملكية المؤسسات الصحفية من أصحابها إلى ملكية الاتحاد القومى ظل الأهرام يتطور إلى أن حدد هيكل فلسفته فى التغيير فى عدد ١٠ يناير ١٩٦٩ فى النقاط الآتية:

١ - التمسك بحرية الصحافة، واضعا فى الاعتبار ظروف التحول السياسى والاجتماعى.

٢ - التصرف على أساس ملكية الجماهير للصحيفة، وليس ملكية مجموعة من الأفراد يجلسون فى مبنى الاتحاد القومى.

٣ - الاحتفاظ بالحق فى الانطلاق.

٤ - توفير السلامة المالية والاقتصادية للأهرام على أنها أساس حريته وانطلاقه.

٥ - المضى فى تنفيذ مشروع مبنى الأهرام بشارع الجلاء والانتقال إليه من المبنى الصغير الذى يشغله فى شارع الشريفين والذى لم يعد يتسع لطموحات الأهرام ودوره.

٦ - الاحتفاظ باسم أسرة تقلا على رأس الأهرام الذى ظل ينشر يوميا منذعام ١٨٧٦ اعترافا باتصال حركة التطور.

وفى صباح الاثنين ٦ يناير ١٩٦٤ صدر الأهرام وقد تغيرت كل عناصره تغييرا شاملا بعد ٧ سنوات من بدء عمله كرئيس للتحرير. وعلى الصفحة الأولى جاء تحت عنوان (كلمة من الأهرام) تنبيه للقارئ لهذا التغيير وتفسير له وفيها: أنه فى مطلع السنة التسعين من عمر الأهرام سوف يلحظ القارئ هذا الصباح أن ثمة تغييرا لمس بعض صفحاته.

وظهرت على صفحات الأهرام مقالات تعبر عن آراء جميع الاتجاهات السياسية فى مصر. وكتبت صحيفة النهار اللبنانية عن ذلك فى عددها يوم ٣ أبريل ١٩٧٠ تقول: إن الأهرام فى عهد هيكل يضم أصحاب الاتجاه الذى يرى أن مصر فرعونية، وأصحاب الاتجاه الذى يرى أن مصر عربية، وأصحاب الاتجاهات اليسارية على أنواعها، وبذلك خلق نوعا من الوحدة الوطنية على صعيد الكتابة.

وكان ذلك تصديقا لقوله بأنه لم يفرض رأيه على أحد من كتاب الأهرام، وإنما ترك الكل يعبر عن نفسه وينمو وفق استعداده، وأرسى بذلك قاعدة لم تكن فى أية صحيفة أخرى.. حيث كانت كل صحيفة لا تقدم سوى اتجاهٍ أو موقف واحد، ولا تسمح بنشر ما يختلف عنه.. كانت لكل صحيفة معزوفة واحدة يرددها جميع الكتاب والصحفيين فيها، ولكن الأهرام كان يعمل بفلسفة (دع مائة زهرة تتفتح).

□□□

اهتم هيكل اهتماما كبيرا بالمجلات المتخصصة التى تصدر عن الأهرام والتى لاتستهدف الربح، ولكن تستهدف القيام بدور فى التنوير وتقديم المعلومات الصحيحة والتحليلات العلمية للتطورات المحلية والدولية فى مختلف المجالات، فأصدر مجلة الطليعة ورئيس تحريرها لطفى الخولى لتعبر عن تيار اليسار فى مصر، ومجلة الأهرام الاقتصادى ورئيس تحريرها الدكتور بطرس غالى وكان وقتها أستاذا للعلاقات الدولية

ثم عميدا لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، بالإضافة إلى عمله فى الأهرام ومجلة السياسة الدولية ورئيس تحريرها الدكتور بطرس غالى أيضا.

واهتم بالفن التشكيلى، فكان الأهرام فى عهده أول مؤسسة صحفية تشترى مقتنيات فنية من رسوم وأعمال كبار الفنانين مثل سيف وأدهم وانلى، وصلاح طاهر، وغيرها كثيرا وأنفق على ذلك مليون جنيه، هى الآن ثروة فنية وتاريخية لا تقل قيمتها عن مائة مليون جنيه.

□□□

قصة هيكل فى الأهرام قصة طويلة.. أثارت اهتمام المشتغلين والدارسين فى الصحافة والسياسة، وأعدت عنه ١٧ رسالة ماجستير ودكتوراه فى جامعات هارفارد بالولايات المتحدة والسوربون فى باريس، وأكسفورد وكامبردج فى بريطانيا، والجامعات المصرية.. وزاد عدد الكتب التى صدرت عنه فى مختلف اللغات على ٨٠ كتابا.

ومازالت حكاياته فى الأهرام طويلة..

أما كتبه فهى موضوع يطول شرحه.

صاحب فكر أو طالب سلطة؟

قضى محمد حسنين هيكل أكثر من ١٧ عاماً فى الأهرام من ٣١ يوليو ١٩٥٧ حتى أول فبراير ١٩٧٤، وخلال هذه السنوات ينطبق على هيكل ما قاله أستاذ الصحافة الأمريكى روبرت براون فى كتاب له عن (فن الصحافة) : حين تفحص أية صحيفة ناجحة ستجد أنها (ظل رجل واحد).. رجل له مبادئه، وكرامته، وأمانته، وشجاعته، وستجد أنه قام ببناء مؤسسته الصحفية على شاكلته، وأحاط نفسه برجال من طراز رفيع، لهم صفات تحاكى صفاته.

هذا بالضبط ما يقال عن هيكل، فهو الذى جعل مؤسسة الأهرام إطلالة على القرن الحادى والعشرين.

ومع ذلك لم يسلم من الغمز واللمز، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه جليل البندارى فى آخر ساعة يوم ٥ ديسمبر ١٩٦٢ عن ذكرياته وما جال بخاطر زملاء هيكل عندما ترك أخبار اليوم وأصبح رئيس تحرير الأهرام فقال:

تساءلنا جميعاً فى دهشة.. كيف يترك هيكل داره المتحركة مثله ليتولى رئاسة تحرير الأهرام المحافظة، الثابتة، الجامدة، جمود أهرام الجيزة، وكيف يمكن أن يتجاوب أو يتفاهم مع المحررين والصحفيين ذوى الطرابيش الحمراء الطويلة الثابتة على الجباه، والياقات البيضاء المنشاة، والقفازات، والبابيونات؟..

ولم يكن جليل البندارى وحده الذى قال مثل هذا الكلام.

ولكن هيكل نجح في أن يجعل الأهرام شابة مليئة بالحيوية، وجعلها مؤسسة قائمة على نظام دقيق للعمل في كل المجالات، واستعان بقيادات إدارية لديها الكفاءة والقدرة على المبادرة، والوعي الذي يجعلها تحقق النجاح الكبير الذي تحقق، وبكفاءات صحفية أثبتت مقدرتها في صحف أخرى، وعيّن عشرات المحررين الشبان الأكفاء، ونجح في أن يجعل الجميع أوركسترا يعزف معه على نوتة واحدة دون أن يشذ أحد.. وكان هو المايسترو الذي وضع النوتة، ويقود الأوركسترا بكفاءة نادرة ومقدرة على القيادة تثير الإعجاب.

وقد عبّر هو عن هذا الدور في ندوة في مجلة أكتوبر في يناير ٢٠٠١ فقال: (كان دوري أنني حاولت أن أجعل من الأهرام مرآة لعصره وزمانه وعالمه، وملتقى لأفكار كثيرة مهما كانت متعارضة.. كان هدفي أن أخلق مناخاً.. كنت أفكر فيما يحدث في الخارج، فإن ما يميز صحيفة عن صحيفة هو الروح.. الفارق بين التايمز والديلي تلجراف في الصحف البريطانية، أو الفارق بين واشنطن بوست ونيويورك تايمز في الصحف الأمريكية هو (الروح)، وعندما تسأل عن مهمة رئيس التحرير، فهو المايسترو، الذي يضبط الإيقاع، ويترجم الحياة، والأخبار، والحوادث، بتصوره وكيفية تفسيره..

مهمة رئيس التحرير -كما قال- أن يكون المايسترو، وليس بالضرورة أن يكون عازفا على آلة.. خذ مثلاً مؤلفي الموسيقى الكبار من أمثال بيتهوفن، وهايدن، وشوبان وغيرهم، كل مايسترو يقود فرقته لعزف مقطوعات لهم يختلف عن الآخر في رؤيته للعمل.. مايسترو يختلف عن مايسترو. وبالتالي النص واحد، واللحن واحد، لكن الروح التي يعكسها المايسترو على اللحن تعطيه مذاقاً مختلفاً.. ولذلك أقول: إن الفرق بين عصرين في نفس الجريدة الواحدة، والفرق بين جريدتين في عصر واحد، هو شخصية رئيس التحرير، وطريقته في العمل التي تنعكس على الجريدة كلها، وفهمه للعصر، وللأحداث، والروح التي يعكسها على الجريدة.. أما أنا فقد كنت في الأهرام مشغولاً بترجمة عصري، وعالمي، وما يجري فيهما وأتوجه إلى قارئ مهتم بمعرفة ما يجري في

العالم.. وأنا أعتقد أن الخبر هو الأساس فى عمل الصحف فى العصر الحديث، لأن الصحافة فى بدايتها كانت تشمل الأدب والفلسفة والآن أصبحت مهمة الصحافة الأولى هى الخبر وما يتصل بالخبر. ترجمة الخبر وإيضاح معناه، بشرط أن يكون الخبر صحيحاً، وأن يترجم بتفاصيله وحواشيه وما ينطوى عليه، ثم على الصحيفة أن تقوم بمهمة التفسير والتعليق على الخبر. وهذا ما كنت أفعله فى الأهرام.

□□□

وقد لا يعرف البعض أن هيكل فى وقت من الأوقات كان رئيساً للأهرام وأخبار اليوم ودار المعارف معاً، وكان ذلك بقرار من الرئيس جمال عبد الناصر بصفته رئيساً للاتحاد الاشتراكى المالك للمؤسسات الصحفية، والهدف واضح.. كان عبد الناصر يريد أن تتوجه الصحافة بتناغم مع الأهداف والسياسات الجديدة التى كان يحشد لها الرأى العام.

ويقول هيكل عن هذه الفترة: لقد حرصت على أن أحفظ لجريدة الأخبار استقلاليتها، فقمت بتعيين جلال الحمامصى مسئولاً عن التحرير، وكان فى ذلك الوقت يعمل فى الجامعة الأمريكية، وقمت بإعادة موسى صبرى رئيساً لتحرير الأخبار وحده، وإحسان عبد القدوس رئيساً لتحرير أخبار اليوم، ويوسف السباعى رئيساً لتحرير آخر ساعة، والأهم من ذلك أننا أصدرنا قانون الصحافة العربية المتحدة الذى يحدد العلاقة بين الصحافة والسلطة، أيام أن كان الاتحاد الاشتراكى يملك الصحف، وقلنا فى هذا القانون إن الاتحاد الاشتراكى هو مالك رخصة الصحيفة، ولكن من المنظور السياسى فإن الصحف مستقلة عن الاتحاد الاشتراكى ولا يقيدها سوى الدستور والقانون، وحساب المؤسسات الصحفية لا يكون إلا على هذا الأساس، وعندما جاء الرئيس السادات إلى الحكم ألغى قانون الصحافة العربية المتحدة، وفرحت الصحف وقالت: إن ذلك فك قبضه هيكل عن الصحافة، وهذا الكلام أدهشنى كثيراً، لأن القانون كان فى مصلحة الصحافة والصحفيين.

□□□

ويتحدث هيكل عن دوره فى الأهرام، فيقول: إن حال الصحافة مثل حال المدن، وعلينا أن نفرق بين المدن وعشوائيات المدن، ولابد أن نقبل الواقع وهو أن قلب المدينة شىء، والعشوائيات التى تنشأ على أطرافها شىء آخر، وقد دخل المهنة من لا يدرك رسالة الصحافة، ولابد أن نفهم ذلك، ولا نحكم على المهنة بما يحدث فى عشوائياتها، لأن مهنة الصحافة مثل أية مهنة، ومجتمع الصحافة والصحفيين مثل أى مجتمع يجب أن يكون الحكم عليه بالأغلبية وليس بالأقلية، وبالأكثر تقدماً وليس بالأكثر تخلفاً!

ويقول: لقد كنت خامس رئيس تحرير للأهرام بعد بشارة تقلا الكبير، وداوود بركات، ومطران خليل مطران، وانطون الجميل، وكانت الدعاوى الوطنية قد تزايدت وقت دخولى الأهرام، وقبل ذلك كانت قد صدرت جريدة المصرى، ثم أخبار اليوم وكان ذلك يفرض تحديات على الأهرام، ولم يكن أصحاب الأهرام يعرفون ماذا يفعلون؟ ومازلت أذكر الجلسة الأولى التى جمعتنى بهم عند ذهابى للأهرام، وطلبت منهم أن آخذ معى أوراق الأهرام وأذهب إلى الإسكندرية لكى أرى الصورة واضحة، وعندما فعلت ذلك استهولت ما رأيت، لكن ذلك لم يقلقنى، لكن الذى أقلقنى عند دخولى اجتماع مجلس الإدارة لتقديم تقريرى الأول، كان على الشمسى باشا الذى أحضرنى إلى الأهرام وقد انتهت مدة عضويته فى مجلس الإدارة، وكان هو عضو مجلس الإدارة الوحيد الذى يعرف اللغة العربية. كانت أمامى مدام رينيه تقلا، وكانت سيدة مدهشة أعتقد أنها من الذين حافظوا على الأهرام، لأن الصحف تمر بمرحلة لا يكون المهم فيها أن تتقدم، بل أن تنجح فى المحافظة عليها، وأنا أعتقد أن مدام تقلا، وريمون شميل قاما بدور كبير جداً فى الحفاظ على الأهرام، بينما كان بشارة تقلا الذى ورث الأهرام عن أبيه لا يزال صغيراً.

وفى هذا الاجتماع طلب منى أعضاء مجلس الإدارة أن أقدم تقريرى بالإنجليزية، بينما طلبت مدام رينيه تقلا أن يكون التقرير باللغة الفرنسية، وقلت لهم: إن إجادتى للإنجليزية أفضل من إجادتى الفرنسية لكن لا بأس سأقدم تقريرى بالفرنسية، وفى هذا

الوقت ظهر لى المأزق الحقيقى للأهرام، وهو أن أصحاب أقدم جريدة عربية تغيروا طبقياً، وأصبحوا لا يعرفون اللغة التى يصدر بها الأهرام، ومع ذلك ظلوا محافظين عليه كمؤسسة.

وفى أول تقرير لى قلت: إننا لا نستطيع أن نصنع تاريخاً بدون جغرافياً ملائمة، فقد كنا فى عام ١٩٥٧ بينما مطبعة الأهرام مصنوعة فى عام ١٩٢٨، وماكينة (الزنكات) مصنوعة فى عام ١٩٠٤، والمبنى كان بيتاً للقنصل الإيطالى بنى فى عام ١٩٠١، لكن مدام رينيه قالت: إنها لم تفهم ما هى العلاقة بين التاريخ والجغرافيا. وكانت هذه مشكلتى الثانية: كيف يمكن تحديث الأهرام فى هذه الظروف؟!

وعندما سألنى مدير التحرير كيف أريد الأهرام غداً؟ قلت له: أريده كما كان بالأمس، لأن ما يهمنى الآن ليس أن أكسب قارئاً جديداً، ما يهمنى هو أن احتفظ بقارئ ظل وفياً للأهرام طوال السنوات التى تحول فيها الأهرام إلى موقف دفاعى.. وقبل أن أكسب قارئاً جديداً أريد أن يطمئن القارئ القديم.. سنظل مؤقتاً كما نحن.

□□□

الشىء الجديد الذى أدخله هيكل فى الصحافة أنه جعل للصحفى مكانة، وكرامة، وقد روى لى أنه فى بداية شبابه ذهب لمقابلة وزير من بشوات ما قبل الثورة، وأعجب به الوزير، وفى المقابلة الثانية أشار الوزير إلى سكرتيره فأعطاه لفافة وهو يغادر المكتب، فتحها فوجد فيها بدلة من بدل الوزير، وشعر ساعتها بمدى الهوان الذى وصل إليه الصحفيون، وبنظرة الكبار لهم على أنهم من طبقة متدنية، فعاد يرد اللفافة إلى السكرتير وعلى وجهه علامات الغضب، فقال له السكرتير مهدئاً:

- لماذا تغضب.. كلهم يأخذون.. وهذه البدلة لم يلبسها الباشا غير مرات محدودة.. وخرج هيكل غاضباً من الوزير.. ومن زملائه. وقال لى هيكل: كنت صغيراً.. ولكن لم أكن أعد نفسى لمثل هذا الهوان.!

الكرامة.. الدرس الأول من هيكل لكل من عمل معه فى الأهرام..

□□□

أما عن اهتمامه بتدريب الصحفيين الشبان وإعطائهم فرص النمو فكانت لى تجربة شخصية أذهلتنى، فبعد دخولى الأهرام بأسابيع فوجئت بأنه رشحنى لحضور مؤتمر مهم فى سويسرا، وفوجئت أكثر عندما علمت أن حضورى هذا المؤتمر لم يكن بصفتى صحفيا يغطى أخبار المؤتمر، بل بصفتى عضوا مشاركا فيه.!

وبعد ذلك لم أدهش عندما علمت أنه عقد اتفاقا مع كبريات الصحف البريطانية لإيفاد شباب الصحفيين فى الأهرام للتدريب فيها لمدة ثلاثة شهور، وكان رأيه أن الاحتكاك بنماذج من الصحفيين فى الغرب، والحياة داخل مؤسسات صحفية كبرى فى الخارج، أفضل وسيلة لجعل الأهرام نموذجا للصحافة الحديثة ويعايش العصر. وبالإضافة إلى ذلك فإنه جعل الأهرام جامعة حقيقية حيث أتاح للصحفيين الشبان فيه الالتقاء بكبار المفكرين والصحفيين والسياسيين ورؤساء الدول الذين كان يستضيفهم فى الأهرام.

□□□

مع أى تيار سياسى كان يقف هيكل وقاد الأهرام إليه؟.

الملاحظ أن هيكل جمع فى الأهرام كتاباً وصحفيين من التيار الماركسى، ومن التيار المحافظ التقليدى، ومن التيار الليبرالى، ومن التيار القومى الاشتراكى، وممن كانوا ينتمون إلى أحزاب ما قبل الثورة، ولكنه كان -بالطبع- يمثل التيار السياسى الذى يقود مصر فى عهد عبد الناصر، بل كان واحداً من صناع هذا التيار، إلى الحد الذى جعل البعض يرى أنه أصبح الرجل الثانى بعد عبد الناصر، وكان ذلك سبباً فى مشاكل ومكائد كثيرة سيأتى ذكرها فيما بعد.

ومع أنه كان الممثل للتيار السياسى الحاكم، وكان البعض يقول: إنه ظل لعبد الناصر، والبعض الآخر يقول: إنه الرجل الثانى فى الدولة، ووصل الأمر إلى الحد الذى جعل أنيس منصور يقول إن عبد الناصر من اختراع هيكل..! لكن ذلك لم يمنعه من أن يكتب مقالات فيها نقد للأوضاع السياسية والاجتماعية.. ولم يكن ذلك جديداً، فقد بدأ

هذا الاتجاه قبل دخوله الأهرام، وكان وقتها أيضاً قريب الصلة بالثورة وبجمال عبد الناصر، ومثال ذلك المقال الذى كتبه فى آخر ساعة فى عدد الأربعاء ١٥ مارس ١٩٥٣.. وهو رئيس التحرير. بعنوان (حديث صريح عن صحافة مصر) وتضمن المقال مواجهة صريحة لأوضاع الصحافة بصورة لم يسبق لها مثيل، وقال فيه:

الحقيقة أن الصحافة المصرية لم تتعود على أن تطل الحقيقة بين سطورها، ذلك أننا -نحن الصحفيين- نملك الزر الذى نضغط عليه مرة فتتجه الحقائق بمنتهى البساطة لتنام فى سلة المهملات، أو نضغط عليه مرة أخرى فتجرى الأكاذيب بمنتهى الجرأة لتصبح سطوراً سوداء على الورق.. إن هوة عميقة من الشكوك بدأت تفصل بين الرأى العام وصحافته.. إن أحد المسئولين وجد أسماء عدد كبير من الصحفيين فى كشف المصاريف السرية فى أكثر من عهد من العهود..

وكانت هذه قنبلة هزت الأوساط الصحفية والرأى العام.. عدد كبير من الصحفيين يحصلون على رشاوى من الوزارات والحكومة من المصاريف السرية؟!

وبعد ذلك قال:

أين هى الحقائق.؟ وأين هو النقد الذى تنشره الصحافة المصرية الآن؟.. أنا أقول -ودعونا نكن شرفاء- إننى لا أجد فى معظم الصحف المصرية الآن من الحقائق، والتوجيه، والنقد، إلا بقايا ضائعة تائهة فى طوفان من الأكاذيب، والنفاق، والضعف، فإن تلمس بعضها الشجاعة يوماً، لم يخرج عن حدود اصطناع المجد الشخصى الرخيص، والبطولات الزائفة..

وانتهى المقال بهذه السطور:

١ - أوقفوا المصروفات السرية للصحفيين إذا كانت باقية لم تلغ.

٢ - انشروا كشوف المصاريف السرية فى كل العهود الماضية .

٣ - ألفوا لجانا قضائية لفحص حسابات جميع الصحف لنعرف مصادر تمويلها.

كتب ذلك وهو فى أخبار اليوم! وهو رئيس تحرير آخر ساعة. وهو من أقرب الناس إلى جمال عبد الناصر.

وأحدث هذا المقال ردود فعل عنيفة وهاج الذين على رءوسهم بطحة بعد أن انكشفوا وكانوا على وشك الفضيحة إلى حد أن طالب بعض أعضاء مجلس نقابة الصحفيين بإحالته إلى لجنة تأديب، وبالفعل تحددت جلسة ٢٦ أبريل ١٩٥٣ لمحاكمته، دون أن يسبق ذلك تحقيق أو استجواب أو سؤال كما ينص القانون، وكانت هذه أول دعوى من نوعها ترفعها نقابة الصحفيين أمام القضاء ضد صحفى منذ صدور قانون نقابة الصحفيين سنة١٩٤١.

وقالت النقابة فى مذكرتها إلى المحكمة إن مجلس النقابة لم يتول التحقيق فى هذا الموضوع بالذات نأيا منه عن أية شبهة فى قضية وضع الكاتب نفسه طرفا فيها، ووضع الصحافة ونقابتها طرف خصومة، ومجلس النقابة ينزل عن حقه مختارا.

وكان أحمد لطفى حسونة هو محامى أخبار اليوم، وقدم مذكرة إلى مجلس التأديب- محفوظة فى أرشيف أخبار اليوم - قال فيها:

ما كنا نظن أن الثورة الجامحة الحاسدة تدفع المجلس إلى هذا التجنى، فالمقال لم يزلزل الأرض ولا السماوات، وهو دعوة صريحة إلى الجد بعد حياة الذل الطويلة، ودعوة صريحة إلى حرية الصحافة وتنزيهها عن التملق والرياء ومسح أعتاب الحاكمين..والمقال قبل ذلك وفوق ذلك لم يمس أحدا.

وتعليقا على ذلك كتب هيكل مقالا فى أخبار اليوم.. وليس فى آخر ساعة.. فى عدد ١٨ أبريل ١٩٥٣ بعنوان(أحالونى إلى مجلس تأديب) قال فيه: (لقد كتبته حديثا صريحا عن صحافة مصر، ووضعت أمامى وأنا أكتبه عدة أسس لم أخرج على حدودها أبدا:

أولها- اعتزازى بشرف المهنة وكرامتها.

وثانيها- إيمانى المطلق بحرية الصحافة.

وثالثها- أن الطريق إلى الجدية هو مواجهة الحقائق برجولة، وعزة، وأن واجب الصحافة فى مراقبتها لنفسها لا يقل عن واجبها فى مراقبتها للناس.

ورابعها- أننى لا أتهم أحدا بالذات، ولا أسمح لنفسى بأن أوجه اتهاما إلى أحد بالذات.

وختم المقال بقوله: (إنما من أجل شرف المهنة وكرامتها ثرت)

هذه القصة تكشف عن جوانب مهمة فى شخصية هيكل.. أولا حرصه على الكرامة لنفسه وللصحفيين وللصحافة.. وثانيا ممارسته لحرية التعبير وحرية الرأى إلى حد كشف المستور من خفايا الصحافة والصحفيين، وهو طبعا يعلم الكثير عنهم ويعلم أن فتح ملفات المصاريف السرية سوف يفتح عليه النار. وثالثا أن مهاجمته لمن كانوا يتقاضون أموالا من المصاريف السرية تدل على أنه لم يكن واحدا منهم، على رغم أنه كان يستطيع أن يكون على رأسهم بسهولة ويقبض الكثير، ولو كان بيته من زجاج ما كان يجرؤ على أن يقذف الآخرين بالطوب..!

□□□

وواصل المعركة.. كتب فى آخر لحظة التى كانت تصدر عن أخبار اليوم مقالا يوم ٢٢ ابريل ١٩٥٣ بعنوان

(بقية الحديث عن صحافة مصر.. أين هو مجلس التأديب الذى أحالونى عليه)؟.. قال فيه: أريد أن أقف أمام هذا المجلس لكى أكرر كل حرف قلته فى المقال الذى أحلت بسببه إلى مجلس التأديب.. وأزيد عليه .

وانتهت المحاكمة بأن حكمت محكمة الاستئناف بالبراءة مما نسب اليه بسبب المقال، ونشر خبر حكم البراءة فى جريدة الأخبار يوم ٣ يوليو ١٩٥٣.

وعقب صدور الحكم نشر مقالا فى آخر ساعة فى عددها الصادر يوم ٨ يوليو ١٩٥٣ بعنوان (٦ تهم أمام مجلس التأديب) بدأه بسرد التهم التى وجهتها النقابة إليه،

وأعاد بعض فقرات من مقاله الذى كان موضوع المحاكمة، وفقرات من مقال آخر لحظة، وأضاف اليها قوله: (لقد قلت إن أحد المسئولين قال لى إنه دهش حينما اطلع على كشف المصروفات السرية فوجده يضم اسماء عدد كبير من الصحفيين، والكارثة أن هذا المسئول الذى تحرجت من ذكر اسمه فى آخر ساعة، كتب الواقعة فى مجلة أخرى غير آخر ساعة، ثم وضع اسمه تحتها صراحة وبدون مواربة، وكان هو بنفسه البكباشى جمال عبد الناصر..)

ثم كرر بعد ذلك فقرات من مقاله فى آخر لحظة يقول فيها :

(إن هناك محاولة رخيصة لصنع آلهة لا يريدون هم أنفسهم أن يؤلههم أحد)

ويختم المقال بتكرار المطالب الثلاثة التى ذكرها فى مقاله الأول بوقف المصاريف السرية للصحفيين، ونشر كشوف المصاريف السرية فى كل العهود الماضية، وتأليف لجان قضائية لفحص حسابات جميع الصحف لمعرفة مصادر تمويلها.

وما أشبه الليلة بالبارحة.!

□□□

لم يكن هيكل - كما قال البعض - يطلب السلامة، أو يهادن،فقد اثار عليه موجة من العداء من كبار وصغار الصحفيين الذين كانوا يتقاضون أموالا من المصاريف السرية، ومن غيرها من جهات، وفهموا أن هيكل اطلع على أسرارهم وعرف خفاياهم، وأصبحوا مكشوفين ليس فقط أمام قادة الثورة، بل أمام الرأى العام أيضا، وسقطت الهالة التى كان بعض الصحفيين الكبار يضعونها على رءوسهم ويصورون للناس أنهم أنبياء الوطنية والرعاة الأول للشرف والنزاهة والكرامة.. ولم ينس له هؤلاء ذلك أبدا.. وربما يكون قد دفع الثمن مؤجلا فيما بعد عندما حانت لهم الفرصة للانقضاض عليه والنيل منه..

□□□

بعد ذلك شن معركة على السياسة الأمريكية فى وقت كان عملاء وأنصار أمريكا كثيرين فى الصحافة وفى المجتمع المصرى، وخاض معركة لنقد اوضاع الحكم فى بعض الدول العربية مطالبا بالتحديث؛ لأن نهضة الأمة العربية لن تتحقق الا اذا تغيرت احوال كل الدول العربية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا؛ لتكون نهضة حقيقية يمكن بعدها تحقيق الوحدة التى تمثل حلم الشعوب.. وخاض معركة ضد سياسات الاتحاد السوفيتى؛ لأن المفروض أنه نصير دول العالم الثالث لكنه لا يقدم الدعم الكافى لدول العالم الثالث ومنها مصر.

وكانت أكبر معاركه عندما كتب سلسلة مقالات وجه فيها نقدا شديدا للاتحاد الاشتراكى الذى يرأسه جمال عبد الناصر وأسلوب العمل فيه وسيطرة مجموعة محدودة عليه وغياب الديمقراطية الحقيقية فى داخله، وأثارت هذه المقالات عليه ثائرة على صبرى الأمين العام للاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت الذى كان مركز قوة ولا يستطيع أحد الاقتراب منه، وطلب المكتب السياسى من جمال عبد الناصر أن يستدعى هيكل للتحقيق معه، وفعلا ذهب إليهم وخرج منتصرا!

ودخل هيكل بعد ذلك عش الدبابير عندما نشر مقالات عنيفة فى نقد ممارسات المخابرات فى عهد صلاح نصر، وكانت هذه جرأة غير مسبوقة، ودفع ثمنها لفترة طويلة وبأساليب مختلفة كان آخرها إطلاق رصاصتين على باب الأهرام قبل أن يخرج منه بلحظات، وقيل إن الفاعل مجهول، وقيل أيضا إن الرصاصتين هما رسالة إليه لا يخفى عليه مصدرها ومضمونها.

ومن أكبر معاركه الحملة التى خاضها فى نقد ممارسات وإجراءات لجنة تصفية الإقطاع التى كان يرأسها المشير عبد الحكيم عامر بكل ما كان له من نفوذ وقوة، ولم تمر هذه الحملة بسلام وسببت له أزمة مع المشير عامر وأعوانه وكان من الممكن أن تودى به، ومع ذلك لم يتوقف.. وعموما فإن معارك هيكل موضوع طويل سنعود إليه.



ما هو بالضبط الموقع الفكرى الذى يمكن تصنيف هيكل على أساسه.؟

وأين كان انتماؤه الطبقى . ؟

تختلف الآراء ..

البعض يقول إن هيكل ليبرالى، وعندما عينه عبد الناصر وزيرا للإرشاد اعتبروا ذلك انتصارا للجناح الليبرالى فى النظام، وعبرت عن ذلك صحيفة الزمان اللبنانية فى تحليل نشرته يوم ٤ نوفمبر ١٩٧٠ فقالت : (يعتقد المراقبون الدوليون أن مجىء هيكل إلى الحكم يعنى إبراز الجناح الليبرالى فى الحكم المصرى، ويصنف المراقبون الليبرالية المصرية بأنها تهدف إلى التحرر من الأفكار المجردة والنظريات العامة والعقائد الجامدة، لتعالج الواقع، لذلك كان الجناح الليبرالى فى مصر- والذى يعتبر هيكل أحد أبرز رجاله - أول من طرح الشعار الذى انقسم حوله اليسار العربى بعد الهزيمة، وهو: أيهما أهم: الدفاع عن الوطن أو الدفاع عن النظام ؟ وأكدت مصادر مصرية مأذونة بأن الجناح الليبرالى المصرى ليس يمينيا بالمعنى الرجعى، أو بالمعنى المتداول عند الثوريين النظريين، ولكن هذا التيار اذا لم يستطع السيطرة على نوازعه ولم تكن لديه القدرة على امتلاك زمام الأحداث، فمن الممكن أن يصبح يمينا متطرفا).

وأعتقد أن من الممكن اعتبار هيكل ليبراليا، ولكن الليبرالية عنده ذات بعد اجتماعى واضح، فهو بالفعل ليس ليبراليا تقليديا، فقد كان منحازا للثورة، بل كان أحد أركانها، وربما يكون العقل المدبر لبعض السياسات والإجراءات،ويكفى أنه هو الذى تولى صياغة الميثاق الوطنى (مانفيستو الثورة) وبيان ٣٠ مارس الذى كان بمثابة (عقد اجتماعى) بين عبد الناصر والشعب فى أعقاب هزيمة يونيو ٦٧. ثم إن هيكل كان وراء قرارات يوليو الاشتراكية والمفسر لها والمدافع عنها..

وهناك من يعتبره ممثلا لقوى اجتماعية متخلفة كما قال د. فوزى منصور فى مقال كتبه فى الجمهورية يوم ٢ أبريل ١٩٧١ - بعد رحيل عبد الناصر - وأشار فيه إلى هيكل - بالتلميح وليس بالتصريح - فى معركة ثارت فى أعقاب مقالات هيكل عن

إمكان تحييد أمريكا فى الصراع العربى الإسرائيلى، وقال: هناك قوى اجتماعية (غير القيادة) لا تزال بقاياها وامتداداتها قائمة فى مجتمعنا تتمنى على الولايات المتحدة الأمانى.

والذين يتصورون أن هيكل ينتمى فكريا إلى المجتمع الطبقى الذى كان قائما قبل الثورة يستشهدون فى ذلك بعلاقاته مع الباشوات وزعماء الأحزاب،واستمرار صداقاته معهم حتى بعد الثورة، وزواجه من ابنة باشا من باشوات القصر على رغم أن الزواج تم بعد الثورة وبحضور جمال عبد الناصر، ويستشهدون أيضا بأسلوبه فى الحياة الذى يشبه أسلوب اللوردات الإنجليز، ويستشهدون بأنه يدخن السيجار من كوبا فى وقت لم يكن المصريون يجدون فيه الضروريات، ويقفون فى طوابير المجمعات الاستهلاكية للحصول على غذائهم..

وأذكر أننى قلت مثل هذا الكلام لكاتب كبير آخر هو لطفى الخولى، كان يعيش عيشة برجوازية بينما هو شيوعى دخل المعتقلات بسبب انتمائه الشيوعى، وكتاباته كلها دعوة لليسار، وصداقته مع المفكرين والسياسيين الاشتراكيين فى العالم وفى الاتحاد السوفيتى معروفة، وهو أيضا يدخن السيجار الفاخر، فقال لى وهو يضحك:

- أنا اشتراكى الفكر.. برجوازى السلوك !

وأظن أن ذلك ينطبق على هيكل ، وهو لا يخفى شيئا من سلوكه البرجوازى،

فهو يعيش عيشة لورد، وله ضيعة ريفية فى برقاش، ويلعب صباح كل يوم الجولف فى نادى الجزيرة، ويركب سيارة مرسيدس حتى بعد خروجه من الأهرام، ولايقود سيارته، وفى بيته موظفون يعملون فى سكرتارية مكتبه، ولديه فيلات فى الغردقة والساحل الشمالى.. وينزل فى أوربا وأمريكا فى الفنادق التى ينزل فيها الملوك وقد ازداد بعد خروجه من الأهرام، وأصبحت كتبه ومقالاته التى ينشرها فى بريطانيا واليابان وتترجم إلى كل لغات العالم تدر عليه دخلا كبيرا.. وكان ذلك أيضا موضع حسد وحقد شديدين.. فى مرة تحدث عن الناشر البريطانى لكتبه ومقالاته فقال: إن الصحف

البريطانية تدفع له ثلاثة دولارات عن كل كلمة، فشن عليه موسى صبرى حملة شعواء بسبب ذلك.

وبمناسبة السيجار الذى كان يستفز بعض زملائه من كبار الصحفيين، يقول: إنه ذهب إلى البيت الأبيض على موعد لمقابلة الرئيس جون كنيدى، وقيل له: إن دخول سيجار من كوبا فى البيت الأبيض ممنوع ويمكن أن يسبب أزمة ويؤدى إلى إفساد المقابلة مع الرئيس، ولكنه ذهب وفى جيبه عدد منها، وأثناء المقابلة قدم له كنيدى علبة السيجار وأعطاه واحدة، لكن هيكل قال له بأدب: أنا معتاد على هذا السيجار وأخرج سيجارا كوبيا وأشعله بينما أشعل كنيدى سيجارا من العلبة وقال لهيكل:

- هل تعرف أن وجود هذا السيجار فى البيت الأبيض جريمة؟

فقال له هيكل : نعم أعرف.

وبعد لحظة تسللت رائحة السيجار الكوبى إلى أنف الرئيس كنيدى فقال لهيكل :

- هات واحدا ..

ثم قال له :

هل تعرف أن ذلك يمكن أن يؤدى إلى طردى من البيت الأبيض؟!

❑❑❑

وليس من الصعب تصنيف هيكل، فهو وطنى، ليبرالى، وينتمى إلى التيار الاجتماعى، ولم يدافع أبدا عن القوى المتخلفة أو عن الأفكار الرجعية حتى قبل الثورة.. بل كان يساند الثورات فى إيران أيام ثورة مصدق، وفى غيرها.. وهو ينتمى إلى فكر ثورة يوليو بل هو من أهم صناع هذا الفكر، وفى نفس الوقت هو براجماتى، ليس صاحب أفكار ومواقف جامدة، وليس من كهنة أيديولوجية معينة ولأنه يجيد فهم التغيرات العالمية فإنه يطور أفكاره ومواقفه، وهذا هو سر حيويته واستمراره، فهو قادر على التعامل مع الظروف المتغيرة والتجاوب معها وقيادتها!

فى نفس الوقت هناك من يرى أنه يمثل اليسار، وفى تقرير كتبه الدكتور عبد الحميد الأحدب لصحيفة (لسان الحال) اللبنانية نشرته فى ٣ أغسطس ١٩٦٩ قبل رحيل عبد الناصر قال إن هيكل دون شك هو الممثل لليسار المصرى والعربى. وزكريا نيل الذى عمل مبكرا مع هيكل فى الأهرام له كتاب صدر عام ١٩٧٢ بعنوان (أسرار سياسية) قال فيه: (إن هيكل أحد الرواد الثوريين من أصحاب الفكر والقلم والرأى الذين ساروا على درب الحرية والالتزام والتفتح بإرادة قوية وروح عالية وإصرار).

وهناك من يرى أن هيكل كان يدافع عن الاشتراكية وهو فى الحقيقة ليس اشتراكيا، وعبرت عن هذا الرأى صحيفة النهار اللبنانية فى مقال كتبه توفيق وهبة فى عدد ٢٢ سبتمبر ١٩٧١ قال فيه: (إن هيكل يتجاهل عن عمد بعض المسائل الداخلية الشائكة، فهو لا يتحمس لعقيدة معينة، فالتأميم، والإقطاع، والبرجوازية، والنظام البرلمانى، وأشكال الحكم، والدستور، وعلاقة رأس المال بالعمل، والنقابات وما إلى ذلك موضوعات لا تستهويه إلا لماما، وقد وقف قلمه على قضية فلسطين، والاحتلال، والحرب، والقتال).

وأعتقد أن ذلك أمر طبيعى لكل كاتب، فليس المفروض أن يكتب الكاتب فى جميع القضايا، وهيكل من الذين أرسوا مبدأ التخصص فى الصحافة المصرية، كما أن القضايا التى كتب فيها كانت القضايا الاستراتيجية الساخنة بل كانت قضايا المصير!

وصلاح حافظ كتب قبل ذلك فى روز اليوسف فى عدد ٢٢ أغسطس ١٩٦٧ ينتقد تناول هيكل للديمقراطية ويقول: (إن رئيس تحرير الأهرام جاء يطرح قضية تطوير الديمقراطية، فإذا به يركز الضوء على ما تشكو منه الطبقات التى ضربت الثورة مصالحها، وجعل نقطة البدء توفير ضمانات قانونية لهم تقيد تصرفات السلطة الاشتراكية ضد الذين تخاصمهم أو يخاصمونها).. وهكذا كان الاتهام لهيكل أنه طالب بمراعاة الحقوق القانونية والإنسانية لمن اختلفت معهم الثورة، ولعل ذلك يكون الرد على الذين قالوا: إنه كان صوت السلطة فى الحق والباطل. وفى الصواب والخطأ، وهم

الآن يهاجمون ممارسات لجنة الإقطاع والاعتقالات والسجن الحربى وحمزة البسيونى بعد أن انتهى ذلك العهد، بينما كان هيكل يهاجمه أثناء وجود المسئولين عن هذه الممارسات فى السلطة.. وقد يكون ذلك دليلا على انحياز هيكل لفكرة حقوق الإنسان حتى مع من كانوا يسمون أعداء الثورة.. وهذه الآن تحسب له.. وكانت وقتها تحسب عليه!

□□□

والذين يتهمونه بأنه ليس اشتراكيا يستندون إلى أنه طالب بأن يكون التأميم والتطبيق الاشتراكى فى حدود القانون، وليس خضوعا للهوى والنزعات الفردية، كما طالب بحق كل مواطن فى أن يعرف ماذا يمكن أن يحدث له غدا، وكان فى الحقيقة يطالب بذلك لحماية الثورة من أن تتحول إلى عملية انتقام وتصفية حسابات مع رجال (العهد البائد) وعائلاتهم، ولحماية المواطن المصرى-أيا كان-من أن يعاقب على جريمة لم يحددها قانون، أو أن تتخذ ضده إجراءات غير منصوص عليها فى قاعدة عامة.. فهو لم يدافع عن الاعتقالات.. ولم يهلل لإجراءات الحراسات التعسفية والتصرفات غير القانونية وغير الإنسانية التى كانت تقوم بها لجنة تصفية الإقطاع. بل كان يهاجمها فى عز عنفوانها، وتسبب ذلك فى مشاكل جديدة بينه وبين المشير عبد الحكيم عامر رئيس لجنة تصفية الإقطاع والمشرف على السجن الحربى.. لأنه كان يطلب تقنين الثورة وسيادة القانون فى وقت كان فيه تيار قوى يرفع شعار القانون فى إجازة.

□□□

والبعض قال إن هيكل هو رجل المخابرات الأمريكية فى مصر، وصحيفة (لسان الحال) اللبنانية ذكرت آراء هؤلاء فى مقال كتبه ميشال الحلوة فى عدد ٢٩ أبريل ١٩٧٠ بعنوان (الرياح الأربعة) قال فيه: (يقول مايلز كوبلاند رجل المخابرات الأمريكية البارز فى الشرق الأوسط صاحب كتاب (لعبة الأمم): إن محمد حسنين

هيكل الصحفى الذى كان محررا فى الدار الصحفية التى يملكها مصطفى وعلى أمين، مع وليام ليكلاند المستشار السياسى الأول فى السفارة الأمريكية فى القاهرة، كانا فى بداية الثورة هما حلقة الاتصال بين الثورة المصرية والحكومة الأمريكية. ومنذ ذلك الحين بات هيكل أقرب المقربين إلى الرئيس جمال عبد الناصر، كما بات أقرب الناس فهما للعقلية الأمريكية وأساليب السياسة الأمريكية)!

وصحيفة (الحرية) اللبنانية قالت عنه: هو رجل الحوار مع أمريكا (وذلك فى عدد ٥ أبريل ١٩٧٠) وصحيفة (الدنيا اللبنانية) فى عدد ١٦ ديسمبر ١٩٧٠ نقلت عن صحيفة (الثورة العراقية) أن هيكل عميل لوكالة المخابرات الأمريكية.. وسألته صحيفة (لسان الحال) اللبنانية ونشرت إجابته فى عدد ١٧ ديسمبر ١٩٧٠ التى قال فيها: (إن إهانتى من صحيفة الثورة العراقية شرف لى، وهو أمر يستحق السخرية).

وحسين عبد الرازق كتب فى الجمهورية عدد ٢١ أغسطس ١٩٦٧ مقالا بعنوان (رد على رئيس تحرير الأهرام) قال فيه: (إن كل الذين اشتركوا فى مناقشة آراء هيكل، لا يخافون التهديد بالتجريح أو تقليب صفحات الماضى، بل لعلهم فى شوق غامر إلى وقت يتاح لهم فيه فتح صفحاتهم وصفحات غيرهم قبل وبعد ١٩٥٢ ونشرها على الملأ كاملة). وقد نقلت وكالة أنباء الشرق الأوسط هذا المقال ونشرته الصحف العربية وخصوصا الصحف اللبنانية مثل (النهار والأنوار) يوم ٢٢ أغسطس ١٩٦٧.

ومثل هذه التلميحات التى تنطوى على اتهامات لم يقدم أصحابها دليلا أو قرينة أو شبهة، حتى يمكن أخذها مأخذ الجد، وفى العالم الثالث تكون أسهل تهمة هى تهمة الخيانة والطعن فى الوطنية، والخلافات غالبا تنحرف من خلافات على أفكار ومواقف إلى خلافات شخصية تستسهل الطعن فى الآخر، ويتحول العداء للفكرة إلى عداء لصاحبها.

وأقوى دليل على عدم صحة هذا الاتهام الذى روج له البعض بحماس أنه بعد رحيل عبد الناصر، وبعد أن غضب السادات على هيكل وألقاه فى السجن فى اعتقالات

٥ سبتمبر الشهيرة، وقاد الرئيس السادات شخصيا حملة تشهير على هيكل ولم يكن فى هجوم الرئيس السادات أية إشارة إلى صلة بالمخابرات الأمريكية وأعتقد أنه لم يكن يتردد فى إعلانها لو كان لها ظل من الحقيقة. ولم يجد سوى أن هيكل يدعى أنه صديق الرؤساء، وأنه يريد أن يكون مشاركا فى الحكم، و.. و.. ولم يكن بين هذه الاتهامات تهمة الاتصال بالمخابرات الأمريكية على رغم أن كل الحقائق والوثائق والأسرار كانت تحت يد الرئيس السادات، وكان يهمه تشويه هيكل خاصة بعد أن ثارت الصحافة العالمية بسبب اعتقاله.

وعموما فإن هذا الاتهام لم يصدر إلا من الذين كانوا يحقدون على هيكل حقدا شخصيا، وكلهم كانوا بعيدين عن مطبخ السياسة المصرية وليس فيهم من يعلم الأسرار وبواطن الأمور.. وما أسهل إلقاء التهم جزافا على رجل اتخذ مبدأ يعلمه الجميع بأنه لن يرد على من يهاجمونه، ويقول: لو شغلت نفسى بالرد على كل تهمة وكل هجوم فسوف أضيع حياتى فى الرد ولن أجد وقتا لشىء آخر!

□□□

وزكريا نيل يصنف المواقف المختلفة من هيكل على النحو التالى: الثوريون الناصريون يهاجمونه ويتهمونه بأنه يوقع الجماهير العربية فى تناقضات، وخاصة بعد حرب الأيام الستة.. والثوريون المتطرفون يرون فيه ذروة الفكر الثورى والوطنية العاقلة، وأنه عندما يحرك قلمه تتحرك معه الجماهير لتستكشف معه مواقع تجار السياسة والمضللين ونظم الحكم المتعفنة التى تكتم أنفاس الجماهير، وهؤلاء لا يلبثون أن يحملوا عليه بعنف إذا خفف من حملاته على أعداء التحرر فى الوطن العربى.. والاستقلاليون فى الرأى ممن لا يدينون بمذهب عقائدى يعجبون به مجرد إعجاب بكاتب مقتدر. والعقلاء ممن يرقبون مسيرة الأحداث فى الوطن العربى يرون أن قلم هيكل أشبه بمبضع طبيب يتناول به مواطن الداء).

تعريف فيه خلط واضح، لأنه لم يحدث أن هاجم الثوريون الناصريون هيكل، وهو المعبر عن الفكر الناصرى، ولم يحدث أن أعجب به الثوريون المتطرفون لأنه ببساطة ليس منهم، ولأنهم متطرفون فإنهم لا يرضون إلا عمن ينتمى إليهم كلية، ومن الغريب أن يرى زكريا نيل أن الناصريين وجدوا فى فكر هيكل تناقضات لم يرها غيرهم، ثم ينتهى إلى أن العاقلين هم الذين يتفقون مع هيكل هم والمتطرفون.. كيف؟ وهو يفرق بين العقلاء وبين الاستقلاليين فى الرأى ويوحى فى كلامه بأن الناصريين والثوريين المتطرفين والاستقلاليين ليسوا جميعا من العقلاء، وهذا التصنيف غريب فى الفكر السياسى.. وما أكثر من قالوا وقيل عن هيكل!

□□□

ويقول جوردون بروك شبرد : إن هيكل من ذلك الطراز النادر. وطنى مصرى، ولكنه لا يصل فى غلوه إلى حد العدوانية وكراهية كل ما هو غير مصرى، وقد أحسست على الفور بأن له تأثيرا حقيقيا فى اختيار التقدم والديمقراطية أينما، وكلما كانت قابلة للتطبيق على مسرح السياسة المصرية المتوتر.

وأظن أن هذا كلام أقرب إلى الصحة.

أما هيكل فيقول عن نفسه فى كتابه (عبد الناصر والعالم):

وأما ظروفى الشخصية فإنى أعرف أنها دقيقة، ذلك أننى تعرضت لليمين الرجعى فى العالم العربى، كما تعرضت لليسار المغامر فيه، وليس يهمنى أن أحصل على رضا أيهما، وقد اعتبرت، وما زلت أعتبر، أن هذا الرضا شرف لا أسعى إليه.. ووسام ليس بين أحلامى أن أعلقه على صدرى) وهو يتحدث عن موقفه الفكرى والطبقى فى حديث نشرته صحيفتا (الأنوار والصياد) فى لبنان يوم ٩ يونيو ١٩٧١ فيقول:

(أعرف أن كثيرين وضعونى فى خانة اليمين وارتاحوا، ولكن هذا لا يمنعنى من إعلان رأيى بضرورة إعادة النظر فى المعانى التقليدية لليسار واليمين بعدما تخطاها عصرنا المذهل.. وحتى لو اعتمدنا المفهوم القديم فأنا يسارى بمعنى أننى وطنى، لأن

الوطنى لا يمكن إلا أن يكون يسارا، وكل وطنى لابد أن يلتزم-اجتماعيا- مع اليسار.
ويستكمل هيكل حديثه بتحديد موقفه من الناصرية فيقول: الناصرية باختصار شديد هى: استقرار السلطة فى يد تحالف قوى الشعب العامل، وملكية هذا التحالف للموارد الاقتصادية، والانتماء لمعسكر التحرر العالمى، والعداء للاستعمار، والانتماء العربى).

هذا هو هيكل.

□□□

ومن هم معارضوه ؟

فى الأهرام عدد ١٨ أغسطس ١٩٦٧ يصنف هيكل معارضيه فى ثلاث فئات:

١ - الذين يتقاضون أجورهم كى يرددوا ما تلقنوه.

٢ - الذين فتحوا للوطنية محلات بيع وشراء.

٣ - الذين ينتهزون فرصة نكسة لتحقيق أمانيهم.

والحقيقة أن هيكل تعرض لما لم يتعرض له أحد فى مصر من هجوم، وافتراءات، وفى مراحل مختلفة من حياته وبعد علاقته بعبد الناصر بل وأثناءها. ويبدو أنه كان على وعى بأن ما وصل إليه من مكان ومكانة لابد أن يثير عليه ثائرة كثيرين، ويقول إن هذه طبيعة البشر على أية حال، فكل ناجح يتجمع عليه الفاشلون ليحبطوه ويسيئوا إليه وهم-ربما- على قناعة بأنهم كانوا الأحق منه والأجدر.

وعموما : ليس من الموضوعية أن نصدق من يقول: إن هيكل يحسب على تيار اليمين المحافظ، لأنه- على العكس- كان دائما داعية للتغيير والتطور، وناقدا للحاضر، ومبشرا بما سيأتى به المستقبل،وناقدا للداعين إلى التمسك بالأوضاع القائمة على أنها غاية ليست بعدها غاية، ومحاربا لأصحاب الدعوة للعودة إلى الوراء، والمطالبين باستعادة الماضى على أنه الفردوس المفقود، كذلك لا أظن أنه كان يوما نصيرا للقوى الاجتماعية الرجعية، أو للطبقة المستبدة المسيطرة على مقدرات الشعب.. أما الاتهام

الذى يحلو للبعض أن يثيره بأنه كان رجل المخابرات الأمريكية مستشهدين فى ذلك بكتاب مايلز كويلاند فهذا أقرب إلى الخداع، فهيكل لم يكن يعمل ويتحرك بعيدا عن عين عبد الناصر ورجاله، ولو كان يوما على صلة بالمخابرات الأمريكية لكانوا رصدوه وقدموه صيدا ثمينا لعبد الناصر كما فعلوا بغيره.. وما أكثر الاتهامات المرسلة التى تلقى من أشخاص ليسوا على علم بالأسرار الخفية أو الظاهرة، ويسهل عليهم تأليف تهمة يقذفون بها الناس بغير حق.. وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح.. والمثل الصادق هو الذى يقول إنك قد تستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت ولكنك لا تستطيع أن تخدعهم كل الوقت.. وها هو ذا هيكل.. وها هى ذى ملفات المخابرات الأمريكية مفتوحة بعد زوال السرية عنها بمضى المدة.. فأين دليلكم؟

□□□

إن كان من الضرورى تصنيف هيكل فى إطار التصنيفات التقليدية أعتقد أنه ينتمى إلى اليسار الوطنى القومى المعتدل.

هيكل ليس من أنصار أنصاف الحلول، ولا من أنصار تمجيد الماضى. أو تجميد الحاضر، بل هو رجل التجديد والدعوة إلى التحرك إلى الأمام، وتطوير المجتمع، والتفكير والعمل من أجل المستقبل.

وهو مؤمن بالعلم، وبالمنهج العلمى، ويطبق ذلك على نفسه، ويتبدى ذلك فى كتاباته، وبعد إنتهاء مرحلة أخبار اليوم أصبح يكتب بمنطق، وبمنهج علمى، وبعقلانية، ولا يقفز إلى النتائج إذا لم تكن ناتجة بالضرورة عن مقدمات صحيحة. كما أصبح يهتم اهتماما ظاهرا ببناء المقال بناء محكما فى الشكل والمضمون.

وهو متفائل، يؤمن بأن الغد أفضل إذا عملنا من أجله وسرنا إليه على الطريق الصحيح، ولكنه عندما يصطدم بواقع لا يدعو للتفاؤل يغلب الحقيقة ويقول الحق ويتحمل نتائجه.

وهو معتدل وواقعى لا يؤمن بالحلول الجاهزة للمشاكل، ولا يستعير أفكار الإصلاح أو يستورد نظريات من الخارج يطالب بتطبيقها فى المجتمع دون أن يراعى اختلاف الظروف ودرجة التطور وقدرات الناس.. فهو يفكر تفكيرا عمليا، بمعنى أنه لا يكتب عن أحلام بعيدة أو مستحيلة التحقيق، ولكنه يكتب فى حدود الممكن، وهو مؤمن بالانفتاح الفكرى والثقافى والاجتماعى، وهو نفسه النموذج العملى لذلك، فهو مع فتح النوافذ على العالم والحوار مع كل الاتجاهات والمذاهب، والتفاعل مع التطور فى الفكر والسياسات لكيلا نهمش أنفسنا أو ننغلق على ذاتنا ونفقد أهم ما يميز الأحياء.

والبعض يرى أنه الممثل للفكر الناصرى - وهذه قضية تحتاج إلى مناقشة بالتفصيل لأن الناصرية ليست مذهبا سياسيا واجتماعيا تبلور فى شكله النهائى مثل النظرية الماركسية مثلا، ولكنها تيار سياسى - اتجاه فى الفكر والعمل يدعو إلى التحرر من التبعية والاستعمار. وإلى العدالة الاجتماعية.. وإلى القضاء على الاحتكار والإقطاع وسيطرة طبقة واحدة على مقدرات المجتمع.. وإلى الوحدة العربية.. إلى غير ذلك من الأهداف.. هى أهداف.. أما كيف يكون الوصول إليها.. فهذا متروك للظروف الدولية والداخلية.. الوسائل فى أيدينا.. وكلما وجدنا طريقا يمكن أن يؤدى إلى هذا الهدف علينا أن نسير فيه. الأهداف ثابتة والوسائل متغيرة، وهذا شىء مختلف عن الايديولوجية أو النظرية أو المذهب السياسى بالمعنى الدقيق.

الناصرية ليست فكرا جامدا، ولكنها فكر حى متحرك ومتطور. وعلينا أن نتذكر أن عبد الناصر لم يبدأ اشتراكيا، ولكنه بدأ بالوسائل الرأسمالية.. بدعوة الرأسمالية الوطنية لتحقيق مشروعه فى التنمية، وبالترحيب بالاستثمار المصرى والأجنبى فلما وصل إلى أن الرأسمالية فى ذلك الوقت تريد أن تأخذ ولا تعطى، ولا يهمها التنمية ولاتطور المجتمع ولا العدالة الاجتماعية ولا بناء مستقبل، ومع وجود احتكارات أجنبية وتوكيلات للشركات الأجنبية تعمل لنفسها وليس للبلد، وجد نفسه مضطرا للتأميم وتملك الدولة لوسائل الإنتاج لتمويل مشروعات التنمية وتحقيق عدالة التوزيع فى بلد

الثروة فيه محدودة وكذلك السلع والخدمات المتوافرة والناتج القومى كله لا يكفى سكانه.

عموما فإن قصة التحول فى فكر عبد الناصر وهل ما فعله كان تطبيقا للنظرية الاشتراكية أو لم يكن؟.. هى قصة تحتاج إلى شرح ومناقشة .. وما يهمنا أن نقول: إن هيكل كان مؤمنا بالطريق الذى اختاره عبد الناصر سياسيا واجتماعيا، وكان يدعو إليه، بل كان هو الذى قام بالدور الأكبر فى الترويج والإقناع بفكر هذه المرحلة.. ومن هذه الناحية كان من أكبر الدعامات لنظام عبد الناصر. كما كان من أهم العقول التى ساعدت على بلورة فكر عبد الناصر، وساعدته على صياغة مشروعه.

وبعد عبد الناصر بدأ هيكل مرحلة أخرى.

❑❑❑

وهيكل ضحية لحملات كثيرة.. وكما يقول هو: إن إحدى أزماتنا أن هناك رواة كثيرين، وروايات أكثر، لكن لا أحد يدقق، المشكلة أيضا أن أحدا لا يسجل، ويكتفى الجميع بالاعتماد على الذاكرة، والنتيجة أنهم فى كل مرة يتكلمون فيها عن واقعة أو رواية يضيفون جزئية صغيرة يحاولون بها تجميل صورة، أو تشويه صورة، وهذا عمل إنسانى مفهوم، ولكن مع الوقت واستمرار الحذف والإضافة تظهر الروايات عن الوقائع والأحداث فى صورة بعيدة عن الحقيقة، وليس لها علاقة بالواقع، وتصدر الأحكام بناء عليها.

ويضرب مثلا بما قاله حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية فى عهدى عبد الناصر والسادات، فقد روى فى عام ٢٠٠٢ وبعد أن أثرت السنون فى ذاكرته - فهو فى الثمانين من عمره- روايات فى إحدى القنوات الفضائية عن فترتى حكم عبد الناصر والسادات وصفها هيكل بأنها (غير مضبوطة) وذلك بسبب اعتماده على الذاكرة التى تأثرت بفعل السنين.

ويضرب مثلا ثانيا بنفسه، يقول: حتى أنا وقعت فى هذا الخطأ، فقد قمت بكتابة كتابين عن السويس، أحدهما اعتمدت فيه على الذاكرة فكانت الأخطاء فيه فظيعة؛ والثانى اعتمدت والتزمت فيه بالوثائق.

والوثائق هى سلاح هيكل الذى احتفظ به لنفسه واستخدمه فى الوقت المناسب ووجه به الضربة القاضية لكل من افترى عليه كذبا، وما يزال فى خزائن هيكل الكثير من الوثائق والحقائق والأسرار لم يكشف عنها بعد.

وهذه أيضا قصة أخرى..!

والحديث يطول عن هيكل.. فهو ظاهرة غير مسبوقة، ولم تتكرر على الأقل حتى الآن.. رجل جمع فى يديه خيوط الصحافة والسياسة معا، واقترب من أعلى قمة فى السلطة، وكان من الممكن أن يفقده الغرور توازنه.. ومع ذلك ظل محتفظا بتوازنه، وبرأسه بين كتفيه، ولم يقل أنا نصف إله!!

الباحث عن المتاعب !
وتبحث عنه المتاعب !

الشائع أن حياة هيكل كانت هادئة وسهلة وجاءه النجاح والثروة على طبق من ذهب.. وهذا يخالف الواقع تماما.. فقد كانت حياته منذ البداية مليئة بالمتاعب، إن لم يبحث عنها فإنها تبحث عنه.

فى الحقيقة لم يكن هيكل باحثاً عن المتاعب إلا كصحفى يتحمل الكثير لكى يظفر بسبق صحفى، ولكن المتاعب هى التى كانت تبحث عنه، وتطارده،حتى يمكن القول بأن حياته كلها كانت سلسلة من المتاعب حتى وهو فى أوج مجده متربعا على عرش الصحافة المصرية والعربية، ومؤثرا فى الأحداث، ومشاركا- على نحو ما- فى القرار السياسى.

بدأت متاعبه من الطفولة، كان والده تاجرا، وأراد أن يلحقه بالأزهر، ولذلك أدخله فى مدرسة من مدارس التعليم الأولى التى تعد للالتحاق بالأزهر، ولم ينقذه سوى طموح أمه فانتهزت فرصة غياب أبيه فى السفر واستعانت بشقيقها الذى نقله إلى المدرسة الأميرية وكان ذلك انقلابا جذريا فى حياته.. وعادت متاعبه بعد أن انتهى من دراسة التجارة المتوسطة وضغط عليه والده ليعمل معه فى التجارة، لكنه استطاع أن يفلت من الحصار وذهب يدرس الصحافة فى القسم الحر بالجامعة الأمريكية، ووجد الفرصة للالتحاق بصحيفة إجيبشيان جازيت.

فترة التكوين المهنى من سنة ١٩٤٢ حتى ١٩٤٤ قضاها فى جريدة (الإجيبشيان جازيت)، وقد دخلها للتدريب العملى. بينما كان يدرس الصحافة فى القسم الحر بالجامعة الأمريكية، وكان مدرس مادة الخبر الصحفى هو «سكوت واطسون». وكان من كبار محررى الإجيبشيان جازيت. وكان معه ثلاثة من زملائه الدارسين فى الجامعة الأمريكية، ولم يكمل مشوار المهنة سوى يوسف صباغ الذى أصبح بعد ذلك أحد مساعدى هيكل فى الأهرام، وانتهت فترة التدريب لكن رئيس تحرير الإجيبشيان جازيت توسم فيه موهبة يمكن الاستفادة بها، فقرر تعيينه فى الصحيفة، وهكذا خطا أولى خطواته مساعد مخبر فى قسم الحوادث، وبعد أن كان يحصل على أربعة جنيهات فى الشهر أثناء فترة التدريب، أصبح مرتبه ١٢ جنيها، ثم زاد إلى ١٨ جنيها فى الشهر أوائل سنة ١٩٤٥، وساعده ذلك على الاستقلال عن أسرته والاعتماد على نفسه.

فى الفترة المبكرة ظهر استعداده لمواجهة المتاعب، فتطوع للذهاب إلى العلمين، مراسلا حربيا مبتدئاً، لمتابعة القتال فى العلمين أثناء الحرب العالمية الثانية.

فى هذه الفترة كان يذهب إلى مطعم (الباريزيانا) القريب من الجريدة للغداء مع فيليب حنين رئيس قسم الشئون المحلية فى الإجيبشيان جازيت، وكانت السيدة روز اليوسف الفنانة والصحفية الكبيرة تتردد على هذا المطعم، وقدمه إليها فيليب حنين، وكانت روز اليوسف معروفة بتشجيعها للصحفيين المبتدئين، فدعت هيكل إلى مائدتها، ثم دعته إلى روز اليوسف، وفى روز اليوسف كان لقاؤه الأول مع الصحافة العربية. وكان يعرف إحسان عبد القدوس ابن روز اليوسف منذ الطفولة عندما كانا زميلين فى مدرسة خليل أغا الابتدائية.

ثم جاءت المصادفة لتلتقى مع الموهبة.. دخل هيكل يوما إلى مكتب رئيس تحرير الإجيبشيان جازيت (هارولد إيرل) فوجد عنده محمد التابعى صاحب ورئيس تحرير آخر ساعة.. فى اليوم التالى اتصل به التابعى ودعاه إلى لقائه.. وسأله التابعى: (كيف

ترى مستقبلك؟) ثم قال له:(مهما فعلت فى الجازيت فإن المستقبل محصور وضيق، فهى جريدة تصدر فى مصر بلغة أجنبية، وتوزيعها بعد الحرب سوف يتقلص، والصحفى المصرى مجاله فى الصحافة المصرية، باللغة العربية، ويكون له قراء فيها.. هذا هو المستقبل).

يروى هيكل ما دار فى هذا اللقاء ويقول: (إن التابعى بعد ذلك رفع سيجارته المنتصبة فى مبسمها الذهبى بين شفتيه، وراح ينظر إلىّ بعينيه اللتين يختلط فيهما الرمادى والأخضر والأزرق، وقد تدلت نظارته على أنفه، وامتد بصره إلىّ من فوق إطار النظارة)!

وهكذا انتقلت من الجازيت إلى آخر ساعة.

يقول هيكل : لم يكن الانتقال سهلا، ففى حين أن رئيسى الأول (هارولد إيرل) رأى أن (الجريمة) و(الحرب) هما مجال التكوين الأصلح والأمثل للصحفى، فإن رئيسى الثانى – محمد التابعى- كان يرى أن المسرح والبرلمان هما المجال الأنسب والأوفق، ولأسابيع وجدت نفسى فى كواليس مسارح القاهرة بدلا من ميادين القتال، ثم وجدت نفسى فى شرفة مجلس النواب بدلا من محافظة القاهرة التى تصب فيها أخبار كل جريمة تحدث فى مصر.

ويقول هيكل: إن متابعته الصحفية لمجلس النواب جعلته يقترب من السياسة المصرية، ويصف تجربة العمل مع التابعى بأنها كانت ممتعة وتعلم منه الكثير، وأصبح شديد الإعجاب بأسلوبه الحلو السلس، فكان يقلده، وكانت تلك الفترة-مهنيا-فترة العثور على توازن بين ثلاثة تأثيرات كانت تتجاذبه: عقلانية هارولد إيرل، ورومانسية سكوت واطسون، ثم حلاوة أسلوب التابعى. وكانت آخر ساعة فى ذلك الوقت مجلة وفدية، فوجد نفسه أقرب إلى الوفد بحكم المصادر المتاحة، ويقول: إن إحساسه الغالب أن اقترابه من الوفد كان مجرد تأثير مناخ، وليس نتيجة مؤكدة لاختيار وقرار، ولكننا

سنلاحظ أن علاقاته بزعماء الوفد ظلت مستمرة، حتى بعد أن ناصبت الثورة الوفد العداء!

□□□

وفى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ خرج الوفد من الحكم بإقالة الملك للنحاس باشا، وأصبحت آخر ساعة فى المعارضة بعد تشكيل حكومة ائتلافية من أحزاب الأقلية، برياسة أحمد ماهر رئيس حزب السعديين تحت جناح القصر.

وصدرت أخبار اليوم الأسبوعية بعد شهر واحد من إقالة النحاس، وكان صدورها، ونجاحها حدثا صحفيا وسياسيا ضخما، بسبب سلسلة المقالات المثيرة التى كان يكتبها مصطفى أمين لعدة شهور تحت عنوان (لماذا ساءت العلاقات بين القصر والوفد؟) وكانت مليئة بالأسرار والقصص المشوقة، كما كان على أمين قد أعد تصميما جديدا لأخبار اليوم قريباً من تصميم صفحات الصنداى اكسبريس البريطانية، كما كان تأثير هذا اللون من الصحافة البريطانية فى الشكل والمحتوى من أسرار نجاح أخبار اليوم، لأن فيها مزيجاً من التسلية والترفيه، والإعلام الدعائى كما يقول هيكل ويضيف بأن هذا الوصف لصحافة بيفر بروك مالك الديلى إكسبريس والصنداى إكسبريس، كتبه الصحفى البريطانى الكبير هارولد إيفانز رئيس تحرير التيمس الأسبق فى كتابه (أوقات طيبة.. أوقات سيئة). وفى كل الأحوال فإن أخبار اليوم كانت المدفعية الثقيلة الموجهة إلى الوفد تدك مواقعه دكا عنيفا صباح كل سبت.. وكان الوفد فى موقف لا يحسد عليه: مطرود من الحكم بالإقالة، ومحاصر تحت دك المدفعية الثقيلة بأخبار اليوم. وكان ذلك ما جعل التابعى يحاول محاولة أخيرة لتطوير آخر ساعة حتى تستطيع أن تقف إلى جانب الوفد فى وجه هذه المدفعية الثقيلة، كان التابعى أستاذا لمصطفى أمين وعلى أمين، ولم يكن سهلا عليه أن يجد صحيفتهما الأسبوعية تسبق مجلته وتفوقها بكثير من نواح عدة.

وبدأ التابعى بنفسه عملية تطوير آخر ساعة، وكان هيكل قد أصبح سكرتير التحرير، ولم تنجح تجربة التطوير، وزادت الأعباء المالية على التابعى بوصفه مالك آخر ساعة، وهكذا قبل عرض مصطفى أمين وعلى أمين ووافق على بيع آخر ساعة. وفى يوم فى بداية سنة ١٩٤٦ قال التابعى لهيكل إنه قرر أن يبيع آخر ساعة، والمشترى الجديد هو أخبار اليوم.

وكانت العلاقة بين التابعى وهيكل قد أصبحت علاقة حميمة، وكان يعتبره اكتشافا قام به شخصيا، فصارحه بأنه سوف ينتقل هو نفسه إلى أخبار اليوم ليكتب مقالا أسبوعيا فيها، وأضاف: وهم يطلبونك أيضا: لقد أصروا عليك بالتحديد. وهم لا يريدون من طاقم آخر ساعة سوى أربعة بالتحديد هم: التابعى، وهيكل، وصاروخان، والدكتور سعيد عبده الطبيب الذى هوى الكتابة، وكان أحسن من كتب الزجل السياسى فى مصر فى الثلاثينات والأربعينات.

وبعد أن ذاع الخبر، عرض أميل زيدان- أحد صاحبى دار الهلال- على هيكل رئاسة تحرير مجلة (الاثنين)، وكانت مجلة سياسية تصدر وقتها عن دار الهلال، وكان مصطفى أمين رئيس تحرير لها قبل ذلك وبلغت فى عهده أوج الانتشار، وبعد خروجه منها فى نوفمبر ١٩٤٤- بعد صدور أخبار اليوم- تأثرت أحوالها.

هكذا عرض على هيكل رئاسة تحرير مجلة سياسية من مجلات الدرجة الأولى وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين، ولكنه عندما صارح التابعى باتجاهه لقبول هذا العرض قال له التابعى: (راجع نفسك.. إن مجالك سوف يكون أوسع فى أخبار اليوم، ثم أضاف بصوت مشحون بالتأثر والكبرياء إنه لا يريده أن يتركه وحده، خصوصا وأنهم متمسكون به) وفى هذه اللحظة دخل على أمين، ولم يكن هيكل قد لقيه من قبل، واقبل عليه على أمين فاتحا ذراعيه يقبله ويقول له: إنه يهنئه بانضمامه إلى أخبار اليوم، ويهنئ أخبار اليوم بانضمامه إليها.. وأضاف إنه كان يتابع عمله، وكان يتمنى أن يعمل معه فى أخبار اليوم ولكنه لم يشأ أن يحرم التابعى من جهوده، إلى أن أتاحت

الظروف كل الفرص مرة واحدة. وحين أخبره التابعى بعرض دار الهلال، هز على أمين رأسه بشدة وقال: مكانه الحقيقى معنا فى أخبار اليوم.

هكذا وجد هيكل نفسه محررا فى أخبار اليوم، وسكرتير تحرير آخر ساعة فى نفس الوقت، وكانت آخر ساعة تشغل دورا على السطح فى عمارة تملكها إحدى شركات التأمين فى شارع قصر العينى.

يقول: بالطبع كانت هناك فترة ملاءمة، وأكاد أقول فترة احتكاك، لكنها مرت، وكان صاحب الفضل الأكبر فى اندماجى فى الجو العام فى أخبار اليوم كامل الشناوى وكنت أعرفه من قبل واستهوتنى شخصيته، شاعراً وكاتباً، محدثاً وراوية، فناناً قلب نواميس الكون، فهو ينام بالنهار ويستيقظ بالليل، وله مغامرات وحكايات لا أول لها ولا آخر، وكان هيكل يتهم كامل الشناوى بأنه بوهيمى، بينما كان كامل الشناوى يعيب على هيكل شخصيته الملتزمة بالنظام، كان هيكل يرى أن كامل الشناوى يهدر ثلاثة أرباع وقته، بينما كان كامل الشناوى يرى أن الحياة أجمل من أن تضيع فى العمل.. وكان لكامل الشناوى حكاية حب كل ليلة، وكلها غراميات يائسة تلهمه قصائد حلوة.. وكان مكتبه ملتقى الجميع.

ويصف هيكل على أمين فيقول: إنه كان كتلة متحركة من الحيوية، وكان مع حجمه الضخم يحتفظ بقلب طفل وطيبته، وأحيانا كانت تعتريه حماقة الطفل واندفاعه التلقائى، لكن سرعان ما يعود بمزاج صاف وروح أليفة، وكان على أمين هو (الموتور) الذى يجرى فيه الاحتراق الداخلى يولد الطاقة والحركة، ومصطفى أمين هو السائق الجالس على عجلة القيادة، ويقول هيكل عن مصطفى أمين إنه بدا له شديد الذكاء، شديد النشاط، مع بعض المبالغة فى الحركة، لطيف المعشر حين يريد، لكنه ليس مثل توأمه كتابا مفتوحا، وهذا شأن مخبر صحفى كبير له اتصالاته الواسعة ومصادره المتشعبة وحساباته المعقدة. وفى الشهور الأولى وقعت احتكاكات سريعة بين هيكل ومصطفى أمين، ولكن العمل المشترك والصحبة الدائمة أزاحا كل شىء جانبا.

وفى الفترة الأولى ظهر أيضًا الاختلاف فى الاتجاه السياسى بين هيكل ومصطفى أمين، وقرر هيكل تغيير اتجاهه من التغطية الإخبارية المحلية إلى التحقيق الصحفى. وكان وباء الكوليرا قد انتشر فى مصر، فذهب مع محمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم إلى منطقة ظهور الوباء فى محافظة الشرقية، وأثناء وجوده فيها تقرر إغلاق محافظة الشرقية، وحظر الدخول إليها والخروج منها، وظل يكتب رسائل إلى أخبار اليوم تنقل صورة إنسانية شاملة للحياة فى ظلال الموت.. ولفتت هذه التحقيقات الأنظار إليه، وفاز بها بجائزة فؤاد الأول للصحافة العربية.

□□□

بعد ذلك أقنع على أمين بإعطائه الفرصة للسفر لكتابة تحقيقات فى الخارج، وتحمس على أمين للفكرة، وكانت هذه أول مرة فى الصحافة العربية يظهر مراسل حربى فى مناطق الخطر. وهكذا ذهب هيكل يبحث عن المتاعب فى مناطق الصراع فى الشرق الأوسط وحوله، من الحرب الأهلية فى اليونان، إلى حرب فلسطين من أولها إلى آخرها، إلى سلسلة الانقلابات العسكرية فى سوريا، إلى عمليات الاغتيال فى المنطقة مثل اغتيال الملك عبد الله فى القدس، واغتيال رياض الصلح فى عمان، وقتل حسنى الزعيم فى دمشق، ثم ثورة مصدق فى إيران، ثم ذهب بحثا عن المتاعب وراء المشاكل الملتهبة فى قلب أفريقيا، ثم حرب كوريا، وحرب الهند الصينية الأولى..

وبعد خمس سنوات من التجوال استقر به المقام فى القاهرة.

كان قد حصل على جائزة فاروق الأول للصحافة ثلاث مرات وقرر بعدها ألا يتقدم إلى هذه الجائزة ويتركها لغيره.

وأصبح هيكل صحفيا مشهورا.. وعلى معرفة بأحوال المنطقة ومعرفة شخصية بكل ساستها وحكامها، وأيضا على صلة بالصحفيين من جيله فى دول العالم الذين جمعته بهم ميادين القتال ومواقع الأحداث، وكان ذلك كافيا لكى تزداد حوله المتاعب.



وتفتحت أبواب السياسة المصرية أمامه قبل الثورة، وفى ذلك الوقت كان باشوات مصر قد تعودوا على مجموعات من الصحفيين يقفون على أبواب الوزارات يسألون الداخلين والخارجين عن الأخبار. يقول هيكل: كان من حسن حظى أننى لم أقف على باب أحد، ولم أسأل أحدا فى شىء أثناء مروره فى ردهة أو نزوله على سلم، وقد سبب ذلك لى حساسيات مع البعض، ومع الأسف لم أستطع إقناعهم أن الحياة مع الخطر هى التى فتحت لى الأبواب، وأعفتنى من الوقوف على الأعتاب.

ومثال ذلك أنه عندما عاد من فلسطين لأول مرة بعد أن كتب سلسلة تحقيقات بعنوان (النار فوق الأرض المقدسة) تلقى دعوة من رئيس الوزراء فى ذلك الوقت محمود فهمى النقراشى ليسأله عما رأى ويدقق فى السؤال، ولم تكن مصر قد قررت دخول الحرب.

وأصبح هيكل نجما.

أصبح رئيسا لتحرير آخر ساعة ومساعدا لرئيس تحرير أخبار اليوم فى نفس الوقت، وكان التابعى سعيدا بذلك، ودعاه هو وعلى أمين ومصطفى أمين للعشاء فى بيته ومعهم أم كلثوم، للاحتفال بمناسبة تعيينه رئيسا للتحرير وكل ذلك قبل قيام الثورة وظهور عبد الناصر.

□□□

ووجد هيكل نفسه مضطرا للذهاب إلى منطقة القناة بحثا عن المتاعب، بعد أن اشتدت المقاومة الشعبية ضد الاحتلال البريطانى، بعد أن ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦، وصباح يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ اتصل به أحمد حسين زعيم الحزب الاشتراكى- مصر الفتاة سابقا- يسأله: ماذا تفعل فى مكتبك والشارع المصرى يفور ويغلى؟ ونزل ليتابع حريق القاهرة، والتقى فى هذا اليوم بالبكباشى جمال عبد الناصر الذى كان قد قابله أول مرة فى الفالوجا أيام حرب فلسطين، وزاره عبد الناصر فى مكتبه بعد ذلك.. مرة جاء يسأله عن الانقلابات السورية، وما الذى يجرى فيها، ومرة ليطلب منه نسخة من

كتابه عن أزمة تأميم البترول فى إيران بعنوان (إيران فوق بركان).. وكان عبد الناصر قد نزل مع غيره من الضباط إلى شوارع القاهرة يوم حريق القاهرة بعد أن عجز البوليس عن السيطرة على الموقف وتقرر نزول الجيش.

□□□

وكان أقرب الأصدقاء إلى هيكل هو نجيب الهلالى رئيس الوزراء مرتين قبيل الثورة، وكان متحمسا لشعاره (التطهير والتحرير) كمحاولة أخيرة قبل أن يجىء الطوفان! وحين كلف نجيب الهلالى بتشكيل الوزارة فى مارس ١٩٥٢ سأل هيكل فيمن يصلحون معه لتولى المناصب الوزارية، وكان ذلك فى حضور الدكتور محمود محفوظ زوج ابنة نجيب الهلالى.. يقول هيكل: وكانت هذه أول مرة أجد نفسى فيها وسط لعبة السياسة العليا فى مصر، ورشحت له فيمن رشحت اللواء محمد نجيب وزيرا للحربية، وذهب نجيب الهلالى لمقابلة الملك فاروق، وعاد إلى مكتبه وكان هيكل فى انتظاره مع الدكتور محمود محفوظ، وفريد زعلوك، وقال له: إن مرشحك لوزارة الحربية لم يلق قبولا من الملك الذى سألنى: هل تعرفه؟ فقلت: لا، وسألنى: هل تضمنه؟ واحترت.. فقال لى: إذن ابحث عن غيره.

فى ذلك الوقت كانت أخبار اليوم محور حياته، وتحولت العلاقة التى تربطه بأصحابها إلى ما يشبه علاقة الأخوة، خصوصا بالنسبة لعلى أمين، فكان هيكل شاهد زواجه الأول، كما كان على أمين شاهد زواج هيكل بعد ذلك سنة ١٩٥٣.. وعندما سافر مصطفى أمين وعلى أمين إلى أمريكا معا على طائرة واحدة كتبا إقرارا ووصية، وعهدا إلى هيكل بأن يفتحهما وقت اللزوم ويكون مسئولا عن تنفيذهما، واحتفظ هيكل بالإقرار والوصية بعد ذلك. وكان نص الإقرار كما يلى:

(فى حالة وفاة على أمين ومصطفى أمين صاحبى دار أخبار اليوم وجميع صحفها وشركة التوزيع الخاصة بها يتألف مجلس إدارة لإدارة الدار من محمد التابعى، وأحمد عنان، وأم كلثوم، وكامل الشناوى، ومحمد حسنين هيكل، وجلال الدين

الحمامصى، وزكى عبد القادر، وعبد العزيز عبد العليم، وحسين فريد، وحافظ جلال، ولهم وحدهم حق إدارة الدار ورسم سياستها وتعيين محرريها وعمالها وتحديد أجورهم ووضع سياسة المستقبل، وتخصص جميع أرباح الدار لإنشاءات فى الدار نفسها أو مشروعات صحفية فيها، ولرفع مستوى العمال والمحريين فى الدار، وتحسين الصحف، ويعتبر هذا إقراراً منا لمجلس الإدارة المذكور بانتقال الملكية إليه فى حالة الوفاة، ولا حق لأحد من الورثة أو غيرهم فى التدخل أو ادعاء الملكية أو التصرف، وهذا الإقرار هو هبة منا فى حالة وفاتنا، ونشهد الله على هذا الإقرار والله على ما نقول شهيد. ٣١ ديسمبر ١٩٥٣- الإمضاء: مصطفى أمين على أمين).

وكان نص الوصية كما يلى قد كتبها مصطفى أمين بخطه:

(فى حالة عدم قبول الإقرار الأول الذى وقعناه، وصية، فى حالة وفاة مصطفى أمين وعلى أمين معا نوصى بثلث ما نملك من مال وعقار ودور ومطابع وصحف إلى عمال وموظفى الدار الحاليين ممثلين فى مجلس إدارة مكون من: محمد التابعى، وأحمد عنان، وأم كلثوم، وكامل الشناوى، ومحمد حسنين هيكل، وجلال الدين الحمامصى، وزكى عبد القادر، وعبد العزيز عبد العليم، وحافظ جلال، وحسين فريد، على أن تخصص جميع الأرباح لإنشاءات فى الدار نفسها ومشروعات صحفية ولرفع مستوى العمال والمحررين فى الدار.

وهذا إقرار منا بذلك، والله على ما نقول شهيد. وكل ما نريده أن تلتزم صحف الدار الخطة السياسية والتقاليد التى سارت عليها منذ إنشائها-٣١ ديسمبر ١٩٥٣- إمضاء: مصطفى أمين، على أمين).

□□□

وكانت الشهور الأولى من سنة ١٩٥٢ فترة جيشان هائل تشير إلى أن عصرا يعيش آخر أيامه.

الرصاص يدوى فى منطقة القناة، ووصل إلى حد قيام الجيش الإنجليزى بمذبحة لقوات البوليس المصرى الذى قاوم ببسالة. والقاهرة تحترق. والجماهير حائرة أينما التفتت وجدت فسادا، والملك مشغول بميلاد ولى العهد، والأحزاب لم تعد تمثل شيئا أو تعبر عن شىء، والجيش فى حالة قلق انعكس فى انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط، والوزارات تشكل وتسقط بغير سبب ظاهر، ففى ٦ شهور فقط شهدت مصر وزارة النحاس تقال، ووزارة على ماهر بعدها ترغم على الاستقالة، ووزارة نجيب الهلالى الأولى تستقيل، ووزارة حسين سرى بعدها، ثم وزارة خامسة برئاسة نجيب الهلالى.. وزارة جديدة كل شهر تقريبا!

كان كل شىء يشير إلى أن الثورة على وشك القيام.

□□□

أسرار هيكل كثيرة، وما نعرفه منها ليس سوى قمة جبل الجليد العائم، ما يختفى منه فى الأعماق أضعاف ما يظهر منها للعيون.

من هذه الأسرار- مثلا- ما ذكره فى حوار مع عادل حموده عن لقائه مع حسن البنا مؤسس (الإخوان المسلمون) وقال: إن حسن البنا جاءه فى مكتبه فى أخبار اليوم فى سنة ١٩٤٦، وكان ينتظر عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية كى يعطيه أحد بيانات الجماعة، وأن حسن البنا عرض عليه بعد ذلك أن يكون سكرتير تحرير جريدة (الإخوان المسلمون) ولكنه اعتذر، فعهدوا بهذا العمل إلى عبد الحليم الغمراوى وكان محررا فى الأهرام، وقال الغمراوى لحسن البنا: إن الجريدة بحاجة إلى شبان، فرشحوا هيكل، وذهب هيكل إلى حسن البنا فى مقره العام بالحلمية، بعد صلاة الجمعة، ويقول: دخلت المسجد، فى وقت كان حسن البنا يخطب فيه خطبته الشهيرة التى وصف فيها الإخوان برهبان الليل وفرسان النهار، وبعد أن انتهى فتحنا موضوع الجريدة، وأتذكر أننى سألته سؤالا مهنيا عن قارئ الجريدة: من يكون؟ وكيف تصل إليه؟ فقال: إذا كنت تسأل عن التوزيع فلا تقلق من هذه الناحية، أنا كنت أتحدث عن محتوى الجريدة

ونوعية قارئها، وهو سؤال سهل وصعب فى وقت واحد، ولكنه قال: إن مصر بها أربعة آلاف قرية، كل قرية منها بها مكتب دعوة من اثنى عشر فردا، ولو اشترى الجريدة هؤلاء فقط لكان التوزيع ٤٨ ألفا قبل النزول إلى الباعة. لذلك قلت له إن هذا غير ممكن، وأضفت: إننى أخشى أن أقول إن فى دعاوى الوطنية ودعاوى الدين والدعاوى الكبرى لابد أن نفرق بينها وبين سلع تباع، لأن القارئ عندما يدفع قرشا فى صحيفة فهو يختار ما يرضى مزاجه، فلا تقيده بما تتحدث عنه، ابعد عنه موضوعات الدعوة، والوطنية، ودعه يختار السلعة التى يعتقد أنها أنفع له، ويقول: وكان من المتوقع أن نختلف، وهو ما حدث، ثم بعد ذلك سافرت حتى لا يتكرر العرض.

وبعد سنوات جاءته المتاعب من الإخوان المسلمين.

يقول: فى سنة ١٩٦٥ جاءت أزمة جديدة فجّرها سيد قطب، وأنا مستعد أن أحترم رؤية سيد قطب، لكنه فى النهاية كان مجرد رد فعل وليس فاعلا، فقد تأثر بأفكار أبى الأعلى المودودى القادمة من باكستان، وأنصار سيد قطب لا يخفون ذلك، وهى أفكار أعتقد أنها غير قابلة لأن تعيش فى مصر، فهى أفكار مناسبة لأقلية مسلمة تعيش فى محيط من الأغلبية الهندوكية، فهى تعبير عن احتجاج انسلاخى كامل من جو يمتلئ بالتعصب والفتنة، وهو جو لا وجود له فى العالم العربى.

وأحاطت هيكل المتاعب فى حياة عبد الناصر بسبب إصراره على عدم دخول الاتحاد الاشتراكى، واختلافه مع قياداته التى كانت قد تحولت إلى مراكز قوى، وازداد ضغط المتاعب بسبب رفضه الانضمام إلى التنظيم الخاص الذى كان يضم قيادات المؤسسات الصحفية مع قيادات العمل السياسى والتنفيذى والقضائى، وكان هو الوحيد الذى رفض الانضمام إليه، ولم يغضب منه عبد الناصر، لكن الجميع غضبوا، وظلوا ينتظرون الفرصة لينالوا من هذا المتمرد، أو المتعالى، أو الذى يعمل فى قلب النظام ومع قمة النظام ويصمم- مع ذلك- على أن يكون مستقلا، وأن يوجه النقد- علنا فى مقالات منشورة- لأداء الاتحاد الاشتراكى وقياداته.! وازدادت الخصومة معه

بسبب رفضه تشكيل وحدة فى الأهرام للتنظيم الخاص (السرى) للاتحاد الاشتراكى، وإن كان قد علم بعد ذلك أنه تم تشكيل هذه الوحدة دون علمه.

وأحاطت به المتاعب بعد رحيل عبد الناصر، حيث تصور خصومه والمتربصون به أن الفرصة قد سنحت لهم لتصفية الحسابات، وإفراغ ما فى نفوسهم من حقد عليه؛ فعلى المستوى السياسى هوجم هيكل بصورة جعلت هذا الهجوم يتحول إلى حرب عليه شخصيا، وتولى قيادة هذه الحرب الرئيس السادات بنفسه، فقد أحدث خروجه من الأهرام دويا ترددت أصداؤه فى الصحافة العالمية وانعكست على القيادة السياسية فى مصر، وكُتبت مقالات كثيرة فى أكبر الصحف البريطانية والأمريكية تقول إن السادات يستطيع أن يحكم بدون هيكل، ولكنه كان يستطيع أن يحكم بصورة أفضل ومعه هيكل.

وازدادت المتاعب بازدياد الهجوم على عبد الناصر وعصره ومحاولات تشويه إنجازاته ورجاله وأولهم بالطبع محمد حسنين هيكل الذى كان فى نظر الرأى العام الوجه الآخر للعملة من شدة ارتباط اسمه باسم عبد الناصر. وهو يقول عن تلك الفترة: بعد حرب أكتوبر كانت التوجهات والاختيارات- والتى لا أناقش صحتها- من شأنها أن تحدث تناقضا بين حاضر المجتمع وماضيه، ولم يكن تناقضا بالدرس والتحليل وإعادة الفحص، إنما كان تناقضا بالحملات والتشهير، كان من الممكن أن نقول إن مصر- الثورة- أنجزت مرحلتها، ونحن نريد أن نستبدلها بشىء آخر، لكننا قلنا: إن الأمس كان إجراميا، مع أن جزءا من الذين قالوا ذلك كانوا شركاء فى الماضى، لقد زرعوا فى الناس عقدة الذنب، وحاسبوهم على ما لم يرتكبوه، وبعد هذه الاختيارات أصبحنا مجتمعا بتروليا دون أن يكون لدينا بترول.. مستوى الأسعار والتطلعات، ومستوى الفوارق بين الطبقات، ومجتمع البترول هو المجتمع الذى اختار قبل غيره أن يظهر على الناس بعباءة الإسلام.. هذه الحيرة.. وهذا التناقض هو الذى أخرج إلينا أجيال الاحتجاج..

□□□

وأحاطت به المتاعب عندما قال إن الحياة بالنسبة لأى مجتمع مستمرة، ولكن كل جيل يعيد تفسير مهامه على ضوء المتغيرات التى حدثت فى العالم، فلا أقول اليوم قومية عربية أو وحدة عربية، لأنى لو قلت ذلك أكون حالما، لكن بالرغم من ذلك القومية العربية موجودة، والأسباب الداعية إليها مستمرة، ولكن علينا أن نعيد تفسيرها على ضوء احتياجات العصر. ولابد أن نجد توصيفا للدور الإقليمى. الهدف هو نفس الهدف، مع إعادة ترجمته بما يلائم الظروف.

وعندما تحدث عن مشروع التنمية وقال: إن هناك أشياء تتم لا بأس بها وأشياء غير مفهومة، وهناك مصالح تتحرك، هناك تخبط بين التمسك بالقطاع العام وبيعه.. العالم يتحدث عن التنسيق والتكامل بين دور ضرورى للدولة ودور ممكن وضرورى للقطاع الخاص.. الصين ظلت تنمو بمعدل ١٢٪ ولم ترتكب الحماقة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى.. كارثة الاتحاد السوفيتى الكبرى حدثت عندما عجز عن الدخول فى الثورة الصناعية الثالثة.. أما نحن فقد كنا على خلاف مع التجربة السوفيتية فى كل شىء.. هم بدءوا بالصناعات الثقيلة، ونحن بدأنا بالصناعات الاستهلاكية، وعندما تحولنا إلى الصناعات الثقيلة لم يحدث نقص فى السلع الاستهلاكية كما حدث فى الاتحاد السوفيتى.. ولم يحدث إطلاقا أن ألغيت الملكية الفردية فى مصر، حتى فى قمة الحديث عن الاشتراكية كان نصف الاقتصاد: الزراعة، ومعظم التجارة الداخلية، ونصف الصناعة تقريبا، قطاعا خاصا.. وهل يعقل أن يكون برنامجنا الاقتصادى مستوردا من صندوق النقد الدولى.. كان علينا أن نسأل: هل هو مناسب أو لا؟ ومع ذلك، أنا أقبل أن يكون الصندوق أمامى، ولكن لا يكون كل برنامجى، هذا مع العلم أننى لا أرى سببا فى أخذ برنامج الصندوق ببساطة، لأننا بين دول العالم الثالث الأحسن حظا فى التدفقات المالية التى جاءت إلينا، وكان لابد أن يكون ذلك قاعدة الانطلاق، ولدينا الوسائل التى تسمح بذلك.. وهذا القطاع العام الذى لدينا ليس خاسرا.. إنه يكلف بأعمال لا تتيح له الربح أحيانا، لكن فى الواقع اقتصادياته معقولة،

وقدراته هائلة.. لنقل إن ١٠٪ غير جيد.. لكن الباقى أجاد والدليل على ذلك أن أكبر بيوت الأموال فى الاستثمار المالى، وليس الصناعى، تأتى إلى مصر لتقتنص فرصة الانقضاض عليه، إنهم يعتقدون بوجود فرصة هائلة للشراء.. وهم لن يمكثوا طويلا. سيدخلون إلى سوق إمكاناتها ضعيفة ليشتروا، وعند ارتفاع أثمان الأصول بعد فترة سيقومون بالبيع، ثم يقومون بتصفية مكاتبهم، ويذهبون، إنه ليس استثمارا.

□□□

أسرار هيكل الكثيرة عبارة عن وثائق، وخطابات لها قيمة سياسية وتاريخية، ومحاضر اجتماعات ومباحثات مهمة، ويوميات حرص على كتابتها، بل حرص على أن يكتب ملخصا لكل لقاء وكل مكالمة تليفونية مع عبد الناصر مع تسجيل اليوم والساعة التى تمت فيها، وكذلك الحال فى لقاءاته مع السادات وكل الزعماء الذين قابلهم. أين هذه الوثائق؟ ومتى ينشر مذكراته؟.

وقد سألته: متى ستنشر مذكراتك؟. وكان ذلك فى مقابلة معه فى نوفمبر ١٩٨٧ فقال لى: إن أوراقى جاهزة، وكتابتها لن تستغرق وقتا طويلا، فهى مرتبة ومنظمة، ويمكن لأولادى أن ينشروها كما هى، وإن كنت أفكر فى مشكلة وهى : كيف أتعرض بالحقيقة لأشخاص مازالوا أحياء ، والأمانة تقتضى أن أقول الحق ولا شىء غير الحق، وهكذا أفعل دائما وألزم نفسى به.

وما دام الحديث عن المذكرات والوثائق، فقد فاجأنا هيكل فى مقال فى الأهرام فى أول أكتوبر ٢٠٠٣ بأن العملية الجراحية التى أجريت له فى أمريكا فى نوفمبر ١٩٩٩ كانت لاستئصال جزء من الكلية تبين إصابته بالسرطان، وكانت المفاجأة الثانية بأنه فى أواخر ٢٠٠٠ عندما غاب عن مصر، وذهب إلى أمريكا مرة أخرى للعلاج بالإشعاع وبقى هناك قرابة شهرين، وبعد عودته لاحظ اختفاء بعض أوراقه ومحفوظاته فى مصر، وكان من بين ما اختفى عشرات من كتبه، ويقول: كان فى استطاعتى أن أفهم لماذا تمتد يد إلى الأوراق والملفات إلا أن اختفاء الكتب حيرنى،

وأزعجنى الموضوع فى مجمله، ومع أنه لم يكن فى هذه الأوراق والمحفوظات والكتب شىء فريد أو خطير، فإن ما حدث كان غليظا، ودعوت اثنين من خبراء الأمن المصريين.. رجوتهما بحث الأمر، ثم جلست أستمع ساعتين ونصف الساعة، وخلصت إلى أن الخيارات أمامى محدودة، لأن الواقعة، كما هو ظاهر، ليست جنائية، إنما شىء آخر لا يجدى معه ضيق الصدر، أو نفاد الصبر، ثم إن مجال الظنون فيه أوسع، خصوصا والتجربة السياسية التى عشتها لا تزال تهم كثيرين فى العالم الخارجى، كما فى الإقليم. أو ربما؟

ولم تكن هذه وحدها، فهو يقول فى نفس المقال إنه بعد أحاديثه فى قناة (دريم) الفضائية الخاصة فإن الاعتراض على الحوار كان واردا فى المناخ السائد، وبالتالى فإنه عندما وقع لم يكن صاعقة منقضة، لكن الأسلوب الذى تم به الاعتراض بدا داعيا للاستغراب، فيما يعنيه ويدل عليه، وكان أسفى أننى لم أدفع ضريبة ما قلت بما يحتمله من صواب أو خطأ، إنما دفع غيرى وجاء الدفع فى موضع الوجع (ومرة أخرى لا أزيد).

□□□

وكان باحثا عن المتاعب بقدر ما كانت المتاعب تبحث عنه فى الفترة ما بين ٥ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أول فبراير ١٩٧٤، أى قبل بدء عمليات حرب أكتوبر بيوم واحد وانتهت بعد إتمام الاتفاق المبدئى على فك الارتباط الأول بأسبوع -مسافة أربعة شهور- كما يقول- كانت حاسمة وفاصلة فى تاريخها، وفى هذه الفترة كتب سلسلة مقالات جمعها بعد ذلك فى كتابه (عند مفترق الطرق) وقال فى مقدمته: قبل كتابة ونشر هذه الأحاديث كنت قريبا من قمة السلطة فى مصر، وبعد كتابتها أصبحت مبعدا، ومقصيا، ورضيت. وقبل كتابة ونشر هذه المجموعة من الأحاديث.. كنت أعيش وأكتب فى مصر، وبعد كتابتها ونشرها أصبحت أعيش فى مصر وأكتب خارجها، وقبلت، وأثناء الكتابة والنشر تلقيت النصيحة تلو النصيحة بأن أتوقف (وإلا) ولم أكن على

استعداد لتحمل مسئولية أن أتوقف، ولكنى كنت على استعداد لتحمل مسئولية (وإلا) وتحملتها عن طيب خاطر. بل لعلى لا أتجاوز إذا قلت إننى تحملتها بشىء كبير من الرضا الداخلى والسلام مع النفس، وكنت مقتنعا بأن كل مشتغل بالشئون العامة تواجهه فى حياته لحظة يتحتم عليه فيها أن يقف-دون تردد أو تلعثم-ليجعل صوته مسموعا ومفهوما، ثم ليكون بعدها ما يكون.

ويقول: كان الرئيس السادات يراهن فى الضغط علىّ بأوراق ثلاث ظنها رابحة:

- الورقة الأولى أننى لن أطيق البعاد عن لعبة السياسة العليا فى مصر، وقد كانت أصابعى فيها لأكثر من عشرين عاما، والقرب من لعبة السياسة العليا فى أى بلد فى العالم حالة يمكن أن تكون لها قوة الإدمان.
- والورقة الثانية أننى لن أقدر على الفراق عن الأهرام بعد أن وضعت فيه من سنوات عمرى ما وضعت، أكثر من سبعة عشر عاما هى الشباب كله، وما بعد الشباب!
- والورقة الثالثة هى أننى لن أجد ما أعمله إذا ابتعدت، فالمهنة التى اخترتها لنفسى-الصحافة- أصبحت فى مصر ملكا خالصا لسلطة الدولة، فإذا خرجت من أحد الأبواب فقد خرجت من كل الأبواب.

وأشهد لأنور السادات أنه حاول أن يترك الباب نصف مفتوح بعد الخروج، فكان قراره الأول المنشور فى كل الصحف صباح يوم ٢ فبراير ١٩٧٤ أن انتقل من الأهرام إلى قصر عابدين مستشارا لرئيس الجمهورية، ولم أضع قدمىّ فى قصر عابدين، ولخصت موقفى فى تصريح نشرته صحيفة الصنداى تيمس البريطانية فى عددها الصادر يوم ٩ فبراير ١٩٧٤، وقلت: إننى استعملت حقى فى التعبير عن رأيى والرئيس السادات استعمل سلطته.. وسلطة الرئيس قد تخول له أن يقول لى: أترك الأهرام، ولكن هذه السلطة لا تخول له أن يحدد لى أين أذهب بعد ذلك، القرار الأول يملكه وحده.. والقرار الثانى أملكه وحدى!

وخرجت، ولم أعد بعدها.. ولا أظننى أريد أن أعود!

لم أعد-ولا أظننى أريد أن أعود-إلى لعبة السياسة العليا.

ولم أعد-ولا أظننى أريد أن أعود- إلى الصحافة، بما فيها الأهرام، على رغم أن الرئيس-بعد عروض أخرى بمناصب أكبر فى الدولة، بينها منصب مستشاره للأمن القومى (كيسنجر بتاعى) على حد تعبيره بالنص-أو منصب نائب رئيس الوزراء-عاد فقال لى فى ربيع سنة ١٩٧٥ إننى أستطيع أن أعود إلى الصحافة إذا أحببت وفى أى مكان أريده، على شرط واحد، وهو أن (ألتزم)!

وكان ردى عليه يومها-نقلا عن دفتر مذكراتى لتلك الفترة:

سيادة الرئيس: إننى لا أعرف بالضبط ما هو بالضبط ما تطلب منى أن ألتزم به، ولا أتصور أنه فى مقدور أحد أن يلتزم خارج قناعاته، ولقد كتبت ما كنت مقتنعا به، وما اعتبرته جوهر التزامى، ولكنك غضبت، ثم إننى لا أظنك ترضى لى-وأنا بالقطع لا أرضى لنفسى- أن أخرج بقرار ثم أعود بقرار.. قد أخرج بقرار،ولكنى أظل صحفيا بالمعنى الذى أفهمه، ولكنى إذا عدت بقرار فلن أعود صحفيا بالمعنى الذى أفهمه.. إننى لست من الذين يستشهدون بكارل ماركس ويعتبرون أقواله إنجيلا مصدقا، ومع ذلك فإننى من المعجبين بقول مأثور له مؤداه: إن التاريخ لا يكرر نفسه، وإذا فعل فإن المرة الأولى تكون دراما مؤثرة، وأما المرة الثانية فإنها تصبح ملهاة مضحكة.. وأنا لا أريد أن أعود إلى الصحافة ظلا باهتا وما كنت ذلك يوما.. ذات يوم كنت فى الأهرام، وكنت أفكر وأكتب، وأقرر، وأتحرك، دون أن التفت خلفى.. سوف أجدنى مترددا فيما أفكر واكتب، وسوف أجدنى مهموما بما وراء ظهرى أتلفت إليه محاولا تأمين نفسى مما عساه يصل إليك عما أقول أو أفعل، وذلك شىء لا أريده، كما أنى لست فى حاجة إليه.

□□□

هذه كلمات هيكل عن ذروة المتاعب التى سعى إليها وسعت إليه.. ولكنها لم تكن الوحيدة.. سبقها الكثير.. ولحقها الكثير.

وهو يقول إن أسبابا للخلاف وقعت بين الرئيس السادات وبينه قبل حرب أكتوبر.اختلفنا سنة ١٩٧١ فيما كان يقوله عن (سنة الحسم) وكتبت ونشرت آرائى دون إلحاح..واختلفنا سنة ١٩٧٢ فى الطريقة التى أخرج بها السوفيت من مصر، وفى الطريقة التى عالج بها مشكلة ما أسماه (الفتنة الطائفية) وحاولت معه بقدر ما استطعت.. واختلفنا سنة ١٩٧٣ فى مواجهات اندفع إليها دون مبرر-من وجهة نظرى-مع شباب الجامعات، ألقى بهم فى السجون، وقدمهم للمحاكمات، ومع جماعات من المثقفين والصحفيين نقلهم بجرة قلم إلى مصلحة الاستعلامات، والتزمت بموقفى، وإن حاولت جاهدا أن أتفادى ما يقترب من حد الاستفزاز.. وقد غضب عدة مرات وثار،واتهمنى بأننى أريد أن أفرض عليه آرائى، وأننى أتجاوز الخط الفاصل بين دور الصحفى ومسئولية الحاكم، وردد بعض ذلك فى خطب علنية، وحاولت مخلصا أن أشرح له موقفى.. وكان رأيى أن حرية الصحافة بالمعنى الحقيقى هى حرية مناقشة صنع القرار، والعوامل المؤثرة عليه، والمناخ المحيط به، والنتائج التى يمكن أن تترتب بعدها.. ولم يكن ذلك رأيه فى حرية الصحافة.. كان القرار فى رأيه مسئولية الحاكم وحده، وكنت مستعدا أن أوافقه على ذلك عن معرفة بظروف العالم الثالث، ولكن مسئولية إصدار القرار شىء، وحق مناقشة هذا القرار، وتقييمه، وما يتصل به من مقدمات ونتائج شىء آخر.. ولم يكن على استعداد لأن يقتنع، ومن جانبى كنت حريصا على ألا تصل الأمور إلى صدام.

□□□

لكن الصدام وقع.

وحدث ما لم يكن يتوقعه أحد.

خرج هيكل من الأهرام.

ومنع من السفر.

وأحيل للتحقيق أمام المدعى الاشتراكى تمهيدا لمحاكمته على آرائه.



ثم دخل السجن فى ملحق مزرعة طرة مع أكثر من ٥٠٠ شخصية سياسية وصحفية وأساتذة جامعات فى حركة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١، وهى الفترة التى أطلق عليها (خريف الغضب)!

وكانت الأزمة التى واجهها هيكل بعد نشر كتابه (خريف الغضب) الذى كتبه بالإنجليزية وصدر فى لندن وترجم إلى كل اللغات ونشرت الطبعة العربية فى بيروت بعد نشرها فى حلقات فى عدد من الصحف العربية، واشتد عليه الهجوم من كل اتجاه.. حتى من تلاميذه وأصدقائه الذين كانوا أقرب الناس إليه بعد نشرها فى صفحات فى عدد من الصحف العربية، ولم يجد السلوى إلا فى خطاب مفتوح كتبه توفيق الحكيم بعنوان (من توفيق الحكيم إلى هيكل) وأرسله إلى الأهرام لنشره فرفض الأهرام نشره، فأرسله توفيق الحكيم إلى صحيفة الأهالى فنشر على صفحاتها، وكان نص الرسالة كما يلى:

أنا معتقد أنك متأكد من عدم موافقتى على كتاباتك السياسية، لأنك تتذكر ما كان يقوم بيننا من خلاف عندما كنا نجتمع فى جلسات مجلس الإدارة بالإهرام، حيث كنت أوجه إليك الهجوم العنيف، ثم تنتهى الجلسة فإذا بذراعى فى ذراعك، ونذهب لتناول الطعام معا، ونحن نبتسم ونضحك.. ذلك أن علاقتنا تقوم على أمرين: الثوابت والمتغيرات، أما الثوابت فهى المحبة والمودة، وأما المتغيرات فهى الآراء من سياسة وغيرها، ولا نخلط أحدهما بالآخر، وإننى أكتب اليوم كى أهدئ من أعصابك بدافع هذه المودة والمحبة، وأنا بالذات لسبب واحد هو: أن حالتى تشبه حالتك، فأنت كتبت كتابا هو (خريف الغضب) اعتبر هجوما ضد السادات بعد موته، وأنا كتبت كتابا هو (عودة الوعى) اعتبر هجوما على عبد الناصر بعد موته.. وقد يفسر الغضب عندك بأنه وضعك فى السجن، أما أنا فلم يضعنى عبد الناصر فى السجن.. فلم يبق أمام العالم العربى إلا التفسير الواحد: (عدم الوفاء) وربما (النفاق) لعهد آخر.. واليوم أيضا تقوم ضدى القيامة لكتابة أخرى: قيل إنها ضد الله تعالى.. فأنا الآن فى وحدتى التى تعرفها، لا زوجة ولا ولد، أعيش مع الله وأناجيه فقالوا: إن هذه المناجاة ضلال

وإخلال وطردونى من جنة الله وانهالت علىّ خطابات الغوغاء وحتى بعض العقلاء تترحم على عقلى الذى ذهب، والتخريف الذى جاء مع الشيخوخة.. كل الذى يهمنى بالنسبة لك ولى هو عدم احترام (الرأى الحر).. فاكتب رأيك.. ولأكتب رأيى.. وليس من الضرورى أن يعجبنى رأيك أو يعجبك رأيى.. المهم أن يوجد الرأيان، والأهم أن يكون المجتمع خاليا من السلطة الواحدة المسيطرة برأى واحد فى إمكانه إسكات كل صوت غيره.. ولقد كان يحكى لنا فى الحكايات والأساطير القديمة أن للملك وزيرين، وزيرا عن يمينه ووزيرا عن يساره أو شماله، هو وزير المشملة، كما كنا نسميه ضاحكين.. ولم نكن نسأل عن اختصاص كل وزير.. اليوم أود أن يكون وزير الميمنة هو الوزير المؤيد للحاكم، ووزير المشملة هو الوزير المعارض، والحاكم يستمع إلى كل وزير بعين الاهتمام، ويستخلص رأيه بعد فحص الرأيين بكل دقة ونزاهة.. ولقد قلت للمشايخ الأفاضل الذين زارونى فى مكتبى بالأهرام ليسألوا عن حقيقة موقفى من الدين والله والحساب.. فقلت لهم: مادام يوجد حساب فى الآخرة فأنا مطمئن، لأن معنى الحساب أنه محكمة يسمح لى فيها بإبداء دفاعى.. لأن كل اتهام لابد له من دفاع.. وفى الدار الآخرة لابد أن الحساب سيكون فى جو من الهدوء والصفاء يجعل الدفاع مسموعا.

أما فى الدنيا فإن أصوات الغوغائية مقترنة أحيانا بأصوات للمفرقعات تجعل صوت الدفاع يخرج مخنوقا يثير الضحك والاستهزاء أكثر مما يثير الرحمة والرثاء، فلنا الصبر.. ولك منى الثابت فى حياتنا المودة والمحبة. توفيق الحكيم.

ورد عليه هيكل برسالة مفتوحة نشرتها الأهالى أيضا..

وهذه كلها حكايات سيأتى ذكرها فيما بعد.

حياة كلها معارك

حياة هيكل كلها متاعب ومعارك.. منذ البداية.. وربما يكون قد قرر اعتزال الكتابة على أمل أن يكف عنه الأذى ويصرف عنه كيد الحاقدين عليه، ولكن ذلك لن يتحقق، ومكتوب عليه أن تتكاثر عليه المتاعب كلما صعد نجمه.. ولأن نجمه صعد إلى ذرى عالية لم يبلغها أحد قبله، فكان عليه أن يلاقى من المتاعب والمصاعب والمكائد ما لم يلاقه أحد قبله.. وهو يعلم ذلك جيداً.. وذكاؤه هو حصن الأمان.. ولذلك وضع لنفسه قاعدة ألا يرد على الاتهامات والافتراءات التى توجه إليه، وقال لنفسه: إما أن تضيِّع عمرك فى الدفاع عن نفسك، وإما أن تغمض عينيك وأذنيك عما يفعله الآخرون ضدك.. وتتفرغ لعملك.. وكانت نتيجة هذه الفلسفة أن تفرغ لكتابة آلاف المقالات وعشرات الكتب وأصبح له اسم له بريق فى العالم.

وعلى سبيل المثال هناك كتاب ألفه ضياء الدين بيبرس بعنوان (هوامش على قصة محمد حسنين هيكل) ونشره فى بيروت عام ١٩٧٥ وبعض ما فيه يصلح لمعرفة جوانب من شخصية هيكل وتاريخه.

يروى ضياء الدين بيبرس قصة خطاب أرسله هيكل إلى مصطفى أمين يدافع فيه عن نفسه؛ لأنه نشر فى آخر ساعة عام ١٩٤٦ حديثاً مع على الشمسى باشا أجراه معه فى مكتبه بالبنك الأهلى، ولكن على الشمسى باشا أرسل تكذيباً قال فيه: إن هذا الحديث مختلق، ونشر مصطفى أمين التكذيب، ويقول هيكل فى خطابه إن الحديث صحيح ولا توجد لديه أسباب شخصية أو عامة تدعوه للاختلاق. وقرأ مصطفى أمين

الخطاب ووضع عليه تأشيرة.. (دوسيه هيكل) والخطاب محفوظ فى أرشيف أخبار اليوم إلى اليوم. (وإن كنت أنا شخصيا لم يصادفنى هذا الخطاب فى أرشيف أخبار اليوم).

ويقول ضياء الدين بيبرس: كان مصطفى أمين يعلم أن هيكل صادق، وأن تكذيب على الشمسى باشا هو المكذوب، لأن الشمسى باشا هو الذى أخبر مصطفى أمين بأن الحديث صحيح وأنه صرح بنشره، ولكن هناك عناصر حزبية شاءت استغلاله للإساءة إليه وإلى البنك الأهلى. من هنا فوجئ هيكل بنشر التكذيب وهو لا يعلم أنها كانت صفقة هو ضحيتها.. وبعد عشر سنوات كان على الشمسى باشا يطرق باب هيكل مبعوثا من أسرة تقلا ويطلب منه أن يقبل رئاسة تحرير الأهرام، وسأله: أمازلت غاضباً من قصة التكذيب إياه؟. وأجابه هيكل: غاضب لا.. مندهش نعم! وإذا بعلى الشمسى باشا يحكى له القصة كلها..

ويروى ضياء الدين بيبرس أن أحد عشر صحفياً من ألمع محررى أخبار اليوم ذهبوا إلى على أمين فى عام ١٩٤٩ وقالوا له: إما نحن، وإما هيكل. وفوجئ على أمين بالإنذار، وكان يعلم أنهم جادون لأن جريدة (المصرى) كانت تتفاوض معهم للانتقال إليها، وسألهم على أمين: لماذا؟ فقال أولهم: هيكل غامض، وقال ثان: هيكل خطير، وقال ثالث: هيكل ألعبان، وهكذا إلى أن جاء الدور على عبد الرحمن الشرقاوى فقال: إنه ليس عنده شخصياً شىء يأخذه على هيكل، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل رأى كل هؤلاء فيه، وضحك على أمين وقال لهم: هذه شتائم وليست اتهامات.. وأنا أطلب ذكر واقعة محددة تثبت أنه خطير أو أنه ألعبان أو.. أو. فقال أحدهم: إن هيكل حذر أكثر من اللازم ولا يعطى لأحد فرصة ليمسك عليه دليلاً.

□□□

وفى عهد عبد الناصر، وفى أوج مجده فى الأهرام، كانت هناك جهات تكيد لهيكل، ولم يسلم من الإيذاء بشكل مباشر وغير مباشر. مثلاً تم القبض على نوال

المحلاوى مديرة مكتبه والأمينة على أسراره، وقيل: إن هذه (شدة أذن) لهيكل نفسه، كما تم القبض على أقرب الناس إليه: الدكتور جمال العطيفى ولطفى الخولى.. وكانت هذه السهام موجهة إليه شخصياً.. وفى عهد عبد الناصر!

ويروى ضياء الدين بيبرس كيف أن هيكل لم يكن يعطى لأحد فى أخبار اليوم فرصة لينال منه، ويحكى أن الصحيفة صرفت له ٨٠٠ جنيه تحت حساب رحلة لتغطية الحرب فى كوريا، وذهب إلى ميادين الحرب شهراً كاملاً، وعند عودته رد المبلغ لأن التكاليف كانت على حساب الجهة المضيفة، وكان ذلك -طبعاً- سبباً لإثارة ضغينة زملائه! وحدث مرة أن مدير حسابات أخبار اليوم وهو يراجع كشف حساب قدمه هيكل عن رحلة لسوريا لتغطية أنباء انقلاب حسنى الزعيم أن شطب بنداً ذكر فيه هيكل ثمن باقة زهور أرسلها إلى زعيم الانقلاب السورى يوم أذيع خبر جراحة عاجلة أجريت له، ورد هيكل على ذلك بأن أرسل إلى مدير الحسابات باقة من الزهور، ولما سأله عن المناسبة أجاب باسماً: نوع من الشكر لك لحرصك على أموال الدار!

وعندما قامت الثورة اعتقلت مصطفى أمين وعلى أمين فى ثالث أيامها يوم ٢٥ يوليو ١٩٥٢ وصدر بيان أعلن أن ذلك إجراء تحفظى بعد أن أثبتت رقابة التليفونات نشاطهما ضد الثورة، وذهب هيكل إلى جمال عبد الناصر وقال له: إن مصطفى وعلى أمين نجمان صحفيان عالميان. والثورة محتاجة إلى كسب الصحافة العالمية فى صفها، وسوف تكسب أكثر إذا أطلقت سراحهما وكسبتهما إلى صفها، وكان فى ذلك ما يقنع عبد الناصر فأطلق سراحهما مع بلاغ رسمى يبرئهما فيما يشبه الاعتذار لهما.

ولم يسلم هيكل من كيد زملائه بعد أن صعد إلى موقع رئيس تحرير الأهرام، لأن مصطفى أمين وعلى أمين طلبا إليه أن يستمر فى رئاسة تحرير آخر ساعة بالإضافة إلى رئاسة تحرير الأهرام لمدة سنة، وأثار ذلك حفيظة من كانوا يتعجلون الحصول على مكانه فى آخر ساعة.

وقد دفع هيكل ثمن المكانة التى حظى بها..

في مايو ١٩٥٣ ارتج مبنى أخبار اليوم، لأن جمال عبد الناصر جاء إلى الدار واتجه إلى مكتب هيكل وهو رئيس تحرير آخر ساعة.. وبعد وقت طويل دار فيه حوار منفرد بينهما رفع هيكل سماعة التليفون وطلب على أمين في مكتبه وقال له:

- عندى مفاجأة لك.. تفتكر من عندى ويريد أن يراك؟.

وأجاب على أمين:

- إن قلت إنه عبد الناصر فأنا أعلم أنه عندك.

قال هيكل:

- إذن فتعال.. فهو يريد أن يراك.

وكان حضور عبد الناصر إلى هيكل في مكتبه حدثا.. فهذه أول مرة يذهب فيها الحاكم إلى الصحفي، ولا يقف الصحفي على باب الحاكم.. ولم يكن ذلك سهلا على جيله من الصحفيين الذين كانوا يرون أنهم أحق منه بهذه المكانة.. وهذه طبيعة البشر!

وقد أراد أحد رؤساء التحرير أن ينافس هيكل ويثبت لعبد الناصر أنه أقدر من هيكل في تدعيم مكانته في نفوس الناس، فكتب مقالا - في أكتوبر - ١٩٦٤ قال فيه: إن عبد الناصر خسارة في الشعب المصري، وإنه كان يجب أن يكون زعيما لشعب متحضر مثل الشعب الإنجليزي أو الشعب الأمريكي لكي يثمر فيه جهد عبد الناصر.. وأغضب المقال عبد الناصر؛ لأنه رأى فيه مبالغة في النفاق تسيء إليه وإلى الشعب المصري..

وحدث أن حضر عبد الناصر جلسة سرية لمجلس الأمة عام ١٩٦٥ صارح فيها الأعضاء ببعض الأسرار، وطلب منهم أن يحفظوها سرا بينه وبينهم لثقته فيهم، وكان رؤساء تحرير الصحف حاضرين في هذه الجلسة وكان عبد الناصر يعلم أن ما قاله في الجلسة السرية سوف ينتشر في أدنى البلاد وأقصاها، ولكن سيكون ذلك شفاهة على ألسنة الناس ولن ينشر منه شيء في الصحف.. وفي اليوم التالي طلع هيكل على القراء

بمقال حام فيه حول تصريحات عبد الناصر دون أن يذكر شيئاً منها، وشعر رئيس تحرير صحيفة أخرى أن هيكل سبقه وظهر وكأنه يعلم الخفايا فنشر نص حديث عبد الناصر- يوم ١٩ مايو- ١٩٦٥ بتوقيعه الصريح، وبعد ساعة من طرح الصحيفة فى السوق كان مفصولاً من عمله (!) وظل الصحفى الكبير طول حياته يحمل فى قلبه الضغينة لهيكل.

وقبل ذلك- فى عام- ١٩٥٥ كان عبد الناصر فى باندونج وكان رؤساء التحرير وكبار الصحفيين معه، وأثار الجميع أن هيكل يلتقى وحده مع عبد الناصر وينفرد بالأخبار، فذهب اثنان من كبار الصحفيين إلى عبد الناصر وقالا له: إن الوفد الصحفى المصرى مستاء من انفراد هيكل باهتمام الرئيس، وإنهم يعتقدون أن هيكل يدس لهم عند الرئيس، وإلا فلماذا يظفر هو بأخبار الرئيس وحده؟. وكان الصحفيان يعتبران أنهما صديقان قديمان لعبد الناصر، لكنه فاجأهما بقوله: لا مانع من عودة من يريد منكم إلى القاهرة ويتذاكر من الرئاسة دون انتظار طائرة الرئاسة للعودة.. ثم قال لهما: إن عليهما أن يتعلما الصحافة من هيكل!.. ولم يكن ذلك سهلاً عليهما وعلى غيرهما. وكان على هيكل بعدها أن ينتظر المكائد والدسائس فى الخفاء وفى العلن!

□□□

وازداد الحقد عليه بعد أن أصبح الصحفى الوحيد الذى يحضر جلسات المباحثات والاجتماعات الخاصة التى يعقدها عبد الناصر، ولكى يحسم عبد الناصر الجدل حول حضور هيكل كان يضع اسمه ضمن وفد مصر الرسمى، ويكلفه بنقل رسائل غير رسمية إلى رؤساء الدول.. وكان من نتيجة ذلك أن تعرض عبد الناصر لضغوط لم يسبق لها مثيل، ليس من الصحفيين الكبار فقط، ولكن من زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة، ونواب الرئيس، والوزراء، وظل البخار يتجمع سنة بعد سنة إلى أن خصصت اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى جلسة كاملة فى عام ١٩٦٩ لمحاكمة هيكل، وسبق الجلسة تحضير واتصالات لكى يقف الجميع ضده بعد أن فاض بهم الكيل من

الحظوة التى يتمتع بها عند عبد الناصر حتى أصبح أقرب الناس اليه وأكثرهم اطلاعا على أسراره.

فى هذه الجلسة تحدث على صبرى وكان قد أصبح أكبر رأس فى الاتحاد الاشتراكى بعد عبد الناصر وعامر. عن تأثير علاقة هيكل بعبد الناصر على الصداقة الأبدية بين مصر والاتحاد السوفيتى.. بعد هذه الجلسة بأسابيع قامت الجمارك فى مطار القاهرة بفتح حقائب على صبرى وهو عائد من زيارة للاتحاد السوفيتى ووجدت فيها كميات من السجاد الفاخر والنجف الكريستال والحلى الذهبية، وفى اليوم التالى نشرت الصحف الخبر، ولم ينشره الأهرام! واضطر على صبرى إلى تقديم استقالته من مناصبه.

لكن هذه الجلسة العاصفة فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى أثارت عبد الناصر؛ لأنه- بذكائه- أدرك أن كل ما قيل فيها أمامه كان مدبراً (ومتفقاً) عليه.. قيل:إن ما يكتبه هيكل يثير البلبلة فى الرأى العام، ويؤدى إلى شعور بالإحباط والانهزامية- بعد النكسة- خاصة بعد مقاله (تحية إلى الرجال) الذى شرح فيه لأول مرة الصعوبات التى ستعترض القوات عند عبور قناة السويس، وصوروه على أنه سيؤدى إلى التأثير فى معنويات القوات المسلحة، بينما كان عبد الناصر يرى أن هذه المقالة مفيدة؛ لأنها موجهة إلى الإسرائيليين والأمريكيين ليضعوا فى حساباتهم أنه لن يحارب بينما هو يعد الجيش للحرب.. لذلك أصغى عبد الناصر إلى الجميع بهدوء وخرج هيكل أقوى مما كان.

قبل ذلك كان هيكل قد دخل فى كمين دون أن يدرى ولو كان قد وقع فيه لكانت نهايته.. كان فى موسكو مع رئيس الأركان وكان وقتها الفريق عبد المنعم رياض، الذى كان يجرى مباحثات سرية جداً حول الأسلحة اللازمة لإعداد القوات المسلحة للحرب، وأراد عبد المنعم رياض أن يضمن ألا تقع الرسالة فى أيدى أحد من عفاريت الظلام المنتشرين فى العالم، فأعطى هيكل رسالة مغلقة فيها أدق تفاصيل عروض التسليح،

وطلب منه أن يسلمها إلى القائد العام الفريق محمد فوزى.. وقال له: هذه أحسن طريقة لضمان السرية، لأنه لن يتصور أحد أن أدق أسرار الدولة يحملها صحفى ضمن أوراقه.. وفرضت على هيكل رقابة محكمة طول الوقت- دون أن يدرى طبعا- وكان المتوقع أن يدفع الفضول الصحفى هيكل إلى فتح المظروف لمعرفة ما فيه حتى لو لم يكن للنشر. ولكن تحركات هيكل المرصودة أكدت أنه سلم المظروف كما هو إلى الفريق فوزى دون أن يحاول معرفة ما فيه.. وكانت فكرة هذا الكمين للفريق فوزى، ربما لتكون دليلاً أمام عبد الناصر على أنه يضع ثقته فى رجل لا يستحقها!

يقول ضياء الدين بيبرس: فى وقت من الأوقات كانت المخابرات السوفيتية تقوم برصد تحركات ومقابلات هيكل فى خارج مصر بالتعاون مع المخابرات المصرية، وجاءت النتيجة مؤكدة التزام هيكل لولائه الكامل لمصر ولعبد الناصر.

لذلك لم يكن غريبا أن يدافع عبد الناصر عن هيكل فى جلسة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى .

قالوا إن هيكل يدعى أنه يتحدث باسم الرئيس.. فقال لهم عبد الناصر: هاتوا كلمة واحدة تؤدى هذا المعنى.

وقالوا: إن هيكل يثبط همة الشعب والجيش بعد نكسة ٥ يونيو ويقول باستحالة الحرب فى سيناء، فقال عبد الناصر: إن هيكل قال ما أقوله وما يقوله أى إنسان أوتى ذرة من الفكر الاستراتيجى، فقد أثبتت النكسة أن الجيش المصرى فى حاجة إلى إعادة البناء وليس فقط إعادة التسليح.. إعادة بناء العلاقات بين الجندى والقائد، وبين الجيش والشعب، وإعادة تدريب لاختراق حائط الخوف أو أسطورة إسرائيل التى لا تقهر وإعادة حسابات الموازين الدولية.. وسكت قادة الاتحاد الاشتراكى عندما وجدوا عبد الناصر يكرر عبارات من مقالات هيكل.

□□□

وعندما أصدر عبد الناصر قراراً بتعيين هيكل وزيراً للإرشاد مع استمرار بقائه رئيسا لتحرير الأهرام كانت هذه سابقة لم تحدث فى أى بلد فى أى وقت.. وزير وصحفى فى نفس الوقت.. ومع أن وزارة الإرشاد قدمت إليه مرتب الوزير مع مذكرة تقول: إن قرار تعيينه تضمن الجمع بين المنصبين. وهذا يعطيه الحق فى الجمع بين مرتب الوزير ومرتبه من الأهرام رفض استلام مرتب الوزير وظل كذلك إلى أن استقال من الوزارة عقب وفاة عبد الناصر. وكان قرار التعيين فى منصب الوزير مفاجأة لهيكل لأنه ظل يرفض عروض عبد الناصر المتكررة لمنصب وزير الإرشاد، وقيل: إن جميع الوزراء تسبق أسماؤهم كلمة السيد فلان فى القرار الرسمى لتشكيل الوزارة، لكن القرار حين عرض عبد الناصر لتوقيعه شطب كلمة (السيد) ووضع بخطه كلمة (الأستاذ) وكانت هذه أول مرة وآخر مرة على رغم تعيين أعداد من (الأساتذة) وزراء قبل ذلك وبعده. ومازالت النسخة الأصلية للقرار عليها الشطب وخط عبد الناصر.

وفى الاجتماع العاصف للجنة المركزية قال عبد الهادى ناصف - أمين الدعوة والفكر- إن هيكل يتصرف كما لو كان فوق القانون،فهو يهاجم الاتحاد الاشتراكى، على رغم أنه موظف تابع للاتحاد الاشتراكى وكل الصحف مملوكة للاتحاد الاشتراكى وهو بذلك يعطى الانطباع بأن القيادة السياسية تريد أن تقلم أظافر التنظيم السياسى الذى يتولى قيادة تحالف قوى الشعب العاملة، وأن هيكل مضى فى استفزاز التنظيم الدستورى فى مصر إلى حد أنه تحدى علنا الأمين العام للاتحاد الاشتراكى السيد على صبرى.

وأمسك عبد الناصر بالسبب الحقيقى لهذه الحملة..

لأن هيكل كان قد فرغ من إعادة تنظيم الأهرام وأخبار اليوم، واستغنى عن حوالى ٤٠ من المشاغبين، وغير المنتجين، وعواجيز الفرح، واستغلت قيادات الاتحاد الاشتراكى الفرصة، وتحرك الأمين العام للاتحاد الاشتراكى بنفسه ليبدو فى صورة المدافع عن حرية الصحفيين. وهو يعلم أن هؤلاء ليسوا صحفيين ولكنهم محسوبون على الصحافة

ويسيئون اليها.. ولكنها لعبة السياسة.. مع أنه لم يتحرك أحد فى الاتحاد الاشتراكى حين قام رئيس تحرير صحيفة أخرى بفصل طه حسين و٣٨ من أكبر الكتاب.. وكتب على صبرى بصفته الأمين العام إلى هيكل يطلب إليه إعادة هؤلاء العاطلين، فرد عليه هيكل بأن ما أجراه من تعديلات من صميم اختصاصه وهدفه الصالح العام، وأحال على صبرى هذا الرد إلى عبد الناصر فكان تعليق عبد الناصر: عندما يصل الاتحاد الاشتراكى إلى مستوى تنظيم الأهرام فإننى سأعطى على صبرى الحق فى أن يدس أنفه فى شئون هيكل!

وهذا ما كان يقصده عبد الهادى ناصف بقوله: إن هيكل يتحدى سيادة الأمين العام للاتحاد الاشتراكى، والتقط عبد الناصر ما كان خافيا من دوافع هذا الهجوم المنسق، وأدرك ما هو أبعد من ذلك: إن الهدف الحقيقى هو ضرب أقرب رجاله وتقليم أظافره هو شخصيا.. وطبعا فطن عبد الناصر إلى اللعبة، وحسم الجدل بقوله: يا إخوانى.. هيكل موضع ثقتى وموضع ثقة البلد.. ونصف خدماته للنظام وللبلد لا يصل إليكم كما ينبغى، والنصف الآخر أنتم لا تعرفونه أصلا.. وعلى كل حال أنا حر فى اختيار أصحابى..

وسكت الجميع..

والحكاية من المحاضر السرية للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى التى نشرت بعد ذلك.

□□□

وطلب الاتحاد السوفيتى من عبد الناصر بصفة رسمية إقصاء هيكل من رئاسة تحرير الأهرام.. المرة الأولى قدموا الطلب بالطريق الدبلوماسى إلى عبد الناصر. والمرة الثانية قدموه إلى السادات مباشرة.. ونشرت الصحف السوفيتية المعبرة عن الحكومة والحزب الشيوعى مثل برافدا، وازفستيا، مطلب الاتحاد السوفيتى بإقصاء هيكل

واستياء القيادة السوفيتية مما يكتبه في الأهرام لأنه لا يخدم العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي.. ولم يستجب عبد الناصر والسادات..

كان الاتحاد السوفيتي غير راض عن فكرة القومية العربية التي ينادي بها عبد الناصر ويروج لها هيكل. لأن القومية تتعارض مع نظرية الدولية الشيوعية، ولأن الاتحاد السوفيتي كان يحارب ويقمع النزعات القومية في داخله، وكان غير راض أيضا عن النهج الذي تسير عليه مصر ويرى أنها لا تطبق الاشتراكية العلمية الماركسية وترفع شعار الاشتراكية العربية، أحيانا ترفع شعار التطبيق العربي للاشتراكية، وتربط أحيانا بين الاشتراكية والإسلام والاتحاد السوفيتي يحارب الأديان وحدث تباعد بين السياسة العربية والسياسة السوفيتية من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦٢ عندما حدث في مصر التحول الاشتراكي، بينما كان الشيوعيون في المعتقلات، ولكن الموقف تغير ١٨٠ درجة، وعندما زار خروتشوف مصر طلب أن يذهب هيكل إلى موسكو ويركب معه السفينة في الرحلة البحرية إلى الإسكندرية ويقضي معه أربعة أيام في البحر يلتقي به خلالها ثلاث ساعات كل يوم، ولكنه كان يقضي معه الليل بطوله في حوارات عن الشرق الأوسط والعالم العربي، ولكن ذلك لم يمنع هيكل في عهد السادات من الهجوم على التآمر السوفيتي والأمريكي مع العدوان الإسرائيلي للإبقاء على حالة اللاسلم واللاحرب، وكان هيكل أول من كشف أن الروس يعطون السلاح لمصر بتقتير وبالثمن وبالقدر الذي يضمن الدفاع فقط، واحتج الاتحاد السوفيتي وطلب من السادات إبعاد هيكل عن الأهرام، لكن هذه المقالات كانت تمهيدا لقرار السادات بطرد السوفييت.

□□□

وفي يوليو ١٩٧٢ نظم هيكل ندوة في الأهرام عن العلاقات المصرية السوفيتية شارك فيها إسماعيل فهمي وكان وقتها الوكيل الأول لوزارة الخارجية، وقال اسماعيل فهمي في الندوة: إن الاتحاد السوفيتي خطط لاستمرار حالة اللا سلم واللا حرب وكان يمكن أن يساعد العرب أكثر مما فعل، وأنه يمد العرب بالسلاح بالقطارة وبشكل غير

فعال من حيث الكم والكيف، وأن الاتحاد السوفيتى فى طريقه للمساومة مع أمريكا على حساب مصالح العرب.. وكان من نتيجة نشر هذه الندوة أن أصدر وزير الخارجية - الدكتور مراد غالب- قراراً بإحالة إسماعيل فهمى إلى المعاش لأنه تخطى واجبات وظيفته وأدلى بآراء تسىء إلى علاقات مصر بدولة تربطها بها معاهدة صداقة.. وبعد أيام صدر قرار جمهورى بإخراج مراد غالب من الوزارة وتعيينه سفيرا بها، وإعادة إسماعيل فهمى إلى منصبه..

ودارت الأيام ووجد السادات أن إسماعيل فهمى هو الرجل المناسب ليكون وزير الخارجية فى وقت كان يحتاج فيه إلى وزير له موقف إسماعيل فهمى المعادى للسوفييت.

□□□

مشكلة هيكل الكبرى أنه ظل موضع هجوم فى العلن وفى السر. وهو يروى بنفسه بعض ما عرفه مؤخراً وكان من أسباب الحملات الدائمة عليه فيقول: (قيل لأحد كبار القانونيين- وقد كتب ونشر ما قيل له- إننى كنت وراء ضرر أصابه، ولم أعرف الرجل فى حياتى ولا تشرفت بلقائه. وكان موقفى منه على عكس ما نقل إليه، وفضلاً عن اهتمامى به لقيمته العلمية- والإنسانية باعتباره مواطناً- فقد كان قريباً لصديق كبير لى هو على الشمسى باشا).

وقيل لأحد الزملاء الصحفيين: إنه دعى مرة لمنصب صحفى مهم عن طريقى، وإننى لم أبلغه بالدعوة الموجهة إليه وهكذا ضاعت الفرصة منه، وقد كتب ونشر ما قيل له، ومن ذلك عرفت لأول مرة حكاية أنه كانت هناك دعوة له!

وقيل للكثيرين: إننى كنت وراء اضطهاد تعرضت له (العائلات) فى مصر، بينما كان مكتبى ملجأ لكل (عائلة) لها ما تريد أن ترفع صوتها به. ولا أريد أن استشهد بأحد، لأن الاستشهاد بأحد فى هذا الصدد قد يصبح نوعاً من المن عليه لا يجوز لى ولا يليق به، وقد أعفانى أحد كرام الناس- وهو رجل لم أقابله منذ سنوات- من كل

حـرج، وهـذا الرجـل هـو محمـد علـى فرغلـى (باشـا)، وكـان مـن أبـرز نجـوم الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر قبل الثورة وكان يلقب بملك القطن، وقد أصدر كتاباً يحوى مذكراته بعنوان (عشت حياتى بين هؤلاء) تضمن فصلاً عن تجربته معى، وقد امتد هذا الفصل على مساحة عشر صفحات كاملة من ١٨٧ إلى ١٩٦، وقد روى فيها تفصيلاً كيف (وقفت معه ومع مئات غيره فى ظروف صعبة دون انتظار حتى كلمة شكر) وأثار صدور الكتاب اهتماماً كبيراً فى مصر؛ لأن صاحبه وإن كان من الذين أضيروا بالقرارات الاشتراكية إلا أنه حاول أن يرتفع فوق مصالحه الشخصية.

ولم يجئ صحفى عربى إلى مصر، أو كاتب أو مفكر، إلا وقصوا عليه حكايات أننى حجبت الكل- عنوة- ولا أعرف كيف؟ حتى أصبح (الكاتب الأوحد)، وكان العجب يبلغ من السامعين مبلغه لأن السجلات أمامهم تشهد بالعكس على طول الخط.. لقد كنت أنا الذى تعاقد للأهرام مع صفوة من أقلام مصر وأحسن صحفييها. ولقد تمنيت مرات لو طاوعنى الحياء- أو لعلها الكبرياء- فأنشر بعضاً من رسائل أصحاب هذه الحكايات إلىّ بخط أيديهم يشهدون فيها ويشيدون، فلم يكن هناك بينهم- وبدون استثناء-واحد لم أقف معه، ولم أفتح له طريقاً أمامه بحكم صلات الزمالة لكننى كنت أراجع نفسى وأردها حتى عن مجرد الوقوف أمام طواحين هواء فضلا عن معارك معها.

□□□

ويضيف هيكل:

هل نسى كل ما شهدوا لى به، وآخره ما كتبه الأستاذ على أمين فى (فكرة) قبل أيام من انفجار خلافى مع الرئيس السادات وخروجى من الأهرام.. هو الذى كتب بخط يده يقول: (كنت أتتبع الجهود الضخمة التى يبذلها هيكل لرفع الظلم، ولكن الأقلام الكبيرة أصيبت بالخرس).. كان هو الذى كتب.. وكنت أنا الذى قررت ألا أنشر هذا الكلام عنى.

وكنت أنا -أيام مسئوليتى عن أخبار اليوم بالإضافة إلى الأهرام- الذى أعدت جلال الحمامصى مشرفاً على تحرير أخبار اليوم، وعينت إحسان عبد القدوس رئيساً لتحرير أخبار اليوم، وعينت يوسف السباعى رئيساً لتحرير آخر ساعة.. وكانت هذه أحسن الاختيارات التى وجدتها فى السوق لأعطى أخبار اليوم الفرصة لمنافسة الأهرام، وقد ظل هذا الوضع قائماً قرابة سنتين ثم كنت أنا الذى طلبت الإعفاء من مسئولية أخبار اليوم عندما اكتمل مبنى الأهرام الجديد، ووجدت نفسى أمام مسئوليات الانتقال إليه، وما تفرضه من ضرورات إعادة تنظيم العمل على أسس تلائم نقطة تحول أساسية فى الصحافة المصرية (بالإضافة إلى سبب آخر لا أرى داعياً لذكره الآن).. وقد قُبل طلبى.

وإلى جانب ذلك فلقد كانت جريدة الجمهورية هى جريدة التنظيم الطليعى فى الاتحاد الاشتراكى، وفيها كانت قيادات الصف الأول كلها تكتب، ومعظم ما كتب كان فى معارضة آرائى واعتبار ما أقوله مروقا على خط الاتحاد الاشتراكى.

وكانت هناك دور صحفية أخرى لها رؤساء تحريرها ولها محرروها.. دار الهلال على سبيل المثال، وروز اليوسف.. وهكذا فإننى طوال هذه السنين كلها لم أتجاوز حدود الصحيفة التى كنت أرأس تحريرها وهى الأهرام. وحتى عندما عينت رئيساً لمجلس إدارتها فإننى اعتبرت أن ذلك قرار سياسى وليس قرار مهنة، ولهذا لم أضع اسمى مرة واحدة على الأهرام كرئيس لمجلس الإدارة- وإذن فإن الصحافة لم تكن فى ذلك الوقت صحفياً واحداً- ومع ذلك فإن هذا (الصحفى الواحد) ترك لهم مكانه فى الصحافة المصرية.. وإذن فلماذا؟

□□□

ويقول هيكل:

قيل لى مرات: إن خطيئتى الكبرى أن الأهرام نجح عالمياً- وكذلك كتاباتى فى الدنيا الواسعة بعد خروجى من الأهرام- وإن هذا النجاح فى حد ذاته جريمة لا تغتفر!

ولم أقبل هذا التفسير، فلم أكن صانع الأهرام الحديث وحدى، ثم أليس من سنن الطبيعة أن يقدم كل جيل إضافة إلى ما صنعته أجيال سبقت؟

ولم أكن أطلب من أحد أن يرد لى جميلاً، ولكنى- أيضاً- لم أكن أتوقع جزاء (سنمار).

ومرات حاولت أن أعزى نفسى: لقد كان ذنبى أننى ابتعدت عن كل سلطة، أولم يحدث ذلك لغيرى؟ ألم يتحول الملك فاروق- على نفس النمط- من الوطنى الأول والعامل الأول والفدائى الأول لكى يصبح بعد نزوله عن عرش مصر وخروجه منها أفاقا ولصا وهاتك أعراض على نفس المكان من صحف أخبار اليوم؟، ألم يتحول مصطفى النحاس- على نفس هذا النمط- وهو الذى كان- على الأقل طوال حقبة الثلاثينات- رمزا للمقاومة ضد الاحتلال وضد القصر. إلى خائن وفاسد وألعوبة فى يد زوجته، على نفس صفحات أخبار اليوم؟، ألم يتحول جمال عبدالناصر وهو رمز حركة الحرية والتحرر والعدل الاجتماعى، إلى طاغية وجلاد، بعد أن تأكد رحيله إلى رحاب الله بنفس الأقلام وإن اختلفت ألوان الحبر؟. وأنا بالقطع لا أريد أن أقارن نفسى بالملك فاروق، ولا أتجاوز فأضع نفسى على نفس الدرجة مع مصطفى النحاس،ولا أتجاسر على مقام جمال عبد الناصر، وإذا كان قد حدث لهؤلاء ما حدث.. فلماذا لا يحدث لى نفس الشيء؟.

ثم تفتحت عيناى على حل بسيط لكل هذه المفارقات!! ذنبى أننى كنت شاهدا أتيح له أن يرى ويسمع كل شىء، وكان فى موقع يمكّنه من هذا، والذين يخشون الحقيقة لابد لهم أن يتخلصوا من شهودها.

هناك كثيرون لم يروا ولم يقرءوا.. أجيال جديدة لم تكن معنا منذ البداية.. هناك كثيرون رأوا وقرءوا، لكن الذاكرة تضعف مع الأيام ثم لا يظل فى الأذهان إلا ما تراه العيون وتسمعه الآذان لحظتها.. ثم إن هناك من رأوا وقرءوا، لكنهم يعتقدون فى

الحكمة القائلة بأنه إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب، خصوصا إذا كان فيه ما يزعج السلطان.. وإذن فقد كانت ذنوبى أننى ابتعدت عن أية سلطة، ثم إننى كنت شاهدا رأى معظم جوانب الصورة، ثم إننى قادر على الكلام فى يوم من الأيام، وأعترف، ويشهد على ذلك كل من قابلنى فى هذه الفترة الحافلة بالصخب والضجيج، أننى كنت أتابع ما يكتب وينشر وكأننى أتابع ظاهرة لا تتصل بى ولا تمت إلى بسبب.. وقد بدأت الحملة بدعوى كتابى (خريف الغضب) فى جريدة الشرق الأوسط، وهى الصحيفة التى تشترى من الأستاذ مصطفى أمين بابه اليومى (فكرة) وتنشره فى نفس الوقت مع الأخبار، وجريدة الشرق الأوسط جريدة سعودية تصدر فى لندن. وكان السيد كمال أدهم (رئيس المخابرات السعودية الأسبق) هو مموِّلها وصاحب حصة الأغلبية فيها حتى باع حصته إلى أحد الأمراء السعوديين.. كانت الحملة على وجه اليقين أكبر بكثير من حجم الكتاب، وكان رأيى أن الكتاب تعلة.. وأما العلة الحقيقية فيها، فقد كانت لها أهداف أخرى هى إرغامى على اتخاذ موقف الدفاع عن نفسى، أو إغراقى فى الصمت إلى الأبد حتى لا أتكلم.. أو إضعاف مصداقية ما أقول إذا ما قررت يوما أن أحكى ما رأته عيناى، وسمعته أذناى، ولم يكن الخوف فقط من فتح ملفات ما جرى فى الصحافة المصرية، وربما أعيد التذكير بما قلت من أن الصحافة فى أى بلد هى جزء من الحياة السياسية فيه، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، وفى العالم الثالث عموما فإن السياسة ليست مجرد صراع مصالح اجتماعية وتيارات فكرية ورؤى مستقبلية، إنما هى مع الأسف أيضا- وهذه طبائع التطور ومراحله- حروب دامية من أجل البقاء، ومعارك ظاهرة وخفية، ومطامع ومؤامرات، ثم هى أيضا مخططات قوى عظمى تلعب بمصائر ومقادير شعوب وتحاول فرض سيطرتها على الآخرين وترويض هممهم وإفقادهم الثقة بكل شىء حتى يصبحوا على استعداد للقبول بأى شىء، ثم إعادة تشكيل أفكارهم وأحلامهم بوسائل عديدة تبدأ بالكلمة والصورة، وتنتهى بالمدفع والدبابة!

هكذا يلخص هيكل بنفسه انطباعاته على الحملات المحمومة التى وجِهت إليه بصورة توحى بأنها لم تكن تلقائية، ولكنها كانت عملية اغتيال تسمى فى السياسة الاغتيال المعنوى، أو اغتيال الشخصية.

وكل ذلك لم يكن سوى جانب مما لاقاه، ثمنا لنجاحه، ولأن نجاحه كان مذهلا فإن درجة الحقد عليه أيضا مذهلة.

□□□

واضح أن عبد الناصر كان مدركا لما يمكن أن يسببه قرب هيكل منه من متاعب، لذلك حاول أن يساعده فى الفصل بين شخصيته وشخصية هيكل.. فكان عندما يعتب عليه بعض الزعماء والساسة بسبب ما يكتبه هيكل كان يقول: إنه شخصيا لا يقرأ مقالات هيكل.. وجاء ذلك فى المحاضر الرسمية لمباحثات الوحدة الثانية مع بعث العراق وبعث سوريا فى عام ١٩٦٣، عندما اجتمع زعماء البعث على مقال هيكل (إنى أتهم) الذى فتح فيه النار عليهم، قال عبد الناصر رسميا إنه لا يقرأ مقالات هيكل إلا أحيانا، وبذلك فهو لا يعرف مقدما ما يكتبه، وكرر عبد الناصر ذلك فى لقاءات مع زعماء الاتحاد السوفيتى، والملك حسين، والحبيب بورقيبه، وكان هيكل أيضا يردد ذلك أمام الزعماء ويقول إن عبدالناصر لا يقرأ كل مقالاته.

ومن مشاكل هيكل أنه كان أحيانا يدخل فى معارك مع خصوم عبد الناصر، وعندما تفرض مقتضيات السياسة أن يمد عبد الناصر يده إلى خصوم الأمس تبقى خصومتهم لهيكل، فرجال السياسة قد يتناسون مع نظرائهم ولا ينسون ما يقوله غيرهم.

كتب هيكل كثيرا ضد السياسة الأمريكية، وكتب كثيرا معارضا لمواقف السوفيت، ولكنه فى مواقف كتب مؤيدا للعلاقات المصرية السوفيتية فى وقت كانت فيه مصر محتاجة إلى الاتحاد السوفيتى، وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ وصلت العلاقات بين مصر وأمريكا إلى أسوأ حالاتها، وكان هو الصوت الوحيد الذى ارتفع بأن التناطح مع أمريكا غير ممكن، وعلى مصر أن تعمل مع أمريكا وتسعى إلى تحييدها.. وقامت عليه الحملات،

والذين أرادوا اغتيال هيكل بسبب هذا الرأى هم أنفسهم الذين صفقوا لواقعية وحكمة السادات عندما قال فى يوم ١٦ أكتوبر١٩٧٣ بأنه لا يستطيع أن يحارب أمريكا! وبعد رحيل عبد الناصر كتب هيكل يقول: إن مشكلة الشرق الأوسط لن تحل إلا إذا اتفقت القوتان العظميان، وبدون ذلك فلا حل.. وأطلقت عليه قيادات الاتحاد الاشتراكى ومراكز القوى النار وحركت خلايا التنظيم الخاص للهجوم عليه فى كل مكان.. ويوم ١٣ مايو١٩٧١ انتشرت شائعة عن استقالة هيكل من الأهرام فسهر كبار محررى الجمهورية جميعا لإعداد صفحتين كاملتين تشيعه فيهما بأقلام الشامتين.. وفى آخر الليل صدر نفى عاجل من هيكل لخبر الاستقالة بعد مقابلة عاجلة بينه وبين السادات فتأجل النشر.

ومن الطرائف التى تروى أن عبد الناصر كان فى جلسة مع هيكل فى أعقاب الثورة عام ١٩٥٢ وجاء ذكر الحلاق، فقال عبد الناصر إنه فعلا يحتاج إلى حلاق يؤتمن على دخول البيت والمكتب، فقال له هيكل إن لديه حلاق أخبار اليوم- الأسطى محمد محمود- وله صالون عند مدخل صالة التحرير بها، وأنه يحلق له شخصيا، فقرر عبدالناصر أن يتخذ الأسطى محمد محمود حلاقا خاصا له.. وكانت هذه الحكاية سببا فى ازدياد الحقد على هيكل!

□□□

فى حياة عبد الناصر كان هيكل أقل حرية وأكثر أمنا، وبعد عبد الناصر أصبح هيكل أكثر حرية وأقل أمنا.

بعد وفاة عبد الناصر بثلاثة أسابيع أعلن هيكل استقالته من منصب وزير الإرشاد لكى يتفرغ لجمع أوراقه وذكرياته عن عبد الناصر، واستشهد بأنور السادات شخصيا بأن عبد الناصر ترك على عاتقه أمام حسين الشافعى وعلى صبرى كتابة تاريخه، لأنه يعرف كل شىء، وقامت قيامة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى،

وطالبت بألا ينفرد بكتابة تراث عبد الناصر شخص واحد وتقرر تشكيل لجنة لإحياء تراث عبد الناصر.

وفى ذكرى الأربعين كتب هيكل مقالا بعنوان (عبد الناصر ليس أسطورة) قال فيه: إن عبد الناصر ليس له خلفاء ولا صحابة يخلفونه ويتحدثون باسمه، وأن خلفاء عبدالناصر الحقيقيين هم كل الشعب، فقامت القيامة فى الاتحاد الاشتراكى وأثار على صبرى الأمين العام فى أول اجتماع برئاسة السادات ما قاله هيكل واتهمه بالخيانة العظمى، وما كان من السادات إلا أن دعا هيكل لحضور الجلسة التالية فيما يشبه المحاكمة، وكان حاضرا على صبرى، ولبيب شقير، وضياء الدين داوود، وشعراوى جمعة، والدكتور محمود فوزى، ويدأ هيكل حديثه بقوله: فى البداية أريد أن أحدد ثلاث نقاط:

أولا: أننى لست طالب عمل لأنى أستطيع أن أعيش بقلمى فى أى مكان.. ثانيا: أننى لست طالب منصب، وقد اعتذرت عن منصب الوزير مع عبد الناصر فى عام ١٩٥٦، وعام ١٩٥٨ وعام ١٩٦١ وعام ١٩٦٧.. ثم فوجئت به رغما عنى فى عام ١٩٧٠ يكلفنى ثم ابتعدت عن المنصب فورا غداة رحيل من كلفنى به.. وثالثا: أننى باق فى عملى على رغم علمى بمخاطره، وبالظروف المقبلة فى مصر، وهى ظروف ليست فيها غنائم، إنما كلها ضرائب وأجدنى مستعدا لدفع نصيبى منها.. ويعد ذلك قال لهم: إن عبد الناصر-فعلا- ليس أسطورة، والذين يحاولون أن يجعلوا منه نبيا يسيئون إليه.. ويعد أن أفاض هيكل فى الحديث وظهر أنه كسب المعركة أعلن السادات أنه يعتبر الموضوع منتهيا.

وعندما دخل السادات معركته مع (مراكز القوى) فى ١٥ مايو١٩٧١ كان الجميع فى الصحافة والسياسة مع خصوم السادات لأنهم كانوا المسيطرين على القوات المسلحة والمخابرات والداخلية والإعلام والتنظيم السياسى والتنظيم الخاص. وكان هيكل وحده مع السادات وهو الذى قام بالإخراج السياسى للعملية كلها.. وقبل ذلك كانت قد تجمعت هذه القوى ضد السادات عندما وقّع اتفاق الوحدة مع ليبيا

وسوريا دون أن يشاورهم، وقالوا: إن السادات بذلك ألقى مصر فى أحضان البعث.. وعقدوا اجتماعا للجنة التنفيذية العليا كان أقرب إلى جلسة محاكمة للسادات، بقصد الانقضاض عليه، وتولية على صبرى مكانه باعتباره هو الممثل للفكر اليسارى الثورى الناصرى، ووقف هيكل فى هذه المعركة إلى جانب السادات، وذهب معه إلى اجتماع اللجنة المركزية، وتحدث طويلا عن أن ما فعله السادات ليس خروجا على الخط السياسى لعبد الناصر، كما يقولون، وقدم المحضر الرسمى للاجتماع الذى تحدث فيه عبد الناصر عن الوحدة والذى يؤكد أن الفكرة هى فكرة عبد الناصر، وكان السادات قد قال لهم ذلك فكذبوه، فلما قدم هيكل المحضر الرسمى للاجتماع الذى تحدث فيه عبد الناصر عن مشروع الوحدة مع سوريا وليبيا سكت الجميع.. وخرج السادات منتصرا.

□□□

يذكر ضياء الدين بيبرس واقعة تدخل فى باب التاريخ الذى نسيه التاريخ.. وهى أن هيكل فقد منصبه فى الأهرام عام ١٩٦٣ فى عهد عبد الناصر لمدة ١٣ يوما، ولم ينشر حرف واحد عن ذلك، وكان ذلك انتصارا للمشير عبد الحكيم عامر على عبد الناصر بعد انفصال سوريا، وفرض رجال المشير على المواقع الحساسة وإزاحة رجال عبد الناصر منها، وكانت الحجة أن هيكل ضد الحل الاشتراكى، لأنه كتب يقول: إن الاشتراكية يجب ألا تكون شماعة تعلق عليها مشاكل النظام، وأن التطبيق الاشتراكى يجب أن يمهد له بجهاز إدارى كفء وفعال، لأنه إن خاب أو انهار جعل من مصر أمثولة فى المنطقة بدلا من أن يجعلها مثلا أعلى.

لقد ظل هيكل يكتب خطب عبد الناصر وبياناته ورسائله المهمة دون أن يسبب له إحراجا، وفعل ذلك مع السادات أيضا، ولم يحدث أن استغل موقعه لتحقيق منفعة أو لاستغلال نفوذه، وعلم عبد الناصر أن هيكل معروض عليه أن يترك الأهرام ويكتب فى الصحف العالمية مقابل أجر يماثل ما يتقاضاه من الأهرام عشرات المرات، ورفض

هيكل هذه العروض دون أن يبلغ عبد الناصر عنها، وعرض عليه أن يشترى قصرا من القصور المصادرة والتى حصل عليها من هم أقل منه، ورفض. وبعد ١٥ مايو ظهر من أوراق الاتحاد الاشتراكى أن كبار وصغار الصحفيين كانوا يحصلون من خزانة التنظيم السياسى على أموال طائلة، ولم يكن من بينهم هيكل.. بينما كان فى الأوراق أن شخصا واحدا كان يحمل الشهادة الابتدائية تقاضى من خزانة الاتحاد الاشتراكى ٢٢٤٠٠ جنيه (تساوى الآن نصف مليون جنيه) حولت له بالعملة الصعبة (ولم يكن مسموحا بتحويل أكثر من عشرة دولارات لكل مسافر) بحجة قيامه بجولات فكرية وعقائدية لتوعية الشباب المصرى فى الخارج.!

□□□

روايات ضياء الدين بيبرس كثيرة..ومثيرة.. يلخصها بحديثه عن الاستقامة الشخصية لهيكل، ماليًا، ونسائيًا، لأنه كان يسير على الصراط ولا يعطى فرصة لمن يتابعونه فى السر والعلن لاصطياده والنيل منه، وليس فى ملفات أية جهة ما يمكن أن يؤخذ عليه.

يقول ضياء الدين بيبرس إن المدعى الاشتراكى فى ذلك الوقت الدكتور مصطفى أبو زيد فهمى روى له أنه استمع إلى ٨٢ شريطا مسجلا فإذا بها تحتوى على حكايات وأصوات وأسرار كان يمكن أن تقضى على مئات البيوت لكثير من ذوى الأسماء اللامعة فى السياسة والفكر والصحافة والاقتصاد.. ولم يكن فى التسجيلات ما يمس هيكل من قريب أو بعيد.

وقد أوحت شخصية هيكل إلى توفيق الحكيم بقصة عن قديس ناسك مات دون أن يرتكب خطيئة واحدة فى ديره المنعزل، فلما صعدت روحه إلى السماء رفضت ملائكة جهنم قبوله، لأنه بلا ذنوب، ورفض حارس الجنة قبوله لأنه لم يندم على خطايا ارتكبها ويتوب ليغفر له الله، فأعادته السماء إلى الأرض لكى يواجه موقفا فيه إغراء الشيطان ليقرروا هل يدخلونه الجنة أو النار!

هيكل وعبدالناصر..

علاقة بدأت بالصدفة . .

واستمرت بالوفاء

كان أول لقاء بين هيكل وعبدالناصر فى صيف عام ١٩٤٨ أثناء حرب فلسطين. وشاءت المصادفة أن يلتقى هيكل بالصاغ جمال عبدالناصر عند عودته إلى المنطقة مرة ثانية، ثم جمعت بينهما المصادفة مرة ثالثة بعد الهدنة الأولى، وفى هذا اللقاء لاحظ أن عبدالناصر كان متابعا للتحقيقات التى نشرها عن الحرب وعن الدورة الخاصة التى عقدها مجلس الأمن لمناقشة القضية الفلسطينية ووقف إطلاق النار، وانتهت اللقاءات الثلاثة التى فرضتها ظروف الحرب دون أن تربط بينهما برباط من نوع خاص.

ولكن فى أواخر عام ١٩٤٩ فوجئ هيكل بجمال عبدالناصر يزوره فى مكتبه فى أخبار اليوم. وكان هيكل قد كتب سلسلة تحقيقات من دمشق عن الانقلابات التى تعاقبت على سوريا من انقلاب حسنى الزعيم، إلى انقلاب أديب الشيشكلى، مرورا بانقلاب سامى الحناوى، ثم فوجئ بعد أيام بزيارة بدون موعد من الصاغ صلاح سالم ومعه الصاغ جمال عبدالناصر، وكان هيكل قد التقى مرتين قبل ذلك بصلاح سالم، أما هذه الزيارة فكان الغرض منها هو التحدث فى موضوع خاص بسلاح الحدود، وظل

عبدالناصر يسأل عن تفاصيل الانقلابات فى سوريا، ويركز على شكل الذين قاموا بها والعلاقات فيما بينهم، وأهدافهم، وكيف كانوا يتصرفون، وكيف استقبلت الجماهير السورية هذه الانقلابات، وهل حدثت اضطرابات، وما حجمها؟ وانتهى اللقاء وكأن هدفه مجرد الزيارة للتعارف والدردشة حول آخر ما كتب هيكل.

وفى عام ١٩٥١ زار عبدالناصر هيكل فى مكتبه يوما.. زيارة بدون موعد، وكان هيكل قد عاد لتوه من تغطية أحداث ثورة مصدق التى بدأت بقتل رئيس الوزراء الإيرانى (على رزم أرا) وانتهت بظهور الدكتور محمد مصدق ودخوله فى صراع مع الولايات المتحدة بعد طرده للشاه ومنع البترول عن أمريكا وشعار بترول إيران لإيران، وانتهى الأمر بسقوط مصدق.. وقال عبدالناصر: إنه جاء ليحصل منه على نسخة من كتابه الذى كان قد صدر فى هذه الأيام بعنوان (إيران فوق بركان) واستغرقت الزيارة نصف ساعة كان عبدالناصر خلالها يوجه أسئلة عديدة عن أوضاع إيران قبل ثورة مصدق، وأثناءها، وأسباب فشل هذه الثورة.

□□□

وفى يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢ كان هيكل فى زيارة اللواء محمد نجيب، وكانت أزمة نادى الضباط قد تفجرت بسبب قرار الملك فاروق بحل مجلس إدارة نادى الضباط، بعد أن سقطت قائمة الملك، وفازت القائمة التى رشحها الضباط الأحرار وكان محمد نجيب هو الوجه الظاهر لهذه المجموعة وهو الذى انتخب رئيسا لمجلس إدارة النادى، وكانت هذه الانتخابات فى حقيقتها اختبارا لمدى تأثير الملك، واختبارا للقوى داخل الجيش، وعندما وصل هيكل إلى منزل محمد نجيب وجد عنده يوسف صديق، وسأل هيكل: ماذا ستفعلون؟ فأجابه محمد نجيب: سنرفع دعوى أمام مجلس الدولة نطلب فيها إلغاء قرار الحل. وفى هذا الوقت دخل جمال عبدالناصر ومعه شاب يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا عرف أنه عبدالحكيم عامر، ولم يكن هيكل قد تعرف عليه من

قبل، وعندما لاحظ عبدالناصر وجود هيكل تردد فى الدخول، وأشار إلى محمد نجيب فغادرا المكان معا يرافقهما عبدالحكيم عامر، وبعد ربع ساعة عادوا، ودارت مناقشة بين عبدالناصر وهيكل. قال هيكل مستفزا عبدالناصر: إذا كان الجيش لم يتمكن من الدفاع بالقدر الكافى عن البلد، فعليه على الأقل أن يدافع عن نفسه وعن كرامته، ورد عليه عبدالناصر: وما الذى يمكن أن يفعله الجيش؟ فأجابه هيكل: لا أدرى.. إنما المهم بعد الذى فعله الملك أن يدافع الضباط عن أنفسهم وعن كرامتهم. وقال عبدالناصر: هل يعنى ذلك أن يقوم الضباط بانقلاب كتلك الانقلابات التى حدثت فى سوريا؟ فقال هيكل: أنا لست مع فكرة القيام بانقلاب. فرد عبدالناصر: فما الذى نفعله إذن؟

يقول هيكل: إنه فى هذه اللحظة عرض على عبدالناصر فكرة ساذجة حين قال له: ما الذى يمنع من أن يتوجه ألف ضابط إلى قصر الملك، ويكتبوا فى سجل الزيارات أن الموقف قد تردى، وأنه لابد من معالجة هذا الموقف، فرد عليه عبدالناصر: هذا سيعتبر عصيانا، فقال هيكل: ولكن لابد من حدوث شىء، فسأله عبدالناصر: أنت تكتب فى السياسة، هل لك أن تحدد ما الذى يمكن أن يفعله الجيش؟ وخلال هذه المناقشة كان عبدالحكيم يتابع دون أن يشترك فيها، أما محمد نجيب فقال: إنه سيعد مذكرة تمهيدا لرفع دعوى أمام مجلس الدولة، وسيتكلف رفع الدعوى ثمانية جنيهات، فمد عبدالناصر يده فى جيبه فوجد فيه ستة جنيهات أعطاها لمحمد نجيب، واستمر الحديث عشر دقائق غادر هيكل بعدها منزل محمد نجيب ليركب سيارته، وعند زاوية الشارع لمح جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر واقفين كما لو أنهما فى انتظار أحد أو فى انتظار سيارة تاكسى، فتوقف وقال لهما: هل أوصلكما؟ فسأله عبدالناصر: إلى أين أنت ذاهب؟ قال هيكل: إلى وسط البلد.. وركب الاثنان سيارة هيكل، عبدالناصر إلى جانبه، وعبدالحكيم عامر فى المقعد الخلفى، من الزيتون حيث بيت محمد نجيب إلى وسط البلد.

فـى الطريـق قـال عبدالنـاصر: إنكـم تتكلمـون.. إنمـا لم يقـدم أحدكـم حـلا.. إن الانقلاب غير ممكن.. من الذى سيقوم بالانقلاب؟ وبعد نصف ساعة من الحوار قال عبدالحكيم عامر: سننزل هنا فى محطة باب الحديد.

يقول هيكل فى حوار مع فؤاد مطر: لم أكن أعرف أن هذا الشاب يقود حركة داخل الجيش، ولم يدر فى خلدى أن هذا الشاب طويل القامة ذو الشارب الرفيع الذى يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا يتحرك بصمت، لكننى لاحظت وهو يتحدث أن عينيه تلمعان، وأنه يريد أن يسمع أكثر مما يتكلم، وحين انتقل إلى الحديث عن الانقلاب قال: إن الانقلاب سيؤدى بالبلد إلى كارثة، وفجأة سأل: هل تظن أن الإنجليز سيتدخلون لو حدث انقلاب فى مصر؟ ولاحظ هيكل أن عبدالناصر كان يصغى إلى الإجابة باهتمام.. وقال هيكل: إن الإنجليز لن يتدخلوا، وعندما سمع عبدالناصر هذه الإجابة المقتضبة سأل عن التفاصيل فقال هيكل: إن الإنجليز ليست لديهم قوات كافية للسيطرة على كل المدن المصرية.. والسفير البريطانى فى ذلك الوقت فى إجازة ولدى معلومات أن قائد القوات البريطانية فى الإسماعيلية موجود خارج مصر فى إجازة.. وهذا موسم الإجازات.. وتدخل الإنجليز يحتاج إلى وقت.

وقبل أن ينزل عبدالناصر من السيارة قال لهيكل: من الضرورى أن نكمل الحديث، فقال هيكل: ما رأيك أن نكمله فى مكتبى؟ فسأله عبدالناصر: هل عندك تليفون فى منزلك؟ وأعطاه هيكل رقم التليفون، فاتصل به عبدالناصر فى اليوم التالى وقال له: أنا قابلتك أمس.. هل تذكر؟ وتقابلا مرة أخرى يوم ١٩ يوليو١٩٥٢، جاء عبدالناصر إلى هيكل فى مكتبه وبدأ الحديث فى أمور عادية عن الصحافة وعن المجلة التى كانوا يصدرونها فى الفالوجا، وعن حرب فلسطين وما جرى فى الفالوجا، وبعد نصف ساعة تقريبا وجه عبدالناصر سؤالا شعر هيكل أنه الغرض الأساسى من الزيارة، قال: كنا نتحدث أمس عن الإنجليز وإمكان تدخلهم، فهل يمكن أن تحدد بطريقة مرتبة الأسباب التى قلتها أمس وانتهيت منها إلى أن الإنجليز لايمكن أن يتدخلوا لو حدث انقلاب أو شىء من هذا القبيل، وعرض هيكل فكرته مرة أخرى بوضوح وبتفصيل أكثر.

كان هيكل فى ذلك الوقت معجبا بنجيب الهلالى باشا الذى كان آخر رئيس وزراء قبل الثورة، وكان رأيه فيه أنه رئيس وزراء (عليه القيمة)، وكان يتردد على زوج ابنته الدكتور محمود محفوظ الذى أصبح وزير الصحة بعد الثورة، ونجيب الهلالى هو الذى علم هيكل تدخين السيجار، وكان قد جاء إلى منصب رئيس الوزراء فى ظروف دقيقة بعد حريق القاهرة وإقالة الملك لوزارة مصطفى النحاس وتكليف على ماهر باشا بتأليف الحكومة، وبقى على ماهر شهرا واحدا ثم كلف الملك نجيب الهلالى برئاسة الحكومة، وبدأ نجيب الهلالى حملة تطهير فى الحكومة وقام بفصل أعداد كبيرة من الموظفين الذين نشروا الفساد فى الجهاز الحكومى، ثم بدأ يطالب أحمد عبود باشا بالضرائب المستحقة عليه، وذلك ضمن خطته للتطهير ومحاربة التسيب والفساد، لكن عبود باشا انتصر فى هذه المعركة بعد صفقة مع الياس اندراوس السكرتير الصحفى للملك، وكانت حصة الملك من هذه الصفقة مليون جنيه، ونتيجة لذلك أقال الملك حكومة نجيب الهلالى، وكلف حسين سرى بتكليف حكومة لم تتمكن من البقاء، فأعاد الملك تكليف نجيب الهلالى.

وسافر هيكل إلى الإسكندرية بعد مقابلته لجمال عبدالناصر يوم ١٩ يوليو١٩٥٢، والتقى هناك بالهلالى باشا الذى أخبره بأن الملك كلفه بتشكيل الحكومة وقبول الملك بشرطه عدم تدخل غير المسئولين فى السياسة، وكان الشماشرجية، وخدم القصر، والموظفون والحاشية قد تضخم نفوذهم وأصبحت لهم كلمة فى السياسة، وتأثير على الحكومة والوزراء. وبعد أن حضر هيكل تشكيل الوزارة الجديدة سأله نجيب الهلالى إن كان يعرف أحدا يصلح وزيرا للحربية، فاقترح اسم اللواء محمد نجيب، وحين عاد الهلالى من مقابلة الملك قال له إن الملك رفض ترشيح محمد نجيب وأذيع تشكيل وزارة الهلالى الثانية، فعاد هيكل فى الليل إلى القاهرة، وبعد قليل من وصوله اتصل به ضابط كان يعمل وقتها فى المخابرات هو سعد توفيق، وكان قد تعرف عليه أثناء متابعته لحرب فلسطين، وقال له سعد توفيق إنه يريد أن يمر عليه بعد قليل، وعندما جاء

قال له: الشخص الذى قابلته أمس مرتين يسأل: أين ستكون غدا؟ سأل عنك ولم يجدك.. فقال هيكل: أمضيت اليوم فى الإسكندرية وعدت منذ قليل، فسأله سعد توفيق: هل يعنى ذلك أنك لن تغادر القاهرة خلال الأيام الثلاثة المقبلة؟ فقال هيكل: أنا باق فى القاهرة.

لاحظ هيكل أن سعد توفيق كان يتكلم بطريقة مشدودة، وبغمغمة بعد أن أعطاه أرقام تليفوناته، ثم جاءه مرة أخرى يوم ٢١ يوليو وتحدث عن الأوضاع العامة، ثم جاء إليه للمرة الثالثة يوم ٢٢ يوليو، وبعد حديث فى العموميات قال: أين ستكون لأن صديقك قد يحتاج إليك ويحتمل أن يتصل بك تليفونيا؟ قال هيكل: سأكون فى أخبار اليوم حتى التاسعة والنصف وبعد ذلك سأتناول العشاء فى بيت ماهر دوس. فطلب منه رقم تليفون ماهر دوس وانصرف.. وبعد أن وصل هيكل إلى بيت ماهر دوس اتصل به سعد توفيق وقال له: هل يمكن أن تذهب إلى بيتك؟

يقول هيكل: توجهت إلى بيتى، وحتى ذلك الوقت لم يكن قد خطر على بالى أن البكباشى الذى أصبح صديقى سيقوم بثورة، وكنت فى ذلك الوقت أشعر أن أمرا ما سيحدث، ولكننى لم أتصور أن هذا الأمر هو الذى حدث بعد ذلك.. وفى العاشرة والنصف ليلا كنت فى منزلى عندما اتصل بى فريد زعلوك من الإسكندرية، وكان فى ذلك الوقت وزير دولة فى وزارة نجيب الهلالى ومقربا من الهلالى ، وكان صديقى، وفوجئت به يقول: يبدو أن هنا أمرا ما داخل الجيش، وقد أبلغت نجيب الهلالى باشا عن طريق السرايا أخبارًا عن أمر ما داخل الجيش، وهو يسأل عما إذا كان لديك معلومات عن ذلك، وكان إسماعيل شيرين زوج أخت الملك هو وزير الحربية، وقلت: ليست لدى معلومات.. ما هى بالضبط المعلومات المتوافرة لدى الهلالى باشا؟ وأجاب فريد زعلوك: يبدو أن بعض الضباط خرجوا من الثكنات.

□□□

كان نجيب الهلالى يعرف أن هيكل له صلة ببعض الضباط ومنهم محمد نجيب، وبعد لحظات رن جرس التليفون، وكان المتحدث هو سعد توفيق وسأله هيكل: ما هى الأخبار؟ فأجابه سعد توفيق: يظهر فيه (هيصة).. هناك أمور كثيرة.. وإذا كنت تريد كتابة شىء عما يحدث فهذه حكاية كبيرة جداً..

واتفق معه هيكل على أن يقابله في العباسية، ثم ذهب إلى منزل محمد نجيب، فوجده سهران، ويرتدى قميصا وبنطلونا، و ينتعل الشبشب.. واتصل أحدهم بمحمد نجيب ووزير الداخلية.. مرتضى المراغى، وبعد لحظات اتصل المراغى بمحمد نجيب وقال لمحمد نجيب ما معناه: إن بعض الضباط تركوا الثكنات، وأن ذلك سيؤدى إلى حدوث فوضى فى البلد، ونتيجة لذلك سيتدخل الإنجليز، ولذلك فإن الملك يفوض محمد نجيب للاتصال بهؤلاء (العيال المجانين) وينهى المسألة بالتى هى أحسن، ورد عليه محمد نجيب بما معناه أنه ليس لديه معلومات عن هذا الموضوع.

يقول هيكل: أعتقد أن محمد نجيب لم تكن لديه بالفعل معلومات، وأن كل ما عرفه من جمال عبدالناصر هو أن هناك حركة داخل الجيش، وكان عبدالناصر قد تحدث معه عن هذه الحركة بشكل مقتضب وسأله إذا كان يريد الانضمام إليها، وأبدى محمد نجيب حماسه، وانتهت الاتصالات بين عبدالناصر ومحمد نجيب عند هذا الحد يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢.

وكرر محمد نجيب لمرتضى المراغى أنه لا يعرف شيئا عن مسألة ترك الضباط للثكنات، وفوجئ به يقول أيضا: حتى أنا عندى الأستاذ هيكل بتاع أخبار اليوم.. وخرج هيكل من بيت محمد نجيب للقاء سعد توفيق، فأخذه سعد توفيق إلى القيادة.. كانت الساعة نحو الثالثة فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. وكان الشخص الأول الذى شاهده هيكل فى القيادة كان عبدالحكيم عامر.. وعندما اقترب منه قال له عامر: خلاص.. القاهرة كلها. وسأله هيكل: يعنى إيه؟ قال عامر: أخذناها.. القوات مسيطرة على كل القاهرة. قال هيكل: هل هذا انقلاب؟ ولم يسمع إجابة.

رأى هيكل فى حوش القيادة بعض الضباط والجنود يفترشون الأرض ويأكلون، وهؤلاء كانوا أفراد الكتيبة (١٣) التى بدأت الانقلاب بقيادة يوسف صديق، والتى قبضت خطأ على جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر إلى أن تعرف عليهما يوسف الصديق وأفرج عنهما.

بعد ذلك اختفى سعد توفيق.. ثم اختفى عبدالحكيم عامر. وبعد قليل عاد عبدالحكيم عامر ليقول له: إيه رأيك.. هل يتدخل الإنجليز؟

وأشار إليه قائلا: صاحبك ينتظرك فوق، وصعد هيكل ليجد جمال عبدالناصر ومعه كمال الدين حسين، وسأل هيكل: ما الذى حصل؟ وأجاب عبدالناصر: خلاص..! قال هيكل: خلاص إيه؟ وأجاب عبدالناصر: كنت تقول إن الجيش عجز عن رد شرف البلد سنة ١٩٤٨ هل الذى فعله الجيش الآن كويس؟ وعاد هيكل يسأل: ما الذى حدث؟ أجاب عبدالناصر: يعنى لسة مش فاهم.. وكانت برقيات التأييد قد بدأت تصل من المناطق.. وقال عبدالناصر: لا يهم ما الذى سيحدث.. المهم أننا صممنا، ونفذنا، وأكدنا أن فى مصر شبابا رفضوا المهانة وتحركوا.

□□□

يقول هيكل: فى هذه اللحظة ظهرت بعض صفات عبدالناصر القيادية، وشعرت أنه هو رقم واحد فى الحركة، وأن كل الذين حوله يلجئون إليه فى أى قرار، ولم أكن حتى تلك اللحظة أعرف أنه قائد الثورة، لكننى شعرت أنه القائد بالفعل.. كل واحد كان يهمس فى أذنه، ويأخذه على جنب ليحدثه فى أمر ما.. كان محور كل الاتصالات.. وبعد قليل أرسل إلى محمد نجيب.. وجاء محمد نجيب مستغربا.

يقول هيكل: فكرت أن أتصل بأخبار اليوم لكى أعرف الجو داخل الدار والمعلومات التى وصلتها، ورد على سكرتير التحرير حسين فريد وأجاب: يظهر أن فيه (دوشة) وسأله هيكل: ما الذى ستكتبه؟ فأجاب: لا أعرف! وسأل سكرتير التحرير هيكل: ما الذى حدث بالضبط؟ فأجابه هيكل: الجيش ترك الثكنات وقام بحركة..

وأثناء الحديث دخل عامل التليفون فى الخط وقال لهيكل: مصطفى بيه يسأل عنك وهو فى الإسكندرية هل أوصلك به؟ فأجابه: أيوه.. وسأله مصطفى أمين عما حدث، وسأله: أين أنت الآن؟ وأضاف: يبدو أن فى الجيش حركة عصيان.. هل عندك معلومات؟ فقال له هيكل: لا.. ليس عندى معلومات؟ فقال مصطفى أمين: إزاى؟ انت فين دلوقت؟ فأجاب هيكل: أنا فى رحاب العصيان! قال مصطفى أمين: الخط وحش.. ممكن تعطينى نمرة التليفون وأنا أطلبك؟ فرد هيكل: لا.. لا أستطيع.. وأصر مصطفى أمين على معرفة رقم التليفون، فطلب منه أن ينتظر قليلا، وكان فى الغرفة عبدالحكيم عامر وسعد توفيق، وكان عبدالناصر فى الخارج، وقال هيكل لسعد توفيق إن مصطفى أمين يتحدث من الإسكندرية ويريد أن أعطيه رقم التليفون، وسمع عبدالحكيم عامر فقال مستهجنا: إيه؟!

وكان عبدالناصر فى طريقه إليهم عائدا من الخارج وسمع عبدالحكيم عامر، فضحك وقال لهيكل: اعطه رقم التليفون، وقال لسعد توفيق: شوف النمرة كام! وأعطى سعد توفيق الرقم لهيكل فأعطاه لمصطفى أمين، بينما كان عبدالحكيم عامر يقول لعبدالناصر: إزاى ده يحصل.. السرايا حتعرف. ورد عبدالناصر: مش مهم يا حكيم.. يجب أن نعرف كيف يفكرون.. المهم أن يتصل وهيكل يعرف منه.. مش هو يعرف من هيكل؟

يقول هيكل: إن هذه الحادثة كشفت لى عن ظاهرة مهمة بالنسبة لجمال عبدالناصر، هى سرعته فى اتخاذ القرار.

□□□

يقول هيكل: منذ اليوم الأول وجدت نفسى وسط القيادة، أشرح كيف أن الإنجليز لن يتدخلوا، وأعطى رقم تليفون القيادة إلى مصطفى أمين، وأسمع كل الأحاديث من كل المشاركين فى الثورة. وبعد قليل من إعطائى الرقم لمصطفى أمين اتصل بى فريد زعلوك وزير الدولة، ثم اتصل بى مصطفى أمين يسأل عن التفاصيل وعن مكان وجودى،



فقلت له: حتى الآن ليس هناك تفاصيل، وأنا موجود فى مبنى من مبانى (الهيصة) اللى احنا فيها ثم سأله هيكل: حتكتب حاجة؟ فأجاب مصطفى أمين: لا.. لا.. مش مسألة كتابة.. استنى لما نشوف هيحصل إيه.. إيه اللى حصل! فقال له هيكل: أرى دبابات كثيرة تخرج.. وعربيات عسكرية تدخل.

وسأل مصطفى أمين: هل اللواء محمد نجيب عندكم؟. هل هو مشترك فى الحركة؟.

وأجاب هيكل: رأيته منذ قليل ولا أعرف أين ذهب.

قال مصطفى أمين: هل يمكن أن تستقصى الأمر وتلم الصورة كاملة وتخبرنا؟.

يقول هيكل: كانوا يريدون أن يعرفوا الموقف منى، وسألوا عن محمد نجيب لأنه كان مكلفا من الملك بأن يتصل بقيادة الحركة ويهدئ الوضع.. بعد ذلك اتصل فريد زعلوك ثانية، وكان قد حصل على رقم التليفون من مصطفى أمين، وقال لهيكل: الهلالى باشا عاوز يكلمك.. وسأله نجيب الهلالى عن الحالة والأخبار وما إذا كان يعرف أحدا من أركان الحركة، فقال هيكل إنه يعرف بعضهم. وسأل الهلالى باشا عن محمد نجيب وطلب أن يتحدث إليه، وبعد ذلك طلب الهلالى باشا من هيكل أن يتصل بمن يعرفهم من أركان الحركة ويسألهم ماذا يريدون لأن المسألة فى منتهى الخطورة والإنجليز سيتدخلون.. وكرر الهلالى هذا الطلب وقال: أنت يا محمد لازم تكون على معرفة بالناس دول.. أنا عاوز تقول لهم هم عاوزين إيه؟

فى هذه اللحظة دخل أنور السادات، فكلفه عبدالناصر بالتوجه إلى الإذاعة لقراءة البيان الأول للثورة، وقال عبدالناصر لهيكل: قل لهم يسمعوا بيانا فى الإذاعة الساعة السابعة صباحا، وكان الوقت عندئذ نحو السادسة إلا الربع، وعاد هيكل إلى سماعة التليفون، وكان الهلالى باشا ينتظر، فقال له: سيذيعون بيانا فى الساعة السابعة.. ولم يذكر اسم عبد الناصر. وقال الهلالى باشا: لا يا محمد.. مفيش داعى للفرقعة. هل عرضت الفكرة التى قلتها لك على أحد الأركان فيهم؟ قال هيكل: أظن أن الذى أتحدث

إليه من المسئولين فى الحركة، قال الهلالى: اذهب وقل لهم لا داعى للتسبب فى حدوث فرقعة وأن الملك مستعد لإجراء أى تعديلات يريدونها إذا كانوا يريدون تعديلات داخل الجيش.. هل هم يريدون تعديلات داخل الجيش؟. وأين محمد نجيب؟. قال هيكل: موجود معهم.. أظن أنه منضم إليهم .. قال الهلالى: هل اتصل محمد نجيب بأحد فيهم؟. أين هو؟. أريد أن أتحدث إليه. قال هيكل: اتصل مرة ثانية.

يقول هيكل: بدأت أفكر بماذا أرد عليه، إنه يسأل عن محمد نجيب، وأنا قلت له إن محمد نجيب مع الحركة لأننى كنت اطلعت على البيان الذى سيلقيه أنور السادات بعد قليل وهو بتوقيع محمد نجيب.. واتصل الهلالى باشا مرة ثانية وكان محرجا بالفعل، سأل أيضا عن محمد نجيب وقال: هل يمكن أن تبلغ جماعة الحركة أن الحكومة مستعدة لاستصدار مرسوم من الملك بتعيين محمد نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة على أن يجرى هو التعديلات التى يريدونها فى الجيش.. لا نريد فرقعة! ومرة أخرى قال له هيكل أن ينتظر، وذهب إلى جمال عبدالناصر يبلغه بهذا العرض، وكان إلى جانبه محمد نجيب وزكريا محيى الدين، وبمجرد أن سمع محمد نجيب العرض رحب به وقال لعبدالناصر: إيه رأيك يا جمال بيه؟ فكرة معقولة نوافق عليها وبلاش فرقعة.. أما عبدالناصر فقال: لا.. ثم نظر إلى محمد نجيب وقال يخاطب هيكل: لا.. الفرقعة مطلوبة فى حد ذاتها لإعلان التغيير وإشعار الناس بما حدث.

يقول هيكل: وكرر محمد نجيب ترحيبه بالعرض المقدم من رئيس الوزراء نجيب الهلالى باشا، فكرر عبدالناصر تمسكه بضرورة أن تحدث فرقعة، وعاد هيكل إلى سماعة التليفون ليروى للهلالى باشا ما حدث، فقال له الهلالى: إننى لا أستطيع تحمل الموقف ما دام ليس عندى حل، وأنا على أى حال سأتحدث مع الملك فى الأمر، وأغلق الهلالى سماعة التليفون.. وذهب هيكل إلى عبدالناصر ليقول له إن الهلالى باشا رجل نظيف وأنه فى موقف لا يحسد عليه، فرد عليه عبدالناصر: لا يهمنى أنه نظيف، الذى يهمنى

أن تستقيل الحكومة، لأنه عندما تستقيل الحكومة منذ اليوم الأول للثورة يكون ذلك إثباتا عمليا بأننا مسيطرون على الموقف، وأن هناك قوة جديدة فى البلد.

ويعلق هيكل على ذلك بأنه يشدد على حادثتين: موافقة عبدالناصر على إعطاء رقم التليفون لمصطفى أمين، وضرورة استقالة الحكومة، ويرى أنهما أكدتا سرعة عبدالناصر فى اتخاذ القرار دون تردد، وكل ذلك قبل إذاعة البيان الأول للثورة فى السابعة صباحا.

□□□

هكذا كانت البداية فى قصة هيكل وعبدالناصر. اللقاء الأول على أرض فلسطين. ولقاءات غير منتظمة واضح فيها إعجاب عبدالناصر بفكر هيكل. ثم معايشة هيكل للحظات الأولى لميلاد الثورة ووجوده وحده فى قلب الأحداث ومع قادة الثورة.. يفكر معهم.. ويشاهدهم وهم يفكرون ويصدرون القرارات.. ويطلبون منه القيام بدور فى الاتصالات مع الحكومة.. والمهم أن نلاحظ أن عبدالناصر هو الذى اختار هيكل منذ البداية وراهن عليه.. وكان عبدالناصر على اتصال بعدد من الصحفيين اللامعين ولكن الواضح أنه كان يختص هيكل بمكانة خاصة إلى حد أن استدعاه فى المعمعة ليكون المدنى الوحيد فى القيادة فى أحرج الأوقات التى كان مصير الثورة والثوار يتقرر فيها.. ونلاحظ أيضا أن عبدالناصر بدأ فى تكليف هيكل بمهام لخدمة الثورة من أول لحظة.. وكانت هذه الليلة الطويلة بداية علاقة من نوع فريد ليس له مثيل فى التاريخ بين السلطة والفكر امتدت العمر كله.

□□□

دامت العلاقة بين هيكل وعبدالناصر ١٨ عاما، ولم تنقطع الحوارات بينهما إلا يوم وفاة عبدالناصر عام ١٩٧٠.. وكان هيكل يلازم عبدالناصر فى رحلاته، واجتماعاته، ولقاءاته مع القادة والزعماء، وفى الأوقات الصعبة.. حتى إن الكثيرين كانوا يقولون: إنه الرجل الثانى فى الدولة.. وكان هيكل يرفض ذلك ويقول إنه صحفى

وأن عبدالناصر هو الرئيس.. وأنه يعرض فكره على عبدالناصر ولا يشارك فى القرار.. وهو يعرف طبيعة السلطة والظروف والمواقف والاعتبارات التى تحيط بصاحب القرار ولا تحيط بغيره.

فى يوم تلقى عبدالناصر من أحد الحكام العرب حقيبة كبيرة ملأى بالمجوهرات، وبدون ضجة، ودون أن يشعر أحد، أعاد الحقيبة إلى الحاكم، فلم يكن عبدالناصر يقبل من الهدايا غير الهدايا البسيطة.. أربطة العنق، وكان يعطى لهيكل ولزملائه فى مجلس قيادة الثورة من هذه الأربطة، كذلك كان يتقبل صناديق السيجار التى كان يرسلها إليه كاسترو.. وكانت دائما من نصيب هيكل.. كذلك كان يتقبل الهدايا من التفاح والبشملة التى كانت تأتيه من لبنان.. ولا شىء غير ذلك.

يقول هيكل: إن عبدالناصر لم يشعر بأية لذة فى حياته.. لم يشعر بلذة النوم، أو بلذة الأكل، أو بلذة السفر، ولا حتى بلذة مشاهدة أولاده، وكان يعمل طول الوقت، ومتعته الوحيدة أن يشاهد فى منزله ثلاثة أفلام سينمائية. وكان يعتبر ذلك متعة، وأنا كنت أعتبر ذلك عذابا.. وعندما كان يطلب منى مشاركته فى مشاهدة الأفلام كنت أصاب بصداع بعد الفيلم الأول، ولكنى كنت أجلس إلى جانبه ونشاهد الأفلام الثلاثة فى سهرة واحدة!

□□□

ما هى بالضبط طبيعة العلاقة بين هيكل وعبدالناصر؟

يقول هيكل: كنت قريبا من عبدالناصر، وكانت بيننا صداقة وثيقة.. وكانت العلاقة من نوع متميز بين شخص يقود، وشخص إلى جانبه يتكلم أو يفكر، وقد حرصت على أن أبتعد عن المناصب والأوضاع الرسمية، وكنت دائما متمسكا بالصحافة والكتابة وأفضلها عن أى منصب رسمى، وقد ذكرت ذلك لعبدالناصر عدة مرات، وقلت له إننى أفضل الاحتفاظ بصفة الصديق الذى يتحدث إليك باستمرار بدون وساوس أو إحراج.. وكانت العلاقة بيننا قبل الثورة وحتى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ يوم رحيله علاقة

حوار مستمر، وأعتقد أن ثقته الكاملة بى هى التى شجعت على ذلك، وأحيانا كان يضيق بهذا الجدل، لكنه كان يسمع ويناقش باستمرار، وعندما كان يشعر بالضيق أحيانا فلأن كلامى كان فى اعتقاده نوعا من الإحراج لأطراف أخرى، وعلى سبيل المثال كان يشعر بهذا الضيق عندما كنت أكتب عن البيروقراطية المصرية، لأن كلامى فيه إحراج لوزراء يعملون معه، وعندما كنت أنتقد الاتحاد الاشتراكى لم يكن يتضايق إلا أنه كان يشعر بأن بعض معاونيه يمكن أن يضيقوا بهذا النقد، وكان يأخذ فى الاعتبار مشاعر الذين يعملون معه، وقد كتبت الكثير حول قضايا لولا الثقة التى بيننا لكان الأمر يختلف.. كتبت مثلا عن ضرورة اندماج المثقفين فى الثورة وفى النظام لينتهى دور (أهل الثقة)، وطالبت بأن يكون أهل الخبرة هم أهل الثقة، وكتبت أن أهل الثقة وأهل الخبرة ينادون بتوسيع دائرة معارف عبدالناصر، وناديت بالمجتمع المفتوح، وبالديمقراطية، وكتبت ضد تجاوزات بعض أجهزة السلطة وفى مقدمتها المخابرات.. وكتبت فى موضوع الحراسات وضرورة أن يظل الهدف هو تصفية امتيازات الطبقة وليس تصفية أفراد الطبقة.. كتبت عن عدوان البيروقراطية فى الجهاز الحكومى، والبيروقراطية الجديدة فى القطاع العام.. وكتبت عن ضرورة أن يلعب التكنوقراط دورهم فى التطوير. وكنت قلقا وأنا أكتب عن خشيتى من أن يطوى أهل البيروقراطية القديمة أهل البيروقراطية الجديدة بدلا من أن يطوى الجدد القدامى، وهذا ما حدث فعلا حيث ابتلع القدامى الجدد.. ومثل هذه الكتابات كانت تسبب لى بعض المشاكل.. لكن جمال عبدالناصر لم يضق بها.

□□□

هل كان هيكل يكتب مقالاته بعد أن يتشاور مع عبدالناصر ليمهد الرأى العام قبل إعلان خطوات معينة؟

يقول هيكل: لم أكن أفصل.. بمعنى أننى كنت أكتب عما أتكلم حوله مع عبدالناصر، وحدث كثيرا أن تناقشنا ساعات فى قضايا وآراء كان بيننا فيها اتفاق

على ألا أتناولها فى مقالاتى أبدا، ومع ذلك هناك كثيرون كانوا يفترضون أننى أذهب إلى عبدالناصر يوم الخميس لآخذ منه أفكار مقالاتى يوم الجمعة، وهذا التصور سبب لى إحراجا فى مرات كثيرة.. لكننى أجزم بأن الاتفاق الذى كان بيننا أن يكون نقاشنا وتبادل الآراء بيننا بمعزل عن المقالات.. وكان هذا الاتفاق ينفذ بدقة.. والمرات التى تحدثنا فيها عن مقالاتى كانت قليلة جدا.. وفى العادة لا يجرى اتصال بيننا يوم الجمعة، وأقضى هذا اليوم مع عائلتى فى برقاش.. ولكنه عندما يتصل بى يوم الجمعة يكون معنى ذلك أن هناك أزمة ما.. مثلا فوجئت يوما فى السابعة مساء يوم جمعة بالرئيس عبدالناصر يتصل بى، وفى ذلك الوقت كانت مقالاتى حول التغيير، وفيها كتبت بشىء من الدقة ما معناه إذا لم يستطع النظام أن يغير فلابد أن يتغير، ومن نبرة صوته شعرت أنه يريد أن يقول لى أمرا ما، ثم قال: هل تريد رأيى فى مقالتك حول التغيير.؟ أجبته: بالطبع، قال: المقالة مكتوبة بأسلوب غسان توينى فى مواجهة شارل حلو.. لكننى لست شارل حلو وآمل ألا تكون أنت غسان توينى، وانتهت المكالمة عند هذا الحد، وفى غير ذلك لم أشعر أن عبدالناصر يضيق بما نكتب- أنا وغيرى- فى الأهرام، لأننا نكتب من موقع الحرص على الثورة، ولم أكن وحدى الذى يكتب، فقد كتب توفيق الحكيم بنك القلق وسلمها لى وقال: هذه ليست للنشر، فقلت له: إذا كنت لن تنشرها فلماذا كتبتها؟ قال: إذن أجل نشرها، قلت: إن دور المخابرات وأساليبها مشكلة حقيقية، وما دمت أنت وجدت فى نفسك الشجاعة لتكتب، فأنا عندى الشجاعة لأنشر، ونشرنا الحلقة الأولى من القصة فقامت الدنيا، ولم يكن عبدالناصر قد قرأها، لكنه سمع بالضجة التى أثارتها، فاتصل بى مستوضحا فقلت له إنهم يحاولون منعنا من نشر الحلقة الثانية، وقرأ عبدالناصر الحلقتين الأولى والثانية بعد أن حملتهما إليه فقال لى: انشروا، وقال: إن توفيق الحكيم كتب أيام العهد الملكى يوميات نائب فى الأرياف، وإذا كان فى العهد الملكى يستطيع أن ينقد اجتماعيا، فإن من حقه أن يكتب أى نقد للتجربة.. ونشرنا بقية الحلقات، ورويت لتوفيق الحكيم ما دار مع عبدالناصر.

وبعد ذلك انتقدنا فى الأهرام مرارا تجاوزات المخابرات، وأثرنا قضايا أساسية فى المجتمع المصرى، وعلى سبيل المثال أثار لويس عوض فى سلسلة مقالات قضية الثقافة والتعليم بين الكم والكيف، وأثار جمال العطيفى مرات عديدة قضية القانون، وكتب حسين فوزى، وعائشة عبدالرحمن، ولطفى الخولى، آراء تعرضت أنا بسببها للكثير من المشاكل فى الصميم.

□□□

من هذه المشاكل إطلاق رصاصتين على هيكل وهو خارج من مبنى الأهرام القديم فى شارع مظلوم، ورفض هيكل إبلاغ النيابة أو الشرطة، وعندما علم عبدالناصر سأله إن كان يتهم أحدا، وكان ما حدث لهيكل ولغيره فى الأهرام ناتجا عن اصطدامهم مرات عديدة ببعض الأجهزة. لطفى الخولى اعتقل، وجمال العطيفى، وأحمد نافع، ويوسف صباغ، وحمدى فؤاد، ونوال المحلاوى مديرة مكتب هيكل، لكن عبدالناصر كان يأخذ فى الاعتبار الخط السياسى الذى يسير عليه الأهرام، فلم يكن يغضب من بعض المقالات التى تنشر وتتعارض مع أفكاره.. وكان هيكل- كما يقول- يعتبر أن الأهرام يجب أن يكون له دور طليعى، وعلى سبيل المثال كنا ملتزمين بالميثاق دون أن نفقد الحرية فى الكتابة عن تطبيق الميثاق، وأعتقد أننا نجحنا فى أن نجعل من الأهرام طرفا أساسيا فى الحوار على رغم أن ذلك سبب لنا مشاكل، ولم نمارس هذا الدور بحماية من عبدالناصر ولكن اعتقادا منا بأن عبدالناصر يثق فى الأهرام، ويثق فى أننا نعمل من داخل التجربة، وننتقد من واقع الالتزام.

□□□

هل كانت تحدث أحيانا خلافات أو توترات بين عبدالناصر وهيكل؟

يقول هيكل: من الطبيعى أن تحدث توترات ما دام الحوار بين طرف مسئوليته شاملة، وطرف لا يملك إلا الفكر والكتابة، وأهم حالة توتر حدثت يوم أصدر عبدالناصر قرارا بتعيينى وزيرا للإرشاد، وفى يوم صدور القرار كنت فى مزرعتى الريفية فى

برقاش، وأصدر الرئيس عبدالناصر القرار دون أن يفاتحنى فى الأمر، وعدت إلى الأهرام بمجرد علمى بصدور القرار فوجدت حالة توتر، وبعثت إليه برسالة اعتذار، وهذه الرسالة هى الورقة الوحيدة المكتوبة التى رفعتها إليه، وعدا ذلك لم أرفع إليه أوراقا لأنى كنت أفضل التعامل معه كصديق، وكنت فى حالة صعبة من الضيق، وفى اليوم التالى جاءنى أنور السادات فى برقاش- وكان يوم شم النسيم فى سنة ١٩٧٠ - فى محاولة لإقناعى بقبول المنصب الوزارى، وبقى معى من التاسعة صباحا حتى الواحدة ظهرا، وكانت لفتة كريمة منه خصوصا أنه كان مرتبطا مع ضيوف سيتناولون الغداء معه فى بيته، وأبلغنى السادات أن عبدالناصر قال له: لا مجال لقبول الاعتذار، وأن المسألة ليست مفاتحة وإنما هى قرار صدر وانتهى الأمر، ونتيجة لحديثى مع السادات ومع آخرين زارونى قبلت وعدت إلى القاهرة، ثم حدث أن قبضوا على لطفى الخولى ونوال المحلاوى، ووجدت أن الموقف يتأزم، وأننى فى محنة حقيقية فى بداية عملى فى الوزارة، وكنت بالفعل ممزقا بين قبولى المنصب الوزارى اضطرارا ومحنة أصابت بعض زملائى فى الأهرام، وبين علاقتى بجمال عبدالناصر وأنا حريص على مشاعره.

وقبل هذه المحنة حدثت حالة توتر بيننا بسبب اعتقال جمال العطيفى، وأمضينا نحو أسبوع فى شبه قطيعة، هو لم يتصل، وأنا لم أتصل، وفى هذه المرة أيضا كان السادات هو الذى تدخل، وكان مع عبدالناصر فى استراحة القناطر، ومن هناك اتصل بى وقال: لماذا لا تطلب الرئيس وتصفى الموضوع معه لأنه متضايق، وبعد ذلك اجتمعت مع عبدالناصر، وصفينا موضوع جمال العطيفى، وتم الإفراج عنه..

يقول هيكل: طبعا كان هناك كثيرون يتضايقون من هذه الثقة التى وضعها عبدالناصر فى شخصى. وكان السادات يقول لى: لولا سلك التليفون لكانوا أتعبوك كثيرا، وكان يقصد بذلك التليفون الساخن فى مكتب هيكل المتصل بغرفة نوم عبدالناصر، ويقول هيكل: عبر هذا التليفون جرت مناقشات واستفسارات كثيرة، وكان هذا التليفون معيارا لحالات التوتر بيننا، أحيانا لا يرن.. فيكون معنى ذلك أن

عبدالناصر متضايق منى.. وأحيانا لا أتصل به بسبب حالات الضيق التى كانت تنشأ نتيجة حوادث معينة حصلت.. وأشهد أن عبدالناصر كان نموذجا للرقة فى معالجته لحالات التوتر التى تحدث، وباستمرار لم يكن ضيقه يخرج عن حدود معينة، وأتذكر مرة أنه كان متضايقا جدا من أمور كتبتها، وخلال مناقشته بالتليفون سألته إذا كان يريد أن أحضر إليه فأجابنى: لا.. لا أريد أن أراك وأنا (متنرفز) نلتقى بعد أن تهدأ الأمور ونتفاهم.. وحدثت بيننا أيضا مناقشات مكتومة.. فقد ناقشته باستماتة فى بعض القضايا، وكنت فى مناقشتى أمينا جدا، لأن إعجابى به إعجاب مفتح العينين وليس إعجاب الأعمى.. ومن أمثلة هذه القضايا مناقشات مكتومة دارت معه حول إغلاق خليج العقبة سنة ١٩٦٧، وكان رأيى أن القرار سيقود إلى حرب.

□□□

لماذا حظى هيكل بهذا الوضع الاستثنائى مع عبدالناصر وهو وضع لم يحدث من قبل بهذه الصورة بين أى صحفى وأى زعيم فى العالم؟

يقول هيكل: بعد أن قامت الثورة كان عبدالناصر على علاقة بعدد كبير من الصحفيين، وفى النهاية، وبالاختيار الحر عن طريق الممارسة ازددت قربا منه، وهذا أمر أعتز به، وهو بهذا لم يخصنى بوضع استثنائى ولكنه ألقى على مسئولية استثنائية، وفعل ذلك إحساسا منه بأنى أؤدى دورا فى نظامه، وأنا تبعا لذلك لم أحصل على امتيازات مادية، وكنت مقيدا أيام عبدالناصر وحتى وقت أن تركت الأهرام بالحد الأقصى للمرتبات فى مصر وهو خمسة آلاف جنيه فى السنة دون زيادة ودون علاوات، وعندما بنينا الأهرام لم نلجأ إلى الدولة لكى نعامل معاملة خاصة أو نطلب استثناء من قانون البناء مثلا، وبنينا الأهرام فى ظل قانون الشركات المساهمة، وكان رأيى أننا بذلك نقدم نموذجا جديدا فى إدارة المال العام.. والأهرام لم يكن ملكى، ولكنى كنت أنظر إليه على أنه مسئوليتى، وأعطيه كل جهدى، وكان قصدى من ذلك معالجة الخلل الناشئ عن مفهوم الملكية الاجتماعية، وكنت أعتبر أن الأهرام يجب أن يكون نموذجا

فى كل شىء بما فى ذلك الإدارة العلمية، وقد أعجب عبدالناصر بذلك متمنيا لو كانت مؤسسات الدولة كلها تدار بالطريقة التى يدار بها الأهرام.. وبعد أن زار عبدالناصر المبنى كان يتحدث فى كل مكان عن الأهرام، ويقول إنه سعيد جدا لأن مشروعا نجح فى مصر ويتمنى أن تنجح كل المؤسسات كما نجح الأهرام.

□□□

كثيرون يرون أن مقالات هيكل كانت صدى لأفكار عبدالناصر، وكان بعضها على الأقل بوحى منه لإيجاد أرضية أو تمهيد أو تقبل لقرارات ومواقف عبدالناصر.

أما هيكل فإنه يقول: إن كثيرين فعلا كانوا يتصورون ذلك، وأن التقارير التى تصل إلى من عبدالناصر أنتقى منها الأفكار والمعلومات لأضمنها مقالاتى.. وأنا فعلا أطلعت على مئات التقارير التى كانت تصل إلى عبدالناصر، ومنها تقارير سفرائنا فى الخارج، ولم أجد فيها سوى الأداء البيروقراطى، وكنت عندما أرى عبدالناصر أتناقش معه باستمرار، وكنت أعيش فى وسط الأحداث.. ولم أكن أمد يدى فى جيب عبدالناصر لآخذ منه الأخبار أو أنتظر أن يتصل بى تليفونيا ليخصنى بخبر كبير. فقد كنت دائما إلى جانبه.. وتتعامل دون وساوس، ولا أنتظر خبرا يتصل بقضية ما، لأنى كنت طرفا فى هذه القضية، وإذا كان عبدالناصر قد طرح فكرة ضمنتها فى مقال، أو شعارا أطلقته فيه، فهذا معناه أن عبدالناصر اقتنع بضرورة طرح الفكرة أو إطلاق الشعار، وكان كثيرون يتضايقون، وكان بعضهم يقول: لماذا لم يعطنا عبدالناصر الفكرة الفلانية وخص بها هيكل..

أما لماذا قرر عبدالناصر تعيين هيكل وزيرا دون مفاتحته فإن هيكل يفسر ذلك ويقول: إن عبدالناصر فاتحنى فى أمر تعيينى وزيرا أربع مرات، وفى كل مرة كنت أعتذر.. المرة الأولى سنة ١٩٥٦ فى أول حكومة تألفت برئاسته، والمرة الثانية بعد الوحدة مع سوريا سنة ١٩٥٨، والمرة الثالثة بعد الانفصال، والمرة الرابعة بعد النكسة، وكان يتفهم رغبتى فى أن أستمر فى عملى الصحفى، ولكن عندما صدر القرار سنة ١٩٧٠

لم يفاتحنى، وفوجئت بالقرار بعد صدوره، وأوضح لى بعد ذلك أننا كنا فى حرب استنزاف، وكانت الظروف دقيقة جدا. قتال فى الجبهة.. وغارات فى العمق.. ووجود سوفيتى فى مصر. وتحرك سياسى.. ودلائل على قبول مبادرة روجرز. ودلائل أخرى على إعلان وقف إطلاق النار. ودلائل على استعداد الجيش للعبور بعد انتهاء مهلة وقف إطلاق النار التى كانت محددة بثلاثة شهور. وشعر عبدالناصر بأن تلك المرحلة التى تتسم بمزج العمل السياسى بالعمل العسكرى تحتاج إلى إعلام دقيق ومركز يتولاه شخص محيط بالموقف الرسمى وبأسلوب تحركه، ويستطيع أن يعبر عنه دون العودة إليه فى كل صغيرة وكبيرة. وعندما تولى السادات الحكم بعد عبدالناصر طلب منى أن أستمر فى منصب الوزير، وأورد الحجة نفسها التى أوردها عبدالناصر، لأن الرئيس السادات كان على علم بها، وحاولت أن أؤدى دورى إلى جوار الرئيس السادات فى حرب أكتوبر وبعدها بقدر ما استطعت.. وكانت تلك فترة رائعة فى تاريخ مصر، أسعدنى أنى تمكنت من الحياة وسطها.

□□□

ولكى نعرف مدى العلاقة بين هيكل وعبدالناصر يكفى أن نعرف أن هيكل هو الذى أعد برنامج أول وزارة رأسها عبدالناصر سنة ١٩٥٣، وقد طلب عبدالناصر من هيكل أن يجمع البيانات الوزارية التى صدرت عن الوزارات المتعاقبة فى سنوات القلق السابقة على الثورة، وطلب صياغة البرنامج على أساس وعود الوزارات السابقة التى لم تنفذها، مع التعهد بتنفيذ هذه الوعود الضائعة. وهو الذى كتب فلسفة الثورة والميثاق الوطنى وبيان ٣٠ مارس وكل خطب عبدالناصر.

وحين كتب هيكل كتابه (عبدالناصر والعالم) باللغة الإنجليزية بعد رحيل عبدالناصر وترجم إلى اللغة العربية، كتب المقدمة جوردون بروك وقال فيها: (كانت صداقة هيكل مع عبدالناصر صداقة شخصية وقوية إلى درجة أن كتابه هذا يمكن أن

يضاف إلى الشهادات التاريخية العظيمة لوقائع الخمسينات والستينات كما بدت عند القمة).

هذه الصداقة كانت فرصة العمر بالنسبة لكاتب مثل هيكل، وكانت تجربة لا تخلو من متاعب ومخاطر، لأن الاحتفاظ بالقرب من الزعيم لم يكن سهلا مع المحاولات العديدة لإبعاده وإفساد هذه العلاقة. وكانت هذه المحاولات من كثيرين ممن كانوا قادرين على إفساد هذه العلاقة فعلا، لولا حرص الاثنين على عدم الوقوع فى الشراك المنصوبة لكل منهما.. ومعلوم أن الحاشية المحيطة بعبدالناصر لم تكن كلها راضية بهذه الحظوة، وهذا شأن الحاشية دائما، لا تريد أن يقترب من الزعيم أحد غيرها (!)

ومع ذلك ما من مرة سافر فيها عبدالناصر إلا وكان معه هيكل، ليس كصحفى لتغطية الزيارة، ولكن كعضو فى الوفد مع الرئيس، وما من مؤتمر دولى حضره عبدالناصر إلا كان هيكل قريبا منه، إلى حد أن التقارير التى كانت ترفع إلى رئيس الدولة كان هيكل يحاط بها، ولذلك فهو يقول: إننى عايشت تطور فكر عبدالناصر، وحضرت إرساء منطلقاته الأساسية. وفى حديث لصحيفتى الأنوار والصياد يوم ٦ سبتمبر ١٩٧١ قال: إن علاقتى به كانت علاقة حوار وتفاعل، حتى إننى أخشى أحيانا أن أخلط بين أفكارى وأفكاره.

وكانت الصحف والإذاعات الأجنبية تصف هيكل بأنه الناطق غير الرسمى باسم الرئيس عبدالناصر وباسم مصر، كما أن هناك من كانوا يرون أن هذه العلاقة كانت تسمح للنظام الناصرى بأن يطلق بعض أفكاره أمام الجماهير دون أن يتبناها رسميا، فإن لاقت معارضة تصبح مجرد وجهة نظر شخصية لهيكل. ورددت الشائعات فى يوم من الأيام أن هيكل قد يصبح نائبا لرئيس الجمهورية!

وتبقى اسئلة كثيرة حول هذه العلاقة النادرة.

هل كان - حقًّا - مستشار السوء؟

العلاقة بين هيكل وعبدالناصر حيرت الجميع فى حياة عبد الناصر وبعد رحيله، وتعددت الاجتهادات والتفسيرات، وقد رأيت أن أعرف رأى هيكل نفسه، فى مقابلة معه يوم ٦ مايو ١٩٧٢، ويبدو أنه كان متوقعا هذا السؤال، ويبدو أيضا أن هذا السؤال وجه إليه كثيرا، ولذلك كانت إجابته جاهزة!

قال لى: إن السياسى يحتاج إلى الصحفى، لأن الصحفى يعيش وسط الناس، ووسط الحوادث، ويعرف آراء الناس الحقيقية لأنهم يناقشونه دون حرج ودون حساسيات أو شكليات.

وكان أنيس منصور قد كتب فى آخر ساعة يوم ٣ مايو ١٩٧٢ أن هيكل وجد كل شىء سهلا، ولم يكن عليه إلا أن يمد يده إلى جيب الزعيم ليخرج منه الأخبار، وكان جيب الزعيم فى متناول يده دائما، وحين سألت هيكل يومها عن رأيه فيما كتبه أنيس منصور قال لى: إن الأمر ليس بمثل هذه البساطة، لأن مصدر الخبر عادة لا يدرك ما لديه من أخبار، لأنه يعيش وسط الأحداث من موقع السلطة وليس من موقع الصحفى، ولأن دوامة الأحداث تجعله لا يميز بين ما هو خبر وما ليس خبرا، ولا يشعر دائما بالجديد فيما يفعل، والصحفى هو الذى يملك هذه الحاسة التى تجعله يدرك أن هذا خبر، وأن هذا ليس خبرا، وهذا الجزء من الخبر جديد وهذا ليس جديدا، ومهما يكن نوع العلاقة التى تربط الصحفى بالمصدر فإنه يحتاج إلى جهد خاص لاستخلاص الخبر.

وهـذا صحيـح.. لأن العلاقـة بـين الصحفـى والسـلطة علاقــة طبيعيـة وضروريـة للجـانبين، فـالصحفى يقترب مـن السلطة دائمـا لأنهـا مصدر أخبـاره ومعلومـاتـه، وكلمـا توثقت علاقته بها - دون أن يكون ببغـاء يـردد فقـط - يكـون قـد حقـق النجـاح، وفـى نفس الوقت فـإن الزعيم يحتـاج إلى الصحفى لكـى يسمع منـه الحقـائق بـدون تزييـف أو تجميل أو تحامل كما يحدث عـادة مـن أفراد الدائرة الضيقة المحيطة بـالزعيم الذين يتحولون مع الوقت إلى مجموعة مغلقة لها مصلحة فى أن يصبحوا هم وحدهم الذين يملكون منافذ أذن وعين وعقل الزعيم، ومع الوقـت لا يـرى إلا مـا يريـدون لـه هـم أن يـرى، ولا يسمع إلا مـا يسـمحون لـه هـم بـأن يسمع. أمـا الصحفـى- إذا كـان مخلصـا للزعيم وليست له أهداف ومصالح وأطماع شخصية، ولم يتحول إلى عضو فى الجماعة الخانقة حول الزعيم- فهو الذى يستطيع أن يقول له بحرية وصدق حقيقة مـا يحـدث ممـا قـد أخفى عنه، وفـى نفس الوقـت فـإن الزعيـم يحتـاج إلى الصحفـى ليصـل عـن طريقـه إلى الرأى العام، ويكون الصحفى هو الأقدر على طرح فكرة يريد الزعيم اختبارها ومعرفة رد الفعل الشعبى لها دون أن تنسب إليه، أو يريد أن يمهد بـهـا لقـرار أو لمشروع أو لاتجـاه سياسى جديد ويجعل له أرضية تساعد على القبول الشعبى.. أمـا إذا كـان الصحفـى- كما فى حالة هيكل- ليس مجرد صحفى، ولكنه مفكر سياسى واستراتيجى، لديه رؤية للعـالم ولحركـة التـاريخ وحركـة المجتمـع، فـإن الزعيـم يحتـاج إلى التحـدث إليـه بحريـة عمـا يجـول بخاطره، ويستمع منـه، وقـد يسـاعده ذلـك علـى بلـورة أفكـاره حـول موضـوع أو موقف سياسى معين.

وليـس ذلـك غريبـا، بـل إنـه أمـر طبيعـى حتـى إن واحـدا مـن أهـم البـاحثين فـى السياسة والصحافة البروفيسور مانونى Mannoni صاغ لهذه العلاقة قانونا ملخصه: أن الزعيم لا يعرف كزعيم بحق إلا إذا كـان النـاس يشعرون بأنهم يفهمون هذا الزعيم، ويمكنـهم التنبـؤ بمـا يمكـن أن يقـرره ويعملـه، ويقتنعـون بأنـهم لـو كـانوا مكانـه لفعلـوا مـا فعل، وهذا هو دور الصحفى.

وفى التاريخ القريب علاقات قوية من هذا الطراز. مثل العلاقة الخاصة التى كانت تربط بين الرئيس الأمريكى جون كيندى وعدد من كبار الكتاب الصحفيين منهم جيمس راستون، وسالز برجر، ورونالد ايفتر، ونوفاك.. ووصلت العلاقة بين كيندى وجيمس راستون إلى حد أن كيندى كان يستشيره فى كيفية التعامل مع أزمة الصواريخ الكوبية التى كانت على وشك إشعال حرب عالمية ثالثة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.. كذلك كانت الصداقة الخاصة جدا بين الزعيم الفرنسى شارل ديجول والكاتب الشهير أندريه مالرو، أما الزعيم البريطانى ونستون تشرشل فقد كان هو نفسه صحفيا فى فترة من حياته.

□□□

هناك من يرى أن هيكل كان يحتمى دائما بمظلة عبدالناصر. وحين سألته عن ذلك قال لى: إن هذا الرأى ليس صحيحا على الإطلاق، وهذه هى الحقيقة لأنه تعرض لمضايقات ومشاكل ومؤامرات كثيرة وهو إلى جانب عبدالناصر، وصلت إلى حد إطلاق الرصاص عليه لإرهابه وربما لاغتياله، وذلك بعد أن كتب فى عام ١٩٦٨ مقالا عن ضرورة التغيير، قال فيه: إن هذا النظام (نظام عبد الناصر) إما أن يغير وإما أن يتغير (!) مما يعنى أن هذه العلاقة الشخصية الخاصة لم تمنعه من أن يمارس النقد للنظام ذاته، وعلى سبيل المثال أيضا كتب فى يوميات الأخبار يوم ١٢ مايو ١٩٥٦ يقول: (لم تعجبنى السهرات التى قدمها للإذاعة بعض الوزراء خلال شهر رمضان، لا أفهم أن يشغل وزير الإرشاد وقته بأن يقدم للناس تنهدات شادية ونواح فريد الأطرش.. إن الوزراء لديهم- خصوصا فى هذه الأيام- من خطير الأعمال ما يملأ كل دقيقة من وقتهم.. بصراحة: إن الذى حدث كلام فارغ، أقول الحق وأجرى على الله).
وفى يوميات أخبار اليوم يوم ٩ فبراير ١٩٥٧ كتب: (قلت بعد أن رأيت عنوانا على عرض صفحة فى إحدى الجرائد اليومية: متى تسكت الصحف عن النفاق للوزراء حتى لو كان ذلك على حساب أعصاب الناس ومنطق الذوق السليم؟).

قد يبدو مثل هذا الهجوم على الوزراء مألوفا فى هذه الأيام، لكنه كان شيئا غريبا فى وقت كان الجميع يكرسون أقلامهم للمديح والنفاق. وكان النقد يعتبر جريمة. وقد أشارت مجلة نيوزويك الأمريكية إلى مواقف هيكل المعارضة أحيانا أيام عبدالناصر فى عددها يوم ١٨ يوليو ١٩٧١ فقالت: إن هيكل يكتب دائما مقالات تهاجم البوليس السرى فى مصر وتفاهة بعض قادة الجيش والقوات الجوية وتفرغ المنظمات الفلسطينية لإراقة المداد بدلا من إراقة الدماء.

والأمثلة كثيرة للنقد الذى كان هيكل يوجهه للسياسة والسياسيين فى حكم عبدالناصر منها:

□ كتب فى الأهرام يوم ١٧ نوفمبر ١٩٦٧: (إن أجهزة المخابرات إذا تركت وشأنها بغير رقابة كافية تكتسب فى نموها طبيعة سرطانية مدمرة).

□ وكتب فى الأهرام يوم ١٠ نوفمبر ١٩٦٧: (لقد تيقنت الأمة العربية أنه ليس بالشعارات تتحقق أمانى الشعوب، ولكن بالفعل. وليس بالخلط ولكن بالوضوح.

□ وكتب فى الأهرام يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٧: (فى المجتمع المتحضر تكون المشيئة منظمة: دعوى- محكمة- دفاع- حكم- تنفيذ- أقول ذلك وفى ذهنى عمليات الفصل من الوظائف، والقبض، والحراسة، وفى ظنى أنه حان الوقت لوضع نهاية لها.

□ وكتب يوم ١١ أغسطس ١٩٦٧: (ثم هناك مسألة الإرهاب الفكرى، ما إن يرتفع صوت برأى حتى ينطلق البعض يدعون عليه بما لم يقله، ثم ينصبون أنفسهم وكلاء للاتهام، وقضاة للحكم، وجلادين للتنفيذ أيضا.. مع أن الذين يمارسون هذا الإرهاب ليسوا أصحاب عقائد مهما ادعوا.

□ وكتب يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٦٨: (فى الفترة الأخيرة، ومع التداخل المتشابك بين العمل السياسى والعمل التنفيذى، فإن البيروقراطية المصرية كادت تضع وتفرض معايير قاسية تجاه ما تمارسه الصحافة حيالها، ووصلت فى ذلك إلى حد تكاد تقرر فيه أن

النقد البناء هو مجرد التصفيق لكل تصرف، والنقد الهدام هو الاعتراض على أى تصرف).

- وقال فى حديث للتليفزيون الفرنسى يوم ٢١ أغسطس ١٩٧٠ - قبل وفاة عبدالناصر- (جاء وقت اعترض فيه الاتحاد الاشتراكى العربى على ما كنت أكتب، وكنت أعارض ما كان يقوله، وكان الاتحاد الاشتراكى يعارض ما كنت أكتبه).. وهذا الحديث من مطبوعات هيئة الاستعلامات.

وكان هيكل يستطيع أن يختلف مع عبدالناصر أيضا.. حين فكرت الثورة فى إصدار جريدة تعبر عنها وهى جريدة الجمهورية، طلب جمال عبدالناصر من هيكل أن يتولى الإشراف عليها فاعتذر، وقال لعبدالناصر إن الفارق بين الثورة والحكومة ضائع، وفى النهاية فليست هناك صحيفة ستصدر عن الثورة ولكنها ستعبر عن الحكومة، والثورة لا تحتاج إلى جرائد تعبر عنها، لأن كل صحافة مصر تفعل هذا الشىء، وعندما قرر هيكل بعد ذلك قبول رئاسة تحرير الأهرام ذهب إلى عبدالناصر يوم ٢٧ إبريل ١٩٥٧ يبلغه أنه وقّع العقد فعلا، فقال له عبد الناصر: أليس غريبا أن تقبل العمل فى الأهرام وأصحابه أسرة تقلا بينما اعتذرت عن العمل فى الجمهورية وأنا صاحبها، وكان امتياز الجمهورية حين صدورها باسم عبدالناصر، فقال هيكل: (إن الأهرام له صاحب أستطيع أن أتعامل معه مهنيا، أما الجمهورية فلا يمكن أن يكون لديك الوقت لممارسة مسئوليات صاحبها وبالتالى فهى بلا صاحب).

□□□

ولا شك أن ثقة عبدالناصر فى سلامة قصد هيكل، وفى حقيقة مشاعره وولائه كبيرة، هذه الثقة أعطت هيكل القدرة على أن يقول ما لم يكن غيره يجرؤ على قوله. وقد صدر فى بيروت عام ١٩٦٨ كتاب بعنوان (وثائق النكسة) عن دار الكاتب العربى قال فى مقدمته قدرى قلعجى: (أول من شق طريق الاعترافات وفتح باب النقد الذاتى على مصراعيه هو الأستاذ محمد حسنين هيكل)، وقالت مجلة الحوادث اللبنانية يوم ٢٥

أغسطس ١٩٦٧: (بقدر ما كانت علاقة هيكل بعبد الناصر سببا فى تقدمه وارتفاع مكانته، فقد جعلته أمام الكثيرين مسئولا عن كل أخطاء السياسة، ولم يعد البعض يسأل عما قاله، بل أصبح يسائله عما لم يقله، وأصبح الكثيرون يحمّلون السطور أكثر مما تحتمل، ويبحثون عما وراء السطور، وهذا هو السبب لما تعرض له هيكل كثيرا من سوء الفهم).

وهيكل هو أول من قال عقب موت عبد الناصر: إن عبدالناصر ليس تمثالا، وإن الناصرية يجب ألا يتوقف نموها بعد عبدالناصر، ولم يسلم بسبب ذلك من الهجوم عليه واتهامه بأنه يشكك فى منهج عبدالناصر ولم يمض على وفاته سوى أربعين يوما فقط، وهذا يتعارض مع الوفاء، واتهامه بأن دعوته الملحة إلى التجديد الغرض منها إثارة البلبلة والانشقاق فى الداخل. والحقيقة أن حب هيكل لعبدالناصر لم يمنعه من أن يحرص على قطع الطريق على المجموعة التى نصّبت نفسها كهنة عبد الناصر، والورثة الشرعيين الذين يحق لهم وحدهم أن يتحدثوا باسم عبدالناصر بعد موته وتكون لهم الكلمة فى مواجهة السادات وهو الرئيس الشرعى، وكان حرص هيكل على حماية الشرعية أكبر من الخوف من أن يساء فهم موقفه، بل لقد طرح هيكل مسألة مستقبل مصر إذا مات عبدالناصر، وذلك فى أثناء حياة عبد الناصر، ففى حديث له مع بوادلوا بوكاريللى نشرته مجلة الأدريو الإيطالية يوم ٢٧ أغسطس ١٩٧٠ قال هيكل: الواقع لن يحدث شىء لمصر إذا حدث شىء لعبدالناصر، ولن تختفى مصر لاختفاء أحد زعمائها، لأن عبدالناصر لم يصنع مصر، ولكن مصر هى التى صنعته، وإننى لا أريد أن أكون غامضا، ولكننى أريد القول بأن مصر لها تأثير خاص لا يقهر. وإننا سوف ننجح فى الاستمرار، وسوف يظل الأمل يجرى ما دامت مياه النيل تجرى.

ملخص ذلك أن العلاقة الخاصة التى كانت تربطه بعبدالناصر كانت من أهم أسباب صعوده، ولكن ذلك لم يكن يحدث لو لم يكن هو مؤهلا للصعود بذكائه، وموهبته، وقدراته المهنية والسياسية.. وفى نفس الوقت لم يكن مجرد الصدى لصوت عبدالناصر.

ولم يكن الببغاء التى تردد كلماته، ولم يكن (كداب الزفة) فى موكب عبدالناصر كما كان آخرون معه وكما كان كثيرون بعده..

□□□

هل كان هيكل مستشار السوء كما قال إبراهيم سعدة فى يوم من الأيام؟.

ففى أخبار اليوم يوم ٣٠ إبريل ١٩٨٢ كتب إبراهيم سعدة مقالا بعنوان (مستشار السوء) قال فيه: إن هذه صفحات من كتاب انتهى من كتابته سنة ١٩٧٩ ونشر فى حلقات فى ذلك الوقت فى صحيفة الشرق الأوسط التى تصدر فى لندن، والكتاب هو أقرب إلى التحقيق الصحفى حول القضية التى اتهم فيها الكاتب الكبير مصطفى أمين فى سنة ١٩٦٥، وحكم عليه الدجوى بالأشغال الشاقة المؤبدة، وأمضى مصطفى أمين ٩ سنوات فى السجن ثم أفرج عنه الرئيس السادات وأعاده إلى الصحيفة التى أنشأها مع شقيقه الراحل على أمين.

وقال إبراهيم سعدة فى مقاله: كان عبدالناصر صديقا حميما لأسرة أبو الفتح، ثم تخلص منها فجأة، فصادر (المصرى) وفرض الحراسة على آل أبو الفتح، وحكم بالسجن الغيابى على صديقه القديم أحمد أبو الفتح، وحدث نفس الشىء مع جلال الدين الحمامصى رئيس تحرير الجمهورية، ومنعه من الكتابة لمدة ١٤ سنة، ومع فكرى أباظة أيضا.. وغيرهم.. وغيرهم.. وغيرهم!

ويعتقد مصطفى أمين أن عبدالناصر ليس وحده المسئول عن البطش بالصحفيين، وإنما المسئول الأول كان محمد حسنين هيكل. كان هيكل يريد أن يصبح الصحفى الأوحد فى مصر، ولم يكن يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا تخلص من جميع الصحفيين المنافسين، ويلخص مصطفى أمين ذلك فيقول:

(كان هيكل يشغل منصب المستشار الصحفى الذى كان وراء كل قرار اتخذه الرئيس عبدالناصر ضد أى صحفى فى مصر، كان يحرض الرئيس للبطش بالصحفى،

وعندما يوقع الرئيس على قرار البطش كانت سعادة هيكل الحقيقية فى الذهاب إلى الصحفى المجنى عليه ليبلغه قرار الذبح).

عندما تولى محمد حسنين هيكل رئاسة تحرير الأهرام، كان أول قرار له هو منع تجديد عقد أحمد الصاوى محمد الذى كان يرأس تحرير الأهرام قبل وصول هيكل ويكتب مقالا يوميا فى الصفحة الأولى بعنوان (ما قل ودل). وكان هيكل يتصور أن الصاوى سيضطر إلى الاعتكاف فى منزله ويعتزل الصحافة بعد انتهاء عقده من الأهرام، ولكنه فوجئ بأخبار اليوم تعيد الصاوى رئيسا لتحرير الأخبار فى اليوم التالى مباشرة بعد خروجه من الأهرام، ولم يكن هيكل يستطيع أن يعترض على هذا التحدى من جانب أخبار اليوم، ولكنه فى نفس الوقت وجد من يستطيع أن يعترض ويحتج. وجد الرئيس جمال عبد الناصر ليتولى هذه المهمة بالنيابة عنه، وبالفعل اتصل الرئيس جمال عبد الناصر بمصطفى أمين وسأله:

- لماذا عيَنت أحمد الصاوى محمد فى الأخبار؟

ورد مصطفى أمين:

- ولماذا لا أعينه؟ إنه كاتب كبير، تخلى عنه الأهرام ورأيت أن تستفيد منه أخبار اليوم.

- ولماذا لم تستأذن فى تعيين الصاوى أولا؟

ورد مصطفى أمين:

- لم يسبق أن استأذنت رئيس الجمهورية فى تعيين أحد الصحفيين.

قال عبدالناصر بحدة:

- إن تعيين رئيس تحرير فى صحيفة أهم عندى من تعيين الوزير. وهيكل يعرف هذا وقد استأذن أولا فى إنهاء عقد الصاوى مع الأهرام، وأحب أن تستأذن مستقبلا عند تعيين أو رفت أحد رؤساء التحرير فى أخبار اليوم.

ويستطرد مقال إبراهيم سعدة:

وهناك قصة أخرى عن هواية عبدالناصر وسعادته بالبطش بالصحفيين، كان هناك الكاتب الصحفى محمود عبدالمنعم مراد وكان نجما لامعا فى صحيفة (المصرى) قبل قيام الثورة، وبعد قيام الثورة وقف محمود عبدالمنعم مراد بقلمه بجانبها وأيدها، ولكنه عندما وجد منها انحرافا انتقدها وهاجم بعض الخطوات التى أقدمت عليها. وثار عبد الناصر وهاج، ثم هدأ عندما أغلق (المصرى) وتشرد عشرات من الصحفيين الذين لم يجدوا صحيفة تقبلهم، وكان من بينهم محمود عبد المنعم مراد، ولكن مصطفى أمين لم يترك هذا الكاتب اللامع يضيع فى الظلام. استدعاه وعينه فى أخبار اليوم وأفرد له صفحة اليوميات فى الأخبار مرة كل أسبوع ليكتب مقالاته الشائقة. واتصل عبد الناصر بمصطفى أمين وقال له:

- أنا لا أقرأ الأخبار هذه الأيام.

وانزعج مصطفى أمين وسأل بسرعة:

- لماذا يا سيادة الرئيس؟

أضاف عبدالناصر:

- ولن أقرأها ما دام يكتب فيها محمود عبدالمنعم مراد، ويجب فصله لأنه شتم الثورة ولا يستحق أن يكتب فى صحافة الثورة.

واحتار مصطفى أمين ماذا يفعل بعد انتهاء المحادثة التليفونية. فقرار الفصل يعنى حرمان عبدالمنعم مراد من المرتب الوحيد الذى يعيش منه، وانتهى مع على أمين إلى فكرة إقناع عبد المنعم مراد بالعمل والكتابة فى الأخبار وأخبار اليوم بدون أن يوقع باسمه تحت مقالاته.

ويعد أسابيع اتصل عبد الناصر بمصطفى أمين وقال له:

- أنا لا أقرأ الأخبار يا مصطفى.

وبنفس الانزعاج السابق سأل مصطفى أمين:

- ولماذا يا سيادة الرئيس؟

فقال عبد الناصر:

- لقد طلبت منك منع عبدالمنعم مراد من الكتابة فى الأخبار، ولكننى علمت أخيرا أنه يكتب بصفة منتظمة فى الأخبار بدون توقيع.

وفهم مصطفى أمين أن هيكل هو الذى أخبر عبدالناصر بأن مصطفى أمين لم ينفذ أمره ولم يفصل عبد المنعم مراد، وأخذ مصطفى أمين فى إقناع عبدالناصر بالعفو عن عبدالمنعم مراد والسماح له بالعمل حتى لا يجوع هو وأفراد أسرته، خاصة أن عبدالمنعم مراد لم يعد يهاجم الثورة، كما أنه لا يوقع باسمه تحت مقالاته وهذا أقصى عقاب يمكن أن يتعرض له الكاتب، وتنازل رئيس الجمهورية ووافق على اقتراح مصطفى أمين وسمح لعبدالمنعم مراد باستمرار العمل والحياة!!

وتصور مصطفى أمين أن المسألة اعتبرت منتهية، وأن رئيس الجمهورية لن يشغل وقته وتفكيره بعد ذلك فى كيفية منع عبد المنعم مراد من الكتابة فى أخبار اليوم. ولكن مصطفى أمين كان واهما فى تصوره.

وبعد فترة فوجئ مصطفى أمين بخطاب من عبد المنعم مراد يشتمه فيه ويتهمه بأنه خدعه عندما منعه من التوقيع تحت مقالاته بحجة أن عبد الناصر هو الذى أمر بذلك، وقال عبد المنعم مراد إنه تأكد من أن عبد الناصر لا شأن له بهذا القرار، وأن مجلس قيادة الثورة لا يكرهه، وأن عبدالناصر يحبه. وانتهى الخطاب باتهام مصطفى أمين بأنه هو الذى يغار منه ويحاول أن يمنع ظهور اسمه فى الأخبار.

واستدعى مصطفى أمين عبد المنعم مراد وسأله عما دفعه إلى كتابة هذا الخطاب ففوجئ بعبد المنعم مراد يقول له إن زكريا محيى الدين استدعاه منذ أيام وقال له إن مجلس قيادة الثورة قرر بالإجماع اختياره لرئاسة تحرير صحيفة الجمهورية وبضعف المرتب الذى يتقاضاه من أخبار اليوم.

وتصور مصطفى أمين أن عبد المنعم مراد يهزل أو أصيب بأوهام اليقظة وأحلامها، فهو يعلم مدى الكراهية التى يكنها له جمال عبد الناصر، وحاول مصطفى أمين أن يناقش عبد المنعم مراد فى هذه الرواية الغريبة، ولكنه فوجئ بعبد المنعم مراد يقدم له استقالته من أخبار اليوم، واضطر مصطفى أمين إلى قبول الاستقالة. وخرج عبد المنعم مراد من أخبار اليوم فى طريقه إلى رئاسة تحرير الجمهورية، ولكنه ضل الطريق إليها، ولم تطأ قدمه دار الجمهورية أبدا. كانت القصة مجرد خدعة بارعة من جمال عبد الناصر. لقد ضحك عليه ووعده برئاسة تحرير الجمهورية ليدفعه إلى تقديم استقالته من أخبار اليوم، وعندما تحقق له ذلك تركه فى الشارع بلا عمل وبلا مرتب.

يقول إبراهيم سعدة فى مقاله:

هذه القصص وغيرها تضفى على العلاقة بين عبد الناصر ومصطفى أمين ظلالا من الفتور، وكان هيكل يغذى هذا الفتور بالدس بين الرجلين، ولكن العلاقة ذاتها بين مصطفى أمين وجمال عبد الناصر لم تنقطع أبدا، كانت تبرد وقتا، ثم تعود إلى حالتها الطبيعية مرة أخرى، ولم تنجح محاولات هيكل الدءوب الذى لا يكل ولا يمل من البطش بمصطفى أمين، إلى أن حانت فرصة العصر لمحمد حسنين هيكل للبطش بمصطفى أمين نتيجة خطأ غير مقصود ولا شأن لمصطفى أمين به. حدث هذا عندما سافر جمال عبد الناصر إلى الهند وباكستان فى سنة ١٩٥٩ ولم يستطع مصطفى أمين السفر معه بسبب اضطراره لدخول مستشفى الدكتور الكاتب لإجراء عملية جراحية دقيقة.

وقتها كانت مصر كلها مشغولة بمتابعة آخر مغامرات السفاح الذى يقتل المواطنين وعجزت الشرطة عن القبض عليه، ولعبت صحافة أخبار اليوم دورها التقليدى فى جذب اهتمام القارئ عن طريق تقديم القصص والروايات المثيرة لمغامرات السفاح، وكانت الصفحة الأولى وبعض الصفحات الداخلية مخصصة كلها لنشر أخبار وتحركات السفاح.

وحدث أن نجحت الشرطة فى قتل السفاح، ونشر الخبر فى الصفحة الأولى جنبا إلى جنب مع تغطية رحلة الرئيس جمال عبد الناصر إلى الهند وباكستان. وكانت عناوين الصفحة الأولى- المانشيت- تقول: السطر الأول: مصرع السفاح- السطر الثانى: عبد الناصر فى باكستان. وكان بين السطرين خط أسود، ولكن هذا الخط الفاصل سقط عفوا عند تجهيز الصفحة فى المطبعة، وإذا بالقارئ يقرأ فى صباح اليوم التالى الخبر المثير (مصرع السفاح عبدالناصر فى باكستان). وعندما عاد عبد الناصر من رحلته استمع إلى من يقول له إن أخبار اليوم تعمدت هذا الخطأ بهدف النيل منه، وأن سقوط الخط الفاصل هو حجة غير معقولة، ولو وجد حُسن نية بالفعل لما نشر خبر مصرع السفاح قبل خبر سفر الرئيس إلى باكستان، ولابد أن مصطفى أمين هو الذى تعمد ذلك، ويجب ألا تمر هذه المؤامرة بدون عقاب. وسرعان ما جاء العقاب بالتهديد والوعيد على لسان مستشار الرئيس لشئون البطش بالصحفيين محمد حسنين هيكل. فوجئ مصطفى أمين بمحمد حسنين هيكل يزوره فى غرفته بمستشفى الكاتب بالدقى وقال له:

- لقد جئت اليوم حاملاً رسالة خاصة من الرئيس جمال عبد الناصر.

وتصور مصطفى أمين على الفور أن الرسالة تتضمن تمنيات الرئيس بسرعة الشفاء، ولكن الرسالة كانت تحمل تهديدا خطيرا. قال هيكل:

- طلب منى الرئيس أن أبلغك الرسالة التالية وهذا نصها: (إنك قلت إن مصرع السفاح عبد الناصر فى باكستان، وهو- أى الرئيس- يقول لك إن مصرع مصطفى أمين سيكون فى القاهرة).

انتهت الرسالة التهديدية.

وبعد أيام قليلة أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قراره بتأميم الصحافة، وهو الإجراء الذى أطلق عليه اسم (تنظيم الصحافة). وصدر قرار تشكيل مجلس إدارة أخبار اليوم الجديد بدون ذكر اسم مصطفى أمين وعلى أمين، وجاء الصحفيون الأجانب

لزيارة مصطفى أمين وعلى أمين لسؤالهما عن رأيهما فى هذا القرار الذى سلب منهما دارهما ورأس مالهما الوحيد. فقال مصطفى وعلى أمين انهما اختارا جمال عبدالناصر زعيما وقائدا لشعب مصر، واذا كان الرئيس يرى أن تأميم الصحافة هو فى صالح الشعب، فانهما يوافقان على هذا الرأى، وأضاف مصطفى أمين إلى ذلك بأنه يوافق على أن يعمل فى أى منصب يختاره له الرئيس فى أخبار اليوم.

وبعد ساعات عرف عبد الناصر بنص هذا الحديث الذى دار بين الصحفيين الأجانب ومصطفى وعلى أمين، فاتصل الرئيس بمصطفى أمين وقال له:

- لقد قلت للصحفيين الأجانب إنكما توافقان على العمل فى أى منصب بعد قرار تنظيم الصحافة، وكنت أتصور أنكما ترفضان العمل بالصحافة بعد هذا القرار كما قيل لى.

فرد مصطفى أمين:

- تذكر سيادتك انك قررت تنظيم الصحافة فى سنة ١٩٥٤ ويومها رجوتك تأجيل هذا القرار حتى ننجح فى الارتفاع بمبنى أخبار اليوم حتى الدور التاسع بدلا من الدور الثالث فقط، وقد وافقت على اقتراحى، والآن نجحنا فى أن يرتفع مبنى أخبار اليوم حتى الدور العاشر، وبالتالى فمن غير المعقول أن نرفض العمل الآن فى أخبار اليوم. وكنت أعلم بقرار تنظيم الصحافة قبل صدوره بعدة سنوات، وعلى رغم ذلك عملت مع زملائى بحماس حتى يرتفع مبنى أخبار اليوم ونجعله أضخم مبنى صحفى فى المنطقة.

وارتاح عبد الناصر لهذا الرد. وطلب من مصطفى أمين أن يتصل فورا بالدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام وقتذاك، وسأخبره الآن أننى عينتك نائبا لرئيس مجلس إدارة أخبار اليوم، ويجب أن تذهب الآن إلى مكتبك، وبذلك لا يمر يوم واحد على وجودك خارج أخبار اليوم.

وبعد أيام التقى جمال عبد الناصر بمصطفى أمين وقال له إنه يريده أن يتولى نفس الاختصاصات التى كانت له قبل التأميم.

وواصل على ومصطفى أمين نشاطهما بكل حماس فى أخبار اليوم بنفس الحماس الذى تميزا به عندما كانا يملكان الدار، ولكن عبد الناصر اختار أحد الضباط اسمه أمين شاكر لا علم له ولا معرفة بالصحافة، وكل صلته بها أنه كان يصدر بأموال الدولة مجلة فاشلة اسمها(بناء الوطن) خسّرت خزانة الدولة أموالا طائلة. كانت مجلة لا تقرأ، توزع بالأمر على المصالح والمكاتب الحكومية.. وكانت أخبار اليوم تتولى طباعتها- وعندما تراكمت ديونها لدى أخبار اليوم صدر قرار بمنع الطبع إلا بعد سداد الديون السابقة. وثار أمين شاكر، واعتبر هذا التصرف من جانب أخبار اليوم- قبل التأميم- بمثابة مؤامرة على فكر الثورة وحجرا على مفاهيمها، واتهم على ومصطفى أمين بأنهما ضد الثورة، ويحاولان أن يمنعا صدور (بناء الوطن) خوفا على (آخر ساعة) و(الجيل) من المنافسة.

وكان عبد الناصر على علم بهذه الكراهية التى يكنها أمين شاكر لمصطفى وعلى أمين، ولهذا السبب اختاره هو-من دون سكان مصر- ليتولى منصب العضو المنتدب لأخبار اليوم بعد التأميم.

□□□

ويمضى مقال إبراهيم سعدة فى رواية الخلافات بين مصطفى وعلى أمين وأمين شاكر، وما كانت تعانيه أخبار اليوم من الصراعات، ويقول : حدث هذا على رغم أن (الأهرام) كان وقفا على محمد حسنين هيكل وحده، هو الذى اختار من يعمل معه، وهو الذى يتصرف فى كل صغيرة وكبيرة فى شئون (الأهرام) وجميع القرارات التى صدرت بعد ذلك واستهدفت تنظيم (وتظلم) الصحافة كانت مقصورة على (أخبار اليوم) وغيرها، أما الأهرام فقد نجا من هذه القرارات ولم يكلف هيكل قرارا واحدا من قرارات الاتحاد القومى أوعن الاتحاد الاشتراكى ويتعلق بالصحافة وتنظيم العمل داخل الدور الصحفية.

وعندما فشلت جميع المحاولات لضرب أخبار اليوم تصور البعض أن الحل الوحيد هو إبعاد التوأم أمين من أخبار اليوم، فنقلا إلى دار الهلال، ثم انفصل التوأم،

وعاد مصطفى أمين وحده إلى أخبار اليوم ويبقى على أمين فى دار الهلال، ويطير إلى لندن مراسلا للأهرام تحت رئاسة محمد حسنين هيكل ثم يقبض على مصطفى أمين وتوجه إليه تهمة التخابر والتجسس، وينفى على أمين ٩ سنوات.

□□□

يقول إبراهيم سعدة بعد ذلك:

إن الجديد فى هذه التفاصيل ما رواه لى مصطفى أمين، وكيف أن هيكل كان وراء تلفيق القضية ضده، وذكر أن هيكل كان يزوره باستمرار فى سجن الاستئناف لا بهدف السؤال عنه، وإنما بغرض معرفة أخباره ونقلها أولا بأول إلى جمال عبدالناصر. اتضح هذا عندما زاره فى إحدى المرات، فاخبره مصطفى أمين أنه تلقى رسالة من على أمين، وكان مصطفى أمين يتلقى رسائل على أمين بانتظام، وبعد انتهاء المقابلة مع هيكل فوجئ مصطفى أمين بانقطاع رسائل على أمين ولم تعد تصل إليه فى مواعيدها. تبين أن هيكل أخبر عبدالناصر بأن مصطفى أمين يتلقى رسائل سرية من على أمين فى لندن، فصدرت التعليمات بفتح خطابات على أمين وتصويرها من عدة نسخ وترسل نسخة منها إلى عدد من المسئولين ومن بينهم محمد حسنين هيكل نفسه، وبعد أخذ آراء جميع هؤلاء المسئولين فى الرسالة يسمح بتسليم الأصل إلى مصطفى أمين.

وكان هيكل يزور مصطفى أمين فى السجن ويؤكد له أنه يثق ثقة كاملة فى براءته، وعندما حدثه مصطفى أمين مرة عن التعذيب الذى تعرض له تأثر هيكل تأثرا شديدا وبكى بدموع حقيقية أمام مصطفى أمين تعاطفا معه وقال له إنه سيخبر الرئيس بأمر هذا التعذيب.. وعندما أفرج عن مصطفى أمين فوجئ بأن هيكل كان يشيع فى كل مكان أن مصطفى أمين جاسوس ١٠٠٪ وأنه أخبر جميع رؤساء الدول العربية وجميع السفراء والوزراء العرب وجميع الصحفيين الكبار فى العواصم العربية بهذا الرأى، وكيف أن القرائن كلها والأدلة تدين مصطفى أمين بالخيانة العظمى. وعندما أفرج الرئيس أنور السادات عن مصطفى أمين، فوجئ مصطفى أمين بالرئيس

السادات يقول له عندما قابله إنه كان قد قرر الإفراج عنه فور توليه رئاسة الجمهورية بعد وفاة عبد الناصر ولكن هيكل أخبره بأن مصطفى أمين يعقد اجتماعات مستمرة مع على صبرى وسامى شرف فى السجن ويعدون كتابا أسود عن أنور السادات، واندهش أنور السادات من هذه المعلومات واستبعد أن يتقابل أو يتعاون مصطفى أمين مع على صبرى وسامى شرف وهما اللذان ساهما فى الإيقاع به وسجنه.. ولكن الرئيس السادات ظن أن وجود الثلاثة فى السجن فى وقت واحد أدى إلى تحالفهم ضده، ولهذا السبب أجل قراره بالإفراج عن مصطفى أمين، وعندما أمر السادات بالتحقيق فى هذه المعلومات بعد ٦ شهور فوجئ بأن السجن الذى يقيم فيه مصطفى أمين يبعد عن سجن على صبرى وسامى شرف بمسافة ٦ كيلومترات، وبالتالى يصعب جدا تصديق ما قاله هيكل عن مقابلات تمت بين الثلاثة.

ويقول المقال:

هذا الإصرار الغريب من جانب هيكل على عدم الإفراج عن مصطفى أمين، قابله تصرف مثير للدهشة من جانب هيكل، فقد عين رتيبة ابنة مصطفى أمين الكبرى فى الأهرام بمرتب ثلاثين جنيها فور تخرجها فى الجامعة! شخصية غريبة.. لرجل أوقع منافسه الأول وفى نفس الوقت أعطى ابنة هذا المنافس وظيفة بمرتب لا بأس به، وقال الناس: ما أنبل هيكل، إنه ساعد ابنة مصطفى أمين المسجون، إنه يرد له الجميل بأحسن منه.

ويروى مصطفى أمين قصة أخرى عن هيكل وعلى أمين، كان هيكل يكتب لعلى أمين وهو فى لندن يطمئنه على أنه يقوم بجهد خارق لدى جمال عبدالناصر لإثبات براءة مصطفى أمين، ولكن هذا سيستغرق وقتا طويلا، وكان على أمين يصدق هيكل ويرسل له شكره مع أصدقاء الطرفين وبالذات سعيد فريحه. وعندما عاد على أمين إلى مصر وتقابل مع الرئيس السادات وعرف الدور الذى لعبه هيكل لمنع السادات من الإفراج عن مصطفى أمين، ثار على أمين ثورة عاتية على هيكل، فقد كانت صدمته فيه

أكبر من صدمة مصطفى أمين، فقد كان يثق فى هيكل ويحبه فى حين أن مصطفى أمين لم يكن يثق أبدا فى هيكل، ولولا على أمين لما استمر هيكل يعمل فى أخبار اليوم فى بداية شبابه.

وعندما أبعد الرئيس أنور السادات هيكل عن الأهرام وعين بدلا منه على أمين، أمسك على أمين بقلمه وكتب فكرة يغمز فيها هيكل ولكنه لم ينشرها أبدا. واحتفظ بها فى أوراقه إلى أن مات على أمين وأطلعنى مصطفى أمين على فكرة على أمين التى لم تنشر. وهذا نصها:

فكرة

مات!

ودفنته أمس فى التراب.

وكنت الوحيد الذى سار فى جنازته. فقد تخلى- رحمه الله- عن كل أصدقائه واحدا واحدا.. رفسهم بقدمه وهو يصعد إلى فوق!

ولم تنشر الصحف خبر وفاته، لأن معارفه يتصورون أنه لا يزال على قيد الحياة.

ولكنى رأيته وهو يلفظ آخر أنفاسه!

وذرفت عليه دموع القلب ودموع العيون!

ولا أعرف لماذا بكيت عليه وهو لم يمت فجأة.. كان يذبل أمامى يوما بعد يوم.

وهو لم يمت قضاء وقدرا، إنما فضّل الانتحار!

وأنا لا أبكى أبدا على منتحر. ولكننى وجدت نفسى أبكى عليه وأحسست بقلبى يتمزق!

ولا أعرف لماذا فضّل هذه النهاية الغريبة. كان المستقبل يبتسم له. كان الحظ يسير فى ركابه. وكانت الناس تحسده على النجاح الذى وصل إليه، وكنت أؤمن أنه لا يزال

فى أول الطريق، وأن نجاحه فى الغد سيفوق نجاح اليوم والأمس! وكانوا يحاسبونه على أخطائه وكنت أتسامح فيها.. كنت أعتقد أنه لا يزال طفلا وأنه سيكبر فى يوم من الأيام وتكبر أخلاقه وتكبر تصرفاته ويشتد عموده الفقرى!

ولكنه لم يكن واثقا بنفسه. كان غروره الذى يراه الناس هو مركب نقص يحاول أن يخفى به عدم ثقته بنفسه. كانت أكاذيبه هى الوسائد التى يضعها تحت قدميه ليخفى قصر قامته ويوهم الناس أنه طويل القامة!

وكان نكرانه للجميل مجرد ضعف ذاكرة!

رحمه الله!

إننى لا أريد أن أنشر اسمه لأننى مازلت أحبه.. ولا أريد أن يشمت فيه خصومه ويعرفوا أنه انتحر.

على أمين

□□□

يقول إبراهيم سعدة:

كانت هذه (فكرة).. التى كتبها على أمين عندما تولى منصب مدير تحرير الأهرام بدلا من هيكل. (يلفت النظر أن على أمين عينه السادات مديرا لتحرير الأهرام وليس رئيسا للتحرير وكان ذلك مثار دهشة-)، ولكنه لم ينشرها شفقة بهيكل الذى يعترف على أمين بأنه لايزال يحبه.. وهذا الحب هو الذى جعل على حمدى الجمال- مدير تحرير الأهرام- يحاول أن يجمع بين على أمين ومحمد حسنين هيكل بعد إبعاد الأخير من الأهرام بأمر من الرئيس أنور السادات، ولكن حب على أمين لهيكل يقل بالطبع عن حبه لأخيه مصطفى، لقد اشترط على أمين أن يكتب هيكل اعترافا بالدور الذى لعبه فى الإيقاع بأخيه، وتلفيق التهمة له، ووعد على أمين بالتصالح مع هيكل بعد كتابه هذا الاعتراف، وفهم هيكل أن على أمين لا يريد الصفح، وبدأت الحرب بين هيكل ومصطفى

وعلى أمين تتخذ شكلا واضحا وسافرا، ولم تعد تلك الحرب خفية وسرية، وقام الصحفى الفلسطينى ناصر الدين النشاشيبى- صديق الطرفين- بنشر سلسلة من الأحاديث مع على ومصطفى أمين من جانب ومحمد حسنين هيكل من جانب آخر فى مجلة (الحوادث اللبنانية) وتحدث كل جانب عن الجانب الآخر بما يراه اتهاما ضده ودفاعا عن نفسه.. واستمر العداء حتى يومنا هذا، وحتى بعد وفاة على أمين.. وإذا كان هيكل يؤكد الآن- صراحة- أن مصطفى أمين (جاسوس) وأنه أصيب بالغثيان عندما أتيحت له فرصة سماع التسجيلات الصوتية لأحاديث مصطفى أمين السرية مع ملحق السفارة الأمريكية قبيل القبض عليه فى سنة ١٩٦٥ فإن الدفاع عن مصطفى أمين- الأستاذ شوكت التونى المحامى- جمع وقائع ليؤكد أن محمد حسنين هو الجاسوس الذى عمل ضد بلاده لحساب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

أعلن شوكت التونى هذا الرأى أمام المحكمة فى مرافعته عن مصطفى أمين- المدعى المدنى- فى قضية التعذيب الكبرى وضد صلاح نصر وحسن عليش ويسرى الجزار، وهى القضية التى نظرتها هيئة المحكمة المكونة من المستشار أنور حسن مرزوق رئيسا والمستشارين محمد مصطفى حسن وعبد المعطى ناصر عضوين وكانت المحكمة قد استمعت إلى أقوال محمد حسنين هيكل الذى نفى أن مصطفى أمين حدثه- وهو فى السجن- عن تعرضه للتعذيب فى مبنى المخابرات فور القبض عليه، وقال محمد حسنين هيكل أيضا إنه أصيب بالغثيان عندما استمع إلى أحاديث مصطفى أمين مع رجل المخابرات الأمريكى وهى الأحاديث التى تثبت- من وجهة نظر هيكل خيانة مصطفى أمين.

ورد شوكت التونى على أقوال الشاهد محمد حسنين هيكل فقال: أما الصحفى محمد حسنين هيكل الذى زار مصطفى أمين عدة مرات حتى قال له مصطفى أمين (ارحمنى من زياراتك) لأنه أدرك أنها زيارات (تشفى).

أولا: لأن مصطفى أمين يؤمن بأن مدبر المؤامرة عليه هو حسنين هيكل لأنه- كما ذكر هيكل نفسه- صاحب الفضل عليه، فلابد أن يجازيه شرا عن خير صنعه، طبيعة النفوس اللئمية.

ثانيا: أنه يريد أن يزيحه من مكانته لدى ولى النعم عبدالناصر.

ثالثا: لأنه يريد أن يبعده عن الصحافة حتى يصبح هو- هيكل- امبراطور الصحافة.

لقد أنكر هيكل أن مصطفى أمين قد شكا إليه تعذيبا وقع عليه، ولكى يؤكد صدقه تحدث عن أفضال على ومصطفى أمين عليه، كما ذكر أنه وافق على صرف نصف مرتب لأسرة مصطفى أمين فى سنة ١٩٦٧ أى بعد سنتين من سجن مصطفى أمين، ولكن الكلمة التى أثارتنى هى قولته إنه عندما قرأ تفريغ الأشرطة عاد مصابا بالغثيان، أى يكاد يتقيأ- قرفان- مما سمع من خيانة مصطفى أمين، لذلك فإننى أحدث وأطيل عن هذا الشاهد أقدم لحضراتكم كتابا كتبه أول رئيس للجمهورية هو اللواء محمد نجيب وهو كتاب (كلمتى للتاريخ) يقول فيه: (رفعت إلى المخابرات المصرية تقارير تقول إن الصحفى محمد حسنين هيكل عميل للمخابرات المركزية فرفضت مقابلته) وأننى أتشرف بتقديم هذا الكتاب كوثيقة من رجل له وزنه فى رواية التاريخ.

ثم انتقل شوكت التونى فذكر فى مرافعته الطويلة وقائع أخرى ضد هيكل فقال: هناك كتاب اسمه (بغير عباءة ولا خنجر) مؤلفه مايلز كوبلاند وهو من كبار رجال المخابرات الأمريكية ويقول فى صفحتى ٥٢ و٥٣ ليس ضروريا أن يكون الإنسان عميلا بالمعنى الشائع للعمالة، وذلك تخفيفا من معنى العميل، وهو فى هذا يشبه قول صلاح نصر الذى قال إنه رجل عاش حياته يخدم بلده،وهو يعتقد أنه خدم بلده فى أنه عذب هؤلاء الناس جميعا.. يقول كوبلاند: إنه ليس ضروريا أن يكون الإنسان عميلا بالمعنى الشائع للعمالة لكى يؤدى الخدمة المطلوبة، إنما يكفى أحيانا مع بعض الأشخاص أن تعقد المخابرات معهم نوعا من الاتفاق الودى لتبادل المعلومات لكى يصبح بالنسبة لهم أكبر أهمية من أكبر عميل.

وضرب كويلاند مثلا بكاتب الرئيس عبد الناصر محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام فكتب يقول إن العلاقة الخاصة بين الحكومة الأمريكية وكبار الصحفيين العالميين تتجاوز الصحفيين الأمريكيين إلى غيرهم فى البلاد الأخرى ممن اشتهر عنهم عدم الميل للولايات المتحدة، مثلا محمد حسنين هيكل فى مصر. إن الصحفى يستطيع أن يكون عنيفا فى مهاجمته للسياسة الأمريكية كما يشاء بشرط أن يكون كريما فى المعلومات التى يقدمها للحكومة الأمريكية وبشرط ألا يسىء استعمال المعلومات التى تعطى له.

ويقصد الكاتب بذلك أنه يجب على الصحفى ألا يعطى تلك المعلومات لروسيا مثلا، ثم يتابع الكاتب فيقول: ولنضرب مثلا بذلك محمد حسنين هيكل كاتب عبد الناصر. إن بعض أعنف مقالاته ضد أمريكا كانت مرتكزة على معلومات أعطيت له من السفير الأمريكى فى مصر مقابل أن يعطى هيكل المعلومات التى فى حوزته بالتفصيل إلى السفير الأمريكى مع ذكر المصادر التى حصل منها على هذه المعلومات، وكيف استطاع الحصول عليها، وقال السفير الأمريكى السابق فى القاهرة واسمه لوسيوس باتل للسفير الذى حل محله فى المنصب إن هيكل فى جميع مراحل تعامله معه لم يخل أبدا باتفاقه مرة واحدة.

ثم قال كويلاند بعد ذلك إن هناك أكثر من هيكل- أى أكثر من عميل- فى أكثر من عاصمة أفريقية وآسيوية حيث الشعور المعادى لأمريكا مستمر، وهناك أكثر من اتفاق لتبادل المعلومات بين الصحفيين وحكومة أمريكا، وفى كل الحالات كان هؤلاء الصحفيون جميعا يتقيدون بنصوص الاتفاقيات الموجودة معهم.

وانتقل المحامى شوكت التونى من هذه النقطة إلى نقطة أخرى فقال:

نشرت مجلة الحوادث اللبنانية أنه فى زيارة لعبدالناصر إلى الاتحاد السوفيتى اصطحب معه محمد حسنين هيكل وهناك دار حوار بين خروشوف وهيكل، قال خروشوف: الآن وقد زرت الاتحاد السوفيتى واطلعت على ما فيه أعتقد أنك كصحفى

لابد لك من زيارة الولايات المتحدة، فرد عليه هيكل وقال له: أعتقد أن هذا صحيح.
وعاد خروشوف يسأل: ألم تزرها من قبل؟. قال هيكل: نعم لم أزرها .. فلم تسمح لى الظروف بذلك.. ويقول خروشوف، لكن إن لم تخنى الذاكرة يخيل إلى أنك قمت برحلة سريعة إلى أمريكا.. فقال هيكل: لا لم أزر أمريكا نفسها. إنما كانت رحلة إلى منظمة الأمم المتحدة فى نيويورك. فيرد عليه خروشوف الداهية قائلا: آه تذكرت الآن، ويومها أنت اغتنمت فرصة للقيام بجولة سريعة حول الأمم المتحدة. فقال هيكل: نعم.
وواصل خروشوف حديثه فقال: وإذا لم تخنى ذاكرتى كان ثمة مبلغ محترم من المال فى انتظارك، فقال هيكل بسرعة: لم يحصل. ورد خروشوف: ربما أعتمد على ذاكرتى أكثر من اللازم لكن قلما تخوننى الذاكرة، وسأثبت لك ذلك عمليا، وأخرج من درج مكتبه ورقة وقال : المبلغ المحترم صرف بموجب شيك رقم كذا بتاريخ كذا على بنك كذا، وكان المبلغ على وجه التحديد هو كذا. وأجاب هيكل: أنت تقصد المبلغ الذى تقاضيته ثمنا لموضوعات كنت قد بعثت بها إلى جريدتى واشنطن بوست ونيويورك تايمز وكنت مراسلا لأخبار اليوم فى كوريا ، وقد نشرت هذه المقالات فى حينها، وسأل خروشوف: ألا ترى أن الوقت غير معاصر وكان بينهما عامان. فرد هيكل: لا أتذكر. فسأل خروشوف: ألا ترى أن الثمن كان مبالغا فيه بالنسبة لمقالات صحفية فالمبلغ كان ١٠٠ ألف دولار.. فقال هيكل: لا أعتقد. وعاد خروشوف ليقول: ولكن معلوماتى تؤكد هذا إذا لم تخنى ذاكرتى فإن هذا المبلغ صرف بموجب شيك صادر من المخابرات الأمريكية وليس من الصحيفتين اللتين ذكرتهما. فقال هيكل: ماذا تعنى؟ فرد خروشوف:الحقيقة إننى أعنى أكثر مما سمعته أذناك. عندئذ خرج هيكل من الحجرة واستقل الطائرة ورجع إلى مصر فى اليوم التالى الذى وصل فيه إلى روسيا.

(تعليق : هذه الرواية نقلا عن مجلة الحوادث اللبنانية ومعروف صلة أصحابها بمصطفى وعلى أمين. وكيف يصل حوار خاص دار فى مكتب

الرئيس الروسى لينشر فى مجلة لبنانية ويكل هذه التفاصيل فيما يجعله يبدو سيناريو سينمائيا.. وحدث ذلك فى وجود عبدالناصر ولم يظهر منه رد فعل.. وبعد ذلك طلب خروشوف هيكل ليقضى ليلتين فى بيته فى موسكو ويركب معه السفينة ثلاثة أيام أثناء سفره إلى مصر. وهذا يجعل الحكاية موضع تساؤل خصوصا أنه ليس عليها دليل.)

ونعود بعد هذا التعليق السريع إلى مقال إبراهيم سعدة .. يقول:

ويعلو صوت شوكت التونى فى المحكمة عندما يعلق على هذه القصة فيقول: أنت يا هيكل كاتب تاجرت باسم عبدالناصر، ويصلتك به، وكسبت مئات الآلاف من الجنيهات، لماذا لا توكل محاميا عظيما فى نيويورك وترفع دعوى على كويلاند وعلى المخابرات الأمريكية وعلى مجلة الحوادث كما فكرت من قبل فى أن ترفع قضية ضد محمد نجيب لما وصفك به فى كتابه (كلمتى للتاريخ)؟ وهذا هو محمد حسنين هيكل الذى حضر إلى هنا وقال حصل له غثيان.. من أن مصطفى أمين قال للملحق فى السفارة الأمريكية لا تعط القمح لمصر، وأنا قلت لحضراتكم إن القمح كان قد منع عن مصر عندما شتم عبدالناصر أمريكا وطلب منها أن تشرب من مياه البحر الأبيض والبحر الأحمر.

إن مصطفى أمين لم يقبض مالا من الملحق الأمريكى، وأثبت هذا المستشار سمير ناجى الذى حقق القضية، وجاء إلى هنا وقال إن مصطفى أمين هو الذى كان يعطى نقودا للرجل الأمريكى ليهربها له إلى الخارج. مصطفى أمين لم يتقاض نقودا، إنما هيكل تقاضى، وتقاضى مبلغا ضخما كما قال خروشوف، وأنا من هذه المنصة لا أريد تكذيبا من حسنين هيكل وإنما أريد تكذيبا من السفارة السوفيتية إن شاءت، وإلا فليعرف الكافة - وحسنين هيكل الآن صديق الناصريين وصديق الشيوعيين وصديق الاتحاد السوفيتى - ليعلم الكافة أنه لم يكن مصطفى أمين جاسوسا كما يقال، ولقد برأته

المحكمة من تهمة إعطاء معلومات، وأنه كان شريفا محترما كما كان فى حياته، إنما الذى كان جاسوسا، وكان عميلا من العملاء بحكم ما سردت هو محمد حسنين هيكل.

□□□

ويكمل إبراهيم سعدة:

ونترك مرافعة شوكت التونى فى قضية تعذيب مصطفى أمين ونركز قليلا على الصراع الذى دار بين اللواء محمد نجيب. أول رئيس لجمهورية مصر. ومحمد حسنين هيكل، فقد بدأ هذا الصراع فى سبتمبر ١٩٧١ عندما أصدر محمد حسنين هيكل كتابا بعنوان (عبد الناصر والعالم) باللغة الانجليزية، وتعرض فى هذا الكتاب إلى واقعة اختلفت فيها الآراء، وكانت- ومازالت- تسبب صداعا للناصريين وأولهم محمد حسنين هيكل..

قال هيكل فى كتابه هذا: (.. ذات يوم كان عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة يبحثون مسألة بناء برج لاسلكى للاتصالات العالمية التى تقوم بها وزارة الخارجية وإدارة المخابرات وقيل لعبد الناصر: إنه سبق أن تم شراء بعض المعدات، ولما احتج بأنه ليست هناك أموال مرصودة فى الميزانية لهذا الأمر قيل له إن المال جاء من اعتماد أمريكى.. ودهش عبد الناصر إذ كانت هذه أول مرة يسمع فيها بوجود أى اعتماد خاص، وقيل له عندئذ: إن وكالة المخابرات الأمريكية وضعت تحت تصرف اللواء محمد نجيب ثلاثة ملايين دولار، وكان المبلغ قد تم تسليمه بواسطة عميل أمريكى فى حقيبة ضخمة عبئت بقطع نقدية من فئة مائة الدولار، وسلمت الحقيبة إلى ضابط فى المخابرات المصرية كان يعمل كضابط اتصال بين المخابرات المصرية ووكالة المخابرات المركزية، وتمت عملية الدفع والاستلام فى بيت العميل الأمريكى فى ضاحية المعادى الأنيقة.

واستشاط عبد الناصر غضبا عندما سمع ذلك، وتوجه بالسيارة فورا إلى مجلس الوزراء وطلب تفسيرا من محمد نجيب الذى كان آنذاك رئيسا للوزراء وأصر نجيب على

أنه فهم أنه ليس للمخابرات الأمريكية علاقة بذلك المبلغ، وأنه مرسل من الرئيس ايزنهاور الذى خصص اعتمادات مالية لبعض رؤساء الدول ليتمكنوا من تجاوز مخصصاتهم المقيدة بالميزانية، من أجل الدفاع عن أنفسهم وعن بلادهم ضد الشيوعية.

وهنا طلب عبد الناصر إيداع المال فى خزانة إدارة المخابرات، وأمر بعدم صرف أى شئ منه إلا بإذن من مجلس قيادة الثورة، وفى النهاية بنى البرج، وكان مخططا له فى الأصل أن يكون برجا بسيطا وعمليا يعلوه هوائى لاسلكى وشبكة أسلاك تنحدر إلى أسفل عبر وسطه، ولكن عبد الناصر قرر أن يبنيه كنصب يشهد على حماقة وكالة المخابرات الأمريكية، فاستخدم الأموال الأمريكية لبناء البرج الفخم المزركش وبنى المطعم الدوار والذى يطل اليوم على منظر القاهرة كلها.

ولقد لقى البرج انتقادا شديدا عند تشييده لأنه لم يكن فى وسع أحد أن يفهم سبب إهدار المال عليه. وإذا كان قسم المواصلات فى مبنى البرج جديا وجوهريا فقد كانت الاعتمادات متاحة، ولم يكن هناك بأس من بناء المطعم، ومن الهندسة الباذخة، وبشكل ما فإن ذلك إهانة إلى وكالة المخابرات المركزية. وقرأ محمد نجيب هذا الكلام على لسان محمد حسنين هيكل، فانفعل الشيخ وثار ثورة عاتية على هيكل الذى دفعه بهذه الكلمات إلى أن يخرجه من وراء ستار الصمت الكثيف الذى اختفى خلفه طوال السنوات الماضية، ومنذ استولى منه عبدالناصر على رياسة الجمهورية وقيادة الثورة، وسجنه فى وسط الصحراء هو واسرته.. ثار محمد نجيب على هيكل وأعلن أنه كذب فى كل كلمة قالها، وأكد نجيب أنه لم تكن له صلة بهذا الموضوع لسبب بسيط وهو أنه كان معتقلا عند وصول المبلغ من وكالة المخابرات المركزية، وقال محمد نجيب- أيضا- إنه لم يكن يرتبط بأية علاقة مع الولايات المتحدة أو مع أحد من الأمريكيين، وأشار نجيب إلى أن جمال عبد الناصر هو الذى كانت له صلات متعددة ببعض عملاء وكالة المخابرات المركزية.

وتحدث محمد نجيب فاستشهد بكتاب مايلز كوبلاند- رجل المخابرات المركزية الذى كان مقربا من جمال عبد الناصر- وكيف أن مايلز ذكر صراحة فى هذا الكتاب

أنه سلم المبلغ- ٣ ملايين دولار- لحسن التهامى فى منزله بالمعادى ليوصله إلى جمال عبدالناصر كهدية شخصية له. وأضاف محمد نجيب قائلا:.. من المعروف أن حسن التهامى كان أحد الذين اعتمد عليهم جمال عبد الناصر فى حركاته السرية، واشترك معه فى محاولة اغتيال حسين سرى عامر قبل الثورة، كما اشترك معه فى الاتصالات السرية مع الأمريكان بعد الثورة، وحسن التهامى هو الذى شارك فى عملية اعتقالى بعد استقالة فبراير، والذى اتهمنى بممالأة انقلاب شيوعى أعده خالد محيى الدين فى سلاح الفرسان.

ولم يكتف محمد نجيب بهذا التكذيب وهذه الاتهامات التى وجهها لجمال عبد الناصر ولحسن التهامى، وإنما قرر أن يلجأ للقضاء ليرفع دعوى ضد محمد حسنين هيكل فى نوفمبر ١٩٧٢ أمام محكمة جنايات الجيزة. ولما عرف هيكل بذلك سعى للاتصال بمحمد نجيب، وتم الاتصال بين محامى محمد نجيب- الأستاذ رفعت الشهاوى- ومحمد حسنين هيكل، واتفقا على الصلح بشرط أن ينشر هيكل بيانا فى صحيفة الأهرام، والديلى تلجراف، والنهار اللبنانية يعتذر فيه عما نشر فى حق محمد نجيب. وخضع هيكل ونشر البيان المطلوب، وجاء فيه أن محمد حسنين هيكل يريد أن يؤكد أن ما نشر عن اللواء محمد نجيب فى هذه الواقعة لم يقصد المساس به وبالدور الوطنى الذى لعبه فى بداية الثورة، كما وضح أن الولايات المتحدة لم تضع هذا الاعتماد تحت تصرف اللواء محمد نجيب ولكنها وضعته تحت تصرف السلطة المصرية تنفيذا لسياستها حينذاك فى محاولة احتواء الثورة المصرية.

وانتهت بذلك هذه الأزمة.. ولكن العداء ظل باقيا فى القلبين، وعندما نشر محمد نجيب كتابه (كلمتى للتاريخ) واستعرض فيه الأهوال التى تعرض لها بأمر من جمال عبد الناصر، ذكر فى سطور سريعة أن محمد حسنين هيكل كان معروفا عنه، من واقع تقارير أجهزة الأمن المصرية، أنه عمل عميلا لحساب وكالة المخابرات المركزية، وثار محمد حسنين هيكل وكان وقتها فى أواخر أيامه فى الأهرام، فكتب مقالا عنيفا هاجم

فيه محمد نجيب ووصفه بالخبل، وبتخريف الشيخوخة، وقال إنه قرر أن يقاضيه لولا أن محاميه نصحه بتجاهل الموضوع، فقبل هيكل النصيحة ولم يلجأ إلى القضاء، وباعتبار أن اتهام محمد نجيب عبارة عن فقاعة صابون انفجرت فى الهواء بمجرد تكوينها وانطلاقها.

ولكن الغريب أن محمد حسنين هيكل لم يلجأ إلى القضاء ليقتص له من اتهامات مايلز كويلاند الذى كان أكثر تحديدا من محمد نجيب فى اتهام هيكل بالعمالة لوكالة المخابرات الأمريكية، كما لم يهتم محمد حسنين هيكل بما نشرته مجلة (الحوادث) اللبنانية عنه واتصالاته المريبة بوكالة المخابرات المركزية.

ويزداد غرابة موقف محمد حسنين هيكل عندما أجبر على الوقوف أمام المحكمة التى تنظر فى قضية تعذيب مصطفى أمين، وجاء ليشهد ويقول إنه زار مصطفى أمين أكثر من مرة، ولكنه- أى مصطفى أمين- لم يحدثه عن التعذيب الذى تعرض له والذى كتب عنه فى كتابه (سنة أولى سجن) وما رآه عدد من المتهمين الذين تصادف القبض عليهم أثناء التحقيق مع مصطفى أمين فى مبنى المخابرات. أدلى محمد حسنين هيكل بهذه الشهادة لتبرئة المتهمين: صلاح نصر رئيس المخابرات العامة سابقا، وحسن عليش وكيل المخابرات سابقا، وأحمد يسرى الجزار من كبار موظفى المخابرات العامة سابقا، الذين اتهمهم مصطفى أمين بتعذيبه وانتزاع الإقرارات المزورة منه تحت ضغط الإكراه البدنى والنفسى.

وتصدى شوكت التونى- محامى مصطفى أمين- لشهادة محمد حسنين هيكل.. سأله: هل سبق أن أطلق عليك الرصاص؟ فرد هيكل: نعم. فسأله شوكت التونى: ومن الذى أطلق عليك الرصاص؟ فرد هيكل: المخابرات. وعندئذ هب المتهمون وقالوا بصوت واحد من وراء قفص الاتهام: لم يحدث هذا فى عهدنا. وهذه هى الحقيقة. الاعتداء على هيكل ومحاولة قتله بالرصاص لم يتم فى عهد صلاح نصر وعليش والجزار وإنما تم فى عهد مخابرات أمين هويدى، ولكن شوكت التونى لم يهتم بتحديد الاشخاص الذين

كانوا يحكمون دولة المخابرات عندما تعرض هيكل للضرب بالرصاص. كان التونى مهتما فقط بإثبات أن المخابرات هى التى أطلقت الرصاص على سيارة هيكل عندما كان يستعد لركوبها أمام مبنى الأهرام القديم بشارع شريف بالقاهرة. كان شوكت التونى يريد بهذا الاستجواب أن ينقل به تصوير حالة الرعب والخوف التى كان شعب مصر يعانى منها بسبب المخابرات، والدليل على ذلك أن محمد حسنين هيكل، وكان يعتبر من أقرب المقربين إلى جمال عبد الناصر ويمثل قوة فى البلد، وعلى رغم ذلك نجحت المخابرات فى إرهابه وتهديد حياته بالموت. والأغرب من هذا أن هيكل لم يذكر حرفا واحدا حينذاك عن هذا الحادث الخطير. لم ينشر حرفا واحدا فى الصحف. لم يطلب الشرطة للتحقيق. لم يأمر جمال عبد الناصر بمعرفة تفاصيل الحادث. بل إن المرجح هو أن هيكل لم يجرؤ أن يتحدث عن هذا الاعتداء مع جمال عبد الناصر.

وحاول شوكت التونى أن يكشف سر الاعتداء على رئيس تحرير الأهرام وصاحب الحظوة لدى الرئيس جمال عبد الناصر، فسأل هيكل: هل سبق أن كتبت مقالا فى الأهرام عن التعذيب؟ ورد هيكل: الشاهد الذى حلف اليمين بأن يشهد بالحق: لا.. لم أكتب عن التعذيب. وهنا أخرج شوكت التونى عدد الأهرام الذى نشر فيه هيكل مقالا عن التعذيب، وعرضه أمام هيكل وأودعه لدى المحكمة، ففوجئ هيكل واضطر إلى أن يعتذر ويقول إنه نسى تماما هذا المقال الذى مضى عليه عدة سنوات.

□□□

هذا هو نص المقال الذى كتبه إبراهيم سعدة فى أخبار اليوم يوم ٣٠ أبريل ١٩٨٢ دون حرف زائد أو حرف ناقص.

وقد جمع كل ما أراد مصطفى أمين أن يقوله فى الهجوم على هيكل لتصفية الحساب بينهما، وهو فيما يبدو حساب قديم، وواضح أيضا أن الجلسة التى استدعى فيها هيكل للشهادة كانت الكمين الذى نصبه لهيكل وأداره المحامى ببراعة فى محاولة

لإلصاق الاتهامات التى حوكم عليها مصطفى أمين إلى هيكل، وتشويه صورة هيكل على رغم أنه شاهد وليس متهما، لكن ساحة المحكمة كما هو معروف لدى المحامين العتاة هى أنسب مكان للإساءة إلى الناس دون محاسبة أو عقاب لأن المحامى فى مجال الدفاع عن موكله له أن يقول ما يشاء والمحكمة هى التى تقرر فى النهاية ما تطمئن إلى صدقه وما لا تطمئن إليه..

□□□

وفى يناير ١٩٨٦- أى بعد أقل من أربع سنوات- ذهب إبراهيم سعدة مع مجلس تحرير أخبار اليوم إلى محمد حسنين هيكل فى بيته وأجروا معه حديثا طويلا نشر على ثلاث حلقات، كما نشرت فى الحلقة الثالثة صورة من ص ١١٢ من كتاب (السياسة والعسكريون فى إسرائيل ١٩٧٧- ١٩٧٦) تأليف أموس برلموتر الذى يعتبر أشهر مفكر استراتيجى قال فيه بالحرف الواحد :.. ولكن هيكل برفضه قبول دور التابع الذى أراده كيسنجر له فُصل من منصبه كرئيس لتحرير الأهرام.

ودعا إبراهيم سعدة ومجلس تحرير أخبار اليوم هيكل لكتابة مقاله (بصراحة) فى أخبار اليوم، وفعلا ظهر أول مقال على الصفحة الأولى من أخبار اليوم يوم ١٥ فبراير ١٩٨٦- العدد ٢١٥٥- بنفس الشكل الذى كان ينشر به المقال فى الأهرام على عمودين فى الصفحة الأولى مع صورة هيكل وبعنوان (بصراحة) يكتبها محمد حسنين هيكل وعنوان المقال: صنع القرار السياسى فى مصر.

ونشرت بعد ذلك مقالات بصراحة فى أخبار اليوم ..

حدث ذلك بعد أن كان مصطفى أمين قد مات.

وكان عبد الناصر قد مات.

وكان السادات قد مات.

هيكل ومصطفى أمين

قصة

العلاقة بين هيكل ومصطفى أمين مليئة بالتناقضات.. تناقضات المشاعر والمواقف والتصرفات.. فيها دفء العواطف والصداقة.. وفيها اعتراف التلميذ بالفضل لأستاذه ثم تحول التلميذ إلى أستاذ يعلو نجمه ويسبق أستاذه.. وفيها الإعجاب المتبادل والغيرة التى تنشأ عادة بين أبناء المهنة الواحدة خاصة الذين لديهم الموهبة والطموح.. وفيها الصراع بين العاطفة والواجب.. والرغبة فى الانتقام.. فيها الكثير مما يجعلها بحق تراجيديا صحفية، وسياسية، وإنسانية.

عمل هيكل تحت رئاسة مصطفى وعلى أمين سنوات شبابه.. وكان الاثنان يشعران بالإعجاب بموهبة هيكل ونجاحه الذى أضاف إلى أخبار اليوم وآخر ساعة إضافة لا يمكن إنكارها.. لكن علاقة هيكل بمصطفى أمين لم تكن كلها حب، وصداقة، كان مصطفى أمين يشعر أن هذا الشاب أصبح وجوده فى أخبار اليوم ضمانا للتفوق، خاصة بعد الثورة، والعلاقة الخاصة بينه وبين عبدالناصر وأعضاء قيادة الثورة، وكان فى نفس الوقت يجد هذا الشاب منافسا له فى القرب من عبدالناصر وأخيرا أصبح وحده الأقرب إلى الزعيم وتراجع الجميع بمن فيهم مصطفى أمين.

أما على أمين فكان على العكس لا تشوب صداقته لهيكل شائبة إلى أن أعاده السادات من لندن، حيث كان مندوبا للأهرام فى لندن، وتعمد السادات أن يعينه مديرا لتحرير الأهرام بعد خروج هيكل من قلعته التى بناها ورفعها وارتفع بها، وارتبطت حياته بها.

وقد عرفنا موقف مصطفى أمين من مقال لإبراهيم سعدة (مستشار السوء) فما هى القصة كما يرويها هيكل فى كتابه بين الصحافة والسياسة: قصة (ووثائق معركة غريبة فى الحرب الخفية)؟

يمكن التقاط الخيط الأول للأحداث فى الأيام الأولى للثورة، فقد اعتقلت الثورة الأخوين مصطفى وعلى أمين ضمن من اعتقلتهم من حاشية القصر ورجال الملك. وذهب هيكل- كما يقول فى كتابه- إلى لقاء جمال عبدالناصر فى مبنى رئاسة أركان حرب الجيش بكوبرى القبة، وكان قد أصبح مقرا لمجلس القيادة. وقال له:

- إن القبض على صاحبى أخبار اليوم فى هذا الظرف حكم عليهما ما لم يكن هناك دليل لا أعرفه، وأن الحرج يمتد منهما إلى الدار نفسها وكل من فيها.

وكان رد جمال عبدالناصر: إنه ليس من حق هيكل أن ينظر إلى المسائل من زاوية شخصية على هذا النحو، ثم أضاف: إن الناس كلهم يعلمون بالشكوك والظنون المحيطة بمواقفهما وارتباطاتهما، وعلى أية حال فإن اعتقالهما إجراء وقائى بعد معلومات وصلت تفيد أن الأستاذ مصطفى أمين أجرى اتصالات يوم قيام الثورة مع جهة أجنبية خارج مصر، وبما أن الظرف لا يحتمل أية مناورات فإنه أصدر أمر الاعتقال حتى تنجلى الحقائق.

وعاد هيكل فى المساء إلى عبدالناصر ومعه الأستاذ التابعى يرجو ويلح.

ثم عاد صباح اليوم التالى يشرح الضغوط التى أحس بها فى أخبار اليوم بالأمس، ثم دخل أمام عبدالناصر وآخرين من أعضاء مجلس قيادة الثورة فى شرح مفصل لعلاقة الصحافة فى مصر بالسياسة، ومن ثم علاقتها بالسلطة، واحتمالات التجاوز فى ظل الظروف الموضوعية السائدة.

وأخيرا تقرر الإفراج عن الأستاذين مصطفى وعلى أمين وأخذهما هيكل معه ومعهم الأستاذ محمد التابعى والأستاذ كامل الشناوى، وذهبوا جميعا إلى مجلس قيادة الثورة، وهناك قدمهما هيكل إلى جمال عبدالناصر وآخرين من أعضاء مجلس الثورة.

يقول هيكل إن هذا اللقاء كان يستحق المتابعة الدقيقة، فقد استجمع الأستاذ مصطفى أمين كل مواهبه ليدافع عن نفسه أمام السلطة الجديدة ويشرح مواقفه، وألح الجميع فى طلب كلمة تصدر عن المجلس تبرئ صاحبى أخبار اليوم أو ترد لهما شرفهما على حد التعبير الذى استعمله الأستاذ على أمين.

□□□

ويستطرد هيكل فى سرد أحداث التاريخ الذى لا يعرفه الكثيرون فيقول:

مضت أسابيع قليلة، ثم أتيح لى أن أرى نماذج من الطريقة التى حاول بها الأستاذ مصطفى أمين أن يثبت صدق ولائه للنظام الجديد.. ذات يوم قال لى جمال عبدالناصر فى مكتبه: إن صديقك مصطفى أمين رجل نشيط، والحقيقة أنه ضابط مخابرات من الدرجة الأولى. وفتح درج مكتبه وأخرج مظروفا ضخما معنونا باسم البكباشى جمال عبدالناصر- خاص من مصطفى أمين، ولم أكن بحاجة إلى قراءة هذه العبارة الأخيرة فقد لمحت خط مصطفى من أول نظرة. وفتح جمال عبدالناصر المظروف وأخرج ما فيه من أوراق وناولها لى، ورحت أقرأ.. تقارير ومعلومات وحكايات.. مقابلات مع سياسيين من عصر ما قبل الثورة، ودبلوماسيين وصحفيين أجانب ومصريين. ومعلومات مستفيضة عن مناورات واتصالات تجرى داخل دور الصحف وبقايا الأحزاب وحتى فى معسكر الثورة نفسه. وكله مكتوب بأسلوب مشوق جذاب. وأعترف أننى لم أشعر بارتياح. وقال جمال عبدالناصر:

- إننى أعرف أنه ينقل أخبارا من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا وذلك ممكن ومفهوم، ولكن القضية المهمة هى لمن ولاؤه فى النهاية؟ لهنا أو لهناك؟

ويضيف هيكل هامشا يقول فيه: بدا لى جمال عبدالناصر هنا متأثرا بآراء الأستاذ أحمد أبو الفتح والوفديين عموما فى الأستاذ مصطفى أمين، وفيما بعد كان الأستاذ مصطفى أمين يتهم الأستاذ أحمد أبو الفتح بأنه صاحب البلاغ الذى أدى بالثورة إلى اعتقاله وتوأمه بعد قيامها بأيام.

ويقول هيكل بعد ذلك: وكان عليَّ أن أدافع، ولم يقل جمال عبدالناصر شيئا، ولكن عبد الحكيم عامر كان قاطعا فى التعبير عن رفضه الاقتناع بشىء مما قلت.

وعندما عدت إلى أخبار اليوم قصدت مباشرة إلى مكتب الأستاذ على أمين وأغلقت الباب ورائى وصارحته بما حدث وعقبت عليه بقولى: إننى أخشى من الانسياق فى كتابة التقارير، فالموقف لا يحتمل شيئا من هذا النوع، ثم إن تلك ليست مهمتنا كصحفيين وليس دورنا. وعلى أى حال فإذا كنا- كوطنيين- نشعر أننا عرفنا شيئا يستحق أن يعرفه غيرنا فلا ينبغى أن يكون ذلك بأسلوب التقارير. ووافقنى الأستاذ على أمين على وجهة نظرى، واقترحت أن أتحدث فى الأمر مع الأستاذ مصطفى أمين بحضوره، وقصدنا معا إلى مكتب مصطفى وهناك أعدت ما قلته فى مكتب «على» وأضفت إليه أننى شعرت بحرج عندما قال لى جمال عبدالناصر فى وصف مصطفى أمين إنه ضابط مخابرات من الطراز الأول.

ويضع هيكل بين قوسين مايلى: لقد سمحت لنفسى فى هذا الحديث أن أذكر هذا الوصف، وفى هذا السياق، الآن لأن الأستاذ مصطفى أمين كتب بعد ذلك أن جمال عبدالناصر قال له: إنه يصلح ليكون مديرا للمخابرات بدلا من صلاح نصر.

ثم يستأنف هيكل الرواية فيقول:

فى تلك الأيام كان الأستاذ مصطفى أمين يكتب سلسلة مقالاته الشهيرة التى جمعها فيما بعد فى كتاب بعنوان (قصة فاروق كاملة) ونجحت المقالات صحفيا، فقد كانت مادة مثيرة تتحدث عن الحياة الخاصة للملك ولأمه ولوصيفات القصر ولحكايات الفساد والغرام والغوانى إلى آخره. ولم أكن شديد السعادة بهذه السلسلة من المقالات، وكتبت فى آخر ساعة افتتاحية أرجو فيها الكل أن ينسوا قصص الملك فاروق وأن يكفوا عن ذكر عهده وأن يلتفتوا إلى المستقبل فهو الأولى.



وبدأت مشكلة العلاقات مع بريطانيا تفرض نفسها.. كانت حكومة الوفد قد ألغت معاهدة ١٩٣٦، ورفضت مشروعا للدفاع عن الشرق الأوسط يحل محل المعاهدة، وكان هذا المشروع مقدما من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وتركيا لإقامة حلف دفاعي يضم مصر والعراق باسم منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط. وكان موقف جمال عبدالناصر أن مصر لاتستطيع أن تبحث أي مشروع إلا بعد جلاء القوات البريطانية، لأن مصر المستقلة هي التي تستطيع أن تحدد محاور أمنها ومصادر الخطر عليه. وبدأت الولايات المتحدة تقوم بدور نشيط في الاتصالات والمباحثات، ولمح جمال عبدالناصر احتمالات التناقض بين الموقف التقليدي البريطاني وبين الموقف الطارئ الأمريكي وبدأ يرسم لاستغلاله والاستفادة منه. في ذلك الوقت كان السفير الأمريكي في مصر جيفرسون كافري يحاول إبقاء خطوطه كلها مفتوحة في مصر، وفي هذا الوقت أيضا زار مصر ويليام فوستر مساعد وزير الدفاع الأمريكي، وجرى الحديث عن احتمالات عقد صفقة سلاح بين مصر والولايات المتحدة، وأبدى فوستر قبوله للمبدأ- بل وللتفاصيل- لدرجة أنه طلب قائمة بما تريده مصر من أسلحة. وتقرر إيفاد بعثة عسكرية مصرية يرأسها قائد الجناح على صبري إلى الولايات المتحدة.

ودخلت مكتبي ذات يوم في تلك الفترة فإذا عليه خطاب من السفير جيفرسون كافري يوجه لي فيه دعوة لزيارة الولايات المتحدة، وكان من رأي جمال عبدالناصر أن أذهب. وعلى صبري يبحث احتمالات الإمداد العسكري، وأنا أحاول أن أستكشف ما يسبق ذلك ويليه من احتمالات سياسية. وذهبت إلى الولايات المتحدة والتقيت بكثيرين بينهم الجنرال ايزنهاور مرشح الجمهوريين للرئاسة الذي فاز فعلا بها وراح يستعد لدخول البيت الأبيض يوم ٢٠ يناير ١٩٥٣. وعدت إلى مصر متشائما من إمكانية حصول مصر على سلاح أمريكي، وكان جمال عبدالناصر- من موقعه الذي لم يبرحه في القاهرة- قد وصل إلى نفس الاقتناع، وقال لي: إنني قلت لبعض إخواننا هنا: إننا لن نتسلم شحنات سلاح من أمريكا، والشحنة الأولى التي سوف نتسلمها

سوف يكون على صبرى نفسه.. وراحت السياسة المصرية تستعمل التناقض الأمريكى البريطانى. وشهدت تلك الفترة اتصالات مع الولايات المتحدة، وكان الأستاذ مصطفى أمين من العناصر النشطة فى هذا المجال. وكنت ألاحظ أن جمال عبدالناصر لم يغير رأيه بأن مصطفى أمين ينقل من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا، لكن الولاء النهائى ظل فى رأس جمال عبدالناصر موضع تساؤل قائما طول الوقت. ولم يكن سلوك الأستاذ مصطفى أمين يعطى أى إنسان سببا للشك، فقد كانت حماسته ظاهرة، وتقاريره المكتوبة مستفيضة ولها نفس الجاذبية والتشويق، وكانت مقالاته كلها وجرائده ومجلاته من أول سطر لآخر سطر فيها تأييدا خالصا لا تظهر عليه أى تحفظات.

□□□

يقول هيكل:

وكان عدد لا يستهان به على قمة السلطة يصرون على أن ظواهر الأمور شىء وبواطنها شىء آخر، وراح كثيرون يدعون أننى - بصداقتى الوثيقة لجمال عبدالناصر - أحمى أخبار اليوم وأتستر على مصطفى أمين، بل ذهب البعض إلى أن ارتباطى إلى هذه الدرجة بأخبار اليوم لا يعنى غير أننى من نفس النوع ونفس العيِّنة.

وانقضت سنوات إلى أن جاءت سنة ١٩٦٠، لم يكن عبدالناصر راضيا عن الظروف المحيطة بملكية الصحافة.. كان يعتقد أن آل زيدان أصحاب دار الهلال، وآل تقلا أصحاب الأهرام، وآل نمر أصحاب المقطم - قد أدوا دورهم فى مرحلة معينة، لكن مصر الآن أمام مرحلة جديدة لا يستطيعون مسايرتها، وكانت له تجربة مزعجة مع آل أبو الفتح أصحاب المصرى، كما أن علامة استفهام ظلت أمامه طول الوقت على آل أمين أصحاب أخبار اليوم، ولم يكن جمال عبدالناصر يفصل فى أى وقت بين المال وهوى صاحبه. وكانت بيننا مناقشات امتدت من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦٠ حول ملكية الصحافة.. لم يكن راضيا عن الملكية الفردية أو العائلية للصحف، وكنت أرى غير رأيه وأناقشه، وفى بعض الأحيان كنت أستطيع أن أفهمه، ولكننى لم أكن أتصور أن

تتحول الصحف من ملكية الأفراد أو العائلات إلى ملكية الدولة، فقد بدت لى تلك كارثة الكوارث، ولم يكن هناك حل وسط..

ودعانى جمال عبدالناصر إلى بيته وقال لى: مهما كانت آرائى فى موضوع الصحافة فأنا الآن وصلت إلى اقتناع كامل بأننى لا أستطيع أن أترك الأمور كما هى.. ولاأتصور أننى أريد أن أتخلص من أحد، ولو أردت أن أتخلص من أحد فأنت تعرف أن لدى الشجاعة ومن السلطة ما يسمح لى بأن أقول له اذهب إلى بيتك، ثم إنك ترى أن الكل يتسابق إلى التأييد أحيانا بأكثر مما أريد، لكن القضية أكبر من ذلك.

ثم قال لى: أنت تعلم أن لدى شكوكى وتحفظاتى حتى فى الذين يتسابقون إلى التأييد.. إننا مقبلون على تحولات اجتماعية كبيرة، وقد بدأت هذه التحولات بتأميم البنك الأهلى وبنك مصر (يوم ١١ فبراير ١٩٦٠).. إذا كنا نريد حقا تنفيذ خطة للتنمية، وإذا كنا نريد إجراء تحولات اجتماعية عميقة فى مصر فلابد من سيطرة المجتمع على وسائل المال والإنتاج، ولا أستطيع عقلا أن أفرض سيطرة المجتمع على الاقتصاد ثم أترك لمجموعة من الأفراد أن يسيطروا على الإعلام. إنهم لا يسيطرون الآن عمليا لأن الثورة قوية وذلك مجرد خوف. وأنا لا أثق فى خائف خصوصا إذا تغيرت الظروف، والمرحلة الجديدة تحتاج إلى تعبئة شاملة، وأعرف أن الموجودين الآن سوف يصفقون لأى قرار، ولكن المطلوب شىء آخر غير التصفيق.

ثم قال جمال عبدالناصر: إن ما يدهشنى أنك تنظر إلى الموضوع بحساسية شديدة، ومن وجهة نظر أشخاص. وقلت: إن خشيتى فى الواقع على المهنة. وكان رده: فكر فى أية ضمانات تريدها للمهنة، ولنلتق هنا غدا فى الحادية عشرة صباحا، وسوف يكون معنا محمد فهمى السيد (المستشار القانونى للرئاسة وقتها). وفى اليوم التالى حاولت بقدر ما أستطيع. ربحت بعض النقط وخسرت بعضها الآخر. ربحت - فيما أظن - عندما استطعت أن استبعد منطق التأميم بحدوده القاطعة ووصلنا إلى صيغة أخرى تسمح بمرونة، وهكذا كان (تنظيم الصحافة) وليس (تأميم الصحافة). وحاولت

أن أجعل الملكية مشتركة بين التنظيم السياسى وبين جمعية العاملين فى كل دار صحفية ٥٠ ٪ لكل فريق. ولم يقبل جمال عبدالناصر وخرج باقتراح وسط، انتقال الملكية إلى التنظيم السياسى وليس إلى الدولة واحتفاظ كل صحيفة بأرباحها داخلها، وتوزيع هذه الأرباح مناصفة. نصف للتجديد والإحلال فى دور الصحف، ونصف لجمعية العاملين فى كل دار صحفية. واعترضت على المذكرة التفصيلية للقانون، فقد أحسست أن المنطق والمبررات والأسانيد الواردة فيها يمكن أن تحتمل ما يمكن اعتباره نقدا لما كانت عليه الأحوال فى المهنة الأمر الذى استوجب إعادة ترتيب هذه الأحوال بالقانون. وأشهد أن جمال عبدالناصر كان صبورا، فقد قال لى: دعك من مذكرة فهمى واكتب أنت واحدة غيرها. وكتبت مذكرة كانت فى الواقع إعلانا بتأكيد حرية الصحافة أكثر منها مذكرة تفسيرية لنصوص القانون الذى صدر فعلا يوم ٢٤ مايو ١٩٦٠ (القانون رقم ١٥٦ لسنة ١٩٦٠)

□□□

وصباح اليوم الذى أذيعت فيه نصوص القانون دعوت كل أسرة تحرير الأهرام إلى اجتماع عام لكى أتشاور معهم فى الأوضاع الجديدة، وشرحت لهم فى البداية موقفى. قلت: إننى لم أكن متحمسا للقانون من حيث المبدأ. وفوجئت بالزميلة الراحلة جاكلين خورى تقاطعنى قائلة: هل نستطيع أن نسألك لماذا؟ وأليس الوضع فى ظل القانون الجديد أحسن مائة مرة للمهنة وللصحفيين من الملكية الخاصة للصحف؟ وبدا لى أن تيارا قويا يؤيدها، ودهشت. واستطردت أشرح مجمل الأسباب التى كانت تدعونى - من ناحية المبدأ - للتخوف، وكان أولها قلقى من احتمالات تدخل التنظيم السياسى - الذى انتقلت الملكية إليه - فى سياسات الصحف وتوجيه تحريرها بدعوى القانون (وكان التنظيم السياسى وقتها هو الاتحاد القومى، وكانت مشكلته أنه ككل تنظيم ينشأ فى حمى السلطة يتحول إلى جهاز بيروقراطى أو طرف من أطراف لعبة

الحكم ذاتها. ثم هناك أيضا تخوفى من احتمال تأثير الظروف الجديدة على مشروعنا لتطوير الأهرام، وقد قلت للجميع إننا أمام معركة جديدة ويجب أن نقاتل فيها).

وعند الظهر اتصل بى جمال عبدالناصر معاتبا. قال لى: إن تقريرا وصل إلىّ عما قلته فى اجتماع محررى الأهرام. ومع تقديره لكل الظروف فهو يرى أننى أضعف موقفى بهذه المسافة التى أريد أن أضعها بينى وبين القانون الجديد، وأنه سمع تحفظاتى من ناحية المبدأ وحاول بكل جهده أن يريحنى فى التفاصيل، وبذلك فانه لم يعد هناك داع لأن أعود فأتخذ موقفا سلبيا من القانون خصوصا، وأن هناك من قد ينتهزون الفرصة ضدى.

ثم قال لى الرئيس:

إنهم حاولوا أن يصوروا لى قولك بأننا يجب أن نقاتل على أساس أنها معركة ضد القانون، وقلت لهم: إن هذا التعبير يجرى على لسانك كثيرا فى صدد مواجهة أية عقبة، وأن ذلك لا يعنى أنك فى معركة ضد القانون وإنما إنكم فى معركة لإثبات أنفسكم فى الأهرام فى ظل هذا القانون. وقلت له: إن ما فهمه عنى صحيح وذلك ما قصدته. ثم راح يحدثنى عن قرار أصدره بضم دار الهلال إلى الأهرام فى التشكيلات الجديدة لمجالس الإدارات.

يقول هيكل: إنه كان قد أبعد نفسه تماما عن قضية تشكيلات مجالس الإدارات دفعا لأية حساسيات. وعاد يرجو عبدالناصر أن يعفى الأهرام من دار الهلال لأن كلا من الدارين لها طبيعة مختلفة. فقال له عبدالناصر: لقد وقعت التشكيلات وصدرت فعلا، وسوف تصلكم فى الصحف بعد قليل، ولا يصح إدخال تعديل عليها الآن وإلا بدا وكأن شيئا أضيف إليك قد نزع منك، وغدا نصدر تعديلا يتعلق بدار الهلال، وينشر أن ذلك تم بناء على طلبك حتى لا يسىء أحد تفسير القرار.

يقول هيكل: لم تمض دقائق حتى جاءنى نص قرار تشكيل مجالس إدارات الصحف، وكان يحمل إلّى مفاجأة غير منتظرة أهمها ما كان متعلقا بدار أخبار اليوم.

كان القرار يقضى بتعيين السيد أمين شاكر - وهو ضابط سابق فى مكتب جمال عبدالناصر - رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم، ثم إن تشكيل مجلس الإدارة خلا من اسمى الأستاذين مصطفى وعلى أمين. ورفعت سماعة التليفون أحاول أن أتصل بجمال عبدالناصر، وفجأة انفتح باب مكتبى ودخل الأستاذان مصطفى أمين وعلى أمين، وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها.. وكان باديا أنهما فى محنة، وكنت بمشاعرى متعاطفا معهما، وبدأ الأستاذ مصطفى أمين فقال إنهما قرآ قوائم التشكيلات ووجداها قد خلت من اسميهما وقررا المجىء إلَّى على الفور. وقلت: إننى أعتقد أن فى الأمر خطأ من نوع ما، وقد كنت حين دخولهما على وشك الاتصال بالرئيس أستوضحه وأرجوه تصحيح هذا الخطأ، وراح الأستاذ مصطفى أمين يعرض علىَّ موقف الاثنين حتى أنقله إلى الرئيس، وكان مؤدى هذا الموقف الذى كان فى الواقع رسالة كما يلى: إن قانون تنظيم الصحافة لن يؤثر فى ولائهما لقيادة جمال عبدالناصر، ونفس الشىء ينطبق على خلو قوائم التشكيلات من اسميهما، لكن المشكلة أن خلو قوائم التشكيلات من اسميهما قد يعطى لبعض الناس انطباعا بعدم رضاء الرئيس عنهما، وهذا هو الوضع الذى لا يستطيعان تحمله .

ثم استطرد الأستاذ مصطفى أمين يقول: إنه إذا كانت للرئيس ملاحظات على نشاطه فإنه يتمنى أن يصارحه الرئيس بما لديه، وأنه حاول بكل الوسائل أن يخدم النظام، فمقالاته منشورة، وكل ما يحصل عليه من معلومات يكتبه فى تقارير إلى الرئيس وإلى السادة صلاح نصر وعبد القادر حاتم وسامى شرف، بحسب نوع المعلومات التى تصل إليه.

يقول هيكل: وكانت تلك أول مرة أعرف فيها أن نطاق التقارير قد اتسع فلم يعد مقصورا على الكتابة لجمال عبدالناصر، بل أصبحت لثلاثة غيره.

واتصل هيكل بعبدالناصر فأضاف اسميهما إلى قائمة التشكيلات الجديدة لمجالس إدارات الصحف، وذهبت إليه بالبشرى فى بيت الأستاذ مصطفى أمين،

وانتظرنا إلى ما بعد الظهر حتى أذيع نبأ الإضافة إلى التشكيلات، ثم ركبنا نحن الثلاثة سيارة واحدة وذهبنا إلى دار أخبار اليوم، ودخلت معهما على مرأى من مئات المحررين والإداريين والعمال فى الدار، وكان مشهدا لا تخطئ العين دلالته.

□□□

وظهرت الخلافات بين أمين شاكر ومصطفى وعلى أمين، ويقول هيكل: إنه انتهز فرصة لقاء بجمال عبدالناصر وعرض عليه الأمر، وكانت وجهة نظر هيكل أن أصحاب أخبار اليوم السابقين لابد أن تكون لهما الكلمة النافذة فى شئون التحرير، ولم يمانع عبد الناصر وإنما قال من الأفضل أن يجئ الاقتراح من أمين شاكر نفسه وبالفعل عقد مجلس إدارة أخبار اليوم جلسة يوم ٢ يونيو ١٩٦٠ وأصدر بناء على طلب السيد أمين شاكر قرارا بأن يكون الأستاذ مصطفى أمين نائبا لرئيس مجلس الإدارة لشئون التحرير، وأن يكون له لقب المشرف العام على التحرير.

وكان هيكل يلتقى كل يوم ثلاثاء بمصطفى وعلى أمين ويتناولون الغداء معا، وتحول هذا اللقاء إلى حكايات عما يجرى من تصرفات رئيس مجلس الإدارة. ويقول هيكل: واستمرت الاشتباكات بين الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين والسيد أمين شاكر حتى سنة ١٩٦١، وحينما كانت تسمح الظروف وتكون هناك مسألة واضحة المعالم كنت أحدث جمال عبدالناصر فى الأمر، وأحيانا كان يرى الأمر طبيعيا فى التناقض بين ملاك سابقين وإدارة وافدة، ثم تخطى أمين شاكر حدود الخط المسموح به حين قام بتحريض بعض العاملين فى أخبار اليوم فتصدوا لأصحابها السابقين ومنعوهم من دخولها، وأعفى أمين شاكر من رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم. ومرة ثانية ذهب هيكل مع مصطفى أمين وعلى أمين ودخل الثلاثة معا مبنى أخبار اليوم فى مشهد لم يخطئ فى دلالته أحد هذه المرة أيضا!

يقول هيكل: كان جمال عبدالناصر متيقظا لم يترك للشامتين - ولا لأصدقائهم - فرصة، فلم يلبث أن أصدر قرارا بتعيين كمال رفعت رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم.

وكان كمال رفعت أحد البارزين فى حركة الضباط الأحرار، وكان وزيرا للعمل، وعضوا فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى، وكان بالقطع أصلب عودا، ومع ذلك فقد تكررت القصة. وظهرت الخلافات ثم استفحلت، ورد كمال رفعت، فإذا الأستاذ على أمين ينقل إلى دار الهلال، وإذا الأستاذ جلال الحمامصى يفصل من دار أخبار اليوم. ويبقى الأستاذ مصطفى أمين وحده. ويقول هيكل: إنه كرس مساعيه لكى يعود الأستاذ على أمين إلى أخبار اليوم، ويعود التوأم معا ليؤنس كل منهما الآخر.

وثارت من جديد العواصف لأن كمال رفعت ترك أخبار اليوم لأحد مساعديه، فقرر فى نوبة غضب أن يعطى الأستاذين مصطفى وعلى أمين إجازة مفتوحة، ويقول هيكل: وذهبت إلى جمال عبدالناصر، وكان صدره قد ضاق بالكل بمن فيهم أنا، وقال عبدالناصر لى: إن كمال رفعت ليس لديه وقت يعطيه لأخبار اليوم، وسكرتيره أخطأ، وسوف أعين رئيسا جديدا لمجلس الإدارة، وعلى (أصحابك) أن يتعاونوا معه، قل (لأصحابك) أن يعملوا وأن يعملوا كصحفيين محترفين، فقط، ولعلمك هم يستندون على صلتك بى وهى تشجعهم، وهذا يخلق تعقيدات لا لزوم لها، وحاولت أن أعترض مشيرا إلى كفاءة الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين وإخلاصهما فقاطعنى قائلا:

كفاءتهما لا أتكلم عنها، وأما الإخلاص فمسألة أخرى، والحقيقة أننى لا أستطيع أن أثق فى إخلاص من أضيرت مصالحه فهذا فوق الطبيعة البشرية، عدا ذلك فإن لى رأيا من قديم على رغم كل ما تقوله أنت.. وأضاف ملاحظات أخرى، وخرجت من عنده إلى بيت الأستاذ مصطفى أمين وقلت للاثنين إنهما سيعودان إلى أخبار اليوم، ثم أضفت رجائى بأن يتصرفا بهدوء لأن الظروف لم تعد تحتمل، وصحبتهما للمرة الثالثة إلى أخبار اليوم، وللمرة الثالثة رآنا مئات المحررين والعمال ننزل نحن الثلاثة من سيارة واحدة، ونصعد سلم الدار الخارجى، للمرة الثالثة فى مشهد لا تخطئ العين دلالته.

وبعد يومين، فى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٤ أصدر الرئيس جمال عبدالناصر قرارا بأن يتولى الأستاذ خالد محيى الدين اختصاصات رئيس مجلس الإدارة فى أخبار اليوم.

□□□

وجاءت سنة ١٩٦٥ وكان كل شيء هادئا فى أخبار اليوم، فى الشهور الأولى من السنة، مع روايات هامسة عن الطريقة التى يتسلل بها الشيوعيون إلى أخبار اليوم، وظلت المشاكل فى إطار يمكن تقبله وكانت مدة رئاسة جمال عبدالناصر تنتهى فى مارس ١٩٦٥، وكان الجو معبأ بالحماسة لإعادة ترشيح جمال عبدالناصر مرة أخرى، وكان مصطفى أمين وعلى أمين أكثر المتحمسين، ولم يكتب أحد فى تأييد ترشيح جمال عبدالناصر لمدة رئاسة ثانية أكثر منهما بما فيهم هيكل نفسه، وعندما اقترب موعد الاستفتاء على الرئاسة وكان محددا له يوم ١٥ مارس ١٩٦٥ قرر الأستاذ مصطفى أمين ألا يكتفى بمقاله الأسبوعى (الموقف السياسى) فى أخبار اليوم.. بل راح يكتب كل يوم، وبالطبع كان باب (فكرة) الذى يكتبه الأستاذ على أمين يظهر يوميا.

□□□

فى يوم ١٣ مارس ١٩٦٥ كتب مصطفى أمين بالنص:

نعم بعد غد سوف أنتخبه رئيسا للجمهورية العربية المتحدة لأنه أول فلاح مصرى فى تاريخ بلادى أصبح حاكما لها، لم يصعد فوق الحراب، وإنما ارتفع فوق القلوب لم يتملق الشعب، وإنما واجهه بالحقائق المريرة، لم يخدعه بالوعود، وإنما بصَّره بالصعاب، لم يستأثر بأمجاد الشعب لنفسه بل وزع أمجاده هو على العرب أجمعين، لم يقدس نفسه، وإنما قدس هذه الأمة وكرامتها وعزتها وحقها فى الحرية والحياة.

لم يبن لنفسه القصور، وإنما بنى مئات الألوف من البيوت لصغار العمال والفلاحين.

سوف أنتخبه لأنه كلما سما إلى المجد اقترب من الله ولم ينفصل عن الأرض.

زاد إيمانه بالله وزاد التصاقه بالشعب الذى يقوده، لم يرتفع عندما انحنت الرءوس، ولكنه ارتفع عندما رفع الشعب رأسه.

لم يرتفع صوته عندما صمتت الأفواه، وإنما دوى صوته عندما تحولت همسات الأمة إلى زئير. لم يغط صدره بالأوسمة والنياشين، وإنما ملأ قلبه بحب الملايين.

لم يجعله الحكم سلطانا وجبروتا، وإنما جعله قيادة ورحمة، لم يتجبر فى قوته، ولم يتخاذل فى أزماته.. بل قابل الانتصارات والهزائم بروح واحدة وثقة لا حد لها بالرسالة التى كرس حياته من أجلها.

سوف أنتخبه لأنه يؤمن بالله ويقاوم الإلحاد، لأنه يحترم الأديان كلها، لأنه لا يعرف التعصب والطائفية، لأنه يؤمن بحكم الشعب بالديمقراطية السلمية، ويمقت الدكتاتورية العسكرية، ودكتاتورية الطبقة، وحكم الفرد. لأنه لا يؤمن بالعنف، ولا يقبل حكم الدم، وإنما يقيم ثورته على الحب والتسامح وتحالف قوى الشعب العاملة كلها.

سوف أنتخبه لأنه يؤمن بالاستقلال الكامل، ويأبى التدخل الأجنبى مهما كان مصدره، لأنه يرفض أن ينضم إلى أى معسكر أو أن يكون تابعا لأى حركة دولية.

سوف أنتخبه لأنه يقود ثورة اشتراكية فريدة فى نوعها، منبعثة من ظروفنا مستمدة من حياتنا، ليس فيها عبيد وأسياد، ليس فيها محظوظون ومنبوذون، ليس فيها انتقام، ولا إذلال، ولا ذبح، ولا حمامات دماء.

سوف أنتخبه لأننى بذلك أعطى صوتى لعهد جديد.

لمرحلة خطيرة فى ثورتنا.

مرحلة تمهد الطريق لجيل جديد يقود ثورتنا.

مرحلة فيها تضحيات عظيمة لأن فيها انتصارات عظيمة.

فيها عرق أكثر لأن فيها ابتسامات أكثر، فيها تشييد لطوابق أعلى فى بناء بلادنا وفيها تعميق تحت الأرض لأسس هذا البناء الكبير.

مرحلة فيها عواصف، ولكن فيها شعب أقدر على مواجهة العواصف والأزمات.

إن الصوت الذى سنعطيه لعبدالناصر ليس معناه أننا ننتخبه رئيسا للجمهورية، ولكن معناه أننا نجند أنفسنا فى ست السنوات القادمة لنسير معه إلى معارك أكبر، وانتصارات أعظم.

مصطفى أمين

□□□

وفى اليوم التالى ١٤ مارس كانت فكرة الأستاذ على أمين فى الأخبار كما يلى بالنص:

سأنتخبه لأنه متفائل.

وهو لا يغمض عينيه ويتفاءل.

وإنما يفتح عقله وقلبه فيرى أنوار الفجر ويتجه إليها.

سأنتخبه لأنه شجاع جرىء.

فلقد رأيته فى أحلك الأيام التى مرت ببلادى، رأيته أثناء العدوان على القنال، رأيته والأساطيل تضرب الشعب بقنابلها الفتاكة والطائرات تهدم البيوت والمستشفيات.

رأيته عندما كان وحده فى المعركة.

وقبل أن تثور شعوب على المعتدين، كان فى تلك اللحظة يعتمد على الشعب المصرى وحده، ومع ذلك كان يؤمن بأن الشعب سينتصر، كان يؤمن بأنه سيطرد الجيوش المحتلة من بلادى.

وكان يؤمن بأن الله لن يتخلى عن هذا الشعب العظيم.

سأنتخبه لإيمانه بالله.. وهو إيمان لا حدود له.. وهو إيمان نظيف لم يلوثه التعصب أو الكراهية.

سأنتخبه لأنه يعرف كيف يحب.

.. ولا يعرف كيف يكره.. فهو يحاسب نفسه قبل أن يحاسب الناس، وهو يفترض أن الخطأ من صفات الإنسان، ولهذا يعطى دائما فرصة للمخطئ، ليتراجع عن الخطأ الذى وقع فيه، فإذا تكررت أخطاؤه عاقبه.. وإذا أوقع العقاب تذكر المخطئ، ومنحه فرصة ثانية، فهو لا ينسى الناس.. حتى الذين أخطئوا فى حقه يعود إليهم ويمنحهم فرصة أخرى.

وهو لا يضرب خصما وقع على الأرض فهو يكره إذلال الناس.. حتى الذين تآمروا عليه فى وقت من الأوقات.. مد لهم يده.

سأنتخبه لأنه صمام الأمان فى بلادى، إنه يخاف من سيف السلطان الذى فى يده.. ويكره استخدامه، لا يتحمس لعمليات البتر، وإنما يؤمن بعلاج المرض دون أن تسيل نقطة دم واحدة.

سأنتخبه لأنه يؤمن بحرية الصحافة، ويعرف أن هذه الحرية تحمى الحاكم من التمادى فى أخطائه، وتحمى الشعب من تصور أن الحاكم معصوم عن الخطأ.

سأنتخبه لأنه أول حاكم فى بلادى انتقد النواب، لأنهم يوافقون بالإجماع على قرارات الحكومة، وشجعهم على أن ينتقدوها.. لإيمانه بأن النقد يهذب الآراء ويفتح عيون الحكومة على أخطائها.

سأنتخبه لأننى أطمئن على نفسى وعلى بلدى والصولجان فى يده.

على أمين

□□□

وفى يوم الاستفتاء نفسه كتب الاثنان فى نفس العدد من الأخبار. كانت مقالة مصطفى أمين كما يلى بالنص:

باسم هؤلاء ننتخبه

باسم الدولة الجديدة ننتخبه.. باسم الشعب ننتخبه.

باسم العرب ننتخبه.. باسم العدل ننتخبه.. باسم جيش الشعب ننتخبه.. باسم الدستور ننتخبه.. باسم الشهداء ننتخبه..

باسم الشعب.. ننتخبه.

باسم الشعب ننتخبه وصوت الشعب من صوت الله.. ومن كان الشعب معه فالنصر له.. وباسم الشعب نرفعه على سواعدنا إلى مقعد القيادة.. والرجل الذى يعتمد على الشعب لن يسقطه الشعب، والرجل الذى يعيش للشعب لا يمكن أن يتخلى عنه الشعب.

باسم هؤلاء الملايين فى سوريا ومصر، الذين فرقهم الاحتلال وجمعهم الاستقلال الذين مزقتهم الحدود السياسية وضمتهم القومية العربية، الذين قسمهم الاستعمار إلى دول وممالك وولايات وهم فى الواقع أمة واحدة بأسماء مختلفة. باسم الذين يعيشون فى الوديان والذين يقيمون فوق الجبال. الذين يسكنون الأكواخ والخيام.. والذين يأوون فى العراء، البدو فى الصحراء، والحضر فى المدن، الفقراء والأغنياء، الضعفاء والأقوياء.

باسم الذين صرعوا الطغيان فى معركته الأخيرة، والذين صرعهم الطغيان فى معاركهم الأولى، الذين ماتوا والذين بقوا أحياء، الذين صمدوا إلى النهاية والذين تخاذلوا أمام جبروت الأقوياء، الذين حاربوا وسقطوا شهداء، والذين تفرجوا على المعركة وعاشوا نصف أحياء، الذين كانوا وقود الثورات العديدة الماضية والذين كانوا ضحاياها، الذين أشعلوها والذين احترقوا فى لهيبها، والذين عاشوا فى نورها والذين كانوا رمادها.

باسمهم جميعا ننتخبه لأنه الرجل الذى قاد المعركة الكبرى التى لم يتخلف فيها أحد، ولم يفر منها أحد، المعركة التى لم يكن فيها صفوف أولى، وصفوف أخيرة، لم يكن فيها أبطال صامدون وجبناء فارون، إنما هى المعركة التى جعلت الشعب كله بطلا صامدا، نساءه ورجاله، شيوخه وشبابه، أطفاله ومرضاه، إنها المعركة التى حولت كل

القاعدين إلى واقفين، كل المتخاذلين إلى شجعان، كل الغافلين النائمين إلى يقظين منتبهين، وكل البكم الصامتين إلى فصحاء متكلمين، إنها المعركة التى أزالت الحدود، ووحدت الشعور، وأذابت الفوارق، وقضت على روح الهزيمة والاستسلام وجعلت الشعب كله جيشا واحدا ليس فيه مجندون يحاربون ومدنيون يصفقون، وليس فيه طليعة تموت ومؤخرة تعيش، وليس فيه محاربون يقاتلون ومتفرجون يلهون،إنما شعب كامل تحت السلاح.

فى يد الصغير سلاحه وفى يد الكبير مدفعه، فى يد الرجل قنابله وفى يد المرأة بندقيتها، كل الشعب مجند، يحارب ويقاتل ليموت شهيدا، أو يعيش بطلا.

باسم هؤلاء الملايين من الأبطال ننتخبه.

لأننا باسم الشعب ننتخبه.

مصطفى أمين

□□□

وكانت (فكرة) مصطفى أمين فى نفس اليوم كما يلى بالنص:

سأنتخبه لنظافة يده.. وإصراره على أن يعيش عيشة بسيطة متواضعة.

سأنتخبه لأنه يحب عمله ويتفانى فيه ويعطيه قلبه وعقله وكل ساعات فراغه.

ولهذا فإن طاقته للعمل لا حدود لها، وهو لا يرفع سماعة التليفون.

إنه الموظف الوحيد فى الدولة الذى نستطيع أن نستنجد به فى كل ساعات الليل والنهار.

سأنتخبه لأنه يخلق ولا ينقل ويترجم.

إنه لا يستورد أفكاره من الخارج.. إنه يقرأ كثيرا.. ويهضم كل ما يقرأ، ثم يفكر تفكيرا عربيا خالصا.

وهو يستفيد من تجارب الآخرين، ولكنه لا يترجم تجارب غيره.. إن كل تجربة يدخل فيها ولدت فى عقله وترعرعت فى قلبه.

وهو من الحكام القلائل فى الدنيا الذين يجيدون الاستماع.

إنه يحب أن يسمع رأى الناس، والحاكم عادة يحب أن يسمعه الناس، وهو لايسخر من بعض الآراء الساذجة التى يسمعها، إنه ينصت باهتمام.. لأنه يؤمن بأن واجبه أن يسمع كل الآراء حتى يصل إلى الرأى السليم.

سأنتخبه لأنه يحاسب نفسه قبل أن يحاسب الناس، ولأنه لا يتمسك بأخطائه.

إنه يدافع عن رأيه بقوة، ولكنه مستعد دائما أن يعدل رأيه.. وأن يعلن بشجاعة أنه أخطأ، فهو من الزعماء القلائل فى التاريخ الذين لا يتصورون أنهم معصومون من الخطأ.

سأنتخبه لإيمانه المطلق بالله وتمسكه بكل المثل العليا، ولأنه لا يتاجر بهذا الإيمان كما يفعل بعض الحكام.

سأنتخبه لقدرته العجيبة على الحركة، وعلى الخروج من الأزمات.. وعلى الاستفادة من أخطاء أعداء البلاد.

سأنتخبه لإنسانيته ولانتصاره للضعفاء، ولوقوفه دائما مع كل الذين يحاولون تحطيم القيود والأغلال.

سأنتخبه اليوم لأننى أحب بلادى.

وأومن بأن هذا الرجل قادر على أن يجعلها أسعد بلاد الدنيا.

سأنتخبه اليوم لأننى أريد أن أنام الليل، ولن أنام الليل إذا تصورت أن حارس بلادى غارق فى نوم عميق.

على أمين

□□□

يقول هيكل:

فى صباح يوم ٢٣ أبريل ١٩٦٥ جاء على أمين يقول: إن جو العمل فى أخبار اليوم أصبح ثقيلا علىَّ، وقد أصبحت ضيق الصدر بكل شىء، قابلا للانفجار فى أية لحظة.. ثم قال: والآن ما أريده هو أن أجىء معك هنا فى الأهرام.. ثم أسافر فى أول فرصة مراسلا للأهرام فى لندن، ونظر إلَّى وفى عينيه استغاثة صامتة وقال: هل تعطينى هذه الفرصة؟. وأحسست أننى أستجيب دون أن أفكر، وقلت له: إن كل شىء فى الأهرام تحت تصرفك وأنا أعتبر طلبك أمرا.. وسألنى: ألا تريد أن تفكر؟ وكان ردى أن الأهم أن يكون هو قد فكر.

وعاد يسألنى: ألا تريد أن تستأذن، وكان ردى: إن الأمر لا يحتاج إلى استئذان، فهذا تصرف فى نطاق الأهرام، وفى حدود مسئوليتى عنه، ولن يجد الأهرام فى لندن مراسلا أفضل من على أمين، وقام يقبلنى..

وتوجهت إلى مكتبى فجلست إليه وكتبت بخط يدى قرارا إداريا بتعيين الأستاذ على أمين محررا فى الأهرام بالحد الأقصى للمرتبات وقتها، ثم إضافة بتكليفه أن يكون مراسلا للأهرام فى لندن ببدل سفر موازٍ للمرتب، وقدمت القرار له قائلا: إننى كنت أتمنى لو كان فى استطاعتى أن أفعل ما هو أكثر، ولكن ذلك هو أقصى حدود سلطتى، ثم عدت إلى مكانى بجانبه وقلت له: الآن وقد فرغنا من الشكليات فإن ما يشغلنى حقا هو حالته النفسية، كما أراها ولم يحبس على أمين شيئا فى صدره وراح يفيض، ووصلنا إلى الساعة الثالثة بعد الظهر وتركنى وانصرف لكى يقابل مصطفى ويفاتحه فيما فعل وفيما فعلت.

هذه هى قصة تعيين على أمين مراسلا للأهرام فى لندن، كما يرويها هكيل.

□□□

ويضيف هيكل أن عبدالناصر لم يكن مرحبا بقرار تعيين على أمين فى لندن، ولكن هيكل أقنعه بأن ذلك إضافة للأهرام وراحة للرئيس من أنباء الخلافات فى أخبار

اليوم.. واستطاع هيكل إقناع عبدالناصر بمقابلة على أمين قبل سفره، بعد أن تردد عبدالناصر لحظة ثم قال: سأقابل على، ولكن ليس مصطفى.

وكتب هيكل (كلمة للأهرام) عن انضمام على أمين لأسرته نشرت يوم ٣ مايو ١٩٦٥..

وفى يوم السفر مر هيكل وعلى أمين على بيت الرئيس جمال عبدالناصر وكان عبدالحكيم عامر هناك، واستغرق اللقاء خمسا وعشرين دقيقة بالضبط، وكان أبرز ما فيه سؤال من الأستاذ على أمين عما إذا كان يستطيع أن يتصل بالسفارة فى لندن دون حرج، وكان رد عبدالناصر بالإيجاب، ثم قال الأستاذ على أمين إنه قد يصادف أثناء عمله الصحفى فى لندن معلومات سياسية تهم البلد.. فهل يستطيع إعطاءها للسفير ويطلب منه إرسالها إلى مصر بالشفرة لإطلاع الرئيس؟ ولم يتردد جمال عبدالناصر وإنما قال على الفور: لا.. إذا كان لديك شىء من ذلك فابعث به إلى هيكل وهو يخطرنى به، ثم استطرد جمال عبدالناصر قائلاً: لا داعى لبرقيات شفرية وإلا كان لنا فى لندن سفيران.. وقال الأستاذ على أمين: إن أى مراسل أجنبى فى عاصمة يعتبر بمثابة سفير لبلده فيها إلى جانب عمله الصحفى. ورد جمال عبدالناصر بسرعة قائلاً: لا مانع من أن تكون سفيراً أهلياً وليس سفيراً رسمياً يبعث رسائل بالشفرة.

□□□

بعد فترة من الوقت قال عبدالناصر لهيكل فجأة وسط حديث طويل: أنت تتقابل مع مصطفى أمين بطريقة منتظمة. وليس من شأنى أن تقابله أو لا تقابله. هذه مسألة تخصك. ولكنى أرجوك أن تتحفظ فى أحاديثك معه يقول هيكل: وحينما أظهرت استغرابى قال: إننى أبديت لك من قبل ملاحظاتى حول هذه المسألة لكن ملاحظاتى لم تنتج أثراً فيما أرى. والآن أقول لك بوضوح: تحفظ.

يقول هيكل إن هذه الملاحظة جعلته يستعيد شعوره أثناء غداء الثلاثاء مع مصطفى أمين حيث كان يتعرض لمحاولة (سحب) وكان يرى أن مرجع ذلك الرغبة

الحارقة لدى صحفى تقطعت عنده مصادر الأخبار من ينابيعها الأصلية فراح يحاول اصطيادها حيث يجدها.

ويدأت رسائل على أمين تتوالى من لندن. وكان هيكل قد فاتح السير دنيس هاملتون رئيس تحرير جريدة صنداى تيمس فى تخصيص مكتب فى الصنداى تيمس ليكون مقراً لمراسل الأهرام الجديد يعمل منه وسط مناخ صحفى نشط.

وطلب على أمين أن يكتب فى الأهرام عموده اليومى (فكرة) ووافق هيكل.

ويروى هيكل أنه سافر إلى لندن لإجراء جراحة فى عينى ابنه، وكان على أمين فى انتظاره، لم يفارقه فى زياراته للمستشفى لإجراء الفحوص أو فى مقابلات هيكل مع بعض المسئولين فى لندن أو فى الذهاب إلى المسارح، واستغرقت الفحوص الطبية وقتاً وفوجئ هيكل باستدعاء من عبدالناصر لكى يكتب خطابه الذى سيلقيه يوم ٢٣ يوليو. وقال له على أمين إنه سيحل محله فى متابعة حالة ابنه، وفعلاً سافر هيكل وتولى على أمين الإشراف على إجراء العملية. وعندما التقى مع عبدالناصر ظهر يوم ٢١ يوليو رنَّ جرس التليفون، فقام للرد عليه، وظل يسمع ثم قال لمحدثه: طيب. وعاد إلى هيكل ليقول له: سأقول لك شيئاً أعرف أنه سوف يضايقك.. لقد قبضوا الآن على مصطفى أمين متلبساً بالتجسس للأمريكان. وتساءل هيكل: غير معقول، فقال عبدالناصر: ذلك ما حدث مع الأسف. قال هيكل: سيادة الرئيس. إننى لا أفهم تماماً ما تقوله لى. فقال له عبدالناصر: اسمع.. إننى أريدك أن تعرف بشكل واضح أن الموضوع كبير وخطير وأنا لا أريدك أن تحتكم فيه إلى مشاعرك. أنت تعرف أنه كانت هناك شكوك، ومن ناحيتى فإنى طرحت هذه الشكوك جانباً وأعطيت فرصة جديدة، ولم أعط فرصة واحدة وإنما أعطيت عشرات الفرص وكان آخرها موافقتى على سفر على أمين إلى لندن مراسلاً للأهرام. وافقت وأنا أعلم أن مصطفى متورط فى أشياء، لكنى لم أمانع فى سفر على لأنى لم أجد شيئاً قاطعاً عليه، ولأنك كنت تلح. وقد وافقت على ضبط مصطفى بعد أن رأيت من الأدلة والوثائق ما جعلنى أوافق على العملية بكل ضمير مستريح،

ليس لديَّ ما يدعونى إلى تلفيق تهمة لرجل قابلته مرات عديدة وقرأت له ما كان ينشره وما كان يتطوع بإرساله لى. وأنت تعرف أنه لم يكتب منذ اليوم الأول للثورة وحتى الآن إلا تأييداً لكل خطوة قمت بها. وحتى لو كان قد اختلف معى فى شىء فأنا لا أضيق بخلاف فى الرأى. وعلى أية حال فذلك لم يحدث وأنت تعرف.

يقول هيكل:

كنت أستمع إليه بصمت، ويبدو أن التعبيرات التى بدت على وجهى وأنا أسمعه نقلت إليه رسالة لم ألفظ بها واستطرد:

- لا أريدك الآن أن تقول شيئاً.. أريد منك شيئاً واحداً.. أن تخطو الآن عبر الشارع إلى مكتب سامى شرف وأن تطلع بنفسك على الملفات والأوراق وتستمع إلى التسجيلات. ثم فكر على مهل فيما سوف تقرؤه وتسمعه. ثم نم عليه هذه الليلة وعد إلى هنا فى الصباح.. وساعتها يكون من حقك أن تقول لى ما تشاء. ولم يترك لى مجالاً لتعليق. قام إلى المكتب ورفع سماعة التليفون يصدر أمره إلى السيد سامى شرف، سكرتيره للمعلومات فى ذلك الوقت.. يطلب منه أن يطلعنى على كل شىء.

وأعد سامى شرف غرفة جلس فيها هيكل وحده مع الملفات والتسجيلات، يقول: إنه دخلها فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر تقريباً.. وخرج منها فى الساعة الثامنة مساء. ويقول: دخلتها مهموماً وخرجت منها ممزقاً.

□□□

يقول هيكل:

وأمسكت بأول الملفات. كان عنوانه من الخارج (هيئة الأمن القومى) ثم اسم (بروس تايلور أوديل) ثم رقم مسبوق بمجموعة حروف، وفى الداخل مجموعة من التقارير تروى بداية قصه بدت لى مثيرة ومزعجة. حاولت أن أستوعب الصورة فرحت أكتب أهم النقط وأنا أقرأ ثم أسمع، فقد كنت فى البداية أتصور أننى سأناقش ما أقرؤه وأسمعه بعد ذلك مع الرئيس جمال عبدالناصر.

والقصة -من واقع الملف- تبدأ من أول سنة ١٩٦٤، وترسم بدايتها صورة نشاط مكثف لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى مصر. فالعلاقات بين مصر والولايات المتحدة تسوء والأسباب كثيرة. وسوء العلاقات وصل إلى ما يشبه صراع إرادات بين الرئيس جمال عبدالناصر والرئيس الأمريكى ليندون جونسون، راح الرئيس الأمريكى بسببه يهدد بوقف مشتريات مصر من القمح، وصحبت ذلك دلائل تشير إلى أن المخابرات المركزية الأمريكية تلقت تعليمات بالعمل على نطاق واسع فى مصر، أولا لجمع معلومات، ثم للبحث عن ثغرات فى النظام، ثم للترتيب لعمليات فى الداخل إذا سنحت فرصة مواتية.

ويظهر اسم بروس تايلور أوديل لأول مرة فى القصة من خلال تقرير من مندوب سرى لهيئة الأمن القومى فى أثينا يقول كاتبه إن معلومات وصلته بأن أحد رجال المخابرات المركزية الأمريكية واسمه بروس تايلور أوديل قد رشح للعمل فى مصر، وأنه سيجىء إليها تحت ستار أنه مستشار فى السفارة الأمريكية. ويضع هيكل هامشا يقول فيه أن ظاهرة الغطاء الدبلوماسى لرجال وكالة المخابرات المركزية الأمريكية معروفة، وقد أظهرت تحقيقات الكونجرس فى أعمال هذه الوكالة سنة ١٩٨٢ أن أكثر من ٤٠٪ من الدبلوماسيين فى السفارات الأمريكية -فى العالم الثالث خصوصاً- هم من رجال هذه الوكالة.

وأظهرت تقارير تالية تضم تحريات جرت فى مصر أنه لا يوجد فى هيئة السفارة الأمريكية فى القاهرة شخص يحمل هذا الاسم. وفجأة فى شهر أغسطس ١٩٦٤ ظهر بروس تايلور أوديل فى مصر بدرجة مستشار فى السفارة الأمريكية فى القاهرة. ومن أغسطس ١٩٦٤ حتى نوفمبر ١٩٦٤ تشير مجموعة تقارير إلى أن بروس تايلور أوديل يتصرف بطريقة عادية كأى دبلوماسى آخر، يحضر الحفلات التقليدية، ويجرى اتصالات لا تثير شبهات، ويقوم بنشاط مألوف. وفى الفترة من ديسمبر ١٩٦٤ إلى مارس ١٩٦٥ تتخذ اتصالات بروس تايلور أوديل نسقاً محدداً، ويتكرر ظهور اسم

الأستاذ مصطفى أمين فى عداد من يقابلهم. ثم أصبحت اللقاءات بين الاثنين- الأستاذ مصطفى أمين وبروس تايلور أوديل- دورية، غداء فى يوم الأربعاء من كل أسبوع- ووحدهما- وفى بيت الأستاذ مصطفى أمين فى شارع صلاح الدين بالزمالك، وتحاط هذه اللقاءات بإجراءات للتمويه، منها أن بروس تايلور أوديل كان ينزل من سيارته فى شارع بعيد عن شارع صلاح الدين ويتركها هناك ويمشى على قدميه ثم يدخل العمارة التى يسكنها الأستاذ مصطفى أمين ويضغط زر المصعد على دور آخر غير الدور الذى يسكن فيه الأستاذ مصطفى أمين ثم يصعد أو ينزل السلم على قدميه إلى مقصده النهائى.

□□□

وطلبت هيئة الأمن القومى فى ٢٩ مارس ١٩٦٥ أن يؤذن لها بوضع أجهزة تسجيل فى بيت الأستاذ مصطفى أمين للتحقق مما يجرى فى هذه الاجتماعات الدورية المنظمة. ويبدو أن الموضوع بدا أكبر من اختصاص أى مسئول فى المخابرات المصرية وأنه كان يحتاج إلى قرار سياسى، وهكذا فإن هيئة الأمن القومى لم تحصل على الإذن الذى طلبته إلا فى ٢٦ إبريل ١٩٦٥. واقتضى وضع أجهزة التسجيل السرية فى بيت الأستاذ مصطفى أمين أسبوعين تقريباً فلم تضم الملفات تسجيلات للقاءات بينهما إلا ابتداء من يوم الأربعاء ١٢ مايو ١٩٦٥، وبعده اجتماع يوم الأربعاء ١٩ مايو، ثم الأربعاء ٢٦ مايو، ثم الأربعاء ٢ يونيو، ثم الأربعاء ١٦ يونيو، ثم الأربعاء ٢٣ يونيو، ثم الأربعاء ٣٠ يونيو، ثم الأربعاء ٧ يوليو

وكانت مع الملفات مذكرة مقدمة إلى رئيس المخابرات العامة يطلب فيها الإذن بضبط الأستاذ مصطفى أمين وبروس تايلور أوديل أثناء اجتماعهما القادم، بعدما أظهرته التسجيلات من خطورة المعلومات التى يقدمها الأول للثانى، وكان ظاهراً من التسجيلات أن أوديل يجىء كل مرة ومعه قائمة مكتوبة بأسئلة يريد إجابات عنها، الأمر الذى يضع اللقاءات كلها فى إطار عملية تخابر لاشك فيها. ويبدو أن الأمر كان

أكبر من اختصاص أى مسئول فى المخابرات المصرية، وأنه كان يحتاج إلى قرار سياسى، لذلك تأخر الإذن.. كان طلب الإذن يوم ٨ يوليو ١٩٦٥ ولم تحصل عليه هيئة الأمن القومى إلا فى ١٨ يوليو ١٩٦٥. وفى ٢٠ يوليو ١٩٦٥ أرسل رئيس هيئة الأمن القومى إلى رئيس نيابة أمن الدولة العليا خطاباً نصه كما يلى:

هيئة الأمن القومى

السيد رئيس نيابة أمن الدولة العليا.

بعد التحية.

نحيط سيادتكم أن السيد مصطفى أمين -مصرى الجنسية- يعمل رئيس تحرير الأخبار، يقيم فى ٨ شارع صلاح الدين بالزمالك- الدور السادس- الشقة ٦٢ وفى فيلا تقع فى ٢٦ شارع الإسماعيلية المتفرع من طريق الحرية بالإسكندرية.

وقد دلت تحرياتنا السرية أن المذكور يقوم بالتخابر والعمل لحساب المخابرات الأمريكية فى القاهرة والعمل ضد أمن وسلامة الدولة يعاونه فى ذلك آخرون. وسيجتمع المذكور مع مندوب المخابرات الأمريكية الحالى فى القاهرة سعت ١٤٠٠ يوم الأربعاء الموافق ١٩٦٥/٧/٢١ فى أحد العنوانين اللذين يقيم فيهما المذكور والموضحة عاليه.

برجاء التكرم باتخاذ اللازم قانوناً لضبط هذا الاجتماع وتفتيش هذين العنوانين كذا مكتبه فى مؤسسة أخبار اليوم بشارع الصحافة بالقاهرة وضبط أية أوراق أو مستندات تفيد التحقيق كذا أى أشياء ممنوع حيازتها قانوناً.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

١٩٦٥/٧/٢٠ إمضاء

رئيس هيئة الأمن القومى





يقول هيكل:

انقضى علىَّ ساعة وعشر دقائق وسط هذا الهم الثقيل كله، ولحظة بعد لحظة كنت أشعر أننى أتنفس بصعوبة. ومع ذلك بقى لدى خيط أتعلق به وهو التسجيلات نفسها. ماذا يمكن أن يكون فيها؟ ألا يمكن أن يكون ما فيها كلام عادى مما عساه أن يدور بين صحفى ودبلوماسى؟ ثم جاء منطق الأمن القومى والمخابرات فحمل المسائل فوق ما تحتمل وأساء التفسير.

وعدت إلى الملفات الثمانية التى تحوى تلخيص ما دار فى الاجتماعات الثمانية التى جرى تسجيلها. وبينما أنا أتصفح أولها فتح باب الغرفة ودخل السيد سامى شرف يسألنى: هل اقتنعت؟ قلت إننى ما زلت أقرأ وسوف أبدأ فى السماع وبين يدى ما لخصته الأوراق من الشرائط. وقال سامى شرف: سوف تسمع أشياء غريبة. مصطفى ينقل ضمن ما ينقله إلى الرجل أخبار أو أحاديث منسوبة إلى سيادة الرئيس ويدعى أنه سمعها من سيادته بنفسه. وكان الاثنان حين يتكلمان عن الرئيس يسميانه (ر) الحرف الأول من (رئيس) وستجد أن مصطفى رتب للمخابرات الأمريكية أن تتصل بعلى فى لندن لكى يعمل معهم هناك. وحينما قبضوا عليه ظهر اليوم كان هناك مبلغ خمسة آلاف جنيه مصرى. قبل ذلك سوف تجد فى الأشرطة أن مصطفى سلم للرجل مبلغ عشرة آلاف جنيه ولابد أنه كانت هناك مبالغ أخرى قبل أن تبدأ التسجيلات. حين كشفت التسجيلات مسألة الفلوس لأول مرة تصورنا أن مصطفى يقبض من الرجل ثم اكتشفنا أن مصطفى أيضا يعطى للرجل مبالغ ليحولها له بوسائله إلى بنك فى الخارج لأن مصطفى كان يريد إخراج أمواله كلها من مصر.

ثم يواصل سامى شرف إلحاحه:

- هل تستطيع أن تفسر لى لماذا يقبل مندوب المخابرات وممثلها فى السفارة الأمريكية أن يقوم بعملية تهريب لصالح أحد؟ المفروض فى رجل المخابرات فى السفارة أن يتوارى وألا يلفت الأنظار إليه وأن يتجنب أكثر من غيره أية مخالفة

لقوانين البلد الذى يعمل فيه. لابد أن مصطفى كان مهماً جداً للرجل بحيث يقبل أن يقوم لحسابه بتهريب أمواله من مصر.

يقول هيكل:

ورجوته أن يتركنى مع الشرائط، وأن يترك معى أحد معاونيه لكى يتولى تشغيل الجهاز لأنى لا أنوى أن أسمعها بالكامل.. إنما أريد أن أسمع عينات من كل شريط فى الوقت الحالى على الأقل لأن سماعى لها جميعاً سوف يبقينى هنا إلى الصباح.

ويدأ الشريط الأول يدور على الجهاز

• • •

وهذا هو الجزء الأول من القصة كما يرويها هيكل.

أوراق من متحف المخابرات المصرية ؟

يقول هيكل إن التقارير والأشرطة الخاصة بملف قضية مصطفى أمين محفوظة فى هيئة الأمن القومى. وكان ملف القضية معروضا فى متحف هذه الهيئة، وكان آخر مسئول رسمى راجعها هو السيد كمال حسن على حينما كان رئيسا للمخابرات العامة. وقد أصر على إبقائها معروضة علىَّ رغم محاولات وضغوط كثيرة تطالب بنقلها إلى الأرشيف.

ماذا سمع هيكل فى الشرائط التى سجلتها المخابرات للقاءات مصطفى أمين وعميل المخابرات الأمريكية فى مصر بروس تايلور أوديل الذى يعمل تحت غطاء أنه دبلوماسى فى السفارة الأمريكية بالقاهرة؟

يقول هيكل: إن الشريط الأول يبدأ بأصداء فارغة. ثم صوت يسأل عما إذا كان أحد قد سأل عنه فى غيابه، وتعرف هيكل على صوت السائل ولم يخالجه الشك فى أنه مصطفى أمين، ويقول: أنا لا أستطيع أن أخطئ صوته، أما المجيب فهو (صادق) رئيس الخدمة فى بيته، وأنا أعرفه حق المعرفة، فقد كان من قبل رئيس الخدمة فى بيت أحمد حسنين باشا، رئيس الديوان الملكى السابق، وعندما قتل أحمد حسنين فى حادث سيارة استقر صادق فى بيت الأستاذ مصطفى أمين.

صوت الأستاذ مصطفى أمين يرحب بزائر سبقه إلى بيته وانتظره حتى وصل، ولم يكن هناك شك فى أن الصوت واللغة واللهجة لأمريكى، (بروس تايلور أوديل). الأستاذ مصطفى أمين يتحدث عن أحد الصحفيين العاملين معه ويقول: لقد أعطوه إجازة

مفتوحة.. لم يرغب فى كتابة مقالات شيوعية فأقصوه. تصوروا أننى سأعترض على إقصائه وبذلك يتمكنون من إبعادى لكنى أظهرت عدم الاهتمام، قال لى: إنهم يريدون إبعادى. (ر) اتصل بى اليوم الساعة ١٠ صباحا وأبلغنى أن الدكتور القيسونى يتقابل مع السفير.. (ر) طلب من القيسونى أن يفهم من السفير نواياكم عن القمح. يظهر أن القيسونى متفائل.

وفى كل الأحاديث يشار إلى الرئيس عبد الناصر بحرف (ر).

وصوت أوديل يسأل الأستاذ مصطفى أمين: سننتقل الآن إلى موضوع جديد. وصوت الأستاذ مصطفى أمين يرد: نعم. وعاد صوت أوديل يسأل: هل فهمت من (ر) أنه على استعداد لبحث تسوية فى اليمن؟ ورد الأستاذ مصطفى أمين: إن (ر) قرر لى أنه يبحث عن حل يحفظ للجيش كرامته بحيث لا تعود القوات وهى تشعر أنها انهزمت. (ر) أبلغنى أن أحدا لا يستطيع أن يكسب هذه الحرب.. علمت من (ر) أنه اتفق مع عارف على قطع العلاقات مع ألمانيا وأن سفارة سويسرا فى بون سترعى مصالح العراق هناك. سفارة أفغانستان سوف ترعى مصالح مصر. لن تكون هناك إجراءات أعنف من ذلك ضد ألمانيا الغربية. العلاقات ستعود بعد شهور والغرض من العملية كلها إظهار التضامن العربى.. هناك مسألة مهمة.. كانت هناك سيارة قادمة من السويس إلى الإسماعيلية.. سيارة عسكرية فيها عدد من الضباط .. أوقفت عند الكيلو ٢٥ وعند تفتيشها وجدوا فيها ٢٤١ كيلو ديناميت.. الكونستابل الذى ضبطها كان يعتقد أن فيها حشيشا.. رقم السيارة ٣٩٠٣٦.

يقول هيكل: واكتفيت بهذا من الشريط الأول، ورجوت مساعد السيد سامى شرف- الذى كان جالسا أمامى صامتا كأنه تمثال- أن يتفضل بإيقاف الجهاز وأن يضع الشريط الثانى.



دار الجهاز مرة ثانية بالشريط الثانى: أصوات متداخلة. صوت الأستاذ مصطفى أمين وصوت بروس أوديل فى نفس الوقت يتبادلان مما بدا أنه حديث اجتماعى، ثم صوت الأستاذ مصطفى أمين يقول: معلوماتى من (ر) أننا سنطلب شحنة أسلحة جديدة من روسيا. يبدو أن ذلك سيتم عند سفر وفد مصرى للاشتراك فى احتفالات موسكو. هناك اتفاق أيضا على دعوة كوسيجن (رئيس الوزراء السوفيتى وقتها) مبدأ الدعوة اتفق عليه والتاريخ لم يحدد بعد.

صوت بروس أوديل يسأل: لدينا تقارير عن مقابلات المشير عامر مع زعماء قبائل (جهم) فى اليمن لكن هناك فجوة فى تحركات عامر. لا نعرف ماذا كان نشاطه فى أيام ٢١ و٢٢ و٢٣ فهل تستطيع أن تتحرى أين كان فى هذه الأيام الثلاثة؟ وأين صدقى محمود (قائد الطيران وقتها) لم يظهر له أخيرا نشاط؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين يرد: كان فى موسكو.

صوت أوديل: هل عاد عن طريق الشرق الأقصى؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: نعم، وفى الغالب عن طريق الصين.

صوت الأستاذ مصطفى أمين: هل جرى تحويل النقود؟

صوت أوديل: سوف أسأل.

صوت الأستاذ مصطفى أمين: قابلت الملحق الصحفى الإنجليزى وطلبت منه أن يرتب لى موعدا مع السفير. الملحق قال لى إنهم سعداء لسفر على أمين للخارج.

صوت بروس أوديل: هل (على) يعرف علاقتك بنا؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: لابد أن تتصلوا به فى لندن.

صوت أوديل: سوف نرتب أن يتصل به آرشى روزفلت. المهم أن تتم اتصالات بينهما خارج لندن لكيلا يعرف الإنجليز.

ويقول هيكل:.. واكتفيت.

□□□

وانتقلت إلى الشريط الثالث.

تداخل أصوات ثم صوت أوديل بوضوح: هل تمكن ماكلويد من زيارة مصنع ٦٣؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين غير واضح. ثم ظهر صوته يقول: على بنك ميدلاند فى لندن. الحساب باسم على.

صوت أوديل: هل اتصل بك (ر) أو اتصلت به؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: نعم. اتصل بى يوم الخميس.

صوت أوديل: وما هى أخباره؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: قال لى إن الحالة المالية سيئة جدا وإنه سوف يخصص ١٥ مليون جنيه اعتمادا إضافيا للجيش وأن هناك اقتراحين على مكتب وزير التموين، واحدا بشأن رفع ثمن الخبز أو خلطه، والثانى بشأن رفع قيمة منتجات البترول، ولم يتخذ بعد قرارا فى هذا الشأن.

صوت بروس أوديل: ألم تتحدث معه عن الانفجارات التى وقعت لخط أنابيب البترول فى ليبيا؟.

صوت الأستاذ مصطفى أمين: نعم سألته: فهمت منه أن الذى قام بالعملية عزت سليمان (أحد كبار المسئولين فى المخابرات المصرية وقتها) واستعان هناك بمجموعة من ضباط ناصر.

صوت بروس أوديل: وماذا أيضا؟.

صوت الأستاذ مصطفى أمين: إنه يحاول إقناع السوفييت بتقصير مدة تنفيذ السد العالى. (ر) قال لى إن على صبرى كتب للسوفييت فى هذا الموضوع دون إخطار صدقى سليمان.

وطلبت الانتقال إلى الشريط الرابع.



صوت بروس أوديل: هل لديك تأكيد لنبأ أن عامر ذهب إلى اليمن؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: لا.. لم يذهب.

صوت بروس أوديل: ما مصدرك لكى تؤكد على هذا النحو؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: مصدر موثوق به جدا.. شمس بدران.. قابلته فى بيت الموسيقار محمد عبد الوهاب يوم الأربعاء الماضى.

صوت بروس أوديل: هل هناك قوات إضافية ذاهبة الآن لتعزيز القوات الموجودة فى اليمن؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: نعم.

صوت أوديل: ما هو مصدرك؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: نفس المصدر: شمس بدران.. حاول أن يغطى فقال إنها مجرد عملية استبدال قوات.

وطلبت أن أنتقل إلى الشريط الخامس من قرب نهايته من باب التنويع.

□□□

صوت الأستاذ مصطفى أمين: الرئيس العراقى عارف مريض. وناصر كلف عشرة أطباء لفحصه، ومن المحتمل أن يكون مصابا بالسرطان. وعرفت أن الدكتور حسن إبراهيم قال لـ (ر) إنه لابد من إجراء عملية خطيرة للرئيس عارف، واقترح أن يجريها الطبيب الإنجليزى تانر لأنه ليس فى إمكان طبيب مصرى أن يقوم بها.

صوت خشخشة أوراق ثم صوت الأستاذ مصطفى أمين: تقابلت مع عبد الحميد السراج (كان وزيرا للداخلية ونائبا لرئيس الجمهورية فى سوريا أثناء الوحدة) وقال لى: إنه قلق بالنسبة للشيوعيين. عندما يقرأ جريدة الأخبار يشعر أنها شيوعية ١٠٠٪ وكذلك آخر ساعة وروز اليوسف، وهو يرى أن ذلك يسىء كثيرا إلى المصريين فى الدول العربية، وطلب السراج منى أن أنقل هذا الحديث إلى (ر).. السراج قال لى إنه منذ

١٩٥٩ لم ينضم شيوعى واحد إلى الأحزاب العربية، لكن منذ دخل الشيوعيون الصحف انضم عدد كبير منهم إلى الأحزاب الشيوعية. السراج يشعر أن (ر) يستهين بالنشاط الشيوعى ويتصور أنه يمكن القبض عليهم جميعا، لكن سلاح الصحافة يمكن أن يتسبب فى ظهور خلايا سرية جديدة غير معروفة. السراج قال لى: إنه ذهب إلى سفارة الجزائر فى القاهرة وفوجئ بأن جميع المصريين العاملين بالسفارة شيوعيون.

صوت بروس أوديل: هل تعرف شيئا عن الرسالة التى جاء بها رئيس حكومة سيلان السابق؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: لا.

صوت أوديل: هل لديك شىء عن رحلة صدقى محمود؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين يرد بشىء لم أستطع تبينه.

صوت بروس أوديل يسأل عن المقال الذى نشر فى نيويورك تيمس حول عدد القوات المصرية فى اليمن وأنها وصلت إلى مائة ألف. وصوت الأستاذ مصطفى أمين يقول: الرقم قد يكون قريبا من الحقيقة.

صوت بروس أوديل: هل تستطيع أن تحصل على نسخة من نص كلام (ر) فى الاجتماع السرى للهيئة البرلمانية للاتحاد الاشتراكى؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: أعتقد أن مندوب الأخبار فى البرلمان لديه صورة كاملة وسأحصل عليها منه.

□□□

وانتقلت إلى الشريط السادس.

صوت الأستاذ مصطفى أمين يسأل من اللحظة الأولى: هل تم التحويل إلى لندن؟

وصوت أوديل يجيب:نعم تم كل شىء والباقى سيتم.

صوت الأستاذ مصطفى أمين: لقد وقع انفجار فى مؤخرة المدمرة المصرية (القاهر) الانفجار وقع داخل المدمرة وقَتل عددا كبيرا جدا من الضباط والجنود. هناك ٤٥ جريحا، كثيرون منهم حالتهم سيئة. كانت هناك على المدمرة ذخائر لم تنفجر وألقوا بها فى البحر. هذه المدمرة أحسن مدمرات الأسطول البحرى.

صوت أوديل: أين وقع الانفجار؟ فى ميناء الإسكندرية أو فى ميناء آخر؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: سحبوها من الإسكندرية.

صوت أوديل: غريبة.. لو كان هذا الانفجار وقع فى الإسكندرية لوصل إلينا من مصادر أخرى لنا هناك.

صوت الأستاذ مصطفى أمين: اهتمام المسئولين كان ينحصر فى الخسائر المادية بصرف النظر عن الخسائر فى الارواح.

صوت بروس أوديل: متى كان آخر اتصال بينك وبين (ر)؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين: يوم ٢٩. وكان قلقا لإحساسه بتغيير فى سياسة الولايات المتحدة تجاه البلاد، وقال لى: إنه منذ شهر أغسطس الماضى حين انتهت خدمة جون بادو سفير الولايات المتحدة السابق فى مصر، شعر أن المعونة الأمريكية لمصر سوف تقطع، وأن العلاقات السياسية فى عهد كيندى كانت طيبة مع الولايات المتحدة بعكس العهد الحالى (جونسون) الذى تغيرت فيه العلاقات تغَيُّرا كبيرا، واستعملوا سياسة القوة ولم يقابلها أى تصد من جانب الاتحاد السوفيتى الذى بدا متخوفا. وسنكون نحن الضحايا لهذا الخوف.. (ر) لم يتصل بى يوم الأحد ٣٠ واتصل بى يوم ٣١ وقال لى إنه قابل محجوب (رئيس وزراء السودان) وتلقى تقريرا قبل هذه المقابلة من محمود رياض (وزير الخارجية المصرية) يتضمن أن محجوب أعرب له عن استيائه من تغلغل العناصر الشيوعية فى الصحافة المصرية، وخوفه من أن يؤثر ذلك على الشعب السودانى، وأنه يعتقد أن المخطط الشيوعى هو الاستيلاء على الثورة السودانية ثم الاستيلاء على الثورة المصرية.. محجوب يروى فضائح كثيرة عن تصرفات

زعماء الكونغو الثوريين فى السودان.. وصل منهم بأسلحتهم ٣٠٠ أو ٥٠٠ - هذا الرقم دقيق.

ودخل الأستاذ مصطفى أمين فى تفاصيل عن الكونغو وما يجرى فيه.

وطلبت الانتقال إلى موضع آخر من الشريط بعد حكايات الكونغو

صوت الأستاذ مصطفى أمين: موضوع مهم جدا. أبلغنى (ر) فى حديث تليفونى أمس أنه تم اكتشاف خلايا سرية فى وحدات المشاة بالجيش المصرى وأنه لا يعرف ميول هذه الخلايا بعد.

صوت أوديل: هل قابلت صديقك الكولونيل أخيرا ؟

صوت الأستاذ مصطفى أمين : لا.

صوت أوديل :هل تستطيع أن تجعل (ر) يشعر بأن حكومة الولايات المتحدة مستاءة من الاتجاه الشيوعى الظاهر فى الصحف المصرية؟ إن ذلك سوف يكون مجديا ولكن لا تقل له ما هو أكثر.

ثم تطور الحديث إلى ترتيب اتصالهم بعلى أمين فى لندن ومن يقوم بهذا الاتصال وكيف، ويتضح من التسجيل أن الأستاذ مصطفى أمين يكتب خطابا باللغة العربية يحمله (آرشى روزفلت) إلى على أمين فى لندن كدليل تعارف. و(آرشى روزفلت) ابن عم كيرمت روزفلت مندوب وكالة المخابرات الأمريكية الشهير فى الشرق الأوسط، وكان آرشى أيضا من البارزين فى هذه الوكالة.

صوت الأستاذ مصطفى أمين :إن «على» يعرف آرشى روزفلت فقد قابلناه معا سنة ١٩٤٤.

صوت أوديل : إن آرشى روزفلت هو رجلنا الآن فى لندن.

وتسمع مرة أخرى خشخشة أوراق، ثم يجىء صوت أوديل يقول :أريدك أن توصل بأية طريقة إلى (ر) أن ما سوف يدور فى مؤتمر الجزائر (القمة الآسيوية الأفريقية)

سوف يؤثر على العلاقات بين مصر والولايات المتحدة، وأنه يخطىء فى فهم طبيعة الرئيس الأمريكى، ولابد أن يفهم أنه من أهل تكساس الذين يتصفون بالعناد، وبالجرأة على استخدام القوة.. ثم.. هل يظنون أن الاتحاد السوفيتى سيزيد مساعدته لهم عندما تضغط عليهم الولايات المتحدة؟.

الأستاذ مصطفى أمين :إنهم يعرفون أن الاتحاد السوفيتى ليس عنده شىء يعطيه.

صوت أوديل :هل تستطيع أن ترتب أمرك لكى تحضر مؤتمر الجزائر؟ إن هذا المؤتمر يهمنا جدا، وقد كانوا يفكرون فى إرسالى شخصيا إلى هناك..

وطلبت وضع شريط آخر. أحسست أننى لا أريد أن أسمع بعده أو أقرأ أو حتى أظل لحظة واحدة أمام هذه الملفات وأشرطة التسجيل..

□□□

بدأ الشريط بصوت الأستاذ مصطفى أمين : إن مرض السكر يزداد على (ر).. زادت وطأة المرض عليه بعد أن علم بانقلاب الجزائر ضد بن بيلا. كان المرض قد أصابه بعد انقلاب سوريا.. (ر) نفسه قال لى ذلك.. انقلاب الجزائر يقلقه.

عرف أن الناس فى مصر يقولون إن المشير عامر سوف يفعل فى مصر ما فعله بومدين فى الجزائر. إنه أرسل عامر إلى الجزائر لإنقاذ حياة بن بيلا وأرسل معه هيكل لأن هيكل له أصدقاء مقربون فى الجزائر مثل محمد حربى وزهوان اللذين اعتقلا فى الانقلاب ثم هربا. ومحمد حربى معروف بميوله الشيوعية الصينية.. وزهوان كان وزيرا للدعاية فى حكم بن بيلا وهو زعيم الشيوعية فى الجزائر. (ر) مضطرب لسقوط بن بيلا، ويقول: إن سقوط بن بيلا يعنى أنه فقد ذراعه اليمنى فى العالم العربى.(ر) قال لى: إن بومدين له صديقة بعثية تؤثر عليه اسمها فاطمة عبد الله.(ر) قال لى: إن الصين الشعبية تساند بومدين لكسب الجزائر قبل الاتحاد السوفيتى.. لدى معلومات مهمة

من (ر) نقلا عن شوان لاى (كان شوان لاى رئيس وزراء الصين قد توقف فى مصر أيامها فى الطريق إلى مؤتمر القمة الآسيوى الأفريقى الذى كان منتظرا عقده فى الجزائر)..(ر) لاحظ أثناء لقائه بشوان لاى أن كراهيته للاتحاد السوفيتى أكبر من كراهيته للولايات المتحدة، وهو يقول: إن خرشوف كان صريحا فى سياسته فى حين أن زعماء السوفيت الجدد يعملون فى الخفاء ضد الصين الشعبية فى كافة الدول الأجنبية وداخل الصين ذاتها.. وأن روسيا أصبحت دولة امبريالية.. والروس معجبون بالأمريكيين لدرجة أنهم أصبحوا يقلدونهم.. وأن هناك تواطؤا سريا بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة من أجل إضعاف الصين الشعبية، وأن الصين لديها من الوثائق ما يثبت ذلك.

يقول هيكل : وأحسست بأجراس تدق فى ذاكرتى. كنت أنا الذى قلت هذا الكلام للأستاذ مصطفى أمين أثناء غداء يوم الثلاثاء - راح يسألنى بإلحاح عن مقابلتى لشوان لاى ورويت له طرفا من حديثنا - فإذا هو فى غداء يوم الأربعاء ينقله إلى بروس أوديل وينسبه إلى الرئيس جمال عبدالناصر.

وأزحت مقعدى إلى الوراء وقمت. وسألنى مساعد السيد سامى شرف الذى كان يتولى استبدال الأشرطة وإدارة الجهاز ألا تريد أن تسمع الباقى؟. وهززت رأسى نفيا. والحقيقة أننى بدأت أشعر بنوع من الدوار والغثيان.

ومررت على مكتب السيد شرف أشكره قبل أن أنصرف. وترك مكتبه وجاء إلىّ ينتحى بى جانبا ويسألنى : ما رأيك؟ قلت: إننى أريد أن أفكر أكثر فيما سمعت وقرأت. قال : هناك موضوع أريد أن أحدثك فيه بصراحة، وهو موضوع على أمين، ألا ترى أنه ضالع فى القضية، أو على الأقل أن اتصالا تم به؟ إنك أنت الذى توسطت لعلى أمين كى يخرج، والواجب يقضى عليك أن تعيده إلى هنا. وسألته : كيف أفعل ذلك؟.. قال : فكرت فى هذا الموضوع.. واقتراحى أن تبعث إليه برقية تستدعيه إلى القاهرة للتشاور. إنه بالطبع لم يعرف أن مصطفى قد اعتقل، فنحن لم نذع شيئا عن ذلك حتى الآن .

وقلت: إننى مع تفهمى لدوافعه لا أستطيع أن أستدرج الأستاذ على أمين إلى فخ.. وسألنى هل تريد أن تتصل بالرئيس تبلغه أنك اطلعت على كل شىء كما أمر؟ قلت: إننى على موعد معه غدا. وأوثر ألا أتحدث إليه أو أقابله قبل أن أكون قد فكرت فى كل شىء هذه الليلة.

□□□

يقول هيكل إنه شعر أن موقفه مكشوف أمام الجميع.. فقد دخل معركة عنيفة بين الصحفيين المحترفين وبين الآخرين الوافدين من الخارج على المهنة، وكان طرفا فى اشتباكات مع التنظيم السياسى ومع عناصر قيادته فى النظام لأنه حاول أن يصد غارات الوافدين من الخارج على المهنة.. أمامهم جميعا موقفى الآن مكشوف.. وقد كان الأستاذ مصطفى أمين يهاجم دائما من يسميهم بالشيوعيين ويتهمهم بأنهم يعملون لحساب الاتحاد السوفيتى، وها هو ذا الآن متهم بالعمل لحساب الولايات المتحدة، فأى انطباع يمكن أن يأخذه القارئ أو المواطن المصرى والعربى العادى عن الصحفيين جميعا؟ هل يستقر فى ذهنه أنهم بالجملة أتباع- بعضهم لروسيا وبعضهم لأمريكا؟. ولن يكون لدى أسرة كل واحد منهما إلا أن تجئ الىَّ، فلقد تعودت بناتهما الأربع- اثنتان لكل واحد- على اعتبارى فى مرتبة العم، ثم ماذا أقول لجمال عبدالناصر؟، لقد صدقنى فيما قلت وأجابنى إلى ما طلبت، ومن حقه أن يعتب، ومن حقه أن يشك فى أحكامى على الناس وعلى الحوادث. هل أعفيه من كل حرج وأقدم له استقالتى؟. ثم ألست بتقديم استقالتى الآن أغامر بوضع نفسى فى دائرة لم أدخل إليها وفى مجال لا شأن لى به؟.

وكان موعدى مع جمال عبدالناصر فى الساعة العاشرة من صباح الخميس ٢٢ يوليو ١٩٦٥. ولكننى كنت فى بيته قبل التاسعة والنصف بقليل. وعلمت من مكتب الرئيس أن الأستاذ مصطفى أمين وبروس تايلور أوديل فوجئا بوكيل نيابة أمن الدولة وبعض ضباط الأمن القومى يدخلون عليهما بينما هما جالسان فى ركن من حديقة

البيت الذى استأجره الأستاذ مصطفى أمين ذلك الصيف فى الإسكندرية. جرى تفتيش بروس أوديل وعثر معه على بعض الأوراق التى كتبها خلال المقابلة، وأثناء تفتيشه احتج بصفته الدبلوماسية وأخرج جواز سفره الدبلوماسى، وسئل عما يفعله فقال: إنه كان مدعوا إلى الغداء مع الأستاذ مصطفى أمين وأنهما تحدثا فى مشاكل العالم. وسئل بروس أوديل عن الأوراق التى ضبطت معه فقال: إنها تخصه، وعن الخط الذى كتبت به فقال: إنه خطه، وبعد التحقق من شخصيته أفرج عنه، فاستقل سيارته التى كانت داخل البيت وانصرف.

□□□

وسئل الأستاذ مصطفى أمين فقال: إن الأمريكى الذى كان معه هو بروس أوديل من السفارة الأمريكية. وإنه يعرفه جيدا وقابله عدة مرات لأنه مكلف من الدولة بمهام تقتضى منه الاتصال المستمر بموظفى السفارة الأمريكية، وقال: إنه يبلغ كل ما يحصل عليه من معلومات للجهات الرسمية. وكانت هناك أيضا بعض المعلومات عن محتويات الأوراق التى ضبطت مع بروس أوديل مجموعة من خمس ورقات صغيرة الحجم. الورقة الأولى منها تحمل قائمة بالأسئلة التى أعدها أوديل قبل المقابلة لكى يسأل الأستاذ مصطفى أمين، وكانت نصوصها كما يلى:

١ - خطاب ٢٢- المحتويات

٢ - هل هناك خطاب فى الإسكندرية يوم ٢٦؟

٣ - اليمن-العمرى-ماذا حدث (للنعمان)؟

٤ - السعودية

٥ - التغيير فى الحكومة

٦ - مؤامرات الانقلاب

٧ - حالة السخط

٨ - الاتحاد السوفيتى

٩ - الصين

وكانت بقية الأوراق الأربع تحوى النقط التى كتبها بروس أوديل بينما هو يسمع الإجابات عن أسئلته من الأستاذ مصطفى أمين. وكانت النقط المسجلة فى هذه الأوراق بخط أوديل كما يلى: الإسكندرية الساعة ١٣:٤٥

أولاً: إضرابات يوم ١٦/٧/١٩٦٥ اتصل (ر) بـ (س.م) (يبدو أنه إشارة إلى الأستاذ مصطفى أمين) فى التاسعة صباحاً.

أ - اثنان فى القاهرة.. شركة النسيج-شركة الجوت.

ب - فى يوم ١٦/٧/١٩٦٥.. (ر) قال له إضراب فى الإسكندرية.. شركة النقل. لم يدم أى إضراب أكثر من ٦ -٨ ساعات. سبب الإضراب المطالبة برفع الأجور. (ر) قال له: المشكلة أننى منحت أكثر من اللازم فى فترة قصيرة أكثر من اللازم- ما هى الأشياء الجديدة التى أستطيع أن أمنحها؟. عدة شركات لم تحقق أرباحاً- ولكن لابد من صرف أجور العمال لذلك فهم يقترضون من البنك للصرف للعمال. وهذه الأخيرة لم تحقق أية أرباح.

ثانياً: يوم ١٦/٧/١٩٦٥

س.م قال له كانت شائعة تقول إن العملة المصرية سوف.. (ر) قال له: هذا ليس صحيحاً. (ر) قال: لماذا أفعل هذا. (ر) قال: لا أريد أن أحصل على ذلك. إننى أعرف أن هناك كميات كبيرة متداولة لأننى أقوم بطبعها. (ر) قال: قد ارتجل خطابى يوم ٢٢.. لن يكون مكتوباً. (ر) لا يعرف ماذا يقول (س.م) قال له: الناس مهتمون جداً بالشئون الداخلية. (ر) رد عليه: لدى تقارير حول أمر ما والناس تهاجمنى.. وكانت فيما مضى تهاجم المتصلين بى- والآن تهاجمنى أنا- يبدو أنهم نظموا أنفسهم لأن ما يقال يقال فى القرى وفى المدن وفى الجيش. إننى أفكر فى مواجهته. وأن أقوم بالرد على الناس بصراحة يوم ٢٢. التقارير فيها: ما هى مصالحنا فى الدول الأخرى؟.. لماذا

لا نهتم بشئوننا الخاصة؟.. لماذا نصرف الأموال فى الدعاية فى الخارج؟.. لماذا نتدخل فى الكونغو. لماذا توجد قوات فى العراق؟.. إذا اتجهت ج.م.ع نحو شئونها الخاصة فسوف تكون دولة أفضل.. لماذا نضيع كل هذا الوقت مع شوان لاى، وأيوب خان، وسوكارنو، وبن بيلا.. إلى آخره؟.. إذا كان (ر) يقضى هذا الوقت مع وزرائه لأصبحت الدولة أفضل مما هى عليه.

(ر) قال إن الناس الذين يتكلمون هكذا أغبياء.. فإذا كنا بقينا ساكتين لما استطعنا أن نبنى السد العالى، ولا جيشاً كبيراً، ولا برنامجاً واسعاً من المساعدات الأمريكية. وإذا كنا نسلك طريقاً واسعاً فذلك لأننا نقوم بأمور كبيرة فى الخارج. وإذا ما... شئوننا الخاصة لتلاشت كل هذه الأمور تلقائياً.

(ر) قال له: كل ما يحدث من الخليج العربى إلى المغرب هو من تخطيط المخابرات الأمريكية.

(س.م) سأله: لماذا.. فى فيتنام.

(ر) قال: لأنهم لم يتمكنوا من العثور فى الأمم المتحدة على أمثال بورقيبة وفيصل.. فيصل يريد أن يبدأ..

□□□

يقول هيكل: فرغت من قراءة تقارير المعلومات التى كانت بين يدى، ثم نظرت إلى ساعتى فوجدت أن موعدى مع جمال عبدالناصر قد أزف. توقعت كل شيء فى لقاء ذلك الصباح إلا ما حدث فعلاً. لم يترك لى فرصة، إنما أخذ زمام الحديث من أول لحظة. قال على الفور:

الوقت يسرقنا ونحن لم نفرغ بعد من اللمسات النهائية لخطاب عيد الثورة، ولم تبق عليه غير ساعات. كنت حريصاً على أن تعرف موضوع مصطفى أمين منى أولا وأن ترى وثائقه بالكامل قبل أن تبدى رأيك. أستطيع أن أتصور ما تشعر به. ولابد أن

تعرف أن كل واحد منا معرض لهذه التجربة. تثق بشخص وتقف معه وتدافع عنه ثم تكتشف أنك خُدعت. المهم ألا يخدع الإنسان نفسه، وألا يتخذ موقف العناد أمام الحقيقة حين تظهر له. لا تقل شيئاً فأنا أعرف أنك تحتاج إلى وقت لكى تستوعب ما عرفته. إننى لفت نظرك مرات وليس من حقك أن تُفاجأ. ومع ذلك فلنترك المسألة برمتها للتحقيق ونلتفت نحن لما ينتظرنا اليوم.

وكانت لدى تعليقات وملاحظات وأسئلة. وكانت ردوده قاطعة:

- ثق أنه لن يحدث أى ضغط فى التحقيق، وما حاجة أى محقق للضغط والوقائع كما رأيت كاملة؟.
- أفهم بالطبع أن عائلتى مصطفى وعلى أمين سوف تتصلان بك. وأنا لا أخلط بين المسائل. ولك أن تتصرف إنسانياً كما تشاء على أن تزن كل العوامل وتضعها فى اعتبارك باستمرار.
- لا.. لا أستطيع أن أسمح لك بزيارة مصطفى أمين الآن. ولست مقتنعاً بكل ما أبديت من أسباب.
- أنا أطلب منك أن تمسك أعصابك، لأنى أعرف أن هناك من هم على استعداد لاستغلال ما حدث ضدك، ولا يصح لك أن تعطى أحداً وسيلة للنيل منك دون وجه حق.

□□□

ويدأ الخبر يتسرب ظهر يوم الخميس ٢٢ يوليو.

وتقرر استدعاء عدد من الصحفيين إلى سكرتارية المعلومات وإبلاغهم بتفاصيل ما حدث وإتاحة الفرصة لهم كى يروا ويسمعوا. وطبقاً لسجلات الرياسة، فإنه بعد ظهر يوم ٢٢ يوليو دعى كل من الأستاذ أحمد بهاء الدين، والأستاذ فتحى غانم، والأستاذ على الشلقانى، والأستاذ محمود أمين العالم، والأستاذ أحمد حمروش، والسيدة سميرة

الكيلانى (من الإذاعة) والأستاذ حسن فؤاد.. للاطلاع على كل التقارير والوثائق. ثم تقرر أن يقوم السيد محمود رياض وزير الخارجية باستدعاء السفير الأمريكى فى القاهرة المستر لوشيوس باتل، وإبلاغه باستياء مصر مما جرى، وباعتبار المستر بروس تايلور أوديل شخصاً غير مرغوب فيه. ولم يكن محمود رياض فى حاجة إلى أن يلح على هذا الطلب الأخير، فقد تبين أن السفير الأمريكى طلب من بروس أوديل فور علمه بما جرى بأن يركب أول طائرة ويخرج من مصر. وقد كان. وذكر السفير لوزير الخارجية أنه صدم بالحادث. ورجاه ألا يترك أى أثر على العلاقات بين البلدين. وذكر أنه سيقوم بإجراء تحقيق فى الموضوع. وكتب وزير الخارجية مذكرة بما دار فى مقابلته مع السفير الأمريكى ونشر هيكل صورة هذه المذكرة فى ملحق كتابه (بين الصحافة والسياسة) الذى ننقل منه. وختم وزير الخارجية المذكرة بأن السفير كان فى حالة ضيق واضطراب. وكرر أكثر من مرة رجاءه ألا يتسبب هذا الحادث فى خلق توتر فى العلاقات بين البلدين. وأبلغ وزير الخارجية مكتب رئيس الجمهورية أن السفير الأمريكى ذكر له أنه لم يقابل الأستاذ مصطفى أمين على الإطلاق، وأنه شخصياً يفضل التعامل المباشر والعلنى، وقال: إنه ليس فى حاجة إلى شرح الظروف العملية التى تمارس تحتها أجهزة أية دولة نشاطها الظاهر أو الخفى.

□□□

ولم تمض ساعة على هذه المقابلة حتى أذاع مكتب الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإرشاد القومى وقتها بياناً قال فيه: إن الأستاذ مصطفى أمين كان عميلاً للمخابرات الأمريكية يقدم لها معلومات سياسية واقتصادية وعسكرية تضر بأمن البلاد وأن المخابرات العامة قدمت إلى نيابة أمن الدولة قبل القبض عليه كل الوثائق التى تثبت أنه عميل للمخابرات الأمريكية.

ثم أذاع مكتب النائب العام بياناً بهذا المعنى.

واجتمعت اللجنة الدائمة المتفرعة عن مجلس الأمن القومي وكان من بين قراراتها إخطار المتصلين بمصر في بيروت، فقد كان مؤكداً أن بعض الصحف اللبنانية سوف تثير الموضوع. وأرسل السيد سامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات وهو في نفس الوقت سكرتير اللجنة الدائمة لمجلس الأمن القومي برقية شفرية للسفير عبد الحميد غالب سفير الجمهورية العربية المتحدة ببيروت تتضمن بعض المعلومات، وطلب إبلاغها إلى السيد محسن إبراهيم، وكان وقتها أمين جبهة القوميين العرب (التي تفرعت منها فيما بعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين). وتتضمن البرقية الترحيب بحضور الأخ محسن للقاهرة للاطلاع على التفاصيل بعد نشر المعلومات الواردة في هذه البرقية اليوم. وصورة البرقية كاملة في ملحق كتاب هيكل.

وترك علي أمين في لندن رسالة إلى هيكل يسأله فيها ماذا يفعل؟. مع العلم بأنه مستعد لأن يركب أول طائرة إلى القاهرة ويجئ لكي يقف مع مصطفى ويدافع عن سمعة الاثنين معاً. وترك له هيكل رداً قال فيه: إنه يستطيع وحده تقدير عواقب الموقف. وإذا كان مستعداً للقدوم للقاهرة فوراً فإن هذه أكبر خدمة يؤديها لمصطفى. مجرد قدومه يثبت اقتناعه بالبراءة. وهناك مسائل كثيرة يستطيع القيام بها في الدفاع عن مصطفى وفي رعاية شئون أسرة الإثنين معاً (كانت زوجة الأستاذ علي أمين وابنته منها مني في القاهرة لم تصحباه في لندن، وكذلك كانت في القاهرة ابنته من زوجته الأولى فاطمة.. وكانت هناك ابنتان للأستاذ مصطفى أمين- رتيبة وصفية- تقيمان مع والدتهما بعد أن وقع الطلاق بين الأب والأم قبل سنوات.

في اليوم التالي قال علي أمين لهيكل إنه سيركب الطائرة غداً إلى القاهرة. ولكنه لم يعد. وأدلى في لندن ببيان نشرته بعض الصحف اللبنانية قال فيه إنه كان يعتزم السفر إلى القاهرة ولكنه ينتظر تصريح الأطباء الذين يعالجونه من مرض السكر. وأنه كان قد أخطر السفارة المصرية في لندن باعتزامه القدوم إلى القاهرة ولكن الأخصائيين الذين يعالجونه من مرض السكر نصحوه بأن يُؤجل عودته إلى حين تمام شفائه.



وفى مساء يوم ٨ أغسطس كان هيكل مدعواً إلى العشاء مع جمال عبدالناصر فى استراحة المعمورة بالإسكندرية، وخرجا بعد العشاء للمشى على شاطئ البحر، وفجأة قال له عبدالناصر: على فكرة، سوف أعطيك نسخة من خطاب بعث به مصطفى أمين إلىّ. سوف تذهل من قراءته. فهو اعتراف كامل.. والخطاب من ستين صفحة. وقال عبدالناصر: لا أظنك تستطيع أن تقول إن ضغطاً وقع عليه ليكتب ستين صفحة، بالضغط يمكن لأحد أن يكتب صفحة أو صفحتين، أما أن يكتب بالضغط ما، يكاد يكون كتاباً كاملاً ويتفرغ للكتابه أربعة أو خمسة أيام، فهذا مستحيل. وأعطى عبدالناصر لهيكل ملفاً ضخماً. ومعه مذكرة من سامى شرف سكرتير الرئيس للمعلومات بوصفه مسئولاً عن التنظيم السياسى للاتحاد الاشتراكى نصها:

أفندم

بدأ يتردد فى بعض القواعد فى التنظيم، تيار كلامى متعلق بقضية مصطفى أمين، وهو أن الأستاذ هيكل هو الذى تسبب فى الصفح عن مصطفى أمين وعلى أمين أكثر من مرة لأنه لن ينسى أنه تمرس على أيديهما. والكلام يحمِّل الأستاذ هيكل ضمناً بعض المسئولية.

برجاء التفضل بالنظر.

سامى

٦٥/٧/٢٤

ويقول هيكل: وتنهدت من أعماقى. وبدا لى الصوت الصادر من حنجرتى شيئاً يشبه الأنين.

□□□

وفى كتاب (بين الصحافة والسياسة) نشر هيكل رسالة الأستاذ مصطفى أمين كاملة وتبدأ هكذا: سيادة الرئيس جمال عبدالناصر. إننى أشعر أننى أسأت إليك وأننى

لم أعد جديراً بالثقة التى وضعتها فىَّ. وقد تصورت دائماً أننى قادر على أن أنتزع معلومات مهمة لبلادى، ولقد سبق أننى جئت إليك بأكبر الأسرار وأخطرها مستفيدا من صلاتى العديدة بالأمريكيين من رجال السفارة الأمريكية والمخابرات الأمريكية. ولقد هيأ لى الوهم أنى حرٌّ فى التحرك مادمت قد نلت منك الإذن فى الاستمرار فى اتصالاتى، ولقد كان من السهل القيام بهذه الاتصالات مادمت كنت على اتصال يومى بك، وكان هذا الاتصال المستمر الدائم يجعلنى أأمن من الخطأ أو الانحراف. ثم حدث فى الشهور الأخيرة أن قضت كثرة أعمالك ومهام الدولة أن يصعب هذا الاتصال، وبذلك لم أعد قادرا على أن أستأذنك فيما أقول باسمك أو عن لسانك أو منسوبا إليك، ولقد سبق أن قلت لسيادتك إننى أستعمل اسمك فى أحاديثى، وأنك إذا رأيت أن المصلحة فى أن تكذبنى وتكذب كل صلة بى فإننى مستعد أن أتحمل بشجاعة تبعة هذا التكذيب، ثم حدث أننى شعرت أنى أسأت إليك بنسب أحاديث إليك بغير استئذانك وبغير علمك، ثم زاد شعورى بالأسى عندما رأيت فى الإجراء الذى اتخذ ضدى أنك ترى أننى انحرفت عن الطريق الذى تصورت أنى أخدم به وطنى..

ويقول مصطفى أمين فى هذا الخطاب:.. وإننى كنت أتوهم أن فى نسبة آرائى وأفكارى إليك ما يزيد أثر حديثى على مصادر معلوماتى. ولقد كنت أعطيهم بضاعة زائفة، وأحصل منهم فيما أعتقد على بضائع حقيقية، وقد لا ترضيك هذه الطريقة، ولكنها كانت دائما الطريقة الناجحة فى الحصول على ما كنت أقدم لك من معلومات.

ويذكر مصطفى أمين تفاصيل ما قاله للعميل الأمريكى حول موضوعات سياسية واقتصادية شملت سقوط طائرة انتينوف ولقى جميع ركابها حتفهم فيما عدا ضابطا روسيا، وتأخير انسحاب القوات المصرية من اليمن، وموقف السعودية من مصر، ودور مصر فى الجزائر، وسر استقالة عبداللطيف البغدادى من مجلس قيادة الثورة، وموقف عبدالناصر من الاتحاد الاشتراكى، وآثار الحصار على مصر، والحالة فى العراق، وعن نوايا الملك حسين فى العراق وسوريا، ومشروع الهلال الخصيب والمغرب الكبير، وخالد

محيى الدين، وصفقة القمح الروسى، وانقلاب الجزائر، وما دار فى اجتماع عبدالناصر مع شوان لاى وأيوب خان وسكارنو، وما يجرى فى هيئة الطاقة الذرية فى مصر، والعلاقات بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر، وما دار فى لقاء شوان لاى وعبدالناصر فى القاهرة، وفى المؤتمر الأفريقى الآسيوى، والشيوعيين فى الصحف، والوضع الداخلى فى مصر، والعلاقات مع سوريا، وعلاقة مصر بأمريكا.. وموضوعات أخرى كثيرة ذكرها مصطفى أمين فى خطابه بالتفصيل وقال: إنه استعمل اسم عبدالناصر فيها جميعا.. والخطاب طويل جدا نشره هيكل كاملا فى كتابه (بين الصحافة والسياسة) ونشر صورة من بعض صفحاته بخط وتوقيع مصطفى أمين.

وفى هذا الخطاب قال مصطفى أمين: إنه كان على علاقة بموظف فى السفارة الأمريكية اسمه ليكلاند كان يسأله أسئلة كثيرة جدا ويعتقد أنه قام بخدمات جليلة جدا فى شأن علاقات أمريكا مع الثورة فى بدء قيامها. كما أنه كان على علاقة مع كيرمت روزفلت ويقول إن مقابلاته مع كيرمت روزفلت كانت بعلم الدولة وموافقتها التامة ويقول: وقد علمت من الرئيس جمال عبدالناصر أن كيرمت روزفلت من المخابرات الأمريكية وأنه عضو بارز فيها، وأبديت فزعى من ذلك، ولكن الرئيس وافق على استمرار صداقتى به، وكنت أخبر الرئيس جمال عبدالناصر باستمرار بكل ما يقوله كيرمت روزفلت وعن جميع الآراء التى يبديها فى مقابلاته معى.

□□□

ويقول مصطفى أمين فى خطابه: وكنت أيضا على اتصال بمستر (وزرز بى) ومستر (بين) الموظفين بقسم الاستعلامات الأمريكى وكنت على صلة وثيقة ومستمرة بهما، وكنت أشعر من أسئلتهما العديدة أنهما أيضا من رجال المخابرات، وعرفنى مستر وزرز بى على ما أذكر أو المستر بين بمستر ايكل بيرجر، وكنت على اتصال مستمر بمستر مايلز كوبلاند الذى كان على صلة بالرئيس وبزكريا محيى الدين. وفهمت من أحاديثى مع المسئولين أن قادة الثورة يعلمون جيدا أن كل هؤلاء من المخابرات

الأمريكية، وأنهم واثقون من ذلك، ولكنهم يرون أن المصلحة فى الاتصال بهم وخاصة أنه تبين بوضوح أن المخابرات الأمريكية هى صاحبة السلطة الحقيقية فى أمريكا وأنها أقوى نفوذا من وزارة الخارجية الأمريكية وأنها قادرة على رسم السياسة، فإن كثيرا من الأشياء التى كنا نطلبها من أمريكا أو نسأل عنها كانت تصلنا عن طريق المخابرات الأمريكية قبل أن نعرفها بواسطة السفير الأمريكى فى القاهرة بعدة شهور.

ويقول أيضا: وحدث فى عام ١٩٥٤ أن حدثت أزمة محمد نجيب، وعلمت أن نجيب اتصل بشخص من المخابرات الأمريكية اسمه مستر (لى) وأن هذا الشخص كان ملازما لمحمد نجيب طوال الوقت، وأفهم محمد نجيب مستر (لى) أن أعضاء مجلس الثورة كلهم شيوعيون، وأنه يريد أن يخلص البلاد منهم، وأنه يرغب فى تأييد الولايات المتحدة له فى معركته فى مجلس قيادة الثورة، وكانت الحكومة البريطانية تؤيد محمد نجيب كل التأييد وتعتقد أن مصلحة بريطانيا فى الخلاص من جمال عبدالناصر وأصدقائه..

ويقول: وحدث فى سنة ١٩٥٤ أن أخبرنى أيكل بيرجر أنه اطلع على برقية سرية جدا وصلت على التو من السفير الأمريكى فى تل أبيب بأن الجيش الإسرائيلى سيقوم بعدوان فى يوم معين على مصر، وألح فى ألا أخبر الرئيس بهذا الأمر، وقال إنه لو عرف أحد أن هذه البرقية تسربت فسوف يفقد عمله. وأسرعت على الفور وأخبرت الرئيس عبدالناصر بما حدث. واهتم الرئيس بهذا النبأ وطلب معلومات أوسع عن هذه العملية الخطيرة ومكانها. واتفقنا أن أذهب أنا ومحمد حسنين هيكل ونقابل مستر بايرود السفير الأمريكى، واستطعنا أن ندحرجه ونعلم أن الخبر صحيح مائة فى المائة، وأحضر بايرود البرقيات السرية التى وصلت إليه. وتفاهمت أنا وهيكل أن يشغله هيكل بالحديث بينما أنا أنقل البرقية. وفعلا استطعت أن أنقل نص البرقية، وقدمناها إلى الرئيس جمال عبدالناصر، وأصدر الرئيس على الفور أمره إلى الجيش المصرى بالاستعداد لهذا العدوان المفاجئ، وتم العدوان فى موعده، وكان الجيش المصرى

مستعدا له، وأعطى الجيش المصرى يومها درسا لليهود، وقد شكرنى الرئيس جمال عبدالناصر يومها على هذا العمل الذى قمت به، وقال إننى خدمت بلادى خدمة كبرى.

وفى الهامش يقول هيكل إن الأستاذ مصطفى أمين يورد اسمى فى عدة مواضيع من هذه الرسالة الوثيقة ولا أريد اعتراض النص هنا بالتوقف أمام نفى أو تصحيح، فليس هذا مجاله.

□□□

ويقول مصطفى أمين فى خطابه إن مايلز كوبلاند، وميلر، وايكل بيرجر، وكيرمت روزفلت يقولون لى: إنهم مقتنعون بأن بريطانيا تعطى أمريكا معلومات وهى تعلم أنها كاذبة، وكانوا يقولون: إن المخابرات البريطانية تحاول تضليل أمريكا لمصلحة بريطانيا، ولكنهم مع ذلك فإنهم كانوا يجيئون كل يوم ويسألوننى عن أشخاص أثق جيدا أنهم غير شيوعيين ويؤكدون أنهم شيوعيون، أو يقولون إن معلومات جاءتهم بأن لهم ميولا شيوعية، ومن الأسماء التى كانوا يكثرون من السؤال عنها ويتهمونها بالشيوعية أسماء أنور السادات، وعبدالحكيم عامر، وثروت أباظة، وعلى صبرى، وكمال رفعت، وغيرهم.

ثم حدث أن أوفد الرئيس جمال عبدالناصر أخى على أمين إلى لندن للاتصال بحزب العمال المعارض وإبلاغه وجهة نظرنا فى تأميم القناة، وعاد على أمين من لندن وقابلت معه ومحمد حسنين هيكل الرئيس فى القناطر، فقال على أمين للرئيس إن المعلومات السرية التى حصل عليها من انجلترا تؤكد أن انجلترا ستقوم بالعدوان، وأنها بدأت تستعد وتجهز القوات التى ستقوم بهذه المهمة.

ثم سافرت أنا ومحمد حسنين هيكل إلى أمريكا فى مهمة أوفدنا إليها الرئيس فى أمريكا أثناء عرض مسألة تأميم القناة فى مجلس الأمن، واتصلنا بكيرمت روزفلت، وايكل بيرجر، وبعدد من كبار موظفى وزارة الخارجية الأمريكية، وأبلغنا مستر دالاس

أن العدوان أصبح فى ذمة التاريخ وأنه واثق أنه لن يحدث عدوان.. ولكن العدوان حدث بعد ذلك ببضعة أسابيع. وكنا فى جميع اتصالاتنا بهؤلاء نعلم أنهم متصلون بجهاز المخابرات الأمريكية، وكانت الدولة تعلم بهذه الاتصالات وتعرفها تفصيلا، وكان يحدث كثيرا أن يسألنى هؤلاء أسئلة عن الموقف، ولكن كانت كلها أسئلة سياسية وليست أسئلة محددة.

وعندما أوفدنى الرئيس جمال عبدالناصر فى مهمة إلى أمريكا أثناء العدوان، قابلت كيرمت روزفلت عدة مرات فى حضور الدكتور أحمد حسين سفير مصر فى واشنطن فى ذلك الوقت، وبعلم الرئيس جمال عبدالناصر، وعرفت أن المخابرات الأمريكية فوجئت بالعدوان وأنها لم تعلم به إلا قبل حدوثه بأربعة وعشرين ساعة وأنها لم تعلمه من لندن أو باريس وإنما علمت به من تل أبيب.

وفى أيام العدوان الأولى كان بيل ميلر يزورنا يوميا فى أخبار اليوم وأحيانا يقابلنا أكثر من مرة فى اليوم، وكان السؤال الذى يسأله دائما واحدا لا يتغير وهو: هل نستطيع الصمود؟، وكم ساعة نستطيع أن نقف على أقدامنا؟ وعندما كنت أجيبه بأننا سنستطيع الصمود، كان يقول: إنه لو صمدت مصر ثلاثة أيام فسوف تخسر بريطانيا المعركة.

وكنت على صلة مستمرة ودائمة بالليل وبالنهار بالرئيس جمال عبدالناصر وكنت أبلغه أولا بأول بكل كلمة يقولها بيل ميلر فى مقابلاته العديدة المتكررة. واستطعنا أن نعرف أن ايزنهاور غاضب من أن العدوان تم من وراء ظهره وأن إيدن استغفله، وكانت هذه المعلومات قيمة جدا فى أثناء المعركة.

وكانت المباحثات بشأن وقف إطلاق النار وإرسال البوليس الدولى إلى مصر تجرى فى مكتبى بأخبار اليوم بحضور محمد حسنين هيكل وبيل ميلر. وكنا نبلغ الرئيس جمال عبدالناصر أولا بأول بكل المعلومات، ونقوم بمهمة الاتصال بين جمال

عبدالناصر وايزنهاور، حتى إن الرئيس جمال عبدالناصر قال يومها إن أخبار اليوم أصبحت وزارة خارجية تحت الأرض.

□□□

ويتحدث مصطفى أمين فى خطابه عن أيام احتلال القوات الأمريكية لبنان عام ١٩٥٨ فيقول: وفى هذه الأثناء قامت أخبار اليوم بحملة عنيفة جدا ضد الشيوعية، وتعرضت أخبار اليوم للاتهام فى كثير من الدوائر بأن هذه الحملة موعز بها من أمريكا. وتعلمون سيادتكم أنكم الذين أمرتمونى بهذه الحملة، وأنكم الذين طلبتم منى طبع كتاب عن المجر، وهى الكراسة الحمراء التى دفعت الحكومة المصرية نفقات طبعها، وأن جميع هذه الحملة كنت أستشير سيادتكم فيها، وذلك فى أثناء تنظيم حملتنا على الشيوعية بعد خطاب سيادتكم فى دمشق، وكذلك الحملة التى قامت بها أخبار اليوم عن مذابح الموصل بعد ثورة الشواف. وقد سافرت بعد ذلك إلى أمريكا فى مهمة أوفدتمونى سيادتكم فيها، وقد عرضت على سيادتكم بعد عودتى كل خطواتى ومقابلاتى واجتماعاتى، وقد وعدت فيها بأن أحصل للصحافة المصرية على ورق بمليون جنيه مجانا من أمريكا، وتولى مستر هير السفير الأمريكى فى القاهرة إبلاغ سيادتكم ذلك بنفسه. وكنت على اتصال يومى بسيادتكم، وكنت أبلغك تفصيليا كل مقابلاتى مع الرجال الأمريكيين الذين اتصلت بهم، وكل ما كنت أحصل عليه من أنباء ومعلومات وأسرار بحيث كنا نعرف أولا بأول كل الأنباء التى يهمنا أن نعلم بها، سواء ما يجرى فى أمريكا أو ما يجرى فى المنطقة العربية، وكنتم سيادتكم تطلبون منى الاستفسار عن مسائل معينة أو إبلاغهم مسائل معينة.

وعند مقابلاتى مع بروس اوديل (الطرف الثانى فى القضية) بدأت أسئلته فى الشهور الأخيرة تتحول إلى أسئلة محددة، وبدأ يسأل عن تفاصيل لم يكن الذين سبقوه يهتمون بها، ولقد كنت أجيبه عن أسئلته، وكنت فى كثير من الأحيان أضلله، وأذكر على لسان سيادتكم أشياء لم تقولوها لى، ولقد كنت أتصور أننى بهذه الطريقة أستطيع

أن أحصل على معلومات مهمة، وأن من واجبى أن أصحح بعض المعلومات الخاطئة وأن أوهمهم بأن قدراتنا ضخمة وأننا قادرون على نسف آبار البترول وعلى صنع قنبلة ذرية.

ويقول: وعندما أعود إلى نفسى وأتذكر كل ما قلت أجد أننى أخطأت، ولكن شفيعى فى ذلك حسن نيتى وأننى قدمت لبلادى نتيجة هذه الاتصالات خدمات عبرتم سيادتكم فى أكثر من مناسبة عن تقديركم لها.

□□□

ثم يتحدث مصطفى أمين عن علاقته برجل المخابرات الأمريكية بروس أوديل فيقول: بعد أن جاء إلى مصر مستر بروس أوديل بدأ طريقته فى المناقشات مثل طريقة سيدل (كان الملحق السياسى بالسفارة الأمريكية) ثم حدث فى الشهور الثلاثة الأخيرة أن أصبح يوجه إلىَّ أسئلة محددة ويشير إشارات جعلتنى أشعر صراحة بأنه يعمل فى المخابرات الأمريكية، فقد حدث أن سألته عن عنوان بيته فى الإسكندرية فرفض، وطلب منى عدم التردد على بيته فى الإسكندرية، كما طلب منى عندما اتصل بمنزله وقت غيابه فى أثينا ألا أذكر اسمى كاملا بل أذكر مصطفى فقط، كما طلب أيضا أنه يريد أن تكون مقابلاته لى فى الإسكندرية غير ملحوظة لأحد، وكان عندما يريد إبلاغ توجيهات من الحكومة الأمريكية للرئيس جمال عبدالناصر يطلب أن أبلغها للرئيس بطريقة كأنها صادرة منى، وبدون الإشارة إليه أو ذكر اسمه.

وبهذه المناسبة أذكر أنه طلب منى أن أبلغ الرئيس جمال عبدالناصر بهذا الأسلوب ما يأتى:

١ - أن الحكومة الأمريكية قررت ألا تدفع لمصر سنتا واحداً من المعونة إلا إذا سحبت كل قواتها من اليمن، وإلا إذا توقفت عن مساعدة الكونغو، وإلا إذا هادنت إسرائيل. ولم أبلغ سيادتكم هذا التهديد، ثم عاد وسألنى هل أبلغت الرئيس ما قلته، فكذبت عليه وقلت نعم.

٢ - إن الحكومة الأمريكية قررت انتهاج سياسة القوة والحزم قاصدا من ذلك تخويف الرئيس جمال عبدالناصر وإجباره على اتباع السياسة التى تتلاءم مع سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة. ولم أبلغ سيادتكم هذا التهديد. ثم عاد وسألنى فى الأسبوع التالى هل أبلغت الرئيس ما قلته لك، فكذبت عليه وقلت نعم.

٣ - إشعار الرئيس جمال عبدالناصر دائما بأن شخصية جونسون عنيفة غير مرنة ويتجه إلى الاندفاع واستعمال القوة لتنفيذ رغباته. ثم أراد أن يؤكد هذا المعنى فأرسل لى كتابا ألفه مستر هوايت عن الرئيس جونسون وطلب منى أن أعطى هذا الكتاب للرئيس عبدالناصر. ولم أبلغ سيادتكم هذا التهديد، ثم عاد وسألنى فى الأسبوع التالى هل أبلغت ما قلته لك للرئيس عبدالناصر، فكذبت عليه وقلت له إننى تحدثت تليفونيا مع سيادتكم وأبلغتكم كل ما قاله فى هذا الشأن. ولم أرسل لسيادتكم الكتاب كما طلب منى.

٤ - محاولة الوقيعة بين مصر والاتحاد السوفيتى، فقد أعطانى عدة مرات مقالات نشرت فى عدة صحف شيوعية وسوفيتية منها ما يمس مصر، وطلب منى إرسالها للرئيس جمال عبدالناصر، وكان المقصود بهذا الوقيعة بين مصر والكتلة الشرقية، ولم أرسل لسيادتكم هذه المقالات، وكذبت عليه وقلت إننى أبلغتها لسيادتكم تليفونيا.

٥ - محاولة الإيقاع بين مصر والدول العربية، وأذكر فى هذا المجال ما قاله من أن الملك فيصل صرح بأن اليمن ستكون مقبرة للرئيس عبدالناصر.

٦ - الإشعار دائما بعجز مصر المالى، فقد طلب منى أن أبلغ سيادتكم بأن بنوك العالم قررت ألا تعقد أى قروض لمصر إذا ثبت أن الولايات المتحدة لن تستأنف إرسال المعونة. ولم أبلغ سيادتكم هذا الخبر. وسألنى بروس بعد ذلك بأسبوع فكذبت عليه وقلت نعم أبلغت الرئيس.

وتنحصر باقى أهدافهم علاوة على إيصال هذه التوجيهات إلى سيادتكم فى الحصول على معلومات بعضها سياسى وبعضها عسكرى وبعضها اقتصادى، وقد كنت أرد على أسئلة بروس بإجابات مضللة وغير صحيحة فى رأيى، ولكى أضفى عليها صفة الأهمية كنت أنسبها أو بعضها إلى أحاديث مزعومة مع سيادتكم وإلى بعض المسئولين المهمين. وكانت إجاباتى على الأسئلة كلها توهمه بأن مصر فى حالة سيئة وأنه على وشك أن يحدث فيها انقلاب شيوعى ضد الرئيس جمال عبدالناصر، وأنه قلق، وأن هناك خلايا سرية فى الجيش، وأنه لو أصيب عبدالناصر فى حادث فسوف يحدث فى مصر انقلاب شيوعى وتعم الشيوعية فى المنطقة كلها، وأننى أرغب فى الحصول على إجازة طويلة حتى لا أتعرض لأخطار الشيوعية فى حالة حدوث انقلاب شيوعى.

□□□

ويقول مصطفى أمين: إن هذا التصرف من جانبى دون توجيهات من سيادتكم كان خطأ، وإننى أعترف بخطئى، إلا أن دافعى من هذا أن أستدرجه لأحصل على أكبر قسط من المعلومات مما يفيد البلاد، ولا أمكنه من الوصول إلى أهدافه.

ويقول: بقى موضوع آخر أحب أن أوضحه على حقيقته بصراحة تامة مهما كان يتضمن من أخطاء، وهو العلاقات المالية مع الأمريكيين، فقد حدث أن قال لى بروس: إنه لو أراد أن يكون مليونيرا لاستطاع ذلك، فإن كثيرين من الدبلوماسيين يعملون فى التهريب ويربحون أرباحا طائلة، وبعد ذلك طلبت إليه أن يأخذ خمسة آلاف جنيه ويحولها إلى لندن، فقال: إنه لايستطيع أن يفعل ذلك لأن تعليمات السفير مشددة فى عدم جواز ذلك، ولكن ممكن أن يحولها لى بصفته الشخصية بواسطة صديق له يسافر إلى بيروت، وفى هذه الحالة يجب أن تحول إلى ليرات ثم بعد ذلك إلى جنيهات استرلينية، وذلك نظير عمولة بسيطة، وأن يتم البيع فى السوق السوداء. وفى حديث آخر عدت إلى مناقشة هذا الموضوع معه وأشعرنى أولا أنه لا يستطيع أن يجزم أن فى مقدوره أن يقوم بهذا العمل، بل يجب عليه أن يسأل أولا عن إمكانية ذلك، وبعد ذلك

أفهمنى أنه يستطيع تنفيذ ما أطلب منه، وعليه سلمته خمسة الآف جنيه مصرى فى شهر مايو (١٩٦٥) وطلبت منه أن يودع المبلغ فى بنك ميرلاند فى لندن. وأبلغنى بعد ذلك بثلاثة أسابيع تقريبا أنه تم إيداعها فعلا فى البنك المشار إليه فى لندن، ثم بعد ذلك سلمته خمسة عشر ألف جنيه على دفعتين، دفعة عشرة، ودفعة خمسة، واتفقنا على أن يحولها إلى بيروت إلى ليرات لبنانية ثم دولارات، ويفتح حسابا لى باسمى فى بنك بيروت، وقد أفادنى بأنه باع هذا المبلغ فعلا فى السوق السوداء إلا أنه باع المبلغ بسعر زهيد بسبب إغراق سوق بيروت بالجنيهات المصرية حسب ما ذكر لى، نتيجة المؤتمر الفلسطينى فى القاهرة. وكان المفروض أن يبلغنى يوم القبض علىَّ باسم البنك الذى أودع فيه فى بيروت المبلغ، ولكن عملية القبض حدثت قبل ذلك.

ثم يحكى أنه طلب من بروس أن يتصل بعلى أمين أثناء وجوده فى لندن وسألنى بروس إن كان على أمين يعرف حقيقة عمل بروس وجماعته، وهل سبق له أن اتصل بأحد من المخابرات الأمريكية؟، وسألنى إن كان على أمين يعرف اسم بروس وإن كان لم يقابله، فأجبته بالنفى وقد سألنى بروس هل يقبل على أمين أن يتصل بالمخابرات الأمريكية؟ فقلت إن على أمين يرحب بالاتصال بهم كصحفى.. وذكرت لبروس على لسان سيادتكم أنكم قلتم لعلى أمين فى المقابلة التى تمت معكم أنكم تعتبرون على أمين السفير فى لندن، وأنكم أمرتموه بأن يبعث برسائل يقوم بإرسالها عن طريق السفير باسمكم مباشرة إن كانت على مستوى عال من السرية، أو باسم سامى شرف بالنسبة للرسائل الأخرى، على أن تكون فى مظاريف مغلقة ومختومة، وهى غير الطريقة المتفق عليها كما تعلمون سيادتكم.

وقد سألنى بروس عن إمكانية مقابلة على أمين خارج لندن، فأجبته بأن ذلك ممكن، فقال إنهم يخشون أن تحس المخابرات الإنجليزية بمقابلاتنا مع على أمين.. وقد سألنى هل ناقشت هذا الموضوع مع على أمين قبل سفره وأنه من الممكن أن يتقابل مع أحد من المخابرات الأمريكية؟. فأفدته بالإيجاب. ولكن الحقيقة يا سيادة الرئيس أننى لم أفاتح على أمين فى هذا الموضوع..

والقصة بعد ذلك فيها تفاصيل كثيرة..

□□□

ويقول مصطفى أمين بعد ذلك: وفى الوقت نفسه وافقتم سيادتكم على أن أؤلف داخل أخبار اليوم جهازا لجمع المعلومات، وقد قدم هذا الجهاز لسيادتكم معلومات كثيرة ومتعددة فى كثير من النواحى كانت موضع رضاء سيادتكم، وأنه بعد تنظيم الصحافة سألت سيادتكم أن أستمر فى القيام بهذه العملية فأجبتم بالإيجاب، ثم حدث أن سألتكم مرة أخرى بعد أن عينت رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم هل استمر فى هذه العملية أم لا؟. فأمرتمونى سيادتكم بأن أستمر فيها.. وكنت أرسل إلى سيادتكم تقاريرهم المهمة.. ثم حدث بعد ذلك أن انقطع اتصالى التليفونى اليومى بسيادتكم، ومع ذلك فقد حدث أكثر من مرة أن أتصل بى الأستاذ سامى شرف وسأل عن معلومات، وطلب جمعها.. ولم يكن أحد من أعضاء هذا الجهاز يعلم أنه عضو فى جهاز سرى لجمع المعلومات، ولم يكن أحد منهم يعلم أن هذه المعلومات تصل إلى سيادتكم. وفى أثناء مقابلاتى للأمريكيين- وبعضهم يعمل فى مخابراتهم- كنت استفيد من مناقشاتى بهذه المعلومات لأصحح الصورة الخاطئة لديهم، أو لإقناعهم بأننى فى بعض الأحيان أدس عليهم معلومات صحيحة وسط المعلومات غير الصحيحة، حتى لا يفقدون الثقة فىَّ.

ويذكر مصطفى أمين فى خطابه أنه قابل آلان دالاس مدير المخابرات الأمريكية فى مكتبه لمدة ١٥ دقيقة ويقول : شرحت له وجهة نظر بلادنا باختصار ورغبتنا فى الإسراع بجلاء قوات العدوان فى أسرع وقت وأن أى تأخير سيؤدى إلى كارثة. وقدمت تقريرا بذلك إلى سيادتكم فور عودتى..

ويقول مصطفى أمين فى خطابه: سيادة الرئيس.. وأحب أن أثير سؤالا. هل كان المقابل الذى حصلت عليه من اتصالاتى بالمخابرات الأمريكية والأمريكيين المسئولين يساوى ما قدمته لهم؟ ويقول : وبهذه الصلة حصلت على امتياز إصدار مجلة المختار

وهو يدر على أخبار اليوم مبلغا طائلا سنويا، وقد وافقتم سيادتكم على أن نحصل على امتياز إصدار هذه المجلة. وبهذه الصلة حصلت على امتياز طبع مجلة الصداقة، وحصلت أخبار اليوم وصحفها على إعلانات من شركات أرامكو وتى.دبليو.إيه T.W.A وبان أمريكان، وكانت كل الصحف الأخرى كالأهرام مثلا تأخذ نفس القدر من الإعلانات. وبهذه الصلة حصلت على ورق من أمريكا لمصر بحوالى ٢ مليون جنيه، وهو الورق الذى تسلمته الحكومة المصرية.. وبهذه الصلة أمكننى أن أوفد أم كلثوم لتعالج فى أمريكا بالذرة بدون مقابل.. وأنا الذى أبلغت سيادتكم بنبأ المؤامرة التى يقوم بها الملك سعود مع أحمد أبو الفتح وسعيد رمضان، وبعد أن أبلغتكم هذه المعلومات ومصدرها عرفت من سيادتكم أنكم بوسائلكم الخاصة عرفتم تفاصيل وأسرار هذه المؤامرة.

وعموما فإن بقية القصة معروفة.. حكم على مصطفى أمين بالسجن.. وقضى فى السجن ٩ سنوات تحدث عنها فى عدد من الكتب المشهورة بدأت بكتاب (سنة أولى سجن) ثم خرج بقرار إفراج صحى من الرئيس أنور السادات.. وعاد إلى أخبار اليوم ليمتع قراءه بعموده اليومى (فكرة). وهناك تفاصيل أخرى كثيرة فى كتاب هيكل.

ما يعنينا من كل هذا أن نعرف أن هيكل خزانة أسرار.

هيكل والســـادات

لم تكن علاقة هيكل والسادات مثل علاقة جمال عبدالناصر. كانت علاقة هيكل بعبدالناصر مستقرة، وبينهما تفاهم وتوافق روحى وفكرى، علاقة صداقة وعمل ومشاركة فى التفكير. وكان اقتراب هيكل الشديد من عبدالناصر سببا فى متاعب لهما معا، كان نواب رئيس الجمهورية والوزراء والحاشية يخفون فى داخلهم مشاعر الغيرة، وربما الحسد، لانفراد هيكل بهذه المكانة الخاصة. كما كان زملاء هيكل يحملون له مشاعر الحقد ويحاولون الكيد له كل بقدر ما يستطيع:

تقول هدى جمال عبدالناصر فى مقال فى صحيفة السفير اللبنانية فى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ كتبته بمناسبة اعتزال هيكل بعنوان (الوفى لجمال عبدالناصر).. وعيت عليه منذ كنت طفلة صغيرة قريبا من والدى، تربطه به علاقة من نوع خاص.. عمل وصداقة فى الوقت ذاته، فكثيرا ما كنت أدخل على والدى فى حجرة نومه أو فى مكتبه فأفهم أن هيكل على خط التليفون، وقد كانت حواراتهما ممتعة، فهو وإن كان مصدرا أمينا للأخبار السياسية والاجتماعية إلا أن تعليقاته اللماحة واللاذعة أحيانا كانت مثار أحاديث كثيرة فى أسرتنا، ولقد تعودنا على مكالمات الأستاذ هيكل التليفونية فى أوقات غير عادية لينقل إلى والدى خبرا مهما أو يستطلع رأيه فى مسألة عاجلة، فكم من مرة توقف عرض الفيلم فى منزلنا لأن ورقة دخلت إلى والدى تنبهه بأن الأستاذ هيكل يريد الاتصال به فورا، وكم من مرة تركنا والدى فى حديقة منزلنا لكى يرد على مكالماته الطويلة.

وعندما كنا نسأله متى سيكتب مذكراته يقول: هيكل سوف يكتبها..!

وتصف هدى عبدالناصر هذه العلاقة فتقول: كان الأستاذ هيكل يتحاور مع والدى فى موضوعات شتى، وأحيانا يدعم أحاديثه بأبيات من الشعر، وأتذكر أننى دخلت يوما على والدى فى حجرة نومه فوجدته على الخط مع الأستاذ هيكل، وكان يضحك عاليا، ثم علمت أنه كان يتلو عليه أبياتا من شعر كامل الشناوى دونها والدى أمامى تعليقا على تعيينات على مستويات عليا فى السلطة تقول:

دعمتــها بـــالواهنين وصنتـــها	بالضـائعين لكـى تطيـل بقــاءها
إن كـان هـذا للبقــاء فيــا تـرى	مـا كنت تفعل لـو أردت فنـاءهـا

وتقول: أما زيارات الأستاذ هيكل إلى والدى فقد كانت زيارات عمل بالدرجة الأولى فى مكتبه أو فى حجرة صالون منزلنا، وكنا نعرف أنه موجود عندما يمتلئ مدخل المنزل برائحة السيجار الذى كان يدخنه باستمرار.. وكانت مناقشات والدى مع الأستاذ هيكل حول هذه المقالات أو حول الموضوعات التى تثيرها مثار جذب لى.. وخاصة تلك التى كانت تنتقد النظام أو تتناول ظواهر سلبية فى المجتمع المصرى آنذاك.

□□□

وفى (السفير) أيضا فى نفس العدد ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ كتب الدكتور حازم الببلاوى مقالا عن هيكل بعنوان (العلاقات الملتبسة بالسلطة والناصرية) قال فيه: إن الأستاذ هيكل وقت عبدالناصر كان صحفيا، ولكنه كان أكثر من ذلك فقد كان جزءا من السلطة، أو قل جزءا من (عقل السلطة)، وكان المفهوم أن الإعلام جزء من أدوات الدولة للحكم، وقد نجح الأستاذ هيكل فى خلق وضع ملتبس ومبهم حول علاقته بالسلطة، فقد احتفظ دائما بقدر من المسافة والاستقلال عن السلطة مما سمح له فى بعض الأحيان بانتقادها كما فعل عند مناقشة زوار الفجر، ولكنه حرص فى نفس

الوقت على إعطاء الانطباع بأنه المعبر الرسمى عن آراء عبدالناصر، وهو انطباع أكدته الأحداث، حيث كانت مقالات هيكل (بصراحة) إما معلنة عن التوجهات القادمة، أو مفسرة للسياسات القائمة، ويرجع نجاح هيكل إلى أنه لم يقتصر على نقل أفكار الزعيم بل إنه كان يضعها فى إطار من التحليل السياسى المستند إلى الوقائع والأحداث التاريخية، وهكذا أضاف إلى الكتابات الصحفية السياسية قدرا من العقلانية والموضوعية ولم يقتصر مثل الكثيرين على إطلاق الشعارات الطنَّانة والإثارة العاطفية، فهو كاتب يخدم قضية ونظاما، وهو الذى كرَّس تعبير النكسة فى الأذهان.. والأكيد أن هيكل لم يكن من (دراويش الناصرية) وإن كان يمكن أن يكون من قديسيها أو آبائها المؤسسين، وكان من الصعب فى أحيان كثيرة معرفة أين الأصل وأين الصورة بين كتابات هيكل وخطب عبدالناصر، وإذا كان من الصعب تحديد دور هيكل فى بلورة أفكار عبدالناصر فإن طبيعة العلاقة الشخصية بينهما لا تقل غرابة، فهى علاقة استمرت لفترة طويلة، حيث شغل مكانا متميزا لدى عبدالناصر، فهو أثيره وصديقه ومستشاره، وإن كان ذلك لم يمنع من تعرضه أحيانا لمضايقات أجهزة المخابرات، بسبب هذه العلاقة المتميزة والطويلة بين الصحفى والحاكم، فعبدالناصر كانت له علاقات كثيرة قليل منها استمر حتى النهاية، قد تساقط الواحد منها بعد الآخر فى رحلة الثورة، ولم يكد ينجو من مسلسل هذا التساقط سوى أنور السادات، وحسين الشافعى، ومحمد حسنين هيكل.

□□□

كان هيكل أكثر من صحفى وأكثر من سياسى بل وأكثر من صديق لعبدالناصر، والحكايات كثيرة جدا تؤكد أنه كان شريكا فى صنع السياسة. وكمثال على ذلك ماحدث أثناء زيارة عبدالناصر لموسكو لطلب صواريخ أرض جو كسلاح رادع للطيران الإسرائيلى الذى كان يضرب فى العمق، وافق بريجنيف على تزويد الجيش المصرى بالصواريخ واشترط عدم الإعلان عن الصفقة، والتفت بريجنيف نحو هيكل وقال له عبر المترجم: ما هو رأى البرويوجندست؟ (ومعناها بالروسية الصحفى) هل يمكن إخفاء

معلومات العملية عن وكالات الأنباء والصحف الغربية؟ فأجاب هيكل: لا.. من المتعذر إبقاء هذه الصفقة سرية والأقمار الأمريكية ستلتقط صور الصواريخ المنقولة فوق ظهر البواخر، أو حتى بعد تثبيتها فى الأرض، وكان هذا الجواب كافيا لإثارة اعتراض بريجنيف ولحرصه على عدم إثارة الأمريكيين، ولم يغضب عبدالناصر من هيكل أو يتهمه بأنه أفسد الصفقة، ولكنه اقترح أن يختار بريجنيف شخصية روسية تجتمع مع هيكل للاتفاق على صيغة مقبولة تحمى صفقة الصواريخ من حملات التشويش التى ستشنها إسرائيل وأمريكا، ووقع اختيار القيادة السوفيتية على اندروبوف رئيس المخابرات الروسية (كى. جى. بى) واجتمع مع هيكل وتوصلا إلى حل هو الإعلان عن الصفقة بأقل من حجمها الحقيقى.. وهكذا كان مكان هيكل فى قلب الأحداث بالغة السرية والمتعلقة بالأمن القومى.

والدور السياسى الذى لعبه هيكل وقت عبدالناصر كان فى بعض الأحيان أكبر من دور نواب رئيس الجمهورية والمستشارين والوزراء، هيكل هو الذى قدم ياسر عرفات إلى عبدالناصر بعد نكسة ١٩٦٧ وأقنع عبدالناصر بتقديم الدعم لمنظمة فتح وقال عبدالناصر لعرفات: أريد رصاصة فلسطينية واحدة كل يوم يدوى صوتها فى الأرض المحتلة. وفى أغسطس ١٩٦٨ اقترح هيكل على عبدالناصر أن يأخذ عرفات معه إلى موسكو لتقديمه إلى القادة السوفيت، وفى هذه الزيارة حصل عرفات على بعض الأسلحة السوفيتية ومنها مدافع مضادة للطائرات.

وفى هذا العدد من السفير كتب فؤاد مطر مقالا بعنوان (خواطر من الذاكرة والوجدان) ذكر فيه أن الرئيس اليوغسلافى تيتو طلب من صديقه عبدالناصر مساعدته لكى يكون له صحفى مثل هيكل بالنسبة له، وعندما احتار عبدالناصر فى الجواب أحاله على هيكل. وبعد رحيل عبدالناصر حاول العقيد القذافى والرئيس صدام حسين أن يكون هيكل معهما كما كان مع عبدالناصر، واستضافه صدام حسين وأرسل إليه طائرة خاصة، ولكن هيكل ظل بعيدا لأنه يؤمن بأن التجارب التاريخية لا تتكرر.

□□□

يروى فؤاد مطر الكثير عن ذكرياته مع هيكل ومن بينها قصة لها دلالة، يقول فى مقاله فى صحيفة السفير اللبنانية يوم ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣: إنه كان فى القاهرة مندوبا لصحيفة النهار اللبنانية طوال عشر سنوات، ونشر يوما رسالة أغضبت على صبرى، وكان على صبرى فى ذلك الوقت يخوض صراعا ضد هيكل فى الاتحاد الاشتراكى، وقيل لعلى صبرى إن فؤاد مطر يتردد كثيرا على كمال الملاخ فى الأهرام ويستقى منه معلومات رسائله الصحفية، فقرر على صبرى اعتقال كمال الملاخ نكاية فى هيكل، ليكون ذلك إحراجا وتحذيرا له، وعلم هيكل بنوايا على صبرى فقال: إذا اعتقل الملاخ فسوف أكسر قلمى، ووصلت هذه الرسالة إلى عبدالناصر فأوقف قرار على صبرى ومثل هذه القصص كثير.

□□□

كانت علاقة هيكل بالسادات قديمة، ولكن هيكل كان هو الأقرب إلى عبدالناصر، وفى المرات التى توترت فيها العلاقة بين هيكل وعبدالناصر، وهى مرات قليلة لا تتعدى مرتين إحداهما حين كتب أن النظام إذا لم يغير يجب أن يتغير، والثانية حين أصدر عبدالناصر قرار تعيين هيكل وزيرا للإرشاد على رغم اعتذاره عن منصب الوزير ثلاث مرات قبل ذلك، ورفض هيكل الحضور فى موعد حلف اليمين، وفى المرتين كان السادات هو رسول عبدالناصر إلى هيكل لتعود المياه إلى مجاريها.

وكان يوم وفاة عبدالناصر يوم امتحان لهيكل وللسادات أيضا. وبعد نصف ساعة من رحيل جمال عبدالناصر غادر هيكل والسادات وحسين الشافعى غرفة نومه ونزلوا إلى الصالون فى الدور الأول من بيته لمحاولة تدبير كيف يكون التصرف بعده. وكان فى الغرفة مجموعة متباينة المواقف والأهداف، لكن مفاجأة ومأساة الرحيل رفعت الجميع إلى مستوى يستحق التسجيل. كان فى الصالون الصغير أنور السادات، وحسين الشافعى، وعلى صبرى، وشعراوى جمعة، وسامى شرف (سكرتير الرئيس للمعلومات)

ومحمد أحمد (السكرتير الخاص للرئيس) واللواء الليثى ناصف (قائد الحرس الجمهورى) وهيكل .

وتساءل السادات : ماذا نعمل الآن ؟

يقول هيكل: وكانت هناك فترة صمت ثقيل، وأحسست أننى أستطيع أن أتكلم، فقد كنت أمام الجميع من أقرب الناس إلى جمال عبدالناصر، ومن أبعد الناس عن صراعات السلطة، وقلت :

- إن أهم شىء الآن هو الاستمرار وأن نحاول قدر ما نستطيع ملء الفراغ بعده.

ثم قلت :

- لابد أن نختار رئيسا يتولى السلطة على الفور- ولو مؤقتا- ولابد فى اختيار هذا الرئيس أن نتبع قاعدة موضوعة سلفا، فليس الوقت ملائما لوضع قواعد جديدة ولا هو وقت فتح الباب لصراعات بين الأفراد، وإذا اتفقنا على ذلك فإن القاعدة الوحيدة التى أعتقد أنها تحكم موقفنا هى الاحتكام للدستور.

(ومعنى ذلك واضح وهو أن يتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية للمدة التى قررها الدستور- وهى ستين يوما- حتى ترشح الهيئات السياسية والدستورية من تشاء للرئاسة ثم تطرح اسمه للاستفتاء العام). والشىء الآخر الذى أراه ضروريا بعد ذلك أن نتصرف خطوة خطوة حتى لا نفتح الباب لمساومات وصفقات قد تكون خطيرة فى أثرها، وجمال عبدالناصر كان يشغل ثلاثة مناصب رئيسية: رئاسة الجمهورية، ورئاسة الاتحاد الاشتراكى، ورئاسة الوزارة، وإذا فتحنا ثلاثة أبواب الآن فقد نجد أنفسنا فى مآزق متشابكة، ولذلك فإنى أقترح أن تكون هناك خطوة واحدة فى الوقت الواحد، وقلت بالإنجليزية one step at a time وإذن ننتهى من انتخابات رئيس الجمهورية، ثم يجىء دور اختيار رئيس الوزراء، ثم يختار التنظيم السياسى رئيسه.

يقول هيكل: وأحسست أن أنور السادات استراح لما أقول، وللإنصاف فإن أحدا لم يعارض، كان الكل على مستوى المسئولية فى تلك اللحظة الحرجة، وواصلت كلامى

باقتراح أن ننتقل الآن إلى مكان آخر وأن نعقد اجتماعا مشتركا للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء، ومن هناك نعلن نبأ رحيل عبدالناصر على الأمة ثم نتخذ القرارات المطلوبة، وكنت قد أعددت بيان إعلان الرحيل واتصلت - كوزير للإرشاد- بأحد كبار المسئولين معى فى وزارة الإرشاد - وهو الدكتور عبد الملك عودة - أطلب إليه أن يوقف إذاعة البرامج العادية فى الراديو والتليفزيون، وأن تتحول جميع المحطات إلى إذاعة القرآن الكريم، وأدركت مصر أن شيئا قد جرى وأمسكت قلبها تنتظر مع خوف وقلق، وقرأت البيان على المجلس المشترك وأقره المجلس، واقترح أنور السادات أن أتوجه إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون، وقلت: والقول مسجل بصوتى فى أرشيف مجلس الوزراء لأن نظام التسجيل كان قد اعتمد رسميا من سنوات بدلا من محاضر مكتوبة- قلت: إننى أقترح أن يتولى السيد أنور السادات بنفسه إذاعة البيان لكى يعرف الناس أن انتقال السلطة قد تم بسلام، وإننى أتذكر من السوابق أن ظهور الرئيس جونسون بعد اغتيال الرئيس كنيدى ليعلن بنفسه وفاة سلفه وتوليه السلطة بعده كان مسألة بالغة الأهمية فى طمأنة الشعب الأمريكى إلى أن المسئولية الأولى فى الدولة انتقلت بثبات إلى مكانها السليم.

ووافق الكل، وقام الرئيس السادات معى وتركنا الاجتماع مستمرا يناقش قضية مهمة طرحت من أجل كفالة الاستمرار، وهى: هل يتولى الرئيس المؤقت سلطته لستين يوما أو نختار مرشحا على الفور ونعرض اسمه على الاستفتاء العام؟.. وكان واضحا أن الاتجاه الراجح يميل إلى الرأى الثانى من منطق تأكيد الاستمرار، وربما كانت هناك تصورات أخرى.

ووصلنا - الرئيس السادات وأنا- إلى مبنى التليفزيون وتوجهنا إلى مكتبى حتى يتم إعداد الاستديو الذى يذاع منه النبأ الصاعق، واكتشف الرئيس السادات أنه نسى نظارته على مائدة الاجتماعات فى قصر القبة، وسألته إذا كانت نظارتى تنفعه وجربها، وبالفعل ظهر بها وهو يقرأ البيان، واعتذرت عن عدم مرافقته إلى الاستديو،

وكان رأيى أنه لابد أن يظهر وحده على الشاشة.. وانتظرت حتى فرغ منه وعاد إلى مكتبى، وغادرنا معا مبنى التليفزيون- هو عائدا إلى قصر القبة وأنا إلى الأهرام.

□□□

يقول هيكل:

كانت الجنازة يوم أول أكتوبر ١٩٧٠ وفى يوم الثالث من أكتوبر كتبت للرئيس السادات استقالتى من الوزارة وبعثت بها إليه، وحاول ملحا إقناعى بالعدول عنها، وسهرنا ليلة حتى قرب الفجر فى مقره المؤقت فى ذلك الوقت- قصر العروبة، كانت وجهة نظره أنه فى حاجة إلىّ، ومن ناحية أخرى ماذا يقول الرأى العام إذا عرف أن أقرب الناس إلى جمال عبدالناصر استقال بعد ثلاثة أيام من رئاسة أنور السادات، وكانت وجهة نظرى أننى موجود تحت تصرفه، وأنا لا أستقيل إلا من الوزارة ولكنى باق فى الأهرام، وهناك مكانى الطبيعى.. وأضفت: وإننى ألمح من بعيد صراعات سلطة، فإن الكل بدأ يفيق من الصدمة، وفى الأهرام أستطيع أن أكون بعيدا عن الصراعات ثم إننى من هناك أستطيع- أكثر مما أستطيع فى الوزارة- أن أشارك فى حوار الحوادث والتطورات طليق اليد ومتحررا.

ونزل السادات عند رأى هيكل بعد أن لمس إصراره واشترط أن يبقى حتى يدير حملته الانتخابية للاستفتاء.. وقبل هيكل شريطة أن يكتب السادات ردا على استقالته من الوزارة وأن ينشر خطاب استقالته ورده عليها يوم ظهور نتيجة الاستفتاء واتفقا على ذلك، وبالفعل فى اليوم التالى لظهور نتيجة الاستفتاء وإعلانها نشرت استقالة هيكل ورد السادات عليها.

بعد الاستفتاء دعا السادات هيكل إليه فى قصر الطاهرة، وسأله فيمن يتولى رئاسة الوزارة، وقال له: كنت تقول خطوة واحدة فى الوقت الواحد، وكنت معك، والآن جاء وقت الخطوة الثانية، وهناك زحام على رئاسة الوزارة، وراح يعد أسماء المرشحين الذين رشحوا أنفسهم أو الذين رشحهم آخرون. فقال هيكل: إن رأيى أن الأصلح

لرئاسة الوزارة الآن هو الدكتور محمود فوزى، فأبدى السادات استغرابه وقال: إن فوزى بعث إلىّ باستقالة من اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى فى نفس اليوم الذى قدمت أنت لى فيه استقالتك، إلى درجة أننى تصورت أنكما قررتما تنسيق مواقفكما لما أعرفه من الصداقة التى تجمعكما.

وأكد هيكل للسادات أن ذلك لم يحدث، وأن الدكتور محمود فوزى وهو لم يكن بينهما تنسيق، بل إنه لم يعرف أن الدكتور محمود فوزى قدم استقالته قبل الآن. وسأل السادات: لماذا فوزى لرئاسة الوزارة فى هذه الظروف؟ فقال هيكل: لعدة أسباب، أولها أن البلد خائف الآن من احتمالات صراع السلطة، ووجود مدنى محترم مثل الدكتور محمود فوزى على رأس الوزارة علامة تدعو إلى الطمأنينة. وهو وجه معروف لأصدقائنا فى الأمم المتحدة ودول عدم الانحياز والعالم الأسيوى الإفريقى وهذا مهم، والدكتور محمود فوزى سوف يكون رئيس مجلس، لأنه بطبعه لا يحب الانفراد برأى، ولا يفرض قراراً على غيره بسلطة المنصب، أى إنه سوف يدير ولا يتسلط، فإذا كانت معه مجموعة قوية من نواب رئيس الوزراء للصناعة والزراعة والاقتصاد، فإنه يستطيع بإدارة مستنيرة أن يأخذ منهم أحسن ما لديهم. وقال السادات بحماسة: صح.. برافو يا محمد. ثم استدرك: لكن من الذى يقنع فوزى وأنت تعلم عزوفه وحرصه على الابتعاد؟ ثم أجاب عن سؤاله: ليس عندى غيرك. اذهب إليه واعرض عليه باسمى رئاسة الوزارة ولا تجئ إلى هنا إلا ومعك موافقته. واتصل هيكل بالدكتور محمود فوزى فى بيته قرب البدرشين يقول له: إنه فى الطريق إليه. وركب سيارته ومعه أحد البارزين فى وزارة الإرشاد فى ذلك الوقت وهو الدكتور أسامة الباز، وذهبا إلى بيت الدكتور محمود فوزى، ونجح المسعى وأصبح الدكتور محمود فوزى رئيساً للوزراء يحظى باحترام الرأى العام فعلاً.

كل ذلك يحكيه هيكل دليلاً على درجة القرب بينه وبين السادات فى تلك الأيام.

□□□

يقول هيكل إنه كان من بين اقتراحاته على السادات فى ذلك الوقت أن ينتهى من تصفية موضوع الحراسات مرة واحدة وإلى الأبد، وكان عبدالناصر قد بدأ خطوات على هذا الطريق، وبقيت خطوات أخرى لكى يتم طى صفحة من صفحات الماضى وإغلاقها، ووافق السادات على ذلك. وفى المرة التالية جاء هيكل للقاء السادات ومعه الدكتور جمال العطيفى- المستشار القانونى للأهرام وقتها- حتى يتولى وضع مشروع قانون تصفية الحراسات. وبعد أيام من إعلان مشروع القانون الذى أعده جمال العطيفى لإلغاء الحراسات وصل الأستاذ سعيد فريحه إلى القاهرة يقول لهيكل إن كثيرين من أصدقائه يرون أن الفرصة الآن سانحة لإعادة طرح موضوع الأستاذ مصطفى أمين على الرئيس الجديد خصوصاً وأنه بدأ يتجه إلى التخفيف بدليل إلغاء الحراسات. يقول هيكل: ورفعت سماعة التليفون أتصل بالرئيس السادات وكان فى بيته بالجيزة أقول له إن سعيد فريحة معى ويريد مقابلته.. وكانت إجابته على الفور: ليست لدى الآن ارتباطات.. هات سعيد معك وتعالوا إلى هنا فوراً. وذهبنا وبعد حديث عن لبنان قال سعيد فريحة: يا سيادة الرئيس.. إنك الآن تبدأ صفحة جديدة بعفو عام، فهل نطمع أن يشمل هذا العفو قضية مصطفى أمين؟ وانتفض السادات فى كرسيه وقال:

- جرى إيه يا سعيد.. عفو عام يشمل مصطفى أمين؟ أنا لا أعفو عن الجواسيس!

وفوجئ سعيد فريحة وسأل:

- ولكن يا سيادة الرئيس ما وقع فيه مصطفى أمين نوع من الخطأ. ونحن لا نجادل فيه..

وقاطعه الرئيس السادات:

ـ لم يكن نوعاً من الخطأ.. كان تجسساً.. بالعربى الفصيح تجسس.. ولو لم أكن واثقاً من الموضوع مائة فى المائة لأفرجت عنه من أول يوم. أنا أعرف تاريخ مصطفى حتى من قبل القبض عليه. وأنا بنفسى حذرت جمال، وحذرت هذا الأستاذ الجالس

هنا.. وسأل هيكل: ألم يحدث؟ فقال هيكل بحيرة: الحقيقة أننى لا أذكر. وراح السادات يذكره بيوم حذره فيه، وحسم الموضوع بنبرة بدت غريبة عليه قائلاً:

ـ سعيد.. أقفل هذا الموضوع ولا تفتحه معى أبدا..

ـ وقال سعيد فريحة لهيكل: مع جمال عبدالناصر كنا نستطيع أن نناقش.. وهذا الرجل قفل الباب على الفور.

□□□

يقول هيكل: بعد مرور سنوات طرأت على علاقته بالرئيس السادات مشاكل، وظهرت بينهما خلافات تعقد بعضها ووجدا لها حلا، واستحكم بعضها الآخر بغير حل..

ويعدد هيكل موضوعات الخلاف.. خلاف فيما قاله السادات عن سنة ١٩٧١ باعتبارها سنة الحسم - كما قال - ولم يرها هيكل كذلك لأكثر من سبب، وحتى لو كانت كذلك فلم يكن ينبغى الإعلان.

واختلف هيكل مع السادات فى الطريقة التى عالج بها مظاهرات الطلبة فى أواخر سنة ١٩٧١ ولم يكن يرى أن العنف هو وسيلة الحوار مع الشباب.

واختلف فى علاج موضوع الفتنة الطائفية، كان السادات يرى تفجير المشكلة، وكان هيكل يراها مشكلة لا تصلح فيها سياسة الصدمات الكهربائية، وإنما لابد من علاج حذر لأسبابها وعوارضها، ولجذورها قبل الفروع.

واختلف فى موضوع الوحدة مع ليبيا، مع أن هيكل كان من أنصارها لكنه رآها مختلفة عن تجربة الوحدة مع سوريا بسبب عنصر الاتصال الجغرافى والسكان، وباعتبارها عمقا للمعركة بثلاثة آلاف ميل على شواطئ البحر الأبيض، وكذلك فإن الثروة السائلة الليبية تتكامل فى الإمكانيات البشرية والطاقة الإنتاجية المصرية، وكان السادات يتهم هيكل بالانحياز للقذافى، مع أن هيكل لم يذهب إلى ليبيا منذ سنة ١٩٧٠ حين زارها فى صحبة جمال عبدالناصر.

يقول هيكل : ودفعا لأى تأويل اعتذرت عن أى اتصال بالرئيس القذافى منذ سنة ١٩٧٣ حين رأيته آخر مرة فى مكتبى بالأهرام، رغم دعوات مستمرة وبإلحاح.

واختلفا فى الطريقة التى بدأ السادات يجرى بها اتصالات خفية مع الولايات المتحدة عن طريق قناة اتصال خلفية.

واختلفا حول الصورة الجديدة لعلاقة السادات مع بعض عناصر فى السعودية.

واختلفا على الطريقة التى جرى بها إخراج الخبراء السوفييت من مصر.

واختلفا حين اعتذر هيكل عن إجراء مفاوضات سرية مع كيسنجر، وكان رأى هيكل أن موقفنا التفاوضى وقتها لم يكن قويا فى تقديره، ولأن هدف السادات من التفاوض لم يكن واضحا أمام هيكل.

واختلفا حين أصدر السادات قرارا بنقل ثمانين صحفيا إلى وظائف فى مصلحة الاستعلامات، وبينهم بعض أبرز أصحاب القلم ، ومن الأهرام كان من بينهم الأستاذ أحمد بهاء الدين، والدكتور يوسف إدريس، والدكتور لويس عوض، والأستاذ مكرم محمد أحمد، والأستاذ زكريا نيل، والسيدة أمينة شفيق، إلى جانب رئيس قسم المعلومات فى الأهرام الأستاذ محمود حمدى.. واعتذر هيكل عن عدم تنفيذ القرار فيما يتعلق بالأهرام، ووضع استقالته أمام السادات.. ثم جاء الخلاف الأكبر حول الإدارة السياسية لحرب أكتوبر، وراح هيكل يكتب رأيه بصراحة لا لبس فيها فى مجموعة مقالات من أكتوبر ١٩٧٣ إلى أول فبراير ١٩٧٤، وهذه كانت نقطة الانفجار، وصدرت هذه المقالات بعد ذلك فى كتاب بعنوان (عند مفترق طرق) والعنوان يكفى للدلالة على الموقف الذى اختاره هيكل.

□□□

وفى أواخر ديسمبر ١٩٧٣ طلب السادات أن يلتقى بهيكل، وكان اللقاء فى نادى الرماية بالهرم، وقال له إن مقالاته تحدث بلبلة فى الرأى العام العربى كله، وكان السادات قد غضب أشد الغضب من مقال بعنوان (أسلوب التفاوض الإسرائيلى)

وكان هذا المقال نقدا لأسلوب التفاوض المصرى. وقرأ الرئيس السادات المقال فى الطائرة أثناء رحلته إلى السعودية، وعاد من الرحلة وقد بلغت ثورته مداها.

وقال الرئيس السادات لهيكل: أنت لم تعد صحفيا، وإنما أصبحت سياسيا، ولا بد أن تترك الصحافة إلى السياسة.

يقول هيكل إنه كان من رأيه أنه ليس من حق الصحفى أن يناقش القرار السياسى فتلك مسئولية الرئاسة، وفى نفس الوقت فإن حرية الصحافة فى صميمها هى مناقشة طريقة صنع القرار ونتائج القرار، وأشار فى حديثه مع السادات إلى نماذج مما يكتبه الصحفيون من أوربا وأمريكا من أمثال: وليم ريس موج فى صحيفة التيمس البريطانية، وجيمس ريستون فى صحيفة نيويورك تيمس الأمريكية، وبن برادلى فى واشنطن بوست الأمريكية، فكان رد السادات: إننا لسنا مثل أوربا وأمريكا، وفيما بعد أثناء اعتقال هيكل رأس السادات اجتماعا للمجلس الأعلى للصحافة وتحدث فيه عن الصحفيين الذين يريدون تقليد الصحافة الأمريكية ويتصورون أن بإمكانهم أن يفعلوا فى مصر ما فعلته واشنطن بوست حين قادت حملة ضد الرئيس الأمريكى السابق ريتشارد نيكسون حول فضيحة ووترجيت أدت إلى خروجه من البيت الأبيض.

وفى لقاء نادى الرماية وضع الرئيس السادات أمام هيكل خيارين: إما أن يعمل فى الوزارة نائبا لرئيس الوزراء، أو فى الرياسة مستشارا للرئيس لشئون الأمن القومى. وكان رد هيكل: إن الرئيس يستطيع أن يقرر عدم بقائه فى الأهرام، ولكنه وحده يقرر ماذا يفعل بعد ذلك.

واعتبر الرئيس السادات أن هذا الرد يعنى أن هيكل يريد أن يملى عليه آراءه. وانتهى اللقاء الذى تحول إلى مشادة حامية وقد ترك الرئيس السادات له فرصة للتفكير.

يقول هيكل : فى هذا المناخ تلقيت مكالمة تليفونية من بيروت. وكان التليفون من الأستاذ على أمين الذى قال لى إنه يفكر فى القدوم إلى القاهرة. وبعد عدة أيام كان بالفعل فى القاهرة، وجاء لزيارتى فى الأهرام!

□□□

بعد جولة فى مبنى الأهرام الجديد وغداء فى الكافيتريا، وجه على أمين سؤالا إلى هيكل:

أين يستطيع أن يذهب طول نهاره، وجو الصحافة المصرية أوحشه، وهو لا يتصور أن يقضى طول يومه فى القاهرة فى فندق أو ناد، فقال له هيكل: إن الأهرام تحت تصرفه، وخصص له مكتبا بجوار مكتبه، وكانت سيارة هيكل تأتى به كل صباح، وكان على أمين يريد أن يحضر مع هيكل أكبر عدد ممكن من اجتماعات التحرير، وبعد أن خرج هيكل من الأهرام عين الرئيس السادات على أمين مديرا لتحرير الأهرام، وبعد فترة عينه رئيسا للتحرير.

□□□

كان السادات محتاجا إلى وجود هيكل إلى جانبه، كان محتاجا إلى من يفكر معه بعقل متفتح وبرؤية استراتيجية، كما كان محتاجا إلى القلم المؤثر الذى كان من أهم أسلحة حكم عبدالناصر، وكان هيكل- كصحفى- محتاجا لأن يكون قريبا من صاحب القرار وأن يكون فى الصورة لما يجرى من تطورات سياسية.. كان كلاهما يعلم أنه محتاج للآخر، وقام هيكل بأعمال لم يكن غيره يستطيع القيام بها.

على سبيل المثال، عندما ازداد ضغط مجموعة (مراكز القوى) على السادات وقرر التخلص منهم جميعا بضربة واحدة، كان القرار خطيرا لأنه كان تقريبا يقف وحده أمام القائد العام للقوات المسلحة، والأمين العام للاتحاد الاشتراكى ووزير الداخلية، ووزير الإعلام، وقيادات فى الاتحاد الاشتراكى لها تأثيرها فى الشارع كما كان متصورا، ولم يجد السادات من يقف معه سوى هيكل، بعد أن استمع إلى شرائط التسجيل

لمكالمات (مراكز القوى) وعرف منها أنهم قرروا الانقلاب عليه، ثم قدموا استقالة جماعية غير مسبوقة فى التاريخ كان هدفهم منها إحداث (فراغ دستورى) وتيقن السادات أنهم وضعوا أجهزة تسجيل فى بيته وعلى تليفوناته، لم يجد إلا أن يرسل إحدى بناته إلى هيكل لتقول له: بابا عاوزك دلوقت، وهمس السادات إلى هيكل بكل ما علم وما سمع وكان يريد أن يعرف موقفه، وأعلن هيكل للسادات بوضوح أنه مع الشرعية، وكان رأى السادات أن يعلن للشعب أنه اعتقل مراكز القوى، لأنهم كانوا يريدون الانقضاض على الحكم واغتصاب السلطة، وقال هيكل للسادات: إن الشعب سوف يرى الأمر مجرد صراع على السلطة، ولكن إذا قلت إنك تقبض عليهم من أجل الديمقراطية وإنهاء عهد الرقابة والتسجيلات والمعتقلات فستجد تأييدا شعبيا جارفا، وهذا ما حدث فعلا وكانت مشاهد إحراق ملفات وأشرطة تسجيل المكالمات وإمساك السادات بيده فأسا لهدم طوبة فى معتقل طرة، والحديث عن الديمقراطية فى مقالات هيكل.. كان كل ذلك كافيا لنجاح حركة ١٥ مايو١٩٧١، وكان هيكل هو الذى أسماهم مراكز القوى ومازالت هذه التسمية قائمة إلى اليوم ودخلت فى القاموس السياسى.

وكما كان هيكل هو الذى كتب لعبدالناصر فلسفة الثورة والميثاق الوطنى وبيان ٣٠ مارس وكل الخطب التى ألقاها، كان هو الذى تولى كتابة خطب السادات.

وحتى بعد خروج هيكل من الأهرام يوم أول فبراير ١٩٧٤ عاد السادات فى شهر أكتوبر من هذا العام فاتصل بهيكل، وبدون مقدمات قال له: إنه يريد أن يراه وحدد له موعدا فى استراحة الهرم، وذهب إليه.. كان مؤتمر القمة العربية فى الرباط على وشك أن يعقد، وكان هنرى كيسنجر يطوف بالمنطقة يحاول تحقيق مرحلة ثانية من فك الاشتباك بين القوات، وسأله السادات عن رأيه، واستمع إليه، ثم سأله: ما هى خططك فى العمل، فقال له هيكل: إنه على وشك الفراغ من إعداد كتاب عن حرب أكتوبر، وبعد ذلك يفكر فى كتابة مقالات لمجموعة من الصحف العربية تريد نشرها.. فقال له السادات: أنا لم أسألك عما تريد أن تفعله لنفسك، وإنما أسألك عما تستطيع أن تفعله

معي، ورد هيكل: إنني تحت تصرفك فيما تريد بعد أن أفرغ من كتابي وأعده نهائيا للنشر.

وقال له السادات: أنا أردتك مستشارا وأصدرت قرارا بذلك وأنت الذي لم تستجب.

قال هيكل: أنا تحت أمرك إلا فيما يختص بالمناصب والمراكز الرسمية والصحفية.. إلى آخره.

يقول هيكل: وراح الرئيس السادات يحاول إقناعي بتغيير رأيي فقلت: سيادة الرئيس دعنا نؤجل كل هذا الآن، لقد ابتعدت أنا عن الصورة من فبراير ١٩٧٤ حتى الآن، أطلب منك منصبا واحدا وعدني أن تعطيه لي، قال السادات بلهجته المألوفة: أنا لا أعطي وعدا على بياض.. قال هيكل: أعدك ألا أبالغ في طلباتي، فقال السادات: اطلب. قال هيكل: مكان ومكانة الصديق. وتظاهر السادات بالغضب وقال: هذه محاولة للهرب، قال هيكل: دعنا نجرب من جديد، لقد ابتعدنا ستة شهور لم نلتق فيها، وكان لي موقف من بعض ما حدث، وكان لك موقف، فإذا سمحت لي بمكان ومكانة الصديق، فإنني أستطيع أن أعود للتعرف على مجرى الأحداث، وقد نستطيع أن نصل إلى تفاهم أعمق.

يقول هيكل: وأشهد أنه كان ودودا في قبول رأيي، وهكذا.. عدت إلى الاقتراب منه ورحت أراه بانتظام، ونتكلم في كل شيء..

□□□

في تلك الفترة تابع هيكل عن قرب محادثات السادات مع كيسنجر في أسوان في محاولة للتوصل إلى المرحلة الثانية من فك الاشتباك، ولم تنجح هذه المباحثات، وكان رأي هيكل الذي قاله للسادات: إنه أقوى بغير اتفاق منه باتفاق سيئ، وهناك مخاطر فيما تعرضه إسرائيل، وتفهم السادات وقبل رأي هيكل.

وهيكل هو الذى كتب خطاب السادات فى مجلس الشعب الذى شرح فيه أسباب فشل الاتفاق، وقدم له فى إطار مشروع هذا الخطاب اقتراح فتح قناة السويس بقرار مصرى وبإرادة مصرية، وقال له: بهذا الاقتراح تستطيع بغير اتفاق أن تحصل على نصف ما تريد دون حاجة إلى شروط مجحفة، وقبل السادات هذا الرأى، وحين رأى أثر فتح قناة السويس على العالم كان بالغ السعادة.

وكان هيكل فى هذه الفترة يلتقى بالسادات كل يوم.

ثم كتب هيكل خطاب السادات أمام مجلس الشعب عن إعادة تنظيم العمل الداخلى.

وكان السادات يريد إسناد رئاسة الوزارة إلى ممدوح سالم، وفى يوم ١٠ أبريل ١٩٧٥ دعاه إلى العشاء معه فى استراحة القناطر، وعرض عليه منصب نائب رئيس الوزراء للإعلام مع ممدوح سالم، وحين حاول إبداء اعتذاره قال له السادات:

- تصور نفسك بعد كل ما كتبوه عنك عائدا نائبا لرئيس الوزراء للإعلام. سوف تدخل عليهم راكبا حصانا، وتستطيع أن تضع إصبعك فى عين من تشاء.!

وكان رجاء هيكل أن يترك له فرصة للتفكير.

ودعاه ممدوح سالم إلى مكتبه فى وزارة الداخلية فى اليوم التالى ١١ أبريل ١٩٧٥ يعرض عليه المنصب رسميا. واعتذر هيكل وقال:

- إن لى آراء مختلفة بشأن اتفاقيات فض الاشتباك والعلاقات مع الولايات المتحدة.. وتحدث عن ذلك بالتفصيل.. وقال بعد ذلك : إننى أرى حملة واسعة على جمال عبدالناصر، وأعتقد أنها ظلم تاريخى ولا أستطيع أن أشارك أو أسكت على هذه الحملة. فإذا أردت أن أتدخل فيها بالتراضى مع بعض رؤساء التحرير الحاليين ممن يقودون الحملة اصطدمت بما أعرفه من اتجاهاتهم ومصادر وحيهم. وإذا استعملت سلطة الرقابة فقد سقطت كصحفى، وما أسهل وقتها أن يقال: إننى تنكرت للمهنة

ووقفت ضد حريتها. والحقيقة أننى لا أعتبر ما يجرى حرية، وإنما أعتبر معظمه قصدا مقصودا وتنفيذا لأغراض فى نفس يعقوب.

وقال له ممدوح سالم: تصرف مع من تشاء كما تشاء.. لك مطلق الصلاحية فى إعادة ترتيب أمور الصحافة. قال هيكل : إننى لا أريد أن أتصرف مع أحد . ثم قال: إننى كبشر تستهوينى فكرة أن أعود وأضع إصبعى فى بعض العيون، لكن هذا الذى يستهوينى للحظة ربما يدعونى إلى الندم عمرا، وفى كل الأحوال فأنا أفضل أن أبقى مع الرئيس فى مكان ومكانة الصديق لا أكثر ولا أقل.

يقول هيكل: مع الأسف لم أستطع أن أبقى طويلا لا فى المكان ولا فى المكانة. كانت محادثات فك الاشتباك الثانى تجرى حثيثا، وكنت أرى أنه أسوأ اتفاق جرى، ومن ناحية أخرى ظهر كتابى (الطريق إلى رمضان) واعتبر الرئيس السادات أننى لم أعطه حقه، وكان هذا حكما بناه على بعض ما نشرته الصحف من أجزاء الكتاب، ورجوته أن ينتظر حتى يرى الكتاب كله، وطلب منى أن أجيئه أنا بالكتاب، فقلت له إننى لا أستطيع لأنه فى المطبعة، وهو يملك من الوسائل ما يسمح له أن تجىء بنسخة ! وازدادت عوامل التحريض ضد هيكل. وإذا بالرئيس السادات يتهمه فى كل خطبه بتهمة تزييف التاريخ.

بعد فترة اتصل السادات بهيكل ليطلب إليه أن يكتب مقالات فى الدفاع عن اتفاق فك الارتباط الثانى، وسأله هيكل أن يسمح له بالاطلاع على ملاحقه السرية، فرفض قائلا: لا توجد ملاحق سرية. قال هيكل: إننى قرأت لاسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل تصريحا أشار فيه إلى وجود ملاحق سرية، فقال له السادات: وهل تصدقنى أو تصدق رابين؟ وأجاب هيكل : بالطبع أصدقك.

قال السادات: إننى لا أريدك أن تدافع عنى، لا أريد من أحد أن يدافع عنى.. ولكن الدفاع المطلوب هو عن مصر التى يهاجمها ويتهجم عليها السوريون والفلسطينيون والعراقيون وغيرهم.

قال هيكل: إن هؤلاء فيما أظن يركزون هجومهم على الاتفاق وليس على مصر.

ونفد صبر السادات فقال: لا أريد فلسفة.. هل ستكتب أم لا؟

قال هيكل: أرجو أن يعفيني الرئيس من الكتابة.

وتصاعد غضب السادات وقال: «إن شالله ما كتبت.»

وأغلق سماعة التليفون. وتعطلت كل الخطوط في علاقاتهما.!

□□□

يقول هيكل: وعادت رياح الخماسين تهب أكثر ضراوة وسخونة. بدأت إحدى الصحف السعودية في لندن تنشر سلسلة مقالات لأحد الصحفيين المقربين من الأستاذين مصطفى وعلى أمين، تتهمني- أنا- بالعمل مع المخابرات الأمريكية. وفي ذلك الوقت كان الأستاذ مصطفى أمين في- غمرة الحملة على جمال عبدالناصر- قد رفع قضية على صلاح نصر يتهمه فيها بتعذيبه أثناء سجنه، وقال الأستاذ مصطفى أمين في عريضة دعواه إنه ذكر لي في حينه كما ذكر لمحاميه الأستاذ محمد عبد الله أنه عذب في السجن.

واستدعت المحكمة هيكل للشهادة، وحاول الاعتذار، فعاقبته المحكمة بغرامة ثلاثين جنيها إذا لم يحضر في الجلسة التالية، وكان ذلك يعني أنه إذا تخلف عن الشهادة قد يعرضه ذلك للسجن ثلاثة شهور بتهمة إهانة المحكمة .

وذهب هيكل. وشهد بأن الأستاذ مصطفى أمين لم يخبره بأنه عذب وكان محامي الأستاذ مصطفى أمين في قضية التخابر هو الأستاذ محمد عبد الله، وكان هو أيضا محاميا عن أحد المتهمين في قضية تعذيب الأستاذ مصطفى أمين. وطلب الأستاذ محمد عبد الله - وهو من أعلام القانون في مصر- التنازل عن صفته كمحام عن أحد المتهمين لكي يتمكن من الإدلاء بشهادته، ثم وقف أمام المحكمة يشهد بأنه كان محاميا

للأستاذ مصطفى أمين، وقابله فى السجن، وسمع منه كل شىء، ولم يسمع منه على الإطلاق أنه تعرض لأى تعذيب.

فى اليوم التالى قال هيكل للمحكمة :

- إننى أولا لا أدافع عن نفسي بالنسبة لما نشرته مجلة الحوادث بالإشارة إلى ثقة جمال عبدالناصر فى. فى ذروة صراعه مع الولايات المتحدة لم يكتف بأن يتركنى فى الأهرام رئيسا للتحرير ولمجلس الإدارة، وإنما أضاف إلى وزارة الإرشاد، وعضوية مجلس الأمن القومى، والقيام بأعمال وزير الخارجية فى نفس الوقت. لن أدفع بذلك. سوف أناقش ما قيل من أن خروشوف تحدث معى عن أموال أخذتها من المخابرات الأمريكية تحت غطاء أجر مقالات كتبتها فى صحيفة واشنطن بوست. أولا أنا لم أكتب فى حياتى كلها مقالا لصحيفة واشنطن بوست، وبالتالى لم أتقاض منها سنتا واحدا. وثانيا فيما يتعلق بخروشوف فقد دعانى سنة ١٩٦٤ إلى بيته فى يالتا لكى أرافقه طوال رحلته من يالتا إلى الإسكندرية- خمسة أيام فى البحر- حتى يستطيع أن يسألنى فيما يريد أن يتعرف عليه منى عن العالم العربى والإسلامى والأفريقى الذى يزوره لأول مرة بزيارته لمصر لحضور الاحتفال بإتمام المرحلة الأولى من السد العالى.

أما ما ذكر من كتابات مايلز كوبلاند، فإنه ليس بالرجل الذى تعتمد شهادته، فقد كان موظفا فى المخابرات الأمريكية ثم طرد منها، وحاول استغلال صلاته بالعالم العربى ليفتح مكتب استشارات فى بيروت. وفى هذه الفترة كتب إلى جمال عبدالناصر أكثر من ثلاثين خطابا وتقريرا يحاول إقناعه باستعمال خدماته وخبراته ويطلب فى مقابل ذلك مكافأة. ولم يرد جمال عبدالناصر على واحد منها. وهذا هو ملف كامل بهذه الخطابات!

وقدم هيكل إلى المحكمة ملفا يحوى خطابات مايلز كوبلاند إلى عبدالناصر.

وأضاف هيكل: إن هذه الكتب التى أخرجها مايلز كوبلاند حتى الآن كتابان: أولهما عنوانه (لعبة الأمم) والثانى عنوانه (بلا خنجر ولا عباءة). فى الكتاب الأول ذكر

اسمي فى معرض صداقتى لعبدالناصر مرة واحدة فى كل الكتاب. وفى الكتاب الثانى لم يأت ذكرلى على الإطلاق.

وترك هيكل لهيئة المحكمة الكتابين.

□□□

يقول هيكل إنه كان منذ خروجه من الأهرام يتجنب الصدام مع السادات، لأنه كان يتمنى أن يكون له دورحين تجيء المعركة لإزالة العدوان، وفعلا ابتداء من أوائل سبتمبر ١٩٧٣ إلى أن بدأت المعارك فى أكتوبر أصبح هيكل أقرب الناس إلى السادات، وكان شبه مقيم فى بيت السادات أو فى قصر الطاهرة الذى انتقل إليه - كمقر قيادة له - قبل بدء العمليات بيومين.

وطلب السادات من هيكل أن يكتب التوجيه الاستراتيجى الصادر منه إلى القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية الفريق أول أحمد إسماعيل على. وقد وقع السادات هذه الوثيقة فى أول أكتوبر ١٩٧٣. وقد سجل هيكل هذه الواقعة بعد ذلك فى محاضر تحقيق المدعى الاشتراكى فى صيف ١٩٧٨ فى حياة الرئيس السادات.

وطلب السادات من هيكل أن يعد أيضا تكليفا مكتوبا للفريق أول أحمد إسماعيل على ببدء العمليات، ووقعه يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣.

وهيكل هو الذى كتب للرئيس السادات خطابه أمام مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ وفى هذا الخطاب أعلن السادات خطته لما بعد المعارك بما فيها مقترحاته لمؤتمر دولى فى جنيف يجرى فيه حل الأزمة فى إطار الأمم المتحدة وقرار مجلس الأمن ٢٤٢.

يقول هيكل : وكانت هذه أكثر فترة أعطيت فيها من نفسى لأنور السادات. وحين جاء كيسنجر إلى المنطقة والتقى بالرئيس السادات يوم ٧ نوفمبر وجدتنى أمام لحظة يتحتم على فيها أن اقف - دون تردد - لأجعل صوتى مسموعا ومفهوما ثم ليكن بعدها ما يكون.

كان هيكل ما يزال رئيس تحرير الأهرام. ويدأ فى كتابة سلسلة مقالات فى الفترة بين ٥ أكتوبر ١٩٧٣ حتى أول فبراير ١٩٧٤، أى إنها بدأت قبل حرب أكتوبر بيوم واحد، وتوقفت بعد إتمام الاتفاق المبدئى على فك الارتباط الأول لأسبوع واحد. وحين جمعها بعد ذلك فى كتاب اختار عنوانه (عند مفترق الطرق) إشارة إلى أنه سيمضى فى طريق آخر غير طريق السادات - ويقول فى مقدمة هذا الكتاب: قبل كتابة ونشر هذه المجموعة من الأحاديث كنت قريبا من قمة السلطة فى مصر، ويعد كتابتها ونشرها أصبحت مبعدا عنها- ومقصيا- ورضيت. قبلها كنت أعيش وأكتب فى مصر، ويعدها أصبحت أعيش فى مصر وأكتب خارجها. وقبلت . وأثناء الكتابة والنشر تلقيت النصيحة تلو النصيحة بأن أتوقف .. وإلا، وكنت مستعدا لتحمل مسئولية (وإلا) وكان الرئيس السادات يراهن فى الضغط على بأوراق ثلاث. الأولى: أننى لن أطيق البعاد عن لعبة السياسة العليا فى مصر وقد كانت أصابعى فيها لأكثر من عشرين عاما، والقرب من لعبة السياسة العليا فى أى بلد فى العالم حالة يمكن أن تكون لها قوة الإدمان. والثانية: إننى لن أقدر على الفراق عن الأهرام. والثالثة: أننى لن أجد ما أعمله إذا ابتعدت.. وحاول السادات أن يترك الباب نصف مفتوح بعد الخروج ، وكان قراره الأول المنشور فى الصحف صباح يوم ٢ فبراير ١٩٧٤ أن أنتقل من الأهرام إلى قصر عابدين، ولخصت موقفى فى تصريح نشرته صحيفة الصنداى تيمس يوم ٩ فبراير ١٩٧٤ وقلت: (إننى استعملت حقى فى التعبير عن رأيى، والرئيس السادات استعمل سلطته).

وخرجت ولم أعد بعدها، ولا أظننى أريد أن أعود. لا أظننى أريد أن أعود إلى لعبة السياسة العليا، ولا إلى الصحافة- بما فيها الأهرام- مع أن الرئيس السادات بعد عروض أخرى بمناصب أكبر فى الدولة بينها منصب مستشاره للأمن القومى (كيسنجر بتاعى) أومنصب نائب رئيس الوزراء، عاد فقال لى فى ربيع سنة ١٩٧٥ إننى أستطيع أن أعود إلى الصحافة إذا أحببت، وفى أى مكان أريده، على شرط واحد، وهو أن (ألتزم) وكان ردى يومها:

- سيادة الريس، لا أتصور أنه فى مقدور أحد أن يلتزم خارج قناعته، ولا أظنك ترضى لى - وأنا لا أرضى لنفسى- أن أخرج بقرار ثم أعود بقرار. قد أخرج بقرار ولكنى أظل صحفيا بالمعنى الذى أفهمه، ولكنى إذا عدت بقرار فلن أعود صحفيا بالمعنى الذى أفهمه.. وأنا من المعجبين بالقول بأن التاريخ لا يكرر نفسه، وإذا فعل فإن المرة الأولى تكون دراما مؤثرة، وأما المرة الثانية فإنها تصبح ملهاة مضحكة، وإذا عدت إلى الأهرام فسوف أجدنى مترددا فيما أفكر واكتب أتلفت إلى ما وراء ظهرى محاولا تأمين نفسى.. وذلك شىء لا أريده، ولست فى حاجة إليه.

علاقة هيكل بالسادات علاقة معقدة.. فيها القرب والبعد.. الثقة والشك.. الصعود والهبوط.. ولم تكن أبدا مثل علاقته بعبدالناصر. وهذا يؤكد صحة القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه..

من الجنة إلى النار !

منذ زيارة كيسنجر للقاهرة يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣ بلغ التوتر ذروته فى العلاقة بين الرئيس السادات وهيكل، وكان كسينجر قد أجرى فى هذه الزيارة محادثاته السرية مع السادات. وكان هيكل حين يلتقى بالسادات يلتزم بحدود الاستماع إلى ما يقوله السادات ويبدى رأيه فى حدود ما هو مطلوب منه دون أن يسأل عما يجرى.

وفى مقابلة يوم ٢١ يناير ١٩٧٤ قال له الرئيس السادات: إنه قرر الإفراج عن بعض قادة الطيران الذين حوكموا بعد سنة ١٩٦٧ وبينهم الفريق صدقى محمود، وإن حسنى (يقصد الرئيس حسنى مبارك وكان قائدا لسلاح الطيران فى حرب أكتوبر).. جاءنى وقال لى: إن (الأولاد) فى الطيران يطلبون من سيادتك مكرمة لن ينسوها وهى الإفراج عن صدقى محمود، فهم يعتبرونه أستاذهم، وعلى أية حال فإنهم فى حرب أكتوبر سددوا كل ديون الطيران من حرب ١٩٦٧ ووافقت، ولا تتصور سعادة حسنى وسعادة الأولاد فى الطيران.

ثم تحدث السادات عن هنرى كيسنجر مبديا إعجابه به، ثم يلوم هيكل على شكوكه فيه وقال له: إن هذا الرجل هو الشخص الوحيد فى العالم الذى يستطيع أن يقول لهذه المرأة (يقصد جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل) اخرجى.. فلا تستطيع أن ترد له أمرا.

وأبدى هيكل رأيه مختلفا عن رأى السادات، وأبدى السادات ضيقه، وسأل هيكل: إننى قرأت فى بعض التقارير الصحفية أن كيسنجر أقنع الرئيس السادات بإرسال خطاب مكتوب إلى جولدا مائير، وهذا- لو صح- خطير.. ورد السادات على الفور: أنا لم أكتب لها خطابا، هى التى بعثت إلىّ برسائل شخصية عديدة مع هنرى.. طلباتها لا تنتهى هذه المرأة، ولكنى لن أعطيها الفرصة لتراوغ.. إنى أطاوعها فيما تطلبه حتى أجعل من الصعب عليها أن ترفض ما أطلبه.

وواصل الرئيس السادات كلامه:

- الآن تريد منى أن أفرج عن كل المسجونين عندى من جواسيس إسرائيل.. غريبة إنها تلح بشدة على الولد مزراحى.. لابد أنه كان مهما جدا بالنسبة لهم.. تصور هى أيضا تريد أن تأخذ جثث الأولاد الصهاينة الذين قتلوا لورد موين سنة ١٩٤٥ فى القاهرة.. ركبت رأسها مع هنرى وصممت عليها.

واستمر الرئيس السادات:

- طبعا هنرى استغل الفرصة بالمرة وطلب منى هو الآخر أن أفرج عن عدد من الأشخاص حكم عليهم فى قضايا تجسس لصالح المخابرات الأمريكية.. على أية حال لن (أوجع رأسى) بهؤلاء جميعا.. سوف (أعطيهم لهم) وأخلص نفسى.

ثم سأل:

- ما رأيك فى الإفراج عن مصطفى أمين؟.. ألم تطلب منى أكثر من مرة أن أفرج عنه؟.

ولاحظ السادات علامات الدهشة على ملامح هيكل فاستطرد:

- لماذا تشعلق حواجبك من الدهشة هكذا؟. إنهم يطلبونه.. وأنا أريد أن أجاملهم فيه.

وسأل هيكل:

- من هم؟.

وأجاب السادات:

- كثيرون.. الأمير سلطان طلبه منى.. وكمال أدهم أيضا.

وسكت لحظة ثم استطرد:

- .. ولماذا لا أجامل الأمريكان فيه؟

وقال هيكل:

- الأمر لك بالطبع.. وإن كنت أخشى من أن الإفراج عنه فى هذا الإطار الذى كنت تتكلم عنه فيه إساءة إليه.. فلما لا تجعل فاصلا أسبوعا أو أسبوعين بين الإفراج عنه والإفراج عن كل هؤلاء الذين طلبتهم جولدا مائير وهنرى كيسنجر؟. إننى جئت الآن وكان فى نيتى أن أنقل إليك رسالة من على أمين يرجوك فيها الإفراج عن توأمه وهو على استعداد لأن يأخذه من باب السجن إلى باب طائرة تذهب بهما إلى أى مكان خارج مصر.

قال السادات بسرعة:

- عال.. يأخذه (ويغوروا)!

ولاحظ السادات أن هيكل لم يكن مستريحا لمجرى المناقشة فنظر إليه بنصف ابتسامة ونصف عين وقال:

- أنت تدعى أنك تفهم فى السياسة، وأنا أقول لك العكس.. لو أنك كنت تفهم فى السياسة لوافقتنى على ما قلت.. من الأفضل الإفراج عن مصطفى أمين ضمن هذه الصفقة حتى لا يتجاسر يوما ويفتح فمه، وإذا فتحه فإنا نقدر نضربه بـ (.. ..)!

□□□

يقول هيكل: إن الرئيس السادات طبق نظريته فيما بعد، حين أحس بعد عودة الأستاذ مصطفى أمين إلى الكتابة فى عمود فكرة الذى كان يكتبه على أمين قبل رحيله، أحس السادات أنه خرج عن الخط فيما يكتبه، فأصدر أمرا بالتليفون بمنعه من

الكتابة، ورفع اسمه من قوائم تلقى التبرعات فى دار أخبار اليوم، وظل قرار الوقف نافذا حتى ليلة زفاف ابنة الرئيس السادات الصغرى إلى نجل المهندس عثمان أحمد عثمان، وجاء بعض أفراد الأسرة بالأستاذ مصطفى أمين يهنئ الرئيس السادات فأشار السادات بيده بما يعنى أن عفوه صدر. وعاد الأستاذ مصطفى أمين يكتب (فكرة) من جديد، ولكن اسمه لم يعد إلى قوائم تلقى التبرعات إلا بعد رحيل السادات بشهور. وبدأ الأستاذ مصطفى أمين بعد رحيل السادات أيضا يكتب بقوة عن الديمقراطية.

وفى يوم ٢٧ يناير أصدر الرئيس السادات قرارا بالإفراج الصحى عن الأستاذ مصطفى أمين.

يقول هيكل: فكرت طويلا كيف ننشر الخبر وبماذا نعلق عليه، وكتبت بنفسى تعليق الأهرام الذى صدر يوم ٢٨ يناير ١٩٧٤ وكان نصه:

إن الصحافة المصرية تتلقى القرار بالإفراج عن الأستاذ مصطفى أمين بعرفان بالجميل عميق.. ذلك لأنه لا جدال فى أن الدور الذى قام به الأستاذان مصطفى أمين وعلى أمين هو حلقة فى حياة وتطور مهنة الصحافة فى مصر، وهذه المهنة قدمت ومازالت تقدم لهذا الوطن وهذه الأمة جهدا عظيما أسهم ويسهم بطريقة مؤثرة فى تشكيل فكرها وحركتها.

ويقول هيكل: إنه مر على بيت الأستاذ مصطفى أمين يهنئه بالإفراج عنه، فاستقبله مصطفى أمين بالأحضان، لكنه شعر أنها أحضان (ميكانيكية) وسأله عن على أمين فقال له: إن على (تضايق) عندما قرأ تعليق الأهرام اليوم، فقد تحدث عن دورنا فى الصحافة بالفعل الماضى.

مساء يوم ٣١ يناير ذهب هيكل لوداع فرنسوا ميتران فى المطار، وكان هيكل قد دعاه لزيارة مصر، وعاد إلى الأهرام فى الليل، ثم ذهب إلى بيته، وهناك أبلغ أن الرئيس السادات أصدر قرارا بتعيينه مستشارا له، وتعيين الدكتور عبدالقادر حاتم رئيسا لمجلس إدارة الأهرام.

وفى الصباح - أول فبراير- دعا هيكل الدكتور حاتم إلى الأهرام لكى يتسلم كل شيء فيه، وكان رأيه أن من اللائق بالأهرام وبه أن يتم انتقال متحضر، وجمع هيكل مجلس الإدارة ومجلس التحرير ومجلس النقابة، وقدم لهم الدكتور حاتم باعتباره المسئول الجديد، وسلمه تقريرا من الكمبيوتر عن اقتصاديات الأهرام وتوزيعه وأرباحه، ثم غادر المبنى لآخر مرة عارفا أنه لن يعود إليه مرة أخرى مهما حدث أو يحدث.

□□□

ما أزال أذكر هذا اليوم.. أول فبراير ١٩٧٤ دخلت الأهرام حزينا فوجدت الحزن يخيم على الجميع، كأن صاعقة أصابت رءوسنا جميعا.. وجوم.. وعيون زائغة.. وتوتر مكتوم.. وعيون فيها دموع.. وشعور عام بعدم التصديق بأن يأتى يوم على الأهرام وليس فيه هيكل.. ثم شعور بالحيرة.. ماذا نفعل؟.. وماذا يمكن أن نقول له؟.

طلب منا هيكل الاجتماع به على مائدة الدسك المركزى فى قلب صالة التحرير، وجاء بخطواته السريعة القوية المعتادة، وألقى تحية الصباح بسرعة كعادته، ودخل فى الموضوع مباشرة، وتحدث إلينا حديثا قصيرا وهو يدخن السيجار دون أن تظهر عليه علامة حزن أو توتر، وقال: إن الأهرام لابد أن يستمر. وإلا فإنه يكون قد فشل فى بنائه كمؤسسة لا تقوم على فرد مهما كان.. وفى الأهرام كوادر قادرة على إدارة شئونه بكفاءة ومقدرة.. وأنه يثق أننا جميعا سوف نقدر الموقف ونتحمل المسئولية ونتعاون مع الدكتور حاتم.

وخرج من الجنة!.

□□□

واتصل به السيد عبدالفتاح عبدالله وزير شئون رياسة الجمهورية وقتها يبلغه أنه أعد له جناحا من خمس غرف فى قصر عابدين، ويسأله متى ينوى الحضور؟، وهل له طلبات فيما يتعلق بمكتبه؟، وهل يريد انتداب سكرتارية له من الأهرام للعمل معه فى رياسة الجمهورية؟.. وقال له هيكل: إننى لن أذهب إلى عابدين.. قال الوزير: ولكن

سيادة الرئيس أصدر قرارا. وقال له هيكل: هذا حقه، ويبقى بعده حقى أن أقبل أو لا أقبل.

يقول هيكل: وتقاطر على بيتى بعد الظهر عدد من كبار المسئولين بينهم أصدقاء لى وأصدقاء للرئيس السادات، يحاولون إبقاء الجسور مفتوحة وأول فتحها أن أذهب غدا إلى عابدين.. وبقيت على رأيى، وبعث إلىَّ الرئيس السادات بواسطة صديق مشترك للطرفين ما يكاد يكون تحذيرا نهائيا، صباح يوم ٢ فبراير (إذا لم أستجب وأنفذ قراره وأتسلم عملى فى عابدين فهو إذن خصام إلى الأبد.. وأنه صبر علىَّ وقد خالفته كثيرا، وعارضته حوارا وكتابة، وأردت أن أفرض عليه آرائى، وقد قبل منى أكثر مما قبل من غيرى، لكن علىَّ أن أدرك أنه الرئيس، وأنه وحده صاحب الحق فى القرار. وإن كثيرين قبلى خرجوا من الصحف ثم عادوا إليها، وهذا يمكن أن يحدث لى، والكل يعرف أننى لاأتحمل فراق الأهرام بعد أن فعلت له كل ما فعلت.. وأن الرئيس غاضب.. ويقول: إنك حولت فى كتاباتك هزيمة ١٩٥٦ إلى نصر، بينما تصف قيمة حرب أكتوبر بأنها نصف انتصار.

□□□

ومساء نفس اليوم أصدر الرئيس أنور السادات قرارا بتعيين الأستاذ على أمين مديرا لتحرير الأهرام، وطبقا لسجلات الأهرام فإن الأستاذ على أمين حين دخل إلى مكتبه الجديد طلب ثلاث مكالمات تليفونية مع الخارج، منها اثنتان للسعودية، واحدة للرياض، والثانية لجدة، وكانت المكالمة الثالثة للندن.

ومازلت أذكر هذه الأيام..

كان أسلوب إدارة الأستاذ على أمين للتحرير مختلفا عما تعودنا عليه فى الأهرام، وظهر فى أحد برامج التليفزيون وسئل: ماذا ستفعل للأهرام؟ فأجاب: سأجعله يلبس ملابس داخلية.. وكانت هذه العبارة عود الكبريت الذى أشعل الغضب بين جميع المحررين الكبار والصغار، وسادت صالة التحرير والمكاتب حالة من الانفعال

لم يسبق لها مثيل، ولم يجد الدكتور حاتم بدا من دعوة الجميع لاجتماع فى صالة التحرير، ولأول مرة يحتشد مئات من المحررين والإداريين والعمال.. وحاول الدكتور حاتم أن يهدئ الشاعر ويقول: إن الأستاذ على أمين لم يقصد الإساءة إلى الأهرام وإلى من فيه وإنه يحمل لهم التقدير، ولكن الكلمات تبددت وسط صياح وصراخ.. ووقف لطفى الخولى يقول بصوته الجهورى: هذا الموقف مرفوض. وهذا الكلام مرفوض. وإذا كان الأستاذ على أمين يريد منا أن نلبس ملابس داخلية فعليه أن يفعل ذلك أولاً، واستمر فى حديث عن كرامة الصحافة والصحفيين، وعن مكانة الأهرام ومحرريه، ثم وقف محمد سيد أحمد هو الآخر ولأول مرة أرى وجهه محتقنا وصوته عالياً يرن فى الصالة وتحدث آخرون بانفعال، ولولا حكمة الدكتور حاتم لحدث ما لا يحمد عقباه.. وانتهى الاجتماع بكلمات اعتذار من الأستاذ على أمين. وكانت بداية غير موفقة. وكانت نتائجها غير سارة. وإن كنا قد حاولنا أن نتلاءم ونعمل حرصاً على الأهرام.

□□□

بعد هذا الاستطراد من جانبى أعود إلى رواية هيكل، يقول: كان الأسبوع الأول من فبراير ١٩٧٤ بحراً هائجاً فى حياتى. كانت صحف العالم تعتبر خروجى من الأهرام موضوعاً رئيسيا، وفى يوم واحد كانت افتتاحيات أربع من الصحف الكبرى تركز عليه: اللوند الفرنسية، والتيمس البريطانية، وواشنطن بوست الأمريكية ودى فيلت الألمانية، وكان ذلك يثير غضب الرئيس السادات وحفيظته، وهو ما كنت أتجنبه. وكانت هناك روايات تناقلتها وكالات الأنباء بينها أن هنرى كيسنجر كان سبباً رئيسياً من أسباب خروجى من الأهرام لأنه احتج على معارضتى العلنية لاتفاق فك الارتباط، وبالفعل فقد رأيت رسالتى احتجاج فى برقيات شفرية بعث بها كيسنجر إلى الرئيس السادات: واحدة من بكين وكان يزورها، والثانية من واشنطن بعد أن عاد إليها، وفيما بعد لمح اثنان من الكتاب السياسيين - أحدهما أمريكى إسرائيلى هو أموس برلوتى وكتب مقالاً فى مجلة الشئون الخارجية، وثانيهما هو إدوارد شيهان فى كتابه عن الاتصالات

السرية لمفاوضات فك الاشتباك، وكلاهما نشر فى صيف ١٩٧٦ إلى أن كيسنجر كان له دور فى خروجى من الأهرام ولم يؤثر ذلك فى علاقتى بعد ذلك بهنرى كيسنجر، فقد اعتبرت أننا كنا طرفين فى صراع مصالح متناقضة، كان هو يفكر ويتكلم لما يراه صالحاً للولايات المتحدة، وكنت أنا على الطرف النقيض بالطبع. ولم يضايقنى ذلك، وإنما تذكرت مؤتمراً صحفياً للرئيس السادات فى مبنى الاتحاد الاشتراكى يوم ١٨ يوليو ١٩٧٢ حضره كل رؤساء تحرير الصحف المصرية فى ذلك الوقت قال فيه إن الرئيس السوفيتى بادجورنى طلب منه سنة ١٩٧١ إخراجى من الأهرام لأننى معاد للسوفييت. ولم أشعر أن شيئا من ذلك - مهما كانت درجة الصدق فيه- مما يؤثر فىَّ أو فى نظرتى للأمور. لا اعتراض بادجورنى علىَّ يؤثر فى إيمانى بأهمية العلاقات المصرية السوفيتية، ولا اعتراض كيسنجر علىَّ يؤثر فى اعتقادى بأن مقاطعة الولايات المتحدة خطأ وخطر.

وفى نفس الوقت راحت الأنباء تربط اسمى بعروض لإنشاء دور صحفية خارج مصر، وكان بعض هذا صحيحا، ولكنى كنت قد استبعدت ذلك الخيار تماماً من قائمة ما هو متاح أمامى الآن وغداً وبعد غد.

وكانت الأمور تتعقد فى الأهرام بصرف النظر عن أية محاولات للتهدئة، فإن الأستاذ على أمين كان يتصرف باندفاع، وكان فى حاجة إلى أن يعطى نفسه فرصة ليتعرف على تطورات ضخمة حدثت فى غيابه، وأصبحت الجريدة فى الصحافة الحديثة مؤسسة، والأهرام فى السبعينات كان تركيبة تختلف تماماً عن تركيبة أخبار اليوم فى الخمسينات. وظهرت بوادر صدام بينه وبين كل من فى الأهرام. وأراد الرئيس السادات أن يقطع ويحسم وأن يظهر تأييده للوضع الجديد فى الأهرام- بصرف النظر عن آراء ومواقف كل العاملين فيه - فأصدر فى ٨ فبراير ١٩٧٤ قراراً بتعيين الأستاذ على أمين رئيسا لتحرير الأهرام، ولم يهدأ الصدام .. بل انفجر حتى اضطر الرئيس السادات فى شهر مايو أن ينقل الأستاذ على أمين من الأهرام ويعيده إلى أخبار اليوم رئيساً لمجلس إدارتها ومعه الأستاذ مصطفى أمين رئيساً للتحرير.

□□□

يقول هيكل: وبدأت حملة شعواء على جمال عبدالناصر وعصره، ابتداء من اتهامه بقتل الدكتور أنور المفتى لأنه اكتشف (جنونه)! إلى (كارثة) السد العالى، ومصائب التصنيع، ونكبات القطاع العام، واستعمار الاتحاد السوفيتى لمصر، والسفه فى مساندة حركات التحرير فى العالم العربى وإفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى آخره، ثم الصورة المخيفة التى رسمت لقضايا الحريات وبدت مصر فيها كأنها جزء لا يتجزأ من عصر النازى، وإن كانت هناك بالتأكيد تجاوزات فى استعمال السلطة، ولكن الذى تصدى لهذه التجاوزات كان هو الأهرام وليس أية صحيفة مصرية أخرى.

ويقول هيكل إنه هو الذى كتب عن زوار الفجر، وعن المجتمع المفتوح، وعن سيادة القانون، وعن مراكز القوى، وفى نقد قرارات الاعتقالات والحراسات والفصل - على رغم أن بعضها كانت له دواعيه الاجتماعية - وكان الدكتور جمال العطيفى هو الذى كتب عن سيادة القانون، وكان الأستاذ توفيق الحكيم هو الذى كتب قصة بنك القلق عن المخابرات، وكان الأستاذ نجيب محفوظ هو الذى كتب ثرثرة فوق النيل عن الاتحاد الاشتراكى. ولم نكتب ذلك كله بعد أن انتهى العصر، بل كتبناه أثناء ذلك. ويضيف هيكل: وسوف أكون سعيداً إذا أبرز أى من هؤلاء الذين يتكلمون اليوم مقالاً كتبه ونشر.. أو مقالاً كتبه وحذفته الرقابة عن أى من هذه الموضوعات.

□□□

ويقول هيكل: لم أكن أريد أن أكون طرفاً فى شىء مما رأيته يهدر أمامى متدفقاً كحمم البركان، ولم يكن بى خوف على الحقيقة، وعزلت نفسى فى مكتبى وفى بيتى، وركزت جهدى كله فى كتابة (الطريق إلى رمضان) وكان كتاباً عن مصر من أعقاب سنة ١٩٦٧ إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

ومضت أيام وأسابيع.. ثم فوجئت بمجلة الحوادث اللبنانية - التى تصدر فى لبنان - تبدأ فى نشر سلسلة من التحقيقات عنوانها (ماذا فعل الطريد هيكل بالشريد على أمين؟).. كنت أعرف أن مجلة الحوادث فى ذلك الوقت تنطق بلسان جماعات

معينة فى العالم العربى لها اتجاهات ومصالح وارتباطات لسبب واحد وهو أن صاحبها الأستاذ سليم اللوزى لقى مصرعه فى ظروف مأساوية تثير غضباً حقيقياً فى نفس أى إنسان. لكن بعض ما حوته السلسلة لفت نظرى، وكان واضحاً أن مصدره الأستاذ مصطفى أمين، مثل إننى كنت وراء قانون تنظيم الصحافة لكى أسيطر على المهنة، وإننى قمت بنفى على أمين إلى لندن، وإننى تخليت عن مصطفى أمين وعلى أمين بعد القضية ولم أقف معهما، وإننى كنت أزوره فى السجن لمجرد أن أتشفى فيه، وإننى وجدت عملاً فى الأهرام لابنته لكى أتظاهر أمام الناس لا أكثر ولا أقل. ثم زاد العيار مع قرب نهاية السلسلة فإذا أنا تواطأت على الأستاذين مصطفى وعلى أمين، وأنا الذى لفقت التهمة للأستاذ مصطفى أمين، وأنا الذى عارضت الإفراج عنه طول الوقت وآخره مع الرئيس السادات على رغم أنه كان مقتنعاً طول الوقت ببراءة الأستاذ مصطفى أمين.

يقول هيكل: لم أغضب، ولكن الذى غضب وثار هو الأستاذ سعيد فريحة، وكان شاهداً على كل ما حدث، بل كان شريكاً فيه، فكتب فى الصفحة الأولى من صحيفة (الأنوار) تفاصيل ما رآه بعينه: دفاعى عن مصطفى أمين أمام جمال عبدالناصر وأمام أنور السادات، وذهابى إلى السجن ومعى الأدوية والفيتامينات وصناديق التفاح وعلب الدجاج، والمشاكل الكبرى التى تعرضت لها فى ذلك الوقت حتى كادت بعض الشبهات تلحق بى أنا الآخر.

واتهم سعيد فريحة بأنه ينافق هيكل، فكتب يقول: إننى أعرف مصطفى قبل أن أعرف هيكل بخمسة عشر عاماً، وإذا كان الأمر نفاقاً فلماذا أنافق رجلاً يلزم بيته ولا أنافق هؤلاء الذين يسيطرون على مواقع القوة والنفوذ؟. وأبلغنى الأستاذ سعيد فريحة أنه يضع إمكانات داره تحت تصرفى لكى أكتب الحقيقة التى كان شاهداً عليها. واعتذرت. وحينما جاء الأستاذ سعيد فريحة بعد ذلك فى زيارة للقاهرة سألنى: هل تتصور أنهم يؤكدون أن الرئيس السادات قال لهم إنك عارضت فى الإفراج عن

مصطفى حين أخبرك به، ورويت له تفاصيل ما حدث، وإننى ناقشت الرئيس السادات فى توقيت الإفراج عن مصطفى لكيلا يبدو خروجه ضمن صفقة الإفراج عن جواسيس لأن هذا يسىء إليه مدى العمر إذ يثّبت عليه التهمة نهائياً.

□□□

فى أواخر سنة ١٩٧٤ والنصف الأول من ١٩٧٥ توقفت الحملة، فقد عادت الصلات بين هيكل والسادات. وعاد يكتب خطب السادات ثم ساءت العلاقات مرة أخرى عندما رفض هيكل الدفاع عن اتفاق فك الاشتباك، وبدأت الحملة على هيكل مرة أخرى، وكان هيكل يكتب مقالات منتظمة تنشرها مجموعة من الصحف العربية خارج مصر. أولها سلسلة ظهرت فى كتاب عنوانها (لمصر لا لعبدالناصر) وسلسلة أخرى صدرت فى كتاب بعنوان (حديث المبادرة).

وبدأ الرئيس السادات يعد قانون العيب، وأطلق عليه بعض المستشارين المكلفين بمراجعته اسم (قانون هيكل). يقول هيكل: حاول الرئيس السادات أن يدفعنى إلى الهجرة من مصر، ولم أهاجر، بل إننى لم أسافر من مصر سنة كاملة حتى أكون تحت تصرف أى قانون حتى لو كان مفصلا من أجلى ورغم النذر التى أحاطت به طوال عام ١٩٧٧.

□□□

كان هيكل فى زيارة إلى لندن فى أوائل شهر نوفمبر ١٩٧٧ وأقيم له عشاء وداع بمناسبة انتهاء الزيارة حضرها عدد من المشتغلين بالسياسة والدبلوماسية والصحافة. وسأله (جوردون بروك شيرد) مدير تحرير صحيفة (صنداى تلجراف) إذا كان مصمما على العودة غدا إلى القاهرة، وكان رده بالإيجاب وقال له: لقد غبت عن وطنى منذ شهرين، وهذا أقصى ما أطيقه على الفراق، وكان رأى جوردون بروك شيرد أنه لا يجد ضرورة ملحة لذلك فى الوقت الراهن على الأقل لأن كل المعلومات من القاهرة عن هيكل تبعث على القلق، وهناك ضيق مما يكتبه وما يبديه من آراء، وهناك تحريض

عليه وتربص به. ثم سأله جوردون بروك شبرد إذا كان يقبل الاحتكام إلى تصويت يقوم به الجمع من الأصدقاء الحاضرين وكلهم يعرفون الظروف، وقال هيكل: مع كل العرفان لأصدقائى فأنا أمام قضية لا يمكن الاحتكام فيها إلى غير مشاعرى وضميرى.. وماذا يتبقى من شجرة تخلع من تربتها؟.. لوح خشب! فقال له جوردون بروك: ولماذا لاتذهب إلى بلد عربى آخر.. ألست تعتبر نفسك قوميا عربيا؟ وتقول: إن أرض الأمة العربية كلها وطنك، وفى أى بلد عربى تتفق أفكاره مع أفكارك سوف تظل جذور الشجرة فى تربتها دون أن تتحول إلى لوح خشب. وقال هيكل: إن عالمنا العربى ما زال تحت تأثير المنطق القبلى، وما زال محكوما بالولاءات لأفراد.. ربما كانت تلك ظاهرة موجودة فى العالم كله، ولكنَّ هناك اختلافا.. عندكم فى بريطانيا مثلا فى مواجهة قضية السلام والحرب التى كانت مطروحة سنة ١٩٣٩، كان هناك فريق منكم مع نيفل تشمبرلين بالقول بالسلام بأى ثمن، وفريق آخر مع ونستون تشرشل بالحرب من أجل السلام. فى الدول المتقدمة الأفراد رموز لمواقف، أى إن العنصر الذاتى تعبير عن حالة موضوعية، وذلك لم يرسخ بعد فى عالمنا.. أنت مع هذا الفرد الحاكم أو أنت مع غيره، وأنت مع هذا أو مع غيره فى كل مواقفه حتى إن اصطدمت بعض مواقفه مع قناعاتك. إى إن الولاء ليس فرديا فقط، ولكنه إلى جانب ذلك ولاء مطلق، وهذا أكثر مما أطيق، فأنا أريد أن أكون موضوعيا ضمن قناعاتى، وذلك صعب، أو شبه مستحيل فى العالم العربى، وما دام الأمر كذلك فإن وطنى أولى بالبقاء فيه مهما تكن الظروف، خصوصا إذا كان هذا الوطن هو مصر.

ويقول هيكل: إننى لست متحمسا لدور اللاجئ السياسى، وربما يصلح لهذا الدور رجل يحترف السياسة فيختار اللجوء إلى خارج وطنه لبعض الوقت معتمدا على تنظيم يستند إليه داخل هذا الوطن، لكننى لست ذلك الرجل.. ليس هذا دورى.. ولا هو دور أريده.. إنما دورى الذى أريده هو دور صحفى لديه رؤية، وله رأى، وهذا هو كل شىء.

ولم يقتنع جوردون بروك بما قاله هيكل وسأله: وهل تستطيع أن تكتب؟. ورد هيكل: هناك حدود، وفى هذه الحدود أحاول، وأعرف أن ما أكتبه يحجب عن القارئ

فى مصر. ومع ذلك يبقى الكلام فى مصر ومن مصر ضروريا.. لأنه تمسك بحق التعبير عن الرأى.. ولأنه إشارة أو رمز إلى أن الأفكار التى أؤمن بها ما زالت فى مصر شعلة أو حتى شمعة!

وسأله بروك: والمخاطر؟، ورد هيكل: المخاطر قائمة فى كل وقت وماثلة فى كل مكان فى العالم العربى، مع أن التقاليد الحضارية فى مصر يمكن أن توفر فى بعض الأحيان قدرا من الأمان لرأى مخالف أو مختلف، وهذا أصعب فى أى مكان فى العالم العربى خارج مصر.

وأشارت صحيفة صنداى تلجراف إلى هذا الحوار ضمن مقال كتبه هيكل بمناسبة التحقيق الذى جرى معه أمام المدعى الاشتراكى.

□□□

كان شبح الخطر يحوم حول هيكل فى سنتى ١٩٧٦ و١٩٧٧. ومع اشتداد الحملة عليه نشرت إحدى الصحف يوما ما يكاد يكون عريضة اتهام ضده ويكاد يكون حكما مسبقا عليه، وكان هناك قول صريح بأن هيكل سيحال إلى المدعى الاشتراكى فى ذلك اليوم، وكان مقرراً أن يلقى الرئيس السادات يومها خطابا فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى، وكان التلميح بأن الإحالة إلى المدعى الاشتراكى ستأتى ضمن ذلك الخطاب.. ولكن خطاب الرئيس السادات كان خلوا من هذا الوعيد، وبعد انتهاء الخطاب كتب هيكل رسالة للرئيس السادات من أربعة سطور وجه له فيها الشكر على أنه لم يستجب لحملات التحريض، يقول هيكل: لم تكن الإحالة إلى المدعى الاشتراكى هى الشبح الوحيد، إنما كانت هناك أشباح أخرى لا أريد أن أتعرض لذكرها احتراما لقيم كثيرة فى مصر، ولأنها كانت مدعاة لأحزان أرجو أن أنساها.

□□□

وعندما ذهب الرئيس السادات إلى القدس أبدى هيكل رأيه فيها، وفى شهر مايو ١٩٧٨ ضاع اليمين فى مصر ممثلا فى حزب الوفد الجديد الذى لم يجد أمامه إلا أن

يجمد نفسه، وحوصر اليسار ممثلا فى حزب التجمع، أما الوسط ممثلا فى حزب مصر الذى كانت له الأغلبية الحاكمة فقد اختفى، وتركته الأغلبية الحاكمة إلى ساحة أخرى جديدة، وكانت شهادة أقطاب الحزب الجديد أن عناصر فى حزب مصر كانت هى المسئولة عن النظرة البوليسية للعمل السياسى فى المرحلة السابقة، وكان تركيزها المبالغ فيه فى دعاوى الأمن لا هدف له غير تعويض العجز عن الفكر السياسى والعمل السياسى..

يقول هيكل: وسط هذه الضوضاء الشديدة جاءنى من يهمسون إلىَّ بأن دورى قد جاء، وأن بعض المواد التى طرحت فى الاستفتاء العام الذى أجرى وقتها موجهة إليه، وأن فى هذه المواد عبارات فصلت تفصيلا لكى تلبسنى.. ثم أشيع أن هناك قوائم بإحالات إلى المدعى الاشتراكى وأن اسمى وارد فيها، ولكن الخبر اليقين جاءه عن طريق بوب جوييتر مراسل الإذاعة البريطانية فى القاهرة فقد اتصل به وسأله: ما هو تعليقك؟ قال هيكل: تعليقى على ماذا؟.

قال جوييتر: ألم يبلغك أحد؟. لقد أذيع الآن قرار بمنعك من السفر انتظارا لتحقيق يجريه معك المدعى الاشتراكى.

يقول هيكل: لم يكن الأمر يحتاج إلى قرار يذاع فى الدنيا كلها.. كان يكفى أن يتصل بى أحد أفراد سكرتارية أى مسئول ليقول لى إن وجودى فى مصر مطلوب إلى حين إشعار آخر، وكان مؤكدا أننى سأمتثل راضيا.. ولقد كان أمامى منذ وقت طويل أن أقفل فمى وأسكت، أو أحزم حقائبى وأذهب، وذلك ما لم أفعله ولا أنوى فعله. ولست واحدا ممن يتسللون فى الليل قبل أن يواجهوا باستدعاء أمام أية جهة.

وذهب مراسل الإذاعة البريطانية إلى هيكل فكان رد هيكل بأنه مندهش لأن هذا الإجراء لا داعى له، ولم يكلف أحد خاطره بإبلاغه به وبحيثياته ودواعيه قبل إذاعته على العالم، وقال فى رده: إننى لم أفعل شيئا سوى إبداء وجهات نظرى فى قضايا مصيرية

بالنسبة لوطنى وأمتى، وهذا حق لا يستطيع أحد أن يعترض سبيلى إليه، وقد مارسته فى ظل القانون وفى وضح النهار.. وهذا كل شىء.

□□□

قبل أن يصدر قرار إحالة هيكل إلى المدعى الاشتراكى أتذكر واقعتين. الأولى أن الأستاذ ممدوح طه رئيس قسم الأخبار فى الأهرام طلبنى وقال لى: إن الأستاذ هيكل يريدك أن تتصل به. واتصلت به فقال لى: كيف أقدم إقرار الذمة المالية؟. هات لى هذا الإقرار وتعال. وذهبت إليه فى اليوم التالى - وكنت المختص بمتابعة أخبار وموضوعات وزارة العدل والهيئات القضائية - ومعى إقرار الذمة المالية، واستقبلنى الأستاذ هيكل فى صالون بيته وفى يده قلم وفى اليد الثانية نظارة القراءة وضعها وأشعل سيجارا وسألنى: قل لى ما هو المطلوب منى بالنسبة لقانون الكسب غير المشروع؟. قلت له: المطلوب بما أنك خرجت من الأهرام أن تكتب إقرارا بكل ما تملكه وما تملكه السيدة زوجتك وأولادك القُصَّر وتقدمه إلى شئون العاملين فى الأهرام وهذا كل شىء.. وسألنى بضعة أسئلة.. ثم قال: هات الإقرار. وسجل فيه كل ما يملك هو وزوجته من أموال وأشياء لها قيمة، وطلب السيدة قرينته أن تأتى للتوقيع، وأعطانى الإقرار بدورى سلمته إلى الأستاذ رشاد الحداد المسئول الإدارى فى الأهرام فى ذلك الوقت.. وعلمت بعد ذلك أنه كان ضمن الأفكار المطروحة تقديم هيكل للمحاكمة بتهمة الكسب غير المشروع ولكن تبين من البحث أنه ليس هناك مخالفة أو شبهة تبرر هذه الإحالة وأن النيابة سوف تجرى التحقيق وتقرر الحفظ لعدم الجدية.. ورجح ذلك فكرة إحالته إلى المدعى الاشتراكى لأن التحقيق أمامه يعتمد على الدلائل وليس على الأدلة، ولأنه يقدم من يتهمهم إلى محكمة القيم وهى محكمة فيها قضاة وشخصيات عامة وتحكم غالبا بمصادرة الأموال وتوقيع غرامات. والذين يقدمون أمامها هم دائما تجار المخدرات وتجار العملة وأمثالهم ممن يصعب تقديم أدلة يقينية تسمح بمحاكمتهم أمام محاكم الجنايات.

أما الواقعة الثانية قبل إحالة هيكل إلى المدعى الاشتراكى فقد طلبنى الأستاذ زكريا نيل، وكان قريب الصلة بعثمان أحمد عثمان، وكان عثمان أحمد عثمان صهر الرئيس السادات وصديقه ومن أقرب المشاركين معه فى الرأى. وكان تأثيره فى الأهرام عن طريق الأستاذين عبدالله عبدالبارى الذى كان رئيسا لمجلس إدارة الأهرام فى ذلك الوقت، وزكريا نيل الذى كان أحد ثلاثة تولوا إدارة تحرير الأهرام فى أعقاب وفاة الأستاذ على حمدى الجمال، وسألنى: إن الرئيس السادات قرر اعتقال الأستاذ هيكل، وهو يتوقع أن يواجه بأسئلة كثيرة من المراسلين الأجانب وشبكات التليفزيون العالمية، فما هى الأسئلة التى تتوقع أن توجه إليه؟. وما هى الإجابات المناسبة التى تتصورها؟. ووقفت أمامه مذهولا وقلت له: إذا حدث ذلك فستكون له ردود فعل واسعة، وسيعطى صورة سيئة عن نظام الحكم فى مصر، وإذا أردت رأيى فليس هذا هو الإجراء المناسب.. وبالنسبة للأسئلة فهناك سؤال واحد سوف يتكرر بصيغ مختلفة: لماذا تم اعتقال صحفى كبير معروف بأن له آراء تخالف آراء الرئيس؟.. وهل الرأى جريمة..؟ والإجابة عن هذا السؤال ستكون سهلة: ما دام الرئيس مقتنعا بهذا الإجراء ولديه أسباب لذلك فيكفى أن يذكر هذه الأسباب، وأنا طبعا لا أعرفها.

ونعود إلى رواية هيكل لما جرى بعد إحالته إلى المدعى الاشتراكى.

□□□

يقول هيكل: خرجت بعض الصحف بعناوين حمراء- أو لعلها صفراء- وبقوائم أسماء وضعتنى فى صحبة أسماء لم أتشرف من قبل بمعرفة معظمها، وكانوا قرابة أربعين، أكثر من ثلاثين منهم خارج مصر، والباقون كانوا فى مصر، وحتى هؤلاء كان بينهم من لم تقع عليه عينى حتى ذلك الوقت وحتى الآن. ونسبت إلىّ تهم أعرف ويعرف الذين وجهوها أننى يقينا لم أقترفها. واقترح علىَّ البعض أن أرفض المثول أمام المدعى الاشتراكى، وكانت حجتهم أننى إذا كنت قد أتيت ذنباً فقانون العقوبات موجود، والنيابة العامة وحدها مسئولة عنه.. ومن ناحية أخرى فإن المناخ كله مجاف

لروح العدل.. وكان رأيي مختلفا بصرف النظر عن أي تحفظات في الشكل والموضوع.. وكان اقتناعي أنني لن أمتنع عن التحقيق، بل على العكس سوف أتعجله.. وتوجه المستشار ممتاز نصار إلى مقابلة المدعي الاشتراكي الوزير أنور حبيب وقال له: إنه حاضر معي في التحقيق بوصفه محامياً، ونحن نرجو تحديد أقرب موعد للمثول أمامك. وتحدد بالفعل موعد الجلسة الأولى. الأربعاء ١٤ يونيو١٩٧٨.

يقول هيكل: إن اختصاص المدعي الاشتراكي اتسع لأول مرة ليشمل قضايا الرأي، وحرية الرأي يكفلها الدستور. ولست أعرف- ولا أظن أن غيري يعرف- شيئا اسمه (التحقيق السياسي). قد يكون التحقيق السياسي جائزا داخل تنظيم سياسي واحد يرى في تصرف أحد أعضائه خروجا على مبادئه، فيكون التحقيق السياسي لبحث أمر التزامه أو خروجه على مبادئ الحزب وتقرير بقائه أو فصله.. وأنا لا أنتمي إلى أي تنظيم سياسي.. من أين إذن يمكن أن تطولني مسألة التحقيق السياسي؟.

ويقول: لقد تأكد للكل أننا لسنا أمام إجراءات قانون، إنما نحن أمام إجراءات سياسية اتخذت من القانون برقعا، والخلط بين ما هو قانون وما هو سياسة خطير.

وذهب هيكل إلى جلسة التحقيق الأولى يوم الأربعاء ١٤ يونيو١٩٧٨ الساعة العاشرة صباحا. وكان خارج مكتب المدعي الاشتراكي جمع من مراسلي الصحف ووكالات الأنباء العالمية. واكتفى بأن قال لهم: ابتداء من الآن لم يعد من حقي أن أقول شيئا، فالمدعي الاشتراكي وحده يملك أن يقول ما يريد.

وتولى المدعي الاشتراكي بنفسه التحقيق ومعه المحامي العام المستشار عبد الرحيم نافع، وإلى يمينه المحامي العام المستشار أحمد سمير سامي، وحضر الأستاذ ممتاز نصار بصفته المحامي عن هيكل كما حضر الأستاذ حسن الشرقاوي سكرتير نقابة الصحفيين الذي حضر الجلسات وفقا لقانون النقابة.

يقول هيكل: كان الجو وديا منذ أول لحظة في التحقيق إلى آخر لحظة.. وكانت هيئة التحقيق تريد أن تقوم بالمهمة الموكول إليها في جو يسوده احترام متبادل.. ومع

فنجان قهوة قال المدعى الاشتراكى إنه سوف يسأله عن بعض ما كتب، وقد تمتد الأسئلة إلى مواضيع أخرى لا تتصل بما كتب، وله مطلق الحرية للإجابة كما يشاء عن أى سؤال يوجه إليه، ولمزيد من الدقة فإنه يقترح أن يقوم هيكل بإملاء ما يرى إثباته نصا من إجاباته فى سجلات التحقيق. وقال إنه لا يعرف متى تنتهى فهناك أسئلة كثيرة..

وقال هيكل للمدعى الاشتراكى إنه تحت تصرفه..

□□□

استغرق التحقيق عشر جلسات.. أربع جلسات فى يونيو. وخمس جلسات فى يوليو. وجلسة ختامية فى أول أغسطس. وكان متوسط مدة الجلسات ثلاث ساعات.. أى إن التحقيق استغرق ثلاثين ساعة بين سؤال وجواب. ويقول هيكل: أشهد أن الفرصة أتيحت لى أن أقول ما أريد من إجابات. وكانت هناك أسئلة تحفظت على صيغتها وسجلت تحفظى، وكانت لى إجابات طويلة عن بعض الأسئلة لم يحاول أحد اعتراضها. وفى ختام الجلسة الأخيرة سألنى المدعى الاشتراكى: هل لديك أقوال أخرى؟ وقلت: نعم ورحت أملى تعقيبا ختاميا على التحقيق دام لأكثر من ساعة كاملة حاولت فيها أن ألخص رأيى فى الموضوع كله بطريقة سريعة ومركزة.. وتبادلنا عبارات مجاملة وتحية، ثم قلت للمدعى الاشتراكى إن لدىَّ عنده طلبين أرجو أن يكونا داخل حدود القانون، الطلب الأول أن أحصل على صورة كاملة من سجلات التحقيق، وقال المدعى الاشتراكى إن هذا من حقى، وإنه سوف يطلب من سكرتاريته تصوير كل صفحة من صفحات التحقيق لتسليمها إلىَّ، وإنه يرجو أن يتم ذلك فى ظرف أسبوع.. والطلب الثانى أن يخطرنى فى أسرع وقت مناسب له بما يراه بالنسبة لإمكانية سفرى إلى لندن لمدة أسبوعين فى شهر نوفمبر، لأن لدىَّ كتابا سوف يظهر فى السوق العالمية فى هذا الوقت فى لندن، وستبدأ جريدة صنداى تايمز فى نشر حلقات مسلسلة منه فى ذلك الوقت، وهناك إلحاح من الناشرين أن أحضر معهم احتفالات ظهور هذا الكتاب.

وقلت: إننى أتفهم الظروف، ولذلك لا أطلب منه تصريحا بالسفر، إنما أطلب منه مجرد إخطارى هل أستطيع أو لا أستطيع السفر، حتى أتمكن فى موعد ملائم أن أخطر الذين ينتظروننى فى لندن، أو أخطرهم أن الظروف مازالت تحول بينى وبين السفر، وقال لى المدعى الاشتراكى: إنه سوف يخطرنى بالقرار فى مسألة السفر فى بحر أيام، أو أسبوع.

وفوجئت فى اليوم التالى- ٢ أغسطس ١٩٧٨- بصحف الصباح فى القاهرة تنشر أن التحقيق معى تأجل لأجل غير مسمى أو لموعد يحدد فيما بعد، وكان ذلك شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الحقيقة.

وكتبت خطابا إلى المدعى الاشتراكى رجوت فيه محامىً أن يتفضل فيحمله بنفسه إلى مكتب المدعى الاشتراكى ويستوضح منه سبب التباين بين الحقيقة وبين الصورة التى أوردتها الصحف.. وعاد إلىَّ المحامى يقول إنه قابل المدعى الاشتراكى بنفسه وسلمه الخطاب، وأن الحقيقة هى ما نعرفه، وأما ما نشر عنها فقد تسبب فيه لبس غير مقصود.

يقول هيكل: ومضت الأيام، والأسابيع، والشهور، ولم أتسلم الصورة الرسمية المعتمدة للتحقيق التى طلبتها، وكان الأستاذ ممتاز نصار يسجل كل ما يدور فى الجلسات الأربع التى حضرها، ومنعه بعد ذلك مرض طارئ من الحضور، فأناب عنه المستشار إبراهيم ذكرى الذى واصل نفس الأسلوب فى تسجيل وقائع الجلسات الست، وكنت أعود إلى مكتبى بعد كل جلسة فأنقطع لإعادة بناء وتسجيل كل ما جرى فيها، وأردت التزاما للدقة أن أقوم بعملية مراجعة فاستأذنت الأستاذ حسنى الشرقاوى سكرتير نقابة الصحفيين أن يسمح لى بالاطلاع على أوراقه التى كان يسجل فيها هو الآخر نصوص التحقيق.

ولم يصدر قرار بالتصرف فى التحقيق.

ملحوظة: علمت بعد ذلك أنه كان هناك اقتراح بفرض الحراسة على هيكل بقرار من المدعى الاشتراكى ولكن تم استبعاد هذا التصرف، ربما لأنه سوف تستتبعه إحالة

هيكل إلى محكمة القيم وأمام المحكمة ستكون فرصته ليقول ما يشاء وتنقل أقواله الصحف والإذاعات وشبكات التليفزيون، ولم يكن هناك حاجة إلى مضاعفة الضجة التى أحدثها قرار إحالته للتحقيق.

□□□

وقرر هيكل نشر محاضر التحقيق كاملة فى كتابه (وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى فى مصر).

كانت تهمة هيكل أنه أساء إلى سمعة مصر خارجها بالإدلاء بأحاديث إلى بعض الصحف العربية والأجنبية ونشرت خارج مصر فى أيام لم يكن مسموحاً له أن ينشر داخلها. وبسبب هذه التهمة تم سحب جواز سفره، وسرت شائعات بأنه يقيم خارج مصر ولم يكن ذلك صحيحاً، وقاد الرئيس السادات بنفسه حملة هجوم على هيكل وصلت أحياناً إلى التلميح بالخيانة العظمى. وظن البعض أن هيكل يتعرض لكل هذا الهجوم ويبقى فى مصر فلابد أنه يملك من الأوراق والمستندات ما يعطيه حصانة تردع هذه المستويات العليا، ويقول هيكل: لم يكن ذلك صحيحاً. والصحيح فيما أظن أنه كان هناك تحسب من ردود فعل خارج مصر خصوصاً فى أوروبا وأمريكا حيث كانت تنشر كتاباته الممنوعة.

يقول هيكل: عقب إبعادى عن الأهرام نصحنى المهندس سيد مرعى، والسيد إسماعيل فهمى، والسيد أشرف مروان، وغيرهم بأن أنفذ قرار الرئيس وأتسلم العمل مستشاراً له فى قصر عابدين.. وبعد أسابيع بدأت محاولات إقناعى بالود أن أبتعد عن مصر ولو لشهور قليلة، وعرض علىَّ فى تلك الأيام منصب السفير المصرى فى لندن، وقال لى الشخص الذى حاول إقناعى بالقبول: إن العلاقات بينى وبين الرئيس السادات عائدة إلى مجاريها فى يوم من الأيام، والمشكلة هى عنادى، وأننى أضع (رأسى برأسه) وكان رد هيكل: إننى أعرف أن هناك حدوداً لابد من احترامها، وأن رؤية هذه الحدود واحترامها ليس معناه الوقوف أمامها بالعجز أو الخضوع بالتسليم. وقيل لى: إن

الرئيس يعتقد أننى أريد أن أفرض آرائى عليه، وقلت: إننى لا أعرف كيف يستطيع صحفى لا يملك غير قلمه أن يفرض على رئيس الدولة رأياً!. إن القلم ليس جيشاً، ولا بوليساً، ولا حزباً، ولا تنظيماً حتى يستطيع أن يرغم رئيس دولة على أن يقبل كرهاً بما لم يكن مستعداً للقبول به طوعاً. وتمسك الوسيط بفكرة سفارة لندن، وقال لهيكل: لك فى لندن أصدقاء كثيرون، والناشرون لكتبك هناك.. وتستطيع أن تختار معك وزيراً مفوضاً يحمل عنك عبء الأعمال الرسمية والاستقبالات والذهاب إلى المطارات.. المهم كانت المحاولة لإبعادى عن مصر فى ذلك الوقت ودية، ولكن كان هناك آخرون- فى ذلك الوقت- وجدوها فرصة، وكان بينهم من حاول بوسائل متعددة- منها التخويف- أن يقنعنى بالخروج، ولم تكن كل هذه الوسائل مجدية لأننى أعتقد أن حياتى هنا!

ويقول هيكل: لقد قلت للرئيس السادات من قبل إننى لن أتوقف عن الكتابة وإبداء رأيى فى صحف خارج مصر تريد أن تنشر ما أكتب، وأتمنى ألا يتسبب ذلك فى صدام أو صراع لا سمح الله، مع العلم بأننى فيما سوف أكتبه سأظل ملتزماً بالموضوعية وبما أراه محققاً للصالح العام من منظورى الخاص. قلت ذلك فى شهر نوفمبر ١٩٧٤ بعد قطيعة شهور بعد خروجى من الأهرام.

وكان رد السادات ودياً وقال:

- هذا حقك وأنا لا أعترض حق أحد.

ويقول هيكل: رحت بعد هذا اللقاء أكتب وأتحدث عن مصر، وكنت أعتبر أن هذه شهادة للنظام، فهذا هو معارض لسياساته يبدى رأيه من داخل سلطته، وكنت فخوراً بذلك معيدا ومزيدا بأن هذه الظاهرة الحضارية لا يمكن أن تحدث فى العالم العربى إلا فى مصر. وظللت على اعتقاد بأن بقائى فى مصر وتحت سلطة نظامها يعطى مصداقية لما أقول كتابة وكلاماً، فالقول لابد أن يكون مسئولاً لأنه ليس فقط فى ظل القانون وإنما أيضاً فى مطال السلطة. ومن ناحية ثالثة تصورت أن قولاً يصدر من مصر، ومن منطلق قومى، وخلافاً مع سياسة رسمية ضيقت على نفسها- ولا أقول الآن

أكثر- يمكن أن يصلح كرسالة موجهة إلى العالم العربى بأن مصر كلها لم تتغير، ولم تنقلب بين يوم وليلة من النقيض إلى النقيض، وظننت أن ذلك قد يكون نافعاً.

يقول هيكل: كان الاتهام الموجه إلىّ وبدون تفاصيل أو أسانيد هو أننى بما كتبت وقلت خارج مصر أسأت إليها، ولهذا وجب الحساب والعقاب! وطوال الوقت كان مناى أن ينشر فى مصر شىء مما قيل إننى أسأت به إلى سمعتها لكى يحكم الناس، وظننت أن الأيام كفيلة بأن تضع كل أمر فى نصابه، وترد كل حق إلى موضعه.

يقول هيكل: فى تلك الفترة صال وجال كثيرون- أسميهم فى العادة (فرسان الساحات الخالية)- هؤلاء الذين يرمحون فى ميادين يعرفون مقدماً أنه ليس فيها (عدو) وبالتالى ليس فيها قتال. ولم أرد إلا مرتين بالعدد. مرة حين نشرت إحدى الصحف عنواناً رئيسياً فى صفحتها الأولى تعليقاً على رأى أبديته خارج مصر بمعارضة رحلة القدس قالت فيه بالحرف (واحد ضد مصر) وكان ردى على ذلك كلمة واحدة فى نهاية مقال نشر أيضاً خارج مصر جاء فيها (بل واحد من مصر). وفى المرة الثانية كان ردى كتاباً عنوانه (بين الصحافة والسياسة) وهو يحكى بنفسه قصة لا أريد أن أعود إليها، لأن القصة فى حد ذاتها مؤلمة وحزينة، وقد كنت أفضل أن أكتم تفاصيلها فى نفسى، ولكن أصحابها لسوء الحظ لم يتركوا لى خياراً غير أن أروى الحقيقة كاملة وبوثائقها.

□□□

ويقول هيكل: من الحق أن أعترف أن صحف المعارضة فى مصر- وبالتحديد الأهالى والشعب- حاولت ما استطاعت أن تصلنى بالقارئ المصرى، لكن صحافة المعارضة مظلومة، فوسائلها محدودة، ومجال حركتها مقيد، ومن ناحية أخرى كنت أشعر أن المساحات التى تخصصها هذه الصحف أحياناً لما أقول هى عملية خصم من حقوق أحزابها وكتابها الذين هم أصحاب الحق قبل غيرهم فى مساحات صفحاتها. ثم تحول شعاع الضوء إلى نافذة تفتحت كاملة للشمس من حيث لم أحتسب وهذه

مفارقة غريبة، فقد كانت النافذة هى جريدة (أخبار اليوم) ورئيس تحريرها الأستاذ إبراهيم سعدة، ولابد أن أعترف له أننى تشككت فى نواياه حينما زارنى فى مكتبى فى أواخر سنة ١٩٨٥ ليقول لى إن صفحات أخبار اليوم مفتوحة أمامى إذا أردت. وكان مبعث تشككى هو اختلاف آرائنا وتوجهاتنا، وربما من هنا فإننى وضعت عرضة موضع الاختبار العملى، وأشهد أنه كان عند وعده، وتحمل بسببه راضياً ما جعلنى اعتبره صديقاً يتحتم علىَّ أن أعفيه من مآزق قادته إليها جرأته، لأن ما كتبته أغضب أكثر مما أرضى.

□□□

وجمع هيكل بعض أحاديثه التى أدلى بها إلى صحف فى العالم العربى ودول أوروبا فى كتاب بعنوان (أحاديث فى العاصفة) وهى الأحاديث التى اتهم بسببها أنه أساء إلى مصر.

ولكنه فى فترة الحظر نشر عدة كتب باللغة الإنجليزية، وترجمت إلى عشرات اللغات بينها اللغة العربية، منها (وثائق القاهرة) و(الطريق إلى رمضان) و(القوميسار وأبو الهول) و(عودة آية الله) و(خريف الغضب) و(ملفات السويس) إلى آخره. وكتب مقالات بلغات أجنبية نشرت فى صحف مثل التايمز والصنداى تايمز ونيويورك تايمز - وهذه لم تترجم بعد إلى اللغة العربية، وألقى محاضرات فى جامعات عالمية مثل جامعة أوكسفورد، وألقى محاضرات فى محافل دولية مثل اليونسكو ولم تترجم أيضاً إلى اللغة العربية.

□□□

كان هيكل يعلم أنه سوف يتعرض للتحقيق أمام المدعى الاشتراكى لأن أخبار ما يجرى فى مصر وصلت إليه خلال الأسابيع التى قضاها فى لندن.. كان فى لندن يسجل حلقات للتليفزيون البريطانى عن التاريخ الحديث للشرق الأوسط، وألقى محاضرة فى جامعة أوكسفورد وهى المحاضرة السياسية السنوية، وكان الموضوع الذى

حدده مجلس أمناء الجامعة لهذه المحاضرة هو (مشاكل السلام) وكان هو أول متحدث من العالم الثالث يدعى لإلقاء المحاضرة السنوية لجامعة أوكسفورد. وأجرى لقاءات مع عدد من المفكرين والسياسيين البريطانيين الذين كان لهم دور فى التاريخ العربى المعاصر. وأثناء ذلك نشرت صحيفة ديلى تلجراف خبرا يقول: إن هيكل يشارك فى تأسيس حزب سياسى جديد يحمل اسم جمال عبدالناصر. واتصل على الفور بمدير تحرير الصحيفة وطلب إليه تصحيح الخبر لأنه غير صحيح، وقال له إن الصحفى قد يكتب فى الاقتصاد أو الفن أو الحرب ولكن ذلك لا يجعله مضاربا فى البورصة، أو ممثلا على الشاشة، أو جنرالا فى القتال، والصحفى الذى يكتب فى السياسة قد يتخذ موقفا ولكنه فى ذلك يختلف عن السياسى المحترف، فالصحفى السياسى يعتبر الموقف والدفاع عنه غاية، بينما السياسى المحترف يعتبر أن الغاية هى السلطة لتنفيذ ما يعتقد فيه.

□□□

بعد أيام وجد فى نشرة استماع صادرة عن هيئة الإذاعة البريطانية ملخصا للاتهامات الموجهة إليه فى صحف القاهرة. منها أنه كان مصدر المعلومات فى مقالات كتبها الصحفى البريطانى ديفيد هيرست فى جريدة الجارديان سنة ١٩٧٢ عن الفساد فى مصر. وقال هيكل إن ديفيد هيرست كتب هذه المقالات سنة ١٩٧٢ ولم يكن هيكل قد قابله، ولم يقابله إلا فى سنة ١٩٧٥ ، وأنه قابل ديفيد هيرست مرتين فى صيف ١٩٧٥ ليعرف رأيه فى اتفاقية فض الاشتباك الثانية ونشر الرأى منسوبا إلى هيكل، وكان ديفيد هيرست تحت الرقابة، وكذلك كان هيكل ولو كان قد حدث لقاء بينهما فى عام ١٩٧٢ لكان ذلك مسجلا. وقال هيكل: لست أنا الذى يلتقى بمراسل أجنبى ليقدم له معلومات..ولكنى أقابل كثيرين يسألوننى عن رأيى، وذكر هيكل عبارة قالها أنتونى ناتنج وزير الدولة الأسبق للشئون الخارجية فى وزارة أيدن خلال برنامج عن هيكل أخرجته هيئة الإذاعة البريطانية وبثته يوم ١٤ ديسمبر ١٩٧٨ فى سلسلة (صور

شخصية) وفى هذا البرنامج سئل انتونى ناتنج عن تقييمه لهيكل فى فترة اقترابه من القمة فى مصر وفترة ابتعاده عنها، فقال: (عندما كان قرب القمة كان الكل يهتمون بما يعرف.. وعندما ابتعد عن القمة تحول اهتمام الكل إلى معرفة ما يفكر فيه.

وقيل لهيكل بعد نشر التصحيح فى ديلى تلجراف لماذا تقطع بهذا الحسم فقد يكون واردا غدا أو بعد غد أن تشارك فى حزب، وكانت إجابته: كل ميسر لما خلق له، وأنا أعرف حدودى وألزمها.. والكاتب الصحفى بالطبيعة لا يستطيع غير أن يكون مستقلا، والاستقلال لا يعنى التحرر من الالتزام، لكن الالتزام مع الاستقلال يكون التزاما بفكرة وليس التزاما بفرد أو بتنظيم، وعلاقتى بجمال عبدالناصر كانت علاقة حوار. وهناك جانب عام.. إننى أظن أن الأحزاب فى العالم الثالث- وفى مرحلة الانتقال التى يعيشها هذا العالم الثالث - مجرد أشكال، حزب الأغلبية هو حزب السلطة دائما.. أى إن السلطة هى التى تصنع الأغلبية، وليست الأغلبية التى تصنع السلطة، وتجربة مصر شاهد على ذلك، فقد كان رجال هيئة التحرير هم رجال الاتحاد القومى هم رجال الاتحاد الاشتراكى هم رجال حزب مصر.. نفس الرجال.. هم الذين قالوا بالقومية ثم قالوا بالفرعونية، وأيدوا الاشتراكية ثم تسابقوا على الانفتاح، وقالوا لا تفاوض ولا اعتراف ولا صلح مع إسرائيل ثم قالوا بالتفاوض والاعتراف والصلح.. هل تغيروا.. لا.. ولكن السلطة تغيرت، أما أحزاب الأقلية فلا يتبقى منها إلا الأحزاب التى تستند إلى قواعد عقائدية أو دينية، وغالبا ما تكون لهذه الأحزاب امتدادات نشاط تحت الأرض يكون هو نفسه خط مقاومتها الحقيقية.

وفى لندن قيل لهيكل لماذا لا تبقى هنا وتكتب بحرية.. وكان رأيه أن هناك فرقا بين الحرية والهرب.. والكلمة الحرة تستمد قيمتها من استعداد صاحبها لتحمل مسئوليتها، وحين لا تكون هناك مسئولية لن تكون هناك حرية.. فالكلمة فى مأمن رخيصة.. والكلمة تحت الخطر غالية.. والمشكلة أن الذين يريدون إبداء آرائهم من بعيد أو القيام بنشاط سياسى فى (المهجر) يحتاجون إلى سند وإلى دعم، ولكن أين الحدود

الفاصلة لإنسان اختار المهجر لنشاطه الفكرى والسياسى بين أن يعمل لحساب قضية، أو يعمل لحساب طرف.. ولست سعيدا ببعض ما أراه فى المهجر السياسى المصرى، ولا أريد أن أضع نفسى فيه.

ومن المهم فى هذه الظروف أن تظل هناك آراء تؤمن بانتماء والتزام مصر العربى، وأن تكون هذه الآراء صادرة عن المصريين داخل مصر وليس من مصريين خارج مصر.

□□□

فى كتاب له بعنوان (حديث المبادرة) صدر فى مايو ١٩٧٨ يقول : كنت أقرأ ما يكتب فى الهجوم علىَّ واكتفى بالتعرف على اتجاهاتها دون أن أدقق فى النصوص، كنت أطل على العناوين، وأمر بعينى على السطور، و أتطلع إلى أسماء الكتاب وبينهم من كانوا- وبعضهم مازالوا- فى موضع القرب والود منى- ثم اعزى نفسى ببيتين من الشعر:

هنيئا مريئا غير داء مخامر — لعزة من أعراضنا ما استحلت

يكلفها الغيران شتمى وما — بها هوانى ولكن للمليك استذلت

ويقول : كنت أتفهم وأعذر. وليس لرجل اختار لنفسه أن يطلب من الآخرين اعتماد موقفه، فلكل رجل أولوياته، وحتى حساباته، وذلك حقه. واعترف أننى أحسست بالوجع مرة واحدة، حين وجدت عنوانا رئيسيا على الصفحة الأولى من جريدة الأخبار موضوعه عنى، وكان العنوان من كلمة واحدة (الكذاب) والذى حدث أن أصغر أبنائى وهو يومها فى التاسعة من عمره مر علىَّ- كما تعود كل صباح- وهو فى طريقه إلى المدرسة، وخطر ببالى أن أدارى الجريدة حتى لا يرى ما رأيت، ثم عدلت عن المحاولة.

وجاء الصبى إلى جوارى وكانت تحيته فى الصباح ندية وحلوة، ثم وقع نظره على مجموع الصحف ولمح بسرعة ما كنت أتمنى أن أخفيه، وراح يقرأ، ولم اعترضه، وقرأ الصبى ثم تطلع إلىَّ وفى عينيه حيرة لا يعرف كيف يداريها ولا يعرف كيف يعبر عنها،

ثم تحولت الحيرة إلى نظرة امتزج فيها الحزن بالغضب، وبادرته بأنى لست متضايقا ولا أريده أن يتضايق، ثم قلت له: ذات يوم سوف أجلس إليك وأحدثك عما نحن فيه الآن لكننى فى هذه اللحظة أرجوك ألا تشغل بالك بشىء غير درسك. ووقف الصبى أمامى وغامت عيناه بدمعة، وأحسست بالعجز عن أى قول أو فعل، وكان الصبى رائعا، فقد اختصر الموقف بفطرة البراءة فيه، وأمسك برأسى يقبلها.. ومضى صامتا.

متهم بتهديد الجبهة الداخلية..

في يوم ٢٨ مايو١٩٧٨ كان العنوان الرئيسي في الصفحة الأولى من (الأهرام) على خمسة أعمدة يقول: إحالة ٥ صحفيين بينهم هيكل إلى المدعي الاشتراكي، وتحته عنوان فرعي: الداخلية تعلن (الصحفيون الخمسة شهّروا بمصر وهددوا سلامة الجبهة الداخلية).

وفي الخبر: بعث السيد محمد نبوي إسماعيل وزير الداخلية أمس إلى المدعي الاشتراكي قائمة أولى بأسماء خمسة صحفيين مصريين موجودين في الداخل، وقال وزير الداخلية في رسالته إلى المدعي الاشتراكي: إن الصحفيين الخمسة قد دأبوا على إرسال أخبار ومقالات إلى الخارج تشهّر بمصر وتهدد سلامة الجبهة الداخلية.. والصحفيون الخمسة هم: محمد حسنين هيكل، ومحمد سيد أحمد، وأحمد حمروش، وصلاح عيسى، وأحمد فؤاد نجم، وقد بعثت وزارة الداخلية إلى المدعي الاشتراكي بالوثائق الخاصة التي سيتناولها التحقيق مع الصحفيين الخمسة وفيها صور المقالات التي كتبوها.. وقد أصدر المدعي الاشتراكي قرارا بمنع الصحفيين الخمسة من السفر إلى الخارج حتى يجري التحقيق معهم.

في اليوم التالي ٢٩ مايو١٩٧٨ بعثت وكالة رويتر للأنباء برقية بعنوان (هيكل يقول لم أسئ إلى مصر ومن حقي أن أختلف مع الرئيس السادات).. ويقول الخبر الذي نشرته الصحف خارج مصر: صرح محمد حسنين هيكل لوكالة رويتر بأنه لم يستطع فهم القرار الذي صدر بتحويله إلى المدعي الاشتراكي في مصر للتحقيق معه بتهمة الإساءة

إلى مصر، ونفى هيكل أنه يمكن أن يسيء إلى وطنه، ولكنه أضاف قائلا: إننى بالتأكيد أختلف مع الرئيس السادات فى كيفية تحقيق السلام فى الشرق الأوسط وكنت أظن أن ذلك حق كل مواطن.

وفى يوم ١٥ يونيو نشر الأهرام على الصفحة الأولى خبرا يقول: بدأ أمس المستشار أنور حبيب المدعى الاشتراكى التحقيق مع الأستاذ محمد حسنين هيكل فيما نسب إليه من نشر مقالات فى الداخل والخارج تمس سمعة مصر، وحضر التحقيق الذى استمر ساعة ونصف الساعة الأستاذ ممتاز نصار محامى المدعى عليه، والسيد حسن الشرقاوى سكرتير عام نقابة الصحفيين ممثلا للنقابة، ويستأنف المدعى العام الاشتراكى التحقيق صباح اليوم.

وفى نفس اليوم ١٥ يونيو١٩٧٨ - قالت برقية من وكالة الاسوشيتد برس: جرى استجواب محمد حسنين هيكل مطولا أمس بواسطة المستشار أنور حبيب المدعى الاشتراكى واثنين من مساعديه هما المستشار عبد الرحيم نافع والمستشار أحمد سمير سامى، وذلك بشأن مقالات نشرها هيكل خارج مصر، ويعد الاستجواب الأول الذى استغرق ساعتين ونصف الساعة، قال محمد حسنين هيكل للصحفيين: لقد كان جو التحقيق مهذبا ولا أستطيع أن أضيف أكثر، لأن المدعى الاشتراكى طلب منى ألا أتحدث للصحفيين عن تفاصيل التحقيق، وأضاف هيكل: إنه شديد العرفان للصحافة العالمية والعربية لأنها تتابع قضيته باهتمام، لكنه يأسف لأنه لا يستطيع أن يساعد أكثر فى إلقاء الضوء على موضوعات التحقيق معه.

وقالت الوكالة بعد ذلك: إن بدء التحقيق مع هيكل كان موضوع تعليقات فى معظم صحف الولايات المتحدة وأوروبا، وقد خصصت خمس صحف كبيرة فى العالم هى نيويورك تايمز وواشنطن بوست الأمريكيتان، والموند الفرنسية، والتيمز الإنجليزية، والكوريرا ديلاسيرا الإيطالية افتتاحيتها اليوم لموضوع التحقيق مع هيكل.. وقالت اسوشيتد برس أخيرا: إن هيكل يواجه إقصاءه من نقابة الصحفيين ومنعه نهائيا من

الكتابة داخل مصر أو خارجها، وربما يواجه عقوبة السجن بين خمس سنوات وسبع سنوات.

ونشرت فى مصر فى هذه الأيام عشرات المقالات ورسوم الكاريكاتير تحتها إشارات عن هيكل على أنه أساء إلى مصر، وأنه ترك وطنه ولجأ إلى الخارج، قيل مرة إنه لجأ إلى بيروت، ومرة أخرى إنه لجأ إلى لندن، وقيل مرة ثالثة إنه لجأ إلى ليبيا على رغم أنه لم يذهب إلى ليبيا منذ سنة ١٩٧٠.. والحقيقة أنه كان فى مصر سنة كاملة لم يغادرها.

أما المقالات التى أحيل هيكل بسببها إلى المدعى الاشتراكى، فقد كتبها ونشرها فى صحف العالم العربى وغيره ابتداء من شهر مارس ١٩٧٨ أى بعد أربعة شهور من مبادرة الرئيس السادات بالذهاب إلى القدس، وظهرت فى كتاب بعنوان (حديث المبادرة) فى أوائل مايو١٩٧٨ بعد ستة شهور من المبادرة، ونشرت هذه المقالات وطبع الكتاب وهيكل مقيم فى مصر، وعندما صدر قرار التحقيق معه أمام المدعى الاشتراكى بمقتضى قانون العيب تم إعلانه فى مكتبه بالقاهرة، وحين تقرر مصادرة جواز سفره سلمه هو بنفسه.

□□□

يقول هيكل: ومثلت أمام تحقيق غريب فى بابه وبعد أن انتهى، مضت أربع سنوات من سنة ١٩٧٨ إلى سنة ١٩٨١، ولم يحدث لى شىء إلا حملة إعلامية تؤجج نيرانها بين الحين والحين خطبة للرئيس السادات يختصنى فيها بالكثير من استهجانه وضيقه بمواقفى، وخلال تلك الفترة عرض كثيرون فى العالم العربى وخارجه توفير ملجأ لى خارج مصر، ولم أجد داعيا للقبول، وكان تحسبى باستمرار أن اللجوء السياسى خارج الأوطان يخلع جذور الشجرة من أرضها، ويرهن الإرادة لحيازة أو لرهن تفرضه الظروف على أى لاجئ.

ويقول هيكل تعليقا على حملة الهجوم عليه: إن صراعات التاريخ الكبرى أعقد بكثير من أن يجرى حلها فى استوديوهات الإذاعة والتليفزيون وأمام الميكروفونات والعدسات.

□□□

يقول هيكل: إن الحملة على وصلت إلى حد القول بأننى ملحد، والواقع أن علاقتى بالرئيس السادات كانت تختلف كثيرا عن علاقتى مع عبدالناصر، فقد كنت طرفا فى حوار مع عبدالناصر، ولكن السادات بدأ مرحبا بالحوار، وانتهى بأنه لم يعد طرفا فى حوار مع أحد، لا معى ولا مع غيرى، وربما كان يشعر بالفارق بين علاقتى به وعلاقتى بعبدالناصر، وربما كان إحساسه بأننى لعبت دورا فى توليه السلطة لم يكن يعطيه سعادة، فالإنسان عادة لا يسعد بأن يكون مدينا لأحد، وأذكر أننى اختلفت معه أول مرة حين اتصل بى- بعد توليه بقليل- ليطلب منى أن أخصص مقالى الأسبوعى بصراحة عن جعفر نميرى، وقال لى: إن نميرى يقول: إن هيكل لم يكتب عن ثورة السودان، وإنه وعده بأن أكتب هذا الأسبوع عنها.. وقد أبديت دهشتى وقلت: إنه ليس فى ذهنى موضوع الكتابة عن السودان، وأضفت: أخشى أن تفهم أن عبدالناصر كان يحدد لى ما أكتب فيه وهذا غير صحيح، وأنا أعترض على أن تحدد لى ما أكتب فيه، فقال: إنه يريد أن (يصلح) علاقتى بجعفر نميرى، وانتهى الموضوع عند هذا الحد، ولم أكتب مقالى فى ذلك الأسبوع.

ويقول أيضا فى حديثه مع صلاح عيسى المنشور فى الأهالى يوم ٢٧ أبريل ١٩٨٣ وفى كتاب هيكل (أحاديث فى العاصفة) إن السادات تصور أنه حين نقلنى من الأهرام قد حكم على بألا أصبح صحفيا إلى الأبد، ولهذا كان يغضب لأننى مازلت صحفيا على رغم تركى الأهرام، وقد حدث عندما قابلت الخمينى عام ١٩٧٩ فى باريس ونشر الخبر. سأل السادات صديقا مشتركا: هو محمد قابل الخمينى ليه؟. وعندما قال له الصديق: إن المقابلة تمت باعتباره صحفيا. قال «مندهشا»: لكن أنا عزلته!. وعندما

وصل شاه إيران إلى أسوان سأل السادات عن هذه المقابلة وهل لديه أنباء عن نوايا الخمينى القادمة فى ضوء هذه المقابلة؟. فقال له السادات: إن فى مصر تقليدا بأن يكتب كل صحفى يسافر إلى الخارج تقريرا عن لقاءاته واتصالاته. واتصل بى أحد كبار المسئولين من أسوان وطلب منى كتابة تقرير، ولكنى رفضت وقلت إننى أكتب مقالات أنشرها ولم أكتب تقارير لأحد طول عمرى، وأن ما جرى فى مقابلتى للخمينى منشور.

ويقول أيضا: لقد قلت ونشرت فى حياة السادات ما قلته بعده، من إدانة سياسات الانفتاح وما تقود إليه من فساد، وحتى عندما كنت فى الأهرام لفت النظر إلى المحاذير التى تحيط بتجارة السلاح، وفى كتابى (الطريق إلى رمضان) تكلمت عن الإدارة السياسية لحرب رمضان، وهناك كتب عديدة لى جمعت فيها مقالاتى التى عبَّرت عن خلافى معه منها (الحل والحرب) و(حديث المبادرة) و(رسائل إلى صديق هناك) و(لمصر لا لعبدالناصر) و(الديمقراطية الغائبة والسلام المستحيل) و(عند مفترق الطرق).. فليس ما بينى وبين السادات حقدًا - كما قيل- ولكنه خلاف سياسى، وقد تعودنا أن نسمى الخلاف السياسى حقدا، لأننا لا نقبل بالخلاف ونهرب من النقاش حوله،أنا أدعى أنه ليس هناك محضر مكتوب فى الدولة عن أهم الاتصالات التى أجراها السادات مع كثير من ساسة العالم.. ويقول كيسنجر فى مذكراته إنه كان مندهشا جدا، لأن أنور السادات كان يتفاوض معه دون أن يكون هناك أحد يدون الحديث ليكون وثيقة رسمية من وثائق الدولة، فى حين أن كيسنجر كان قد اصطحب معه من يدوِّن اللقاء.

□□□

قبل إحالة هيكل إلى التحقيق أمام المدعى الاشتراكى كان قد أجرى أحاديث هاجم فيها مبادرة السادات بالذهاب إلى القدس، يوم الثلاثاء ١٥ نوفمبر١٩٧٩ بعد ستة أيام من إعلان المبادرة أذاعت محطة (آى. بى. سى) وهى أكبر محطات التليفزيون الأمريكية حوارا مع هيكل نقلته بالأقمار الصناعية من مكتبه بالقاهرة قال

فيه: إنني شعرت بالقلق عندما سمعت الرئيس السادات يقول: إنه لم يستشر فى مبادرته أحدا وإن جميع مستشاريه لم يعرفوا بها إلا عندما قام بإعلانها، كنت أفضل أن تكون الأمور على غير هذا النحو، إن عملية صنع السلام عملية مهمة وجادة وخطيرة، وبأمانة فإننى كنت أفضل أن تجرى عملية صنع السلام فى جنيف، إن السلام لا تصنعه إرادة رجل واحد مهما كانت الثقة فيه، وصنع السلام يحتاج إلى اقتناع كل الناس وبالدرجة الأولى اقتناع كل الدول العربية، فالقضية هى قضية الأمة العربية كلها.

وفى يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٧٩ أذاعت القناة الثانية من التليفزيون البريطانى حوارا مع هيكل قال فيه: مازلت مذهولا لهذه الزيارة.. إنها فى رأيى تجىء على عكس كل شىء من أسس سياساتنا قبلها حتى فى عهد الرئيس السادات نفسه.. كيف يمكن عبور الخطوط إلى الناحية الأخرى.. وهناك حالة حرب مازالت قائمة، وأجزاء من وطننا ومن العالم العربى محتلة، والخصم الذى نعبر الخطوط إليه يقول لنا صراحة إنه لن يقبل تحت أى ظرف من الظروف أن ينسحب إلى ما وراء خطوط سنة ١٩٦٧ ولن يقبل تحت أى ظرف من الظروف قيام دولة فلسطينية؟. إننى لا أعرف للرحلة سابقة أخرى فى التاريخ.

هذا ما كان يقوله ويكتبه.

بعد ذلك امتنع هيكل عن الكلمة المنطوقة مع قرب إتمام الزيارة، وغادر القاهرة إلى الإسكندرية، وبعد فترة من الصمت الكامل عاد للإدلاء بحديث إلى صحيفة التيمس البريطانية نشرته يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٧٩ فى الصفحة الأولى واستكملته فى الصفحة الرابعة وكان عنوان الصفحة الأولى (هيكل يحذر من مخاطر اتفاق بغير قبول عربى: تحذير من سلام مصنوع من ورق الكرتون)، كما أدلى قبل ذلك بحديث إلى جريدة الاكسبريس الفرنسية نشرته فى صفحتها الأولى، ونشرت أخبار اليوم يوم ١٠ ديسمبر ١٩٧٩ فقرات من بعض ما جاء فى هذا الحديث فى صفحتها الأولى تحت عنوان

(واحد ضد مصر) واكتفى هيكل للرد على هذا الاتهام بكتابة مقال ختمه بعبارة (إننى واحد من مصر).

ونشر هيكل مقالا بعنوان (هذا هو الرد: مناحم بيجن شخصيا) ذكر فيه أن رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن قال فى بيانه أمام الكنيست يوم ٢١ يونيو ١٩٧٧: إننى أعلن أن حكومة إسرائيل لن تطلب من أية أمة قريبة أو بعيدة، صغيرة أو كبيرة، أن تعترف بحقنا فى الوجود.. إن أرض إسرائيل غير قابلة للمناقشة.. إننا سنسعى إلى تعميق الصداقة بيننا وبين الولايات المتحدة.. إن ما يوجد بيننا ليس فقط المشاعر والإيمان بالقيم الأخلاقية والديمقراطية المشتركة.. بل أيضا المصالح المشتركة الحقيقية والعميقة.. وأنا واثق أن الشعب والإدارة فى أمريكا لن يقبلوا لنا إلا ما نقبله لأنفسنا.

وأشار فى مقاله إلى ما قاله بيجن فى أول زيارة له إلى أمريكا بعد انتخابه رئيسا للوزراء، وضمن ما قاله: إننا جعلنا العرب ييأسون من أنفسهم.. ثم جعلناهم ييأسون من الاتحاد السوفيتى.. والآن لابد أن نجعلهم ييأسون من الضغط علينا بواسطة الولايات المتحدة، وعندما يتم ذلك فسوف يدركون أنه ليس أمامهم وسيلة غير التوجه إلى إسرائيل مباشرة، وقبول ما نعرضه عليهم.

□□□

وأشار هيكل فى هذا المقال أيضا إلى ما قاله بيجن فى الجلسة المغلقة التى حضرها بعض أعضاء مجلس الرؤساء اليهود فى أمريكا بدعوة من لجنة أمريكا- إسرائيل للشئون العامة وهى اللجنة التى تشرف على توجيه وتنسيق النشاط الإسرائيلى اليهودى فى القارة الأمريكية، وقال بيجن: إن الرئيس السادات جاء إلى القدس وكان بغير شك على اطلاع كامل بالنسبة لسياسة الحكومة، ولقد أعدت تأكيد خطوط هذه السياسة فى نفس الوقت الذى وجهت فيه الدعوة إليه، لأنى لم أشأ أن أترك شيئا للمصادفات.. ولقد اندهشت أن الرئيس السادات قال: إنه لا يريد حلا

منفردا مع إسرائيل، وكأن رأيى أنه ليس أمامنا شىء آخر، فهو لم يكن يحمل تفويضا من الآخرين حين جاءنا.. بل إن الآخرين كانوا يهاجمون زيارته لنا.. وكانت تعليماتى إلى وفدنا الذى ذهب إلى محادثات القاهرة محددة بقصر المناقشة على العلاقات المصرية الإسرائيلية، ولم تكن هناك إمكانية حقيقية لبحث أى شىء آخر.

هكذا كانت أحاديث ومقالات هيكل هجوما على مبادرة السادات بزيارة القدس، وما تبعها من مفاوضات واتفاقات.. وإن كان أنيس منصور قد كشف بعد أكثر من ٢٥ عاما فى عموده اليومى (مواقف فى الأهرام يوم ٢٦ نوفمبر٢٠٠٣) أن الرئيس السادات فى مباحثاته مع جولدا مائيرا رئيسة الوزراء الإسرائيلية أثناء زيارته للقدس حدثها عن قيام دولة فلسطين فقالت له: ليس فى حياتى فقال لها: فى حياة الذين بعدك.. فكان ردها: ولا فى حياة هذا الكون!

□□□

فى هذا الجو الملبد.. الملىء بالخلافات والتوتر. وهجوم الدول العربية على السادات بسبب المبادرة جاء قرار إحالة هيكل إلى المدعى الاشتراكى. ويتحدث هيكل عن هذه التجربة فيقول: لسنوات طويلة تعرضت فى مصر لحملات عاصفة، ولم تكن لدىَّ بالطبع فرصة للرد أطرح فيها وجهة نظرى، ومع أنى أوضحت بعض الأمور فيما نشرته خارج مصر، إلا أننى كنت حريصا على ألا أنقل (خناقة) مصرية إلى خارج مصر، وهكذا فإن محاضر التحقيق الذى أجراه معى المدعى الاشتراكى كانت أول مناسبة تتيح لى أن أطرح وجهة نظرى.. وطوال فترة التحقيق التى امتدت ثلاثة شهور، من يونيو إلى أغسطس كان التحقيق معى خبرا فى كل الصحف المصرية، بنفس الصيغة فى نفس المكان تقريبا، بأننى ذهبت إلى جلسات التحقيق وعدت متهما بأننى كتبت خارج مصر ما أساء إلى سمعتها.. بدون تفصيل أو إيضاح، وإزاء هذا الغموض راجت داخل مصر وخارجها أقاويل عما يجرى فى التحقيق، ووجد بعض ذلك طريقه إلى النشر فى صحف عربية وأجنبية، وكان فيه ما هو قريب من الحقيقة، كما كان فيه

ما هو بعيد عنها، وطوال فترة التحقيق، ولمَّا أبلغت رسميا بقرار منعي من السفر، امتنعت متطوعا عن الكتابة والنشر لكي أقطع الطريق عن أية حجة أو لبس، وبعد انتهاء التحقيق وبعد إبلاغي رسميا برفع الحظر على السفر رأيت أن أنشر وقائع هذا التحقيق السياسي في كتاب بعنوان (وقائع تحقيق سياسي).

□□□

كانت الجلسة الأولى في العاشرة من صباح الأربعاء ١٤ يونيو ١٩٧٨، وكان أول سؤال وجهه المدعي الاشتراكي - المستشار أنور حبيب - هو: هل تعتنق عقائد سياسية معينة؟. وكانت إجابة هيكل: أعتقد أن قناعاتي هي القناعات الأساسية للثورة المصرية.

وكان السؤال الثاني: ما هي وجهة نظرك في الصراع الدائر في الشرق الأوسط والعناصر المؤثرة فيه؟.

وكانت إجابة هيكل: وجهة نظري كما شرحتها في كل ما كتبت: أن هناك صراعا قائما بين الحركة القومية العربية ككل وبين قوى الاستعمار العالمي، وأن إسرائيل تلعب دور الطليعة المتقدمة لهذه القوى، كما أن مصر هي القوة الطليعية للعالم العربي ودورها في هذا دور أساسي لأنها القوة الوحيدة القادرة حاليا على إدارة الصراع وبالتعاون مع الشعوب العربية، فضلا عن اعتقادي الراسخ بأن مصر على وجه التحديد مستهدفة من الكيان الصهيوني، واعتقادي أنها مستهدفة حتى أكثر من فلسطين، بقصد عزلها عن كتلتها الطبيعية وهي الأمة العربية، وخريطة الصراع في المنطقة كما يلي: قوى الاستعمار الراغبة في السيطرة على المنطقة لدواع معروفة (موقعها الاستراتيجي.. ثرواتها وخصوصا البترول..إلى آخره) ومع هذه القوى هناك إسرائيل، وهي موجودة بحكم صلتها الوثيقة بالقوى الاستعمارية، لكنها أيضا موجودة لأهداف خاصة بها أبرزها الحلم الصهيوني.. ومن ناحية أخرى هناك الأمة العربية الراغبة في تحقيق استقلالها وحريتها وحقها في استغلال مواردها.. هكذا نجد إسرائيل موجودة

فى الصراع بالوكالة عن الاستعمار العالمى، وبالأصالة عن الحلم الصهيونى.. ومصر موجودة فى الصراع بالوكالة عن الأمة العربية وبالأصالة عن ضرورات استراتيجية مصرية.. إن حركة الصراع تركزت فى فلسطين، ولكن حدود هذا الصراع فى الحقيقة أبعد من فلسطين بكثير.

وأضاف هيكل: لقد شرحت تصوراتى تفصيلا بالنسبة لهذه القضايا فى مقال كتبته أخيرا لمجلة السياسة الخارجية الأمريكية سوف تنشره فى عددها القادم- يوليو ١٩٧٨- وسوف أتشرف بتقديم نسخة منه إلى هذه الهيئة الموقرة فور صدوره.

□□□

وكان السؤال الثالث من المدعى الاشتراكى: ما رأيك حاليا فى موقف مصر الخارجي بالنسبة لإسرائيل أو الدول الغربية والشرقية؟.

وأجاب هيكل: بالنسبة لإسرائيل فإننى شرحت رأيى وبالنسبة للغرب، فى اعتقادى أن هناك تناقضا فى المصالح بين الغرب عموما، وخصوصا الولايات المتحدة، ومصر.. ولكن علينا أن نراعى المتغيرات.. أمريكا أخذت الدور الاستعمارى بطريقة جديدة (الدولة الراغبة فى السيطرة) وكان رأيى أما وقد انتهت العلاقة الاستعمارية مع أوربا الغربية فيجب أن نحاول إدارة التناقض بأسلوب جديد نستطيع معه تضييق منطقة الخلاف وتوسيع منطقة المصالح المشتركة بقدر ما نستطيع.. أما الولايات المتحدة فقد تعاقبت المراحل فى علاقاتنا معها من الصدام إلى محاولة التعايش.. وأية محاولة للتعايش لا تلغى التناقض، ولكن تغير أساليب مواجهتنا له.. هناك مقالات لى ناديت فيها بضرورة تحييد أمريكا، وقد جر علىَّ ذلك مشاكل مع الاتحاد الاشتراكى لدرجة اتهامى بالعمالة لأمريكا.

□□□

وكان السؤال الرابع من المدعى الاشتراكى: كيف بدأ الدور الأمريكى؟.. وكيف تطور مع التطورات التى حصلت؟.

وكانت إجابة هيكل: الدور الأمريكي بدأ بطريقة واضحة في أعقاب الحرب العالمية الثانية عندما راحت الامبراطورية القديمة تتداعى، وخرجت أمريكا كالقائد الذي لا ينازع في المعسكر الغربي.. ونلاحظ أنه في عام ١٩٤٥ - في أعقاب الحرب مباشرة- كانت الولايات المتحدة تسعى إلى ثلاثة أهداف.. الحصول على حقوق وامتيازات طيران فوق الشرق الأوسط-السعي للحصول على كل ما يمكن من بترول المنطقة وكانت أزمة البترول الإيراني والتأميم في عهد مصدق مظهرا من مظاهر هذا السباق.. السعي إلى إحاطة الاتحاد السوفيتي بنطاق من الأحلاف العسكرية.. وكان مجموعة الانقلابات السورية (١٩٥٠-١٩٤٩.. إلخ). في جزء منها صدى للصراع بين شركات البترول الأمريكية والإنجليزية، ومنذ عام ١٩٥٠ عرضت الولايات المتحدة إقامة حلف دفاع في الشرق الأوسط بالمشاركة مع بريطانيا وفرنسا وتركيا، وقدم أول مشروع لمصر في فترة مقاومتها للاستعمار البريطاني (١٩٥١) ورفضت حكومة الوفد.. والمشكلة أن القوى الوطنية العربية في رغبتها في الخلاص من النظام الاستعماري القديم تصورت أن الولايات المتحدة يمكن أن تلعب دورا في مساعدتها بعد ما بدا من خلافاتها مع النظام الاستعماري القديم، لذا نجد أن السياسة المصرية في سياستها الواعية أحيانا، واللاواعية أحيانا أخرى تتصور إلى حد ما أنها تستطيع أن تضغط على القوى الاستعمارية التقليدية بواسطة علاقات جديدة مع الولايات المتحدة، لكن المسائل بدأت في التغير مع الحرب الباردة.

وفي تجربة ثورة ٢٣ يوليو مرت العلاقات المصرية الأمريكية بعدة مراحل:

١ - مرحلة الغواية - من أغسطس ١٩٥٢ إلى آخر سنة ١٩٥٥، وكان موضوع الحوار أو الضغط محاولة إغراء مصر وجعلها تجر الدول العربية وراءها في حلف عسكري لمواجهة السوفييت، وثقتها أن ذلك ممكن بالإغراء وبالمساعدة الاقتصادية والعسكرية، وحاولت مصر أن تستعمل الولايات المتحدة في الضغط على بريطانيا، وكانت حجتها أنها لا تستطيع أن تدخل في أحلاف جماعية إلا بعد التحرر من

الاحتلال. وبدأت مصر تنادى بإمكان قيام نظام عربى مستقل لحماية الأمن العربى أيضا.. وكانت وجهة نظر مصر فى ذلك الوقت أنها لم تكن تعتبر أن الاتحاد السوفيتى هو الخطر الأساسى عليها، وترى أن قبولها الدخول فى أحلاف عسكرية يعرضها لضربات نووية، وأن مقاومة الشيوعية لا تكون بالدخول فى أحلاف، إنما بالتنمية وبنظام عربى يحقق وحدة الأمن والمصلحة العامة للعالم العربى.

٢ - مرحلة احتواء - بعد سنة ١٩٥٥ تمثلت فى تشجيع قيام حلف بغداد بمناورات ضد مصر، وسحب عرض السد العالى، والحصار الاقتصادى والسياسى، وهذه المرحلة بلغت ذروتها بمشروع ايزنهاور سنة ١٩٥٧ -أما فيما يتعلق بأمريكا وحرب السويس فنرجع فيه إلى مجموعة وثائق الخارجية الإسرائيلية المنشورة سنة ١٩٦٨ ومقالاتى عن ٢٠ سنة بعد حرب السويس المنشورة سنة ١٩٧٦. ولابد أن نسلم بأننا استفدنا من أمريكا فى حرب السويس ودوافعها إلى مساعدتنا فى ذلك الوقت كانت محكومة بعوامل دولية لا تتعلق بحرصها على النظام المصرى، إنما تتعلق بأن الغزو تم بدون تنسيق معها، وبأن تأميم قناة السويس أحدث فورانا فى المنطقة العربية أعطى مصر قوة دفع هائلة، والحقيقة أن حلف بغداد سقط عمليا فى السويس سنة ١٩٥٦ ودفن رسميا فى بغداد سنة ١٩٥٨، وكان الهدف لأمريكا بعد السويس هو تحقيق أهداف العدوان بوسائل أخرى.

٣ - فى المرحلة الثالثة مع أمريكا حاولت الحركة القومية العربية- ومصر بالذات - أن تأخذ ظاهر الأمور، وأن تشجع أمريكا للقيام بدور إيجابى فى المنطقة، وقد بدا حتى نهاية حكم الرئيس كيندى أنه يمكن الحفاظ على صيغة علاقة محتملة مع الولايات المتحدة، وساعد على ذلك أن هذه الفترة شهدت خلافات بين الحركة القومية العربية والاتحاد السوفيتى، وكانت هذه هى الفترة التى عقدت فيها اتفاقية القمح الأمريكى مع مصر، ولكن عندما تغيرت الصورة السياسية فى المنطقة وسقط حكم عبدالكريم قاسم فى العراق، ثم لحقه نظام الانفصال فى دمشق وبدأت حركة القومية

فى الفوران من جديد، عادت أوضاع التناقض مع أمريكا فى عصر جونسون، وتبدت فى محاولات للضغط على حرية الإرادة المصرية، فيما يتعلق بأنواع التسليح، ومن ذلك طلبه حق التفتيش الأمريكى على مصانع الصواريخ المصرية ومصانع الطائرات ودخلنا مرة أخرى مرحلة عنف ظلت تتصاعد حتى نهاية سنة ١٩٦٦ عندما بدأ الحصار الاقتصادى بإلغاء اتفاقات القمح، ثم بدأ التمهيد لمؤامرة ١٩٦٧.

بعد ذلك، وفى مرحلة ما بعد العدوان، كانت قد تأكدت فى المجال الدولى ظاهرة الوفاق وما تستتبعه من ضرورة حسن ضبط وإدارة العلاقات بين القوتين العظميين، وقد بدأت من قبل العدوان- وواصلت بعده- الدعوة إلى تحييد أمريكا.. وهنا يهمنى إظهار الحقيقة، وهى أن السياسة المصرية كانت تحاول بكل الوسائل العثور على أرضية تستطيع عليها أن تقيم نوعاً من الاتصال مع أمريكا، من ذلك برقية جمال عبدالناصر فى تهنئة نيكسون بنجاحه، وما أعقب ذلك من بعثه ممثله الخاص سكرانتون الذى تحدث لأول مرة عن سياسة أمريكية متوازنة، ثم الدكتور محمود فوزى لواشنطن ليعزى فى جنازة أيزنهاور ويجرى اتصالات، ثم رسالة عبدالناصر المفتوحة إلى نيكسون فى أول مايو ١٩٧٠ بأن يضغط على إسرائيل للانسحاب أو يمتنع عن إمدادها بالسلاح وإلا اعتبر شريكاً لها فى احتلال الأرض العربية، ثم مبادرة روجرز. واستمرت المحاولات فى عهد الرئيس السادات، وأتذكر أننى -كما كنت فى عهد عبدالناصر- قمت إلى جانبه بدور لا بأس به فيما أظن، وعلى سبيل المثال فإن الرئيس السادات كلفنى بأن أتحدث نيابةً عنه إلى مستر اليوت ريتشاردسون الوزير الأمريكى الذى جاء ليعزى فى وفاة عبدالناصر، ثم كلفنى بمقابلة ويليام روجرز، وكانت هناك موضوعات مطروحة تمثلت فى مبادرة روجرز ثم مبادرة الرئيس السادات فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١.



ثم أفاض هيكل فى شرح تطورات العلاقات المصرية السوفيتية.. خاصة فى المساعدة على إعادة بناء الجيش المصرى سنة ١٩٦٧ وتطوير القوة العسكرية المصرية وأدى ذلك إلى تمكن مصر من خوض حرب الاستنزاف التى يعتبرها الخبراء العسكريون -والإسرائيليون- حربا رابعة.. إلى إنهاء الوجود العسكرى السوفيتى فى مصر سنة ١٩٧٢.. ثم قيام المشير أحمد إسماعيل بزيارة الاتحاد السوفيتى فى أواخر سنة ١٩٧٢ وبدأ بعدها التدفق الضخم من السلاح السوفيتى إلى مصر. وبعد حرب أكتوبر ظهر نوع آخر من المشاكل كان من أثره أن عاد التوتر فى العلاقات.. وهنا لابد أن نلاحظ أن الاتحاد السوفيتى كانت بينه وبين الحركة القومية العربية منطقة لقاء ومنطقة خلاف.. نحن - الاثنين - نرغب فى الخلاص من الاستعمار. وهذه منطقة اللقاء.. ولكن الخلاف يبدأ بعد ذلك.. نحن نريد استقلالنا الكامل.. والاتحاد السوفيتى يريدنا أقرب ما يمكن إليه.. ذلك هو الأمر المنطقى فى العلاقات بين الدول.. مناطق لقاء ومناطق خلاف، ومهمة السياسة أن تحاول توسيع مجالات اللقاء وتحاول تضييق مجالات الخلاف، والموضوع ليس موضوعاً شخصياً، ولكنه أكبر من ذلك.. وقد دافعت عن ذلك ومازلت أدافع عن دور طبيعى ومشروع للاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط ولم يؤثر فىَّ أن بادجورنى مثلاً طلب إلى الرئيس السادات ذات مرة إخراجى من الأهرام لأنى أتعرض بالنقد للسياسة السوفيتية.

وختم هيكل إجابته بقوله: هذه هى الصورة فى خطوطها العامة.

وأعلن المدعى الاشتراكى: انتهت الجلسة. الجلسة التالية موعدها غداً الخميس ١٥ يونيو ١٩٧٨.

□□□

الجلسة الثانية. الخميس ١٥ يونيو ١٩٧٨ وجرى التحقيق كما يلى:

المدعى الاشتراكى: ما هى وجهة نظركم بالنسبة للسياسة التى انتهجتها مصر مع الدول العربية فى فترة مشاركتكم فى العمل السياسى وحتى الآن؟.

هيكل: إن كل سياسة تستمد اتجاهاتها من مصدرين: أولهما (الثوابت) والثانى (المتغيرات). إننى وضعت انتماء مصر القومى- أى العربى- بين الثوابت، أما الطريقة التى تمارس بها مصر انتماءها العربى فهى تخضع للمتغيرات. ونستطيع أن نرى أكثر من نمط للطريقة التى مارست بها مصر دورها العربى. من أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى قيام الثورة كانت الجامعة العربية هى الإطار الذى مارست فيه مصر دورها بقيادة تيار عربى غالب، ومن ذلك المعركة ضد الأحلاف، حلف بغداد وفترة الاندفاعات الوحدوية- قيام الجمهورية العربية وفترة بداية التحولات الاجتماعية والاتجاه نحو الحل الاشتراكى. وهناك مثلاً نمط ثالث مارست به مصر دورها بعد الثورة أيضاً، وهو نمط قيادة إجماع عربى شامل وذلك يحدث عادةً فى أوقات الخطر الخارجى الداهم، ويمكن أن نقول إن مؤتمرات القمة العربية تعبر تعبيرا واضحا عن هذا النمط، ومن ذلك مثلا مؤتمرات القمة العربية سنة ١٩٦٤ و١٩٦٥ وبعد حرب ١٩٦٧ وبعد حرب ١٩٧٣ وهكذا..

المدعى الاشتراكى: وما هى مواطن الصدام، ومدى ما وصل إليه فى هذه المرحلة وإن ظلت العلاقات قائمة بين مصر والدول العربية دون خلافات أو صدامات، وإن كانت قد حدثت اصطدامات فما مرد ذلك فى رأيك؟

هيكل: لقد حدثت اصطدامات بالتأكيد، ويمكن ردها بصفة عامة إلى أربعة أسباب رئيسية:

١ - اختلاف مراحل التطور بين شعوب الأمة العربية.

٢ - اختلاف التصورات المطروحة لحل التناقض الرئيسى الذى يواجه الأمة العربية فى هذه المرحلة، وهو التناقض مع إسرائيل.

٣ - اختلاف الأوضاع الاقتصادية بين البلاد العربية.

٤ - ظروف وطبيعة الارتباط بين بعض الدول العربية وبعض القوى الخارجية.

□□□

وشرح هيكل رأيه فى أسباب الخلافات بين مصر والسعودية فى مرحلة من المراحل بسبب التطبيق الاشتراكى فى مصر، والخلافات مع حزب البعث بسبب الاختلاف فى النظر إلى بعض قضايا العمل العربى، ومع حزب البعث العراقى لأنه كان شديد الجموح فى نظرته إلى استراتيجية مواجهة الصراع العربى الإسرائيلى، ومع المغرب بسبب التزام مصر المبدئى فى الدفاع عن الثورة الجزائرية، ومع سوريا بعد الانفصال واستمرت الخلافات بعد سقوط حكم الانفصال فى دمشق وإلى ما قبل ظهور الرئيس حافظ الأسد بسبب الطبيعة المغامرة للنظام السورى فى تلك الفترة، ومع السودان بسبب منطقة حلايب.. وهكذا.. وهكذا.

المدعى الاشتراكى: فى رأيك هذه الخلافات التى ذكرتها.. أيهما ترى كان على حق؟ مصر أو الدول العربية؟

هيكل: شأن أى خلاف يقوم داخل نظام واحد لا يمكن إنسانيا أن يكون لطرف واحد الحق فى كل ما يقوله أو يفعله بينما يحتكر الطرف الآخر الخطأ، وأنا أعتقد بصفة عامة أن الخط الاستراتيجى المصرى فى هذه الفترة كان خطا سليما.

المدعى الاشتراكى: هل اتخذ الحوار بين الدول العربية شكل حوار سياسى أم اتخذ صورا وصلت أحيانا إلى قرب الاشتباكات العسكرية؟.

هيكل: .... إننى أظن أن مصر كانت على حق استراتيجيا فى اليمن على رغم أننى أعترف أننى فى البداية عارضت التدخل العسكرى المصرى فى اليمن.

المدعى الاشتراكى: ما هى وجهة نظرك فى المواجهة العربية الإسرائيلية حتى الآن؟.

هيكل: لا أتصور أن العرب يستطيعون تحقيق هدفهم دفعة واحدة، بسبب الظروف العالمية الراهنة وظروف القوة السائدة.. إننى أتصور أنه صراع طويل وعلينا قدر ما نستطيع أن نعبئ له، وأن نتعامل معه مرحلة بعد مرحلة بما يتناسب مع

طاقاتنا والطاقات العربية، وأن نجعل تكاليفه محتملة خصوصاً بالنسبة لشعب مصر، ولهذا فأنا أعتبر أن عملنا فى هذا السبيل هو مزيج من الحرب والسياسة..

المدعى الاشتراكى: القوتان العظميان فى منازعتهما على الشرق الأوسط. من الذى يحقق للعرب ولمصر مآربهم فى هذه المشكلة خاصة أنكم تقولون: إنه لابد من مزيج من السياسة والقوة مرحلياً لحل المشكلة الفلسطينية أو الشرق الأوسط، بما فيها الاحتلال فى سيناء والجولان وفلسطين؟

هيكل: .. من ناحية إدارة الصراع العربى الإسرائيلى لابد أن يكون فى اعتبارنا أن هناك إرادة عربية مستقلة لها إمكاناتها ومواردها القادرة على أن تعطيها حداً كبيراً لحرية الحركة والتصرف، ومع تسليمى بالصراع بين القوتين العظميين فى الشرق الأوسط فإن أهم الحقائق هو وجود طرفين محليين آخرين فى الصراع وهما: إرادة عربية لها إمكانية استقلال، وإرادة إسرائيلية لها إمكانية استقلال.. الحل الأمثل فى اعتقادى أن تتمكن مصر من تعبئة الإرادة العربية والإمكانات العربية لكى تحصل من القوتين العظميين على أقصى ما تستطيع كل منهما تقديمه لها. ولقد مارست مصر هذه السياسة المتوازنة القائمة على الاستفادة من الصراع الدولى، ومارستها بنجاح، وفى كل صراع دولى يمكن أن يكون الأطراف المحليون ضحايا أو مستفيدين، وهذا يتوقف على حجم إرادتهم المستقلة وإمكاناتهم. وأنا أعتقد أن حرب أكتوبر كانت تطبيقاً ناجحاً لهذه السياسة، وكانت معارك الحرب كلها بسلاح سوفيتى، وقد استطاعت السياسة المصرية أن تشد الولايات المتحدة لدور إيجابى فى سبيل الحصول على حلول ولو مؤقتة، ولهذا فإن علينا الاستمرار فى الحصول من الطرفين الدوليين على أقصى الممكن.

المدعى الاشتراكى: أشرتم إلى حرب أكتوبر، فهل هناك وجهات نظر معينة بالنسبة لفض الاشتباك الأول والثانى؟

هيكل: .. مما يشرفنى أننى كنت قريباً إلى أبعد حد من الرئيس السادات فى مراحل التحضير السياسى والعسكرى لحرب أكتوبر، وأبرز ما أعتز به فى تلك الفترة هو

أن الرئيس السادات كلفنى بكتابة توجيهه السياسى والاستراتيجى إلى المشير أحمد إسماعيل على فى أكتوبر ١٩٧٣ بتحديد هدف الحرب.. وكانت ثقة الرئيس السادات- وهو قائد هذه المعركة- واضحة فى هذا التكليف، إلى جانب أننى كنت زائراً شبه مقيم فى قصر الطاهرة- مقر قيادته فى ذلك الوقت- ليس فى ذلك فقط.. بل إن الرئيس السادات كلفنى أيضاً بكتابة خطابه لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر والذى حوى شروطه لوقف إطلاق النار، وإذن فسواء فى قضية الحرب أو جهود الحل كان موقفى فى منتهى الوضوح. وأعتقد أننى بعد حرب أكتوبر وفى الإعداد لفك الاشتباك أبديت آراء واجتهادات وكان هدفى توسيع دائرة الخيارات المطروحة، وأعتقد أننى لأسباب طويلة كانت لى آراء مختلفة فى موضوع فك الارتباط الأول والثانى، ولكنى أحب أن أوضح مسألة مهمة تتعلق بدورى أو دور أى صحفى. وهو أن القرار له سلطة شرعية واحدة، وأن هدفنا جميعاً لا يمكن أن يكون إلا إدارة حوار يقصد منه توسيع دائرة الاختيار.

□□□

المدعى الاشتراكى: هل لم تكن معارضا لفض الاشتباك؟

هيكل: نعم. وقد أبديت آرائى فى تلك الفترة فى مجموعة مقالاتى التى نشرتها الأهرام أيامها.

المدعى الاشتراكى: عند فك الاشتباك الثانى كنت قد تركت الأهرام، فهل أبديت بعض الملاحظات أو الأفكار فى أية صحيفة أو وسيلة إعلام؟.

هيكل: نعم.. وفى أى سؤال عما كتبت فى هذا الموضوع وفى تلك الفترة، فإنى أرجو أن يكون المرجع هو نصوص ما كتبت.

□□□

المدعى الاشتراكى: بالرغم مما أكدته فى تشجيعك واقتناعك بالحرب فقد نشرتم مقالاً بعنوان (تحية إلى الرجال) فى مارس ١٩٧١ أخشى أن يكون به تثبيط عزائم رجال القوات المسلحة؟

هيكل: أرجو أن يسمح لى بالاستفاضة فى شرح هذا الموضوع لأنه موضوع بالغ الأهمية. إننى تعرضت لحملات راحت تدعى علىَّ بما لم أقله، وربما عكس ما كتبت.. لقد قيل إننى بالغت فى قوة العدو وشككت فى إمكانية الحرب وإننى كنت انهزامياً.. لقد كنت أكثر الذين يتعرضوا بالكتابة وضوحا وتحديدا فى قضية الحرب، وقد نسب إلىَّ بعض الذين يتعرضون للكتابة الآن أننى الذى صككت شعار أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها. وهذا صحيح.. ولكنى لا أريد أن أبنى موقفى أمامكم هنا على مجرد شعار.. إننى تعرضت لقضية الحرب فى أكثر من ثلاثين مقالاً وأعتقد أن ما فيها كاف لتوضيح موقفى.

مقال بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٦٧ عنوانه (طريق بعد القتال) قلت فيه (إن النكسة التى فُرضت على النضال العربى تضعه أمام مرحلتين لا يستطيع اختصارهما فى مرحلة واحدة، مرحلة لإزالة آثار العدوان الذى بدأ يوم ٥ يونيو ومرحلة بعدها لقضية النضال العربى الأولى وهى فلسطين.. إن النكسة تجعل المرحلة الأولى عاجلة لا تقبل الانتظار، ومعاودة العمل من أجل قضية فلسطين تتطلب اجتياز مرحلة إزالة آثار العدوان كحد أدنى لابد من توفيره وضمانه.. ثم قلت فى فقرة أخرى (إن الثورة الحقيقية ليست فى ترديد الشعارات أو تسجيل المواقف، إنما الثورة الحقيقية هى فى تحريك كل الممكن من طاقات الأمة العربية وقواها وتوجيهها إلى ساحة المعركة بطريقة واعية وإيجابية.. وفى فقرة تالية قلت: ولقد قلت- ومازلت أقول- إنه لا مفر من القتال مالم تحدث معجزة تحول دونه وترى للمشكلة حلا غيره، مع العلم بأننا لا نعيش الآن فى زمان المعجزات.. إنى أكاد أقول إن العبء الأساسى سوف يكون على الطيران بالدرجة الأولى، وليست هذه عبرة يوم ٥ يونيو وحده، فإن هذه الحقيقة كانت واضحة أمام كثيرين من قبل هذا اليوم بزمان طويل.

وهكذا استطرد هيكل فى قراءة فقرات من مقالاته التى تدل على أنه كان مع الحرب ولم يكن مشككاً فى قدرات رجال القوات المسلحة..

□□□

ووصل هيكل إلى مقاله بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٦٩ وعنوانه (نظرة على خط وقف إطلاق النار) دعا فيه إلى إشعال خط وقف النار، وقال فيه: من ناحيتنا نحن نخسر أبطالاً، وتتعرض منشآت لدينا للخطر، ولكن خط وقف إطلاق النار يثبت أمام العالم مع كل يوم أنه مجرد لغم موقوت، كما أن جماهيرنا تجدد إيمانها بحقها فى الدفاع عن النفس وقدرتها عليه برغم قيود الاضطرار والانتظار ثم إن مقاتلينا يجرى تطعيمهم للمعركة بالدم والنار بحيث لا ينقض كل شيء عليهم بغتة كما حدث فى يونيو ١٩٦٧. ومن ناحية العدو فإن تكاليف الاحتلال عليه تزيد، ونزيف الدم لديه يزيد، واستهلاك المعدات لديه يزيد، والأعباء الاقتصادية التى يتحملها بسبب المواجهة تزيد، والفارق بين العدو وبيننا هو أن أية خسارة قد تلحق بنا لن تكون كبيرة إذا ما قورنت بما خسرناه فى يونيو ١٩٦٧ وكان غالياً، وأما أى شيء يخسره العدو فسوف يكون كبيراً بعد كل ما استطاع تحقيقه فى انتصار سنة ١٩٦٧.. وكان رخيصاً.

- عندئذٍ قال المدعى الاشتراكى وسجل فى محضر التحقيق: هذا يكفى لجلسة اليوم، واقترح تأجيل الجلسة إلى يوم الأربعاء ٢١ يونيو ١٩٧٨.

□□□

الجلسة الثالثة: الأربعاء ٢١ يونيو ١٩٧٨.

المدعى الاشتراكى: فى جلسة التحقيق السابقة كنت تتحدث عن مقال مارس ١٩٧١ فى الأهرام (تحية إلى الرجال) فهل لديك ما تريد إضافته؟

هيكل:.. لقد كنت دائماً أقول وأكرر إنه لا مفر من الحرب، وقد أوضحت بالتحليل أن حربنا لابد أن تكون حرباً هجومية نقوم نحن بشنها، ثم شرحت أنها لابد من أن تكون حرباً طويلة لتلافى أثر التفوق العسكرى الإسرائيلى الذى يعتمد على الحرب الخاطفة، ثم ركزت على الأسباب التى تحتم أن تكون حربنا على جبهتين بما يعنيه من ضرورة إقامة جبهة شرقية مع سوريا على الأقل. ثم وصلت إلى النقطة الساخنة فى الاستراتيجية العربية وهى أن أول أهداف الحرب لابد أن يكون تكبيد

العدو أكبر قدر من الخسائر البشرية وفى المعدات، لأن ذلك هو الطريق المباشر لكسر نظرية الأمن الإسرائيلية، كما يكفل تغيير موازين القوة فى المنطقة.. ذلك كله استعرضته فى مقالاتى بعد الحرب سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٦٨.

□□□

وقال هيكل: أمامى مقال نشر يوم ١١ إبريل ١٩٦٩ بعنوان (الجيش الإسرائيلى والدواعى الملحة لهزيمته فى معركة) حوى تصورا كاملا لمعركتنا الممكنة مع إسرائيل.. إن التصورات التى جاءت فيه وصلت إلى درجة أدعى معها أن ما حدث بعد ذلك فى أكتوبر ١٩٧٣ لا يخرج كثيرا عما جاء فيه، والمقال شاهد. وجاء فيه: (يتحتم على أمتنا العربية أن تبذل قصارى ما تستطيع لكى تجعل ميزان الخوف والطمأنينة يميل إلى ناحيتها فى صراع المصير الدائر الآن على أرض الشرق الأوسط.. إسرائيل بوسائل صناعية حاولت قلب الميزان، ونجحت فى هذه المحاولة إلى حد ما، وأخذت لنفسها الطمأنينة وتركت الخوف للعرب بعكس كل قوانين المنطق والطبيعة.. وهناك طريق واحد: إنزال هزيمة لا شك فيها بالجيش الإسرائيلى فى معركة عسكرية.. معركة عسكرية واحدة.. لست أتحدث عن هزيمة العدو فى الحرب، إنما أتحدث عن هزيمة العدو فى معركة، فهزيمة العدو فى الحرب مازال أمامها طريق طويل لا تظهر أمامنا احتمالاته الآن، ولكن هزيمة العدو فى معركة تدخل فى نطاق القدرة التى يمكن أن تكون متاحة قبل الطريق الطويل لنهاية الحرب.. المعركة التى أتحدث عنها أقل طموحا من معركة ٥ يونيو، قد تكون محدودة، ولكن يتحتم أن يكون النصر العربى بعدها لا شك فيه، والهزيمة الإسرائيلية بعدها لا شك فيها فى إطار هذه المعركة.. معركة ترغم العدو على التقهقر من مواقع يحتلها ويرتد إلى مواقع أخرى خلفها ولو بكيلومترات قليلة. أتحدث إذن عن معركة ولا أتحدث عن الحرب كلها، وأتحدث عن معركة محدودة، ولو وقعت لكان تأثيرها على الحرب كلها غير محدود. سوف تكسر أسطورة تحاول إسرائيل ترسيخها فى الأذهان مؤداها أن الجيش الإسرائيلى لا يقهر. والجيش الإسرائيلى هو العمود الفقرى للمجتمع الإسرائيلى، ويمكن أن نقول ما حققته

المقاومة العربية ضد الصهيونية- ولو حتى بمجرد الرفض- هو أن الأحلام الكبرى للحركة الصهيونية قد تبددت، واستحالت الدولة الإسرائيلية- أمام الرفض العربى- إلى حامية عسكرية، وبالتالى أصبح المجتمع الإسرائيلى أشبه ما يكون بمجتمع الحامية العسكرية، وحتى إذا لم يكن من شأن المعركة، كما أتصورها كسر العمود الفقرى للمجتمع الإسرائيلى، فإن مثل هذه المعركة سوف تؤدى على الأقل إلى شرخ فى العمود الفقرى الإسرائيلى، ومثل هذه المعركة سوف تبدد أو تهز الاعتقاد لدى سكان إسرائيل بأن الجيش الإسرائيلى قادر على حمايته. وتؤدى إلى زعزعة نفوذ المؤسسة العسكرية التى أصبحت لها اليد الطولى فى توجيه وتنفيذ السياسة الإسرائيلية.. ومثل هذه المعركة سوف تؤدى إلى سقوط فلسفة الاستراتيجية الإسرائيلية التى تنادى بإمكانية فرض السلام على العرب، وفرض السلام هو فى الحقيقة تعبير مزيف يعنى فى الصميم (شن الحرب).. ومثل هذه المعركة وما يترتب عليها سوف تمد يد التغيير إلى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء أزمة الشرق الأوسط بشكل خاص.. إن إسرائيل على رغم ضآلتها أثبتت للسياسة الأمريكية أنها أهم بالنسبة لها من العرب على ضخامتهم بالنسبة للمدى القصير على الأقل، ومع أن المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط كلها على الجانب العربى فإن الولايات المتحدة تعطى تأييدها كله للجانب الإسرائيلى. ومن المتناقضات الغريبة أن الولايات المتحدة تحمى مصالحها لدى العرب بالدعم الذى تعطيه لإسرائيل، أى أن إسرائيل هى المسدس الموجه إلى الأمة العربية الذى تستطيع الولايات المتحدة وراء إرهابه أن تواصل تحقيق مصالحها فى المنطقة.

وقرأ هيكل المقال كله للمدعى الاشتراكى وفيه: هل مثل هذه المعركة ممكنة؟ والرد: لست أدعى لنفسى خبرة عسكرية، ومع ذلك فإنى أقول بإمكانية حدوث مثل هذه المعركة التى يمكن أن ننزل فيها بالجيش الإسرائيلى هزيمة لا شك فيها.

واستعرض هيكل أمام المدعى الاشتراكى مقالاته الأخرى.. مقال بتاريخ ٨ أغسطس ١٩٦٩ بعنوان (إرادة الصراع وصراع الإرادة) وفيه: إن المعركة الشاملة يجب أن تبدأ فى جو الحقيقة وليس فى جو الخرافة، والحقيقة تقول: إن الجيش الإسرائيلى

قوى، ولكن القول بأن الجيش الإسرائيلى لا يقهر خرافة صاغتها أوهامنا بعد هزيمة ألحقناها بأنفسنا بأكثر مما ألحقها بنا الجيش الإسرائيلى.. وعندما يعبر جنودنا ويفاجئون جنود العدو فى خنادقه ويرونهم أمامهم يصرخون ويجرحون ويسقطون موتى، فإن ذلك له أثره المعنوى بجانب أثره المادى.. إن ضرب هيبة العدو، وكسر خرافة تفوقه الساحق مطلب ضرورى قبل الانتقال إلى منطقة صراع الإرادة.

ومقال بتاريخ ٣ أكتوبر ١٩٦٩ عنوانه (الحرب القادمة) وفيه: إن الجيش الإسرائيلى لم يعد يملك فرصة المبادأة بالهجوم واستعمال أسلوب الحرب الخاطفة بسبب المواقع الطبيعية.. وطول خطوط مواصلات العدو. ولأن دخوله وسط الكثافة السكانية انتحار. وإذن فإن الجيش الإسرائيلى سوف يكون فى الحرب القادمة فى موقف الدفاع، وهذا نوع من الحروب لم يؤهل هذا الجيش له ولا يمكن تأهيله له لأنه يتعارض مع خواصه الإرهابية، وحتى إذا جرى تأهيله لهذا النوع من الحروب، فإن الجيش الإسرائيلى يفقد بذلك أهم ميزاته.

ومقال فى ١٩ ديسمبر ١٩٦٩ بعنوان (باب الحرب) وفيه: إن الأمة العربية وإسرائيل تدخلان إلى حقبة السبعينات من باب واحد: باب الحرب.. كل شىء سوف يتقرر فى الحرب وبالحرب.. وما زلت أذكر كلمة للفريق عبد المنعم رياض فى آخر لقاء بيننا قبل أن يستشهد فى ميدان القتال بأيام قليلة. قال: فى المعركة القادمة لن تكون حربنا ضد إسرائيل فقط، إنما من أجل وجودنا ذاته. وجودنا بكرامة وشرف..

ومقال فى ٣٠ يناير ١٩٧٠ يحاول استكشاف نوع العمليات الإسرائيلية ضدنا وهو بعنوان (حتى لا نقع فى كمين.. نوع العمليات الإسرائيلية المقبلة ضدنا) ومقال فى ١٧ يوليو ١٩٧٠ تحت عنوان (عن الدفاع والهجوم) يتعرض لمشكلة مهمة أثيرت فى ذلك الوقت عما إذا كنا نملك أسلحة هجومية أو أن كل ما لدينا دفاعى؟. وشرحت وجهة نظرى كاملة بما مؤداه أنه إذا كان هدف الحرب هو تدمير القوات المسلحة للعدو، فإن

الأسلحة الحديثة- حتى ما يبدو دفاعيا بحتا بينها- تقوم فى الحقيقة بعمل هجومى.. فالصاروخ المضاد للطائرات والصاروخ المضاد للدبابات لهما قوة هجومية..

وسأل هيكل: هل فى استطاعتى بدل أن أقرأ أمامكم نصوص ما أستشهد به من مقالات أن أقدمها لكم كاملة فى ملف يلحق بالتحقيق؟.

وأجاب المدعى الاشتراكى: كنت أريد أن أقترح عليك ذلك.

□□□

وانتقل هيكل إلى موضوع السؤال: عن مقال (تحية للرجال) المنشور فى ١٢ مارس ١٩٧١ وتركزت عليه حملة كبيرة، وقال هيكل للمدعى الاشتراكى: إن كثيرين مما شاركوا فى هذه الحملة استغلوا عنصر الزمن ومضى سنوات على النشر لضمان قدر من النسيان فيكون فى استطاعتهم أن ينسبوا لغيرهم أى شىء يريدونه فى اطمئنان من أن أحدا لا يتذكر ما قيل قبل سنوات، ثم إن من يعنيه الأمر لا يستطيع أن يرد.

وقرأ هيكل نص المقال ثم قال: ماذا نجد فيه؟

أولا: سوف نجد فيه تحية للمقاتلين. ومناسبة التحية- وهذا واضح فى صلب المقال وفى مقدمته- أن هناك أمرا إنذاريا صدر فى ذلك الوقت بوضع القوات المسلحة تحت الإنذار استعدادا لعمليات عسكرية.

ثانيا: هذا المقال هو فى الواقع تصور مبكر لخطة إسرائيل العسكرية فى مواجهة أية عملية عبور لقناة السويس نقوم بها، ويلاحظ من تاريخ نشر هذا المقال أننى فى الفترة السابقة على كتابته كنت فى رحلة صحفية إلى أوروبا، واشتركت فى ندوات تبحث موضوعات سياسية وعسكرية، وتابعت دراسات عن مختلف جوانب أزمة الشرق الأوسط، وكان من نتيجة ذلك أن توفر لى تصور واضح لاحتمالات رد الفعل الإسرائيلى إذا نحن أخذنا زمام المبادرة وقمنا بعملية عبور، وقد وجدت أن أنشر على الناس ما تجمع لى من معلومات، وكنت أتصور أنه من المفيد جدا أن تعرف الجماهير أكبر قدر ممكن من الحقيقة، لأن ذلك حقها، وهو أيضا مفيد لها، وكان رأيى أن خير

تكريم للمقاتلين هو أن يكون الشعب كله عالما وعارفا بطبيعة المهام الموكولة لهم، وفضلا عن ذلك فإن الشعب سوف تكون له- من علمه ومعرفته- فرصة أفضل لمتابعة التطورات.. وأثبتت الظروف فيما بعد- وخلال حرب أكتوبر- أن ما نشرته في هذا المقال كان هو بالضبط تقريبا ما فعله الإسرائيليون في مواجهة الهجوم المصرى.. وهكذا فإننى أعتقد أنه كان يجب أن أكافأ على هذا المقال بكلمة شكر، ولا أحاسب عليه أو أهاجم بسببه.. ويقال إن نشر مثل هذه المعلومات الواردة في المقال لا لزوم له بالنسبة للقارئ العادى.. ولست أعرف من له حق الوصاية على ما يحق للقارئ العادى أن يقرأه أو لا يقرأه.. ويقال إن النشر يؤثر على معنويات الرجال الذين سيقومون بالعمليات. ولست أتصور أنهم لم يكونوا على علم بما سوف يجدونه أمامهم عندما يبدءون عملياتهم.

ويقال لماذا لم تقدم هذه المعلومات- خصوصا وهى من مصادر موثوقة- إلى المسئولين لكى يقدروها كما يرون، ثم يتصرفوا بمقتضى مسئولياتهم؟. وهذا يجرنا إلى قضية كبرى، وهى قضية مسئولية الصحفى، وأمام من هى؟. هناك من يعتبرون أن مسئولية الصحفى أمام المسئولين، وهناك من يعتبرون أن مسئولية الصحفى أمام قرائه، بل إن أية علاقة له بالمسئولين لا قيمة لها إذا لم تكن فى النهاية لفائدة قرائه، وأنا أنتمى لهذا الرأى الأخير. وهكذا فأنا كصحفى يستشعر دوره المهنى والوطنى وضعت ما لدى أمام الجميع- الرأى العام والقيادة أيضا- وكان من بين أهدافى للنشر فى ذلك التوقيت أن أقوم بعملية تنبيه.. كان قد صدر أمر إنذارى لوضع القوات المسلحة فى وضع الاستعداد لبدء عمليات، ومن سوء الحظ أن ذلك جرى ضمن صراع على السلطة فى الداخل، ولم يتورع أصحاب هذا الصراع عن إدخال قضية الحرب واستعمالها فيه. وأستشهد فى هذا الصدد بما جاء فى كتاب الرئيس السادات الذى كتب فيه قصة حياته تحت عنوان (البحث عن الذات) وأستشهد بما جاء فى صفحة ٢٩٩ وامتد إلى الصفحة ٣٠٠ يقول الرئيس السادات بالحرف:

(فى ينـاير ١٩٧١ كـان على أن أتخذ قـرارا بـالنسبة لمبـادرة روجـرز، فدعـوت إلى اجتماع اللجنة المركزية العليا ووزير الحربية ووزير الخارجية، وكان واضحا من المناقشة أن الرأى الغـالب- وهو رأى مراكـز القـوى- وهـم الأغلبيـة فـى القيـادة السياسـية التى تركها لى عبدالناصر، أن نستأنف حرب الاستنزاف مع إسرائيل فى الوقت الذى كان فيه نصف الوطن- وهو الصعيد- معرضا لإغـارات إسـرائيل كمـا حـدث خـلال عـامى ١٩٦٨ و١٩٦٩، وعلى رغم أن الاتحاد السوفيتى كان يماطل فى إرسال الصواريخ لمواجهة هذه الإغارات وحماية منشآتنا فى الصعيد (برغم أننا وقعنا معه اتفاق إرسالها) وكان يسوف فى إرسالها بمختلف الحجج. كان واضحا أيضا من مناقشاتهم أنها مناورة لإحراجى وإحراج البلد، فانتهيت من الاجتماع بأن قلت لهم إننى لم أدخل حرب استنزاف أخرى حتى تصلنى بطاريات الصواريخ، وأؤمن المنشآت فى الصعيد- نصف مصر- كما أننى سأجدد مبادرة روجرز لشهر واحد فقط ينتهى فى ٧ مارس ١٩٧١ حتى أعطى آخر فرصة للعالم ولأمريكا ولإسرائيل ليتحملوا مسئوليتهم. هذا هو نص ما كتبه الرئيس السادات فى مذكراته، ويلاحظ أن تاريخ نشر مقالى (تحية للرجال) يتوافق مع هذا التوقيت.

□□□

وحكى هيكل أنه فى يوم ٣٠ سبتمبر، بعد وفاة عبدالناصر بيومين، وقبل تشييع الجنازة بيوم واحد، شارك فى اجتماع مجلس الأمن القومى وكان عضوا فيه بوصفه وزيرا للإرشاد القومى وقتها، وكان رأى السادات أن هناك وفودا كثيرة قادمة للعزاء فى وفاة جمال عبدالناصر، ولكنهم سوف ينتهزون الفرصة لكى يتكلموا معنا فى الأوضاع، خصوصا بالنسبة لنوايانا فى موضوع وقف إطلاق النار.. كان هناك وفد سوفيتى قادم للعزاء برئاسة الكيسى كوسيجن رئيس الوزراء، ووفد أمريكى برئاسة اليوت ريتشاردسون وزير الخدمات الاجتماعية، وهو وقتها من أقرب المقربين إلى الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون، وكان هناك وفد بريطانى برئاسة دوجلاس هيوم وزير

الخارجية البريطانى، والسكرتير العام للأمم المتحدة.. وكثيرون غيرهم من ساسة العالم.. وهكذا دعا الرئيس السادات أعضاء مجلس الأمن القومى إلى اجتماع لمناقشة موقفنا المبدئى تجاه هذه النقطة بالذات: هل نجدد وقف إطلاق النار، أو نرفض التجديد؟.

ولم يحضر الرئيس السادات هذا الاجتماع لأنه كان مشغولا بترتيبات الجنازة فى اليوم التالى، أول أكتوبر، واجتمعنا فى مكتب وزير الحربية الفريق أول محمد فوزى وقتها لمناقشة الموضوع، وكان عددنا فيما أذكر قرابة عشرة أشخاص بينهم بالطبع وزير الحربية، ووزير الخارجية محمود رياض، ومدير المخابرات العامة حافظ إسماعيل، ووزير الداخلية شعراوى جمعة، ووزير الدولة أمين هويدى، ووزير شئون رئاسة الجمهورية سامى شرف، ورئيس أركان الحرب الفريق محمد صادق، ومدير المخابرات العسكرية.. وكان علينا أن نضع تقدير موقف يكون تحت تصرف الرئيس السادات فى محادثاته مع رؤساء الوفود الزائرة.

يقول هيكل: فى بداية الجلسة استمعت إلى مناقشات تصدر عن عواطف وانفعالات غير واضحة مثل: إننا لا نستطيع تأجيل المعركة تكريما لجمال عبدالناصر وإلا فإن الناس سوف يتهمون خلفاءه بالقصور أو الجبن .. وكان رأيى أن تكريم جمال عبدالناصر يكون بمعركة توافرت لها أسباب النجاح، وقلت: لابد أن نتأكد أن الفريق فوزى جاهز لفتح النار.

وكان ملخص ما قاله الفريق أول محمد فوزى إنه رجل عسكرى منضبط، يخضع لتوجيهات القيادة السياسية، فإذا طلب إليه من القيادة السياسية أن يكسر وقف إطلاق النار فسوف يفعل، وإذا طلب إليه أن يستمر فى التزامه بوقف إطلاق النار فسوف يفعل، لكن القيادة السياسية فى الحالتين يجب أن تتحمل هى مسئولية إصدار الأمر. وقال إنه يريد أمرا مكتوبا بالطريقة التى يتصرف بها، وبعد إلحاح من هيكل أعلن رأيه فقال: إنه يريد أن يلفت النظر إلى أن بطاريات الصواريخ المطلوبة لتغطية مرافق الصعيد لم تصلنا بعد.

فقلت له: إذن فإن استمرار وقف إطلاق النار لفترة محددة أخرى يناسبك أكثر فى هذه الظروف؟

ورد الفريق أول محمد فوزى: إننا لو أعطينا شهرا واحدا حتى تصل بطاريات الصواريخ المطلوبة للصعيد فإن الموقف سيكون أفضل.

وقلت فى الاجتماع: إن القائد العام يطلب مد وقف إطلاق النار شهرا. وأنا أعتقد أن المناسب الاستجابة للمطلب العالمى بتجديد فترة سريان وقف إطلاق النار بثلاثة شهور. لأكثر من سبب بينها أحزان الناس، ومسئوليات القيادة الجديدة، والعالم لن يأخذ مد وقف إطلاق النار كدليل على ضعف خلفاء عبدالناصر، ولكنه سوف يدرك من وراء القرار أن هؤلاء الخلفاء لا يتصرفون بعصبية، وأنهم يعطون أنفسهم الفرصة للإمساك بكل خيوط الموقف، وبأنهم قادرون على قيادة الجماهير دون انسياق وراء احتمالات غير محسوبة.

وصباح يوم ٣ أكتوبر عقد اجتماع حضره كوسيجن رئيس الوزراء السوفيتى والرئيس السادات كما حضره هيكل بوصفه وزيرا للإرشاد. على رغم أنه استقال وأرجئ خروجه من الوزارة إلى ما بعد الاستفتاء على السادات - مع مجموعة محددة من أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى والوزراء، وقال كوسيجن إنه حريص كصديق أن يؤكد صداقة الاتحاد السوفيتى ودعمه للنضال المصرى، ولكنه فى نفس الوقت -كصديق أيضا- يحذر من خطرين بعد عبدالناصر. الأول: هو احتمال انشقاق فى القيادة السياسية الجديدة، والثانى: هو أن تندفع القيادة السياسية الجديدة تحت ضغوط رغبتها فى إثبات نفسها إلى مغامرات غير محسوبة، وأثبتت التطورات فيما بعد أن السوفييت بالنسبة لخطر المغامرات غير المحسوبة قرروا الإبطاء فى إرسال بعض المعدات -وبالذات بطاريات الصواريخ للصعيد- وبعض جسور العبور، حتى لا يكون تمام الاستعداد حافزا إلى المغامرة كما كانوا يرون..



وقال هيكل فى التحقيق بعد ذلك: هكذا رحبت بقرار الرئيس السادات بمد العمل بوقف إطلاق النار ثلاثة شهور أخرى.. لكن المشكلة أن قضية الحرب دخلت بعد ذلك فى الصراع الداخلى حتى جاء يوم فى شهر مارس سنة ١٩٧١ تقرر فيه فعلا موعد لكسر وقف إطلاق النار، وبدء العمليات العسكرية ووضع القوات المسلحة فعلا فى حالة تأهب.. فى ذلك الوقت كتبت المقال بعنوان (تحية للرجال) وكان المقال عرضا لخطة إسرائيل فى حالة قيامنا بعبور قناة السويس، للتنبيه إلى حجم المخاطرة، وشنَّت على مراكز القوى أعنف الهجمات بسبب ما كتبت، لكن ما قاله الرئيس السادات فى كتابه عن (محاولة توريطه وتوريط البلد) فى معركة يؤيد نقطة التنبيه بين كل النقط التى أثرتها فى مقالى، والدليل النهائى على صحة هذه النقطة، أن الرئيس السادات كان قد أعلن: أن سنة ١٩٧١ سنة الحسم، ومع ذلك فإن المعركة لم تجئ إلا بعد أكثر من سنتين ونصف السنة على تاريخ كتابة هذا المقال.

المقال كان فى مارس ١٩٧١. والمعركة جاءت فى أكتوبر ١٩٧٣.

وعندما جاءت المعركة كانت التصورات التى كتبتها فى المقال مطابقة تقريبا لما حدث على أرض ميدان القتال.

وبعد هذا المقال كتبت فى ٧ يناير ١٩٧٢ مقالا عنوانه (التصدى للشبح)، وفى ٣١ مارس ١٩٧٢ كتبت مقالا بعنوان (الحرب فى زماننا) تكلمت فيه عن ضرورة (كسر حاجز الوهم) وكان ذلك قبل المعركة بسنة ونصف السنة. أين إذن دعوى الانهزامية؟ وأين بث اليأس؟. وأين التهويل فى أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر؟. كل تلك الدعاوى أبعد ما تكون عن موقفى.. بل هى عكس موقفى. وإن دورى فى حرب أكتوبر فى الناحية السياسية والإعلامية من الإعداد للحرب، وهو دور لم أعطه لنفسى، إنما أعطاه لى الرئيس السادات، يشهد لى قطعا. وقد شرحت هذا الدور تفصيلا فى كتابى (الطريق إلى رمضان) الذى نشر فى لندن بالإنجليزية، وترجم إلى أكثر من عشرين لغة فى العالم، وأستأذن فى تقديم نسخة منه إلى هذه الهيئة الموقرة.

فقد دعانى الرئيس إلى مقابلته فى استراحة برج العرب فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ١٩٧٣، ووجدت الرئيس السادات فى انتظارى على باب الاستراحة، وكانت هناك سيارة مرسيدس بنية اللون واقفة فى الانتظار، وطلب منى أن أركب معه، وجلس بنفسه على عجلة القيادة وجلست على المقعد المجاور له، وحين أراد بعض ضباط الحرس أن يركبوا معنا فى مقعد السيارة الخلفى طلب منهم الرئيس السادات أن يلحقونا فى سيارات أخرى، وانطلق بالسيارة على طريق صحراوى خلفى، وذهبنا إلى استراحة أخرى فى كنج مريوط بعد نصف ساعة، وخلالها فإن الرئيس أخطرنى بالموعد التقريبى للمعركة، وبأنه يريدنى للمشاركة فى بعض نواحيها السياسية والإعلامية، وأنه يفكر فى أن أتفرغ لهذا العمل بجانبه فى رئاسة الجمهورية وأترك عملى الصحفى فى الأهرام، وقلت له إننى أستطيع أن أؤدى ما يطلبه منى وفى نفس الوقت أواصل عملى الصحفى. وحين وصلت بنا السيارة كنا قد دخلنا فى تفاصيل الإعداد للعملية السياسية والإعلامية التى تمهد وتصاحب بدء العمليات العسكرية على جبهة القتال، وطرحنا للمناقشة عدة مسائل:

- التهيئة الدولية للبدء فى العمليات دون أن نذيع سرها الكبير.
- الطريقة التى نخطر بها الدول الصديقة مع بدء العمليات.
- الموقف حيال القوتين العظميين وكيف نتصرف حيالهما قبل وبعد المعركة؟
- الأسلوب الذى نتحدث فيه فى الأمم المتحدة توقعا لإثارة موضوع بدء العمليات فيها.
- السياسة التى نتبعها فى الإعلام عن الحرب.
- كيف يمكن أن نجد الذريعة الإعلامية المقبولة لبدء العمليات؟.
- ما هى الأدوار التى يمكن أن يعهد بها إلى كبار معاونى الرئيس فى فترة التمهيد للعمليات وفى فترة استمرارها؟.

وكنا وحدنا فى شرفة استراحة كنج مريوط واستمر حديثنا من الساعة الحادية عشرة صباحا حتى الساعة الرابعة بعد الظهر.

وقال هيكل: كنت أقرب الناس إلى الرئيس السادات فى هذه الظروف الحاسمة.. وضاعف سعادتى أن الرئيس كلفنى يوم ٢٧ سبتمبر بأن أكتب توجيهه إلى القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول -وقتها- أحمد إسماعيل على- بتحديد الأهداف الاستراتيجية للحرب، وسلمته للرئيس بخط يدى، وبلغ من حرص الرئيس عليه أنه دعا أحد موظفى سكرتاريته للكتابة على الآلة الكاتبة، ثم أمره بعد ذلك أن يبقى فى غرفة مقفلة داخل بيته فى الجيزة حتى تبدأ العمليات، ولكيلا تكون هناك ثغرة يتسرب منها السر، ثم منحه بعد ذلك علاوة.

ثم قال هيكل للمدعى الاشتراكى:

هل يمكن أن يكون موضع هذه الثقة فى هذا الأمر شخصا انهزاميا أو داعية يأس؟.

..

واستمر التحقيق..

.. وتحول التحقيق إلى ندوة سياسية

في جلسة التحقيق الثالثة- يوم الأربعاء ٢١ يونيو١٩٧٨- كان آخر سؤال وجهه المدعى الاشتراكى - المستشار أنور حبيب- هيكل: كتبت مقالات وقلت أحاديث عن الخط الاشتراكى الديموقراطى الذى تنتهجه الحكومة المصرية. ما هو مضمون الأفكار؟

وكانت إجابة هيكل: إن المنطق الذى ألزمت نفسى به عندما قررت الكتابة خارج مصر- بعد أن استحالت علىَّ الكتابة فيها- أننى ألزمت نفسى بمجموعة من القواعد طبقتها تطبيقا صارما على نفسى وهى ..

أولا: إننى سوف أكتب لنفس المجموعة من الصحف التى كانت تنشر مقالاتى فى نفس الوقت مع الأهرام عندما كنت رئيس تحريرها، والصحف الأخرى التى تحصل منها على حقوق نشر مقالاتى..

ثانيا- إننى لا أتناول فيما أنشره خارج مصر أية موضوعات تتصل بمشاكل وقضايا العمل الداخلى فى مصر، أى إننى أقصر كتاباتى خارج مصر على القضايا العربية وحدها ولا أقترب على الإطلاق من أوضاع مصر الداخلية. وقد حدث استثناء وحيد فى مجموعة مقالات نشرت تحت عنوان (لمصر لا لعبد الناصر) وقد اضطررت إليها بعد أن تجاوزت الحملة ضد عبدالناصر فى مصر كل حد معقول..

ثالثا: ألاَّ تنشر مقالاتي- طبقا لأى اتفاقات أوترتيبات- فى بلاد عربية تكون حكوماتها فى خلاف مع السياسة المصرية..

رابعا: ألاَّ أقوم بزيارة لأى بلد عربى تدخل حكومته فى خلاف سياسى مع الحكومة المصرية، ولا أقوم بأى اتصالات مع مسئولين فى هذه البلاد على رغم طبيعة العمل الصحفى.. ربما أكون تعرضت لبعض القضايا فى بعض الأحاديث الصحفية التى أدلى بها بين حين وآخر للصحافة العالمية، ولكن أرجو أن تكون المناقشة على أساس مجمل المواقف، وهناك نقطة دقيقة فيما يتعلق بالأحاديث، وهى أن أى شخص لا يستطيع أن يسيطر تماما على ما ينسب إليه، فأنت تدلى فى الحديث بما تشاء من آراء، ولكن غيرك هو الذى يتولى الصياغة والعرض والترتيب والإبراز والحذف، وما كتبته بقلمى كثير وفيه مجمل مواقفى.

•• ••

وأعلن المدعى الاشتراكى انتهاء الجلسة على أن تكون الجلسة القادمة يوم الأحد ٢٥ يونيو١٩٧٨.

□□□

جلسة التحقيق الرابعة - الأحد ٢٥ يونيو١٩٧٨ .

فى بداية الجلسة قدم هيكل حافظة تضم النصوص الكاملة لواحد وعشرين مقالا خصصها جميعا لقضية الحرب ونشرت بين سبتمبر١٩٦٧ إلى أكتوبر١٩٧٣.

وقدم هيكل خطابين منه إلى المدعى الاشتراكى- الأول يلخص موقفه من قضية الحرب، والثانى يؤكد وجهات النظر التى أبداها فى مقال (تحية إلى الرجال) الذى هو موضوع السؤال الأصلى.

وكان فى الخطاب الأول أهم الأفكار التى جاءت فى مقالاته ومنها: أن الحرب ليست ضرورية فقط ولكنها ممكنة.. وأن حربنا يجب أن تكون هجومية لخلع العدو من

مواقعه.. وأن هدف الحرب يجب أن يكون كسر نظرية الأمن الإسرائيلى.. وأن هذه الحرب يجب أن تدور على جبهتين.. وأن هذه الحرب يجب أن تكون طويلة لحرمان العدو من ميزة الحرب الخاطفة.. وأن نتيجة هذه الحرب يجب أن تصل بنا إلى تعديل أساسى فى موازين القوة العسكرية والسياسية والنفسية بكسر حاجز الوهم وحاجز اليأس بكل ما يترتب على ذلك من نتائج بعيدة المدى بالنسبة للعقائد الإسرائيلية.

وكان الخطاب الثانى عن مقال (تحية للرجال) وملخصه بأن الادعاء بأن ما جاء فى هذا المقال مثبط للروح المعنوية لا يمكن أن يكون صحيحا لأن الشعوب المناضلة تحتاج إلى الحقيقة، لأن معرفتها بالحقيقة هى التى تمكنها من حشد الطاقات اللازمة لمواجهتها.. وإذا كان هذا المقال بمثابة لفت نظر إلى المخاطر فإن هذه النقطة لصالح نشره فى وقت راحت فيه المناورات والضغوط تحاول استخدام قضية الحرب فى صراعات على السلطة، كما يتضح من مذكرات الرئيس أنور السادات.. ومما يلفت النظر أن هذه الضغوط وصلت إلى حد صدور أمر إنذارى إلى القوات المسلحة بالاستعداد لمعركة فى وقت لم تكن فيه معدات العبور- وأهمها الجسور- قد وصلت، كما أن الصعيد كان مكشوفا بالنسبة للدفاع الجوى على النحو الذى ذكره الرئيس السادات فى مذكراته.. ومع أن الرئيس السادات كان قد أعلن أن عام ١٩٧١ سوف يكون عام الحسم، فإنه إزاء هذه العوامل وغيرها وجد أن مصلحة الوطن العليا تقتضى التأجيل حتى تمام الاستعداد، وهكذا فإن المعركة لم تجر إلا بعد أكثر من سنتين ونصف السنة على نشر المقال.. وهذا المقال لم يقل باستحالة حربنا مع العدو. ومما يؤكد أن المقال كان خدمة وطنية أن خطة العدو التى اتبعها فى مواجهة عبورنا فى أكتوبر ١٩٧٣ لم تخرج عن نطاق ما جاء فى المقال فى مارس ١٩٧١، وأعتقد أن معرفتنا بخطط العدو وفرت علينا من التكاليف ما كان يمكن أن يكون فادحا.

□□□

وكانت أسئلة المدعى الاشتراكى بعد ذلك كما يلى :

- بوصفك المسئول عن جريدة الأهرام التى تضم مركزا للدراسات الاستراتيجية،هل عهد إليك أحد المسئولين بإجراء دراسة للوضع العسكرى المصرى الإسرائيلى قبل حرب العبور؟

وأجاب هيكل : لم يعهد إلىَّ أحد بذلك، وليس ذلك اختصاصات هذا المركز.

المدعى الاشتراكى: هل ما ذكر عن الخطة الحربية للحرب المقبلة مع إسرائيل- والتى فخرت أنك وضعتها أمام المصريين- هل هى مجرد استنتاجات بناء على دراسات قمتم بها فقط؟

وأجاب هيكل : إن ما ذكرته فى مقال (تحية للرجال) لا يستند إلى دراسة قام بها مركز الدراسات الاستراتيجية فى الأهرام، وإنما بنيت مقالى على خلاصة ندوات حضرتها، ومناقشات دارت أمامى فى عدد من مراكز الدراسات الاستراتيجية فى أوربا وتجمعت أمامى صورة عن الخيارات المفتوحة أمام إسرائيل لمواجهة هجوم مصرى.

المدعى الاشتراكى: بالنسبة لما كتبته عن الحاجز المائى والحاجز الترابى وعدد القوات الإسرائيلية إلى آخره.. من أين حصلت عليه؟

وأجاب هيكل : ليس فى ذلك كله أسرار، تلك معلومات عن طبيعة الأرض وعن مسرح العمليات يعرفها جميع الخبراء ويناقشون تأثيرها على العمليات.. وعندما كنت فى لندن كانت هناك مجموعة من الخبراء يعكفون على دراسة مناورات الشتاء السابق التى أجرتها إسرائيل فى صحراء سيناء، وكانت هناك معلومات كثيرة عن هذه المناورات، وكانت دراسة تفاصيلها كافية لتوضيح الصورة التى يمكن أن تتصرف بها إسرائيل إزاء هجوم مصرى.. إننا نعيش فى عالم بلا أسرار!

المدعى الاشتراكى: ما قلته عن كيفية الخطوة القادمة لإسرائيل من أنها ستدخل بكذا وتدفع بقوة كذا.. هل ذلك كان معروفا؟

وأجاب هيكل: ذلك كله كان يناقش فى المراكز المتخصصة فى العالم كله، وكانت المناقشات موجودة لمن يريد أن يطلع ويسمع! وعندما كنت فى رحلة إلى آسيا فى مطلع سنة ١٩٧٣ رجوت السيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند وقتها أن تسمح لى بإجراء مناقشة مفتوحة مع الماريشال مانيكشو قائد الجيش الهندى الذى انتصر فى الحرب مع باكستان التى جرت فى بنجلاديش سنة ١٩٧١، وفى باكستان رجوت «ذو الفقار على بوتو» رئيس وزراء باكستان وقتها أن يسمح لى بمناقشة مفتوحة مع الجنرال تيكا خان قائد الجيش الباكستانى الذى انهزم فى هذه الحرب، وكان رأيى أن هذه الحرب مهمة لأنها تقدم لنا نموذجا فى الحرب المحدودة لابد أن ندرسه، وقد نشرت المناقشات مع هذين القائدين فيما نشرت من مقالات عن تلك الرحلة، وهى مقالات ضمها بعد ذلك كتاب بعنوان (أحاديث آسيا).

المدعى الاشتراكى : ألم تكن هناك دراسة بالكمبيوتر عن إمكان نجاح حرب العبور؟

وأجاب هيكل : لقد قيل كلام كثير عن أن دراسة من هذا النوع قام بها مركز الدراسات الاستراتيجية فى الأهرام أيام أن كنت مسئولا عنه، وأنا أقطع أمام حضراتكم بأن هذا الكلام لا سند له من الحقيقة، ولست أعرف من المسئول عن إشاعة مثل هذا الكلام. لقد أجرى المركز فى تاريخه دراسة واحدة استعمل فيها الكمبيوتر، وكنت بنفسى الذى اقترحت موضوعها، وأجريناها بمساعدة أستاذ عالمى زائر، وكان موضوعها (حالة اللا سلم واللا حرب ومن المستفيد من صراع الشرق الأوسط) وقد استفدت من نتائج هذه الدراسة فى سلسلة المقالات التى نشرتها فى الأهرام ابتداء من ١٦ يونيو ١٩٧٢ وحتى ٢١ يوليو من نفس السنة. وكانت نتيجة هذه الدراسة أن استمرار حالة اللا سلم واللا حرب يفيد كل الأطراف فى أزمة الشرق الأوسط باستثناء مصر.

وبعد أن شرح هيكل هذه النقطة باستفاضة سأله المدعى الاشتراكى:

لماذا لم تبلغ المسئولين بالمعلومات الدقيقة التى وصلت إليها عن وضع الجيش الإسرائيلى وما يحتمل أن يلاقيه الجيش المصرى عند العبور، بدون النشر؟

وأجاب هيكل : نحن نتعرض هنا لقضية فى منتهى الخطورة وهى : لماذا يكتب الصحفى؟ وأمام من مسئوليته؟ وما هى علاقته بالسلطة وحدود هذه العلاقة؟.. إننى أعتقد أن مسئولية الصحفى أمام قارئه أولا وأخيرا على شرط أن يلتزم فيما يكتب بالقانون العام، وبأخلاقيات النشر، وبفهمه هو للمصلحة العامة وحدود السلامة الوطنية. ولقد وجدت من هذا كله أن واجبى كصحفى يحتم علىَّ أن يكون القارئ على علم بكل التصورات المطروحة حول الصراع الذى هو طرف رئيسى فيه، خصوصا إذا كانت هذه التصورات تدرس وتناقش فى كل مكان فى العالم المتحضر. ومن ناحية أخرى كان هناك انقسام فى القيادة السياسية، كان فى حقيقته صراع سلطة، وأقحمت عليه قضية الحرب، وكان هذا خطيرا جدا فى تقديرى.. واستشهد بمذكرات الرئيس السادات نفسه وقال فيها إن مراكز القوى كانوا يريدون توريطه فى معركة لم تكن البلد مهيأة لها فى ذلك الوقت.

□□□

المدعى الاشتراكى : ألا ترى أن مقالك (هذه هى الأزمة الحقيقية) الذى نشر فى ١٩ يونيو ١٩٧٠ لا يتسق مع المبدأ الأساسى وهو أن هدف كل قائد مقدم على معركة رفع الروح المعنوية للجيش والشعب؟.

وأجاب هيكل : إن هذا المقال يتعرض لمشكلة إعادة ترتيب الجبهة العربية وكيف نحقق لأنفسنا أقصى قدر من الفاعلية بما هو متاح، ثم تحدثت عن الطريقة التى رتب بها العدو جبهته.. الجيش الإسرائيلى أكثر سلاحا.. الطيران الإسرائيلى هو العنصر الضارب السريع.. الأسطول السادس الأمريكى فى البحر الأبيض احتياطى استراتيجى عسكرى لإسرائيل إذا تأزمت الأمور.. الحركة الصهيونية قوة دعم مباشر. قوة الولايات المتحدة الأمريكية ضمان مفتوح ومستعد.. والأوضاع على الجبهة العربية.. الاتحاد

السوفيتى يؤيد ويدعم.. والدول الاشتراكية تتفهم وتؤيد.. الدول غير المنحازة والدول الآسيوية والأفريقية عموما تتعاطف وتقدر.. وهناك تحولات لها قيمتها فى الرأى العام العالمى.. لكن ذلك كله- على صحته- لا يمكن أن يكون بديلا عن العملية الضرورية لترتيب أوضاع قوانا فى الصراع.. ما هو الوضع الأمثل لترتيب قوى الأمة العربية لمواجهة تطورات الصراع؟ يجب أن تكون لنا سياساته لترتيب قوى الأمة العربية.. سياسات وليس مناورات سياسية! ولا يمكن أن تكون لنا سياسات بغير مؤسسة أو مؤسسات تخدمها وتباشر تنفيذ خططها.

وقال هيكل للمدعى الاشتراكى : لقد قلت ما أريد قوله بأمانة .. وليس فيما قلته شىء يخدم العدو، لأن العدو وأصدقاء العدو يرون ويعرفون ولست أرى فائدة من تقليد النعامة.

المدعى الاشتراكى: ما قولك فى أن خبراء الأمن القومى رأوا فى هذا المقال بالذات أنه يهدف إلى خفض الروح المعنوية لدى الجماهير؟.

وأجاب هيكل: إن تاريخ المقال ١٩ يونيو ١٩٧٠ وهذه هى الفترة التى كنت فيها وزيرا للإرشاد القومى فى مصر، وعضوا فى مجلس الأمن القومى بوصفى وزيرا للإرشاد، ولست أعرف من هم خبراء الأمن القومى الذين رأوا هذا الرأى فى هذا المقال، ولكنى أعرف أننى وقتها كنت المسئول الأول عن الأمن الإعلامى فى البلد، وعلى أساس المنصب الرسمى علاوة على عملى الصحفى فإن ما كتبته هو الحقيقة، ولا يمكن أن تؤدى الحقيقة إلى خفض الروح المعنوية، ولكن تجاهل الحقيقة هو الذى يؤدى إلى كوارث لا يقتصر ضررها على الروح المعنوية.. ثم إننى أسأل: من هم خبراء الأمن القومى الذين يرون أن المقال ضار على الروح المعنوية؟ هل هم خبراء الأمن القومى وقت كتابة المقال أو هم خبراء الأمن القومى الآن؟ وبحكم منصبى الرسمى لم أسمع من رئيس الدولة أو من أى مسئول غيره ما يشير إلى هذا المعنى! بل إن الدعوة إلى إعادة ترتيب الجبهة العربية وحشدها وراء مصر كان مطلبا أساسيا للسياسة المصرية على

المستوى التنفيذى وعلى المستوى الإعلامى.. أما إذا كان هذا التقرير قائما على تقدير فى الوقت الحالى فإنه يكون غريبا أن يصدر تقرير عن مقال بأثر رجعى مضت عليه ثمانى سنوات!

المدعى الاشتراكى : إن التقرير من خبراء الأمن وقتها.. من المخابرات وقتها.

هيكل: إذا كان ذلك، فأظن أن أمر هذا التقرير لا يخرج عن دائرة الصراعات التى دارت وتدور فى أجهزة الدولة، ولا أظن الموضوع يحتاج إلى مناقشة.

المدعى الاشتراكى: يرى المحللون أيضا فى جهاز المخابرات فى ذلك الوقت أن مقال (تحية للرجال) أورد تفصيلات عن مسرح العمليات المنتظر بصورة خيالية ومبالغ فيها لأناس لا يعنيهم أن يلموا بصورة المعركة على وجهها الكامل، وهذا خفض لمعنويات جنود القوات المسلحة وضباطها..

وأجاب هيكل: أنا لا أعتقد أننى رسمت صورة خيالية لمسرح القتال، وشاهدى على ذلك ما حدث فى حرب أكتوبر، ثم إن الرأى العام من حقه أن يعرف كل التصورات التى تناقش فى العالم كله وتخفى عليه وحده، ثم إن غياب الحقيقة هو الذى يضعف الروح المعنوية وليس الحقيقة ذاتها، إن الشعب من حقه ومن واجبه أن يعرف حجم المطالب التى يوجهها إلى قواته المسلحة، ولو صحت نسبة هذا التقرير إلى جهاز المخابرات القديم فإنه يكون جزءا من حملة توريط البلد فى معركة فى وقت قال الرئيس السادات إنها لم تكن مستعدة لها. ثم إن هذا التقرير يرتبط فى ظروفه بالحملة المستمرة التى شنتها علىَّ مراكز القوى السابقة، ومرجعها إلى موقفى المؤيد للرئيس السادات فى خلافه معها. وفى كل الأحوال فلابد لى أن أبدى تحفظى الشديد على تقرير كتبه جهاز المخابرات فى عصر مراكز القوى ويكون موضوعا للتحقيق معى بعد ثمانى سنوات من كتابته.

□□□

كـان هيكل يبدى اندهاشـه أن يكون متهما فى تحقيق عن مقال كتبه منذ ثمانى سنوات، لكن المدعى الاشتراكى بدأ التحقيق معه بعد ذلك عن مقال كتبه منذ أحد عشر عاما، وسأله: أليس فى تجربة حرب ١٩٦٧ من إفصاحك فى كتاباتك قبل ٥ يونيو أن الضربة الأولى للعدو والثانية لنا ما يحمل العدو أن يكثف ضربته الأولى لكيلا يمكننا من الثانية؟

وأجاب هيكل : إننى أرحب بهذا السؤال، فقد أثير موضوعه كثيرا فى الحملات التى وجهت إلىَّ أولا: لم يكن فيما قلته عن الضربة الأولى والثانية أى سر، بل إن الحقائق العلمية فى أى صراع فى هذا العصر تقول: إن أى طرف فى صراع محلى بالذات لا يستطيع أن يوجه ضربتين متتاليتين وإلا عرض نفسه إزاء العالم لمواقف لا يستطيع تحمل تبعاتها. وفى سنة ١٩٦٧ وجهت مصر الضربة الأولى بحشد قواتها فى سيناء وبإغلاق مضيق العقبة، ولم يكن متصورا فى هذا الصراع وحواره أن تلحق مصر ضربتها الأولى بضربة ثانية، وهذا من البديهيات السياسية التى لا يختلف عليها أحد، وإلا كان معنى ذلك أنها تعرض نفسها لاحتمال تدخل عسكرى مباشر ضدها من الولايات المتحدة. وهكذا فإن شرح هذا الوضع وتنبيه الرأى العام المصرى إلى هذه الحقيقة من حقائق الصراعات الحديثة يصبح أمرا بالغ الحيوية.. يضاف إلى هذا أن إعلان فهمنا لهذه الحقيقة كان مطلوبا كرد على الجهود الدولية التى كانت تحاول حصر نطاق الأزمة.

وقد بعث الرئيس الأمريكى جونسون إلى مصر يطلب منها ألا تبدأ بعمليات عسكرية، وفعل القادة السوفيت نفس الشىء، وكذلك كان موقف الجنرال ديجول، والسكرتير العام للأمم المتحدة (يوثانت) الذى طار إلى مصر بعد قرار إغلاق خليج العقبة فى محاولة لاحتواء الأزمة، وكان هدف مسعاه أن يجمد تداعى التطورات لفترة من الزمن حتى يمكن احتواء الأزمة.

وبعد مقابلته للرئيس جمال عبد الناصر وعودته إلى نيويورك ومشاوراته مع الدول الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن، بعث إلى جمال عبد الناصر برسالة لها أهمية

حيوية إذا أردنا أن نعرف مسار أزمة الشرق الأوسط على وجهها الصحيح فى ذلك الوقت، ولها أهمية بالنسبة لمقال الضربة الأولى والضربة الثانية. أن يوثانت قابل عبد الناصر يوم ٢٤ مايو ١٩٦٧، وبعث برسالة عاجلة إلى عبد الناصر يوم ٣٠ مايو ١٩٦٧ وأنا أريد إثبات نصها فى هذا التحقيق. ونص الرسالة:

سيادة الرئيس .

إننى أعرف من محادثاتى الأخيرة معكم ومع وزير الخارجية محمود رياض أنكم تدركون تماما الدوافع التى تدعونى إلى توجيه هذا النداء الشخصى والعاجل إليكم.

إنكم سوف تلاحظون أن ما أطلبه منكم ينبع فقط من رغبتى ومسئوليتى العميقة التى تدعونى إلى عمل كل شىء فى استطاعتى من أجل تفادى كارثة نشوب حرب جديدة فى الشرق الأوسط.

وخلال زيارتى للقاهرة، فإن موقفكم وسياستكم فى مسألة خليج العقبة قد جرى إيضاحها لى، وأريد أن أركز على الأهمية الكبرى التى أعلقها على رد فعل إيجابى من جانبى لمناشدتى هذه لكم بدون تأثير ضار على موقفكم أو سياستكم. إننى أطلب وقتا، ولو فسحة محدودة من الوقت لكى أستطيع أن أعطى فرصة للمشاورات وللجهود الدولية التى تحاول أن تبحث عن مخرج من الموقف الحرج الراهن.

وأريد أن ألفت انتباهكم بصفة خاصة إلى ما قلته فى تقريرى إلى مجلس الأمن بتاريخ ١٦ مايو إننى أرى أن إيجاد مخرج سلمى من هذه الأزمة يتوقف على فسحة من الوقت يمكن فيها تخفيض حدة التوتر عن مستواه المتفجر الحالى.

وبناء على ذلك فإننى هنا أدعو جميع الأطراف المعنية إلى ممارسة ضبط النفس، وإلى تجنب أى أعمال عدائية يكون من شأنها زيادة التوتر، وهدفى من ذلك أن أعطى مجلس الأمن فرصة لعلاج المشاكل التى تنطوى عليها الأزمة، والبحث عن حلول لها.

وإنى الآن أناشدك يا سيادة الرئيس، كما أناشد رئيس الوزراء ليفى أشكول، وكل الأطراف المعنية إلى ممارسة الحذر عند هذا المنعطف الخطير. وبالذات، وبدون طلب أى

تعهدات منكم، أوحتى رد، فإنى أريد أن أعرب عن الأمل فى أن تمتنعوا خلال مدة أسبوعين من لحظة استلامكم لهذه الرسالة عن أى تدخل فى الملاحة غير الإسرائيلية عبر مضايق تيران.

وفى هذا الخصوص فهل لى أن أخطركم، وفى كل الأحوال ، أن لدىَّ من الأسباب ما يجعلنى أفهم أنه فى الظروف العادية فإنه ليس متوقعا أن تحاول باخرة إسرائيلية عبور مضايق تيران خلال مدة الأسبوعين المحدودين. بل إنى أستطيع أن أؤكد لك، حسب أدق المعلومات لدىَّ بأنه خلال السنتين والنصف الأخيرتين لم تقم أية باخرة ترفع العلم الإسرائيلى بالمرور فى مضايق تيران.

وأستطيع أن أكرر لكم يا سيادة الرئيس أننى بصفتى الخاصة، وكذلك المجتمع الدولى كله بصفة عامة، سوف نقدر تقديرا كبيرا هذه المبادرة من جانبكم.

وأرجو أن تتقبلوا يا سيادة الرئيس أصدق أمانىَّ واحترامى الشخصى.

يوثانت

□□□

بعد أن قرأ هيكل الخطاب وسجل نصه فى محضر التحقيق وسلم صورة منه إلى المدعى الاشتراكى قال: وإذن .. سياسيا لم نكن نستطيع أن نوجه لإسرائيل ضربة أولى .. إننا وجهنا ضربتنا فعلا بإغلاق خليج العقبة، وضربة عسكرية ثانية -بعدها- معناها أننا نعرض أنفسنا لما لا طاقة لنا به.. وعمليا لم نكن نستطيع ذلك بناء على التحركات الدائرة على المسرح الدولى.

ثم قال هيكل: لم أكن وحدى الذى قلت: إننا لن نكون البادئين بتوجيه ضربة إلى إسرائيل. إن الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه أعلن هذا الموقف فى مؤتمر صحفى عالمى يوم ٢٥ مايو ١٩٦٧ وقال صراحة: إننا لن نكون البادئين بالهجوم. وهذا المعنى واضح فى حقيقة أننا سوف ننتظر هجوما من إسرائيل إذا قامت به، لكى نرد عليه.

فضلا عن ذلك فإن موضوع الضربة الأولى والضربة الثانية ليس حاسما على هذا النحو فى الحرب التقليدية، ولا حتى فى الحرب غير التقليدية، وتتذكر أن العدو الإسرائيلى نفسه قبل سنة ١٩٧٣، وفى حرب ١٩٧٣، قد قبل أن يتحمل مسئولية ضربة أولى توجهها مصر. إنهم عرفوا بنية الهجوم لدينا قبل الهجوم فعلا بأربع وعشرين ساعة، وناقشوا خيار توجيه الضربة الأولى أو انتظارها ثم توجيه الضربة الثانية، واختاروا الوضع الأخير.

كانوا يدركون أن استمرار احتلالهم لأراضينا هو ضربتهم الأولى، فإذا قاموا بتوجيه ضربة ثانية، ولو حتى بدعوى إجهاض هجوم منتظر عليهم فسوف يكونون فى وضع دولى لا يستطيعون احتمال نتائجه، وهكذا قرروا الانتظار وتلقوا الضربة الأولى.. والمناقشات حول هذا الموضوع مستفيضة، ووقائعها بالتفصيل فى مذكرات جولدا مائير، وفى مذكرات موشى ديان، وفى مذكرات أبا إيبان، وفى تقرير لجنة أجرانات.

إننى كنت دائما أحاول وصل التفكير المصرى بمنابع التفكير الاستراتيجى فى العالم..

□□□

وانتقل المدعى الاشتراكى إلى موضوع آخر بعد هذه الإجابة المستفيضة.

وسأل: بالنسبة إلى طرد الخبراء الروس. ما هو انطباعك بعد علمك بقرار سحب الخبراء السوفييت فى يوليو ١٩٧٢؟

وأجاب هيكل: فى هذا التحقيق السياسى - أو المناقشة السياسية - فإننى بالطبع لا أستطيع أن أتحدث عن انطباعات، ولكنى أستطيع أن أتحدث عما كتبته فعلا وقتها. إن ما كتبته وقتها كان مدفوعا باعتبارين: الأول تأييد صانع القرار المصرى الذى هو صاحب السلطة الشرعية والدستورية المسئول عن اتخاذه مهما اختلفت آراء واجتهادات الذين تتيح لهم الظروف أن يعرضوا آراءهم واجتهاداتهم عليه.. هو وحده

يظل المسئول الشرعي والدستوري. وإذا جاز أن تتعدد الآراء والاجتهادات فلا يجوز أن تتعدد مصادر القرار.

الاعتبار الثاني: ما كان يدفعني لما أكتب في ذلك الوقت هو الحرص بكل الوسائل على تطويق الأزمة مع الاتحاد السوفيتي الناشئة عن إخراج الخبراء السوفييت وكانت تلك هي سياسة الدولة الرسمية، بل كانت هذه هي السياسة الضرورية بعد القرار وفي الظروف التي كنا فيها.

المدعي الاشتراكي: يبدو في المقال (على هامش التطورات) في ١٩٧٢/٧/٢٨ أنك أشرت إلى أن قرار طرد الخبراء الروس جاء مبتسرا (مبتسرا أي قبل أوانه) أو جاء فرديا انفعاليا.

ورد هيكل : هذا هو نص المقال أمامنا، وليس فيه كلمة تحمل معنى أنه مبتسر أو أنه فردي انفعالي.. لم أقل بهذا على الإطلاق، ولم أكتبه، لأن ذلك ليس أسلوبي في الكتابة.. إنني أريد أن أرى، أو يريني أحد في المقال كلمة مثل مبتسر، أو فردي، أو انفعالي، أو ما يحمل معاني هذه الكلمات. إنني لا أملك-كصحفي- مثل هذا الحكم على الموضوع إنني قلت إنني فوجئت بالقرار عندما عرفت به لأول مرة من الرئيس السادات نفسه قبل موعد إعلانه على الناس بوقت طويل، وأوضحت في نفس الوقت قبولي للقرار باعتبار أن مصدره هو الرجل الذي يملك المسئولية التاريخية والشرعية في صنع القرار. وطالبت في نهايته بما طالب به الرئيس السادات، وهو ضرورة إجراء مشاورات عميقة مع الاتحاد السوفيتي، وأتذكر أنني عندما قابلت الرئيس السادات مساء يوم ١١ يوليو ١٩٧٢ في استراحة القناطر، كان الجو وديا، وكنت أستمع باهتمام عميق إلى شرح الرئيس السادات في أسباب قراره، وقد نقلت عنه دواعي اتخاذه هذا القرار. وكانت هذه أول مرة تروى فيها القصة كاملة في نفس هذا المقال.

المدعي الاشتراكي: يتبين من المقال أنك تحبذ استمرار العلاقات مع الاتحاد السوفيتي وترى أننا سنخسر في قطع هذه العلاقات أو التوتر، وأن هناك

أرضية.. ولا أرضية بيننا وبين القوى الأخرى. ألا ترى أن ذلك لون من ألوان التأثير على القرار؟

هيكل: إن القرار كان قد اتخذ وأبلغ به الاتحاد السوفيتى. وبالتالى فلم تكن مسألة التأثير على القرار واردة. ومع ذلك فإن رأيى كان وما يزال يركز على أهمية الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الاتحاد السوفيتى على أن تكون هذه العلاقات متوازنة. وقد كانت هناك أرضية مشتركة بين مصر والاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت، ولم تكن هناك أرضية مشتركة بين مصر والولايات المتحدة، وكان ذلك هو رأى الرئيس السادات أيضا فى تلك الفترة بحكم دواعى الأمن القومى.. إن الاتحاد السوفيتى كان مصدر السلاح الوحيد لنا أمام مسئولية تحرير الأرض. وكانت السياسة المصرية التى وضعها الرئيس السادات فى ذلك الوقت هى تطويق الأزمة مع الاتحاد السوفيتى. وقال: إنها وقفة مع الصديق وليست قطيعة معه، وقبل إعلان القرار رسميا بعث رئيس وزرائه الدكتور عزيز صدقى، ووزير خارجيته الدكتور مراد غالب إلى موسكو لإجراء مشاورات فى الموقف مع القيادة السوفيتية. وتبادل الرئيس السادات رسائل صريحة مع القادة السوفيت فى هذه الفترة وفى أعقابها مباشرة، وانتهت المشاورات والرسائل إلى بعثة عسكرية مصرية للاتحاد السوفيتى رأسها المشير أحمد إسماعيل على، وكان من نتائج هذه الرحلة أن مصر تلقت كميات هائلة من الأسلحة المتطورة خصوصا فى مجال الصواريخ، وذلك بعد قرار طرد الخبراء. وأعتقد أنه كان من الصعب تماما خوض المعركة بدون الإمدادات التى تلقيناها فى ذلك الوقت من السوفيت.

واستطرد هيكل: لو عدت إلى الجزء الخاص من السؤال بعدم وجود أرضية مشتركة مع الولايات المتحدة فى ذلك الوقت، فإن الرئيس السادات بعث مستشاره للأمن القومى السيد حافظ إسماعيل إلى لقاء علنى مع الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون أعقبته لقاءات سرية متعددة مع الدكتور هنرى كيسنجر مستشار الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى وقتها، ولم تسفر هذه المحادثات عن أية نتيجة.. وكان

مقترحا أن أذهب أنا إلى هذه المهمة للقاء نيكسون وكيسنجر، وكلفنى الرئيس السادات بذلك فعلا بعد رسائل من كيسنجر نقلت إلى سفيرنا فى واشنطن وسفيرنا فى الأمم المتحدة.. وقد شرحت ذلك بالتفصيل فى مقال بعنوان (كيسنجر وأنا ومجموعة أوراق)- ولقد اعتذرت عن عدم القيام بهذه المهمة لاعتقادى وقتها أن الظروف العربية والدولية لم تخلق أساسا مشتركا لحوار أساسى مع الولايات المتحدة..

..

وانتهت الجلسة الرابعة من التحقيق..

□□□

الجلسة الخامسة- الاثنين ٣ يوليو١٩٧٨.

المدعى الاشتراكى: عملت فى المجال الصحفى فترة طويلة، وشغلت منصب وزير الإعلام، فما هى فى نظرك الضوابط والحدود التى تفرق بين النقد والتهجم؟

هيكل: النقد هو أن يكون الكاتب موضوعيا، وأما التهجم فإنه المحظور الذى يقع فيه الكاتب حين تكون كتابته ذاتية أو شخصية. وقد التزمت فيما أكتب بأن أعرض على القارئ فى مقالاتى أكبر قدر ممكن من الحقائق والأخبار والآراء والبدائل لكى يتمكن القارئ من المشاركة فى الحوار الدائر من حوله، وكنت أتصور- ولا أزال- أن دور الصحافة فى ممارسة العمل الديمقراطى فى بلاد لها مثل ظروفنا هو أن تحقق مشاركة أوسع للجماهير فى القضايا العامة، وقد التزمت هذا المنهج التزاما دقيقا، وهو منهج بعيد عن التهجم. ملتزم بأدب الحوار. ولا أذكر أننى فيما كتبت - على كثرة ما كتبته - تعرضت لأشخاص، أو وضعت على الورق لفظا يتجاوز حد آداب الحوار. وكنت أعرف أن الحوار له حدود. وأن صنع القرار له دائرته. والقرار دائما له مصدر واحد مسئول عنه شرعيا ودستوريا وسياسيا، وأما الحوار الذى يمكن أن يدور من حول القرار، فهذا هو المجال الذى يستطيع أن يُشارك فيه. إن الظروف وضعتنى لفترات طويلة بالقرب من

صانع القرار. وكانت هناك صداقة ربطتنى بالرئيس جمال عبد الناصر، وبالرئيس أنور السادات بعده، وكنت ألخص مهمتى كصديق فى عنصرين لا ثالث لهما:

الأول ألاَّ يفاجأ صانع القرار بأى تطور أو بأى تيار فكرى.

والثانى: أنه عندما يقع أى تطور أو يبرز أى تيار فإنه لا بد أن تكون هناك بدائل متعددة للحركة بحيث لا يجد صانع القرار أنه أمام خيار واحد ولا مناص من قبوله. وبقدر ما استطعت فإننى حاولت أن أفى بمسئولية الظروف التى وضعتنى بالقرب من صانع القرار.

□□□

ودارت أسئلة المدعى الاشتراكى بعد ذلك حول مقالات هيكل عن فض الاشتباك الثانى ورأى هيكل فيها معروف كرره فى إجابته وشرح حيثياته.. وتحدث عن زيارته للولايات المتحدة فقال:

نشرت أشياء كثيرة فى مصر عن هذه الزيارة بما أوحى بأننى ذهبت إلى الولايات المتحدة فى الوقت الذى يتوافق مع وقت زيارة الرئيس السادات لها بقصد التأثير على رحلته إلى الولايات المتحدة. إننى ذهبت فى أول أكتوبر ١٩٧٥ قبل الرئيس بأكثر من ثلاثة أسابيع.

ولم تكن لرحلتى أية علاقة برحلته. ذهبت بدعوة من اتحاد الخريجين العرب من الجامعات الأمريكية لكى أكون ضيف الشرف فى مؤتمرهم السنوى الذى عقدوه فى تلك السنة فى شيكاغو. الدعوة وجهت إلىَّ قبل السفر بشهور. وقبلت الدعوة بعد استئذان الرئيس السادات فيها. ولم يخطر ببالى وقتها أنه سيكون فى الولايات المتحدة قرب هذا الموعد.

وقبل ذهابى إلى أمريكا كنت فى باريس ولندن لمدة شهر. وعندما وصلت إلى الولايات المتحدة عرفت أن الرئيس السادات قادم إلى الولايات المتحدة. وبالطبع كان موضوع زيارته محل نقاش عام. وفى أول يوم لوجودى فى نيويورك كنت على موعد مع

الدكتور كورت فالدهايم السكرتير العام للأمم المتحدة، وجلست فى مكتبه ساعتين كاملتين نناقش تطورات الشرق الأوسط الأخيرة وبينها بالطبع اتفاقية فك الاشتباك الثانية التى وقعتها مصر، وركزت معه على أهمية إنجاح هذا الاتفاق وكان رأيى أن إنجاحه لا يتحقق إلا بالعمل من أجل اتفاقية ثانية لفض الاشتباك مع سوريا. وأقامت هيئة تحرير نيويورك تايمز وهيئة تحرير واشنطن بوست حفلات لتكريمى كزميل صحفى تربطه صداقات طويلة بالكثيرين منهم، وتحدثت فى هذه الحفلات فى السياسة بالطبع.. ووجهوا إلىّ أسئلة وأجبت عنها.

وكان من بين ما أجبت عنه أسئلة تتعلق بزيارة الرئيس السادات المقبلة لواشنطن. وركزت على نقطتين: أهمية إنجاح اتفاق فك الاشتباك فى سيناء باتفاق مماثل على الجبهة السورية ويخطوة فى اتجاه الفلسطينيين الذين تمثلهم منظمة التحرير، ثم أهمية إنجاح زيارة الرئيس السادات إلى واشنطن.

وقال هيكل: لقد حضر معى هذه اللقاءات بعض أفراد بعثاتنا الدبلوماسية فى واشنطن. وكان الكلام أمامهم.

وقال: بعد ذلك أجريت لقاءات مع عدد من الشخصيات الأمريكية البارزة. دعانى دافيد روكفلر رئيس مجلس إدارة بنك تشيز مانهاتن إلى غداء امتد أكثر من ثلاث ساعات. ثم التقيت مع وليم سيمون وزير المالية الأمريكى على العشاء. والتقيت مع روبرت ماكنمارا رئيس مجلس إدارة البنك الدولى على العشاء أيضا.

والتقيت مع عدد من أعضاء مجلس الشيوخ البارزين وبينهم السناتور بيرسى، وما كنت أتحدث فيه مع هؤلاء مسجل فى مقابلة على شاشات التليفزيون الأمريكى فى البرنامج السياسى المشهور الذى يقدمه اجرونسكى، وقد دعا إلى مناقشتى معه الصحفى الأمريكى المشهور جوزيف كرافت. ومعى الآن النص الكامل لهذا الحديث استخرجته بواسطة المكتب الصحفى للسفارة المصرية فى واشنطن. وكما هو ظاهر من النص ركزت على أن زيارة الرئيس إلى واشنطن حدث بالغ الأهمية ويجب أن تنجح.

وإن العالم العربى كله سوف ينتظر النتائج التى تسفر عنها هذه الزيارة. وإن الرئيس السادات أخذ على نفسه مخاطرة كبيرة بهذه الزيارة، ونجاحها هو الذى سيعطى تأثيره فى الحكم على الاتجاه الذى أخذه الرئيس السادات. وأنه أمر فى منتهى الأهمية أن يوجه الكونجرس دعوة إلى الرئيس المصرى لكى يتحدث أمامه. وفيما يتعلق باتفاقية فك الاشتباك الثانى فى سيناء فإنه من المهم دعمها باتفاقية مماثلة على الجبهة السورية، وتاريخ هذا الحديث ٢٣ أكتوبر ١٩٧٥ الساعة السابعة والنصف مساء.

وقدم هيكل إلى المدعى الاشتراكى نص الحديث.

وحكى عن عشاء أقامه السفير المصرى فى واشنطن أشرف غربال، ودعا فيه خمسين من أكبر شخصيات الكونجرس والصحفيين، وتحدث فيه هيكل والسفير عن زيارة الرئيس السادات، وقال هيكل فى كلمته: إن الرئيس السادات يجىء إلى واشنطن ممثلا للعالم العربى كله ومعبرا عن اختيار معين يعطى للولايات المتحدة فرصة غير مسبوقة. وجاءنى السفير أشرف غربال بعد العشاء مهنئا لأننى فيما عبرت به تجاوزت ما كان ينتظره.

□□□

وأمام المؤتمر السنوى للخريجين العرب من الجامعات الأمريكية كانت محاضرتى عن (الحقائق الجديدة فى الشرق الأوسط) وأتشرف بأن أقدم لكم نسخة منها. كان اتجاه المؤتمر حادا ضد اتفاقية فصل القوات. ولم أشر إليها بكلمة فى محاضرتى.

وأثناء وجودى فى المؤتمر فى فندق شيراتون فى شيكاغو علمت أن هناك اجتماعا فى قاعة فرعية يحضره بعض الشباب المتحمسين من الدارسين والمبعوثين العرب، وإنهم يفكرون فى تنظيم مظاهرة عدائية تقابل الرئيس السادات عند وصوله إلى واشنطن.. وتوجهت إلى هذه القاعة بدون دعوة وبدون أن يطلب منى أحد، وطلبت الكلمة، وقلت للحاضرين إنهم يعرفون أننى لست واحدا من المتحمسين لاتفاقية سيناء الثانية، ولكنى أريد أن أتحدث إليهم كمواطن مصرى. وأن رئيس الدولة المصرى حين

يكون خارج مصر فإنه يصبح رمزا لها، وأخشى أنكم إذا قمتم بمظاهرات ضد الرئيس السادات عند وصوله أن تبدو هذه المظاهرة موجهة للشعب المصرى، وأنا لا أتصور أنكم تريدون ذلك. وحدث أن انفعل بعضهم أثناء المناقشة إلى الحد الذى دعا ضابط أمن أمريكى كان يقف قريبا من باب القاعة أن يجىء ليرجونى فى الخروج لأنه يشعر بقلق من الوجوه التى يراها - على حد تعبيره - ورجوته أن يتركنى ويبتعد، وواصلت المناقشة حتى هدأ الجو. وأعتقد أن ما قلته كان له بعض التأثير.

وأضاف هيكل: الغريب أن مراسل الأهرام فى نيويورك ليفون كيشيشيان حضر معى هذه المقابلة، وعلمت فيما بعد أنه روى تفاصيلها لعدد من الذين جاءوا إلى واشنطن ضمن البعثة الرسمية.. ومع ذلك فوجئت بحملة ضارية علىّ وصلت إلى حد الادعاء بأننى ذهبت إلى الولايات المتحدة أصلا لكى أعمل ضد رحلة السادات. ولست أعرف كيف كان فى استطاعتى أن أفعل ذلك.. ولماذا أفعله؟

ونشرت فى مصر واقعة أنى حضرت ندوة مع السفير المصرى وصحفيين مصريين لا أعرف من هم وانتقدت مصر بمرارة، وحين طلب منى السفير أن أكذب ما نشر تلكأت ولم أفعل حتى وصلت إلى لندن.. والواقعة كلها مختلقة وهى عكس الحقيقة. يضاف إلى ذلك أننى كنت فى لندن قبل زيارتى للولايات المتحدة وليس بعدها..

وقد غادرت واشنطن إلى روما وليس إلى لندن، وقضيت فيها ثلاثة أيام عدت بعدها إلى مصر.

وختم هيكل أقواله بعبارة: إن ذلك كله بالطبع لا يتعارض مع شعورى وقناعتى طول الوقت بأننى لم أكن شديد الحماسة لاتفاقية سيناء الثانية.

..

وانتهت جلسة التحقيق الخامسة.

□□□

جلسة التحقيق السادسة - الثلاثاء ٤ يوليو ١٩٧٨.

واصل المدعى الاشتراكى أسئلته حول عبارات فى مقالات هيكل عن اتفاقية فك الاشتباك الثانى.. وتحدث عن الحديث الوحيد الذى أدلى به واحتاج إلى تصحيح، وكان فى نيويورك تايمز. وعندما ظهر الحديث بادر بالاتصال بالمستر كليفتون دانيال رئيس تحرير نيويورك تايمز المقيم فى واشنطن، وهو صديق شخصى قديم لهيكل، وأخطره بملاحظاته واتفق معه على ضرورة تصحيح ما ورد فى الحديث من تحريف فى بعض العبارات. واتفق معه على أن يلقاه فى مكتبه فى العاشرة صباحا. وعقب ذلك اتصل بالسفير المصرى أشرف غربال وروى له ما حدث وذهب إليه فى السفارة وكان عنده أحد كبار موظفى رئاسة الجمهورية- السيد عز الدين مختار- وقال هيكل للسفير: إنه يريد أن يبعث إلى الرئيس فى القاهرة بتوضيح عن الحديث الذى نشرته نيويورك تايمز وكتب برقية إلى الرئيس السادات بما جاء فى الحديث من تحريف. ونشر التصحيح الذى كتبه هيكل فى صحيفة نيويورك تايمز وفى صحيفة هيرالد تريبيون صباح اليوم التالى.

□□□

وسأل المدعى الاشتراكى: انتهى المعلقون فى جهاز المخابرات العامة ووزارة الإعلام إلى أن نشر هذه المقالات عن اتفاقية فك الارتباط الثانى، قد أثار التشكيك فى سلامة الاستراتيجية المصرية كعمل مصرى له أبعاده، وهو ما يسىء إلى سمعة البلاد.

وأجاب هيكل: إننى لا أعرف من هم هؤلاء الخبراء، ولكنى أرى أنهم أطلقوا القول على (عواهنه) كعادة معظم كتّاب التقارير فى أجهزة الأمن المصرية. وكان بودى لو أن واحدا منهم وضع إصبعه على فقرة بعينها وحدد بالضبط وجهة نظره حتى نستطيع أن نناقشها على أساس، أما على هذا النحو فإن المناقشة تصبح فاقدة لأساسها الموضوعى.

وسأل المدعى الاشتراكى: أثناء توليك وزارة الإرشاد أثيرت مبادرة روجرز فما هو موقف الدول العربية من قبول هذه المبادرة؟

وأجاب هيكل بشرح مستفيض قال فيه: إن قبول المبادرة كان منسجما مع استراتيجية عربية عامة. وكان فى نفس الوقت جزءا من تحرك مصرى سياسى ودولى وعسكرى. صحيح أن بعض القوى العربية عبرت عن مخاوفها، وكان بين هذه القوى عناصر من المقاومة الفلسطينية، وكان ذلك نتيجة سوء فهم أمكن تداركه بسرعة، وَدُعِيَ السيد ياسر عرفات وقيادات فتح لاجتماع مع الرئيس جمال عبدالناصر فى الإسكندرية، وشاركت شخصيا فى التمهيد له كما شاركت فى مناقشاته. إن العمل السياسى المصرى- إلى جانب تطورات الحوادث- ساعد على تطويق سوء الفهم. وساعد على تماسك العالم العربى. وبرز هذا التماسك فى مؤتمر القمة العربية الذى عقد فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٧٠ لمواجهة الأزمة التى نشأت بين الحكومة الأردنية والمقاومة الفلسطينية.

المدعى الاشتراكى: هل قمت سيادتك بحملة إعلامية تضمنت أحاديث ومقالات أفصحت فيها عن تأييدك استقلال مصر فى قبول مبادرة روجرز؟

وأجاب هيكل: لقد كان رأيى- ولا يزال- أن مصر لا يحق لها أن تقبل وصاية على حرية حركتها شريطة أن تكون هذه الحرية فى إطار استراتيجية عربية عامة محددة وواضحة ومتفق عليها.. وبالنسبة للحملة التى قمت بها فى ذلك الوقت- بوصفى وزيرا للإرشاد- فإنى أجد أمام سيادتكم كتيبا يحوى نص مؤتمر صحفى لى أصدرته وزارة الإرشاد فى ذلك الوقت، واستشهد بوقائع هذا المؤتمر الصحفى بتاريخ ١٢ أغسطس ١٩٧٠.

وسأل المدعى الاشتراكى: إذن فلماذا تصديت بالهجوم على مبادرة السادات وهل هناك فرق بين مبادرة روجرز ومبادرة السادات؟.

وأجاب هيكل: بالطبع هناك- فى رأيى- فروق كبيرة جدا وفادحة بين الاثنتين..

ودارت أسئلة كثيرة حول موقف هيكل من مبادرة السادات بزيارة القدس وموقفه منها معروف.

ثم سأل المدعى الاشتراكى: كيف فهمت أنك ممنوع من الكتابة فى الصحف المصرية . ومع ذلك أدليت بحديث لجريدة الأهالى؟ (الحديث منشور فى ٢٧ أبريل ١٩٨٣).

وأجاب هيكل: لقد كانت لى فى الأهرام ثلاث صفات: رئيس مجلس إدارة (وذكر إنجازاته) ورئيس تحرير (وذكر نجاحه فى تطوير الأهرام وزيادة توزيعه ووصوله إلى العالمية) وكاتب مقال أسبوعى، وقد أبديت آراء تحتمل الصواب والخطأ، وتمسكت بحقى وحق الأهرام فى إبداء آرائنا بحرية على أساس التزامنا الوطنى والمهنى.

وسأل المدعى الاشتراكى: هناك حديث لسيادتك مع تليفزيون المجر فى ٢٩ مارس ١٩٧٧ مترجم إلى العربية وارد صورته إلينا من هيئة الأمن القومى؟

وأجاب هيكل: إننى أدليت بحديث لتلفزيون المجر منذ ثمانية عشر شهرا، ولا أذكر إن كنت أدليت به باللغة العربية أو بالإنجليزية، والآن يقال لى: إن هناك ترجمة له، ولست أعرف مدى دقتها، بل إننى لا أعرف إذا كان تليفزيون المجر قد أذاع ما قلته كاملا أو أنه اختصر منه.. أريد أن أضيف أن وسائل الإعلام فى مصر شوهت بعض ما قلته فى حديثى إلى تليفزيون المجر، وأتذكر أننى تصديت لهذا التشويه وحاولت وضع الأمور فى نصابها فى مقال نشرته بعنوان (نقط على حروف).

...

وقال المدعى الاشتراكى: انتهت الجلسة. والجلسة الثانية غدا.

□□□

الجلسة السابعة- الأربعاء ٥ يوليو١٩٧٨.

سأل المدعى الاشتراكى: ورد بحديثك فى الأهالى على سؤال عن الفروق بين العصر الملكى والعصر الثورى والعصر الحالى أنك لا تفهم الوضع الحالى.. فهل لا يعتبر مثل هذا القول تغييرا لتاريخ مصر وطعنا فى قيادتها وسياساتها وحاضرها؟.

وأجاب هيكل: إننى لم أصدر أحكاما فيما قلت ولكنى عبرت عن تساؤلات فيما يتعلق بالقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد.. والتصنيف بين العصور لم يكن من عندى وإنما سائلى فى هذا الحديث صاغ سؤاله عن ثلاثة عصور.

وشرح هيكل رؤيته لتاريخ مصر منذ العصر الملكى إلى عصر السادات.. وتبع ذلك أسئلة حول كل ما قاله هيكل فى حديثه إلى الأهالى من أن السياسة السائدة لا علاقة لها بالإنتاج، وإن فى إنجلترا حزب العمال يمثل العاملين، وحزب المحافظين يمثل الرأسمالية، ولا تستطيع أن تكشف من يمثل الوسط وأى التزام وانتماء يلتزم به إلا إذا كان يعبر عن الطبقات التى ظهرت نتيجة الانفتاح، وانك لا تعتبر هؤلاء طبقات، وإنما فئات وجماعات خارج عملية الإنتاج، وهم لا ينتمون إلا إلى مصالحهم كقوة ضاغطة على الاستهلاك، وكثيرون منهم يجمعون ثرواتهم فى مصر ليودعوا ثرواتهم فى الخارج.. وسأل المدعى الاشتراكى: أليس فى ورقة أكتوبر توضيح لتساؤلاتك.. أو ليست الديمقراطية الاشتراكية هى السياسة التى يلتزم بها حزب مصر (الوسط) ومنهم الذين يجمعون ثرواتهم فى مصر ويودعونها فى الخارج؟

وأجاب هيكل: إن كل نظام سياسى حديث لا بد له أن يختار اجتماعيا من يمثل ولصالح من يحكم، وهذا الاختيار هو الذى يعطيه شرعيته ذاتها. وقد قلت: إننى لا أستطيع أن اكتشف من يمثل حزب الوسط، ولا أظن أن التساؤل والمناقشة حول حزب الوسط يمكن أن يكونا محظورين.. قلت: إننا نشاهد صعودا فى أوضاع طبقات قلت: إنها خارج عملية الإنتاج، وذلك هو ما أشار إليه الرئيس السادات عندما تحدث عن الإنتاج الاستهلاكى الذى لا نريده، واستعمل الرئيس السادات تعبير الانفتاح التجارى أو الاستهلاكى وهذا يعنى أنه أبعد هذه الفئات عن دائرة الإنتاج، وهى فعلا خارجة عن هذه الدائرة، لأن عمليات الانفتاح الاستهلاكى هى فى الواقع عبء على الاقتصاد الوطنى.

وسأل المدعى الاشتراكى: فى حديثك عن حملة على جمال عبد الناصر ما يؤكد أن ثمة اتجاها رسميا للدولة. فلمصلحة من التشكيك، ألا يعتبر ذلك مصادرة لرأى لجنة تاريخ مصر التى لم تعلن بعد عن نتائج عملها؟

وأجاب هيكل: أما أن هناك حملة ضارية على عصر عبد الناصر وعلى ما جرى فيه فهذا أمر لا شك فيه. فالصحف- وهى ملك الاتحاد الاشتراكى- والإذاعة والتلفزيون- وهما ملك الدولة- واصلت لوقت طويل ولسنوات متصلة تشويه سمعة مصر فى عهد عبد الناصر. وأنا لا أنكر أنه حدثت تجاوزات فى عصر عبد الناصر كما تحدث فى كل عصور التحول التاريخى، والسجل شاهد على أنى كنت الصحفى الوحيد الذى شهر قلمه فى وجه هذه التجاوزات، وكان ذلك فى حضور عبد الناصر ولم أنتظر وفاته لأشعر أنى صحفى حر. إذا أردت نموذجا لذلك فإنى أستشهد على سبيل المثال بالكتب المدرسية التى تتحدث عن حرب السويس وكأنها هزيمة، وتتحدث عن ثلاث هزائم لقيتها مصر وهى ٤٨و٥٦ و١٩٦٧ فى حين أن الدنيا تشهد أن السويس كانت انتصارا من حيث آثاره وما تحقق نتيجة له من طاقات للأمة العربية.. وأن يكون ذلك فى كتاب تعليمى فمعناه أن هناك عناصر تسىء إلى وحدة اتصال وامتداد الثورة وهو أمر كنت أحذر منه باستمرار فى نطاق عملى كصحفى.. إن مصر صورت فى عصر عبد الناصر وكأنها تحولت إلى معسكرات اعتقال، وكأنها طبعة رخيصة لعصر هتلر فى عهد ألمانيا النازية، ولست أعرف لصالح من يحدث ذلك خصوصا إذا كان فيه تجن كبير على الحقيقة.. وأما أننى قلت إننى لا أطمئن إلى المناخ السائد فذلك موجه إلى مناخ الإدانة الكاملة الذى ساد مناخ الصحف والذى لم يستند إلى حقائق مدروسة ومؤكدة.. أما أننى صادرت رأى لجنة كتابة التاريخ، فمع كل الاحترام لهذه اللجنة، فإننى لست واحدا من الذين يعتقدون أن التاريخ يمكن أن يكتب بواسطة أى لجنة وإنما تتحقق وقائع التاريخ وحقائقه عن طريق نشر وثائقه، وشهادات الذين عاشوا تفاصيل الأحداث، وفتح باب الدراسة والمناقشة والحوار والتحليل حول ذلك كله.. أى

إن الوثائق والشهادات إلخ يمكن أن تكون المادة الخام ولكن قيمتها الحقيقية تبدو من خلال الدراسة والحوار والمناقشات، وهذا ما يجلو الحقيقة. وهذا ما تفعله الدول المتقدمة التى تنشر وثائق تاريخها بعد فترة من الزمن ثم تتركها للدارسين والباحثين والمحققين والحوار بينهم. وفى كل الأحوال، ومع كل الاحترام للجهد الذى يبذل فى لجنة كتابة التاريخ، فإن عملها سوف يستغرق سنوات طويلة، وفى هذا الوقت لا نستطيع أن نترك الشعب المصرى يسقط فى هاوية من الشكوك والهواجس وعدم الثقة بالنفس.

...

وقال المدعى الاشتراكى: انتهت الجلسة.

□□□

الجلسة الثامنة- الأربعاء ٢١ يوليو ١٩٧٨.

كانت أسئلة المدعى الاشتراكى فى هذه الجلسة أبعد ما تكون عن تحقيق، وأقرب ما تكون إلى ندوة أو جلسة سمر بين أصدقاء.. بدأ بسؤال: إذا كنت ترى حدوث بعض التجاوزات والأخطاء- مثل الحملة ضد الرئيس جمال عبدالناصر- فما الأسلوب الذى تراه لتصحيح المسار عند حدوث أخطاء فى التطبيق؟

وأجاب هيكل: كانت هناك بالطبع تجاوزات وأخطاء فى عهد جمال عبد الناصر كما يحدث فى أية تجربة ضخمة بحجم تجربته. وقد نقدت بنفسى بعض هذه التجاوزات والأخطاء فى حياة عبد الناصر. فقد كتبت عن الديمقراطية. ونقدت بشدة إجراءات الحراسات والاعتقالات وغير ذلك مما صاحب التجربة. وأريد أن أقول بوضوح إن بعض ذلك كان ضروريا، وبعضه كان محتمل الوقوع خصوصا فى ظروف التحول الاشتراكى، فلا أحد يتصور أن تحولا هائلا كذلك الذى حدث فى الأوضاع الاجتماعية فى مصر كان يمكن أن يحدث بغير إجراءات تتدخل فيها سلطة الدولة.. وبالنسبة للصحفى- وهذا هو دورى- فإن حدود جهده لمواجهة هذه التجاوزات

والأخطاء هى أن يشهر قلمه لنقدها وأن يتحمل مسئولية الكلمة، واعتقد أنى فعلت ذلك، وأننى تعرضت بسببه لحملات ضارية فى وجود عبدالناصر أيضا.

ومن الموضوعات التى تناولتها بالنقد موضوعات فى مجال السياسة الخارجية.. ناديت بدعوة إلى (تحييد أمريكا) وجرَّت علىَّ هذه الدعوة مشاكل لا حدود لها.. البعض حاولوا أن يخرجوا بما دعوت إليه عن الهدف الواضح له ربما لأنهم عجزوا عن فهم الأوضاع المتغيرة فى العالم. كان منطقى أن التحييد يختلف عن الحياد. فلم أتصور حياد الولايات المتحدة بيننا وبين إسرائيل، لأن الولايات المتحدة فى هذا الصراع منحازة وانحيازها لإسرائيل. ولكن التحييد هنا وضع نفرضه نحن بوسائل القوة السياسية والاقتصادية الشاملة. أما الحياد فإنه موقف تختاره الولايات المتحدة بمحض إرادتها، وهذا مستحيل فى ظروف الصراع العربى الإسرائيلى. كان رأيى أن نضغط على الولايات المتحدة لكى نشل أكبر مساحة ممكنة من انحيازها، ولنفرض عليها- ولو كرها- بعض التوازن فى موقفها مما يتيح لها أن تؤدى دورا محكوما فى حل أزمة الشرق الأوسط. وبالتأكيد هناك دور لابد أن تؤديه الولايات المتحدة، ويجب أن تكون لدينا قدرة على التحكم فى طريقة أدائها لهذا الدور الضرورى.



واستطرد هيكل

نعم هناك تجاوزات وأخطاء فى تجربة عبد الناصر، ولابد من التصدى لها بالنقد والتقويم، والذى عارضته فى حديثى إلى الأهالى هو منطق الإدانة المطلقة.. منطق شجب عصر بأكمله.. ومن هنا كان طلبى التحقيق، ولا يمكن أن يرد علىَّ بأنه يجب أن أنتظر لجنة كتابة التاريخ، فإن ذلك كان يجب أن يوجه إلى حملة إدانة عصر عبد الناصر، كان من باب أولى على هذه الحملة أن تنتظر نتائج عمل لجنة كتابة التاريخ، خصوصا أن العهد ليس عهدين، كما قال الرئيس السادات، كما أن ثورة ٢٣ يوليو هى الأساس الشرعى لاستمرار النظام الذى قام بعدها وحتى اليوم. أليس ذلك

وضعا غريبا؟ حملة إدانة شاملة دون انتظار لعمل لجنة كتابة التاريخ. فإذا قلنا: إن ذلك ظلم فادح لشعب مصر وتعالوا لنحقق تحقيقا محايدا ونزيها قيل لنا: لماذا لا تنتظرون عمل لجنة كتابة التاريخ؟

أصل الآن إلى الأسلوب الذى أراه لتصحيح المسار عند حدوث أخطاء فى التطبيق. هناك دور للصحافة فى محاولة التصحيح، وهناك دور للمجالس المنتخبة- ومجلس الشعب على رأسها- والتجارب السياسية التى تعتمد على منطق التنظيم الواحد- ونحن بينها ومعظم دول العالم النامى- تجد نفسها بين حين وآخر أمام ضرورة إجراء ما يشبه العملية الجراحية. حدث ذلك- على سبيل المثال- عندما قام جمال عبد الناصر بإسقاط دولة المخابرات، وكان ذلك نص التعبير الذى استعمله. وتكرر ذلك عندما قام الرئيس السادات بإسقاط مراكز القوى فى مايو ١٩٧١ وهى عملية كان موقفى فيها واضحا إلى جوار الرئيس السادات. وكنت أول شخص دعاه الرئيس السادات إلى بيته ليتشاور معه حين وصلت إليه الأشرطة التى أقنعته بوجود تآمر عليه، وقد ظللت منذ تلك اللحظة إلى يوم ١٥ مايو حين انتهى كل شيء رفيقا شبه دائم إلى جانبه إلى أن تمت العملية بنجاح. وبعدها دعانى الرئيس السادات إلى تولى وزارة الإرشاد القومى بحضور كل من الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء وقتها، والمهندس سيد مرعى، والدكتور عزيز صدقى، ورجوته أمامهم جميعا إعفائى. إننى أذكر هذه الواقعة لأن جريدة حزب مصر أشارت إليها فى مقال خصص للهجوم علىَّ قبل أيام. إننى لم أنتظر الأيام الأخيرة الحاسمة فى هذه الفترة لكى أحدد موقفى ولكنى حددته منذ اللحظة الأولى عندما رأيت بوادر الصراع غداة رحيل عبد الناصر مباشرة، وفعلت ذلك عندما تأزمت الأمور بسبب مشروع الوحدة الثلاثية الذى اتخذ ستارا للصراع على السلطة، وقد اتخذت فى هذا الظرف المحفوف بالمخاطر موقفا مبدئيا أظنه كان حاسما.

□□□

وحكى هيكل للمدعى الاشتراكى حكاية الأزمة التى أثارتها مجموعة مراكز القوى حول مشروع الوحدة الثلاثية بين مصر وليبيا وسوريا الذى وقعه الرئيس السادات. فقال: عرض الرئيس السادات مشروع الوحدة الثلاثية فى اجتماع فى استراحة القناطر دعا إليه اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى، فإذا أغلبية الأعضاء يرفضونه. واتصل بى الرئيس السادات تليفونيا ليقول لى إن الموقف تفجر فى اللجنة التنفيذية العليا وإنه سيذهب بالمشروع إلى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ويعرض أمامها وجهة نظره ويعرض الآخرون وجهات نظرهم أمامها.. وفى هذا الاجتماع كان الجو فى اللجنة المركزية عاصفا، فقد انفجر الخلاف بطريقة مخيفة، وحين عرض الموضوع للتصويت برفع الأيدى لم يرفع يده بالموافقة على وجهة نظر الرئيس السادات غير أربعة أعضاء فقط، وكنت أنا واحدا منهم، وفيما أذكر كان منهم أيضا المهندس سيد مرعى. ورئى تدارك الموقف بدعوة اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى فورا. وانفض اجتماع اللجنة المركزية مؤقتا لبضع ساعات أو دقائق إلى أن تجتمع اللجنة التنفيذية العليا وتعود اللجنة المركزية بعده إلى الاجتماع بمخرج من الأزمة.

ووجدت نفسى مدعوا من كل الأطراف لحضور اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى على رغم أننى لست عضوا فيها. ورحبت بالفرصة لأننى اعتقدت أن لدىَّ ما أقوله. وطلبت الكلمة، وقلت أمام الجميع: إن الرئيس السادات فى مشروعه للوحدة الثلاثية ينفذ اتفاقا توصل إليه جمال عبد الناصر، وفتحت ملفا كان معى وكان يضم محضر اجتماع عقد فى بنغازى فى شهر يونيو ١٩٧٠ واشتركت فيه مصر وليبيا وسوريا وتم الاتفاق فيه على إعلان وحدة ثلاثية بين الأطراف الثلاثة، وقلت: هذا هو محضر الاتفاق.. إننى حضرت الاجتماع بنفسى مع الرئيس عبد الناصر ومع رؤساء ليبيا وسوريا، وتوليت بنفسى كوزير للإرشاد وقتها كتابة المحضر أثناء الجلسة. وحين عدنا إلى القاهرة سلمت المحضر بخطى إلى رئاسة الجمهورية حيث كتب على أوراقها الرسمية، وعادت إلىَّ نسخة منه تحمل تأشيرة بخط جمال عبد الناصر. وإذن، فما هو

الجديد الآن وما هو الخلاف خصوصا إذا كان طريقهم-كما يقولون هو طريق عبدالناصر؟.

وأحدث ظهور هذا المحضر فى الجلسة أثره، وكان الرئيس السادات أول من لاحظ ضيق الآخرين من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا بشهادتى. ومنذ ذلك الوقت وحتى انتهت أزمة مراكز القوى كنت أقرب الناس إلى الرئيس السادات كما قال هو بالنص فى حديث صحفى.

□□□

وسأل المدعى الاشتراكى: إذا كنت مؤيدا للرئيس السادات فلماذا وعلى أى أساس تُصر كما جاء فى مقالك على أن ما حدث فى مصر يومى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ كان انفجارا شعبيا له دواع اجتماعية، وخالفت رئيس الدولة والشعب فيما قالوا إن تلك كانت انتفاضة حرامية؟

وأجاب هيكل: نعم. قلت ذلك فعلا. ولا يزال ذلك رأيى حتى الآن. إننى لم أقل إن ما حدث كان انتفاضة شعبية، بل كان الوصف الذى اخترته له أنه كان انفجارا شعبيا. ما حدث كان رد فعل لعملية رفع فجائى للأسعار بطريقة لم تكن الجماهير مستعدة ولا مهيأة لها. وهكذا وقع الانفجار. إن الدولة اعترفت بذلك عندما وجدت نفسها أمام ضرورة إلغاء هذه الزيادات فى أسعار المواد الأساسية. لقد كنت ضد النظرة البوليسية إلى ما حدث. لأن تقييمنا للأسباب يقرر أسلوبنا فى علاجه. وكان تخوفى من أننا إذا اعتمدنا المنطق البوليسى فى التقييم فسوف نفعل نفس الشىء فى العلاج. وسوف يدعونا ذلك إلى اتخاذ أساليب ليست هى بالضبط ما يقتضيه الموقف. كان يجب أن يوضع ما حدث فى حجمه الصحيح. كانت هناك دواع حقيقية أدت إلى استثارة جماهير واسعة من الشعب بدليل أن البوليس عجز عن مواجهة الموقف واقتضى الأمر الاستعانة بالجيش. ووجدت الدولة ضروريا إلغاء القرارات. والرئيس السادات أشار فى أكثر من خطاب إلى أن الأسلوب الذى اتبع فى إعلان مثل هذه

القرارات برفع الأسعار مفاجأة ومرة واحدة أدى إلى رد فعل شعبى، وكان رأيه أنه أعطى الحق للجماهير أن تتظاهر ولكن ما اعترض عليه هو مظاهر العنف التى لجأت إليها بعض العناصر. وهكذا فإن علينا أن نفرق بين حالتين: الحالة الأولى: رد فعل شعبى حقيقى تحركت من خلاله جماهير واسعة.. والحالة الثانية: قيام بعض العناصر باستغلال ما حدث والخروج به عن مساره المقبول. وكانت خشيتى أن التركيز على الحالة الثانية وحدها والنظر إلى الموضوع برمته نظرة بوليسية سوف يدعونا إلى الاعتماد على أساليب لا تتناسب تماما مع مقتضى الحال. وقد شرحت رأيى فيما حدث وفى منطق علاجه فى اجتماع مع المهندس سيد مرعى والدكتور مصطفى خليل واعتقد أن الرئيس عرف بوجهة نظرى، وأعتقد أن رأيى فى ذلك الوقت لم يكن موضع اعتراض منه.

□□□

واستمرت أسئلة المدعى الاشتراكى حول كل كلمة قالها هيكل فى حديثه الصحفى إلى الأهالى.. وسأل المدعى الاشتراكى قلت: إن ما نعانيه من مجموعة فرص ضائعة وآمال خائبة كنا نحن سبب الضياع والخيبة.. فما هو المقصود بالفرص الضائعة والآمال الخائبة؟

وأجاب هيكل: كلامى فى هذه الفقرة عن التاريخ والحركة الاجتماعية العامة.. الانفصال بين مصر وسوريا بعد الوحدة فرصة ضائعة وأمل خائب. الأمل فى توحيد الأمة العربية نفس الشىء. هزيمة ١٩٦٧. الآمال التى تمنيناها جميعا بعد حرب أكتوبر المجيدة والتى تصورنا أنها سوف تصل بنا إلى حل عادل وسريع. هكذا كنت أتكلم عن مسار تاريخى واسع..

وسأل المدعى الاشتراكى: قلت فى حديثك إن أكثر الخلافات بين اليسار والناصرية ليست أكثر من رواسب.. فهل هذا موقف جديد لك من اليسار؟

وأجاب هيكل: إننى لست شيوعيا، ومن الصعب أن أكون. وقد حذف السؤال قولى فى هذه الفقرة من الحديث: إنه سوف تبقى بين الناصريين والشيوعيين خلافات كبيرة حول قضية المنهج والدين ودكتاتورية البروليتاريا. أى إن موقفى هنا يختلف عن موقف الشيوعيين كما كان دائما. وفيما يتعلق بأن الناصريين حركة يسار وطنى فلاأظن أن هناك خلافا على ذلك، وهذا هو نفس مفهوم الرئيس السادات الذى قال بالحرف الواحد: (ما إحنا برضه يسار). إن كل حركات الثورة الوطنية بالطبيعة هى حركات يسار، لأن مقتضى مفهوم اليسار هو الانتقال بمواقع الثورة، وبالتالى السلطة، من سيطرة الأقلية إلى سيطرة أوسع للجماهير. وبالتالى فإن كل حركة تحرر وطنى ذات محتوى اجتماعى هى على نحو ما حركة يسار.

تحقيق سياسى.. وعتاب سياسى..

استغرق التحقيق مع هيكل أمام المدعى الاشتراكى عشر جلسات. كانت الجلسة الأولى صباح الأربعاء ١٤ يونيو ١٩٧٨ والجلسة العاشرة والأخيرة صباح الثلاثاء أول أغسطس ١٩٧٨- أى إن التحقيق استغرق شهرا ونصف الشهر. وكان آخر سؤال عن رأيه فى الحملة على عبدالناصر، وكيف قال عنها فى كتابه (لمصر لا لعبدالناصر) ص ١١٤: إنها لم تكن من قبيل الأخطاء السياسية، ولكنها كانت أسوأ، كانت تتعدى أخطاء السياسة فى السقوط الأخلاقى إلى نوع من الانتحار المعنوى.. وكان هذا السؤال هو الفخ الذى رأى المدعى الاشتراكى الإيقاع بهيكل فيه. ولذلك سأله: ما هدفك من هذه العبارات؟. ومن تقصد بها؟.

وأجاب هيكل: قلت: (إن ما حدث فى مصر لعبدالناصر لم يحدث لزعيم أو قائد فى أى بلد من بلدان العالم إلا إذا كان هناك انقلاب مسلح على نظامه، ومثل هذا الانقلاب لم يحدث قطعا. وعلى فرض أن انقلابا مسلحا كان قد حدث فإنى أشك أن حملة اليوم على الأمس كان يمكن أن تصل إلى هذا العنف). ثم استطردت إلى العبارة الواردة فى السؤال والتى قلت فيها: (ولم يكن من قبيل الأخطاء السياسية ما حدث، بل كان أسوأ، فقد تعدى أخطاء السياسة إلى السقوط الأخلاقى إلى نوع من الانتحار المعنوى) ثم استطردت قائلا: (وليست هذه مصر، ولا يمكن أن تكون هذه هى مصر، وهى بالفعل ليست مصر).

وإذن فالكلام واضح. ثم إنى ختمت قائلاً: (ثم أقول فى الختام لقد كانت تجربة جمال عبدالناصر بإيجابياتها وسلبياتها تجربة مصرية عربية إنسانية أصيلة، ومناقشتها حق، ولكن إدانتها الشاملة على هذا النحو الذى يجرى فى مصر وبالوسائل والأساليب التى يتم بها ذلك باطل لا يصح.. ويبقى اعتقادى أنه لا يصح إلا الصحيح، ثم أتوقف عند عبارة بدأت بها هذه السلسلة من الأحاديث، وهى: (إننى لا أعطى لأحد حق اتهامه، ولا أعطى لأحد شرف تبرئته.. تلك كلها حقوق للجماهير وللأمة وللتاريخ).

واستطرد هيكل: لقد قلت، وما زلت أقول، وأرجو أن أصحح إذا كان ما أقوله خطأ- إنه لم يحدث فى العالم كله أن وجهت حملة إلى مؤسس نظام فى ظروف استمرار هذا النظام- حتى مع اختفاء مؤسس النظام بالموت- على هذا النحو الذى حدث لجمال عبدالناصر، واعتقادى أن هذه الحملة على هذا النحو إساءة إلى روح الشعب المصرى وإلى وجدانه وضميره، ثم إنها إساءة إلى الشعب المصرى عربيا، وإساءة إلى الشعب المصرى أفريقيا، بل إن حد الإساءة وصل إلى العالم كله خصوصا دول حركة التحرر الوطنى التى كانت التجربة الناصرية فى مصر- ولا تزال- نموذجا نقلت عنه واحتذت به فى كثير من الأمور، واعتمدت عليه فى محاولاتها للتحرر والتنمية.

□□□

وقاطعه المدعى الاشتراكى: ألا ترى أن عبارة (حملة على جمال عبدالناصر) ربما يكون فيها كثير من التجاوز والأمر لا يعدو مجرد انتقادات لا سيما إذا وضح أن صحافة اليوم يمارس فيها الحوار بأثرى مما كان يمارس فيها بالأمس، ولا سيما أن رأس النظام وكبار المسئولين يحتفظون بكل تقدير واحترام، ويقررون، ويقرر الرئيس السادات أنه مسئول عن كل قرارات عبدالناصر؟.

قال هيكل: أما إنها حملة فذلك هو الوصف الذى أراه شخصيا لما يحدث، وقد أكون مخطئا، ولكن ما يقال ويذاع وينشر يتعدى فى اعتقادى حدود النقد الذى هو حق مشروع بل واجب، لأن الأمم لابد أن تعيد تقييم تجاربها باستمرار لكى تستطيع تجاوز

سلبيات تجاربها، وتكثيف إيجابياتها. وأما عن الحوار الأكثر ثراء اليوم فى الصحافة المصرية فإنى أرجو لأسباب عديدة- بينها العفة وليس أى شىء آخر- إعفائى من مناقشة ثراء الحوار الدائر فى الصحافة المصرية الآن. وأما أن بعض قيادات النظام، وعلى رأسها الرئيس السادات، تعتبر نفسها مسئولة مع جمال عبدالناصر، فهذه حقيقة. وقد سجلت رأيى فى هذه النقطة فى أكثر من موقع فى التحقيق، ولكن ذلك بالطبع لاينفى أن هناك ما يمكن أن نسميه (حملة إدانة شاملة) وأسجل أننى شخصيا لاأعتقد بصحة هذه الحملة على النحو الذى تجرى به. ولا بنفعها للضمير المصرى والوجدان المصرى وثقة الشعب المصرى بنفسه، ولهذا كان العنوان الذى اخترته لهذه المجموعة من المقالات (لمصر لا لعبدالناصر).. عبدالناصر نفسه ذهب فى رحاب التاريخ، وأما الباقى والدائم والمستمر فهو الشعب المصرى الذى ما كان عبدالناصر ليستطيع أن يحقق ما حققه، أو ينجز ما أنجزه لولاه.. لولا الشعب المصرى.

وقال المدعى الاشتراكى: كان هذا آخر سؤال فى التحقيق، فهل لديك أقوال أخرى؟

وقال هيكل: نعم.. أريد أن أسجل فى ختام هذا التحقيق عددا من الملاحظات التى أراها ضرورية.

□□□

أريد أن أسجل تقديرى لسماحة هيئة التحقيق الموقرة: المدعى الاشتراكى الوزير أنور حبيب، والمحامى العام المستشار عبدالرحيم نافع، والمحامى العام المستشار أحمد سمير سامى.. أريد بعد ذلك أن أسجل ملاحظة.. أن التحقيق معى استمر عشر جلسات امتدت ما بين شهور يونيو ويوليو وأغسطس.. موسم صيف بأكمله. أريد بعد ذلك أن استأذن، وهذا تحقيق سياسى كما قيل لى، أن أبدى فى ختامه نوعا مما يمكن أن أسميه عتاباً سياسياً. ومع أن هذا التحقيق أتاح لى فرصة أعتز بها للقاء مع هذه الهيئة الموقرة- فإنى أعترف بأننى لم أكن أجد مبررا له، وما زلت. وربما لاحظت أن هذا

التحقيق الذى تم معى بمقولة أننى أسأت إلى سمعة مصر فى الخارج تركز فى معظمه على مقالات كثيرة كتبتها ونشرتها داخل مصر أيام عملى فى الأهرام، وكان بعضها فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر الذى ذهب إلى رحاب الله وأنا متمتع بكامل ثقته رئيسا لتحرير الأهرام ولمجلس إدارته. وإلى جانب ذلك وزيرا للإرشاد القومى فى الفترة الحاسمة من حرب الاستنزاف، إلى جانب قيامى فى وقت من الأوقات بمهام وزير الخارجية (يوليو- أغسطس ١٩٧٠)، ثم إن البعض الآخر من هذه المقالات التى تناولها التحقيق كتب ونشر فى عهد الرئيس أنور السادات فى الفترة من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٤ حينما كنت واحدا من أقرب الناس إليه- حسب تصريح له- ففى ذلك الوقت لم أكن مجرد صديق له فحسب، إنما كنت موضع ثقته، بدليل ما كلفنى به من اتصالات دولية مهمة، بعضها مع القوتين العظميين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) وبعضها مع دول كبرى كألمانيا الاتحادية وبريطانيا.. فى هذه الفترة تشرفت بصياغة كل خطاب رسمى ألقاه، بل إننى توليت صياغة معظم خطاباته إلى رؤساء الدول، وبينهم الرئيس الأمريكى نيكسون والرئيس السوفيتى بريجنيف.

ولقد كان من دواعى دهشتى أن أتهم افتراء بالانهزامية بسبب مقال كتبته بينما أنا الشخص الذى عهد إليه الرئيس السادات نفسه بكتابة توجيهه الاستراتيجى الموجه منه إلى القائد العام للقوات المسلحة بتحديد أهداف حرب أكتوبر. كذلك كنت الشخص الذى عهد إليه الرئيس بصياغة خطابه التاريخى إلى مجلس الشعب وهو الخطاب الذى حوى شروطه للسلام.. إن معنى ذلك أننى كنت المؤتمن على خطط الحرب، والمؤتمن على خطط السلام.

□□□

واستطرد هيكل يسجل فى محضر التحقيق فى الجلسة الختامية:

إننى أعتقد أننى شاركت بأكثر من ذلك فى المعركة الشاملة سنة ١٩٧٣. إن جريدة (الأويزرفر) البريطانية نسبت إلىّ أننى كنت أول من فكر فى استخدام البترول

كسلاح سياسى. وعلى أية حال فإنى بدأت أتناول هذا الموضوع جديا فى كتاباتى سنة ١٩٤٩، أى بعد حرب فلسطين الأولى مباشرة. وفى ذلك الوقت كانت مناقشة هذا الموضوع وبحث إمكاناته تبدو من ضروب الخيال، ولكنى ظللت على يقين من أن هذا السلاح تكمن فيه إمكانات تأثير هائل.

وحينما أنشأت مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام، حاولت توجيه مجهود عدد من الباحثين إلى هذا المجال. وحين بدأت الأمور تشير فى اتجاهاتها إلى قرب جولة جديدة من جولات الصراع مع إسرائيل، فإننى دعوت الدكتور مصطفى خليل لكى يرأس مجموعة خاصة فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، وليقوم ببحث قضية استخدام البترول كسلاح للمعركة، واستطعت بوسائل الأهرام أن أوفر لمجموعة العمل التى رأسها الدكتور مصطفى خليل كما ضخما من البيانات والمعلومات والأرقام الصحيحة لم يكن لها أى مثيل لدى أى جهاز من أجهزة الدولة. بل لم يكن لها مثيل لدى كل الدول العربية. ووضع الدكتور مصطفى خليل فى إطار هذه المهمة تقريرا ممتازا عن احتمالات استخدام البترول فى المعركة.

وقد توليت بنفسى تقديم نسخة من هذا التقرير، ونسخة من ملخص الاقتراحات العملية التى أوصى بها، إلى الرئيس أنور السادات يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣، وقد أصدر الرئيس السادات أمره إلى المهندس سيد مرعى- ومعارك أكتوبر محتدمة فى يومها الثانى- أن يحملها فى طائرة خاصة إلى السعودية، وأن يسلم نسخة من التقرير وخلاصة التوصيات إلى الملك فيصل. وقد جرى بالفعل تبنى الكثير مما جاء فى هذا التقرير. وإذن فإننى كنت طوال فترة خدمتى العامة أحاول قدر ما أستطيع أن أكون نافعا لوطنى، خصوصا فى ظروف صراعه مع العدو الإسرائيلى، هذا بالطبع إلى جانب دورى فى الخدمة العامة كصحفى.

وليس من شك أننى أبديت فى الظروف التى أعقبت حرب أكتوبر مباشرة وجهات نظر فى اتفاقية فك الارتباط الأولى، وهى وجهات نظر شأنها شأن غيرها قابلة

للخطأ والصواب، ولكننى وجدت نفسى أمام مسئولية إبداء آرائى فى ظروف من أخطر الظروف، وكان من نتيجة إبدائى لآرائى أن تعرضت لبعض مالا أرى داعيا للخوض فيه الآن، ولكنى قبلته باعتبار أن ذلك طبيعى لصحفى يعتقد أن كلمته ملك قناعاته.. وأعتقد أن الثقة فىّ ظلت مستمرة بعد ذلك، والدليل أننى ظللت قريبا من قائد النظام وموضعا لثقته، وفى هذه الفترة- وحتى بعد خروجى من الأهرام- فقد كنت الشخص الذى تشاور معه فى أهم خطوة استراتيجية أقدم عليها سنة ١٩٧٥، وهى خطوة فتح قناة السويس بإرادة مصرية منفردة، ثم عهد إلىّ بصياغة خطابه الذى أعلن فيه إلى مجلس الشعب فتح القناة.

ومما يدل على أننى كنت قريبا وموضع الثقة، أن الرئيس السادات تفضل ودعانى إلى لقائه فى استراحة القناطر مساء يوم ١١ إبريل، وعرض على منصب نائب رئيس الوزراء للإعلام فى وزارة السيد ممدوح سالم التى كان يجرى تشكيلها فى ذلك الوقت. وفى اليوم التالى دعانى السيد ممدوح سالم إلى لقائه وكرر العرض. وفى اليوم التالى حاول السيد إسماعيل فهمى نائب وزير الخارجية إقناعى فى الصباح، كما حاول المهندس سيد مرعى إقناعى فى المساء بحضور الدكتور مصطفى خليل، ولكنى تمسكت بالاعتذار، ووجدت مناسبا أن أذهب إلى الرئيس ظهر اليوم التالى (١٤ إبريل ١٩٧٥) لأرجوه نهائياً إعفائى من قبول هذا المنصب لأسباب، بينها تمسكى بمهنة أعتز بها ولم أعرف لنفسى فى حياتى مهنة غيرها. وكان الرئيس مبالغا فى كرمه، فقد تصور أننى لا أريد العمل فى الوزارة فعرض أن أكون مديرا لمكتب رئيس الجمهورية بدرجة نائب رئيس الوزراء، ومرة أخرى اعتذرت.

وقال هيكل للمدعى الاشتراكى:

لماذا أقول ذلك كله؟ أقوله لكى أبرهن على أنه حتى هذه اللحظة- حتى النصف الثانى من إبريل ١٩٧٥ كانت مكانتى بقرب قائد النظام محفوظة، كما أن ثقته فِىَّ

كانت كاملة. ولم يكن هناك ما يدعو إلى تساؤل حول ما كتبت قبلها، أو سؤال مما جرى معى التحقيق فيه خلال هذه الجلسات.

□□□

وقال هيكل وسجل فى آخر صفحات محضر التحقيق السياسى:

لسوء الحظ، فإن الظروف تطورت بعد ذلك، فقد كان نشر كتابى (الطريق إلى رمضان) فى لندن فى شهر مايو ١٩٧٥ مناسبة شنت علىّ فيها حملة عنيفة فى الصحافة المصرية. وكان ذلك بمقولة: إننى زيفت التاريخ. وأعتقد أن الرجوع إلى الكتاب يشهد لى بأننى كنت منصفا بقدر ما كنت إنسانيا. وقد ظل هذا الكتاب ولا يزال مرجعا عربيا وحيدا عن وجهة النظر العربية فى الفترة التى تعرض لها من مسار الصراع العربى الإسرائيلى. بل إن الكتاب يدرس فى معظم كليات العلوم السياسية فى الولايات المتحدة بهذا الوصف.

وقال هيكل:

لقد شنت علىّ بعد ذلك حملات عربية.

ادعى علىّ البعض أننى على علاقة مع ليبيا. وكان ذلك موضع حملة عارمة، بينما الحقيقة تشهد بأننى منذ سنة ١٩٧٠ لم أضع قدمى فى ليبيا. ومنذ سنة ١٩٧٣ لم ألتق بالرئيس القذافى، ولا التقيت بأى مسئول ليبى غيره، وكان ذلك تحسبا لحساسيات أعرف وجودها ولا أريد الدخول فى تعقيداتها على أى وجه من الوجوه. بل إننى عندما طفت بالعالم العربى كله لأعد كتابى عن العالم العربى، قررت العودة من تونس إلى القاهرة عن طريق روما متجنبا المرور بليبيا. وكان ذلك موضع ملاحظة علنية من الرئيس القذافى، بل إنه كان معروضا علىّ أن ترسل لى طائرة خاصة لأذهب من تونس إلى ليبيا بعد أن تعللت فى تجنب الذهاب إليها بأن تذكرتى فى الطائرة تحملنى عن طريق روما، ومع ذلك كان إصرارى كاملا على أن أتجنب مالا داعى له من حساسيات أعرفها.

وأضاف هيكل إلى محضر التحقيق:

إننى فوق ذلك، ومنذ سنة ١٩٧٥ امتنعت تماما عن زيارة العراق، وسوريا، والجزائر بسبب خلافاتها مع الحكومة المصرية، وامتنعت أيضا عن أى اتصالات سياسية أو صحفية بشخصيات هذه الأقطار العربية. وكان هذا مفزعا لى نفسيا. فأنا أعتبر نفسى قوميا عربيا مثلما أنا وطنى مصرى، ولكنى وضعت لنفسى حدودا التزمتها مهما كانت متعنتة.

ثم وجهت إلىّ بعد ذلك حملة بسبب ما قيل إننى قلته أثناء زيارتى للولايات المتحدة سنة ١٩٧٥. وعندما عرضت علىّ جامعة جورج تاون أن أحاضر فيها سنة ١٩٧٧ وكنت قد قبلت الدعوة وتحدد موعد المحاضرة، وطبع برنامج الجامعة فعلا، لكنى عرفت بعدها أن الرئيس السادات سيكون فى الولايات المتحدة فى نفس الوقت لأول لقاء له مع الرئيس كارتر، فقررت أن أعتذر عن عدم السفر، وبعثت إلى جامعة جورج تاون بالأسباب الحقيقية لاعتذارى قائلاً: إننى لا أريد أن يحدث سوء فهم آخر.

ثم وجهت إلىّ بعد ذلك حملات أننى كنت مركز قوة، وهى حملة غريبة لأن مركز القوة لا يمكن أن يقوم إلا على قاعدة قوة، ولم تكن لى مثل هذه القاعدة فى حياتى العملية، فكل ما كان لدىّ من أسباب للتأثير هو ما أقوله أو أكتبه.. وليست هناك قوة إلزام لرأى يقال أو يُكتب إلا بمقدرته على الإقناع، وهذا هو صميم الممارسة الديمقراطية.

ووجهت إلىّ حملة تدعى أننى تسببت فى فرض حراسات على الناس. وأننى قصدت إذلال العائلات، ولست أعرف ما هو المقصود بهذا الكلام!. ولكنى أعرف أننى الصوت الوحيد الذى ارتفع لنقد التجاوزات فى فرض الحراسات. إن موقفى العلنى والمكتوب والفعلى كان على العكس تماما من كل ما ادعى به علىّ.

ووجهت إلىّ حملة تدعى أننى فلسفت الهزيمة، وأننى قلت إن النظام الثورى لم يُهزم. والغريب أننى تصديت للذين قالوا بذلك فى الاتحاد الاشتراكى وفى حزب البعث. وكتبت صراحة أقول: إن أى نظام يعجز عن حماية ترابه الوطنى يفقد

شرعيته، وكانت شرعية النظام الثورى الأساسية- بعد الهزيمة- فى رأيى أنه يقاوم ويحشد قواه للمعركة.

وكان من بين الحملات ما حاول تشويه ما أقوله بوسائل بالغة الغرابة، ومن ذلك مثلا أن أحد الذين كتبوا فى جريدة الأهرام ادعى علىّ بأننى حاولت تحريض الاتحاد السوفيتى على مصر، ونقل عن مقال لى أننى قلت لدبلوماسى سوفيتى أثناء حوار بيننا ما نصه: (إن قوة عظمى فى مثل موقفكم لا تملك، ولا يليق بها أن تقف موقف المتفرج العاجز فى منطقة على هذه الدرجة من الأهمية والحساسية) ثم توقف نقله عما كتبت عن ذلك الحد متخذا منه دليلا على أننى كنت أحرّض الاتحاد السوفيتى على مصر.

وأغفل ما قلته بعد ذلك فيما نشرته فى حوار بين هذا الدبلوماسى وبينى حين قلت له وبالحرف الواحد كما فى نص المقال:(تقدموا إلى منتصف الطريق وانسوا كل شىء حتى الكبرياء الجريحة، واستجيبوا-ولو من باب المبالغة فى إظهار حسن النية- إلى كل الطلبات العربية من السلاح.. بدون سلاح ليست هناك مفاوضات تدعون إليها، أو تستبعدون منها)

إلى هذا الحد وصل التشويه بالتزوير!

□□□

وقال هيكل:

إن الحملة وصلت بعد ذلك إلى أبعاد غريبة، ومن ذلك أن صحيفة الجمهورية نشرت-وهذا طبيعى-وثيقة عن السفارة الأمريكية صادرة سنة ١٩٤٩ عن ظروف تغيير وزارى حدث فى مصر وقتها. وكان بين ما جاء فى هذا التقرير أننى شرحت وجهة نظرى فى التغيير إلى أحد الدبلوماسيين فى السفارة الأمريكية، وهو أمر يحدث كل يوم. إن كل من يعمل فى الميدان السياسى أو الصحفى يقابل عديدا من الدبلوماسيين فى عمله، وهو يتكلم معهم عارفا أنهم سوف يشيرون فى تقاريرهم إلى حكوماتهم لما يسمعوه منه ومن غيره من وجهات نظر. وفى هذا التقرير-على سبيل المثال-فقد كانت هناك

أقوال منسوبة إلى عديد من الشخصيات المصرية بينها الملك فاروق، ورئيس الوزراء، ورئيس الديوان الملكى حسن يوسف وقتها، وعدد من وزراء الوفد وأقطابه.. ولم يكن فى هذا كله شئ. ولكن جريدة الأخبار وحدها عادت فى اليوم التالى إلى هذا التقرير، وأخذت الجزء الخاص بى منه وأخرجته من سياقه ورتبت على ذلك ادعاء بأننى كنت أقدم معلومات للسفارة الأمريكية عن أسرار السياسة المصرية. إن هذا التصرف كان ظلما فادحا وتجنيا على الحقيقة أولا. تصرف تنطبق عليه-فيما أتصور-كل مواد قانون العيب الذى يتحدث عنه الرئيس السادات أحيانا.

ثم تصاعدت الحملة بعد ذلك إلى درجة أن جريدة الجمهورية استغلت كلاما منسوبا إلى الرئيس السادات لا أظنه كان يقصدنى به، وفيه كان الرئيس السادات يتحدث عن (لورد هوهو).. واللورد (هوهو) كان شخصا بريطانيا ذهب إلى ألمانيا عدوة بريطانيا وقت الحرب وراح يذيع من هناك ضد وطنه.. إن جريدة الجمهورية قالت إننى كنت المقصود بهذا الكلام. وأضافت فى تعريفها بلورد هوهو إنه قبض عليه فى برلين وحوكم وأعدم فى بريطانيا، ثم وافقت الحكومة البريطانية فى أواخر العام الماضى فقط على نقل جثمانه إلى مقابر الأسرة فى أيرلندا بعد أن نعت عليه خيانة بلده.. ذلك فساد فى القياس.. ولا أريد أن أدخل فى تفاصيل أكثر من ذلك فى هذه النقطة!

وفى آخر كلماته للمدعى الاشتراكى قال هيكل: إن هناك نماذج كثيرة لحملات أخرى شنت علىّ دون أن أعرف لها سببا سوى أننى حاولت أن أحتفظ بقلمى ملكا لقناعاتى مع تسليمى بأن كل قناعات أمر يقبل الصواب والخطأ، وأريد أن أقول بعد ذلك إن هذه الحملات كلها وغيرها مما تعرضت له أو يمكن أن أتعرض له فى أى وقت، لا تضعف بأى حال من الأحوال إيمانى بوطنى، وولائى له، وارتباطى بقضايا نضاله. وأعتقد أننى بما فعلت وقلت حاولت أن أخدم وطنى لا أن أسئ إليه. ولقد حددت موقفى منذ اللحظة الأولى، وهو أننى لست مستعدا للحياة خارج مصر تحت أى ظرف

من الظروف. ومعنى ذلك أننى لا التزم فقط بولاء كامل لها، ولكنى أيضا وراضيا أقبل قوانينها، وألزم نفسى بها فى كل ما أتصرف أو أقول.. إننى أشكر لهيئتكم الموقرة، وأكتفى بما قلت.

□□□

وانتهى التحقيق.. وخرج هيكل من مكتب المدعى الاشتراكى إلى بيته. وانتظر نتائج التحقيق. وكل تحقيق لابد أن يصدر بعد انتهائه قرار بالتصرف. قد يكون القرار بالحفظ. وقد يكون بإحالة إلى محكمة القيم بطلب من المدعى الاشتراكى بفرض الحراسة أو بالسجن أو بالاثنين معا. لكن شيئا من ذلك لم يحدث. لم يصدر قرار بحفظ التحقيق. كما لم يصدر قرار بالاحالة إلى محكمة القيم.

وقد سألت مؤخرا واحدا من كبار المستشارين فى جهاز المدعى الاشتراكى فى ذلك الوقت عن مصير هذا التحقيق. فقال لى إن المدعى الاشتراكى -المستشار أنور حبيب- أعد مذكرة بملخص التحقيق رفعها إلى الرئيس السادات مع محاضر التحقيق. ولم يتلق ردا. وترك الموضوع كله لتمر عليه سنوات وسنوات حتى ينساه الناس. لكن «هيكل» سجل فى الذاكرة القومية وقائع هذا التحقيق فى كتاب لكيلا ينساه الناس!

□□□

كان على هيكل أن ينتقل من الجنة إلى النار والعكس. وأن يتقلب بين الصداقة والعداء، وأن يعيش بين الرضا والسخط.. ولو تعرض لهذه التقلبات غيره من الساخن إلى البارد ومن الارتفاع إلى الهبوط ومن المجد إلى الإهانة لكان قد فقد القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، وتبدد ما كان لديه من رؤية وأفكار. لكن هيكل ظل هو هو .. لم يغير موقفه. وهو نفسه يعلن أن هذا الموقف قد يكون خطأ وقد يكون صوابا مثل كل موقف وكل رأى، ولكنه على أية حال موقفه الذى يعبر عن قناعاته.

وقبل تحقيق المدعى الاشتراكى كانت تتردد شائعات عن خروجه من مصر، وشائعات أخرى عن اعتقاله، وتناقلت وكالات الأنباء هذه الشائعات، حتى إن

صحيفة القبس الكويتية أوفدت مندوبها لمقابلة هيكل فى بيته يحمل إليه نسخة من العدد الذى نشر فيه النبأ، ونشرت هذه المقابلة الصحفية فى ٢١ فبراير١٩٧٦. وكان السؤال الأول: نشر أنك تقاضيت نصف مليون جنيه استرلينى عن كتابك الأخير الطريق إلى حرب رمضان.

وأجاب هيكل: لو افترضنا أن هذا صحيح فما هو العيب وما هو الخطأ الذى ارتكبته؟.. سوف أريك شيئا.. وأخذ هيكل مندوب القبس وقاده إلى أحد أرفف مكتبته ويدأ يطلعه عليها واحدا واحدا وهو يقول: هذه بعض الطبعات التى صدرت عن كتابى المذكور. هذه هى الطبعة الإنجليزية.. وهذه هى الطبعة الفرنسية.. النرويجية.. اليابانية.. الألمانية.. الهولندية.. السويدية.. التركية.. وهذه طبعة إنجليزية شعبية.. وتلك طبعة فرنسية شعبية.. وقال : إن الكتاب ترجم إلى ٢٢ لغة..؟

ولكى يدلل على عدم صحة شائعات اعتقاله قال هيكل: إننى هنا.. ولا قيود علىّ على الاطلاق.. وأنا لا أسافر إلا إذا كان هناك عمل أو مصلحة تدعونى للسفر. رحلتى الأخيرة بدأت فى ١٣ سبتمبر١٩٧٦ بزيارة باريس، وإلى لندن ١٨ سبتمبر، وفى ١٠ أكتوبر وصلت أمريكا، ورجعت إلى القاهرة أول نوفمبر، وأنا موجود فى مصر وأزاول نشاطى العادى.

وكان السؤال الثانى: ماذا تعمل الآن وما هو برنامجك اليومى؟.

قال: أنا رجل منظم جدا بطبيعتى.. الساعة الثامنة صباحا تجدنى جالسا إلى مكتبى حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، خلال هذه الفترة لا أرتبط عادة بمقابلات أو مواعيد، بعد الظهر أقوم بالاتصالات التى يباشرها أى صحفى عادة.. أما فى فترة الصباح فإنى اشتغل فى كتبى.. واكتب مقالات تنشر فى العالم العربى مرة كل شهر. وأنا مستريح جدا لهذا الوضع، لأنى أزاول عملى كصحفى وكاتب، وأنا قلت وكتبت من قبل إذا لم أقدر على أن اكتب فى مصر فسأكتب خارج مصر. وهذا

هو حافزى على كتابة مقالاتى الشهرية فى العالم العربى.. ما يهمنى هو أن أكتب وأقول رأيى.

□□□

وسئل فى هذا الحديث: قيل إنك كنت أحد المتصارعين على السلطة ورئاسة الجمهورية بعد وفاة الرئيس جمال عبدالناصر، فما هى حقيقة ما حدث؟.

وأجاب هيكل : لم أتصارع فى حياتى على سلطة ولا على منصب ولو كان ذلك فى ذهنى كنت قبلت أول عرض من جمال عبدالناصر لتولى وزارة الإرشاد فى يونيو ١٩٥٦، على الأقل كنت اكتسبت أقدمية وبقيت أقدم وزير. وبعدين سلطة إيه اللى حاتصارع عليها.. وأنا طول الوقت أرفض وأعتذر عن كل منصب يعرض علىّ.. رئاسة الجمهورية الرئيس السادات نفسه يشهد أنى أنا الذى اقترحت أن تكون هناك قاعدة فى الدستور تتبع بعد عبدالناصر وإلا المسألة تبقى فوضى..

□□□

وفى ٢٦ سبتمبر ١٩٧٧ نشرت صحيفة القبس حديثا آخر قال فيه هيكل: إنه يرى أن مؤتمر جنيف لمباحثات السلام بين العرب وإسرائيل ليس سوى وسيلة لكسب الوقت، وقال إن مائدة المفاوضات السليمة هى صورة لحقيقة الأوضاع خارجها، ولو كانت لديك القوة العسكرية على فرض الحل العسكرى فإنك ستفرض الحل السلمى على خصمك دون أن تلجأ إلى استخدام القوة العسكرية لأنه يعلم أنها البديل لفشل الحل السلمى. وقال: ينبغى أن ندرك أن السياسة الأمريكية تحكمها استراتيجية تحكمها عوامل تاريخية ومصالح عليا لا يملك أى رئيس أمريكى الخروج عنها، وكل مجال الاختلاف هو الأسلوب الذى يعالج به كل رئيس هذه الاستراتيجية. والمصالح الأمريكية لا تتغير بسهولة.

وفى مجلة الوطن العربى الصادرة فى ٢ مارس ١٩٧٧ تحدث هيكل إلى هدى الحسينى قال فيه: إن الصحفى فى ظروف بلد كمصر حيث تواجه قضايا مصيرية، لا يستطيع أن يكون فقط مجرد مسجل لما يجرى، إنما يكون التزامه أكبر وأوسع. ويكون اهتمامه بما يجرى أكثر من اهتمام زملائنا فى أوروبا وأمريكا، لأننا هنا لا نتكلم فقط فى تفاصيل الأشياء، إنما نتكلم فى أساسيات الأشياء. وأنا لست معارضا لسياسة السادات. مرة أتانى بعض الناس وقالوا لى: أنت ترتب نفسك لتكون زعيم معارضة، وهذا غير صحيح. أنا لست زعيم معارضة. لأن هناك ثلاثة شروط للمعارضة: أن يكون عندك تنظيم. أن تكون عندك سياسة بديلة. أن يكون هدفك الوصول إلى السلطة. وبمساعدة التنظيم تنفذ السياسة. وأنا لا تنظيم عندى، ولا سياسة بديلة كاملة، عندى تصورات، وليس هدفى الوصول إلى الحكم. أنا متمسك تماما بدورى كصحفى. أنا لا أقول رأيا معارضا للرئيس السادات.

إننى أقول رأيا آخر وليس فى كل قضية، والهدف فى الدرجة الأولى أن أوسع دائرة الاختيار أمام صانع القرار المصرى أو العربى. أما تقييمى لسياسة السادات فأنا أعتقد أن أنور السادات مثله مثل أى سياسى فى أية مرحلة فى التاريخ، فى سياسته أشياء (صح) وأشياء (غلط).. هناك أمور إيجابية وأمور سلبية كما فى كل تجربة، وهو نفسه لا يستطيع أن يقول شيئا آخر. واختلافنا بسبب ثلاثة أشياء. اختلفت فى قصة أمريكا فقط وأنا قلت أمريكا أيضا.. استثناء أمريكا غلط، والاعتماد على أمريكا غلط أيضا. ثانيا: المسألة العربية، وأنا أعتقد أن مصر لا تستطيع أن تسير وحدها. أنا لا اؤمن بسياسة مصر وحدها أو مصر أولا. إنما اؤمن بسياسة مصر مع بقية الدول العربية فى الوقت نفسه وفى اللحظة نفسها. أنا واحد من المقتنعين بالفكرة القومية. ولا أحد اطلاقا سيجعلنى أقتنع بفكرة مصر الصغيرة المحتاجة.. مصر وحدها هى مصر المحتاجة المعزولة الضعيفة، ومصر وسط الأمة العربية هى الطليعة والقوة.. الاختلاف الثالث: القضية الاجتماعية فى مصر. أنا لا أعتقد أن مشكلة مصر يمكن أن تحل

بما يسمى الانفتاح وبالطريقة التى يمارس بها هذا الانفتاح. هذه هى القضايا التى لى فيها آراء مختلفة وليست بالضرورة معارضة.

□□□

وقال هيكل فى هذا الحديث أيضا: لا أعرف إذا كان ما يحصل فى مصر هذه الأيام من الممكن أن يسمى ديمقراطية. أستطيع أن أسميه تجاوزا أنه محاولات فى سبيل تصورات الديمقراطية. أنا من المقتنعين بأن الأساس الاجتماعى هو الأساس الأول للديمقراطية. كان خلافى مع مراكز القوى أننى كنت أدعو إلى المجتمع المفتوح. حاليا هناك نظرة تتكلم عن الديمقراطية الليبرالية. وأنا غير مقتنع بوجود الأسباب أو حتى المقاييس الليبرالية. هناك مقاييس ليبرالية معينة، منها مثلا درجة النمو الاجتماعى لمجتمع معين تحدد ممارسات الديمقراطية فيه، لذلك فأنا لست مقتنعا بأن الليبرالية كما تتكلم عنها، أو كما (نمسخها) هى الحل لقضية الديمقراطية فى مصر. وعلى أية حال فإنها محاولة فى سبيل اكتشاف تصورات للديمقراطية، وأنا لا مانع عندى من أن تأخذ مداها، فإذا نجحت (كويس).. لكننى لست معتقدا أن هذا هو الحل لمصر.

□□□

وفى هذا الحديث أشار هيكل إلى الانفتاح وحركة الطلبة والأحزاب الجديدة.

فقال : بالنسبة للانفتاح أنا أعتقد أن مستقبل مصر مرهون بالتنمية الزراعية والصناعية، ولا أعتقد أنه يمكن عمل هذه التنمية بالانفتاح أو برأس مال أجنبى. رأس المال الأجنبى لن يأتى إلى مصر ولو انتظرنا مليون سنة وذلك للأسباب الآتية: قبل الثورة لم يكن هناك رأس مال أجنبى.. كانت هناك مصالح أجنبية موجودة من بقايا العصر الاستعمارى لم يُضف إليها رأس مال أجنبى.. رأس المال الأجنبى لا يأتى إلى بلاد العالم الثالث ليواجه المخاطر السياسية إلا إذا أمن نسبة أرباح عالية بين ٤٠٪ و٥٠٪ تبرر المخاطر السياسية ومصر محتاجة لبناء الهيكل التحتى الاقتصادى..

محتاجه للصناعة والزراعة.. ومن المستحيل أن يأتى رأس المال الأجنبى للاستثمار فى الزراعة.. من الممكن أن يعطينا تكنولوجيا أو معلومات.. وتدفع ثمنها.. ولا تسمى انفتاحا.. وهل كنا منغلقين على الخبرة الأجنبية لهذه الدرجة؟.. لقد كانت فى مصر شركات بترول أجنبية.. والميثاق الذى كان موجودا كان يقول: إننا نستطيع التعاون مع رأس المال الأجنبى فى ظروف معينة حيث لا نملك الخبرة الوطنية.. ولذلك تعاونا مع شركة فيات الإيطالية وشركات أمريكية فى صناعة السيارات، وفى صناعة الأدوية تعاونا مع شركة (سيبا) وشركات أمريكية أخرى.. إذن كانت هناك مجالات يستثمر فيها رأس المال الأجنبى وهى المجالات التى تدر ربحا سريعا، لكن هذه ليست كل مشروعات مصر. بناء مجتمع جديد لا يمكن إطلاقا أن يتم بدون قاعدة زراعية وصناعية ثابتة.. وأسأل: إلى أى بلد فى العالم الثالث ذهب رأس المال الأجنبى؟.. ممكن أن يأتى فقط للعمل فى المصارف أو لاستيراد سلع استهلاكية لمصر. وهذا ما رأيناه.. مصارف برأس مال صغير جدا، تعمل بالودائع المصرية، وتتعامل خارج مصر أو مع غير المصريين، وتحقق أرباحا خيالية وتحول أرباحها وهى مطمئنة جدا لأى طارئ.. ثم إننا رأينا أثر استيراد البضائع الاستهلاكية.. وأين هو المصنع الذى له قيمة حقيقية الذى أنشىء فى مصر باستثمارات أجنبية؟.. من الممكن أن نجد استثمارات عربية، ومعونات عربية، وموارد مصرية تشارك من أجل تنفيذ الخطة، ولكن هل سيدخل رأس المال الأجنبى لكى ينفذ خطة.. إذا تكلمنا مثلا عن الحديد وصناعة السفن أو تصنيع السلاح، أو السكك الحديدية، أو الصناعات البتروكيمائية هل يمكن أن تنفذها استثمارات أمريكية مثلا؟. من الممكن أن تنفذها استثمارات عربية بالاشتراك مع استثمارات مصرية، ولكن الانفتاح لن يحقق سوى عمليات استهلاكية ذات ربح سريع وسوف تدفع التنمية المصرية ثمنها.

□□□

وقال هيكل: أنا أعتقد أنه ليس هناك نظام له شرعية يستطيع أن يتناقض مع الشباب، لأنه إذا حدث ذلك يفقد النظام مستقبله، ليس معنى ذلك أنى أقول: إن الطلبة على حق فى كل شىء، لكن الأسلوب الممكن مع الطلبة ليس بالوسائل البوليسية ولا المخابرات والمباحث.. إنما بالحوار.. والأحزاب الجديدة.. أنا لم أفهم جيدا الكلام الذى قيل عن الحزبية فى مصر، لأن الاشتراطات الموضوعية لقيام هذه الأحزاب ألا تقوم على أساس طبقى، ولا أستطيع أن أتصور الحزب إلا على أنه الطليعة المسيسة لطبقة..ولكن أتصور أنه لا مفر لنا من تجربة الأحزاب مادام فكت تجربة تحالف قوى الشعب التى كانت ممثلة فى الاتحاد الاشتراكى، ومادامت سمح لطبقة من الطبقات بأن تبرز بمصالحها المتميزة، فلابد أن يكون لكل الطبقات الحق فى أن تبرز وتدافع عن مصالحها وتعبر عن نفسها سياسيا.

□□□

وعن الحملة على عبدالناصر فى ذلك الوقت ضرب هيكل مثلاً بما حدث فى بريطانيا حين قاد كرومويل ثورة ضد الملك وطارت الأسرة المالكة، ثم مات كرومويل، ورجع الملك جيمس الثانى إلى الحكم فأخرج هيكل كرومويل العظمى من القبر وشوهوه.. وحاكموه ثم علقوا الهيكل العظمى على المشنقة.. هذا ما تتعرض له الثورات من تشويه من العناصر المعادية للثورة مع أول فرصة تتمكن فيها من الانقضاض عليها.. وهذا ما حدث أيضا فى الثورة الفرنسية الكبرى.. و هذا هو ما حدث لعبدالناصر. لقد تصدى فى حياته لقوى عاتية وتعرض بعد مماته للقوى العاتية.. ولا أحد يقول: إن عبدالناصر كان بلا أخطاء.. لا أحد فى الدنيا بلا أخطاء.. الديمقراطية كانت من أخطاء عبدالناصر. لأنه جاء بعد تجربة حزبية فاشلة، وعبر وضع طبقى معين يفرض الحرية الاجتماعية أولا، ولكن السؤال: هل يتم ذلك من فوق أو بالحوار بين قوى الشعب؟.. وكانت مرحلة التطور للشعب المصرى والأمة العربية، والضغوط على عبدالناصر والحرب التى تعرض

كلها.. فى ظل هذه الظروف هل كان يستطيع أن يتصرف بصورة أخرى فى معركته من أجل التحول الاجتماعى والاقتصادى، ومن أجل حرية العالم العربى من الاستعمار؟.

□□□

وسئل هيكل فى هذا الحديث عن القضية التى رفعها على مجلة المصور فقال: المصور اتهمتنى بأننى اشتريت قطعة أرض من رجل موضوع تحت الحراسة مستغلا فى ذلك سلطتى، وعلى رغم كثرة المحاولات لتشويهى فإننى لم أتكلم فيها، ولكن هذا الموضوع يمس الذمة المالية، لذلك لم أتركه.. بل ذهبت بسرعة إلى القضاء ورفعت دعوى ضد المصور وضد وكالة الأنباء الفرنسية التى نقلت عن المصور هذا الخبر. وفى المحكمة وبعد أن قدمت وثائقى، اعتذرت وكالة الأنباء الفرنسية وسجلت اعتذارها فى المحكمة فأخرجتها من القضية، وثبت للمحكمة أنى اشتريت قطعة أرض على دفعتين، الجزء الأول اشتريته من عضو فى مجلس إدارة الأهرام وهو الذى عرضها علىَّ، وكنت قد أخذت مكافأتى من أخبار اليوم وذهبت لاشترى أسهماً فى شركة ايسترن للدخان، فقال لى: لماذا الأسهم وليست قطعة الأرض؟.. وكان هو قد أهمل هذه الأرض بعد وفاة زوجته، وكان ذلك فى عام ١٩٥٦ ولم تكن هناك حراسات على الإطلاق، ثم إننى اشتريت هذه الأرض بسعر أغلى من المعروض لأنه سمح لى بالتقسيط.. وكل هذه الأمور أطلعت المحكمة عليها.. الجزء الثانى من الأرض اشتريته من مصريين وليس من أجانب ولم يكونوا تحت الحراسة.. إنهم ورثة عزمى باشا الذى كان جارى وعنده قطعة أرض قرب منزلى فاشتريت قطعة الأرض هذه بسعر أغلى من السعر المطلوب. وجاء الورثة إلى المحكمة وشهدوا بذلك، وقالوا: من أين أتى بالمال؟.. أنا وضعت كل إقرار ذمتى المالية أمام المحكمة.. الأرض الأولى كانت بعشرة آلاف جنيه دفعتها على ثلاث سنوات.. وقبلى كان أكثر من واحد يريد شراءها بينهم الدكتور جمال العطيفى.. وآخر سعر وصلت إليه هذه الأرض كان ٨ آلاف جنيه وبسبب التقسيط دفعت ١٠ آلاف جنيه، كانت مكافأتى من أخبار اليوم ٧ آلاف جنيه، ولأنى أعرف حساسية المسائل

المالية طلبت أن يكون جزءا من المكافأة بشيك بخمسة آلاف جنيه، وأخذته وعلى ظهره حولته إلى صاحب الأرض وهكذا قبض المبلغ بشيك صادر من أخبار اليوم باسمي.. القسط الثانى حولت له به أسهما فى شركة الخزف والصينى وكانت قيمتها ألفى جنيه وأرسل لى الإيصال.. الجزء الثالث بعت أسهمى فى شركة شاهر فى البورصة بألفى جنيه والألف الأخيرة كان من السهل أن أدبرها.

قطعة الأرض الثانية كان ثمنها ٢٣ ألف جنيه اشتريتها بعد كتابى (عبدالناصر والعالم) وكان قد تم تحويل ٥٠ ألف جنيه استرلينى من هذا الكتاب، والبنك الأهلى موجود، والحمد لله أن حالتى كويسة قوى.. أول كتاب طبع بـ ٢٦ لغة.. فإذا أخذت من كل لغة تعريفة يطلع لى فى النهاية مبلغ.. لذلك أنا مستعد أن أسكت عن كل الكلام الذى يقال عن حياتى السياسية، لكن الذمة المالية.. لا.. أذهب إلى المحكمة بسرعة.. وكالة الأنباء الفرنسية أرسلت إلىّ رئيس مجلس الإدارة من باريس للاعتذار.. وبعد أن رأوا الوثائق قلت لهم: أريد اعتذارا كاملا يسجل فى المحكمة.. وحصل.

□□□

كيف كانت حياة هيكل فى ذلك الوقت.. وهو بعيد عن الأهرام.. والحملة عليه شديدة؟.

يقول: بعد مغادرتى الأهرام انتهيت من كتاب (الطريق إلى رمضان) وكتاب (العالم العربى) و(الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط).. وغيرها ومتعاقد على أن يترجم كل كتاب إلى ١٠ لغات.. وأكتب أربع مقالات شهرية أقول فيها رأيى فى قضايا العالم العربى، ولا أقصد بها العمل فى الصحافة، ولكن أقصد أن يبقى رأيى موجودا ومسموعا، وإلى جانب هذا أعمل أحيانا فى مجال الخدمة العامة، الجامعة العربية مثلا جاءتنى قائلة: إن كان بإمكانى أن استلم مشكلة الإعلام العربى فى العالم الخارجى، ووافقت، أخذ منى هذا العمل ثلاثة أشهر وقدمت إلى الجامعة العربية فى نهايتها تقريرا مطولا شاملا.

وأنا أقال.. كان الكثير من الناس وكل الشخصيات العربية التى تأتى إلى مصر، تزورونى، ويأتينى صحفيون من العالم.. وكنت على اتصال بالصحافة فى العالم.. اتكلم.. وأناقش.. وأقول رأيى، وفى يومى الخميس والجمعة أذهب إلى بيتى فى الريف مع أولادى نلعب (بنج بونج) وكرة القدم وكل ما يمكن تصوره.

□□□

كان شيئا جديدا أن يكتب هيكل كتبه باللغة الإنجليزية، وتترجم منها إلى لغات العالم.. وظل عشر سنوات تُطبع كتبه خارج مصر، وتُترجم إلى اللغة العربية فى بيروت وتتسرب نسخ منها إلى القاهرة ويقوم بترجمتها إلى اللغة العربية مترجمون غيره، وكان يجيب عن أسئلة السائلين لماذا لا تترجم كتبك بنفسك أو تكتبها باللغة العربية؟.. فيقول: يصعب علىَّ أن أكتب الكتاب مرتين مرة باللغة الإنجليزية للنشر الدولى ومرة باللغة العربية، خصوصا وقد وجدت أننى عندما أتعرض لترجمة أعمالى إلى العربية لا أكتفى بالترجمة، وإنما تدفعنى اهتمامات القارئ العربى إلى الأبعد بالزيادة، وإلى الأوسع بالتفصيل، وذلك يجعل الكتاب الواحد بالفعل كتابين، وشجعنى على ترك مهمة الترجمة العربية لغيرى أن المترجمين المقتدرين أعطوا لأعمالى جهدهم بما يكفيها وأكثر، وعلى سبيل المثال، فقد قام الأستاذ محمد حقى زميلى فى الأهرام وقتها- على ترجمة كتاب (وثائق القاهرة)، كما قام الصحفى اللبنانى الكفء الأستاذ سمير عطاالله على ترجمة كتاب (الطريق إلى رمضان)، ثم قام الصديق العالم الدكتور عبدالوهاب المسيرى على ترجمة كتاب (مدافع آية الله). وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء كتاب (خريف الغضب) ونظرا لحساسية موضوعه، فقد آثرت ترجمته لنفسى بنفسى إلى اللغة العربية، ولم يخطر ببالى أننى بذلك أرسيت سابقة لم أعد أستطيع التخلى عنها أمام القارئ العربى، وأغرانى على ذلك أكثر أن أكثر كتبى رفع عنها المنع والحظر فى مصر وأصبحت منشورة فيها بداية من سنة ١٩٨٥، ومنذ ذلك الوقت صدرت لى كتب عديدة كان كل واحد منها فى واقع الأمر كتابين، طبعة

إنجليزية هى الأصل لكل الترجمات، وطبعة عربية أقوم عليها بنفسى، ويتسع مجالها وتزيد تفاصيلها وتلتحق بها وثائق حتى يكاد الكتاب العربى يصبح شيئًا مختلفا عن الأصل الإنجليزى، وإن بقى الجوهر والسياق والاتجاه واحدًا فى الحالتين.

وسؤال كثيرا ما يوجه إلى هيكل: لماذا لا تكتب بانتظام فى الشئون الجارية؟.. ويقول: فى العادة فإن ردى يقتصر على عبارة عامة مرسلة لأن واقع المشكلة التى تواجهنى فى الكتابة بانتظام عن الشئون الجارية فى مصر معقد بأكثر مما يظهر على السطح، ذلك أن الصحف التى تصدر فى مصر الآن نوعان:

نوع يسمى بالصحف القومية، ونوع يعرف كصحف حزبية، وأشعر أن كتابتى بانتظام- أو بغير انتظام- فى الصحف القومية قد تكون مسئولية ومخاطرة بالنسبة للقائمين على أمورها، وذلك ليس من مطالبى، ثم إن الكتابة بانتظام فى الصحف الحزبية تبدو لى استعارة لهوية ليست لى، وذلك ليس من حقوقى. ويخطر لى أننى كتبت كثيرا ومازلت أكتب أحيانا، وتكلمت طويلا ومازلت أتكلم مرات، وقد يكون مناسبا أن أترك المجال لآخرين وأن أقرأ مع القارئين، وأن أصغى مع السامعين،ولعله يرضينى أن يسأل أحد: لماذا لا يكتب هذا الرجل بانتظام؟..خير من أن يسأل: لماذا يكتب هذا الرجل بانتظام؟.. أكرر ذلك برضاً كامل، فقد قلت كلمتى فى كل العصور والظروف.

□□□

وماذا عن مذكرات هيكل وأوراقه والوثائق التى يحتفظ بها وقد نشر جانبا كبيرا منها فى كتبه؟.

أجاب هيكل بنفسه عن هذا السؤال فى حواره مع عادل حمودة فقال:

-أتمنى أن أعطى كل ما أملك من أوراق إلى أية جهة تضيف هذه الأوراق إلى تاريخ مصر. إننى أسجل كل يوم ما بين ١٠ إلى ١٠٠ ورقة يوميا، وبعض ما سجلته شديد الأهمية، مثل مناقشاتى مع وزير الخارجية الأمريكى الأسبق هنرى كيسنجر بعد حرب أكتوبر وهى فى ٦١ صفحة.. إن هذه الأوراق تجربة فى تاريخ مصر. فأنا لدىَّ

الكثير. وأعرف الكثير وكنت أتمنى أن أعطيها إلى جامعة مصرية لتستفيد من الذى كتبته أو الذى رأيته أو الذى أتيح لى أن أطلع عليه، ولكن.. ذلك لابد أن يسبقه قانون يحمى مثل هذه الأوراق، ويحترم كلام أصحابها، ويلزم بعدم الكشف عنها إلا فى الوقت المحدد الذى يوصون به،وهذا ما يحدث فى معظم الأسماء الشهيرة فى العالم.. وعلى سبيل المثال، فقد قدم اللورد كيلرن أوراقه اليومية التى كتبها عن مصر فى الفترة من ٣٥ إلى ١٩٤٥- وهى فترة حاسمة فى تاريخ مصر- إلى كلية (سانت انتونى) بجامعة اكسفورد، ووجدت هذه الأوراق حماية قانونية، وعندما أرادوا الاستفادة منها، جاءوا بدبلوماسى خبير ليستخرج من بين مليونى كلمة كتبها اللورد كيلرن حوالى ١٥٠ ألف كلمة استفاد منها من أراد دون المساس بأية حقوق شخصية أو قانونية.

وعندما سأله عادل حمودة: هل يمكن أن تقدم أوراقك إلى إحدى هذه الجامعات الأجنبية أجاب بحسم:

-أبدا..

وأضاف: سأتركها إلى أبنائى مع تحديد المواعيد المناسبة لكشف ما فيها، خاصة أننى أملك إلى جانب أوراقى وثائق وشهادات أخرى وضعها أصحابها أمانة فى عنقى وحددوا مواعيد لنشرها يصعب أن أكون موجودا فيها.. وعلى سبيل المثال حسن باشا يوسف وكيل الديوان الملكى، تحدث معى كثيرا فى بيتى، وسجلت شهادته على ٣٢ ساعة كانت مجمل أهم ما جرى فى عصر فاروق، لكنه طلب منى عدم إذاعتها إلا بعد وفاته ووفاة زوجته بعشرين عاما، وأنا لن أكون موجودا ساعتها، وأيضا محمود فوزى.. إنه شخصية لا أحد يعرف عنها بما فيه الكفاية، لكن فى محاولة للاستفادة من تجربته سجلت معه بصراحة ٤٠ ساعة، أنا مؤتمن عليها، ولابد أن تصل إلى الناس بأمانة، وهذا ما حدث أيضا مع سفيرنا فى لندن قبل قيام الثورة مباشرة عبدالفتاح عمرو.. إن وثائق هؤلاء وغيرهم ليست ملكى، إنما هى جزء من تاريخ مصر. وقد أرسلتها إلى الخارج

تخوفا عليها في وقت كان الرئيس السادات يتربص بي.. إن كل وثائقي وأوراقي في الخارج، وعندما أحتاج منها شيئا أصوره واستعمل الصورة.

وقال أيضا: عندي ٦٠٠ أو ٧٠٠ ألف وثيقة أحضرتها إلى الأهرام من وثائق الدولة في بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل، وأحضرت لنفسي نسخة منها، وربع ما أملك من وثائق مصرية.. ولابد أن نفرق بين أوراق ووثائق الدولة وأوراق ووثائق رئيس الدولة.. أوراق الدولة موجودة، عند جهات الدولة المختلفة: الخارجية.. المخابرات.. المباحث.. ويمكن أن توجد نسخة منها عند رئيس الدولة، أما أوراق رئيس الدولة فهي التي يكتبها بخط يده، وأنا كنت (غاوى) أن أجلس بجانب جمال عبدالناصر حتى في مؤتمرات القمة، وأجمع الأوراق المتبادلة بينه وبين الملوك والرؤساء، ولم يكن يمانع في ذلك، أما الأوراق الأخرى لجمال عبدالناصر التي كانت محفوظة في سكرتارية المعلومات، فقد نقلوا إلى بيت أنور السادات في الجيزة الوثائق المتعلقة بوقائع ١٤ مايو وما سبقها، وهذه هي التي اطلعت عليها عنده وتم تصويرها بكاميرا زميلي في الأهرام محمد يوسف.

أما الأرشيف الذي كان موجودا في بيت عبدالناصر، فقد نقله الرئيس السادات، وهذا طبيعي، لأن أوراق سلفه كان يجب أن تتبعه إلى حيث يعمل، فإذا أمر بنقلها فهذا حقه، وأنا أعلم يقينا أن هذه الملفات ذهبت إلى قصر عابدين، وأعلم يقينا أن ما أرسل منها إلى بيت الرئيس السادات كان فقط ما اتصل بتصرفات عدد من المسئولين قبل ١٤ مايو، ولقد حصلت بإذنه على بعضها ونشرته أيامها بالفعل، كما أن بعضه عرض أثناء نظر قضية مراكز القوى، وأنا لا أزيد في التفاصيل، لأن الوقت ليس مناسبا لإثارة مواجع قديمة، فضلا عن أن هناك ما يجب أن يشغلنا الآن عن العودة إلى أشباح الماضي وحكاياته.

وعموما أحب أن أضيف أنني لم أكن في حاجة إلى تصوير وثائق عبدالناصر، فقد كنت أعرف ما أريد أن أعرفه.. والغريب أنني حرصت على تسجيل ذلك مبكرا عقب

رحيل عبدالناصر مباشرة، وقد سجلته رسميا فى خطاب استقالتى من الوزارة وهى استقالة نادرة فى تاريخ مصر الحديث، وهذه الاستقالة لم تنشر فحسب.. إنما نشر أيضا رد رئيس الجمهورية الجديد عليها..

□□□

وكان نص خطاب استقالة هيكل من منصب وزير الإرشاد القومى بتاريخ السبت ٣ أكتوبر كما يلى:

سيادة رئيس الجمهورية بالنيابة.

الأخ والصديق أنور السادات.

الآن وقد استقر جثمانه الطاهر فى ثرى مصر الخالدة، فإنى أتقدم إليك راجيا أن تأذن بإعفائى من العمل فى وزارة الإرشاد القومى.

إن وصولى إلى القرار الذى يدفعنى إلى التقدم بهذا الرجاء إليك لم يصدر عن إحساس بلوعة عاطفية، مع أنه لدى منها أكثر مما يتصور أحد، ولكنه يصدر أيضا عن اعتبارات عديدة، إنسانية وفكرية وعملية أجملها فما يلى:

١-إن الكل يعلم أننى حاولت طوال عمرى أن ابتعد عن المناصب الرسمية تمسكا بمهنة اعتقدت، ومازلت أعتقد أن حياتى منها.

٢-إننى خرجت عن هذه القاعدة نزولا على أمر كريم منه، عندما شاء أن يكلفنى بالتعبير الرسمى عنه، فى فترة من النضال بالغة الحساسية، وكان هذا من جانبه اختبارا شخصيا، ومن بعده، فإننى لا أملك هذا الحق بالنسبة لغيره، كما أننى لا أستطيع أن أبقى على رأس وزارة الإرشاد القومى تعبيرا عن نفسى، فمكان ذلك الصحيح هو الأهرام وحده، وليس أى مكان آخر غيره.

٣-إن جزءا كبيرا من مهمة إعادة تنظيم الإرشاد القومى قد تم بإنشاء اتحاد الإذاعة والتليفزيون العربى، وبالدراسات المعدة للبت فى شأن الهيئة العامة للاستعلامات

وغيرها من مؤسسات الوزارت.. ومع أن عملية إعادة التنظيم لم تظهر آثارها بعد أمام الناس، فإنى أتوقع- مع بداية سنة ١٩٧١ بمشيئة الله- أن تكون هذه الآثار أمام الجميع مرئية ومسموعة.

٤-إننى لم أعد أستطيع- بكل ما أحس به الآن- التوفيق بين وزارة الإرشاد والأهرام، وكنت قد استطعت ذلك بجهد جهيد لبضعة شهور، لكننى الآن أجد أن ذلك سوف يكون مستحيلا بالنسبة لى، وإذا كان لى أن اختار- والخيرة لله- فإننى أوثر أن أبقى فى المكان الذى أسهمت مع آلاف من أبنائه فى تحويله إلى اطلالة مصرية على العصر الحديث وكان ذلك- ولكى أكون منصفا للتاريخ- بتشجيع معنوى كبير منه، وبإلهام مضىء.

٥-إننى أعتقد إلى جانب ذلك، أن علىَّ مسئولية أتحملها أمام الأجيال، فلقد اقتربت من فكره وعمله (جمال عبدالناصر) ولابد أن أعيد ترتيب أوراقى وذكرياتى عنه، لأننا نحن الذين عرفناه عن قرب وشرفنا بالوقوف، حيث تمكنا من رؤيته وهو يحلم ويناضل ويحقق- لا نملك وحدنا قصة حياته، فهذه القصة ملك لشعبنا ولأمتنا العربية، وللإنسانية.

ولعلك تذكر مرة أيها الصديق الكريم.. وكنا معا أخيرا فى فندق هيلتون- أثناء أزمة الأردن التى كانت آخر معاركه المنتصرة- أننا تحدثنا عن التاريخ وكيف سيروى حكاية هذا العصر، وتذكر أنه أمامك، وأمام السيدين حسين الشافعى، وعلى صبرى أشار إلىَّ وقال: (إنه هو المسئول عن ذلك.. لقد كان يعرف كل شىء.. وهو يتحدث دائما عن الإحساس بالتاريخ.. والكتابة صناعته).

ومن جانبى أيها الأخ الكريم.. فإننى أعتبر تلك وصية يسألنى عنها ضميرى، وسوف يسألنى عنها الضمير العام لأمتى.

وليس معنى ذلك أننى أفكر فى النشر العاجل، فأنا أول من يقدر أن هناك أشياء لم يحن بعد أوانها، ولكنى بأمانة المسئولية أمام ذكراه الغالية لا أستطيع أن أترك شيئا للضياع أو النسيان..

إننى أرجوك ملحا ومن كل قلبى ألا تعتبر هذا تخليا فى وقت عصيب.

إنك تعلم أن ذلك لا يمكن أن يخطر ببالى، فأنت الرجل الذى اختاره هو بنفسه نائبا له فى وقت علم فيه أنه معرض لمخاطر مؤامرات خطط لها الذين تصدى طوال عمره لمطامعهم وسيطرتهم على مقدرات أمته.

وذلك الاختيار- وحده يكفى، ليس بالنسبة لى وحدى، إنما بالنسبة لكل الذين تراودهم اليوم أعظم الآمال بأن يستمر الخط الذى رسمه لأمتنا سواء لمرحلة النصر، أو لما بعد النصر بإذن الله.

إننى أناشدك أن تعرف فى النهاية أن قلبى معك، وأن عقلى معك بكل ما أستطيع دفاعا عن مبادئه، وعن سياسات أجراها نابعة من تلك المبادئ.. ولك الدعاء خالصا وصادقا أن يعينك الله على ما تحملت أمانته، ولك التحية والمحبة.

محمد حسنين هيكل

ونشر هذا الخطاب فى الأهرام مع رد الرئيس السادات عليه.

□□□

وكان رد الرئيس السادات بالخطاب التالى:

عزيزى الأستاذ محمد حسنين هيكل

وزير الإرشاد القومى.

تحية الإسلام مباركة طيبة وبعد..

فلقد تلقيت كتابك وقرأته بكل عناية وتقدير، فليس أحب إلىَّ فى هذه الحياة من معنى مثل معنى الوفاء فى كل صوره وألوانه، من أجل ذلك فإنه لا يسعنى إلا أن

أجيبك إلى طلبك أيها الصديق،واثقا أن جهدك وقلمك سوف يظلان، كما عودت زعيمنا الراحل أن يكونا فى مكانهما من معركتنا المقدسة، شاكرا لك ما بذلته من جهد خلال توليك الوزارة، داعيا لك المولى عز وجل أن يوفقك فى مكانك الذى اخترته بإرادتك، وأن يمنحك الصحة وموفور السعادة، والله أسأل أن يسددنا جميعا بتوفيقه، والسلام عليكم ورحمة الله..

أنور السادات

□□□

برغم الأفكار والانتقادات التى كان يعلنها هيكل فى مقالاته وأحاديثه، والوثائق التى يحتفظ بها، وقيل إنه يمكن أن يستخدمها كسلاح فى وقت من الأوقات، وبرغم المحاولات التى استمرت من سنة ١٩٧٨ حتى سنة ١٩٨١ لاجتذابه ليعود فى أى موقع يشاء.. وزيرا.. أو نائبا لرئيس الوزراء.. أو رئيسا لتحرير الأهرام بشرط أن (يلتزم) وبعد كل هذه الرحلة المليئة بمشاعر الصداقة وحرارة التأييد وبعد الدور الذى قام به فى الإعداد لحرب أكتوبر (فى حدود اختصاصه.) استيقظ من نومه فى الفجر ذات يوم ليجد نفسه فى السجن.

فى قلب العاصفة

فى الصفحة الأولى من الأهرام يوم ٣ سبتمبر١٩٨١ كانت العناوين الرئيسية تقول: ضبط العناصر المحرضة على الفتنة الطائفية من المسلمين والمسيحيين- أجهزة الداخلية قامت أمس بضبط عناصر الفتنة لتقديمها للتحقيق- العناصر المشبوهة تمادت فى تصرفاتها والتقت تحت ستار الدين مع عناصر معادية لضرب الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى.

وتحت هذه العناوين التى كانت على ٦ سطور قال الخبر: قامت أمس أجهزة الأمن، وبناء على ما توافر لديها من أدلة ومعلومات، بضبط العناصر التى تحرض على الفتنة الطائفية لتحقيق أغراض ومصالح شخصية تضر بالوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى مستغلين فى ذلك مناخ الحرية والديمقراطية.

وفى يوم ٤ سبتمبر١٩٨١ كانت العناوين الرئيسية للأهرام تقول: ضبط ٥٥٣ من العناصر المحرضة على الفتنة الطائفية - غالبية المتهمين عناصر أعماها التعصب والتطرف الدينى وقلة حزبية ركبت موجة الفتنة و١١٩ من ذوى السوابق- المدعى الاشتراكى يتولى التحقيق مع المتهمين- السادات يكشف فى خطابه غدا التفاصيل المذهلة لمؤامرة الفتنة الطائفية.

وقال الخبر: علم المحرر السياسى للأهرام أن الرئيس أنور السادات سيكشف فى خطابه المهم مساء غد أمام الاجتماع المشترك لمجلسى الشعب والشورى تفاصيل مذهلة

لمؤامرة الفتنة الطائفية والوقائع الخاصة بدور العناصر المحرضة عليها، والتى تم ضبطها أمس الأول تمهيدا لتقديمها إلى سلطات التحقيق.. وعلم المحرر أن الرئيس السادات سوف يتناول فى خطابه المهم خمس نقاط محددة حول:

١ - محاولات الخروج بالديمقراطية عن مسارها الصحيح بعد فترة طويلة من النظام الشمولى.

٢ - محاولات استغلال الدين والتستر وراءه لتحقيق أهداف ذاتية.

٣ - الخلط بين الدين والسياسة فى التجربة المصرية.

٤ - الوقائع المذهلة التى لابست أحداث الزاوية الحمراء وما بعدها.

وقد كان يمكن للرئيس السادات أن يوجه بيانا للشعب فور وقوع أحداث الزاوية الحمراء، إلا أنه آثر أن يأخذ التحقيق مجراه حتى يتمكن من أن يشرح للشعب بالتفصيل الوقائع المذهلة التى لازمت الفترة الأخيرة فى موضوع الفتنة الطائفية.

٥ - التشريعات الجديدة وخلفياتها.

وفى الصفحة الأولى أيضا فى هذا اليوم نشر الأهرام مجموعة أخبار، منها خبر تحت عنوان (سحب تراخيص الصحف الدينية والمجلات المثيرة للفتنة الطائفية).. وقال الخبر: تقرر سحب تراخيص عدد من الصحف الدينية التى شاركت فى إشعال نيران الفتنة الطائفية، وكذلك بعض صحف المعارضة التى ساهمت فى استغلال هذا الموضوع الخطير. فقد تقرر سحب ترخيص كل من مجلة (الدعوة) و(الاعتصام)، وكذلك سحب ترخيص جريدة (وطنى) ومجلة (الكرازة) التى تصدرها الطوائف الدينية المسيحية، كما تقرر سحب ترخيص جريدة (الشعب) التى ثبت أنها تورطت فعلا فى موضوع الفتنة الطائفية واستغلاله أبشع استغلال، وقد بلغ كذب الصحيفة إلى حد زعمها أن الحكومة كانت وراء أحداث الفتنة وافتعال أحداث الزاوية الحمراء ومحاولة إلصاقها بالمعارضة لتغطى على ضرب إسرائيل للمفاعل النووى العراقى.

وقد صدرت أحكام قضائية بالفعل تدين جريدة الشعب فى هذا الصدد، وقد تم تنفيذ هذه القرارات استنادا إلى الوثائق التى تدين هذه الصحف جميعها لقيامها بتناول موضوعات رئيسية تمس الوحدة الوطنية وسبق أن أدانها القضاء.

□□□

وخبر آخر على ثلاثة أعمدة فى الصفحة الأولى بعنوان (العناصر المتهمة تضم قساوسة ومطارنة ومن يسمون بأمراء الجماعات الإسلامية)..

ويقول الخبر: علم المحرر أن مجموع العناصر التى تم القبض عليها يبلغ ٥٥٣ فردا لايمثلون إلا نسبة ضئيلة جدا من مجموع الشعب المصرى الذى لفظ على مدى تاريخه العريق كل ألوان التعصب الدينى، وسوف يتم تحويل هذه العناصر المحرضة إلى المدعى الاشتراكى لمباشرة التحقيق معها.. وفى الوقت الذى تشكل فيه هذه الفئة المتعصبة التى أعماها التطرف الدينى الغالبية العظمى من العناصر التى تم القبض عليها، فإن هذه العناصر تضم أيضا قلة تكاد لاتذكر من غير رجال الدين الذين ركبوا موجة الفتنة الطائفية لاستغلالها لمصالحهم دون أدنى اعتبار لمصلحة الوطن، ويمكن تقسيم النوعيات التى تم ضبطها إلى:

١ - عناصر دينية مسلمة ومسيحية متطرفة دأبت على تعميق الفتنة والخلافات وتصعيدها على نحو ما حدث فى الزاوية الحمراء، ومن بين هؤلاء من يسمون أنفسهم بأمراء الجماعات الإسلامية وبعض القساوسة والمطارنة، وقد دأبت هذه الفئة التى تشكل غالبية العناصر التى تم التحفظ عليها على تصعيد كل خلاف حتى ولو كان خلافا فرديا من نوع الخلافات التى تقع يوميا بين الأفراد بصرف النظر عن الدين.

٢ - أما النوعية الثانية فتضم عناصر وقفت موقفا معاديا للنظام وحاولت إثارة المتاعب أمامه عن طريق تعميق الفتنة الطائفية، وعقدت ندوات غير شرعية فى المساجد وفى غيرها من الأماكن، كما استغلت صحفها فى تعميق الفتنة، وليس أدل على ذلك من أن القضاء قد أصدر حكمه بمصادرة جريدة ومجلة فى أسبوع واحد.

٣ - هناك أيضا بين المتحفظ عليهم قلة من الحزبيين الحاليين والحزبيين السابقين الذين جاءوا بهدف تصفية النزاعات القديمة وضرب النظام عن طريق إشعال نيران الفتنة الطائفية، ومن العناصر التى سيتم تقديمها للتحقيق تلك العناصر التى حاولت استغلال وتوسيع نطاق ما دار فى الزاوية الحمراء ونقله إلى أماكن أخرى.. والجدير بالذكر أن أحداث الزاوية الحمراء تضم قائمة بـ ١١٩ متهما من ذوى السوابق بعضهم بلغت سوابقه ١١ سابقة.

وتحت عنوان (أشخاص تم التحفظ عليهم بتهمة إثارة الفتنة وتقويض الوحدة الوطنية).. قالت الأهرام فى الصفحة الأولى أيضا: (اشتملت قائمة الذين تم التحفظ عليهم بتهمة إثارة الفتنة الطائفية وتقويض دعائم الوحدة الوطنية على عدد من أئمة المساجد وبعض المطارنة والقساوسة ومن يسمون أنفسهم بأمراء الجماعات الإسلامية وبعض محررى الصحف الدينية والحزبية، وعدد قليل لا يذكر من الحزبيين القدامى).

ومن بين أئمة المساجد: عبدالرشيد صقر إمام مسجد المنيل - والشيخ عبدالحميد كشك إمام مسجد عين الحياة بالقبة - والشيخ حافظ سلامة إمام مسجد النور والشهداء بالسويس- والشيخ السيد الملثم إمام مسجد سوهاج - والشيخ يوسف البدرى خطيب مسجد حلوان.

ومن بين المطارنة والقساوسة: الأنبا ويصا مطران البلينا- والقمص بولس باسيلى راعى كنيسة كاهن العذراء بشبرا - والأنبا بشوى مطران قنا - والقمص تادرس ملطى كاهن كنيسة بالإسكندرية - والقمص لوقا سيداروس بكنيسة مارجرجس بالإسكندرية.. وقد وجهت إلى هؤلاء القساوسة اتهامات بإثارة المشاكل التى تؤدى إلى إشعال نار الفتنة الطائفية واختلاق مشاكل ومنازعات حول الأرض التى تملكها الدولة سواء لبناء كنائس أو معاهد دينية.

كما أن بعض الأئمة والقساوسة استغلوا منابرهم فى دور العبادة لتأليب عنصرى الأمة عن طريق إلقاء خطب وعظات تحرض المتعصبين من الجانبين، ولا تلتزم بروح

الدين الحقة وقيم التسامح التى نادت بها جميع الأديان ولا تتفق مع تاريخ شعب مصر ووحدته الوطنية.

ومن بين أفراد الجماعات الإسلامية: حلمى الجزار الذى أعطى لنفسه لقب أمير عام الجماعات الإسلامية على مستوى الجمهورية، ويحاول فرض الوصاية باسم الدين على الشباب، بالإضافة إلى الدور المشبوه لهذه الجماعات فى تصاعد أحداث الفتنة الطائفية فى بعض المحافظات.

ومن الحزبيين القدامى: فؤاد سراج الدين - د. محمد حلمى مراد - د. محمود القاضى - د. ميلاد حنا.. وقد حاولوا العبث بمقدرات الوحدة الوطنية عن طريق المناورات الحزبية والإثارة وعمليات التهييج التى تضر بالسلام الاجتماعى.

ومن صحفيى المجلات الدينية والحزبية: عمر التلمسانى رئيس تحرير الدعوة- حامد زيدان رئيس تحرير الشعب، وقد حاولا استغلال صحيفتيهما فى إثارة أئمة المساجد، والتعرض لأحداث الزاوية الحمراء بطريقة لا تحصر الخلاف فى حجمه الطبيعى، وتخرج به إلى أهداف سياسية حزبية.

وعنوان على الصفحة الأولى أيضا يقول: إعلان تفاصيل التهم الموجهة للمتحفظ عليهم. ويقول الخبر: علمت وكالة أنباء الشرق الأوسط من مصادر مطلعة أن كل من جرى التحفظ عليهم أمس، أو يجرى التحفظ عليهم حاليا ستعلن أسماؤهم، كما ستعلن صحيفة الاتهام الخاصة بهم أو ملخص للتهم المنسوبة إليهم، وذلك قبل أن يبدأ التحقيق السياسى الذى يجريه المدعى العام الاشتراكى، كما أكدت المصادر المطلعة للوكالة أن جميع المتحفظ عليهم قد اشتركوا أو ساعدوا بطريق مباشر أو غير مباشر فى الفتنة الطائفية.

وعلى الصفحة الأولى أيضا كان مقال رئيس التحرير الأستاذ إبراهيم نافع بعنوان (اقتلاع جذور الفتنة قرار مستقبل ومصير).. قال فيه: والآن أصبح من الواضح تماما أن التعامل من أعلى، وبطريق غير مباشر بالنسبة لقضية بهذا الحجم والخطورة لم

يعد كافيا.. بل لم يعد مقبولا، خاصة بعد أن تجمعت بين يدى القائد الذى كان يتحمل مسئولة المصير والقرار كل الحقائق عن قضية الوحدة الوطنية، ووضحت له رؤية النتائج المتوقعة إذا تركت دون مواجهة حاسمة تقتلع الشر من الجذور. إلخ.

□□□

وفى يوم ٥ سبتمبر كانت العناوين الرئيسية للصفحة الأولى تقول: ثورة فى العمل الداخلى تبدأها مصر من اليوم - السادات يكشف فى خطابه للشعب التفاصيل المذهلة لمؤامرة الفتنة الطائفية - تنقية العمل السياسى من كل أشكال الانحراف والتطرف والتسيب - ١٢ قرارا يعلنها الرئيس فى بداية مرحلة جديدة من المواجهة الكاملة- عدد المتهمين يرتفع إلى ١١٠٠ تذاع أسماؤهم اليوم بالكامل.

وعنوان آخر لخبر يقول: السادات يلقى خطابا غير مكتوب يصارح فيه الشعب بأبعاد الموقف.

وعنوان آخر لخبر يقول: غالبية الذين تم التحفظ عليهم ينتمون إلى الجماعات الدينية المتطرفة.

وعنوان لخبر يقول: ضبط منشورات للإثارة بمقر حزب التجمع.

وخبر يقول: تعزيز جهاز المدعى الاشتراكى للانتهاء من التحقيق بسرعة.

وفى هذا اليوم كتب الأستاذ صلاح منتصر عموده اليومى فى الأهرام (مجرد رأى) بعنوان (إجازة من فضلك) بدأه بقوله: لى أسابيع وأنا انتظر بفارغ الصبر هذا اليوم الذى أحمل فيه حقيبة سفرى وألقى بنفسى فى أحضان إجازة ثلاثة أسابيع أو أكثر بعيدا عن (مفرمة) العمل اليومى المتصل، وختمه بقوله: صديقى القارئ.. هل تسمح لى: إجازة إلى آخر هذا الشهر نجدد فيه شوقنا؟

وكان كاريكاتير صلاح جاهين فى الأهرام فى ذلك اليوم يصور القانون على شكل سيدة قوية تمسك عصا غليظة وتضرب بقوة كائنا صغيرا جدا يمثل الفتنة الطائفية.



وفى اليوم التالى ٦ سبتمبر كانت الصفحة الأولى للأهرام كلها عناوين مع صورة على خمسة أعمدة للرئيس السادات وهو يلقى بيانه أمام مجلسى الشعب والشورى، وكانت العناوين تقول: إعلان ثورة العمل الداخلى- السادات يعلن قرارات وإجراءات المواجهة الشاملة للقضاء على الفتنة الطائفية- إلغاء القرار الجمهورى بتعيين البابا شنودة بطريركا للأقباط - تشكيل لجنة من ٥ أساقفة للقيام بالمهام البابوية- التحفظ على ١٥٣٦ شخصا تذاع أسماؤهم اليوم وإجراء تحقيق سياسى معهم- لجنة عليا برئاسة نائب الرئيس للحفاظ على الوحدة الوطنية ومقاومة التعصب والإلحاد- نقل عدد من هيئات التدريس للوزارات و٦٧ صحفيا وإذاعيا إلى هيئة الاستعلامات - منع التنظيمات السياسية أو الدينية التى تخضع أعضاءها لتدريبات تؤهلهم للتخريب والشغب والتدمير- حل ١٣ جمعية إسلامية ومسيحية تمارس نشاطا ضد الوحدة الوطنية- التحفظ على أموال الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية غير المسجلة- إلغاء تراخيص ٧ صحف ومجلات أسهمت فى إثارة الفتنة الطائفية - بدءا من اليوم لا يوجد شىء اسمه عنصرا الأمة.. بل عنصر واحد فقط- استفتاء شعبى على جميع الإجراءات يتم يوم الخميس القادم - مغالطات رهيبة فى معتقدات الجماعات الإسلامية وسيطرة أمرائها - ١٠ حوادث تثبت مدى الإفساد الذى مارسته الجماعات على عقول الشباب - لا أريد اتخاذ إجراءات ضد أبنائى المغرر بهم وسأعطيهم فرصة أخرى - أريد تشريعا لمواجهة خروج الفتيات على طاعة الآباء بتحريض الجماعات الإسلامية - شنودة يريد أن يصبح زعيما سياسيا وتصرفاته أضرت بالأقباط - لا بد من إعادة الكنيسة لوضعها التقليدى كنسيج فى جسم الدولة - الحكومة تبنى الكنائس على نفقتها لأول مرة فى تاريخ مصر- أغلقنا جريدة الشعب لدورها الهدام فى إذكاء نار الفتنة الطائفية - لن أطلب إلغاء حزبى العمل والتجمع على الرغم من أنهما يستحقان الحل - أحزاب المعارضة ادعت كذبا أن الحزب الوطنى وراء أحداث الزاوية - ندوات أسبوعية لحزب العمل كانت مسرحا للتشهير بالنظام.

□□□

وكانت هذه العناوين من خطاب الرئيس السادات فى مجلس الشعب يوم ٥ سبتمبر١٩٨١، وجاء فيه أن هذه الإجراءات اتخذت بناء على نص المادة ٧٤ من الدستور التى تعطى لرئيس الجمهورية أن يتخذ الإجراءات السريعة لمواجهة الخطر ويوجه بيانا إلى الشعب، ويجرى الاستفتاء على ما اتخذه من إجراءات خلال ستين يوما من اتخاذها، وذلك إذا قام خطر يهدد الوحدة الوطنية أو سلامة الوطن أو يعوق مؤسسات الدولة عن أداء دورها الدستورى.

وفى هذا الخطاب قال الرئيس السادات: للديمقراطية أنياب أشرس من الدكتاتورية ولامكان لأنصاف الحلول، كما أصدر الرئيس السادات ثلاثة قرارات بقوانين تتضمن:

❑❑❑

- ❑ تعديل أحكام قانون الجامعات بالنص على تشكيل مجلس تأديب الطلاب برئاسة العميد ولا يجوز الطعن فى القرار الصادر من هذا المجلس إلا بطريق الاستئناف أمام مجلس تأديب أعلى برئاسة نائب رئيس الجامعة وبذلك يمتنع عن القضاء النظر فى الطعون فى قرارات مجالس التأديب.
- ❑قراراً بقانون بتعديل بعض أحكام قانون الأحزاب السياسية بالنص على المعاقبة بالسجن لكل من أنشأ أو أسس أو نظم أو أدار أو موّل تنظيما حزبياً غير مشروع، ولو كان مستتراً تحت أى ستار دينى أو فى وصف جمعية أو هيئة أو منظمة أو جماعة، وأن تكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة إذا كان التنظيم الحزبى غير المشروع معاديا لنظام المجتمع، أو ذا طابع عسكرى أو شبه عسكرى أو أخذ طابع التدريبات العنيفة التى تهدف إلى الإعداد القتالى، أو إذا ارتكب الجريمة بناء على تخابر مع دولة أجنبية وتكون العقوبة الحبس لكل من ينضم إلى مثل هذه التنظيمات.
- ❑ قراراً بقانون لتعديل قانون حماية القيم من العيب، بإضافة نص على أن يكون الفصل فى التظلمات من الإجراءات وفقا للمادة ٧٤ من الدستور.

وأصدر الرئيس السادات ٩ قرارات جمهورية لحماية الوحدة الوطنية تقضى بما يلى:

١ - قرار جمهورى بنقل بعض الصحفيين والإذاعيين للاستعلامات.

٢ - قرار جمهورى بنقل بعض أساتذة الجامعات لوظائف أخرى.

٣ - قرار جمهورى بإلغاء القرار الجمهورى بتعيين الأنبا شنودة بطريركا للأقباط.

٤ - قرار جمهورى بحل الجمعيات الممارسة لنشاط هدد الوحدة الوطنية.

٥ - قرار جمهورى بإجراء تحقيق سياسى مع المتحفظ عليهم أمام المدعى الاشتراكى.

٦ - قرار جمهورى بالتحفظ على أموال ومقار الصحف الملغاة تراخيصها.

٧- قرار جمهورى بالتحفظ على أموال الهيئات التى هددت الوحدة الوطنية.

٨ - قرار جمهورى بتشكيل لجنة للوحدة الوطنية.

٩ - قرار جمهورى بدعوة الناخبين للاستفتاء على إجراءات حماية الوحدة الوطنية.

وفى إجابته عن أسئلة المراسلين الأجانب: هل يعتقد بأنه سيكون هناك مزيد من إجراءات التحفظ؟ قال: هذا محتمل، وأضاف الرئيس السادات قائلا: إنه تطهير، وأنا لا أقوم فى هذا بالقضاء على المعارضة، كما يراه بعضكم.

وفى يوم ٧ سبتمبر كان العنوان الرئيسى للأهرام يقول: القائمة الكاملة لأسماء ١٥٣٦ شخصا تم التحفظ عليهم..

وكان من بين هذه القائمة اسم: محمد حسنين هيكل..

□□□

وفى يوم ٩ سبتمبر ١٩٨١ كتب الأستاذ إبراهيم نافع مقاله (بهدوء) بعنوان :

(هل تأخر السادات فى قراراته وإجراءاته؟). وكتب طلعت يونان مقاله (نقط فوق الحروف) بعنوان (التصحيح الثورى للفتنة الطائفية) قال فيه: (دخل الرئيس محمد أنور السادات تاريخ البطولات بخروجه من المعركة ضد الطائفية والتعصب منتصرا ومكللا بالغار ومؤكدا أن ظاهرة بطولته تتجدد مع كل حدث. فالقائد التاريخى الذى صنع للأمة المصرية والعربية كلها أغلى انتصاراتها، وكان - ولا يزال - أعظم العمالقة فى نضالهم وفى تاريخهم الحديث، قبض بألمعيته المعتادة على عنق مشكلة التعصب والطائفية، وأوضح للرأى العام كله أن الأزمة الطائفية- كأية أزمة - هى بطبيعتها مجموعة عقد وتيارات وأخطاء ومواقع متصادمة، ومخططات داخلية وخارجية. وتدرج الرئيس فى كشف أسرار هذه الأزمة الطارئة بذكر الوقائع الصحيحة عنها، ومراعاة تسلسلها، وتحديد حجم كل عنصر من عناصرها، وأيها كان الحطب.. وأيها كان الزيت.. وأيها كان عود الثقاب).

وقال طلعت يونان: (لقد أقدم الرئيس السادات على ما لم يجرؤ عليه أى زعيم قبله فى هدم الحاجز النفسى الذى أوجدته الفتنة الطائفية بين قطاعات من المسلمين والمسيحيين، وتفريغ الشحنات النفسية الكامنة داخل النفوس على الجانبين، وذلك بتأكيده على الحقائق التالية:

أولا: إن الحوادث الطائفية سببها الرئيسى الاعتماد على المبالغة أكثر من الاعتماد على الحقائق التى أسهم فيها البعض بسوء نية والبعض الآخر بحسن نية دون أن يفطنوا إلى أن بث التفرقة والكراهية بين الطوائف هو السلاح الذى يستخدمه الاستعمار لإضعاف جلد الأمة، وصرفها عن قضيتها الأساسية وهى التحرير.

ثانيا: احتواء بعض التيارات الدينية المتطرفة- التى وفدت إلى مجتمعنا- قطاعا من الشباب مستغلة براءة الشباب المصرى واتجاهه نحو الدين فاتجهت به نحو العنف وفرض القوة والإرهاب فى تصرفاته وسلوكه، وأن هذه العناصر المتطرفة التى تتستر وراء الدين يجب أن نحمى شبابنا منها ليتجنب هذه المزالق السياسية..

ثالثا: أوضح الرئيس بجلاء للرأى العام كل مخططات التشكيك الطائفية التى تبذل تحت ستار الدعوة الدينية والتجاوز فى استخدام المنابر الدينية فى أمور سياسية..

رابعا: الدور الذى لعبته بعض الجمعيات فى القيام بتوزيع منشورات تنطوى على إساءة للأديان الأخرى أو القائمين عليها، أو بنشاط طائفى دون أن يتوافر للقائمين عليها إدراك سليم لأحكام الدين، ويعد عن التعصب الذميم.. ويعض هذه الجمعيات تحول إلى أحزاب سياسية غير مرخص بها نجحت جميعها فى الفشل!

خامسا: التصدى الثورى للقيادات الدينية التى أصبح السكوت عن تصرفاتها جريمة قومية، لأن هذه القيادات تريد أن تعود بالبلاد إلى حكم رجال الدين.. وسياسة هذه القيادات صممت على استغلال الحوادث الفردية التى تحدث بصورة عفوية وتصويرها فى صورة الصدور عن التعصب، وعلى اختلاق الحوادث والمؤامرات اختلاقا، وعلى استعمال بعض الاتباع فى إشاعة الاستفزاز المتعمد، واصطناع المعارك، والتراشق بما يثير الحوافظ، ويضطرب به السلام)..

وأضاف طلعت يونان: (حقاً لقد أثبت الرئيس السادات بخطابه التاريخى الثورى أنه قيادة موهوبة تملك وضوح الرؤية، وتملك الإرادة القادرة على الحسم فى المواقف التاريخية ويحلول جذرية، لا بتقديم مسكنات وقتية تهدد بعودة الداء الكامن إلى الظهور أشد خطرا وفتكا. لقد أكد الرئيس لمصر - وللعالم كله - أننا أغلقنا - وإلى الأبد - صفحة التعصب الدينى وكل صور الالتهاب الطائفى).

أين هيكل من كل هذا ؟

□□□

وفى نفس اليوم كتب الدكتور سليمان الطماوى- وكان فى ذلك الوقت عميدا لكلية الحقوق بجامعة عين شمس- مقالا فى الأهرام بعنوان (سلطة رئيس الجمهورية فى التشريع) قدم فيها الأسباب التى تؤكد أن القرارات التى أصدرها الرئيس

السادات بعد أن يوافق عليها الشعب فى الاستفتاء لا يجوز الطعن فيها بأى حال، على أساس أن الشعب هو مصدر السلطات، وإذا عبر الشعب عن إرادته مباشرة فليس لسلطة أخرى - مهما كان وضعها الدستورى- أن تعقب على إرادة الشعب، وتصبح كل سلطة فى الدولة ملزمة بتنفيذ هذه القرارات، كما يصبح القضاء بمختلف جهاته ملزما بتطبيقها.

□□□

فى يوم ١٠ سبتمبر ١٩٨١ عقد الرئيس السادات مؤتمرا صحفيا فى ميت أبو الكوم، وهذا اليوم كان يوم إجراء الاستفتاء، وذهب ممثلو الصحف ووكالات الأنباء إلى ميت أبو الكوم بدلا من ذهابهم لمتابعة لجان الاستفتاء.

وفى المؤتمر الصحفى أعلن الرئيس السادات أسباب القرارات التى اتخذها، وتحدث طويلا عن الفتنة الطائفية، وعندما جاء الحديث عن هيكل قال: إن هيكل نشر مقالات وأحاديث، وأجرى اتصالات لتشويه صورة مصر، وتحدث الرئيس السادات طويلا عن الصحفى البريطانى ديفيد هيرست فقال إن شبكة التلفزيون (آى.بى.سى) الأمريكية أرسلت إلىَّ ديفيد هيرست وتعلمون أننى طردته من البلاد. ففى نهاية عام ٧٢ عندما كانت فى مصر أيضا فتنة طائفية بالإضافة إلى الجناح اليمينى، كتب ثلاث مقالات فى نهاية ٧٢ يمكن أن تقرءوها فى الجارديان البريطانية. وفى بداية ١٩٧٢ كتب ثلاث مقالات فى صحيفة نيويورك تايمز. والفكرة الرئيسية فيها أن كل شىء فى مصر قد انهار، وأن مصر قد تصل إلى الصدام، وأن الحكومة غير مستقرة ولا يمكن الاعتماد عليها، بكل التشويه للحقائق بينما كنت أوقع على قرار حرب أكتوبر فى يناير ٧٣.

وعندما سئل الرئيس السادات مرة أخرى عن هيكل فى هذا المؤتمر الصحفى قال: إن الصحفى الذى سألتمونى عنه الآن أسر إلىَّ فى مارس ٧٣ بما قاله ديفيد هيرست على أن هذه وجهة نظره وهو أن كل شىء قد انهار، وأن الخبراء السوفيت قد خرجوا،

وأن الصواريخ تحتاج إلى مهارة فنية الكترونية عالية وهكذا. وقد كرر ديفيد هيرست ذلك فى الجارديان والنيويورك تايمز- وعندما أعلنت أنه سيكون هناك برنامج على شبكة (آى. بى. سى) يصور السادات على أنه الشاه الجديد، أرسلوا ديفيد هيرست إلى بيروت وسألوه عن أمر السادات ومصر، فكرر كل كلمة قالها فى مقالاته الست، وهذه هى الشرائط الخاصة بـ (آى.بى.سى) وسوف أتركها إلى هيئة الاستعلامات لكى تطلعوا عليها لأن مراسل (آى. بى . سى) ديفيد هيرست موجود هنا فى مصر ولا يمكن أن ينكر أحد أن هذا الصحفى- أى هيكل- هو المسئول. وقد كشفت عن هذا البرنامج قبل إذاعته وتم إلغاؤه وكذلك تم ترحيل ديفيد هيرست من مصر من أجل تشويه صورة مصر وصورتى.. إنهم يطلقون علىَّ اسم الدكتاتور. إننى أسمى الذين تم القبض عليهم- فى ٥ سبتمبر- خونة.. شخص حاول أن يشوه العلاقة بين مصر وإسرائيل وينعى الديمقراطية.. لقد بدأنا التحول من النظام الاستبدادى إلى نظام الأحزاب المتعددة والأمر ليس مجرد فتنة طائفية ولكنه الجو العام.

وهكذا دخل هيكل فى زمرة الخونة!

□□□

وفى يوم ١١ سبتمبر كتب الأستاذ إبراهيم نافع مقاله فى الأهرام بعنوان: (لا تسيئوا فهم مصر) قال فيه: إن المتتبع لردود الفعل العالمية والصحفية تجاه القرارات والإجراءات التى اتخذتها مصر وما يجرى حاليا فيها يلاحظ أن هناك فهما خاطئا للأهداف التى ينشدها قادتها ومؤسساتها وشعبها الذى يقول كلمته فى الاستفتاء عليها.

وامتلأت الصفحة الأولى للصحف المصرية بالحديث عن التأييد الشعبى الساحق لإجراءات حماية الوحدة الوطنية.. وتعلن أن النتائج الأولية.. تشير إلى إجماع كامل على تأييد القرارات وتتحدث عن مظاهرات ومسيرات تضم المسلمين والمسيحيين فى جميع المحافظات تأييدا لهذه القرارات، كما أبرزت الصحف المصرية جميعها نبأ إبعاد

ديفيد هيرست مراسل شبكة تليفزيون أمريكية لتورطه الواضح فى الحملة المعادية لمصر، وقالت الأهرام إن قرار الإبعاد سبق أن اتخذ مع مراسل الجيروزاليم بوست الإسرائيلية قبل ذلك.

وفى الأهرام يوم ١٢ سبتمبر كانت عناوين الصفحة الأولى:

السادات يوجه بيانا يوم الاثنين بعد أن قال الشعب كلمته- ٩٩,٤٥٪ وافقوا على الاستفتاء على إجراءات حماية الوحدة الوطنية.. ١١ مليونا قالوا نعم.. و٦٠ ألفا فقط غير موافقين.

نتيجة الاستفتاء تدين مثيرى الفتنة وتجدد البيعة للسادات.

جوزيف كرافت الصحفى الأمريكى الشهير وصف الرئيس السادات بأنه واحد من زعماء العالم الذين يتميزون بالقدرة على الرؤية وأنه يحدد مساره بشجاعة وجرأة فى اتخاذ القرارات الضرورية لتحقيق ما يسعى إليه.

محطة (آى. بى. سى) تحتج على طرد مراسلها.

□□□

وفى الصفحة الأولى من أهرام ١٢ سبتمبر ١٩٨١ تحت عنوان كلمة للأهرام جاء ما يلى:

كان الأهرام يود لو أن محمد حسنين هيكل- الذى عمل فيه قرابة ١٦ عاما- جند قلمه واتصالاته إظهارا للصورة الحقيقية لمصر وشعبها العظيم بعد انتصار أكتوبر المجيد. بنفس القدر الذى كان يبرر به الهزائم والنكسات قبل ذلك وآخرها هزيمة يونيو ١٩٦٧.

كان يمكن أن يتم ذلك لو أن هيكل تخلى عن شىء واحد فقط، هو حلمه بأن يكون شريكا فى الحكم تحت وهم زائف بأن له نصيبا فى الميراث بعد رحيل عبد الناصر.



كان يمكن أن يتم أيضا لو أنه اكتفى بأن يقوم بدور الصحفى المصرى الغيور على بلده بالوقوف إلى جانب مصر وقضاياها، يزرع الأمل.. وينقد الخطأ فى إطار موضوعى.. ويستغل صداقاته وعلاقاته التى هيأها له الأهرام ومركزه فيه لكى يشرح بأمانة وجهة نظر مصر، ويعبر بصدق عن نبض الشارع المصرى بدلا من تلمس الأخطاء، ناسيا أو متناسيا أن هذه الأخطاء التى يستخدم قلمه فى التشهير بمصر من خلالها. ليست فى الواقع تراكمات سنوات سابقة هو أول من يعلم جيدا أسبابها وما وراءها.

ولكن هيكل اختار بدلا من ذلك أن ينحاز إلى جانب أعداء مصر الحاقدين عليها من أمثال ديفيد هيرست وصدام حسين والشيوعيين وخصوم ثورة ٢٣ يوليو وغيرهم.

لقد كنا نتمنى - نحن أسرة الأهرام - من رئيس أسبق للأهرام أن يكون موقفه جديرا بشرف الموقع الذى تولاه سواء بقى فى الأهرام أو تركه، وأن يحترم حرية الآخرين بدلا من أن يحاول أن يعود بمصر إلى حرية الشخص الواحد والفكر الواحد والصحفى الواحد.

ولا نريد أن نخوض فى أمور هى الآن بين يدى المدعى الاشتراكى، فهذه للأمانة وللتاريخ مسئوليته التى سوف يتولاها مع هيكل.

□□□

وفى يوم ١٣ سبتمبر كانت عناوين الصفحة الأولى للأهرام كما يلى:

الرئيس أمام ممثلى الصيادين:

إنذار بتوقيع أقصى العقاب على الخارجين عن طوع الأهل خضوعا لأوامر الجماعات الإسلامية.

النيابة تحقق فى ادعاءات المعارضة الكاذبة وتتخذ الإجراءات القانونية ضد مضللى الشعب.

ونشرت الأهرام حديث الرئيس السادات فى الاحتفال بالعيد الأول للصيادين والكلمة التى ألقاها الشيخ على رزيق شيخ الصيادين فى الإسكندرية، وأكد فيها على تأييد مليونى صياد للرئيس السادات فى الإجراءات التى اتخذها.

وجاء فى الصفحة الأولى أيضا:

تقرير مجلس الشورى:

إجراءات حماية الوحدة الوطنية تتفق تماما مع أحكام الدستور.

وكان كاريكاتير صلاح جاهين فى ذلك اليوم يصور صلاح جاهين نفسه وهو يقول للشخصية التى ابتكرها باسم (درش): تصور.. حتى فى عيد الصيادين مارخصوش الجمبرى!

وفى الأهرام يوم ١٤ سبتمبر كانت عناوين الصفحة الأولى:

السادات يعلن فى بيانه للشعب اليوم معالم مرحلة ما بعد الاستفتاء.

تعديل وزارى محدود قبل نهاية سبتمبر دعما للعمل التنفيذى .

تولى بعض القيادات الحزبية بمجلس الشعب مناصب وزارية .

تغييرات فى مناصب المحافظين ومواقع العمل السياسى والحزب الوطنى.

كشف تنظيم للنشاط الهدام والتجسس تحركه أجهزة المخابرات السوفيتية.

مخطط لدفع البلاد للشيوعية تشارك فيه قوى الرفض.

إبعاد مراسل لوموند الفرنسية لاتصالاته المشبوهة وكتاباته ضد مصر، وهو مقيم فى مصر منذ ٨ سنوات، ومعروف بالتحيز الواضح ضد مصر وقضاياها القومية الذى وصل إلى حد التهكم على مصر.

الرئيس السادات وافق على مد المهلة الممنوحة للمراسل لمغادرة مصر من ٣ أيام إلى ٧ أيام تلبية للاعتبارات الإنسانية التى تقدم بها القائم بالأعمال الفرنسية بالقاهرة.

وفى الأهرام يوم ١٥ سبتمبر كانت العناوين كما يلى:

إجراءات حاسمة ضد التسيب تبدأ أول أكتوبر.

السادات يدعو مجلس الوزراء لتحديد إجراءات مكافحة التسيب بجميع أشكاله.

بيان السادات إلى الشعب يحدد المرحلة القادمة.

لأول مرة فى تاريخ الاستفتاءات يخرج الألوف من الشعب لإعلان إصرارهم على المسيرة.

الادعاء بأن الوضع فى مصر غير مستقر أو أننا لا نطيق النقد أو نريد إنهاء المعارضة ادعاء باطل ١٠٠٪.

أى ثورة تحترم نفسها وشعبها لا تخضع لمن يستغل الدين لفرض وصاية على مصر.

هيكل سار فى ركاب الفتنة الطائفية وادعى أن مستقبل مصر للجماعات الإسلامية وكسب عدة ملايين من صناعته -وهى شتيمة مصر والتطاول على النظام - هيكل رجل لا يؤمن بالأديان ومع ذلك كتب أنه يمكن خلق علاقة بين الدين والسياسة.

سراج الدين سعى لإنشاء تنظيم غير مشروع يهدف لتغيير النظام والاستيلاء على السلطة.. لو تغلبت الديكتاتورية فى عهد الثورة لصفق الشعب لقطع رقبة سراج الدين.

□□□

وفى نفس اليوم نشر الأهرام مقالا بدون توقيع بعنوان (ولماذا هيكل؟) يقول:

حسب روايته هو- وما أكثر الروايات والحكايات التى رواها وكانت محض خيال - قال محمد حسنين هيكل صديق رؤساء وملوك الدول: قال لى الرئيس ميتران: لا ترجع إلى مصر لأن الأوضاع فيها غير مستقرة.. اطلب حق اللجوء إلى فرنسا وسوف أمنحك هذا الحق!

الرواية نفسها قالها الرئيس السادات بنفسه بالأمس وعلق عليها بقوله: أنا واثق أن ميتران لا سمع بهذا أو عرف بهذا..

والرئيس السادات يعنى هنا ما عرفه عن هيكل.. أنه دائما يدعى أنه صديق الرؤساء والملوك.. وأن الأمر كله لا يخرج عن كونه خيالا جامحا لصحفى طموح أكثر من اللازم!

وهيكل دائما يلعب دورا أكبر بكثير من حجمه.. لم يكتف بأن يكون صحفيا وحسب.. بل أراد أن يكون أيضا سياسيا كبيرا.. يمسك بالخيوط بين يديه ويحرك الأحداث على الساحة.. كما يحرك القلم على الورقة بالخيال وأحلام اليقظة.. وما أكثر الأدلة وما أكثر البراهين التى ساقها الرئيس السادات وأعلنها بنفسه.

- فى عام ٧٥ كنت مسافرا إلى أمريكا.. ذهب قبلى لكى يعرض أفكاره لأنه راجل كبير.. ولم يفته أن يتطاول على مصر.
- قال له الرئيس السادات: مكانك فى الأهرام وليس خارج الأهرام - وكان ذلك قبل إقصائه عن منصبه فى الأهرام - ولكنه راح يتصل بالسياسيين والصحفيين الأجانب ويقول لهم: إن السياسة الاقتصادية أدت إلى ظهور طبقة طفيلية جديدة..
- ولقد تصور هيكل فى وقت من الأوقات أنه هو الصحافة المصرية.. ولا صحافة مصرية إلا به، حتى إن الرئيس السادات قال له ذات مرة: عبد الناصر قفل الصحافة عليك وأنت تكتب الذى يريده عبد الناصر.. لكن دلوقتى لا..!

وسجل هيكل حافل بالكتابات المعادية لمصر.. وللنظام فى مصر.. وظل سنوات طويلة لا أحد يعترض على ما يكتبه.

وتعالوا نفتح ملف الرجل حتى تكون شهادتنا.. شهادة للتاريخ.

١ - فى ٣ أبريل ٧٨: كتب مقالا فى مجلة الأسبوع العربى قال فيه.. إن السادات طعن العرب بالمبادرة..!

والسؤال هو: هل فعلا طعن السادات العرب كما يقول هيكل؟.. أليس السادات هو صاحب الفضل في زيادة أسعار بترولهم من ٣ دولارات للبرميل إلى ٣٦ دولارا بعد حرب أكتوبر ويدم أولاده أبناء مصر..؟

هل نسي أن السادات رغم كل أزمات مصر لم يقبل أن يمد يده للعرب طالبا منهم أي عون؟

٢ - في ٣ يونيو٧٨: نشرت مجلة القبس الكويتية مقالا له عن جريدة نيويورك تايمز قال فيه: إن السادات يضرب خصومه السياسيين.. ولكنه لم يذكر أي سياسيين يقصد.. والمعروف أن الرئيس السادات لم يضرب إلا مراكز القوى في ١٥ مايو٧١!

٣ - في ٥ يونيو٧٩: قال في جريدة الرأي العام الكويتية: إن عبد الناصر رفض ٤ مرات ما قبل به السادات!

وهيكل لم يتعرض له إنسان.. سافر ٧ مرات من عام ٧٤ إلى ٨١ ولم يمنعه أحد.. بل إنه ذهب إلى المؤتمر الإسلامي في الطائف وراح يكتب في التايمز والصنداي تايمز لحساب العرب.. يقبض منهم الملايين ويهاجم مصر في صحف الغرب!

وآخر ما كتبه هيكل هو كتابه: (رياح الثورة تهب من جديد على الشرق الأوسط).. وقد نشرته جريدة الوطن الكويتية.. وعلى رغم أنه يتحدث فيه عن الخميني.. فإنه يقول في النهاية: إن الساحة المصرية قد انتهت إلى الإخوان المسلمين.. كيف؟ لا أحد يعرف!

ولقد ذهب هيكل إلى فؤاد سراج الدين - أو لويس السادس عشر نسخة ١٩٨١ يعرض عليه أن يشتركا معا في مخططاتهما وأحلامهما (الدون كيوشوتيه)! ..وقررا إصدار صحيفة جديدة تنطق بأحلام أو أوهام حزب الوفد القديم الذين أرادوا أن يرفعوا عنه تراب السنين.

.. ..

على أية حال.. فإن أمر الرجل ومصيره الآن بين يدى القضاء.. ليقول كلمته الأخيرة.. وأيا كانت هذه الكلمة.. فإنها سوف تكون حكم الشعب على من تصور أن له دورا بيننا.. ونسى أن الأبطال وحدهم. هم الذين يصنعون تاريخ الأمم.. وليس من يلعب فى الظلام.. ويشتم فى العلن.. فإن التاريخ لا يهمل شيئا ولو كان مجرد كلمة عابرة.. وليس أطنانا من المقالات التى تشوه أول ما تشوه وجه مصر!

هذا ما نشره الأهرام يوم ١٥ سبتمبر ١٩٨١.

□□□

وفى الأهرام يوم ١٦ سبتمبر كانت العناوين:

إبعاد السفير السوفيتى و٦ من أعضاء السفارة خلال ٤٨ ساعة.

الأجهزة السوفيتية قامت بتحركات مضادة من خلال سفارتها ضد النظام والوحدة الوطنية.

عناصر السفارة اشتركت مع أجهزة سفارات شيوعية أخرى لإحداث الاضطرابات فى مصر.

بيان لمجلس الوزراء:

إلغاء عقود جميع الخبراء السوفييت والمكتب الحربى بالسفارة.

تخفيض العاملين بالسفارة ليوازى عددهم بسفارة مصر.

إبعاد دبلوماسى مجرى ومراسلى وكالة تاس وصحيفة ترود.

لا صفقات عسكرية مع الاتحاد السوفيتى.

النبوى إسماعيل يكشف كل الحقائق عن دور السوفييت فى أحداث الفتنة.

الرئيس يوضح للجنة البابوية للكنيسة واجباتها لترسيخ الوحدة الوطنية فى المرحلة المقبلة.

السادات يزور اليابان فى الأسبوع الثانى من نوفمبر.

وفى نفس اليوم - ١٦ سبتمبر- كتب طلعت يونان مقاله فى الأهرام (نقط فوق الحروف) بعنوان (نعم للميلاد السياسى الجديد) قال فيه: من هنا ولعدة أسابيع متصلة تظل عيون العالم وآذانه مركزة على القاهرة، تحاول أن ترى وتسمع كل حركة وكل همسة فى الموقف الداخلى المصرى فى ظل (الميلاد) السياسى الجديد على مستوى الشعب المصرى بأكمله وإعداد الجماهير نفسيا.. وفكريا.. وعمليا لأعباء مسئولياتها فى المرحلة القادمة. لأن القاهرة عاصمة مفتوحة، والتحركات فيها مرئية، وصوت الحوار فيها مسموع فى ظل حكم الشورى. وقد دلت أرقام الاستفتاء التاريخى عن الإلهام الذى يعطيه صناع التاريخ وقادة التحولات الكبرى. وكانت نبضات قلوب الملايين التى قالت نعم فى أروع مشهد شعبى تعلن أن الرئيس السادات هو التعبير المجسم عن إرادة أمة وآمال شعب، وهو الذى فجر إرادتها، وفرض كلمتها، وأعلى قدرها بقوتها ومكانتها وحضارتها وأصالتها..

وقال طلعت يونان: لقد أعطت الجماهير صوتها لسلطان القانون يحمى الطريق من قطاع الطرق..

□□□

وكانت عناوين الأهرام يوم ٢٤ سبتمبر كما يلى:

فى اجتماع الرئيس السادات مع المجلس الأعلى للصحافة بعد تشكيله لأول مرة.

عدم إصدار صحف جديدة قبل تقويم التجربة الماضية.

السادات: مسئولية المجلس الأعلى للصحافة ليست أقل من مسئولية رئيس الجمهورية.

القاعدة الشعبية العريضة لم تخطئ فهم أى قرار اتخذته ولو لحظة واحدة.

لجنة من المجلس لدراسة ما تنشره الصحف فى مصر والخارج لتصحيح الحقائق.

لابد أن تقوم نقابة الصحفيين بدورها فى محاسبة أعضائها الذين شتموا وطنهم.

لقاء السادات مع شباب الحزب الوطنى بجامعة المنيا.

وفاة طلعت يونان (٥٥ عاما) والرئيس السادات يعلن أسفه لفقدان طلعت يونان ويأمر بأن تكون تكاليف الجنازة على حساب رئاسة الجمهورية.

وفى يوم ٢٦ سبتمبر كانت العناوين:

تحقيقات المدعى الاشتراكى تعرض نتائجها على الشعب.

وفى يوم ٢٧ سبتمبر:

قال الرئيس السادات فى خطاب سياسى ألقاه فى جماهير شعب الدقهلية بعد افتتاح مصنع سماد اليوريا الذى يعتبر أكبر إنجاز تكنولوجى من نوعه فى الشرق الأوسط:

دخلنا معركة الرخاء من أوسع أبوابها.

الحزب الوطنى يتحمل المسئولية كاملة حتى تنشأ المعارضة القوية.

وفى يوم ٢٩ سبتمبر:

السادات فى المؤتمر العام الثانى للحزب الوطنى.

الثورة مستمرة وإنجازات السادات تتويج وتخليص لها من عثراتها.

ستظل قصة كفاح عبد الناصر للحرية والكرامة صفحة ناصعة يعتز بها كل مصرى.

نبوى إسماعيل: (نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية):

مصر تنعم بجو فريد من الاستقرار.

معركتنا ضد التسيب ومع البناء.

كمال حسن على يبحث ترتيبات زيارة السادات للصين نهاية الأسبوع الثانى من شهر نوفمبر.

العرض العسكرى يوم ٦ أكتوبر.

الرئيس يحضر عيد المعلم أول نوفمبر- حل جمعية الصداقة العربية السوفيتية.

أصدرت الدكتورة آمال عثمان وزيرة الشئون الاجتماعية قرارا بحل جمعية الصداقة العربية السوفيتية.

□□□

فى هذا الجو المتوتر الملبد بالغيوم وجد هيكل نفسه فى السجن مع ١٥٥٣ من السياسيين ورجال الدين وشباب الجماعات..

ويدأ فى يوم ٣ سبتمبر ١٩٨١ فصل جديد..

من قصر عابدين
إلى سجن طرة !

عندما أصدر الرئيس السادات قراره بإبعاد هيكل من الأهرام فى أول فبراير ١٩٧٤ تضمن القرار تعيينه مستشارا لرئيس الجمهورية، وتم إعداد جناح له فى قصر عابدين، وطلبوا منه أن يختار سكرتاريته وانتداب من يختاره من الأهرام أو من غيره.. ورفض هيكل الذهاب إلى عابدين.

وفى ١٠ إبريل ١٩٧٥ دعاه الرئيس السادات إلى العشاء معه فى استراحة القناطر وعرض عليه منصب نائب رئيس الوزراء فى وزارة ممدوح سالم، واعتذر أيضا ثم دعاه ممدوح سالم فى اليوم التالى لإقناعه بقبول المنصب على أن يتصرف كما يشاء فى ترتيب الصحافة والإعلام.. وظل هيكل على إصراره بالرفض.

وهكذا رفض هيكل أن يدخل قصر عابدين، ورفض أن يدخل مجلس الوزراء.. لكنه بعد ذلك دخل سجن طرة.!

واحتفل هيكل بعيد ميلاده السادس والخمسين يوم ٢٣ سبتمبر١٩٨١ وهو فى زنزانة من ملحق سجن طرة!

كان هيكل فى رحلة فى الخارج، وعاد من باريس فى أواخر أغسطس، وكان يعرف مما يتابعه فى الصحف أن السادات يستعد للانقضاض على كل معارضيه. يقول: كنت أعلم أنه عندما يقع ذلك فإن شيئا منه سوف يصيبنى شخصيا. وقدّرت

احتمال أن يأمر بإخراجى من نقابة الصحفيين ويتصور بذلك أنه يمنعنى من ممارسة المهنة، ولكن لم يخطر ببالى أنه يمكن أن يعتقلنى أو يعتقل آخرين فى مثل ظروفى فى صدد حملة يوجهها إلى الفتنة الطائفية. وكان يصف معارضيه من السياسيين والمثقفين والمفكرين بأنهم (حفنة من الأراذل).

وبعد عودة هيكل من الخارج وجد أن مسكنه لم يكن جاهزا، لأنه انتهز فترة السفر لإعادة دهانه، فأقام يومين مع أسرته فى فندق هيلتون، ثم ترك زوجته السيدة هدايت تيمور مع ابنه - المتزوج حديثا وقتها - وذهب مع ابنيه الآخرين إلى الإسكندرية. وفى شقته بالإسكندرية دق الباب فجر ٣ سبتمبر وهم نيام، فقام ابنه إلى الباب ليجد اثنين من ضباط مباحث أمن الدولة يطلبان منه فتح الباب، ولما رجاهما الانتظار إلى الصباح قالا: إنهما يرجوان ألا يضطرهما إلى كسر الباب.

يقول هيكل: وجاء ابنى لإيقاظى من النوم، فذهبت وفتحت باب الشقة لهما ودعوتهما للدخول. وقالا لى على الفور: إننى مطلوب لمباحث أمن الدولة. ونظرت إلى ساعتى، وكانت الساعة الثانية والثلث صباحا. فقلت لهما: إننى أنا الذى وضعت عبارة زوار الفجر فى مقالاتى فى الأهرام، وانتقدت بها بعض تجاوزات الأمن فى وقت الرئيس عبدالناصر، فكيف يحدث ذلك فى عصر الديمقراطية. وكان كل من الضابطين- والحق يقال - مهذبا فى تصرفاته.. قالا: إنهما فى شدة الأسف، ولكنهما مكلفان بأمر يتحتم عليهما تنفيذه. سألتهما إن كان غيابى سيطول وبالتالى إذا كان من المستحسن أن آخذ حقيبة بما أحتاج إليه من ملابس أو أدوية، وكان ردهما بأن لدى عشر دقائق أحزم فيها حقيبتى.

وسألت ما إذا كان على أن أحزم حقيبة كبيرة لغياب طويل، فكان ردهما: ليس أكثر من يوم أو يومين. وسألتهما ما إذا كنا سنذهب إلى القاهرة وإذا كان ذلك فهل نذهب فى سيارتى، وكان ردهما بالنفى، ثم أضافا أن هناك ترتيبات لكل شىء.

يقول هيكل: وحزمت حقائبى، وشددت على يد ابنى، ولم أشأ إيقاظ أصغر أبنائى حتى لا يتأثر بما يراه، وخرجت من باب الشقة دون أن أقبّل ابنى الذى كان فى وداعى، لأنى أردت أن يكون الوداع خاليا من أية انفعالات عاطفية يمكن أن تفسر على أنها مظهر ضعف.

□□□

وعندما خرجت من باب الشقة راعنى ما رأيت. فعلى الردهة خارج الباب كانت هناك مجموعة من الجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة، وكان هناك أحد الضباط يمسك بجهاز لاسلكى يبلّغ فيه أولا بأول تفاصيل عملية الاعتقال. والتفت فوجدت المصعد جاهزا فى الدور السابع حيث شقتى، وفى داخله أحد الضباط مسلحًا بمدفع أتوماتيكى، ثم رأيت أثناء هبوط المصعد أن كل أدوار العمارة التى أسكن فيها محتلة بالجنود، وأصداء أجهزة اللاسلكى التى يحملها بعضهم تصدر أصواتا موحشة فى ظلام الليل وسكونه، وعندما نزلنا إلى مدخل العمارة كان المدخل محتلا بقوة مسلحة كبيرة وسمعت أحد الضباط يهمس فى جهازه اللاسلكى بأن العملية رقم (٩) قد نُفذت. وتساءلت باسما: إذن فأنا العملية رقم (٩). ولم أتلق جوابا، لكنه كان واضحا أن ذلك كان رقم عملية القبض علىَّ. ووجدت المدخل نفسه محتلا من باب المصعد إلى باب العمارة. وخرجت إلى الشارع وهو شارع صغير يمتد متعامدا على طريق الكورنيش ويؤدى إليه، وجدت إحدى سيارات اللورى محملة بجنود الأمن المركزى تقفل جانب الطريق المؤدى إلى الكورنيش، وسيارة أخرى تقفل جانبه الآخر، وكانت الأضواء الملونة فوق السيارات حمراء وزرقاء، وبعض الأضواء ثابت وبعضها الآخر لا يكف عن الدوران. وكانت المحركات كلها دائرة وأجهزة اللاسلكى مفتوحة والإشارات حول تنفيذ العملية تتردد بين القيادة والقوة المحيطة بى، وكان المشهد يكاد يكون سينمائيا. والتفت إلى الضابط الذى كان بجانبى وقلت له: كأننا فى مشهد من فيلم (زد) - مشيرا إلى الفيلم الشهير- ولم يظهر لإشارتى صدى، فمشيت صامتا إلى سيارة صغيرة دعانى الضابط إلى الركوب فيها معه كبادرة ود من جانبه.

وبدأ الموكب المسلح يسرى فى ظلام الليل على الكورنيش، وسألت الضابط ما إذا كان هناك داع لهذه القوة كلها لتنفيذ اعتقالى؟ فلم يقل شيئا، فاستطردت: فى حالتى كانت تكفى إشارة تليفونية تطلب إلىّ الحضور إلى مباحث أمن الدولة، وكنت بالتأكيد سوف ألبى حتى لو جاءتنى الإشارة وأنا فى سفر عمل فى الخارج. ومرة أخرى لم يقل الضابط شيئا. وساد الصمت لبضع دقائق، وسألته: إلى أين نحن ذاهبون؟ وحينئذ كان لديه ما يقوله، وقد قال برقة شديدة: انتظر وسوف ترى بنفسك كل شىء حينما تصل إلى مركز قيادة العملية فى الإسكندرية.

وحاول الضابط أن يفتح بابا للحديث، فراح يتذكر كم كان يقرأ مقالاتى فى الأهرام باهتمام، ثم سألنى ما إذا كانت هذه أول مرة أعتقل فيها؟ وكان ردى بالإيجاب. وكان تعليقه: إن الظروف تتغير.

□□□

ووصل موكبنا أخيرا إلى مبنى ضخم عرفت فيما بعد أنه مقر مديرية الأمن بالإسكندرية، وكان هناك مئات من جنود البوليس يحيطون بعشرات من السيارات تحمل غيرى من المعتقلين، وبدا لى أن مواكب بعد مواكب من سيارات المعتقلين تقوم من هناك محاطة بالحراسة متجهة بأقصى سرعة إلى القاهرة، وكانت الصفارات والأضواء الملونة تفتح الطريق لكل موكب من هذه المواكب.. ونزلت من السيارة محاطا بالحراسة. والتفت حولى فإذا خليط من المعتقلين: شباب وشيوخ، مشايخ وقسس، ولمحت الدكتور محمود القاضى فلوحت له مشجعا، فقال الدكتور القاضى: سوف نتقابل بالتأكيد. وانطلق موكبه مع من كانوا معه، وسألنى الضابط الذى كان لا يزال بجانبى: أظنك عرفت الآن ما هو الموضوع وأين نحن؟ ثم سألنى ما إذا كان يستطيع أن يقدم لى أية خدمة، ورجوته إذا كان فى استطاعته أن يتصل بابنى تليفونيا ليبلغه أننى ذاهب إلى القاهرة، فقال إنه سيفعل بكل سرور، وسألنى عن رقم تليفونى وأعطيته

له قائلاً: أظن أن مباحث أمن الدولة - لابد - تعرف رقم تليفونى! فقال إنه سيتصل، ويبدو أنه لم يتمكن من ذلك.

وبدأ إعداد القافلة التى تقرر أن أكون ضمنها فى الرحلة إلى القاهرة، كانت سيارة (بيجو) من سيارات البوليس المصفحة العتيقة. ووجدت معى الأستاذ إبراهيم طلعت وهو نائب وفدى سابق وأديب وشاعر، والأستاذ عادل عيد وهو قاض سابق وكان أحد النواب المستقلين. والأستاذ أبو العز الحريرى وهو أيضا نائب سابق. وبدأ موكبنا يتقدم على الطريق الزراعى فى اتجاه القاهرة. كانت الرحلة إلى القاهرة هى الشىء المخيف فى العملية كلها، فقد كان جندى البوليس المكلف بقيادة السيارة نصف نائم، وكانت السيارة تتأرجح تحت قيادته وتوشك فى بعض الأحيان أن تصطدم بسيارة الحراسة أمامنا، أو بالموتوسيكلات المحيطة بها من كل جانب. وسألت عما إذا كان يمكن أن يقود السيارة غيره، فلم يلتفت أحد لاقتراحى، وكانت السيارة محملة بأكثر من طاقتها العادية بالمعتقلين والضباط والجنود والمخبرين، ولم يكن هناك مفر من الاستسلام للأمر الواقع، فرحنا نتحدث عما يجرى غير عابئين بأن كل كلمة نقولها مسموعة من هؤلاء المحيطين بنا.

وسألنى الأستاذ إبراهيم طلعت عن تقديرى للموقف، فكان ردى أن العملية كما أراها تكشف حالة انفلات أعصاب، ورحنا نخمن فيما بيننا عن الوجهة التى يمكن أن يذهبوا بنا إليها، ولم نستطع أن نصل إلى ظن أكيد، وطلبنا فتح الراديو ربما نسمع شيئا يلقى الضوء على مصيرنا. وفتحوا لنا جهاز الراديو فعلا، ولكن على محطة القرآن الكريم التى كانت على وشك أن تفرغ من إذاعة صلاة الفجر.

□□□

ولم تخل الرحلة من مواقف طريفة، فقد صاح الأستاذ إبراهيم طلعت فجأة أنه لابد من إيقاف الموكب لأنه يريد أن ينزل لحظة من السيارة لقضاء الحاجة، وحين بدا له أن الاستجابة لطلبه ليست كافية صاح مرة أخرى يقول: إننى أعانى من مشكلة

بروستاتا، وإذا لم أنزل من السيارة لحظة فإنى قد أموت وعليكم أن تتحملوا مسئولية موتى. وتوقف الموكب قرب أحد الحقول على الطريق الزراعى، ونزل الأستاذ إبراهيم طلعت لما يريد، ثم استأنف الموكب تقدمه، وكان الصبح على وشك أن يطلع.

ووصلنا القاهرة حوالى الساعة السابعة، وسألنا ما إذا كان فى استطاعتنا أن نشترى بعض الصحف، ورُفض طلبنا، وتنبأ الأستاذ إبراهيم طلعت أننا ذاهبون إلى نيابة أمن الدولة، لكن موكبنا تجاوز الطريق المؤدى إليها. ومرة أخرى تنبأ الأستاذ إبراهيم طلعت بأننا قد نكون فى الطريق إلى سجن القلعة، لكننا مرة أخرى تجاوزنا الطريق المؤدى إليه. وحين دخلنا كورنيش المعادى بدا واضحا أننا فى الطريق إلى منطقة سجون طرة. واستقر بنا المطاف أخيراً أمام سجن من سجون طرة. كان سجنا جديدا، ويبدو أنه - رغم سوء أحواله - بُنى بمعونة أمريكية- وكان البحث لا يزال جاريا عن اسم له. وكان الاسم المقترح له فى ذلك الوقت اسم (سجن السلام).

□□□

يقول هيكل: عندما وصلت إلى السجن رأيت فى ساحة الاستقبال الخارجية له تجمعا من مشاهير السياسيين مثل الأساتذة: فؤاد سراج الدين، وعبد الفتاح حسن، وفتحى رضوان، ومحمد فائق، والمهندس عبد العظيم أبو العطا، والدكتور محمد عبد السلام الزيات، ووجدت معظم قيادات الأحزاب مثل الدكتور حلمى مراد نائب رئيس حزب العمل، وحامد زيدان رئيس تحرير جريدة الحزب، ومحمد أبو الفضل الجيزاوى، وإبراهيم يونس وهما من أقطاب حزب العمل، وكان هناك أيضا نصف أعضاء اللجنة المركزية لحزب التجمع منهم الدكتور فؤاد مرسى، والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله، وفريد عبدالكريم، وصبرى مبدى، والدكتور على النويجى، وعبد العظيم المغربى، ومحمد خليل، والشيخ مصطفى عاصى، وكانت هناك أيضا مجموعة النواب المستقلين يتقدمهم الدكتور محمود القاضى، وعادل عيد، وكمال أحمد، وأحمد فرغلى، الذين تم إسقاط عضوية مجلس الشعب عنهم.

وكان هناك أيضا معظم أعضاء مجلس نقابة المحامين يتقدمهم محمد فهيم، وعبد العزيز محمد، ومحمد عيد. وكان فى مقدمة هؤلاء نقيب المحامين عبدالعزيز الشوربجي.

وكان هناك أيضا أساتذة جامعات بارزين من أمثال الدكتور ميلاد حنا، والدكتور كمال الإبراشى، والدكتور عبد المحسن حمودة، وغيرهم. كما كان هناك عدد من المثقفين البارزين من أمثال: الدكتور عصمت سيف الدولة، وصلاح عيسى، وحسين عبد الرازق، وصابر بسيونى، ومحمود زينهم، وحمدين صباحى، وكمال عيطة، وعدد من الشخصيات الدينية من أمثال: الأستاذ عمر التلمسانى، والشيخ المحلاوى، والشيخ كشك، والشيخ عيد. وترامت إلينا الأنباء- ونحن فى ساحة الاستقبال- عن اعتقال قيادات نسائية عرفنا بينهن الدكتورة نوال السعداوى، والدكتورة لطيفة الزيات.

وفى سجن أبوزعبل كان هناك الشخصيات القبطية البارزة، وفيهم بعض الأساقفة والمطارنة والقسس والرُهبان.

يقول هيكل كنت متوقعا الاعتقال خاصة فى الأيام التى كان هجوم الرئيس السادات زائدا تجاهي. وقلت لزوجتى عندما تحريت المسائل إنه ليس لى سوى طلب واحد منها إذا ما اعتقلت- وقد رأيت بنفسى ما يحدث للزوجة بعد رحيل الزوج وما تواجهه من مشاكل لا حدود لها- قلت لها: ألا تطلب من أى كائن من كان طلبا يخصنى، أو يخصها هى، أو يخص أبناءنا، وألا تحدث سوى شخصين فقط هما الدكتور محمود فوزى كصديق إذا أرادت الاستعانة بنصيحته وأخذ رأيه فى تصرف ما إذا واجهتها مشكلة. والشخص الثانى هو الأستاذ ممتاز نصار المحامى، ومن سوء الحظ أنه حين جرى اعتقالى كان الدكتور محمود فوزى قد رحل عن عالمنا.

□□□

وبعد اعتقالى اتصل «أحمد» ابنى بوالدته وأبلغها بتفاصيل ما حدث، وبعد ذلك أرسل لها الرئيس السادات صديقنا سيد مرعى ليسألها إذا كانت تريد شيئا فأجابت

بأنها لا تبغى سوى التأكد من أننى أعامل معاملة طيبة، ولم يقل لها أحد أين مكانى. وبعض الأصدقاء فى الخارج سألوها أن تأذن لهم بالقيام بحملة من أجلى لكن رأيها كان أن مثل هذا التصرف تجاهى قد يفسر على سبيل الخطأ. ولم تزرنى زوجتى فى السجن سوى مرة واحدة بعد شهرين من الاعتقال.. أحضر لها ممتاز نصار إذناً من المدعى الاشتراكى فجاءت لزيارتى مع أبنائى بحضور ثلاثة من الضباط أحدهم من السجن واثنان من المباحث. وفى اللحظة التى كنت أهبط فيها من الزنازين على السلم الحديد متجها إلى البوابة الحديدية التى تفصل بين العنابر وحجرة المأمور كانت هى والأولاد يدخلون من باب السجن، فتلاقت خطانا أمام باب الحجرة لنجلس بداخلها نصف ساعة التى سُمح لنا بها.. وكان استيعاب الموقف بهدوئه الظاهرى وكأننا اتفقنا عليه مسبقا، وتماسكت هى لتبدو مسيطرة على أعصابها، على رغم ما أعلمه بما يجيش به تدفق عواطفها.. لقد شاهدت إلى جانبى الكثير مما حدا بى يوما إلى التفكير فى كتابة يوميات.

يقول هيكل: وأعترف بأننى بدأت أفكر فى كتابة كتاب (خريف الغضب) منذ اللحظة الأولى لاعتقالى فى ٣ سبتمبر ١٩٨١ حين التفت حولى ورأيت فى السجن كل هؤلاء الذين يمثلون الرموز الحية لأهم القيادات السياسية والفكرية المؤثرة فى مصر. كنت مقتنعا - بشكل شبه وجدانى - بأننى أعيش فى دراما سوف تصل إلى نهايتها فى يوم من الأيام وبشكل من الأشكال، وأننى كصحفى قد أكون مطالبا بأن أروى قصتها قبل غيرى. وأثناء شهور السجن تحدثت مطولا إلى آخرين عما يحدث، ولم يكن هناك ما يمكن عمله غير الحديث مع هؤلاء الذين كانوا فى زنزانتى، ومع غيرهم حينما سمح لنا بالتجول بعض الوقت فى فناء السجن. وكان منهم وزراء سابقون (وكان فى ملحق مزرعة طرة عدد من الشخصيات تكفى لتشكيل مجلسين أو ثلاثة مجالس من الوزراء) ومع اقتصاديين بارزين، وزعماء نقابيين، وأساتذة جامعات، ومشايخ، وشباب من الأصوليين الإسلاميين، ومع عدد من رجال الدين المسيحى، وبفضل المناقشات معهم

ومع الدكتور ميلاد حنا، والدكتور مراد وهبه، أتيح لى أن أتعرف عن قرب على تراث الكنيسة القبطية المصرية.

□□□

يقول هيكل: وكنت قد تصورت أننا سوف نسجن كمعتقلين سياسيين، وهم يلاقون فى السجن معاملة خاصة من حيث كان يسمح لهم بالكتب والورق والأقلام، ولذلك جئت فى حقيبتى ببعض الكتب ودفاتر للمذكرات وأقلام، واكتشفت فور وصولنا إلى السجن بمصادرة كل ما كان معى ومع غيرى من الكتب والأوراق والأقلام والأدوية والمحافظ والنقود والملابس، وسمح لكل منا بغيار داخلى واحد، ومنشفة، وفرشة أسنان دون معجون أسنان، وقيل إن معجون الأسنان يجب أن يوافق أطباء السجن على دخوله معنا باعتباره نوعا من الأدوية فى تقديرهم. كما قيل لنا: إن أطباء السجن سوف يقررون فى اليوم التالى ما يلزم أى واحد منا من الأدوية بما فيها معجون الأسنان.

واقتادنى بعض الحراس إلى الزنزانة رقم (١٤) وكنت وحدى فيها، كانت زنزانة صغيرة عليها باب من الحديد فى أعلاه قضبان تصل منها أصوات الضجة الجارية فى السجن.. صليل قضبان حديدية، وصيحات مساجين، ووقع أقدام حراس، وقعقعة سلاح، وكانت هناك عشر مراتب من المطاط ملقاة داخلها وعشر بطاطين تفوح منها رائحة الـ (د. د. ت) وكانت هناك حفرة فى ركن من الزنزانة تمثل دور الحمام فيها، وفى ركن آخر كانت هناك مجموعة من الأوانى المصنوعة من الصاج.

وتمددت على إحدى المراتب أفكر فى كل ما جرى، ومضت ساعة أو أكثر قليلا، وسمعت صليل الباب الحديدى ومفتاح يدور فيه، ثم انفتح الباب عن جاويش يتبعه اثنان من الجنود، أحدهما يحمل صفيحة علاها الصدأ، وآخر يحمل صفيحة أخرى ملأى بأرغفة الخبز وتغطى الاثنين سحابة من الذباب. وسألنى الجاويش بحزم: «أين قروانتك»؟ وقلت له: ليس عندى قروانة. وأشار بيده إلى كومة الأوانى المصنوعة من

الصاج وقال لى: هذه هى القروانات ولك واحدة فيها. وسألته عما يريده بالضبط وكان رده: أريد أن أعطيك طعام اليوم.

كان واضحا أنه يريد أن يعطينى بعضا من العسل الأسود فى القروانة ورغيفين من الخبز، واعتذرت له شاكرا. ومع أننى قد بدأت أشعر بالجوع، فقد كان منظر المعروض علىّ من الطعام كافيا لصد أية شهية. وقال الجاويش إننى إذا رفضت استلام طعامى فسوف يخطر ضابط السجن بامتناعى. وقلت له: أنت حر فى إخطار من تشاء.

بعد دقائق جاء أحد ضباط السجن يسألنى: لماذا لم تتسلم طعامك وليس هناك غيره طوال اليوم؟

وأضاف متلطفا: إننى أعلم أن هذه أول مرة لك فى السجن، ولكنك سوف تتعود.

وقفزت إلى موضوع آخر، فقد سألته: عما إذا كان سجنى سيكون انفراديا لأنى ما زلت وحدى فى الزنزانة؛ وكان رده بالنفى. وزاد تلطفه معى حين قال: الحقيقة أننا كنا نريد أن نجد لك رفاقا يناسبونك. وسألته: أين الذين جاءوا معى من الإسكندرية؟ قال: إن معظمهم فى الزنزانة رقم ١٣ ولكنها امتلأت عن آخرها. وأضاف إنه سوف يحاول أن يجد لى رفاقا يناسبوننى. وغاب نصف ساعة ثم عاد ومعه الأستاذ إبراهيم طلعت والأستاذ كمال أحمد وهو من القيادات الناصرية الشابة، وقال لى إن الاثنين تطوعا لكى يسكنا معك فى نفس الزنزانة. ثم قال إن هناك بعض الشباب المتدينين عرفوا أننى معهم فى نفس السجن وطلبوا الإقامة معى لكى يناقشونى فى بعض آرائى ولكنه أمهلهم لحين استئذانى فى أمرهم. وشكرته ورجوته أن يأتى بمن يريد. وجاءوا وكان بينهم أحد زعماء الطلبة المتدينين فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة واسمه أكمل.

وبدأ نوع من الحياة يدب فى الزنزانة بعد ساعات من الوحدة.

□□□

ومضت ساعات ثم فتح باب الزنزانة بعد الظهر، ودخل أحد الضباط يطلبنى للخروج معه، وتفاءل الأستاذ إبراهيم طلعت بأسرع مما ينبغى وقال: هو الإفراج

بالتأكيد.. ولابد أنهم أحسوا بضغوط دولية بشأنك فقرروا الإفراج عنك فورا. وقلت له في محاولة لتهدئة تفاؤله: لاتسرف في حسن الظن. إن من قرروا اعتقالي لابد أنهم حسبوا مسبقا ما يمكن أن يثيره القبض عليّ من ردود فعل في الداخل أو في الخارج. وما داموا قد أقدموا على هذه الخطوة فليس من السهل عليهم أن يعودوا عنها ببساطة.

وحملت أمتعتي- الغيار الداخلي والمنشفة وفرشة الأسنان - وتبعت الضابط، وعند غرفة مدير السجن وجدت في انتظاري ضابطا برتبة لواء ومعه ثلاثة من العمداء كانوا في انتظاري. وظهر أن الموضوع يتصل بطلب تفتيش شقتي ومكتبي وبيتي الصغير في الريف.

وبدأت مسيرتنا في موكب مسلح جديد في اتجاه بيتي ومكتبي في الجيزة. وبعد أن تم التفتيش وصادروا بعض ما عثروا عليه من أوراق، سألتهم مشيرا إلى بُعد المسافة ومشقة الطريق إلى بيتي في الريف، إن كان ممكنا تأجيل ذلك إلى الغد لأني متعب - لكن الأوامر كانت صارمة، كما أن الإشارات المتبادلة بين السيارة التي كنت فيها وبين قيادتها في مكان ما كانت تصر على إتمام العملية رقم (٥). وكان اللواء المسئول عن هذه العملية غير قادر على أن يجد لنفسه حيلة في هذه الأوامر الصارمة. ومرة أخرى أبديت نوعا من الاحتجاج. وقلت: لم يكن هناك داع لهذه الحملات المسلحة كلها. لقد كان جندي واحد يكفي لتفتيش شقتي ومكتبي بدلا من وضعهما تحت احتلال عسكري كامل كما حدث. وبدلاً من الذهاب إليهما بموكب مسلح على هذا النحو.

وسألت الضابط المكلف بالعملية: ما هو الذي تبحثون عنه بالضبط؟

وكان رده: أوراقك السياسية.

وقلت له: إن الكل بما فيهم الرئيس السادات يعرفون أنني منذ زمن طويل نقلت أوراقي السياسية التي أخشى عليها إلى خارج مصر

وأضفت: إذا كنتم تريدون أوراقى السياسية فلماذا لا تعيدون إلىّ جواز سفرى الذى صادرتموه من أحد أدراج مكتبى أثناء التفتيش، ثم نسافر معا إلى الخارج لنعود بهذه الأوراق؟

ولم يعلق بشىء!

كان قد صادر أيضا بعض المراجع الإسلامية التى كنت أستعين بها أثناء عملى فى كتابى عن الثورة الإيرانية.

وقلت: أرجو ألا يكون بين التهم الموجهة إلىّ تهمة انتمائى إلى الجماعات الإسلامية؟!

□□□

كان بين الأوراق التى صادروها أيضا من شقتى مذكرة برأى حزب الوفد الجديد فى اتفاقيات كامب ديفيد، وكان مرفقا بها بطاقة باسم الأستاذ فؤاد سراج الدين وأضاف إليها عبارة (مع تحياتى). وكنت قد التقيت بالأستاذ فؤاد سراج الدين فى جنازة إحدى قريباته، وسألنى أثناء موكب الجنازة ما إذا كنت قرأت بيان حزب الوفد الجديد عن اتفاقيات كامب ديفيد، وأجبته بالنفى، فأرسلها إلىّ فى اليوم التالى مشفوعة ببطاقة منه. والآن كان الضابط المكلف بالتفتيش يريد مصادرة المذكرة. وبالطبع لم يكن أمامى ما أفعله إلا أن أتركه يصادرها، لكننى حاولت أن أرفع بطاقة فؤاد سراج الدين المرفقة بها، ومنعنى من ذلك قائلاً: إن البطاقة أهم من المذكرة نفسها!

وعندما وصلنا إلى بيتى الريفى كانت قد سبقتنا إليه لوارى من محافظة الجيزة التى تتبعها الناحية التى يقع فيها.. وكان أكثر ما أسفت له حين وصلنا ساحة البيت أن لوارى البوليس داست بعض أحواض الزهور المحيطة به. وبدا اهتمامى بالزهور فى تلك الظروف مدعاة للاستغراب! وشغل أحد الضباط المرافقين نفسه بإصدار الأوامر إلى جنوده الذين انتشروا تحت أشجار المانجو يأكلون ثمارها بأن يكفوا عما يفعلون،

ورجوته أن يتركهم يأكلون كما شاءوا شريطة أن يبتعدوا عن أحواض الزهور. وفى بيتى فى الريف- وبينما ضباط القوة منهمكون فى عملية التفتيش- عاد إلى الإحساس طاغيا بالجوع، واستأذنت ضباط الحملة ما إذا كان فى استطاعتى أن أطلب طعاما، وأذنوا، وجاءنى طبق من البيض المقلى فاستأذنت مرة أخرى أن أستبدله لأن كثرة السمن يمكن أن تحرك كل مشاكل المرارة والكلى التى أعانى منها وقد يكون البيض المسلوق أفضل. وجاءنى الإذن بالموافقة، لكن التفتيش كان قد تم، وصادروا ما أرادوا مصادرته وبينه بعض كتب كارل ماركس. وقلت للمرة الثانية ضاحكا: يبدو أننى هناك فى شقتى كنت متهما بالتطرف الدينى، والآن فإننى على وشك أن أتهم بالشيوعية، ولم أسمع ردا. واستأذنت ما إذا كنت أستطيع أن أحمل البيض المسلوق وبعض أرغفة الخبز- التى جاءنى بها خفير البيت- معى لكى آكلها فى السجن ما دام التفتيش قد انتهى.

وبدأنا رحلة العودة إلى طرة، فوصلنا إلى هناك قبل منتصف الليل بقليل. كنت منهكا من التعب. ولكننى كنت مصمما على عدم التبرم أو الشكوى مهما كانت الأسباب، فلقد أحسست أن خيطا رفيعا يفصل بين إبداء الشكوى وإبداء الضعف. وهكذا فإننى فى الأيام الخمسة الأولى للسجن لم أتناول طعاما غير خمسة بيضات مسلوقة وخمس أرغفة عدت بها من بيتى الريفى. والغريب أنها اتسعت لاستضافة رفاقى فى الزنزانة أيضا!

□□□

والحقيقة أن أكثر ما ساعدنى فى التجربة الجديدة على كل شىء هو شعور أحسست به منذ اللحظة الأولى للقبض على، وهو شعور الصحفى أولا وأخيرا. لقد وجدت هذا الشعور يعطينى نوعا من الانسلاخ عن الواقع. أحسست أننى مراقب، يتابع الأحداث أكثر مما هو ضحية من ضحاياها. وكنت شديد الثقة- حتى فى تلك اللحظات الأولى - بأننى سأكتب فى يوم من الأيام قصة كل ما جرى. وهكذا فإن

الأسير تراجع ليفسح المجال للصحفى كى يتابع ويراقب ويتأمل ويربط أطراف الدراما التاريخية التى تتحرك حوله بصرف النظر عن أنه هو نفسه جزء منها. وكان بعض رفاقى يدهشون من برودة أعصابى فى مواجهة ظروف أقل ما يقال فيها إنها كانت مزعجة. ولم يتنبه أحد بالقدر الكافى إلى عملية الانسلاخ التى جرت بين الأسير وبين الصحفى. وهكذا رحت ساعة بعد ساعة أتأمل الحياة من حولى، وأتابع حركتها دقيقة بعد دقيقة.

وبقينا داخل الزنزانات لا نبارحها لمدة أحد عشر يوما. ولم تكن لدى أية معلومات من أى نوع عما جرى فى الخارج. ولم يكن هناك مجال وسط تكدسنا البشرى داخل الزنزانات للقيام بأية حركة طبيعية، وقد حاولت أن أعوض نقص الحركة عن طريق القيام بتمارين رياضية واقفا فى مكانى من الزنزانة.. ولم يكن مسموحا بالقهوة أو بالشاى.

وكانت المياه المتاحة لنا محدودة.. وحاول أحد شبان الجماعات الإسلامية معنا أن يعلمنى كيف أستطيع أن أستحم بكوب ماء لا أكثر! وكنا ننام على الأرض.. كل واحد منا فوق مرتبته المصنوعة من المطاط. وكانت المراتب متلاصقة تغطى أرضية الزنزانة تماما. وكانت قضبان الزنزانة على الجزء العلوى من بابها الحديدى مفتوحة للغارات من الذباب بالنهار والناموس ليلا. وكنت أقول لرفاقى ضاحكا: أسراب القاذفات تغير علينا نهارا، وأسراب المقاتلات تغير علينا ليلا.

وبعد أربعة أيام جاءت مجموعات من الأطباء وصرحت لنا ببعض ما كنا نحتاج إليه من أدوية شريطة أن نثبت أن حاجتنا ماسة إليه.

وبعد ٥٥ يوما من انقطاع كامل عن العالم، سمح لنا بأن نتلقى سلال غداء، كان يصل عندنا فى ملحق سجن طرة ٣٣ سلة، وسلة غدائى كانت تزينها وردة حمراء تذكرنى بورد مكتبى الذى هو أول ما أطالعه كل صباح. هذه الوردة من زوجتى. وكان لها معنى عطرى عندى.

وفى الفترة الأخيرة نقل هيكل إلى قصر العينى للعلاج من آلام الكلى التى ازدادت بعد سنوات واضطرته إلى إجراء جراحة دقيقة فى الولايات المتحدة لاستئصال بؤر سرطانية فى الكلى.

❑❑❑

ولم يكن فى استطاعتنا فى السجن أن نعرف ما الذى قاله السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب يوم ٥ سبتمبر. وفيما بعد عرفنا أنه قال: إن هذه الإجراءات التى قام بها ضرورية (لأن عناصر معينة كانت تهدد وحدة وأمن البلاد). كذلك لم نعرف ونحن فى السجن بأصداء ما حدث فى مصر أو فى العالم العربى أو فى العالم الخارجى. ولم نسمع كذلك بخروج وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية الأستاذ منصور حسن الذى ظل بعيدا عن كل إجراءات العملية برغم موقعه الرسمى، وكان يرى أن الخلط بين السياسيين والجماعات الدينية فى عملية اعتقال واحدة يفتح جبهة واسعة ويؤدى إلى تناقضات فى تطبيق إجراءات الاعتقال. ففى حين أن الشدة قد تكون مفهومة مع الجماعات الدينية، فإن نفس هذه الشدة سوف يصعب تبريرها بالنسبة للسياسيين. وكان رأى السادات أن منصور حسن لا يفهم حقائق الموقف. وعلى أية حال فقد رأى منصور حسن صعوبة بقائه فى مجلس الوزراء، واقترح أن يصبح وكيلا لمجلس الشعب خصوصا أن المجلس سوف تكون أمامه فترة حافلة من النشاط.

❑❑❑

وفى خطابه أمام مجلس الشعب استند السادات فى إجراءاته على المادة (٧٤) من الدستور التى كانت منقولة من المادة (١٦) من دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة. وكانت هذه المادة تعطى الرئيس عند قيام حالة الطوارئ سلطة تعطيل كل الضمانات الدستورية واتخاذ أى إجراءات يراها مناسبة لمواجهة حالة الطوارىء المفاجئة. وكان ذلك فى دستور ديجول، ومع ذلك فقد استعمل هذه المادة مرة واحدة ولمدة ٢٤ ساعة خلال مظاهرات صيف ١٩٦٨. وقد أنهى العمل بها فور عودته من لقاء

سريع عقده مع قيادة الجيش الفرنسى فى ألمانيا. وعندما طبق السادات هذه المادة المنقولة من دستور ديجول، لم تكن مصر فى حالة طوارىء مفاجئة. ولم يكن السادات قد اكتفى باعتقال ثلاثة آلاف شخص صباح يوم ٣ سبتمبر فقط، وإنما كان قد أجرى عملية (تطهير) بين أساتذة الجامعات، وبين الصحفيين، وحدد إقامة بابا الأقباط فى دير الأنبا بشوى ونقل سلطته إلى لجنة معينة بقرار منه.

ولعل السادات أدرك أنه على رغم التصفيق الذى سمعه فى البرلمان فإن الجماهير فى مصر والعالم العربى والخارج لم تكن مقتنعة بما ساقه من مبررات لإجراءاته، فقرر أن يعقد مؤتمراً صحفيا يشرح فيه دواعى ما فعله لممثلى الصحافة المحلية والأجنبية. وعقد المؤتمر يوم ٧ سبتمبر فى بيته فى ميت أبو الكوم التى كان قد ذهب إليها ليستجم بعد هذه الإجراءات الواسعة. وحضر المؤتمر عدد من الصحفيين الأجانب. ومن سوء الحظ أن السؤال الأول فى المؤتمر كان عنى. واستشاط السادات غضبا. ولم تكن بداية سهلة. لكن السؤال الثانى جاء ليحدث انفجارا مدويا. كان السؤال الذى وجهه مندوب محطة (آى. بى. سى) الأمريكية هو: سيادة الرئيس إنك كنت فى الولايات المتحدة قبل أقل من أسبوع، فهل أخطرت الرئيس ريجان بما تنوى عمله؟. وفقد السادات أعصابه وتوجه إلى صاحب السؤال بانفعال قائلا: (إذا لم نكن هنا فى بلد حر لكنت أخرجت مسدسى وضربتك بالنار). وكان المشهد بالغ الغرابة حتى إن صغرى بناته خرجت من المؤتمر والدموع فى عينيها.

وقرر الرئيس السادات أن يتوجه بحديث حميم إلى الأمة على نمط أحاديث روزفلت الشهيرة بجانب المدفأة. وفى يوم ١٥ سبتمبر تحدث فى التليفزيون.. وخصص ساعة كاملة من حديثه لمهاجمة فؤاد سراج الدين ويتحدث عن الباشا الإقطاعى الذى ولد وفى فمه ملعقة من ذهب وعاش حياته غارقا فى الترف. ثم قارن بينه وبين لويس الثامن عشر وأسرة البوربون الذين عادوا بعد الثورة لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا شيئا. ثم تحدث ساعة أخرى فى الهجوم علىَّ موجها إلىَّ خمسة اتهامات، أولها: إننى ملحد،

وأننى اعترفت له بذلك، وأننى فى كتابى عن الثورة الإيرانية قلت (إن التيار الإسلامى هو موجة المستقبل). ولم يكن ذلك صحيحا بشقيه. وكان غريبا أن يلصق بى تهمة الإلحاد والتشيع للجماعات الإسلامية فى نفس الوقت. وكانت التهمة الثانية: أننى صديق الملوك والرؤساء فى العالم العربى وخارجه، وأن هذا يجعل منى مركز قوة. والثالثة: أننى كونت ثروة من عائد كتبى التى هاجمت فيها مصر، والرابعة أننى أعطيت للعالم الخارجى صورة مشوهة عن مصر (مرة أخرى دون دليل). والاتهام الخامس: أننى كنت أرتب مع فؤاد سراج الدين إصدار جريدة تنطق بلسان الوفد. ويبدو لى أن الدليل على ذلك لم يزد على بطاقة فؤاد سراج الدين التى وجدت مرفقة بمذكرة حزب الوفد الجديد عن اتفاقيات كامب ديفيد والتى تمت مصادرتها أثناء تفتيش مكتبى. وقال الرئيس السادات: إننى كنت أتردد على بيت فؤاد سراج الدين، فى حين أننى لم ألتق بالرجل فى السنوات الأخيرة غير مرات عارضة، كان معظمها خلال جنازات.

ثم ركز الرئيس السادات هجومه على الشيخ المحلاوى، وأعاد إلى الأذهان أن الشيخ المحلاوى كان قد هاجم أسلوب حياة الرئيس السادات المترف. كما هاجم السيدة جيهان. وقال الرئيس السادات: والآن فإن هذا الرجل ملقى فى السجن كالكلب. وبعد حديث طويل تشعب قرابة أربع ساعات شرح فيها معنى ما أسماه (ثورة ٥ سبتمبر).

□□□

فى يوم ٢٣ سبتمبر عقد الرئيس السادات اجتماعا مع أعضاء المجلس الأعلى للصحافة لكى يخطرهم بما ينوى عمله مع الصحفيين الذين اعتقلهم ضمن حملة ٣ سبتمبر. وتحدث فى هذا الاجتماع عن هؤلاء الذين ظنوا أن فى استطاعتهم احتذاء نموذج الصحافة الأمريكية التى تمكنت من إخراج رئيس أمريكى من البيت الأبيض. واستقبل الرئيس السادات مبعوثا خاصا للرئيس الفرنسى ميتران لتسوية مشادة

نشبت بين الرئيسين بسبب موضوع الاعتقالات. وكان الرئيس ميتران قد أصدر بيانا عقب اجتماعه بالمكتب السياسى لحزبه الاشتراكى فى فرنسا، وكان البيان بوصفه رئيسا للحزب وليس رئيسا للدولة. والبيان يشجب الاعتقالات ويصفها بأنها إجراء غير ديمقراطى. وتضايق الرئيس السادات من هذا البيان واعتبره تدخلا فى شئون مصر الداخلية. وبعث ميتران مبعوثه الشخصى ليشرح للرئيس السادات أن ميتران كان يتصرف بوصفه رئيسا للحزب الاشتراكى وليس رئيسا للدولة الفرنسية.

فى نفس اليوم أجرى الرئيس السادات مقابلة ثانية مع محطة (إن. بى. سى) وسأله المذيع: إذا كان صحيحا أن كل من فى مصر يؤيدون سياستك فلماذا اعتقلت معارضيك السياسيين جنبا إلى جنب مع المتطرفين المسلمين؟ ورد الرئيس السادات: ليس صحيحا أننى قمت بانقضاض على خصومى السياسيين. لقد كان الأمر كله مشكلة الفتنة الطائفية. وهؤلاء السياسيون الذين اعتقلتهم انحازوا إلى العناصر المتطرفة، أو أنهم كانوا سينحازون إليهم بعد اعتقالى لهم. كانوا سوف يستغلون اعتقال المتطرفين الدينيين لكى يثيروا المتاعب.

□□□

واحتفل هيكل بعيد ميلاده السادس والخمسين يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٨١ وهو فى زنزانته فى السجن. واحتفل معه الصحفيون فى الزنازين الأخرى بإطلاق صيحات التهنئة بأعلى صوت لكى تصل إليه على نحو ما وصف صلاح عيسى.

وكان هيكل وقتها يشكو من آلام فى الكلى ويتناول أدوية خاصة، وظهر بعد سنوات وجود بؤرة سرطانية فى الكلى ورأى الأطباء فى مصر أن استئصال الكلية هو الحل المضمون حتى لا ينتشر السرطان، بينما رأى البعض أن فى الولايات المتحدة من يستطيع إجراء جراحة دقيقة لاستئصال هذه البؤرة مع ضمان عدم إفلات أية خلايا سرطانية يمكن أن تنتشر، وذهب هيكل إلى مستشفى كليفلاند وأجريت له الجراحة فعلا.. وكان فى زنزانة مجاورة له المهندس عبد العظيم أبو العطا وزير الرى السابق

وقتها، وكان مريضا بسرطان الكلى وتفاجئه الآلام فيصرخ، ويثير صراخه أعصاب المسجونين، إلى أن مات عبد العظيم أبو العطا فى السجن بين زملائه فى الزنزانة.

□□□

بعد ذلك بسنوات قال كثيرون ممن كانوا أقرب الناس إلى السادات إنه أخطأ فى قرارات ٥ سبتمبر.

الدكتور صوفى أبو طالب الذى كان رئيسا لمجلس الشعب فى سبتمبر ١٩٨١ وتولى عمل رئيس الجمهورية ثمانية أيام عقب اغتيال الرئيس السادات عندما سئل: هل كنت مؤيدا لكل قرارات السادات ولسياساته أجاب: أنا أؤيد السادات فى معظم قراراته، وإن كانت لى تحفظات على قرارات معينة، مثل اعتقالات سبتمبر. وكان هذا الحديث فى مجلة الأهرام العربى مع أشرف صادق.

والسيدة جيهان السادات أجرت حديثا مع بلال فضل فى مجلة المصور فى سنة ١٩٩٩ سئلت: اعتقالات سبتمبر التى وضع فيها آلاف المثقفين والمفكرين من مختلف الاتجاهات والأعمار فى السجون.. ألم تكن خطأ؟ وأجابت: دى نختلف فيها كثيرا. وأنا لا أريد أن أدافع عن أنور السادات. ولكن أقول إن أنور السادات كان ضد الاعتقالات بدليل أنه هدم سجن طرة عندما أصبح رئيسا. لأنه اتسجن وقاسى من السجن ولم يرد لغيره أن يقاسى ما رآه. «لكن فى الاعتقالات الأخيرة تفتكر أنور السادات كان عارف أسماء الناس دول شخصيا وشافهم.؟ مش دى ليسته- قائمة- تأتيه من وزير الداخلية المطلع على الناس دى وعارف خطورتها عندما قام بتقديم هذا الكشف من الأسماء..»؟

وقالت السيدة جيهان السادات أيضا :

- اتهام أنور السادات هنا شخصيا ظلم له.. صحيح هو المسئول الأول بلا شك، ولكن وزير الداخلية الذى قدم له البيان قال له: «إن الناس دى خطرة وعاملة لنا دوشة واحنا عايزين نستلم سيناء ومش عاوزين نعمل شوشرة».

وسئلت: إن وزير الداخلية- النبوى إسماعيل- قال فى تصريحات له إنه نصح الرئيس السادات بتأجيل هذه الاعتقالات، فقالت: هذا كذب. قدام عينى، وأنا شاهدة، جاء إلينا ساعتها وكنا فى القناطر ومعه كشف بأسماء المعتقلين، وكونه يتنصل من مسئوليته فهذا كذب. ثم الكتاب اللى طلعه كان فيه افتراءات كثيرة جدا لا أساس لها من الصحة واستغربت عندما علمت ذلك.

وسئلت السيدة .جيهان السادات: ماذا عن كتابات الأستاذ محمد حسنين هيكل عندما كان قريبا من الرئيس السادات؟ فقالت: هيكل كان أنور السادات يختلف معه كثيرا، وأنا كنت «باجيب» هيكل وأقربهم من بعض، لأنه أنا مؤمنة بأن هيكل كاتب كبير، وكان يهمنى أن يكون على صلة بأنور السادات.. «ده جوزى وبأحبه وبأحب إن الناس كلها تبقى حواليه وقريبة منه خصوصا لما يكون كاتب كبير زى هيكل.»

وسئلت: بعد خلاف الرئيس السادات مع هيكل، هل ظل يذكر لهيكل أنه سانده فى تثبيت دعائم حكمه فيما عرف بثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ أم أنسته الخلافات ذلك؟ فقالت: وقف جنبه إزاى؟ أنور السادات هو اللى قام بـ ١٥ مايو وحده وضد كل هؤلاء. هيكل مالوش دور فى ١٥ مايو. دوره أنى أنا فى مرة حكى لى وحلفنى ألا أقول إن الجماعة دول بيتآمروا على السادات، وأنه راح التليفزيون ولقاهم حاطين ناس بتوعهم بحيث إن أنور السادات لو راح يكلم الشعب من التليفزيون مش حيدخلوه. وأنا لما حلفنى لم أتكلم على أساس أنه كان يثق فىّ ولذلك سكت. لما الحكاية كبرت وجاء ضابط بوليس إلى هنا بشريط وقال أنا واقف هنا لغاية ماتدوا الشريط ده للرئيس، وأعطى الشريط لسكرتير السادات فوزى عبد الحافظ، والضابط ما زال موجودا واسمه طه زكى، وفوزى موجود. جابوا الشريط. قعدت اسمعه مع الريس وفوزى عبد الحافظ واقف، فلقيت أحدهم بيقول للآخر (طيب ولو راح التليفزيون) فيرد عليه: (لا.. احنا عاملين حسابنا) فقلت له: (آه.. هيكل قال لى الكلمة دى). أنور قال لى: إيه.. وما قلتليش ليه.. قلت له يعنى هو حلفنى ما أقولش وفى نفس الوقت كنت شايفاك

مسيطر على الوضع ومالقيناش حاجة مهمة. بيتنا وقتها كان مراقبا من مجموعة سامى شرف وشعراوى جمعة والمجموعة دى. بعتنا بنتنا نهى عند هيكل وكان قريبا منا عشان تنده له عشان الريس يسأله إزاى تبقى عارف إن التليفزيون محاصر وما تقوليش.. إذن أين هذه المساعدة.. وأين هذا الدور؟

□□□

ووجد هيكل نفسه وهو فى السجن أمام المدعى الاشتراكى للمرة الثانية. وكان المستشار ناجى إسحاق هو المختص بالتحقيق معه ومع فؤاد سراج الدين. يقول هيكل: أثناء التحقيق كان المستشار ناجى إسحاق يمسك بورقة تتضمن تقرير إدارة المباحث العامة عن نشاطى الذى استوجب اعتقالى والتحقيق معى، وسألته: هل أستطيع أن أطلع على هذا التقرير؟ وكان غيرى ممن سبقونى إلى التحقيق أمامه أو أمام غيره من المستشارين قد سمح لهم بالاطلاع على تقارير المباحث أو المخابرات التى تصف نشاطهم المعادى. وقال المستشار ناجى إسحاق إنه لا يمانع وقال لى: لا يوجد أمامى شىء يخصك فى تقارير المخابرات، وإنما هناك هذا التقرير من المباحث، وناوله لى. وألقيت نظرة على الصفحة الأولى منه. كلها تهم لا أدفعها، بل على العكس أعترف بها. كتبت كذا فى جريدة كذا يوم كذا أعارض كامب ديفيد. وكتبت كذا فى جريدة كذا يوم كذا أعارض التطبيع. وكتبت كذا فى جريدة كذا يوم كذا انتقد سياسات الرئيس السادات.. الداخلية (أولها منهج تنفيذ سياسة الانفتاح) والعربية (العزلة عن بقية الأمة العربية) والخارجية (الانحياز المطلق للولايات المتحدة)، وكانت تلك آرائى أقولها وأرددها وألح فى كتابتها وأتحمل مسئوليتها بالطبع دون تردد أو خشية. ثم هو كلامى عليه اسمى وفيه أسلوبى ويعبر عن قناعتى.

ثم انتقلت إلى الصفحة الثانية. كان فيها بند واحد، ووراء هذا البند قصة.. فقد كان الرئيس السادات يكره «أشد ما يكره» صحفيا بريطانيا هو دافيد هيرست مراسل جريدة الجارديان البريطانية فى مصر. وكان دافيد هيرست قد كتب مجموعة مقالات

عن أوضاع مصر الداخلية ضايقت الرئيس السادات وأوغرت صدره. ولسبب لا أعرفه كان الرئيس يظن أننى أعطيت دافيد هيرست ما كتبه فى مقالاته من معلومات. وهاجمنى فى إحدى المرات علنا بسبب هذا الظن. وكتبت مقالا ضمن ما كنت أكتب أيامها تطرقت فيه إلى هذه القصة وقلت إننى لم أقابل دافيد هيرست فى حياتى إلا مرة واحدة، كانت بعد مقالاته عن الرئيس السادات وليس قبلها. وهذا أمر يمكن التحقق منه بتقارير أجهزة الأمن التى أعلم أنها كانت تتابع كل حركة لى وكل سكنة. وفى أثناء التحقيق، وأنا ألقى نظرة على الورقة الثانية كان ما قرأته مذهلا. كان المكتوب بالنص: (إن الأستاذ هيكل على صلة بدافيد هيرست المعروف بعدائه لمصر عن طريق صديق مقرب منه وهو الأستاذ محمد سيد أحمد). ثم بعدها: (إن المعلومات الواردة فى هذا البند مصدرها الأستاذ مصطفى أمين). وفتحت فمى من الدهشة وأردت أن أسجل بشهادة الشهود ما قرأت. كان يحضر معى فى التحقيق رسميا محامى الأستاذ المستشار ممتاز نصار. وكان يحضر أيضا زميلى الأستاذ صلاح جلال نقيب الصحفيين. وناولت التقرير للمستشار ممتاز نصار ورجوته أن يقرأ هذه الفقرة. ثم ناولته للأستاذ صلاح جلال وقلت له: وأنت كنقيب للصحفيين أرجوك أن تطلع على هذه الفقرة وتتذكرها. وقال المستشار ناجى إسحاق: وهل نحن سألناك فى هذا أو اعتبرناها تهمة؟ وإذن فما هى قيمتها؟. ولم يكن قد سألنى فيها، ولم يكن ما يعنينى فيها كونها تهمة توجه أو لا توجه لى، وإنما كان يعنينى فيها شىء آخر.

□□□

قضى هيكل فى السجن تسعين يوما يقول عنها: أخشى أن أكون قد فقدت خلالها وبعدها عادة الحوار مع الناس المتحضرين، وفقدت عادة القراءة. ويقول: ونحن فى السجن طلب إلينا أن نتوجه بالرجاء إلى الرئيس السادات ولم يقبل أحد منا ذلك. وكان رأيى أن رأى أى واحد فينا وهو داخل القضبان هو رأى مشبوه وقد يبدو دليلا على الضعف، أو دليلا على الإكراه، ولم يكن هناك إكراه لكى نصدر بيانا بالتأييد.

وفى حوار مع صلاح عيسى فى (الأهالى) يوم ٢٧ أبريل ٨٣ سئل هيكل: يقولون إنك أنكرت الرجل (الرئيس السادات) الذى عاملك معاملة كريمة حين كنت مسجونا، فكنت تعيش فى السجن وكأنك فى بيتك.. تشرب مياها معدنية وتأكل من منزلك، فهل حدث ذلك حقا؟

وأجاب هيكل: أنت وغيرك شهود على الكيفية التى كنا نعامل بها فى السجن قبل اغتيال السادات.. أنت تعرف أننا نمنا على البلاط، وأجبرنا على أن نأكل طعام السجون الردىء: العسل الأسود والجبنة الفاسدة، والفول المسوس، وحرمنا من الاتصال بأسرنا أو بالمحامين. وظلت أبواب الزنازين مغلقة علينا طوال النهار والليل، ولم يزرنا أحد أو يصل طعام من بيوتنا قبل يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٨١ بعد وفاة السادات بأسبوعين. فإذا كنا قد عوملنا معاملة قانونية- نحن الذين اعتقلنا بعملية غير قانونية- فقد حدث ذلك فى عهد بعد عهد السادات. وكنت أقول للشباب أنتم شباب يمكن أن تحتملوا، وقد احتمل ذلك أيضا شيوخ أجلاء كالمرحومين عبد العزيز الشوربجى (نقيب المحامين) وعبد الفتاح حسن (الوزير الأسبق والمحامى) واحتملها أيضا فؤاد سراج الدين. أما المياه المعدنية فلم تكن ترفا، بل كانت دواء وصرفت لى بموجب روشتة طبية من لجنة كبيرة فحصتنى واكتشفت أننى مريض بحصوتين واحدة فى الكلى وأخرى فى المرارة، والروشتة موجودة إلى الآن فى سجلات مصلحة السجون.

وسئل: أنت لم تتحدث عن مجريات التحقيق الذى أجراه معك المدعى الاشتراكى أثناء السجن، وقد أذعت فى أحد فصول كتابك (خريف الغضب) سر التسجيل الذى أجرى فى مكتبك لحديث دار بينك وبين الدكتور محمود فوزى نائب رئيس الجمهورية الأسبق عن سياسة السادات. فما الذى حقق فيه معك المدعى الاشتراكى وهل كانت هناك تسجيلات أخرى؟

وأجاب: تحقيق المدعى الاشتراكى الثانى معى لم يختلف عن تحقيقه الأول، وقد دار كله حول مقالات نشرتها وتصريحات أدليت بها. أما التسجيلات فقد كان بكل مكان فى هذا المكتب جهاز تسجيل. والحديث الذى سجل للمرحوم الدكتور محمود

فوزى جرى فى هذه الغرفة، وقد أتيح لى فيما بعد أن أقرأ تفريغا له ويا ليت الذين يهاجمون ينشرون نصه ليعلم الناس رأى الدكتور محمود فوزى. ولم يقدم لى أحد ما يثبت أن التسجيلات تمت بإذن النيابة، ولا أظن أن التسجيلات التى أجريت لى فى زنزانتى كانت بإذن من النيابة وأنت تعلم أن كل ما كنا نقوله فى السجن كان يسجل، وأن تقريرا يوميا عن معنوياتنا وتصرفاتنا كان يرفع إلى الرئيس السادات.

□□□

ونحن فى السجن وقع حادث اغتيال الرئيس السادات. لم تكن هناك وسيلة ليعرف المسجونون ما حدث فى الخارج، وهكذا ظل هيكل أياما لا يعلم بالحادث، لكنه شعر أن شيئا ما حدث من الجو الغريب الذى كان يسود السجن. وبعد أيام علم من بقية المسجونين أن السادات مات فى حادث اغتيال.

يقول هيكل فى حواره مع (المصور) يوم ٤ ديسمبر ١٩٨١ وقد أجراه بعد ٩٦ ساعة من خروجه من السجن: عندما علمت باغتيال الرئيس السادات سالت الدموع من عينى، وشاهدى على ذلك مأمور سجن طرة العقيد محمود الغنام، وضابط المباحث العقيد صلاح شلبى، لقد أبلغانى نبأ اغتيال السادات بقصد معرفة رد الفعل. قلت لهما: كيف تم ذلك؟ قالا: فى العرض العسكرى. وفى هذه اللحظة لم أستطع أن أذكر إلا أنه كان صديقا.. لقد كان صديقا منذ فترة طويلة.. وعشت معه عشرين عاما كأصدقاء.. وابنى حسن أصغر أبنائى كان يتردد على بيته كواحد من الأسرة، وأنا أعرف كيف كان ضعف السادات تجاهه.. كنا نتبادل الزيارات.. وأولاده كلهم يقولون لى: يا عمى. ونهى ابنته- زوجة حسن ابن المهندس سيد مرعى- أنا الذى قمت بخطبتها عندما طلب منى سيد مرعى ذلك. قلت لحرم الرئيس إن سيد مرعى يريد نهى لابنه، فقالت لى: كلم الرئيس.. وعلى رغم كل الخلافات التى كانت بيننا فإن (نهى) عندما رأتنى فى الصيف الماضى أخذت تقبلنى أمام الناس، لأننى اعتبرها ابنتى.

□□□

الغريب أن هيكل قال بعد ذلك يوم ٢٦ أبريل ١٩٨٥ فى حوار مع سعيد حبيب فى صحيفة العرب التى تصدر فى لندن: إنه عرف بعد خروجه من السجن أن الرئيس السادات كان قد أمر بإعداد سجن جبل الطور الشهير فى سيناء لينقل إليه ١٨ سجينا كان هيكل واحدا منهم! وقال: إنه كان مقررا أن نبقى فى هذا السجن خمس سنوات أو أكثر.

وفى صحيفة الاتحاد التى تصدر فى الإمارات قال فى حديثه مع لبيب السباعى إنه لم يشعر بالخوف من السجن ولكنه شعر بالدهشة، وقال: لقد تعرضت لما هو أسوأ من السجن. تعرضت للتشهير وأوله تهمة الإساءة إلى سمعة مصر فى الخارج وهو شىء لم يحدث بالطبع، وبالقطع.. وحينما منعنى الرئيس السادات من السفر وحولنى للتحقيق أمام المدعى الاشتراكى لم أتردد فور انتهاء التحقيق فى أن أنشر وقائع التحقيق معى فى كتاب، وأظنها المرة الأولى التى يتولى فيها المتهم بنفسه نشر صحيفة الاتهام ضده ومحاضر التحقيق معه بنصوصها. وقد توقعت السجن وأعددت نفسى له من سنة ١٩٧٤ ولم أفاجأ به إلا فى سبتمبر ١٩٨١، ومفاجأتى كانت فى حجم الاعتقالات واتساع نطاقها بحيث شملت كل القوى والاتجاهات، وحين صدرت إحدى الصحف- بعد حادث المنصة- بعنوان كبير يقول (ثورة سبتمبر مستمرة) كان تقديرى أن مثل ذلك هراء، وبعد أن خرجت من السجن قررت عدم العودة إلى مجال السياسة أو الصحافة فى مصر.. وإلا فكيف أبتعد بنفسى عن التعامل مع أشخاص ورموز وأوضاع لا أريد أن أقترب منها ولا أريد لها أن تقترب منى.. والذى لا يفهمه البعض أن الرئيس السادات لم يضرنى شخصيا بشىء، فالرجل أتاح لى فرصة العمل معه إلى ما بعد حرب أكتوبر. وبعد حرب أكتوبر كنت أنا الذى اختلفت معه ونشرت علنا أسباب خلافى.. والرجل حتى بعد هذا الخلاف سعى إلى وصل ود قديم مفروض على من المناصب والمواقع ما عرض، وكنت أنا الذى اعتذرت. والرجل- أمانة أمام الله- صبر على بأكثر مما كان يمكن أن يصبر حاكم شرقى على واحد من مواطنيه، وعلى أية حال فقد ظللت سنوات أقول رأيى خارج مصر ولم يفعل هو إلا أن شن على حملة داخل

مصر وكان فى مقدوره أن يفعل أكثر خصوصا وأنا باق فى مصر تحت سلطته وخاضع لقوانين دولته وهو سيد هذه القوانين. والرجل أخيرا اعتقلنى مع مئات غيرى فيهم كثيرون خير منى.. إذن ليس ما بينى وبينه خلافا شخصيا، إنما بين سياسته وبين ما أومن به.

□□□

يقول هيكل: إننى اختلفت مع الرئيس السادات سياسيا، ولكنى حاولت بكل جهدى أن أعزل ما هو سياسى عما هو إنسانى، وظلت عاطفتى تجاه أسرته بمنأى عن أى خلاف. ظلت هناك مزايا كثيرة فى قرينته- بينها الذكاء اللامع- أقدرها بدون تحفظ، وظل بينى وبين بناته الثلاث وابنه الوحيد منها- وهم كل من عرفت عن قرب من أسرته- ود لم أنكره فى يوم من الأيام.

وبعد أن أفرج عنى من السجن ضمن من أفرج عنهم فى الدفعة الأولى من المحتجزين لقيت السيدة الكريمة أرملة الرئيس الراحل أنور السادات معزيا ومواسيا. وطلبت منى فى نهاية لقاء طال أكثر من ساعتين- طلبا واحدا ما زالت فى أذنى نبرته الرقيقة والواعية:

- محمد.. إنك لن تهاجم «أنور»؟

وقلت لها:

- إننى لن أهاجمه على الإطلاق، إننى اختلفت مع سياسات ولم أختلف مع شخص، ولك أن تثقى أننى لن أقول عن هذه السياسات فى غياب صاحبها غير ما كنت أقوله عنها فى حضوره.

وأعترف أننى لم أشعر بكراهية فى أى وقت ضد أنور السادات حتى عندما وضعنى فى السجن وفى ظروف تفوق فى سوئها ما يمكن أن يحتمله البشر، وأستشهد فى ذلك بالأستاذ فؤاد سراج الدين، والأستاذ فتحى رضوان والأستاذ عبد الفتاح حسن، وغيرهم دخلوا السجن مرات ومرات قبلها وجميعهم كانوا يرون هذه المرة بكل

المرات السابقة جميعا. ولم أشعر بكراهية نحو أنور السادات، ولم أخجل من أن أعترف أن الدموع كانت فى عينى عندما سمعت نبأ وفاته، وكان ذلك رد فعل إنسانيا وطبيعيا رآه- وربما استغرب له- مأمور السجن ومندوب المباحث إلى جانب رفاق الزنزانة.

فلقد كنت مختلفا مع الرئيس الراحل أنور السادات. وبلغ خلافى معه درجة القطيعة الكاملة، ومع ذلك قلت مرة- وما زلت أقول إلى الآن- إننى فى دهشة من تناوله لى فى كل خطاب تقريبا مع أنه كان يعلم أننى لا أملك حق الرد، وأعيش حياتى كلها فى مصر تحت سلطانه المطلق وغير المحدود. بعد ثلاث سنوات كان بيننا حوار متصل. اختلفنا واتفقنا. لكن القرار كان دائما قراره بالطبع. ولم أتوقف عن الحوار على رغم أنه غضب أحيانا، ولكنى لم أفزع، وإنما قلت له بمودة: إننى معك كما كنت مع جمال عبدالناصر، لا أخاف منك لأنى أحبك، والذى يحب لا يخاف، والذى يخاف لا يحب.

ولقد شهد الرئيس جعفر نميرى فى كتابه عن السادات أن الرئيس الراحل أنور السادات قال له: إننى كنت الوحيد الذى وقف معه فى ١٥ مايو ١٩٧١.

وماذا قلت فى حديث صنداى تايمس:

وأعتقد أن الرئيس السادات جلس معى أطول جلسة قضاها مع أى إنسان فى حياته كلها. كان ذلك يوم ٢٢ فبراير ١٩٧٥. وكانت علاقاتنا قد تحسنت بعد اعتذارى عن قبول منصب المستشار السياسى وما أعقب ذلك من قطيعة دامت ستة أشهر تقريبا. وبادر هو ودعانى إلى مقابلته فى استراحته بالقناطر ثم تكررت لقاءاتنا حتى كان ذلك اللقاء يوم ٢٢ فبراير ١٩٧٥. ذهبت إليه ومعى الصحفى الأمريكى ذائع الصيت (سيروس سالزبرجر) وقضينا معه ساعة، ثم تهيأنا للانصراف، وكان سالزبرجر ضيف غداء عندى اليوم. واستوقفنى الرئيس الراحل وسألنى: إلى أين أنت ذاهب؟ قلت: معه، فهو ضيف غداء عندى اليوم. ورد الرئيس: سوف أرتب له من يدعوه بدلا عنك على الغداء لأنى أريدك معى هنا لحديث مهم. ولم ينتظر الرئيس، بل استدعى

الدكتور أشرف مروان مدير مكتبه للمعلومات وقتئذ وطلب إليه أن يأخذ سالزبرجر إلى الغداء فى أى مكان. وصعدت مع الرئيس إلى الطابق الثانى من استراحة القناطر، وجلسنا نحن الاثنين فى غرفة نومه. كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا. انتهى لقاؤنا فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء. أى إن حوارنا استمر إحدى عشرة ساعة ونصف الساعة. ويمكن سؤال أشرف مروان الذى عاد بعد غدائه الإجبارى مع سالزبرجر ليعرض على الرئيس أوراقا فإذا هو ينتظر إلى منتصف الليل. ويمكن سؤال المهندس سيد مرعى فقد رجته أسرتى بعد نزول الظلام أن يتأكد من وجودى فى استراحة القناطر مع الرئيس لأن طريق القناطر فى الليل خطر لزحمة المرور عليه، وسأل سيد مرعى ثم كرر السؤال وعاد إليه حتى قرب منتصف الليل. إحدى عشرة ساعة ونصف الساعة فى حوار مستمر. ولا يطول إلى هذا الحد غير حوار حقيقى حافل ومتدفق. لن أقول ما جرى فيه. فقد كنا وحدنا شهوده، والمهم فى هذا كله أنه ليس عندى ما يدعونى إلى كراهية الرجل. لعلى أعتقد أننى مدين له. فإن خروجى من الأهرام منحنى الفرصة لكى أثبت لنفسى وللآخرين أن الصحيفة العربية قد تصبح مملوكة للسلطة، ولكن الصحفى العربى ليس محكوما عليه بالضرورة أن يكون مملوكا للسلطة إذا كان لديه ما يقوله، وإذا كان لما يقوله قيمة، إذن فالعالم الواسع مفتوح له.

لقد خرجت من الأهرام، ولكننى استطعت أن آخذ مكانا أعتز به على صفحات التيمس، والصنداى تيمس، والنيويورك تيمس، والواشنطن بوست، وهذه هى الصحف الكبرى فى الغرب حيث السياسات هناك أقرب إلى خط الرئيس الراحل أنور السادات، وأبعد ما تكون عن خطى أنا.

وفى حديثى مع صنداى تيمس وصفت الإرهاب باسم الدين بأنه وحش- وقلت إنى لا أرى فى طول المحاكمة ضررا، وأن محاكمات الاغتيال السياسى قضايا لا تغلق ملفاتها بمجرد انتهاء جلساتها. وقلت: حيثما تذهب فى مصر تجد الناس يتحدثون عن الإسلامبولى رئيس جماعة الاغتيال باعتباره بطلا شعبيا.. قلت ذلك وأظن أن

الإسلامبولى وجماعته كانوا فى الشهور الأخيرة حديث كل الناس. وأظن أن المحاكمة- بما حدث من وقائعها فعلا- لم تكن محاكمة للمتهمين وحدهم..

وقال هيكل أخيرا: إن لصا يمكن أن يكتسب نوعا من البطولة الشعبية بسبب جسارته.. (بيجز) الذى خطط ونفذ عملية شبه عسكرية لسرقة خمسة ملايين جنيه إسترلينى من قطار سكة حديد وهرب أصبح بطلا عند الإنجليز، و(الخط) الذى اشتهر كمجرم جسور فى صعيد مصر- أصبح شخصية شعبية تظهر حول مغامراتها أفلام سينمائية، وأكثر من ذلك (جى. آر) الرجل الذى لا يتورع عن عمل ولا يتوقف أمام عائق فى مسلسل التليفزيون المشهور (دالاس) كانت طبقة بعينها فى مصر تتابعه بالإعجاب، وحين ضرب بالرصاص- على الشاشة فقط - ظل أفراد هذه الطبقة يتساءلون من الذى قتل (جى. آر) بطلهم الأثير، مع أنه كان نموذجا مخيفا للشر. لكنه كان جسورا لا يتردد وكانت جسارته مصدر (شعبيته) خصوصا لدى الطبقات المدللة بالميراث أو بالانفتاح.

□□□

ظل هيكل ٩٠ يوما فى السجن امتلأت فيها نفسه بالغضب على الرئيس السادات، وقرر التعبير عن هذا الشعور فى كتابه (خريف الغضب) الذى أثار عليه الزوابع من جديد.

وبعد الأيام التسعين خرج هيكل من السجن بسيارة الشرطة ليجد نفسه فى قصر رئاسة الجمهورية ليستقبله الرئيس الجديد.. وكان ذلك مشهدا تاريخيا بحق.

من السجن إلى العالمية

بعد تسعين يوما قضاها هيكل فى السجن حدث ما لم يكن فى الحسبان، وكما تم القبض عليه فجأة تم الإفراج عنه فجأة.

كان الرئيس حسنى مبارك قد تولى السلطة، وبعد أيام من بدء ولايته، وبالتحديد فى يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ أصدر قراراً بالإفراج عن ٣١ شخصية سياسية من المسجونين طبقاً لقرارات سبتمبر على أن تتم تصفية مواقف الباقين وفقاً لما تسفر عنه التحقيقات معهم.

وكان من بين من شملهم قرار الإفراج: محمد حسنين هيكل، وفؤاد سراج الدين (باشا)، ود. حلمى مراد، وإبراهيم طلعت، وحامد الأزهرى، ومحمد فهيم أمين، وفتحى رضوان، والشيخ مصطفى عاصى، وأحمد فرغلى، وسامح عاشور، ود. ميلاد حنا، وإبراهيم يونس، وحامد زيدان، وعبد العزيز الشوربجى، وصافيناز كاظم، ومحمد عيد، وجمال عبد الملاك، وقبارى عبدالله، وفريد عبد الكريم، ود. نوال السعداوى، وعبدالفتاح حسن (باشا)، ومحمد فائق.. وكلهم شخصيات سياسية معروفة ولهم تاريخ فى الحياة السياسية المصرية.

واستند قرار رفع التحفظ إلى أنه يأتى فى إطار توحيد الصف، وتعبئة وحشد الجهد القومى وراء القيادة الجديدة، ولفتح صفحة جديدة فى التعامل السياسى مع

العناصر المتحفظ عليها، مع الإبقاء على القضايا والتحقيقات بما توافر فيها من دلائل دون حفظها.

وكان هذا القرار مفاجأة أحدثت دوياً كبيراً داخل مصر وخارجها. ولم يكن القرار وحده هو المفاجأة، ولكن كان لقاء رئيس الجمهورية بهؤلاء المسجونين قبل ذهابهم إلى بيوتهم هو المفاجأة الكبرى.. وكان لقاء الرئيس بهم ودياً ولم يتضمن كلمة عتاب واحدة.. وكانت هذه مفاجأة أخرى.

فى هذا اليوم كان هيكل فى مستشفى قصر العينى تحت الحراسة يعالج من مرض فى الكلى، وكان فؤاد سراج الدين وعبدالعزيز الشوربجى نقيب المحامين الشهير أيضاً فى قصر العينى للعلاج، وتوفى الأستاذ عبدالعزيز الشوربجى بعد ذلك بفترة قصيرة وسار فى جنازته مندوب عن رئيس الجمهورية.

نزل هيكل من المستشفى فى حراسة الشرطة دون أن يعرف إلى أين سيذهبونبه، ركب سيارة الشرطة دون أن يسأل، لأنه يعلم أنه لن يتلقى جواباً، وانطلقت به السيارة ليجد نفسه داخل القصر الجمهورى، ثم يلتقى بزملاء السجن، ويتجهون جميعاً إلى الصالون الرئيسى حيث وقف الرئيس مبارك يستقبلهم ويصافحهم واحداً واحداً.

يقول هيكل: إن ما فعله حسنى مبارك معنا لم يحدث من قبل، وبعد المقابلة مع الرئيس مبارك سألت واحداً من الياوران فى الرئاسة: وبعدين.. حنعمل إيه بعد كده؟ فقال لى: خلاص.. روح بيتك! قلت: طيب.. أروح إزاى؟ لأننا جئنا بسيارات البوليس. فتحى رضوان قال: سأذهب إلى بيتى سيراً على الإقدام. وطلبنا أن نذهب إلى قصر العينى بسيارة البوليس أولاً لنأخذ متعلقاتنا قبل أن نعود إلى بيوتنا. لكن فؤاد سراج الدين قال: إنه ليس متعجلاً الخروج، وسيذهب إلى قصر العينى ويتناول غداء المستشفى وينام ثم يعود إلى بيته فى الساعة الخامسة بعد الظهر. عبد الفتاح حسن وجد سيارة البوليس (البوكس) قد تعطلت فراح يبحث عن تاكسى.. كان المنظر

مضحكا.. أن نذهب إلى القصر الجمهورى ثم نطلب العودة بسيارات البوليس.. أين يحدث هذا لو قارنت بين ظروف القبض علينا وظروف الإفراج؟

□□□

يقول هيكل: فى السجن لم نكن نشاهد التليفزيون ولانسمع الراديو ولا نقرأ الجرائد. وفى اليوم الذى عرفت فيه أن الرئيس السادات حدث له ما حدث سألنا إذا كان من الممكن أن نسمع راديو وقلنا إن الأمر يتعلق ببلدنا.. ولكن لم يُسمح لنا بذلك. وذهبت إلى ضابط السجن، وكان رجلاً ظريفاً، وقلت له: أنت شاهدت التليفزيون؟ قال: نعم. قلت له: جاوبنى على سؤال واحد: الرئيس حسنى مبارك لابس إيه فى الجنازة؟ ودهش الرجل من سؤالى وقال: لابس بدلة كحلى وكرافتة سودة. وذهبت إلى زملائى فى السجن وقلت لهم: أنا متفائل لأن الرئيس ظهر ببدلة.. إذن نحن أمام رجل لا يريد أن يتظاهر بشىء.. أنا كنت خايف يلبس التشريفة العسكرية المشهورة!

وبعد لقاء الرئيس مبارك معنا فى القصر الجمهورى سألنى مراسل الجارديان البريطانية: ألا ترى أن ذهابكم إلى القصر الجمهورى بهذا الشكل فيه عنصر مسرحى؟ وأجبته: لا أتصور ذلك لسبب واحد إنه يدل على ذكاء سياسى فوق صدق النوايا، لأن الرئيس السادات حاول إبعادنا بالقوة، لكن الرئيس مبارك نزع سلاحنا باللطف والحوار وإقدامه على فتح صفحة جديدة، هل تعرف ماذا يعنى هذا اللقاء فى القصر الجمهورى بالنسبة لى، إن فيه شجاعة أدبية، وفيه أيضاً ذكاء سياسى.

□□□

خرج هيكل إلى بيته فى الجيزة، لكنه بعد قليل اكتشف أن البيت لا يصلح لاستقبال عشرات الصحفيين وممثلى وكالات الأنباء وشبكات التليفزيون الذين توافدوا عليه دون استئذان، فانتقل من بيته إلى فندق الميريديان، وقالت الصحف العالمية إن الجناح رقم (٨٢٧) فى الفندق الذى يسكنه هيكل تحول إلى مزار إعلامى.

كان بيته يجرى دهانه، ويبدو أن زوجته أرادت الاحتفال بعودته إلى البيت فرأت أن تستأنف تجديد البيت، وكان العمل قد بدأ عقب عودته من باريس وتوقف عندما تم القبض عليه، وذهبت زوجته للإقامة فى بيت ابنه على، فلما أفرج عنه قالت إن بيت على لايسع كل هؤلاء الزوار والصحفيين واقترحت الإقامة فى فندق إلى أن ينتهى إعداد البيت.

خرج هيكل من السجن ليقرأ ما كتب عنه فى الصحف المصرية والعالمية، ولم يستطع أن يتحكم فى مشاعر الألم مما كتبه بعض أصدقائه، وزملائه وتلاميذه عنه بعد القبض عليه. وظلت هذه المشاعر تصاحبه سنوات حتى إنه قال فى حواره مع مفيد فوزى فى صباح الخير ١٤ يناير ١٩٨٢: للأسف.. أنا مجروح من المهنة.. صحافة العالم كله وقفت معى، وأنا أعتقد أنى أديت دورى المهنى، وأديت دورى لزملائى. ورصيدى - بدون تشويه - يثبت قدر وحجم العطاء المهنى، وأنا قابل للحساب عن كل ما كتبت وكل موقف اتخذته، وعندما أنظر إلى الوراء لا أشعر بما يثقل ضميرى.. لقد كتبوا عنى الكثير. فهل قرأت لى ردا؟ أنا لم ولن أرد، ولن أدخل فى حوار مع أحد. أنا أعرف قيمة نفسى، ولا أغفل قيمة الآخرين ولا أقلل من قيمتهم. ولكن حين خرجت من السجن جمعوا لى ما كتب عنى فى الصحافة المصرية فوضعته فى ملف مكتوب عليه (قراءات مؤجلة) وبعد ذلك قرأتها فاكتشفت أن صحافة العالم وقفت معى فيما عدا الصحافة المصرية. ثم بدأت أسمع أعذارا.. من يقول: كان مضغوطا علينا، وكنا مضطرين.. وأنت عارف الظروف.. وسامحنا. وطويت هذه الصفحة عملاً بمبدأ (اعط العذر للطبيعة البشرية). وما يفزعنى فى الصحافة المصرية (التسطيح) فهى تكتب كتابة إنشائية، لقد كنا فى أوائل القرن العشرين نناقش قضايا فى الدين، والديمقراطية، والعلمانية، لا يجرؤ أحد على مناقشتها الآن.. وكان النقاش حرا، وجريئا، وأكثر حرارة.

وفى رسالة منه إلى مكرم محمد أحمد نشرت فى مجلة المصور يوم ١٩ مارس ١٩٨٢ قال: لقد نسب إلى أننى خلال حديث أدليت به لصحيفة (الصنداى تايمز)

تعرضت لعملية اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات وأضفيت على الذين قاموا بها صفة البطولة من عندى، واستنكرت أن يلحق بهم أى عقاب من جراء اغتيالهم له، ولم يكن ذلك تعبيراً أميناً ولا صادقاً عما قلت- وهو منشور ومطبوع- مع ملاحظة أن ما قلته كان حديثاً دائرا بينى وبين الصحفى البريطانى الشهير (سيمون ونشستر)، ولم يكن مقالاً بقلمى كتبته بوزن كل عبارة، ومراجعة كل كلمة حتى أتحمل المسئولية الكاملة عنه، ومعروف الفارق بين الحديث الصحفى والمقال، أولهما قياسه بالروح والمعنى، والثانى حساب بالنص والحرف، ومع ذلك فأنا قابل وراض عن كل ما نسب إلىَّ فى هذا الحديث شريطة أن يؤخذ كله بغير أن يكون هناك انتقاء لعبارة خارج سياقها، أو لكلمة يجرى تأويلها على هوى أصحاب التأويل.

وقال أيضاً فى هذه الرسالة: إننى لا أحبذ العنف السياسى،ولا أقره، ولا أدعو إليه تحت أى عذر من الأعذار أو أية تعلة بالظروف والأوضاع، وفى نفس الوقت فإن ظاهرة الاغتيال السياسى ليست ظاهرة قديمة فقط، وليست ظاهرة عالمية فقط، وإنما هى أيضاً معاصرة، اهتم بها العلم الحديث، وأتى بها من عوالم الهوس والجنون حيث كان الناس يضعونها، إلى مجالات الفحص والبحث الدقيق، لأنها أخطر من أن تترك للممرضين فى مستشفيات الأمراض العقلية، وقصارى ما نستطيع أن نفعله حيال الاغتيال السياسى أن نفهم بحدسنا دوافع أصحابه. لكننا لا نستطيع بعقولنا إلا أن نرفض منطقه، وإلا أن نترك القانون الذى يحكم أى مجتمع يأخذ مجراه، ويفرض أحكامه إلى آخر الحدود.

إننى من موقف مبدئى أولاً: لا أحبذ، ولا أقر، ولا أدعو إلى الاغتيال السياسى لأى سبب أو تحت أى ظرف. ثانياً: إننى لا أتصور أن هناك حكماً فى قضية الاغتيال السياسى غير حكم القانون وحده وإلى آخر الحدود. ثالثاً: إن ذلك ليس حق المجتمع والقانون فقط، بل إنه حق صاحب الفعل ذاته، وإلا تحولت الفكرة واليقين فى دوافعه

- مع خطأ التعبير عنهما- إلى جريمة قتل عادية. وأمامى حديث الصنداى تايمز ولا أجد فيه عبارة واحدة أو كلمة واحدة تسىء إلى مصر أو تسىء إلى شعبها. بالعكس.. كل عبارة، وكل كلمة، فى كل ما أدليت به من أحاديث - خلال ثلاثة أسابيع قضيتها فى لندن فى مباحثات مع مجموعة الناشرين التى تنشر كتبى فى العالم - معبأة على الآخر إيمانا بمصر وولاء لشعبها وقضاياه. ولا أستطيع أن أمنع نفسى من الدهشة أن تبلغ الجرأة بالبعض إلى هذا الحد الذى يجرى فيه تحويل الحق إلى باطل بنقطة حبر.

وكان هيكل قد تعرض لحملة جديدة فى الصحافة المصرية، وأصبح هدفا لمزايدات المزايدين الذين تصوروا أنهم باصطياد كلمة أو عبارة من أحاديثه يمكن أن ينالوا الرضا.

□□□

كان هيكل قد خرج من السجن وهو يشعر بالامتنان للرئيس مبارك. فقد اجتمع مبارك مع المفرج عنهم لمدة ساعة وربع الساعة وشرح لهم الظروف التى كانت تمر بها البلاد، والمخاطر التى أحاطت بها، وطالبهم بوحدة الصف، والعمل على بدء مرحلة جديدة من العمل فى سبيل مصر. وبعد هذا الاجتماع أعلن النائب الأول لرئيس الوزراء - الدكتور فؤاد محيى الدين - أن من حق الذين رفع التحفظ عنهم ممارسة حياتهم، والعودة إلى وظائفهم وأعمالهم كما كانوا، ومزاولة أى نشاط سياسى، وقال: إن بقية المعتقلين الذين لم يفرج عنهم وبقوا فى السجن سوف يفرج عن كل من يثبت أنه ليس عليه اتهام. وقال أيضا: إن الرئيس مبارك أصدر قرار الإفراج انطلاقا من فهمه للممارسة الديمقراطية السليمة، وتقديره بأن هذه المجموعة سوف تبدأ صفحة جديدة فى العمل السياسى.

وفى هذا اللقاء قال الرئيس مبارك: إنه ثبت للمدعى الاشتراكى بعد التحقيق أن هذه المجموعة لا علاقة لها بالتطرف. أما هيكل فقد قال للرئيس فى هذا اللقاء: إننى

أعتقد أنها المرة الأولى التى يستقبل فيها رئيس الجمهورية السياسيين المتحفظ عليهم ويتحدث معهم، وإننى أعتبر هذا فى حد ذاته شيئا عظيما للغاية، خاصة أن قرار رفع التحفظ جاء خاليا من أى شروط، وما سمعته من الرئيس مبارك يدعو للثقة، ويجب على كل وطنى أن يساعد الرئيس فى إعادة هذه الصفحة الجديدة.

□□□

فى نفس يوم الإفراج عن هذه المجموعة أصدر المدعى الاشتراكى قرارا بإحالة محمد عبد السلام الزيات (الذى كان نائبا لرئيس الوزراء) و٢١ آخرين إلى نيابة أمن الدولة العليا بتهمة التخابر. وضمت هذه القائمة: لطفى الخولى، وحسين عبدالرازق، وعبد العظيم المغربى، وفريدة النقاش، وكمال أحمد، وصبرى مبدى، ود. عصمت سيف الدولة، وأبو العز الحريرى، وحلمى الشعراوى، ود. لطيفة الزيات، ود. إسماعيل صبرى عبد الله (وزير التخطيط السابق)، ود. محمود القاضى، ود. عواطف عبد الرحمن، ود. خليل حسن خليل، وفاروق ثابت، ود. محمد عطية الإبراشى، ومحمد عودة، ود. رشدى سعيد، ود.فؤاد مرسى، ود. محمد خلف الله، وأمينة راشد.

وفى اليوم التالى كان خبر رفع التحفظ عن هيكل ومجموعته يملأ الصفحة الأولى فى كل الصحف المصرية والعربية والعالمية. وفى الأهرام جاء تحت عنوان (كلمة للأهرام) ما يلى:

إن التاريخ سوف يذكر الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٨١ بوصفه اليوم الذى شهد ميلاد حدث سياسى خطير أعطى انطباعا للعالم بأن مصر بخير، وأن الديمقراطية فى مصر هى حق وصدق، وأنه- على حد قول الرئيس مبارك للذين أفرج عنهم بالأمس- لن يكون هناك باب مغلق، أو حجْر على أصحاب الرأى والمفكرين.

ومن المؤكد أن قرار الإفراج عن المعتقلين السياسيين قد أشاع جوا من الارتياح بين كل أفراد الشعب المصرى، فكل قرار يتحدث عن الحرية هو قرار الشعب أولا قبل

أن يكون قرار القيادة السياسية. ولأن هناك مساحة واسعة بين هؤلاء وبين الذين باعوا أنفسهم للشيطان والفتنة، أو هؤلاء الذين استخدموا ديمقراطية القنابل والرشاشات، ولأول مرة فى التاريخ المصرى الحديث والقديم يستقبل رئيس دولة السياسيين المتحفظ عليهم الخارجين من السجن رأسا ويكون فى استقبالهم بنفسه، وبروح الود، وبالحوار الديمقراطى. مباركة مصر بقرار الحرية الذى طوق عنق كل مصرى، فإن مصر للجميع، وبالجميع تحيا وتعيش.

□□□

وفعلا كان هذا اللقاء حدثا غير مسبوق، ولا يخطر على البال. وما حدث يصلح مشهدا فى فيلم مثير. ففى الساعة الثانية عشرة وصلت إلى القصر الجمهورى سيارة ١٢٨ بيضاء نزل من مقعدها الأمامى إلى جانب السائق نقيب المحامين السابق الأستاذ عبدالعزيز الشوربجى يسنده أحد مرافقيه، وكان باديا تدهور حالته الصحية حتى إنه لم يستطع السير وحده، وكان قادما من قصر العينى حيث كان يخضع للعلاج.. وكان يتحرك بصعوبة بالغة متوكأ على عصا فى يده ومستندا على ذراع مرافق، وذقنه غير حليقة، ثم وصلت بعد قليل سيارة فيها نوال السعداوى وصافيناز كاظم، وبعد ذلك وصلت سيارة ميكروباص بيضاء اللون تحمل عددا من المتحفظ عليهم، وبعدها جاءت سيارة تحمل محمد حسنين هيكل، وفؤاد سراج الدين، وفتحى رضوان، وإبراهيم طلعت، وعبد الفتاح حسن، وإبراهيم يونس، ود. محمد حلمى مراد.. وهكذا توافد الجميع إلى أن اكتمل عددهم.. وتجمعوا فى قاعة الاجتماعات فى القصر الجمهورى ثم انتقلوا إلى الصالون الرئيسى ليصافحوا الرئيس مبارك.

قال الرئيس مبارك وهو يصافح الأستاذ عبد العزيز الشوربجى:

أهلا أستاذ شوربجى.. إزى صحتك.. ألف سلامة.

وقال الرئيس لهيكل: إزيك يا هيكل.. زى ما انت لم تتغير. أذكر آخر مرة قابلتك فيها كان عند الفريق صادق وزير الحربية الأسبق.

وقال لمحمد فائق:

تمام.. انت ما تغيرتش من ساعة ما كنا مع بعض فى حلوان. (وكان محمد فائق ضابطا بسلاح المدفعية بينما كان حسنى مبارك وقتها طيارا بالسلاح الجوى).

وهكذا كان جو اللقاء وديا للغاية.. وخرج الجميع مبتسمين.. ومتحمسين حتى إن هيكل قال للصحفيين الذين تجمعوا حوله على باب الخروج:

سأؤيد الرئيس مبارك بكل قواى.. إنه يفتح صفحة جديدة ستكون مشرفة جدا.

وسأل الصحفيون «هيكل» إلى أين سيذهب؟ فقال لهم بانفعال:

أعتقد أننى أستطيع أن أذهب إلى حيث أريد.. أنا حر اليوم.

وسأل صحفى أجنبى «هيكل»:

- هل صحيح أنك ستتولى منصبا رسميا؟

فأجاب على الفور:

- لا.. لا.. أنا صحفى.. وسأبقى صحفيا.

وسئل:

- هل عوملت معاملة حسنة فى السجن؟

فقال:

- لن أتحدث عن ذلك.

ثم قال للصحفيين:

لقد أكدت لى طريقة حديث الرئيس ما سبق أن قلته لزملائى فى السجن بعد أن سمح لنا بالاستماع إلى كلمته فى البرلمان، فقد قلت: إن هذا الرجل ولد مرتين من خلال عاصفتين من الدماء. كانت الأولى هى ملحمة أكتوبر العظيمة.. والثانية كانت حادث الاغتيال المأساوى. ونحن اليوم نواجه رجلا جديدا. فعندما يقوم رئيس دولة بمواجهة المتحفظ عليهم سياسيا، فإن ذلك يقتضى شجاعة أدبية كبيرة.. وأكرر: هذه حالة نادرة

فى العالم الثالث وحتى فى العالم الأول خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الصورة التى نقلت إليه عنا سواء كانت خطأ أم صوابا.

وعاش هيكل أياما تحت حصار الصحافة وشبكات التليفزيون العالمية.

وفى يوم ٢٨ نوفمبر كانت مقالة الأستاذ إبراهيم نافع بعنوان:

(وجاءت لحظة مواجهة الحقيقة- أثر قرار مبارك بالإفراج عن السياسيين على الصورة المشوهة لمصر فى الخارج). وتحدث المقال عن الصورة المشوشة والمهزوزة عن مصر فى الخارج بسبب قرارات الاعتقال، وكيف أن قرار الإفراج عن السياسيين سيؤدى إلى تحسين صورة مصر، وهناك فرق بين هؤلاء السياسيين الذى أرادوا استخدام حق الكلمة والديمقراطية، وبين الذين استغلوا المناخ نفسه لاستخدام ديمقراطية القنابل والرشاشات.

□□□

ماذا فعل هيكل بعد ذلك؟

انطلق إلى العالمية.

تفرغ لتأليف عدد من الكتب تحول بها من صحفى إلى مؤرخ كبير وصدرت كتبه بأكثر من سبع عشرة لغة. وظل يدلى بأحاديث للصحافة العالمية والعربية والمصرية ولشبكات التليفزيون، واستجاب لدعوة عدد من الجهات لها مكانة خاصة فى مصر وخارجها لإلقاء محاضرات كان لكل محاضرة منها أصداء وكان لبعضها إثارة ضجة، وأدلى بحديث مشهور لمجلس تحرير صحيفة أخبار اليوم نشرته على ثلاث حلقات، وشارك فى ندوات.. باختصار ظل هيكل مشغولا، ويشغل الناس طول الوقت.

وكان يتقاضى خمسة آلاف جنيه فى السنة من الأهرام حيث كان رئيسا لمجلس الإدارة ورئيسا للتحرير وكاتب المقال الأسبوعى الشهير (بصراحة) وبعد أن ترك الأهرام حصل من صحيفة الصنداى تلجراف على مائة ألف جنيه استرلينى عن حقوق

نشر كتابه الأول (وثائق القاهرة)، وباعت الصنداى تلجراف حقوق النشر بعد ذلك إلى واحد وعشرين ناشرا فى العالم وربحت ثلاثمائة ألف جنيه استرلينى فوق ما دفعته وذلك طبقا لحساباتها الرسمية. ونشرت الصنداى تلجراف هذا الكتاب فى حلقات امتدت ثمانية أسابيع كاملة. وكان كتابه الثانى بعنوان (الطريق إلى رمضان) ونشرته دار (كولينز) البريطانية، كما اشترت صحيفة (التيمس) حق النشر الصحفى من كولينز، وصدر هذا الكتاب فى اثنتين وعشرين لغة. ونفس الشيء حدث لكتابه الثالث (أبو الهول والقوميسير) وهكذا إلى أن أصدر كتابه الخامس عن الثورة الإسلامية فى إيران فبدأت صحيفة الصنداى تايمس نشره موضوعا رئيسيا فى صفحتها الأولى، ثم تلتها صحيفة (التيمس) فخصصت للكتاب صفحة كاملة يوميا لمدة أسبوع كامل، ثم صدر الكتاب فى ثلاث وثلاثين لغة.

يقول هيكل: لم أكتب هذا الكتاب من منازلهم أو من مكاتبهم كما يقولون، وإنما بدأت مع آية الله الخمينى من باريس، وتبعته إلى طهران، وعشت معه فى (قم)، وكنت الضيف الوحيد الذى دعاه الطلبة الإيرانيون الذين احتجزوا الرهائن فى السفارة الأمريكية إلى زيارتهم فى معقلهم، وقضيت أياماً أقلب فى وثائق وزارة الخارجية الإيرانية والقصر الإمبراطورى (نيافاران)، وأقابل كل من أردت مقابلتهم من تبريز إلى أصفهان، ومن قم إلى طهران. وكان أن اتصل بى وزير الخارجية الأمريكية وقتها (سايروس فانس) يسألنى إن كنت مستعداً أن أتوسط فى قضية الرهائن، ودعانى إلى مقابلته فى واشنطن لبحث المسألة، ولم تكن ارتباطاتى المسبقة تسمح لى بالذهاب إلى واشنطن يومها، فأرسل لى مساعده لشئون الشرق الأوسط (هارولد سوندرز) يقابلنى فى لندن ثم يعود إلى مقابلتى بعد ذلك فى قلعة (بلريف) بجوار جنيف، حيث كنت أنزل لبضعة أيام ضيفا على الأمير صدر الدين أغاخان. وقد تسبب توسطى فى قضية الرهائن فى أزمة انتظرتنى فى مصر عندما عدت إليها. كان الرئيس السادات - يرحمه الله - متضايقاً، وقال للسفير الأمريكى فى مصر: هل لم تجد واشنطن بين الأربعين مليون مصرى أحدا توسطه فى مشكلة الرهائن غيره؟. ورد السفير الأمريكى

قائلاً: من سوء الحظ أنه كان الوحيد بين الأربعين مليونا الذى يعرف الخمينى. والغريب أن موضوع توسطى فى مشكلة الرهائن كان موضوع حملة علىَّ فى مصر.

ويقول: ثم جاء كتابى السادس للسوق الدولية وهو (خريف الغضب)، ثم الكتاب السابع عن حرب الثلاثين سنة، وقد وقعت عقده مع دار (أندريه دويتش) ولم أكن قد كتبت حرفا واحدا فيه.. وهكذا توالت بقية الكتب.

□□□

وفى الجزء الثالث من حواره مع مجلس تحرير أخبار اليوم الذى نشر يوم ١٨ يناير ١٩٨٦ نشر صورة من صفحة ١١٢ من كتاب أشهر مؤلف استراتيجى إسرائيلى هو آموس برلموتر، والكتاب بعنوان (السياسة والعسكريون فى إسرائيل ١٩٧٦ - ١٩٧٧) وفى هذه الصفحة يقول المؤلف الإسرائيلى: (.. لكن هيكل برفضه قبول دور التابع الذى أراده كيسنجر له فُصل من منصبه كرئيس لتحرير الأهرام).

□□□

وفى ديسمبر ١٩٨٧ دعاه الدكتور على الدين هلال رئيس قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى ذلك الوقت لإلقاء محاضرة فى الكلية، فاختار أن يكون عنوانها (هواجس مستقبلية). ووضع أمام المثقفين مسئوليات كما يلى:

١ - ضرورة استجلاء الحقيقة بيقين حتى تعرف الأمة أنها ليست مهزومة.

٢ - إعادة ترتيب العقل المصرى لأن الأمور تداخلت وتداخل مع العقل ما لا ينتمى إلى العقل.

٣ - وضع جدول أوليات للعمل العربى والقومى لأن الأمور اختلطت. صحيح أن البعض يمكن أن يقول: إن هذا عمل الحكومة والأحزاب، لكن الحكومات تجلس وتنتظر أن ينتهى النهار ويجىء الليل ويطلع الفجر والأمور سليمة. والأحزاب كلها أسيرة الماضى، وكل منها يريد استعادة حقبة معينة من الماضى، وهذا مستحيل طبعا.

٤ - مطلوب من النخبة المفكرة وضع خريطة تحدد المتغيرات التى حدثت فى مصر والأمة العربية، وأنا أزعم أنه حدثت فى هذا البلد متغيرات لا حدود لها على خريطتها الاجتماعية، وخريطتها السكانية، وخريطتها الاقتصادية، وحتى رؤية هذا البلد لنفسه ورؤيته للعالم الخارجى.. حدثت متغيرات كثيرة جدا ونحن لا ندرى بها، وقد يدهشنا لو حاولنا أن نضع خريطة للتركيب الطبقى.

٥ - علينا أن نتصور شكلاً مختلفاً للعلاقات العربية، وإذا أردنا أن نتحدث عن الماضى ونعيش أسراره قد يتصور أن مصر هى مصر الخمسينات وهذا ليس صحيحا. أو أن العالم العربى هو عالم الستينات، وهذا أيضا ليس صحيحاً، فقد حدثت اختلافات كبيرة جداً، وتغيرات كبيرة جداً، ولهذا يجب على طلائع الأمة المفكرة أن تحاول أن تستكشف ما هو ممكن وما هو متاح.

٦ - وهناك مهمة هامة جدا، هى علاقتنا مع العالم الخارجى.

٧ - آن الأوان أن نصل إلى نوع من التراضى العام فى قضايا أصبح محتماً الآن أن نبت فيها أو أن نتركها، فلا يعقل أن نتحدث حتى الآن عن دور المرأة فى المجتمع، ولا يعقل أن نتحدث حتى هذه اللحظة عن قضايا كبيرة وكأنها أشياء منفصلة ولا نجد أحداً يربطها ويخرج منها ما يمكن أن نطلق عليه (التراضى العام). وعلينا فى مراكز البحوث وغيرها أن نقوم بالدور الذى تقوم به الفلسفة، فنحن الآن فيما أتصور فى حالة سفسطة، وعلينا أن نحول هذه السفسطة إلى فلسفة، نحاول أن نستخلص قوانين للحقائق، فإذا استخلصتها نقلتها إلى مجال العلوم وخرجنا من مجال الفلسفة. وآن الأوان أن نخرج بأشياء لا نختلف عليها.

٨ - على المثقفين مهمة تبصير الأمة وصانعى القرار بما تدل عليه الجمل والألفاظ، فالناس كلها تتعجب الآن كيف أننا لا نعرف مدلولات لكل ما نستعمله من ألفاظ فى العالم العربى.

٩ - وهناك مهمة التصدى لرد النظرة التشاؤمية عن نظام عربى توافرت له الشروط لقيام نظام. وهو نظام فى أزمة لأسباب نراها ونستطيع تشخيصها.

١٠ - المهمة الأخيرة هى أن تعدد مراكز البحث لشئون المستقبل الاجتماعى والاستراتيجى والسياسى ظاهرة تدعو للإشادة بها، لكن كل هذه المراكز مطالبة بتوحيد جهودها وتوجهاتها ونشاطاتها وإلا تحولت إلى طواحين كلام. وتوحيد الجهود يعنى أولا توفير الموارد المادية والعلمية والإنسانية والبشرية، لأنه لا يوجد ما نتركه للضياع، خصوصا ونحن نعلم أن هناك محاولات للاختراق، ومحاولات للهدم المنظم للكفاءات، وهناك محاولات للتسلل!

□□□

من الصعب حصر مقالات هيكل، فعددها بالآلاف.. ومحاضراته وندواته ولقاءاته الصحفية يصعب حصرها أيضا.. ولكن يكفى أن نتوقف عند بعض الموضوعات الجوهرية التى تناولها فى هذه المرحلة..

ففى أكتوبر ١٩٩٤ قدم ورقة لتكون بداية حوار فى المؤتمر الثلاثين لجماعة خريجى معهد الإدارة العليا كانت بعنوان (مصر والقرن الواحد والعشرون) قال فيها إن الإدارة السياسية تتطلب أن يكون هناك هدف (أو أهداف) موضع إجماع أو أغلبية وطنية مقتنعة به ومستعدة للعمل والبذل من أجله. وأن يكون هذا الهدف واضحا ومحددا لأنه ليس أخطر فى السياسة من الرؤى الغائمة. وأن تكون لهذا الهدف إمكانية فعلية مضمونة تسمح بتحقيقه، فلا فائدة فى هدف إذا كانت الوسائل والأدوات الضرورية لتحقيقه ليست موجودة أو محتملة. وأن تكون لهذا الهدف مشروعية تجعله مقبولا ليس فقط من أصحابه، إنما من غيرهم، والمشروعية ليست مشروعية القوانين والأعراف فقط، وإنما أيضا مشروعية العصر وقيمه وموازينه. وأن تتكفل الحياة السياسية بأن تعطى لإدارتها أصلح وأنضج العناصر المهيأة لتحمل المسئولية تحفظ للهدف حدا مأمونا من فرص النجاح، وأخيرا أن تقدر الحياة السياسية على أن تعطى لقوى الأمة حقها فى

الرقابة على إدارة العملية السياسية فى مجملها وأن تكون الرقابة من مدخل الاهتمام والمناقشة والمتابعة أكثر من مدخل التحقيق والتفتيش والعقاب.

وبالنسبة لمصر فإنها لا تستطيع أن تفلت من قوة الضغط والجذب الآسيوية المتمثلة فى الأمن، والدين، واللغة، وكلها فى الشرق، ولا تستطيع أن تفلت من الرباط الأفريقى بالدور الذى يلعبه النيل فى حياتها، ثم إن وجودها على شاطئ البحر الأبيض هاجس يشغلها باستمرار من الشمال والغرب. وهذه هى الرواسى التى لا يمكن التخلى عنها أو الإفلات منها.

وتظهر الولايات المتحدة كقوة سادت القرن العشرين وتبدو كذلك فى القرن الواحد والعشرين، ولكن الولايات المتحدة تبدو مرتبكة، عصبية فى تصرفاتها على رغم قوتها. فقد خرجت من الحرب الباردة منهكة. وهى الآن أكبر مدين فى العالم وحجم ديونها الداخلية والخارجية يتصاعد بسرعة خرافية من ٨٥٠ مليار دولار فى أوائل الثمانينات إلى ٤ تريليونات دولار فى أوائل التسعينات، وتقديرات صندوق النقد الدولى أن حجم الدين الأمريكى يصل سنة ٢٠١٠ إلى درجة أن فوائده وحدها سوف تزيد على حجم الناتج الإجمالى الأمريكى فى تلك السنة!

والإنتاج العسكرى أصبح يمثل مساحة تزيد عما هو ضرورى على خريطة الإنتاج الأمريكى فى إجماله، وحدث التوسع فى الإنتاج العسكرى على حساب احتياجات أخرى فى مجالات البنية التحتية والإحلال والتجديد فى وسائل الإنتاج المدنى والخدمات وبينها التعليم والصحة. والمشكلة أن انتهاء عصر الحروب العظمى مع هذا الكم الهائل من السلاح بغير استخدام، والفائض الجاهز للتصدير عبء على الأسواق، والمشترون التقليديون الذين تعودوا على أن يأخذوا من الولايات المتحدة كل ما تعرضه - والعرب أولهم- لم يعد فى أيديهم كثير يدفعونه لشراء السلاح الأمريكى. والماثل أمامنا أن مستوى التعليم الأمريكى نزل من المركز الأول إلى المركز العالمى السابع. والولايات المتحدة تتحول تدريجيا إلى مجموعات كتل إنسانية. كتل زنجية، وكتل هندية، وكتل

لاتينية، وكتل آسيوية، وكتل أوربية، واستتبع ذلك إحياء ثقافات ولغات وممارسات جعلت ذلك البلد- القارة مهددا بانقسامات مما دعا مؤرخا ممتازا مثل (آرثر شليزنجر) إلى إصدار كتابه (الولايات الأمريكية غير المتحدة). ومن المفارقات أن الصفوة الحاكمة فى أقوى بلد فى العالم مشغولة بأبحاث أثبتت أن متوسط الذكاء العام للفرد الأمريكى انخفض بمعدل ٨٪ عما كان عليه منذ عشرين سنة طبقا لقياسات علمية. وهبط متوسط دخل الفرد فى أمريكا فى العشرين سنة الأخيرة من ٢٨ ألف دولار للفرد فى السنة إلى ٢١ ألفا، وفى نفس الوقت فإن تركيز الفقر فى مقابل تركيز الغنى أصبح حادا، وهناك ٣٠ مليونا أمريكيا يعيشون على حد الفقر وتحته، و٢١ مليونا أمريكيا أميون، وقد يكون من الصعب على البعض أن يصدق ذلك. وقد تزايد نفوذ جماعات الضغط.

وهناك ألفا شركة تملك أو تسيطر على نصف الإنتاج العالمى بالضبط، وهذه القوة الجبارة لا تحصر همها فى شئون الاقتصاد ولكنها تؤثر فى شئون السياسة أيضا.

والعالم الآن منقسم.. ناس يقدرون.. وناس يحاولون.. وناس يبدو أنهم لا يقدرون ولا يحاولون، وبعضهم يأمل أن ينقذه أحد لأنه لا يستطيع أن يخدم أو يفيد.. وناس سوف يغرقون لأنهم لا يقدرون ولا يحاولون.

□□□

يقول هيكل: إن الولايات المتحدة لن تقبل ببساطة أن تصل إلى سنة ٢٠١٠ لتجد أن فوائد ديونها تستغرق كامل دخلها القومى، ولابد لها أن تحاول بكل وسيلة ألا تصل إلى هذا المأزق مهما كان الثمن. ولهذا فإنها تدخل فى حرب اقتصادية مع اليابان وإلى حد ما مع أوربا الغربية وألمانيا فى طليعتها، وتحاول إغراء غرب أوربا بتحمل تكاليف ضبط مشاكل شرق أوربا، وتعوق إمكانية أى لقاء استراتيجى بين اليابان والصين، وتمارس ضغوطا عنيفة على الدول العربية لكى تقبل بسلام أمر واقع مع إسرائيل تظن أنه يكفل أمن الشرق الأوسط ويؤكد سيطرة أمريكية لا تنازع على مواقعه وموارده.

وانتهى هيكل من هذا التحليل- فى عام ١٩٩٤ - إلى أن أمريكا سوف تلجأ إلى العنف للتشبث بالبقاء على القمة.

ووصل إلى أن العالم انقسم إلى أغنياء وفقراء. وترسخ بين الاثنين نوع من الخوف والكراهية، وتحولت التطلعات المشروعة للفقراء إلى عداء يوشك أن يستحكم بعد أن أصبح لدى الفقراء فكرة عن مستوى معيشة الأغنياء. وبعد أن تراجع الفقراء عن حلم التنمية إلى الدين حماية وحصنا، وتفجرت المواريث القديمة، والتحيزات الثقافية الكامنة، فأصبحت أوربا تتحدث مهتاجة عن خطر الإسلام الزاحف، أضيف إلى ذلك شعور الفقراء بالخيانة، لأن الصفوة الغنية منهم انفصلت طبقيا وانضمت إلى أغنياء العالم متواطئة معهم ضد الفقراء من شعوبهم، والنظام البنكى العالمى تدور فيه الآن (١٩٩٤) ٤٣٠ مليار دولار تقريبا من أموال مواطنين سعوديين لا تشمل الملكية العقارية أو الزراعية، و١١٢ مليار دولار تقريبا من أموال مواطنين مصريين، و٧٤ مليار دولار تقريبا من أموال مواطنين جزائريين، و٦٥ مليار دولار تقريبا من أموال مواطنين سوريين، وغير هؤلاء كثيرون، أما الدول التى ينتمى إليها أصحاب هذه الثروات فهى غارقة فى الديون حتى تلك التى كانت تعتبر من أغنى الأغنياء.

إن العالم يشهد ثورة يمكن تسميتها (ثورة الثراء) وهى ثورة تفرعت عن الثورة الإلكترونية بدأت ببطاقات الائتمان التى شجعت على الاستهلاك، واتساع نطاق بورصات العالم تعمل ٢٤ ساعة كل يوم فى ملايين من الأسهم والسندات والمضاربة على العملات والعقود الآجلة لسلع غير موجودة، وهذه العملية حجمها تريليون دولار كل يوم، وهى تأخذ وتعطى كميات هائلة من الثروات بنبضات إلكترونية خاطفة، وأدى ذلك إلى طلب الثراء السريع مما يشكل حالة قرصنة على مستوى العالم.. بينما فقراء العالم يعيشون فى حالة دوار بعد أن تبخرت ثورة التطلعات التى رافقت ثورة التحرر الوطنى، وعادت السيطرة ممثلة فى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، وأصبحت دبلوماسية كل منها بديلا عن دبلوماسية البوارج التى كانت فى القرن التاسع عشر

كما قال الاقتصادى البريطانى الشهير (آلان والترز) الذى كان مستشارا لمارجريت تاتشر عندما كانت رئيسة وزراء بريطانيا. والأغنياء اليوم يملكون فرض الشروط على الفقراء فى ميادين التنمية وبعد البنك الدولى وصندوق النقد الدولى أضيفت منظمة التجارة العالمية التى ستجهض آمال التقدم لدى الفقراء، وتزيد الفجوة بينهم وبين الأغنياء.

□□□

بعد هذه الرؤية الاستراتيجية من منظور واسع، ماذا عن العالم العربى؟.

يلخص هيكل رؤيته للعالم العربى فى نقاط:

١ - إن العالم العربى أوقع نفسه فى شراك نصبها له الآخرون ونصبها لنفسه دون وعى. تناقض بين الدين والعلم. تناقض بين العروبة والإسلام. تناقض بين الوطنية والقومية. تناقض بين الأصالة والحداثة. تناقض بين الحاضر والماضى، ووصل التناقض إلى حد أن الأمة أصبحت مولعة بالبحث عما يفرقها أكثر من بحثها عما يجمعها. فهناك معركة لا لزوم لها بين العلمانية والأصولية، ومعركة بين القطاع الخاص والقطاع العام، ومعركة بين القبائل والمدن، وتحولت السياسة إلى عداوات بين المراحل التاريخية وقياداتها المختلفة.

٢ - إن العالم العربى بدد ثروة من أكبر الثروات التى أتيحت فى التاريخ لأمة أو حتى لامبراطورية. وعلى سبيل المثال فإن دخل البترول فى الربع الأخير من القرن العشرين يقدر بأربعة تريليونات دولار.

٣ - إن العالم العربى فقد الإحساس بهويته وتملكته نزعات القبائل المتحاربة. ونتيجة لذلك ضاع منه الهدف المشترك.

٤ - وهناك أزمة شرعية، فمعظم الأنظمة تحكم بقوة الأمر الواقع.

٥ - وهناك أزمة خلافة.

٦ - إن العالم العربى يعيش فى أسر أكبر حشد من القوانين تعرفه أية منطقة غيره.

٧ - والعالم العربى يتصور أنه مقبل على عصر من السلام مع إسرائيل فى ظل امتلاك إسرائيل لسلاح نووى. وإسرائيل تغير دورها، بعد أن كانت تقوم بدور الضامن للمصالح الإمبراطورية البريطانية، أصبحت الضامن للمصالح الأمريكية، والآن تقدم نفسها على أنها الضامن للعالم ضد خطر الإسلام الإرهابى كما يدعون. وفى اجتماع المجلس الأوربى فى أسبانيا أواخر سبتمبر ١٩٩٤ قال وزير خارجية إسرائيل إن على الغرب أن يقف وراء إسرائيل باعتبارها الحاجز للإسلام، والواقى لأوربا ضد زحفه وعدوانه.

وأخيرا- هناك خريطة سياسية واقتصادية ترسم من جديد للمنطقة أهم وأخطر من خريطة سايكس- بيكو القديمة. وما يجب أن نتحسب له هو أن الأمة تساق سوقا إلى طرق تجهلها، والغريب أنها تمشى فى هذه الطرق بهمة وكأنها تحاول استباق الزمن. وهناك اختراق خارجى للعالم العربى فى كل الاتجاهات من داخل كل دولة عربية، ومن دول كثيرة فى الخارج.. وهو اختراق مالى.. واقتصادى.. وسياسى.. وأمنى.. وإعلامى.. وثقافى. والمحزن أن زمام المبادرة الإعلامية والثقافية فى العالم العربى انتقل من أكثر المراكز استنارة وتقدما إلى أكثرها تخلفا وبالذات فى مجال حرية تداول المعلومات وأهلية الريادة الثقافية. والعالم العربى يعيش فى حالة تعتيم فى المعلومات ومن المفارقات أن القنوات الفضائية تعرض الكثير عما يجرى فى الدنيا لكن لا تعطى شيئا عما يجرى فى أرضها.

□□□

ويعد هذا التحليل الاستراتيجى لأوضاع العالم العربى فى نظر هيكل ماذا عن مصر؟.

إنه يرى أن تفوق إسرائيل وتنافر العرب وضعفهم قد يفتح الباب لقوة التأثير الإسرائيلى لتمارس دور ضابط التفاعلات والحكم فى العلاقات. وأن نصائح الصندوق والبنك الدوليين وشروط الجات لن تكون كافية لتكوين رأس المال المطلوب لشراكة

القرن الواحد والعشرين، كذلك لا يكفى الضياع فى أمور لا توصل إلى تقدم حقيقى، ولابد أن نطبق مبادئ علم الإدارة: هدف واضح محدد. ومشروعية لهذا الهدف. وأصلح العناصر للحياة السياسية، وحق الشعب فى الرقابة على العملية السياسية بمجملها.

والأمل فى أن تنمو طبقة متوسطة عريضة تعطى للمجتمع التوازن وترسى قيمة العمل فوق قيمة المغامرة، وتمارس دورا فى العملية السياسية وتشارك فى عملية التغيير الآمن. وفى مصر رصيد هائل من الكفاءات والخبرات قادر على تحمل مسئولية نقلة حضارية، وهناك حالة قلق تدعو قوى كثيرة إلى عدم الرضا عما ترى وتحفزها إلى أن تفتش عن خيارات بديلة لمستقبل أفضل.

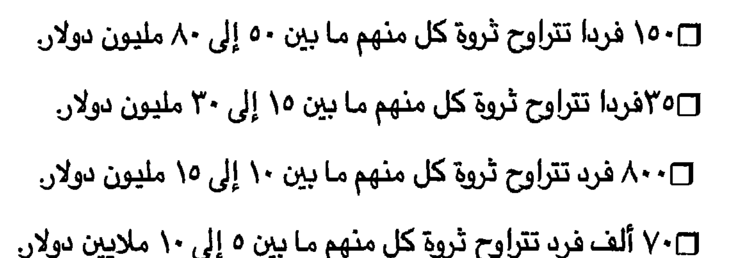
هذا نموذج للمحاضرات العديدة التى ألقاها هيكل فى السنوات التى أعقبت خروجه من السجن، وكلها تطرح رؤى استراتيجية ومستقبلية، تتفق أو تختلف معها، ولكن لا تستطيع أن تتخلص من تأثيرها عليك.. لأنها تحفزك على التفكير. وهذا هو الدور الذى اختاره هيكل لنفسه فى السنوات الأخيرة.. أن يحفز قراءه وسامعيه على التفكير. وهذا بالضبط ما يحتاج إليه المصريون والعرب فى هذه المرحلة، أن يجتهدوا.. ويشعروا بالمسئولية.. ويفكروا..

□□□

وفى يناير ١٩٩٥ كان هيكل على موعد مع رواد معرض الكتاب وتحدث فى جمع كبير بصراحة وقال: إن سنة ١٩٩٥ فى تقديره قد تكون هى الباب إلى القرن الحادى والعشرين الذى تنبئ مقدماته بما يستحيل على أحد تصوره.

وقال فى حديثه: إن المؤشرات الطبقية الجديدة فى مصر، كما جاء فى تقرير وضعته مجموعة بحث دولية شارك فيها خبراء من بلدان مختلفة بينهم واحد من إسرائيل تشير إلى ما يلى:

□ فى مصر ١٠٠ فرد تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٨٠ إلى ١٠٠ مليون دولار.



- ١٥٠ فردا تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٥٠ إلى ٨٠ مليون دولار.
- ٣٥فردا تتراوح ثروة كل منهم ما بين ١٥ إلى ٣٠ مليون دولار.
- ٨٠٠ فرد تتراوح ثروة كل منهم ما بين ١٠ إلى ١٥ مليون دولار.
- ٧٠ ألف فرد تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٥ إلى ١٠ ملايين دولار.

والأرقام الخمسة الأولى تدل على أن هناك ألف فرد استطاعوا فى عشرين عاما أن يصبحوا أصحاب ثروات لا تتناسب مع الحقائق الاقتصادية أو الحقائق الاجتماعية السائدة فى البلد، وقد جاءت هذه الثروات فى معظمها من عمليات تقسيم وبيع الأراضى والعقارات وما يتصل بها من التوكيلات التجارية واحتكار بعض السلع كالأسمنت والحديد والسكر واللحوم، ولقد كنا نقبل- ونسعد ونبارك- لو أن هذه الثروات تراكمت نتيجة لعملية الإنتاج بالمنطق الرأسمالى السليم القائم على الاستثمار وقبول المخاطرة، وعلى احترام القوانين والتزام ضوابطها، ودفع الضرائب والرضا بتكاليفها، لكن الواقع فى معظم الأحيان وباستثناء لا تزيد نسبته على عشرة فى المائة، لم يكن الأمر هو الاستثمار، وإنما الاستغلال ونفوذه، ولم يكن القانون وضوابطه، وإنما الدوران حوله والاستهتار به، ولم تكن الضرائب العادلة فى تكاليفها، وإنما الضرائب على أضعف الطبقات قدرة على أدائها وأقلها فرصة فى الهرب أو التهرب منها.. ومن المفارقات أن مصر موضوعة فى قوائم الدول الفقيرة وتستورد أكبر نسبة من سيارات المرسيدس فى العالم بالقياس إلى عدد سكانها، وذلك طبقا للبيان السنوى (سنة ١٩٩٣) لشركة مرسيدس بنز.

وقال هيكل: إن هذه الأوضاع أدت إلى التأثير على الطبقة المتوسطة وهى مستودع الحيوية الاجتماعية، لكنها أصبحت مضغوطة ومحاصرة، وأدى ذلك إلى تباطؤ فى دوافع الحركة والنهوض لدى هذه الطبقة، وفى وقت من الأوقات كان المخرج سباقا متسارعا للهجرة نحو النفط، فتأثرت أنماط السلوك، وتأثرت القيم والثقافة ومعايير

الجمال، وحتى الإنتاج الفنى أصبح يعرض نفسه سلعة فى أسواق النفط، وينتج على هوى المشترين، مع أن بلاد النفط فيها أفضل العناصر فكرا وثقافة والتزاما، لكننا اخترنا الجانب الآخر.

□□□

وقال هيكل فى هذا الحديث الذى نشرته كل الصحف تقريبا: إن المخرج يتلخص فى: أن تحرص الكتلة الوطنية فى مصر- سواء بين المجتمع وطبقاته أم بين المجتمع والسلطة - على ألا تترك الشرخ يتحول إلى كسر، فالأوضاع الدولية لا يهمها أن تنفرط مجتمعات بأكملها فى العالم الثالث أو تتماسك، وإنما أصحاب كل مجتمع هم الذين يعنيهم أمره وتهمهم سلامته.

وقال هيكل: إن النظام القائم بالحكم فى مصر ليس له بديل مقبول، وبالتالى فإن مساعدته بكل الوسائل ضرورة من ضرورات السلامة، وربما أضفت أننى على خلاف معه فى عديد من وجهات النظر، ولكن يمكن التفرقة بين الأمر الواقع وبين المثال المرتجى.

وقال: إن فى علم إدارة الأزمات نظرية ترى أنه إذا لم تجد الأزمات إدارة تخطط وتنظم لحلها فإنها سوف تجد لنفسها حلا بغير تخطيط وبغير تنظيم تنكسر به العقد المستعصية.

وقال: إن الرئيس حسنى مبارك يظل فى حسبانى رجلا تلقى الظروف عليه هذه المسئولية، واعتقادى أنه قادر عليها، ويتطلب ذلك إعادة تنظيم الدولة، وفى مقدمتها رئاسة الجمهورية حتى يستطيع مكتبه ومعاونوه المختارون أن يؤدوا مهام حيوية فى المرحلة القادمة، ورئاسة الجمهورية لا تحتاج إلى بيروقراطية ثقيلة بجوار الرئيس، لكنها فى حاجة إلى مجموعة عالية الكفاءة شديدة اليقظة، قادرة على المتابعة والاستجابة بسرعة، مستعدة لالتقاط الأفكار، وإنشاء المبادرات وتصور السياسات وبدائلها ووضعها باستمرار تحت عناية الرئيس.

وقال: إن هناك حاجة ماسة إلى عقد اجتماعى جديد على ألا يكون موضوع إنشاء عن حقوق المواطنين وواجباتهم، وإنما يكون مؤشرا إلى ترتيبات ممكنة تكفل السلامة الاجتماعية، وهناك حاجة ماسة إلى إصلاح سياسى دستوى ينظم هذا العقد الاجتماعى الجديد، ويؤكد ترتيباته بحيث يكون هذا العقد الاجتماعى محترما وملزما، وربما يكون مناسبا أن تتضمن التعديلات السياسية المقترحة شيئا عن منصب نائب الرئيس، وفى مصر نخبة من أفضل وأكفأ الناس، نرى كثيرين منهم يصابون بالصدأ وببرودة الحماس.

وختم حديثه بقوله: إننى أوجه الشكر للذين دعونى فإنهم سوف يدفعون جزءا من حساب هذه الدعوة على الأقل.

ولم يكن هناك حساب..

وقال هيكل فى أحاديثه وكتاباته ومقالاته ما يريد..

□□□

وفى عام ١٩٩٩ اجتمعت فى بيروت لجنة تحكيم جائزة جمال عبد الناصر التقديرية برئاسة رئيس وزراء لبنان فى ذلك الوقت الدكتور سليم الحص وقررت بإجماع الآراء اختيار هيكل لنيل الجائزة فى دورتها الأولى، وأعلن ذلك فى مؤتمر صحفى يوم ٢٢ فبراير ١٩٩٩ يوم ذكرى قيام دولة الوحدة بين مصر وسوريا، وتم تسليم الجائزة يوم ٢٦ يوليو ١٩٩٩ يوم ذكرى تأميم قناة السويس.

وفى رد هيكل على دعوته للحضور إلى بيروت لتكريمه، قال: إن لدى موقفا معروفا ومعلنا بشأن قبول الأوسمة والنياشين والجوائز أيضا، وذلك عن اعتقاد بأنه فى مثل ظروفنا العربية الراهنة، وما يعتريها من ملابسات فإنه يحسن ترك حساب أى رجل عام لأجيال قادمة لديها الفرصة أن تدرس وتفحص.. ومع ذلك فإن لدى ضعفا - لا أعتذر عنه - فى حالة جائزة جمال عبد الناصر بالتحديد لأنها تجىء إلى بنداء لا أملك إزاءه غير أن أصغى باحترام ثم ألبى.. وارجوكم إعفائى من قبول التقدير المادى

المصاحب للجائزة وأكون سعيدا إذا تفضلتم بإعادة هذا المبلغ إلى أرصدة مؤسسة الجائزة يساعد على خدمة هدف من أهدافها.

وتجمعت بيروت بمثقفيها ورجال السياسة والعلوم فى حفل تكريم هيكل، وألقى رئيس الوزراء سليم الحص كلمة بدأها بقوله: إن هذا اللقاء يلامس المجد من طرفيه: جمال عبد الناصر ومحمد حسنين هيكل وقال: إن هيكل قد بنى لنفسه عالما خاصا وأصبح (مؤسسة) بحد ذاته، وإن كتاباته هى مساهمة وطنية فى صد الغارات العدوانية الشرسة على ذاكرة الوطن العربى، حيث كل سلاح مباح، وكل شىء يستباح، والأوطان والأمم مثل الأفراد تصاب بالجرح فتشفى، وتصاب بالصدمة فتفيق، وتصاب بخسارة المال فتعوض، لكن فقدان الذاكرة التاريخية كارثة بلا حدود، لأنه يودى بكل شىء بما فى ذلك التاريخ والمستقبل، لذلك فإن محاولة استعادة الوقائع التى كانت دافعا وراء المجلدات الضخمة التى أصدرها الأستاذ هيكل هى من ناحية منها محاولة لاستعادة الذاكرة الوطنية، فضلا عن أن العصر كله هو عصر الذاكرة الواعية.. عصر المعلومات، ولذلك تجىء المعلومات فى كتاباته أكثر من الآراء، لأنه ينتمى إلى مدرسة تعتقد أن صميم حرية الصحافة هو ضمان تدفق المعلومات، وفى الحقيقة فإن علاقة كتاباته بالتاريخ تقتضى وقفة خاصة.

وكتابات هيكل ليست قصة تروى عن الماضى، وإنما هى مجال من مجالات صنع المستقبل، وهذا هو أهم الفوارق بين الأستاذ هيكل وكثير من الكتاب والصحفيين.

هذا بعض ما قاله رئيس الوزراء اللبنانى.

أما هيكل فقد ألقى محاضرة نشرتها جميع الصحف كان عنوانها (حرب من نوع جديد) قال فيها: إننا أمام حرب لها هدف مزدوج، من ناحية حصار تجربة سابقة وتصفية آثارها إلى درجة محوها أو تحويلها فى الذاكرة من حلم إلى كابوس، ومن ناحية أخرى بناء تحصينات تحجز المشروع القومى العربى عن إمكانية تجديد نفسه والتلاؤم مع مستقبل من حق الأمة أن تتطلع إليه.. وفى هذه الحرب لم يعد التفاوض

تحت بند أن يعترف العرب بحق إسرائيل فى الوجود، وإنما تحت بند أن تعترف إسرائيل بحق العرب فى الوجود، ولم يعد التفاوض تحت بند استعادة أرض فلسطينية، وإنما تحت بند استكمال أرض إسرائيل، ولم يعد تحت بند منع الأسلحة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط، ولكن تحت بند منعها فى العالم العربى وحده، ولكن المطلوب لم يتحقق وإرادة الأمة تتنفس بدليل أن شعوب الأمة تقاوم محاولات تطويع إرادتها بما فى ذلك تطبيع لا تقبله مع إسرائيل.

وقال فى ختام حديثه: برغم ما يقوله البعض عن المستجدات وموت فكرة السيادة، وفكرة الحدود، وفكرة الدولة، وفكرة السياسة، وفكرة الحرب.. بل وموت فكرة الأمة من الأصل والأساس - فى زمان العولمة - فإنهم على الناحية الأخرى مازال همهم السيادة والحدود والدولة والسياسة والأمة، وهم الأقرب بالماضى اليهودى إلى روح العولمة، والأقرب بالحاضر الإسرائيلى إلى وسائل هذه العولمة، واعتقادهم أن المشروع الصهيونى للدولة طليعة وقاعدة لمشروع قومى ليهود العالم فى شتات بينه وبين بعضه مسافات، ومع أن الجامع لهذا الشتات دينى ولحقت به على مر القرون حواشى وذيول من الخرافة، فإن المشروع الصهيونى يحاول أن يصنع من الشتات سبيكة أمة واحدة نصفها فى وطنها والنصف الآخر من سفر مؤقت خارجها وحقه فى العودة مكفول بالقانون. وكانت الذاكرة أهم سلاح لديهم، وقد وصلوا إلى حد تحويل الأساطير إلى تاريخ وتحويل إدعاء التاريخ إلى استراتيجية، وتحويل الاستراتيجية إلى سياسة تصطنع حقائقها وتفرض نفسها بأسلحة القتل، وليس بأجنحة الحمام.

وكانت رؤيته - ومازالت - أن الأمة العربية مازالت لديها القدرة وإذا توافرت لها الإرادة فإنها تقدر على حماية نفسها وتحقيق حلمها.

الخلاصة أن هيكل الذى بدأ صحفيا، وأصبح سياسيا، ثم استراتيجيا، وصل إلى مرحلة أصبح فيها مؤرخا.. ونال التكريم على هذه المراحل جميعا..

فى خريف الغضب

كانت أكبر معارك هيكل بسبب كتاب (خريف الغضب) الذى تناول فيه حياة الرئيس الراحل أنور السادات بصراحة أكثر مما اعتاد عليه الناس فى العالم العربى.

فقد كتب هيكل عن شخصية السادات وتكوينه وأثر طفولته ونشأته الأولى، والتجارب المريرة التى مر بها، والنشاط السياسى الذى قام به فى شبابه، ثم تناول سنوات حكمه وسياساته بمنهج تاريخى نقدى وتحليل سيكولوجى وسياسى وصل به إلى نتائج أثارت عليه رياح الغضب فى مصر وفى العالم العربى.

نشرت فصول الكتاب فى إبريل ١٩٨٣ فى صحيفتى الوطن الكويتية والخليج الإماراتية وعدة صحف أخرى منها الشرق الأوسط السعودية التى تصدر فى لندن، لكن صحيفة الشرق الأوسط توقفت بعد حلقتين عن نشر بقية الكتاب وبدأ الهجوم على هيكل بعد نشر الحلقة الأولى مباشرة فى صحيفة الأهالى فى مصر واشتد واستمر بعد ذلك طويلاً، ثم صدر الكتاب فى بيروت باللغة العربية وفى لندن باللغة الإنجليزية وطبع إحدى عشرة طبعة فى اللغة العربية.

كان الكتاب بعنوان (خريف الغضب: قصة بداية ونهاية عصر أنور السادات). وفى مقدمة الكتاب قال هيكل: لم تكن كتابة هذا الكتاب مسألة سهلة. كان هدفه فى المقام الأول رواية قصة سياسية كبرى يجب أن تروى، بل كان ضرورياً أن تروى إذا أريد

لنتائجها المأساوية ألا تتكرر في المستقبل. وكان أول الأسباب في أن كتابتها لم تكن سهلة هو أن وقائعها سوف تكون صدمة لكثيرين في الغرب تولدت لديهم فكرة معينة عن شخصيات وسياسات، وكانت هذه الانطباعات غير متسقة مع الوقائع بحيث إن ظهور الوقائع أخيراً كان خليقاً بأن يكون مفاجأة مستغربة. والسبب الثاني في أن كتابتها لم تكن سهلة هو العنصر الشخصي في الموضوع.

وقال هيكل في المقدمة أيضاً: إن هذا الكتاب ليس حكماً على السادات، فالوقت ما زال مبكراً لإصدار أحكام نهائية. وكان من المحتمل أن يتصور أحد أنني فيه أعبر عن ضغينة شخصية ضد الرئيس الراحل الذي اختلفت معه وانتهى خلافنا إلى قراره بوضعي في السجن شأني شأن آلاف غيري في حملة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١، ومثل هذا التصور ليس صحيحاً، بل ليس قائماً، لأنني لا أحمل ضغينة شخصية على الإطلاق ضد السادات. وإلى هذه اللحظة فلقد كان اختلافنا -من وجهة نظري على الأقل- اختلاف وجهات نظر واختلاف رؤى، ولم يكن فيه عامل شخصي على أي وجه من الوجوه. وفي الحقيقة فإنني كنت شديد التعاطف مع السادات كإنسان، وفي السنوات الأربع الأولى من رئاسته فلقد كنت - كما اعترف هو في حديث صحفي أدلى به إلى مجلة (الأسبوع العربي) اللبنانية - أقرب إليه من أي شخص آخر. وأعتقد أنني لعبت دوراً مؤثراً سواء كوزير للإرشاد، أم كعضو في مجلس الأمن القومي وقتها، أم كرئيس لتحرير الأهرام.. في المداولات والمشاورات السياسية التي أدت إلى اختيار السادات رئيساً للجمهورية بعد رحيل جمال عبدالناصر. وأظن أيضاً أنني لم أكن غافلاً عن بعض أسباب القصور فيه، لكنني تصورت أن أعباء المنصب ووقع المسئولية سوف تقوي كل العناصر الإيجابية في شخصيته، وسوف تساعده في التغلب على جوانب الضعف فيها، وكان في ذهني باستمرار نموذج الرئيس الأمريكي هاري ترومان الذي خلف فرانكلين روزفلت في مقعد الرئاسة الأمريكية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية. فقد بدا ترومان في ذلك الوقت -وبعد روزفلت- شخصية باهتة ومجهولة لا تستطيع أن

تقود الصراع الكبير فى الحرب العالمية الثانية إلى نهايته المطلوبة والمحققة، لكن ترومان أمام تحدى التجربة العملية نما ونضج وأصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين فى العصر الحديث. ولقد تصورت أن نفس الشيء يمكن أن يحدث للسادات.

وقال أيضا: ليس صحيحاً أن الرئيس السادات أقصانى عن منصب رئيس تحرير الأهرام وأن القطيعة بسبب ذلك استحكمت بيننا. لقد كانت هناك خلافات فى الرأى بيننا. واستحكمت هذه الخلافات أثناء فك الارتباط الأول وبعده مباشرة إلى درجة لم أستطع معها أن أشارك فى التعبير عن السياسة المصرية، ولقد كان قرار خروجى من الأهرام قرارى، فقد كنت أعلم حين عارضته علنا فى أسلوب مفاوضاته مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وفى الأهداف المرحلية وبعيدة المدى لهذه المفاوضات، أن الأمور سوف تصل بنا إلى صدام. ولم نتحول بهذا الصدام إلى عداء، فلقد كان قراره الأول نقلى من الأهرام مستشاراً للرئيس. واعتذرت. ثم عرض علىَّ منصب مستشار الأمن القومى للرئاسة، ومنصب نائب رئيس الوزراء، ومرة أخرى اعتذرت لأننى أحسست أنه ليس فى مقدورى أن أخدم سياسات تتعارض مع ما أومن به.

وقال: ولم أعتبر نفسى معارضاً للرئيس السادات، ولكننى كنت أحاول أن أحتفظ بصوت مستقل، وحينما بدأ الرئيس السادات يهاجمنى بانتظام وعلنا وبالاسم فى كل مرة يتحدث فيها -وحتى عندما زج بى إلى السجن- فإننى أشهد أمام الله وأمام كثيرين يعرفون الحقيقة، أننى لم أشعر فى أية لحظة بكراهية له. ولم يكن هناك مايدعونى إلى ذلك. حتى من الناحية العملية، فإنه حين يجعل رئيس الدولة من أحد مواطنيه هدفاً دائماً لهجماته فهو بذلك يرفع قدره ولا ينتقص منه، وبالتالى، فلعلى لاأتجاوز إذا قلت: إننى مدين على نحو ما للرئيس السادات بما أضافه -دون أن يقصد- إلى قيمتى فى الساحة الوطنية والساحة الدولية على السواء. ومن هنا فإننى أكرر مرة أخرى أن هذا الكتاب ليس هجوماً على السادات. وأن هذا الكتاب ليس سوى سيرة لحياة السادات. ولو أن فيه بعض عناصر مثل هذه السيرة، وإن كنت قد

قصرت ذلك على بعض النواحى الضرورية لإلقاء الضوء على شخصيته وعلى بواعث حركته.

وقال أيضاً: أعرف أن هذا الكتاب سوف يغضب بعض الناس فى مصر، وسوف يثيرهم ويدفعهم إلى حملات متجددة علىّ، ولكنى أفهم أسبابهم، فأنا أعرف أن طبقة معينة -أو لعلها جماعات أكثر منها طبقة، وربما أفراد أكثر منها جماعات- استفادت من حكم السادات، وحصلت فيه على مزايا وثروات لم تكن تخطر بخيالها.

وفى الهامش قال: قال لى السياسى المخضرم الدكتور محمود فوزى فى وصف لحكم السادات، وكان السادات فى أوج سلطته: إننا نشهد فناً جديداً لأول مرة فى التاريخ، وهو فن المسرحة بدون مسرح، فنحن أمام مشاهد مرسومة فى خلفية المسرح، وأصوات، وأضواء، وألوان، وموسيقى تدق وستار يرفع وينزل.. كل هذا بدون نص. وتبين فيما بعد أن هذا الحديث مع الدكتور فوزى سجل بواسطة أجهزة الأمن، ووصل إلى الرئيس السادات، وهو الأمر الذى استوجب غضبه عليه حتى توفى الدكتور فوزى- رحمه الله- ولم يحظ بتكريم من الدولة كذلك التكريم الذى حصل عليه آخرون أقل منه منزلة وإسهاماً فى حياة مصر.

ويعلق هيكل بعد ذلك فيقول: لقد انتهت المسرحية وأطفئت الأنوار

أما الدافع الذى جعل هيكل يفكر فى كتابة هذا الكتاب فإن هيكل لا يخفيه، ويقول فى المقدمة: أعترف أننى بدأت أفكر فى كتابة هذا الكتاب منذ اللحظة الأولى لاعتقالى فى ٣ سبتمبر ١٩٨١ حين التفت ورأيت حولى فى السجن كل هؤلاء الذين يمثلون الرموز الحية لأهم التيارات السياسية والفكرية المؤثرة فى مصر. ولقد كنت مقتنعاً -بشكل شبه وجدانى- أننى أعيش فى دراما سوف تصل إلى نهايتها فى يوم من الأيام وبشكل من الأشكال، وأننى كصحفى قد أكون مطالباً بأن أروى قصتها قبل غيرى.



وفى مقدمة الطبعة العربية قال هيكل: إننى أعرف مقدماً أن نشر الكتاب سوف يكون فاتحة لموسم من الزوابع الجديدة علىّ فى مصر، ومع ذلك فإننى أقول -مقدماً- إننى فاهم ومقدر لكل الأسباب التى تدعو أصحاب المصلحة فى مثل هذه الزوابع إلى إثارتها، فأنا أعرف أن مقاديرهم وأقدارهم ترتبط بعهد لا يريدون لأنقاضه أن تنهار عليهم، ولا يتصورون أن يضيع منهم بعده شئ مما كان عندهم فيه، وهذا منطقى، بل هو إنسانى. ومع ذلك فإن هذا الكتاب- أعترف بأمانة- لا يروى صورة الحقيقة كاملة عن هذا العهد، وأمانة أيضاً، فإننى لا أرى أن الظروف تسمح حتى الآن برواية الحقيقة كلها، وإن كان ذلك ضرورياً ذات يوم.. وهكذا فإن هذا الكتاب لا يحوى من قصة عهد السادات إلا ما كان ضرورياً لقصة (خريف الغضب)، قصة تلك الشهور الحافلة والمثيرة من سنة ١٩٨١، ولم تكن محاولتى أكثر من ذلك ولا أقل منه.

□□□

ماذا قال هيكل عن السادات فى هذا الكتاب؟.

الحقيقة أنه قال الكثير فالكتاب يقع فى ٥٧١ صفحة، ويكفى أن نقرأ عناوين الفصول لنعرف شيئاً عن مضمونها. الجزء الأول بعنوان (صناعة نجم). ويتحدث فيه عن عصر النجوم اللامعة، وعن الجذور التى أنبتت السادات، ثم حياته ومكانه فى ظل عبدالناصر، وينتهى بوصوله إلى القمة فى مصر.

والجزء الثانى بعنوان (النهب الثانى لمصر). يتحدث فيه عن المسرح الذى اختار السادات الظهور عليه، وقد اختار أن يكون العالم هو مسرحه، وعناوين هذا الجزء كما يلى: إعادة ترتيب المنطقة- صورة طبق الأصل- الأغنياء أكثر غنى والفقراء أكثر فقرا- شرخ فى شرعية النظام- والجزء الثالث عن الإسلام السياسى وفصوله الخمسة تحت العناوين الآتية: القبضة الحديدية- النزول إلى العمل السرى- العودة إلى الأصل- إخراج الجن من القمقم- هدنة مع الجن- والجزء الرابع بعنوان: الكنيسة القبطية..

وفصوله الخمسة بالعناوين الآتية: المسيح والصليب- رياح التغيير- جيل جديد- كنيسة تنطلق- الراهب المقاتل- والجزء الخامس من الكتاب بعنوان: (العواصف تتجمع) وعناوين فصوله الخمسة كما يلى: أوهام القوة- النهب المنظم- لا ضوابط ولا موازين- التدهور والفوضى- الغضب فى كل مكان- أما الجزء السادس والأخير فهو بعنوان: (الصواعق) وعناوين فصوله الخمسة: ٣ سبتمبر ١٩٨١- ٦ أكتوبر- بعد الاستعراض -من ولماذا؟- إلى أين؟- وفى الختام رسالة متبادلة بين الحكيم وهيكل.

□□□

فى ٢٢ أبريل ١٩٨٣ كتب الأستاذ موسى صبرى فى (الأخبار) عموداً بعنوان (لقطات) قال فيه:

نبهنى قارئ فاضل من بين المئات الذين تحدثوا بالتليفون إلى أنه قرأ يوما أن هناك لجنة فى المجلس الأعلى للصحافة اسمها لجنة القيم، وقال إنه فهم أن مهمة هذه اللجنة هى المحاسبة عندما يخرج صحفى فيما يكتبه عن المبادئ والقيم والأخلاق.. أو عندما ينتهك ميثاق الشرف الصحفى، أو عندما يدوس بقلمه - لا قدمه - لائحة آداب المهنة التى أقرتها الجمعية العامة لنقابة الصحفيين وأصبحت جزءا من قانون النقابة.

وتساءل القارئ: أين هذه اللجنة مما ينشر فى هذه الأيام من إهانة لشرف وكرامة أى مصرى ينتمى إلى ترابنا المقدس؟.

اتصل بى صحفى مصرى يقيم فى البحرين، قال لى وصوته يتمزق ألما، ويتحشرج تأثرا، أيها الصحفيون الذين يكتبون فى صحف مصر ردوا لنا اعتبارنا، دافعوا عن كرامة مصر. إن صحيفة اسمها (الخليج) تنشر هذه القاذورات التى تلوث مصر. وكل مصرى هنا لا ينام الليل أرقا. وأملنا فى كلمات مضيئة تنشرها الصحف المصرية تخفف بعض الوجيعة.

قال لى مواطن مصرى كبير له قدره واحترامه: أصارحك بالحق، إننى مغموم. إننى فى تعاسة نفسية لم تواجهنى فى حياتى التى عرفت خلالها كثيرا من الصدمات.. ولكن صدمتى فيما نشرته صحيفة الأهالى تصغر أمامها كل صدمة.. صدقنى.. لقد فكرت فى اعتزال الحياة العامة، فلم تعرف مصر يوما فى كل تاريخها الصحفى مثل هذا التدنى فى اغتيال كل ما هو طاهر ومضىء فى حياتنا.

وتحدث بالتليفون مواطن من جدة (السعودية) يقول: لم يغمض لى جفن، حتى قرأنا صحف مصر التى دافعت عن شرف مصر. إن كلمة الحق لن تموت أبدا.. أمام باطل هو دائما إلى زوال.

تهرب نائب محترم عضو فى الحزب الوطنى الديمقراطى من التعليق على بشاعة ما نشر تشويها لأنور السادات. هذا النائب كان فى مقدمة المصفقين لأنور السادات، المتحدثين بالعلم والمنطق عن عبقرية قرارات السادات. هذه الصورة ليست مفاجئة لى.. لأن السادات كان يرعى هذا النائب الشاب بالذات.. ويدفعه إلى الأمام.

□□□

ولم يكن الأستاذ موسى صبرى وحده الذى هاجم هيكل ووصف كتابه بأنه قاذورات، فقد كتب الأستاذ إبراهيم نافع مقاله فى نفس اليوم (٢٢ أبريل ١٩٨٣) فى الأهرام بعنوان: (غضب الشعب والخريف الغاضب) قال فيه: نعترف أولا وقبل كل شىء بأن هذا حديث فرضته علينا التطورات المفاجئة فرضا فى وقت كنا نتمنى فيه أن تنصرف جهودنا إلى قضايا الحاضر والمستقبل بدلا من الاستغراق من جديد فى بحار الماضى.

نعترف أيضا أنه حديث ثقيل على نفوسنا.. تمنينا ألا تجرنا إليه الأحداث لولا أن مسئولية الكاتب فى النهاية هى الالتزام بما يثور فى مجتمعه من تفاعلات وبما يفور فيه من آراء واتجاهات.. التزاما بهذه المسئولية كان من الصعب تجاهل ردود

الفعل الغاضبة تجاه ما نشر حتى الآن من فصول كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل الأخير.. (خريف الغضب).

ومع التسليم بأن مقدمة الكتاب - أى كتاب - لا تكفى وحدها للحكم عليه.. وبأنه ينبغى أن يناقش الكتاب ككل عقب اكتمال نشره، إلا أن الصدمة الشعورية التى حققها نشر الأجزاء الأولى منه تفرض علينا أن نناقش ما تضمنته من آراء.. وما أدت إليه من تفاعلات.

● فإذا كنا نرى أن من حق الكاتب أن يسجل وقائع عصره وأن يكون شاهدا عليها بما يثرى حياتها السياسية والفكرية برؤاه لأحداث العصر. ويسهم فى شرحها وتحليلها.. بل فى وضع اليد على الأخطاء التى ارتكبت خلالها لكيلا تتكرر. فإننا نرى أيضا أن من أهم المؤهلات الضرورية التى ينبغى توافرها لدى الكاتب عند التصدى لمثل هذه المسئولية التاريخية. هى أن يتجرد من مشاعره الخاصة إزاء الأشخاص الذين يروى عنهم أحداث المرحلة.. وألا يسمح للعوامل الشخصية بالتأثير على رؤاه التى يطرحها.

لا نعتقد أن الكاتب قد استطاع فى كتابه الأخير أن يتجرد من مشاعره الشخصية، ومن موقفه الخاص من الرئيس الراحل أنور السادات.. بالرغم من تحفظه فى مقدمة الكتاب وإعلانه أنه كان شديد التعاطف مع أنور السادات كإنسان.. وأن كتاب خريف الغضب ليس هجوماً عليه.. كما أنه على حد كلماته بالنص (لا يعبر عن ضغينة شخصية ضده).

ولنناقش معا ما جاء فى مقدمة الكتاب وفى الفصول الأولى منه:

● تهيب مؤلف الكتاب كتابة مؤلَّفه وقال إنها لم تكن مهمة سهلة. لماذا؟. يقول المؤلف: (لأن وقائعها سوف تكون صدمة لكثيرين فى الغرب تولدت لديهم انطباعات معينة عن شخصيات وسياسات، وكانت هذه الانطباعات غير متفقة مع الوقائع بحيث إن ظهور الوقائع أخيرا كان خليقا بأن يكون مفاجأة مستغربة.. ثم أيضا بسبب

العامل الشخصى فى الموضوع وهو صلته السابقة بالرئيس الراحل وما طرأ عليها من تطورات.

● ويلفت النظر هنا أن المؤلف قد تهيأ لكى يقدم كتابا يعرف أنه سوف يصدم الناس فى مشاعرهم تجاه السادات، لكن حساباته تركزت فى أنه سيصدم الناس فى الغرب، وبالتحديد فى غرب أوربا وأمريكا الذين يعترف هو نفسه أن السادات - على حد تعبيره - (قد صنع لنفسه دائرة انتخابية عالمية) بينهم. ولأن الكتاب موجه أساسا للغرب، ومكتوب فى لغته الأصلية بالإنجليزية.. فإنه لا شك لم يحسب حساباً لما سببه بالفعل من صدمة لمشاعر المصريين.. ولا من صدمة للمشاعر العربية والإسلامية فى المنطقة.

● أما عند الغرب فيمكن أن يكون تعليق مجلة نيوزويك الأمريكية على الكتاب نموذجا لردود الفعل تجاه ما جاء فيه. فقد كتبت تعلق عليه فى باب الكتب الجديدة قائلة: (إنه بالرغم من حرص المؤلف على تأكيد أنه لم يكتب كتابه بدافع من الكراهية لأنور السادات، فإن الكتاب يعبر عن قدر كبير من الكراهية للسادات). ثم قالت المجلة فى ختام تعليقها: (إن دور صانعى السلام كان دائما أصعب بكثير من دور صناع الحروب والمحاربين).

● وأما فى مصر والمنطقة العربية فلا يستطيع منصف أن ينكر ردود الفعل السلبية لما نشر من الكتاب لدى قطاعات عريضة من المصريين فى الداخل وفى الخارج، ولدى قطاعات عريضة من القراء العرب. من صورها خطابات المصريين فى الخارج العديدة التى انهالت على مصر تستنكر ما ينشر فى الكتاب من إشارات إلى نشأة السادات وفقره وأمه وأبيه.. ومن صورها أيضا قرار صحيفة الشرق الأوسط بإيقاف نشر الكتاب على رغم شرائها لحقوق نشره. فلقد أراد الكاتب مستخدما المنهج النفسى فى الترجمة لحياة السادات أن يبدأ بتحليل الأسباب التى أدت إلى أحداث خريف الغضب عام ١٩٨١ المؤلمة، بالرجوع إلى ظروف نشأة السادات الأولى مرجعا إليها كل

تكوين السادات النفسى ومفسراً بها من وجهة نظره.. شخصيته وتصرفاته وقراراته وهو رئيس لمصر يتحمل أمانة المسئولية ويقود شعبه فى معارك الحرب والسلام. فغاص فى أعماق نشأة السادات بادئا بجدته الفلاحة المكافحة من ميت أبو الكوم.. إلى والده محمد محمد السادات الذى علمته أمه المكافحة حتى حصل على شهادة الكفاءة وعمل بها موظفاً فى الإدارة الطبية للجيش، إلى أمه التى قال عنها إنها كانت ابنة معتوق أسود، زنجية الملامح وعنها ورث السادات ملامحها ولونها الذى كان له- على حد تعبيره- أثر سيئ بالغ الأهمية على تكوينه النفسى إلى آخر يوم من عمره.

وعلى طريقة الكاتب الأمريكى الأسود إليكس هيلى الذى غاص من خلال كتابه الشهير (الجذور) فى أعماق نشأته الأولى ليستخرج منها قصة جيل من العبيد الذين اختطفوا من أفريقيا السوداء ليكونوا جذور السود فى الولايات المتحدة الآن.. حاول الكاتب أن يقدم صورة مشابهة عن نشأة السادات أسماها أيضا (جذور).. وإليها يرجع كل تصرفات السادات فى رجولته وكهولته.

ويلفت النظر هنا أن الكاتب قد بالغ فى تأثير ظروف النشأة الفقيرة بين عدد كبير من الإخوة والأخوات على تكوين السادات فنسى فى غمار انشغاله بتسجيل هذه الصورة عدة حقائق مهمة:

● نسى أن السادات نشأ أصلا فى مجتمع كان الفقر فيه هو الأصل، والغنى فيه يكاد يكون مقصورا على طبقة (النصف فى المائة) من الإقطاعيين والباشوات. إذن ففقره فى نشأته لم يكن حالة خاصة يمكن أن تخلق فى أعماقه حساسية خاصة تترتب عليها آثار نفسية سيئة. وإلا لحكمنا بذلك على ٩٩,٥٪ من الشعب قبل الثورة بأن تكوينهم النفسى لم يكن سليما بسبب الفقر. أو بسبب النشأة فى بيوت مزدحمة بزوجات الأب والإخوة غير الأشقاء.. ولعل الكاتب لم ينس بعدُ أن هذه الصورة نفسها كانت هى السائدة فى الريف المصرى إلى عهود قريبة، حيث ينشأ الأبناء وسط أعداد كبيرة من الإخوة الأشقاء وغير الأشقاء.. بلا حساسيات تؤدى إلى هذه الآثار النفسية

الخاصة التى رتبها الكاتب على ظروف نشأة السادات.. ومع ذلك كله فإن المؤكد لنا أن فقر أنور السادات كان رد فعله فى نفسه إيجابيا وليس سلبيا: فالرجل لم يكن يمل الحديث عن حلم الرخاء والرفاهية، ومسكن وأرض لكل مواطن، وتأمين يغطى السائل والمحروم واليتيم والفقير. ومعاش لمن ليس له معاش وزيادته بالنسبة للجميع.. الخ.

● كذلك نسى الكاتب أن عقدة اللون والملامح الزنجية فى بلد عربى أفريقى ليس من الضرورى أبدا أن تكون لها كل هذه الآثار السيئة على نفسية مواطن مصرى عربى.. فى مجتمع لا يميز بين الأفراد حسب لون بشرتهم، وفى مجتمع تنتشر فيه وفى جنوبه بالذات مثل هذه الملامح بغير أن يدعى أحد أن لها تأثيرا سيئا على نفسية من يحملونها.. ثم أيضا فى مجتمع ترسخ فى وجدانه منذ قديم الزمان أنه (لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى).

● ونسى الكاتب أيضا أن السادات نفسه لم يحاول أبدا أن يدعى لنفسه نشأة مختلفة عما سجله هو فى كتابه.. ولم يحاول أن يجمل حياته الأولى، وأنه كان دائم الحديث فى التليفزيون فى مناسبات أعياد ميلاده عن نشأته الفقيرة فى ميت أبو الكوم.. وعن الفرن التى كان ينام فوقه.. وعن تشرده فى الحياة العريضة خلال هروبه وملاحقة السلطة له.

ولا نظن أن من خلفت ظروف نشأته الفقيرة كل هذه الآثار السيئة على تكوينه النفسى - كما صور الكاتب - يميل إلى الحديث عن هذه النشأة.. أو يفاخر بها.. أو يجد فيها ما يراه دروسا ينبغى أن يتعلمها أبناؤه وشباب بلاده. وفقا لنفس القواعد التى حاول الكاتب أن يفسر بها سلوك السادات.. ويصبح ذلك تناقضا يستعصى على الفهم وعلى التحليل. إن الكاتب لابد أنه يعرف شخصيا بعض قصص الذين تنكروا لأبويهم وأهلهم بعد شغل المناصب القيادية ولم نسمع مثل ذلك من أنور السادات.

● كذلك نسى الكاتب أيضا أن هناك فارقا كبيرا فى التكوين والمزاج النفسى والتكوين القيمى بين المجتمعات الأوربية والأمريكية والمجتمعات العربية والإسلامية،

ما كان ينبغى أن يغيب عن فطنته حتى وهو يؤلف كتابا للنشر أساسا في الغرب هذا الفارق، وهو أن قيم المجتمع السائدة في الغرب قد تقبل الغوص في أعماق العوامل الوراثية وتأثيرات النشأة الأولى بكل وقائعها العارية على شخصية المترجم له سواء في حياة المترجم له أم في مماته، وكثيرا ما استخدم هذا المنهج في الترجمة لحياة زعماء مثل بسمارك، ونابليون، وهتلر، وموسوليني.. لكن المؤكد أن قيم المجتمعات العربية الإسلامية تنفر من ذلك بكل وضوح، مهما كانت مبررات الكاتب، أو مهما كانت الصبغة العلمية التى يحاول إضفاءها على ما يكتبه.. فالمصريون والعرب - مسلمون ومسيحيون- ينفرون تماما من تشريح جثث الموتى، ويرون أن للموتى حرمة ينبغى ألا تمس مهما كانت الأسباب والدوافع.. ليس فقط مراعاة لحرمة موتى قدموا لبلادهم الكثير. إنما أيضا مراعاة لمشاعر أحياء تربطهم بهؤلاء الراحلين صلات الأبوة والرحم.. فضلا عن صلات المواطنة.. وفى وطن لا يقر أبدا التهجم على الأموات. على أن الأهم من ذلك فى رأيى هو ما جاء فى الكتاب نفسه من أحداث ووقائع رواها الكاتب من زاويته، ونرى أنها ينبغى أن تكون موضع مناقشة ومراجعة من جانب من أرخوا لثورة ٢٣ يوليو ومن يتصدون لكتابة تاريخ مصر الحديث.

● فالكاتب لا يرى فى تاريخ السادات الوطنى قبل ثورة ٢٣ يوليو الذى عمل خلاله بالنشاط السرى ضد الإنجليز. وانضم أثناءه إلى الخلايا السرية التى تعمل على تحرير مصر.. واتصل أثناءه باثنين من الضباط الألمان فى محاولة لتنسيق الجهود ضد المستعمرين الإنجليز. لا يرى الكاتب فى كل هذه المراحل سوى محاولة للهرب إلى الأوهام.. بتأثير نشأته فى بيت مزدحم فى شارع محمد بدر بالعباسية تقوم فيه أمه بكل أعمال البيت لقبيلة كبيرة من الأبناء والزوجات.

● والكاتب يرى أن السادات قد حاول إقناع حسين توفيق بأن يحول نشاط مجموعته من قتل جنود الإنجليز فى شوارع القاهرة إلى قتل الزعماء المصريين المتعاونين مع الإنجليز (لصالح القصر فى رأى الكاتب).

● والكاتب يرى أن السادات قد اشترك فى اغتيال أمين عثمان.. وفى محاولات قتل مصطفى النحاس لصالح القصر، ولحساب الحرس الحديدى الذى شكله الملك فاروق تحت إشراف الدكتور يوسف رشاد، وأن الدكتور يوسف رشاد هو الذى رتب عودة السادات إلى الجيش المصرى الذى فصل منه عقب اكتشاف صلته وضابط آخر بالألمان.

● والكاتب يرى أن كل أعضاء اللجنة التأسيسية لتنظيم الضباط الأحرار الذى أصبح فيما بعد مجلس قيادة الثورة، قد عارضوا انضمام السادات إلى الضباط الأحرار، لأنهم - كما يقول - كانوا يعرفون (السجل) ما عدا جمال عبدالناصر الذى أصر على ضم السادات للتنظيم.

● ثم يقول بعد عدة فقرات: إن جمال عبدالناصر قد قال له فيما بعد إنه ضمه للتنظيم لأنه أراد أن يضم للحركة كل الضباط الذين اقترن اسمهم بالعمل السياسى فى مصر لأن دخولهم دائرة الضباط الأحرار سوف يفتح صفحة جديدة فى حياتهم، كما أن سابق تجاربهم سوف تكون إضافة إلى حصيلة التنظيم. ثم إن السادات بعد كل هذا الماضى الوطنى، وبالرغم من تمسك جمال عبدالناصر بضمه إلى الضباط الأحرار، لم يحضر من لحظة ضمه إلى لحظة قيام الثورة سوى أربعة اجتماعات فقط للتنظيم، بل هو أيضا لم يكن مندوب التنظيم فى رفح والعريش حيث كان يعمل قبل الثورة، إنما كان المندوبان هما الأخوين جمال سالم وصلاح سالم.

ثم هو أيضا عاد للقاهرة من رفح ليلة الثورة وأصر على الذهاب مع زوجته إلى دار صيفية للسينما تعرض ثلاثة أفلام شاهدها كلها من البداية حتى النهاية، بل حاول أن يتشاجر مع أحد رواد السينما ليثبت وجوده فى السينما عند الضرورة.. ثم عاد لبيته فوجد عبدالناصر قد ترك له مع البواب ورقة يبلغه فيها أن تنفيذ الحركة سيتم الليلة، فأسرع يرتدى ملابسه ويتجه إلى مبنى رئاسة أركان حرب الجيش المصرى.

ولا يقول لنا الكاتب كيف يأتمن عبدالناصر ضابطا له هذا (السجل) على سر موعد الثورة بغير الخوف على السر الكبير من أن يتسرب إلى القصر ويتم إفساد الخطة.. تناقض كبير أردت أن أبرزه بعد هذا السرد الكبير.

- والكاتب يقول لنا أيضا إن السادات قد أذاع بيان الثورة الأول.. لأن عبدالناصر قد رأى أنه يجيد الإلقاء.. وله صوت قوى!! لا أكثر ولا أقل؟.

- والكاتب يقول لنا إن أنور السادات قد تحمل مسئوليات هامشية بعد قيام الثورة وأنه خلال توليه منصب الأمين العام للمؤتمر الإسلامى قد أنشأ صلات واسعة.. وأن إحدى هذه الصلات (صلته بعبدالرحمن البيضانى) قد جرّت مصر بعد ذلك إلى مستنقع اليمن.

- والكاتب خلال انشغاله بأن ينسب للسادات كل ما هو سلبى، من هامشية الدور فى حركة الضباط، وفى قيام الثورة، إلى هامشية المسئوليات بعد الثورة، إلى جر مصر إلى حرب اليمن، ينسى حقيقة مهمة ومسئولية أهم لا يقترب منها أبداً ولا يتلمس الجواب على ما تثيره من تساؤلات.

إذا كان ما ذكره عن السادات صحيحا مائة فى المائة، وهو ليس كذلك بالتأكيد، فأين هى مسئولية عبدالناصر الزعيم والقائد والرئيس.. عن تصرفات الرجل الذى اختاره بنفسه لعضوية تنظيم الضباط الأحرار، والذى ائتمنه على سر الثورة، واختاره أمينا للمؤتمر الإسلامى. ثم رئيسا لمجلس الأمة، ثم أخيرا نائبا لرئيس الجمهورية.. لقى ربه وهو يعرف أن الأمانة سوف تنتقل إليه؟.

ولماذا لم يقترب الكاتب من مناقشة هذه المسئولية أبدا. وهو الذى يغوص فى أعماق التاريخ ليستخرج دقائق الأحداث، والعوامل الوراثية التى أثرت فى تكوين السادات النفسى؟.

هناك بالتأكيد تناقض حائر بين ما رواه المؤلف عن شخصية السادات، وما يرويه دائما عن مسئولية عبدالناصر عمن شاركوه الحكم؛ ولا تقنعنا فى هذا المجال هذه الحكاية التى لم يشهد عليها أحد والتى تقول: إن عبدالناصر قد عين السادات نائبا لرئيس الجمهورية قبيل سفره إلى مؤتمر الرباط وفى نيته أن يعزله من منصب النائب عقب عودته، أى بعد أسبوع واحد، ثم شغلته الأحداث الكبار بعد ذلك فنسى تنفيذ قراره بسحب مسئولية النائب من أنور السادات، خاصة أن الكاتب نفسه يعود بعد فقرات فى كتابه ليؤكد إصرار عبدالناصر وتمسكه بأنور السادات كنائب له!!

ولا يفسر لنا الكاتب وهو الوحيد المؤتمن على هذه القصة - كما يقول - لماذا كان حماسُه خلال اللحظات الحاسمة عقب رحيل عبدالناصر لأن يتولى السادات مسئولية رئاسة الجمهورية بالنيابة لمدة ستين يوما تمهيدا لإجراء الاستفتاء، ولماذا كان حماسه لأن يعلن السادات بنفسه وفاة عبدالناصر كإشارة لانتقال السلطة إليه؟.

ولا يفسر لنا الكاتب هذا التناقض. كما لا يفسر لنا تناقضات أخرى عديدة وقع فيها خلال حرصه على رسم هذه الصورة البشعة لرجل حكم مصر أحد عشر عاما وحققت مصر خلال حكمه أول انتصار عسكرى لها بعد الهزائم المريرة المتتالية.. وانتقلت مصر فى عهده من الحرب إلى السلام، واستردت أرضها السليبة التى اقتطعت منها فى عصور الهزائم والشعارات.

ولأننا لا نتوقع أن يقدم لنا الكاتب تفسيرا لكل ذلك، فإننا نطالب مؤرخى ثورة ٢٣ يوليو وهم كثيرون. وأساتذة التاريخ الحديث، أن يقولوا كلمتهم.. وأن يخضعوا هذا الكتاب للدراسة العلمية الوثائقية.

هذا ما كتبه الأستاذ إبراهيم نافع..



وكان أشد هجوم من الأستاذ موسى صبرى فى الأخبار يوم ٥ مارس ١٩٨٣ بعنوان (رسالة الرجال.. لا دور الأفاعى) قال فيه:

المليونير الاسترالى (ماردوخ) - وهو من الأسماء اليهودية اللامعة فى عالم المال والأعمال - يدفع للكاتب (المصرى) محمد حسنين هيكل، جنيها كاملا عن كل كلمة يكتبها. أى أن السطر الذى يتكون من ٦ كلمات ثمنه ستة جنيهات. هذا ما قاله هيكل فى ندوة عقدتها له مجلة (المصور) تحدث فيها عن أجره فى صحيفة (الصنداى تايمز) التى يعمل بها، والتى يملكها (ماردوخ) من بين ما يملك من صحف فى انجلترا وأمريكا واستراليا.. علاوة على أن رئيس تحرير هذه الصحيفة تربطه صداقة شخصية بالكاتب (المصرى)..

وإذا كان هيكل يدلل بذلك على أنه (أغلى) كاتب فى العالم، فإن ذلك لا يبيح له أن ينشر مقالا فى شكل حديث فى هذه الصحيفة التى يملكها (ماردوخ).. يظهر فيه، أن شعب مصر شعب همجى، وأن إرهاب الجريمة والاغتيال هو موضع إعجاب هذا الشعب، وأنه شعب جاحد جبان يلوث سيرة الزعيم الذى كان يصفق له، وينسى له أنه خلص البلاد من الوجود العسكرى السوفيتى، وأنه رفع رأسه وكرامته بانتصار أكتوبر الخالد، وأنه وضع مصر فى أسمى مكانة بقرار السلام الذى حرر الأرض من الاحتلال الإسرائيلى.

مهما كان ثمن الكلمة الواحدة.. جنيها أو خمسة جنيهات.. فإن ذلك لا يبيح لكاتب (مصرى) أن يقول: إن قتلة السادات هم أبطال وطنيون!.. ولا يبيح لنفس الكاتب أن يقول إنه إذا صدر حكم بإعدام قتلة السادات، فإن تنفيذ هذا الإعدام سيكون يوم حزن فى مصر!.. ويكتب هيكل أن هذا هو رأى الشعب المصرى!!

ومفهوم ذلك، وفقا لتفسير الكلمات، أنه ما دام القاتل بطلا قوميا، فإن القتيل لابد أن يكون خائنا قوميا.. وما دام يوم إعدام القاتل، هو يوم حزن.. فلابد أن يكون يوم اغتيال القتيل، هو يوم أفراح.

هذا هو المفهوم، من كاتب يحترف الكتابة ويصف نفسه بأنه (أغلى) كاتب فى العالم.

أعرف أن الكثيرين سوف لا يصدقون.. ولكن هذا ما حدث، وبالحرف الواحد، وفى صحيفة (ماردوخ) يوم الأحد ٢١ فبراير.

هذا عدا سطور عديدة ملأت صفحة كاملة- لم أحص كلماتها لأعرف قيمتها النقدية - كلها تلويث فى سمعة أنور السادات، الذى مجده ويمجده العالم المتحضر بطلا للحرب وبطلا للسلام.. وزعيما شجاعا أعطى لمصر فى عشر سنوات، ما لا يمكن أن يبنى فى أضعاف هذه السنوات.. وقد تسلم المسئولية الأولى، ومصر مهزومة ومحتلة، واقتصادها تحت الصفر. ومعتقلاتها غاصة بالآلاف.. وأخيرا افتداها بدمه.

حق التاريخ

كل الزعماء، ملك التاريخ.. وكل القادة تعرض أعمالهم بالتأييد أو النقد، ويكتب عن حسناتهم وأخطائهم.. وهذا أمر طبيعى.. ولكننا (تميزنا) عن كل شعوب العالم، بأنه يوجد من بيننا، من يسارعون، إلى تلويث زعمائنا، بمجرد أن نواريهم التراب.

حدث هذا لعرابى، واتهموه بالجهل والخيانة، وعومل أسفل معاملة بعد عودته من المنفى. حدث هذا لمصطفى كامل، واتهموه بأنه عشيق الأميرات. وحدث هذا لمحمد فريد، واتهموه بأنه جبان هرب إلى أوربا خوفا من الحبس. وحدث هذا لسعد زغلول، واتهموه بأنه تزوج ابنة عميل الاستعمار البريطانى.

وعندما مات عبدالناصر، خلفه زعيم مصرى أعلن عشرات المرات أنه مسئول مسئولية كاملة، عن كل قرار أصدره عبدالناصر. وتصدى أنور السادات - وأمام مجلس الشعب - لصحفى أراد أن يلوث سمعة عبدالناصر فى ذمته المالية. وهاجم السادات كتاب عثمان أحمد عثمان الذى تعرض فيه لسمعة عبدالناصر. واستقال عثمان من

الوزارة. وقد كان هيكل من أشد الناقدين للكتاب الذين كتبوا عن جرائم التعذيب فى عهد عبدالناصر، وأرادوا أن يمسحوا من التاريخ كل أمجاد عبدالناصر مقابل أخطائه.

ومهما كانت المبررات أمام عبدالناصر لاعتقال الآلاف.. فإن هيكل لم يكتب كلمة واحدة، دفاعا عن حرية أحد. وكان هو الكاتب الأوحد الذى لا يخضع مقاله للرقابة.. لأنه هو الذى كان يصدر الأوامر التى تنفذها الرقابة على الصحف. وعندما كان وزيرا للإعلام، كان هو الرقيب العام. وكان هناك من عذب وضرب حتى الموت، بواسطة أتباع بعض مراكز القوى.. وأسماؤهم معروفة، ولم ينطق هيكل بحرف واحد. ونقل عشرات من الصحفيين إلى محلات (باتا) وغيرها، وصمت هيكل. بل إنه وهو رئيس لمجلس إدارة أخبار اليوم، أمر بنقل ٢٧ صحفيا إلى مثل هذه الأماكن.

ولكن هيكل الآن، يشهّر بكل قرار لأنور السادات. حتى قرار حرب أكتوبر، أراد أن ينتزعه من تاريخ أنور السادات. وأصبح هيكل، هو حامى حمى الحريات، فى الأحاديث والندوات.. بل تجرأ وقال إن الشباب فى عهد عبدالناصر كانوا مفعمين بالأمل.. ونسى تماما أحداث الشباب فى عام ١٩٦٨ التى طالبت بالحرية والديمقراطية، وبكت مرارة الهزيمة المنكرة.. هزيمة يونيو ١٩٦٧. وكان انهياراً نفسياً لم يتعرض له شباب مصر من قبل.

صفحة جديدة

وإذا كان السادات قد أغلق المعتقلات، وأفرج عن المسجونين السياسيين، وألغى الرقابة على الصحف، وأقام دولة المؤسسات، وأنشأ الأحزاب المعارضة بصحفها غير الخاضعة لأية رقابة.. وفتح قناة السويس التى تحقق أكبر الموارد، وبنى سياسة الانفتاح التى حققت الاكتشافات البترولية الضخمة.. وقنن التأمين الاجتماعى لكل عاجز ومحتاج على أرض مصر. إذا كان السادات قد فعل كل ذلك، فإن كل ذلك يجب أن

يمحى من تاريخه، لأنه اضطر.. وأكرر.. اضطر.. إلى حجر حريات عدد من السياسيين أحيلوا إلى تحقيق قضائى كان يحضره المحامون بكل الحصانات القضائية..

وليكن هذا من أخطاء السادات.. فقد تولى القيادة رئيس جديد، مد يدا كريمة لكل من يريد أن يشارك فى بناء مصر.. وبدأ صفحة جديدة مع المعارضة، من أجل التصدى يدا واحدة لكل المشكلات القومية من أجل حق الجماهير فى الحياة الكريمة.. وطلب من الجميع أن ينظروا إلى المستقبل.. أن يتركوا نبش الماضى.. أن ينطلقوا إلى الأمام من قاعدة إيجابيات عبد الناصر، وإيجابيات السادات.. وكل إيجابيات فى تاريخ مصر على مدى نضالها الطويل.

ولكن محمد حسنين هيكل لم يتحمل أن يسجن سبعين يوما، وقد كان يتناول طعامه من طباخه الخاص.. وكانت تأتيه وردة حمراء كل يوم.. ثم أفرج عنه الرئيس حسنى مبارك، وكرمه مع باقى المفرج عنهم.. وأقيمت له الندوات الصحفية وكأنه الشهيد المناضل.. وعرض عليه رئيس مجلس إدارة (الأهرام) أن يكتب على صفحاتها.. فكان رده بالحرف: (أنتم فقراء.. لا تستطيعون الآن دفع أجرى.. إن أجرى جنيه عن كل كلمة واحدة..). واستحلى مسألة الندوات والتصريحات التى تحدث فيها، حديث (الأبطال) عن الحرية والديمقراطية.. وتحدث عن عزلة مصر العربية فى عهد السادات.. ونسى.. أو تصور أن الجماهير نسيت.. أنه كان القلم الذى هاجم جميع الدول العربية فى عهد عبد الناصر!.. حتى إن بومدين رئيس الجزائر أقسم أنه لن يدخل مصر، وفيها محمد حسنين هيكل.. وشاهد هذه الواقعة الدكتور مراد غالب وزير الخارجية الأسبق.

هو .. وحده

دعنا من كل ذلك ..

إن كل من أفرج عنهم من السياسيين، التزموا مشكورين ببداية صفحة جديدة.. ولم يسع أحد منهم إلى تجريح الزعيم الراحل أو تشويهه أو تمزيق صورته.. باستثناء

واحد، هو محمد حسنين هيكل.. الذى كان يتمتع بكل حرياته فى عهد السادات، ومنها حرية كتابة الكلمة الواحدة بجنيه واحد.. وأراد بكل ما كتب أن يفسد قضية السلام.. وأن يفسد قضية الديمقراطية.. بل إن السادات عرض عليه أن يصدر مجلة أكتوبر، ولكنه اعتذر.. حتى جرى قرار القبض عليه، ثم الإفراج عنه.. وسافر إلى لندن، ليكتب فى صحيفة البليونير الاسترالى (ماردوخ).. أن قتلة السادات أبطال وطنيون، وأن تنفيذ الإعدام على القتلة - إذا صدر حكم بإعدامهم - سيكون يوم حزن فى مصر!

وهذه هى الأخلاق!

وهكذا يستخدم هيكل الحرية التى يتمتع بها.. بكلمات هابطة بكل القيم والمبادئ التى يحترمها أى رجل أمى فى مصر.

ما علينا..

وليس وحده!

ليس هيكل وحده الذى يسلك الآن هذا الدرب المظلم.. الذى تجنبه السياسيون المفرج عنهم.

ولست فى دهشة أن يسلكه.. فمن قبل، وفى أعوام عديدة سبقت ثورة ٢٣ يوليو، كان هيكل يكتب لصحف (أخبار اليوم) إعلانات، المليونير المرحوم أحمد عبود.. وكان أجره عن الصفحة الكاملة عشرة جنيهات (٤ آلاف كلمة).. ثم جاءت الثورة وهاجم أحمد عبود، وأصبح هيكل اشتراكيا!

لست فى دهشة من سلوكه، ولكننى فى دهشة وأسى، من سلوك أحد أعضاء مجلس الثورة السابقين، وهو حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية فى عهد الرئيس السادات لمدة أربع سنوات.. لقد أدلى بثلاثة أحاديث، لصحيفة الشرق الأوسط السعودية التى تصدر فى لندن وتوزع فى البلاد العربية، اتهم فيها أنور السادات بأنه

كان شريكا فى مؤامرة عبدالحكيم عامر لقلب نظام عبدالناصر فى عام ١٩٦٨!! وقال إنه لم يسر فى جنازة السادات لأنه لا يسير فى جنازة منافق!!.. وإن السادات أذاع أول بيان لثورة ٢٣ يوليو من الراديو لأن قادة الثورة كانوا مشغولين فى أعمال مهمة، وكان السادات بلا دور.. إلى آخر هذا (الغسيل).. الذى يثير العجب والعجاب.. فكيف إذن يا سيدى قبلت أن تكون نائبا لهذا الرئيس أربع سنوات كاملة؟.. وكنت تسافر خلالها إلى عواصم خارجية رسولا منه وعنه؟.. بل إنك لم تقدم استقالتك، حتى أقلت.. أو أبلغك ممدوح سالم بالقرار، وكان ردك: هذا حق رئيس الدولة الدستورى!!

ثم هناك عضو آخر من أعضاء مجلس الثورة، هو كمال الدين حسين.. شارك زميله حسين الشافعى فى مسلكه، ونشر أحاديث مماثلة فى صحف عربية.. بفارق واحد هو أن الشافعى انهال بالاتهامات على أنور السادات.. أما كمال الدين حسين.. فقد اتجه بالاتهامات إلى عبدالناصر والسادات معا!

لست بهذه السطور، أفتح معارك جانبية.. ولكننى حزين.

حزين لأننى لا أجد هذه الظاهرة المخزية، إلا بين المصريين!

لم نقرأ لسعودى أو جزائرى أو لبنانى أو عراقى.. أو من أية جنسية عربية، سطورا عن قاداتهم وزعمائهم.. كما نقرأ لهؤلاء المصريين الأفاضل.

ومتى ؟ ..

بعد اغتيال أنور السادات.

ومتى ؟ ..

بعد أن تولى رياسة دولة مصر، رجل أخلاقى.. وجه الدعوة المخلصة للجميع، أن يشاركوا فى تقرير مصير مصرهم جميعا.. وتابعها بالخطوات العملية التى تؤكد صدق دعوته، وسلامة نواياه.

قدم قدوة أخلاقية وطنية..

ولكن البعض، لا يريد إلا أن يدور حول نفسه وذاته!

ولماذا ؟ ..

هل نسيتم أن الإرهاب الذى قتل أنور السادات كان يضع الجميع وبلا استثناء واحد، فى تخطيط التصفية الجسدية؟

●●●

أفيقوا يا قوم. انظروا إلى مصر. قدموا العطاء الذى يثرى. أجهدوا العقل، بما يرفع من شأن مصر. سخروا الفكر لما يفيد. انتزعوا أنفسكم من أسار الذات. انهلوا من منبع حب. وإذا كنتم من هواة تقديم الشهادات.. فأقسموا بضمائركم أن تقولوا الحق، كل الحق، ولا شىء غير الحق. وإذا أردتم مناقشة الماضى، فبالموضوعية،والتحليل العلمى المحايد، وبما يكمل حلقات البناء، ويضيف قيما جديدة شريفة إلى حياتنا.. وحياة الأجيال من بعدنا.

●●●

السفينة ماضية بالصدق والإخلاص والحكمة والقدوة الطيبة والقيادة الأخلاقية الرشيدة.. إلى بر الأمان.. وليكن لكل منا دور فى دفعها لتتحدى كل الأمواج والحيتان. وهذه هى رسالة الرجال والشجعان.. لا دور الأفاعى والفيران.

هذا ما كتبه الأستاذ موسى صبرى.

□□□

لم يكن ذلك كل شىء.. ففى ٢٧ أبريل ١٩٨٣ عقد المجلس الأعلى للصحافة اجتماعا استمر حوالى أربع ساعات برئاسة الدكتور صبحى عبدالحكيم رئيس المجلس

لمناقشة كتاب (خريف الغضب). واعترض عضو واحد على المناقشة أصلا، وكان هذا العضو هو الأستاذ حسين عبدالرازق رئيس تحرير صحيفة الأهالى فى ذلك الوقت.

ونشرت الصحف النص الكامل لمناقشات المجلس الأعلى للصحافة حول هذا الكتاب. وأضافت ما كتبه يوسف إدريس عن السادات أيضا وكانت الجلسة مباراة فى الهجوم على هيكل بأقسى ما يمكن من ألفاظ.

قال الدكتور عبدالمنعم النمر مثلا: فى الوقت الذى تعانى فيه مصر ما تعانى، فى الوقت الذى أشرفت فيه مصر على الاحتفال بأكبر إنجاز حققه السادات ذكرى إتمام الجلاء عن سيناء وتحريرها نجد إنسانا يمثل فى الهجاء الحطيئة والمتنبى حين كان يسلط لسانه على من لا يمده بعطاء ينشر على العالم سمومه وأحقاده على زعيم كافح منذ شبابه وسجن وتعذب فى سبيل مصر وأنجز لها إنجازات كنا نتمناها، وينفذ ما فكر فيه وهو فى أيام سجنه - لا سنوات سجنه - ويدوس فيه على كل القيم التى عشنا فيها ويها ويقول إننى أكتب تاريخا، ومتى كانت كتابة التاريخ للحاقدين؟. ولابد أن يكون للمجلس الأعلى للصحافة وللسادة الذين أصدروا فى الجلسة الماضية ميثاق الشرف الصحفى أن ينظروا هل يتفق ما نشر مع ميثاق الشرف الصحفى أو أن هذا شئ بعيد عن ميثاق الشرف الصحفى الذى التزمنا به جميعا. ولابد أن يقولوا كلمة بصدد هذه الحالة السيئة التى انحدرت إليها لغة الصحافة، ولابد أن يقولوا شيئا بالنسبة لمسلك هذين الكاتبين (هيكل ويوسف إدريس) اللذين أساءا إلى تاريخنا وإلى زعمائنا أو إلى الزعيم الذى التفت الأمة كلها من حوله. فإن الأمة لم تكن بلهاء ولم تكن عجماء ولم تكن غائبة عن وعيها حينما التفت حول الزعيم الذى ينهشون فيه حيا وميتا، أو ميتا قبل أن يتكلموا كلمة واحدة وهو حى. إن هذا الموقف موقف لا أخلاقى، ولا دينى، ولا إنسانى.

وقال الأستاذ سمير رجب: الواضح أن هناك أطرافا لم تلتزم بميثاق الشرف الصحفى والدليل ما صدر من كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل والحلقات المسلسلة

التى يكتبها الدكتور يوسف إدريس فى صحيفة القبس الكويتية بعنوان: (البحث عن السادات) ثم إعادة نشر كتاب الأستاذ هيكل فى صحيفة الأهالى، كل هذا فى الحقيقة يجعلنا نتساءل أين ميثاق الشرف الصحفى؟.

فى رأيى أن هذا النشر فى هذا الوقت بالذات يريد أن يسلب مصر كلها - وليس أنور السادات فحسب - من أى مجد.. الدول كلها تبحث عن أمجاد لها.. ونحن للأسف نحاول أن نهين أنفسنا بأنفسنا.. عندما نقول إن الغباء الأكبر المتمثل فى أنور السادات التقى بالذكاء الأعظم المتمثل فى هنرى كيسنجر. كيف نرضى عن أنفسنا أن نقول ذلك؟. نحن بهذا نوجه لأنفسنا صفات عديدة منها الجبن، والاستسلام، والخضوع، ونحن نرفض هذا كله. إذن فكما قال فضيلة الدكتور عبدالمنعم النمر لابد أن يكون للمجلس الأعلى للصحافة وقفة.

وقال الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى: لاحظنا فى الفترة الأخيرة أن الساحة الصحفية امتلأت بالاتهامات وأن الكلمة نفسها امتهنت، ونحن لا نناقش الآن كتابا، وإن كنت أتمنى ألا يصادر هذا الكتاب، وألا تصدر الحكومة قرارا بمنع نشره.. كان يجب أن يظل ينشر.. ويناقش.

وقاطعه رئيس المجلس: هل الحكومة أصدرت قرارا بمنع نشره؟.

الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى: قرأت هذا فى الأهالى.

رئيس المجلس: لم يحدث.. هل لديك وثيقة تدل على هذا؟.

الأستاذ حسين عبدالرازق رئيس تحرير الأهالى: القرار الإدارى شفهيا أو مكتوبا ينفذ، ونحن أبلغنا بقرار من السيد وزير الداخلية حسن أبو باشا.

رئيس المجلس: عندما أعطى لسيادتك الكلمة تتكلم كما تشاء.

الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى: فى تقديرى أن ما ورد فى هذا الكتاب مسرف وغير مفيد وهو بالعكس ضار.

رئيس المجلس: الكتاب لم يصدر بعد حتى يصادر. إذن لم يصدر قرار بمصادرة كتاب لأن الكتاب غير موجود.

الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى: معلوماتى مأخوذة عن الأهالى التى قالت إنها منعت من النشر، ورئيس تحرير الأهالى موجود ويستطيع أن يوضح لنا هذا.

رئيس المجلس: لقد نشر معظم ما ورد فى الكتاب.. هل أحد منعها؟. هل أحد صادرها؟.. هل لو نشرت الحلقات هل كان أحد سيصادرها؟.

الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى: على كل حال ما جاء فى الحلقات أو المفروض أن يناقش مناقشة موضوعية، والمفروض أن تكون لغة المناقشة ليست من لغة الهجوم. الهجوم فيه هبوط وفيه إسفاف. يجب أن تكون لغة المناقشة موضوعية، وهذا أحسن رد وتأديب لمن يتهجم على سمعة مصر لا رئيس مصر. نحن نناقش ظاهرة سيئة جدا فى الحياة الصحفية، وهى ظاهرة التراشق بالاتهام، واستعمال ألفاظ لا تليق بمستوى المناقشة الصحفية. وفى رأيى أنها تسقطنا وتسقط سمعة مصر، وتسقط سمعة المصريين وتسقط هيبتهم وقيمة كلمتهم أمام القراء. مع الأسف أصبحت هناك موضة وهى الهجوم على أنور السادات.. أنور السادات فى ذمة الله وله إنجازاته العظيمة، وله أخطاؤه العظيمة أيضا، لكن عندما يتساءل صحفى، وعندما تنشر صحيفة مصرية، سواء نقلا عن كتاب أو جريدة أخرى نقدا للسادات أم هجوما على السادات ينبغى أن تتحفظ، وتقدم موقفها هى: هل توافق أو لا توافق على هذا الهجوم؟. إنها تنشر عملا بحرية النشر وبحق القارئ فى أن يطلع، لكن أن تنشر الأشياء كما هى بلا تحفظ، فإن هذا فى رأيى موضوع يخالف ما اتفقنا عليه، إننا يجب أن نتعاهد على أن تكون لغة الحوار بما يليق بنا. والتاريخ ملك التاريخ، ويستطيع أى إنسان أن يتناوله، ولكن نطالب بتناوله بمقتضياته، وبما يجب من احترام فى اللغة.

الأستاذ حسين عبدالرازق: أنا كرئيس تحرير لصحيفة معارضة لا أستطيع أن أحصل على الصحف العربية المراقبة!

رئيس المجلس: ماذا تعنى بالمراقبة.

الأستاذ حسين عبدالرازق: الممنوع دخولها مصر. أى إن صحيفة القبس التى نشرت مقالات يوسف إدريس لم أطلع على أية نسخة منها، وصحيفة الوطن منذ نشرت الحلقة الثانية من الكتاب منعت من دخول مصر ولم أطلع عليها، فأزعم أنه لا يوجد، وغير متاح أمامنا موضوع خريف الغضب كاملا، أو مقالات يوسف إدريس كاملة، حتى يمكن أن نناقشها، ولكنى أعتقد أن المطروح علينا ثلاث قضايا أساسية: القضية الأولى: أسلوب الحوار. القضية الثانية: حرية الصحافة. القضية الثالثة: ما أثاره هذا الكتاب من نقد سياسى.

بالنسبة لأسلوب الحوار أنا أقول : إن كثيرين من الزملاء الذين ناقشوا ما وصل إلى علمهم من كتاب خريف الغضب خرجوا على أدنى حدود القيم والأخلاق والقانون فى المناقشة، ووصل الكلام إلى حد الاتهام واستخدمت كلمات مثل: الانحطاط، والسفالة.. والعمالة.. والخيانة.. وبالنسبة لقرار المنع فإن السيد وزير الداخلية اللواء حسن أبوباشا اتصل بأمين عام الحزب واستقبله يوم السبت الساعة الثانية عشرة والثلث مساء لكى يبلغه بمنع نشر هذا الكتاب، واستند إلى أن الكتاب لم يصدر لكى نصادره، إنما سيصدر قرار بأن يصادر، والجرائد التى نشرت فصول الكتاب صدر قرار بمنع دخولها إلى مصر ومصادرتها، وبالتالى فممنوع نشرها فى الأهالى أو غيرها. وظل الحوار متصلا بيننا وبين السيد وزير الداخلية حتى يوم الثلاثاء الساعة الحادية عشرة صباحا فى اجتماع حضره كثيرون من الأهالى ومن وزارة الداخلية، وأكد وجود هذا القرار، لأننا كنا نريد قرارا مكتوبا، والدكتور يحيى الجمل كان موجودا، وهو يعلم قانونا أن القرار الإدارى يمكن صدوره شفويا أو كتابة، ونستطيع أن نذهب إلى المحكمة بقرار إدارى شفوى، وبالتالى فإن هناك قرارا، وأنا لست كاذبا، وأنا أقول ممنوع النشر.

النقطة الثانية بالنسبة لنقد السياسيين فإن المقرر فى قضاء محكمة النقض أن الطعن فى الخصوم السياسيين بنوع عام يجوز قبوله بشكل عام، وأوسع من الطعن فى

موظف معين بالذات، وأن الشخص الذى يرشح نفسه نيابة عن البلاد يتعرض عن علم بأن يرى كل أعماله هدفا للطعن والانتقاد، وأن المناقشات العمومية مهما بلغت من الشدة فى نقد أعمال وآراء الأحزاب السياسية يكون فى مصلحة الأمة أن يكون لها رأى صريح. أكثر من هذا الدكتور محمد حسين هيكل كتب مقالا يتهم فيه سعد زغلول وهو رئيس للوزراء بالخيانة وموالاته للإنجليز والاتفاق سرا على تنازل كثير من حقوق مصر. وسعد زغلول لم يكن مجرد رئيس وزراء. بل كان زعيم الأمة كلها، وجاء القضاء وقال فى هذا الموضوع ما يلى: حيث إنه بالاطلاع على تلك المقالة يتبين أن ما جاء فيها كذا وكذا.. ولا ترى المحكمة فى تلك العبارة ما يمكن اعتباره ماسا بكرامة رئيس الحكومة باعتباره من رجال السياسة، وأعمالهم معرضة بحكم طبيعتهم ووظيفتهم للنقد السياسى وحسبنا دليلا على ذلك ما نراه من نقد مر فى الجرائد الأجنبية خاصا برجال سياستهم.

وختم الأستاذ حسين عبدالرازق كلامه بقوله: إننى أضع أمام الزملاء هذه النقاط، لكى يعرفوا أن هناك فرقا بين نقد رئيس دولة وكتابة تاريخه من وجهة نظر الكاتب، وبالتالى أقول إن القضية المعروضة علينا الآن ليست ما كتبه الأستاذ هيكل فى خريف الغضب، وما نشرته الأهالى، ولا يملك أحد أن يضع وصاية على الشعب المصرى.. لذلك ينشر كتاب هيكل، والذى يريد أن يرد عليه يرد ويقول ما يريد ليعرف الناس الحقيقة.

الموضوع الثانى الطريقة التى عولج بها كتاب الأستاذ هيكل.. الألفاظ البذيئة التى نشرت فى الهجوم على هيكل وعلى جريدة الأهالى وعلى حزب اليسار وعلى التجمع وعلى خالد محيى الدين.. هذا هو ما يحتاج اليوم إلى نقاش وليس كتاب هيكل.. فالكتاب منشور ويتحمل هو مسئوليته ويمكنه الرد عليه، وإننى أخشى ما أخشاه أن يقيم مجلس الصحافة من نفسه حكما فى قضية سياسية. والمعركة ليست أسلوب الصحافة ولا الحوار، إنما هى قضية سياسية. والبعض يريد أن يتحول مجلس الصحافة إلى محكمة تفتيش تدين وتصدر أحكاما بالبراءة وإننى أحذر من هذا.

وقال الأستاذ على منصور: إن الحق فى نقد الشخصية العامة رخصة مقررة ولكن هناك فرق بين استعمال الرخصة وإساءة استعمال الرخصة.

والسؤال: هل نحن أمام إساءة استعمال الرخصة أو لا؟.

وقال الأستاذ موسى صبرى: إن حرية الرأى ليست حرية السب وحرية التشهير وحرية امتهان الكرامات والحرمات.. الأمر ليس أمر تفسير قانونى ولا انتزاع كلمات من حكم قضائى. ولكنه أمر قيم عامة وأخلاقيات يجب أن نرعاها فيما نكتب سواء وصلت إلى طائلة القانون أم لم تصل.. سبحان الله.. كاتب خريف الغضب وضع مقدمة الكتاب ليقول للغرب يا من قدرتم أنور السادات فهو لا يستحق القمة التى وضعتموه عليها.. كرايسكى قال: إن فى هذا القرن تشرشل وأنور السادات، جميع زعماء وقادة العالم المتحضر أحسوا بالفجيعة عندما استشهد أنور السادات. أحسوا بخسارة العالم لهذا الزعيم النادر المثال، ونحن عندما يقدم لنا العالم هذه الثروة الوطنية ويمجد تاريخ أنور السادات هو تمجيد لمصر. لا يا سيدى هذا إرهاب. إننا لا نأتى هنا كل مرة ونقول القانون العام. هل كل واحد يكتب عنه سطر يلجأ إلى المحاكم؟. إذن نطلق حرية القذف والسب وإهدار الحرمات.. لماذا؟.. لب القضية أن ننتشل ما يجرى الآن من هذا الانحدار، وأنا أكرر أننا ننحدر بأنفسنا.. لا يا سيدى.. على هذا المجلس وفيه كل القيادات الصحفية وقيادات رأى من الجامعات ومن أهل الذكر، فإن عليهم جميعا أن يتكاتفوا لدرء هذا الخطر الداهم لا على قيم الحرية فحسب. بل على القيم والأخلاقيات التى يجب أن تبث لهذا الشعب وتعطى أمثلة وهاجة للشباب الحائر الممزق، وإلا فنحن نخون أمانة عملنا الصحفى أولا، وأمانة وجودنا كأعضاء فى هذا المجلس.

وقال الأستاذ صبرى أبو المجد: إن هذه الجلسة من الجلسات التاريخية التى يجب أن نهتم بها ونعطيها أهمية صادقة، أقسم لكم أننا لم ننزل فى خلافنا السياسى إلى ما وصلنا إليه الآن. أقسم لكم أن الكتابة عندنا فى مصر لم أجد انحدارا فى الأسلوب

وفى المعنى وفى الأداء كما انحدر إليه الأسلوب هذه الأيام. من الممكن أن أنتقد زعيما ما لأعماله السياسية، هل نرضى عن هذا؟ أو نحن نرضى لأن الذى وقع عليه السب هو أنور السادات فقط؟. هل هناك واحد امتهنت كرامته كما امتهن أنور السادات؟. هل يجرؤ أى كاتب من هؤلاء الكتاب الذين تعدوا الألوف أن يهاجم مأمور قسم فى الكويت أو فى أبو ظبى؟. أصبحت مصر حلالا مستباحا لكل من هب ودب.. حرام.. أقولها من قلب مخلص. نحن لا نحاكم كاتبا ولا نحاكم كتابا، إنما ندعو إلى وقفة مع أنفسنا.. ما نشر فى الأهالى.. وما نشر فى الأهرام بالأمس مما كتبه يوسف إدريس هل يرضى عنه أحد؟. آن لنا أن نقف وقفة قومية وليست وقفة حزبية.. هذا وباء يفتك بهذا الشعب فأرجوكم وأتوسل إليكم أن تعملوا جميعا لإنقاذ الشعب من هذا الوباء وشكرا.

وهكذا توالت الكلمات من الأساتذة الدكتور حسين مؤنس، ويحيى أبو بكر، وممدوح رضا ود. أحمد سلامة وصلاح منتصر وصلاح جلال وثروت أباظة، ولم تخرج كلها عن هذه المعانى، وفى النهاية أصدر المجلس الأعلى للصحافة البيان التالى:

إن المجلس الأعلى للصحافة، وقد ناقش ما نشر مؤخرا فى بعض الصحف عن الحياة الخاصة للزعيم الراحل محمد أنور السادات، وعن انتصارات حرب أكتوبر، وبعد أن استمع إلى جميع آراء أعضائه، وبعد تذاكر مواد الدستور وقانون سلطة الصحافة وقانون نقابة الصحفيين وميثاق الشرف الصحفى. يستنكر المجلس كل ما نشر لمجافاته للحقائق التاريخية الناصعة، واعتدائه على حرمة الموتى، وتعرضه لحياتهم الخاصة، ومخالفته لتقاليد المجتمع الدينية والأخلاقية والمهنية، فوق محاولته طمس أمجاد الجيش المصرى وبطولات الشعب المصرى. وإن المجلس وهو حريص كل الحرص على حرية الصحافة التى تنشد دائما نشر الحقائق والمعلومات بموضوعية كاملة، يهيب بالصحفيين قاطبة أن يحافظوا على تقاليد مهنتهم العريقة فى أساليب جدلهم وحوارهم، وفى نشر الحقائق دون تحريف، تلك المهنة السامية التى يسألون عن الحفاظ على آدابها وتقاليدها وكرامتها مسئولية أولى تأسيسا على ما تقدم فإن المجلس يدين

الأسلوب الذى لجأ إليه الأستاذ محمد حسنين هيكل والدكتور يوسف إدريس، كما يدين كل من نهج هذا النهج.

وقرر المجلس بناء على طلب الأعضاء أن تنشر الصحف النص الكامل لكل ما دار فى الجلسة من مناقشات وفقا لما سجلته المضبطة.

□□□

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد دخلت نقابة الصحفيين المعركة وأصدرت هى الأخرى بيانا عقب اجتماع مطول لمجلس النقابة وطالب المجلس فى بيانه الالتزام بكفالة حرية النشر فى حدود القوانين والعرف الصحفى، وإتاحة الفرصة أمام كل الآراء وكذلك كفالة حق الرد الموضوعى. كما طالب المجلس بإدانة أى استعداء للسلطات ضد أى من الكتاب والصحفيين، وكذلك التفرقة بين دراسة الأشخاص وبين التجريح لهم أحياء كانوا أو أمواتا. كما طالب المجلس بالبعد عن تصفية الحسابات الشخصية على حساب القضايا الأساسية العامة لشعب مصر، وتجنب الهبوط بمستوى الحوار الصحفى. وذكر المجلس فى بيانه أنه تابع الحملة الصحفية الدائرة فى الصحف العربية والمصرية والتى يستخدم فيها الكتاب والصحفيون من أعضاء النقابة ألفاظا ومدلولات لا ترقى إلى أسلوب الحوار الديمقراطى الموضوعى، واعتبر المجلس هذه الحملة نوعا من تصفية الحسابات الشخصية والسياسية التى تنال من سمعة مصر وسمعة أبنائها.

□□□

وكتب الدكتور فؤاد زكريا عشر مقالات عن كتاب (خريف الغضب) نشرها فى صحيفتى الوطن الكويتية والرأى الأردنية خلال شهرى يونيو ويوليو ١٩٨٣، ثم جمع هذه المقالات فى كتاب بعنوان (كم عمر الغضب: هيكل وأزمة العقل العربى) وقال فيه: حين اطلعت على ردود الفعل التى أثارها كتاب هيكل فى الأوساط الرسمية

والإعلامية والثقافية المصرية، والطريقة التى استجاب بها الناس له، تبين لى المناخ السائد الذى تولدت عنه هذه الأزمة العقلية، وأثبت أن المشكلة ليست مشكلة هيكل وحده، أو مشكلة التضاد بين هيكل وتلك القوى التى وقفت تحتج وتعترض عليه، إنما هى أوسع من ذلك وأخطر، فقد تشوهت أشياء كثيرة فى عقولنا بفعل فترة القمع الطويلة التى لم تسمح لفكرنا بأن ينمو ويتطور بحرية.

□□□

وكان تعليق هيكل على هذه الزوابع فى حديث مع صلاح عيسى فى (الأهالى) يوم ٢٧ إبريل ١٩٨٣ قال فيه: الواقع ألا زوابع هناك، فهى موجودة فقط فى رءوس الغاضبين المحرضين والصاخبين، وأعتقد أن منظرهم غريب أمام الناس. إننا فى الحقيقة أمام مسرحية هزلية عبثية من الطراز الأول. فأمامك ناس غاضبون متشنجون يحرضون الناس ضدى وضد الكتاب، ويستنطقونهم، ويبتزونهم، ويحرجونهم، ويزورون أقوالهم، ويسوقونهم سوقا للهجوم على كتاب لم يقرأه كاملا أحد من الذين يهاجمون، ولا يكاد أحد من الذين يقرءون الهجوم قد أطلع على شىء منه.

وقال هيكل: إن الهجوم على (خريف الغضب) هو هجوم على شبح، فالطبعات الأجنبية السبع من الكتاب التى صدرت فى ٢٤ إبريل ١٩٨٣ الحالى، والطبعة العربية لن تصدر قبل منتصف مايو، وما نشر من الكتاب فى العالم العربى لم يتجاوز ربعه، فعلى أى شىء يعلق المعلقون؟. وأى كتاب يهاجمون؟. أليس هذا عبثا؟. هل أنا الذى خنت أمانة القلم أو أن الذين يطالبون بمصادرة حقى فى أن أكتب هم الذين يخونون تلك الأمانة؟. هل أنا الذى خرجت على ميثاق الشرف الصحفى أوالذين فعلوا ذلك ويفعلونه ؟؟؟ هم الذين يهاجمون ما لم يقرءوه، ويحرضون على مصادرة الكتب والأفكار أليس هذا عبثا؟.

وقال: إننى كنت أتوقع أن يثير الكتاب حملات من الهجوم الضارى، وفى مقدمة الطبعة العربية إشارة مشددة ومؤكدة إلى الريح القادمة، ولم يكن الأمر فى حاجة إلى بعد نظر، ولكن إلى نظر فى الأمور فقط. والواقع أننى لم أتضايق من الحملة المركزة التى شنت ضدى، ولكن أكثر ما ضايقنى كان محاولة حسنة النية للوقوف بجانبى اختارت لها عنوانا (هيكل يدافع عن نفسه)، ومع الأسف فإن ذلك لم يحدث على النحو الذى قيل إنه حدث مع تقديرى لسلامة دوافع القائلين، فلست فى حاجة للدفاع عن نفسى لأن موضوع القضية هو (خريف الغضب)، وقد صودر الكتاب، ولهذا فلا قضية هناك.

وكانت الأهالى قد نشرت الفصول الأولى من الكتاب، وقال هيكل تعليقا على ذلك: إننى لم أكن على علم مسبق بنية الأهالى محاولة نشر الكتاب، عرفت قبلها بيومين فقط أنه بترتيب مع جريدة الوطن الكويتية سوف تحصل الأهالى على فصول الكتاب، ولا أخفى أننى قدرت ذلك وشكرته، لأن الأهالى تقوم بذلك بمخاطرة، وكنت واثقا أن تدخلا سوف يحدث بشكل ما فى لحظة ما. ولم أتصور أن يكتمل نشر الكتاب. لا أستطيع وأنا أتحدث عن حقوق الحرية أن أنسى أحكام الأمر الواقع وإلا كنت أترك نفسى للسراب.

وحين سئل عن رده على الحملة ضده وضد الكتاب أجاب:

إننى لا أرد على حملات. إذا كان هناك حوار موضوعى فإننى على استعداد له، وأما حين يصبح الأمر شتائم وسبابا فإن المسألة تختلف. بعض ما كتبوه عنى يشكل قذفا صريحا، وقد طالبنى بعض أصدقائى من المحامين بأن أرفع قضية قذف، وكان من رأيى أننى لا أستطيع أن أكون طرفا فى أى شىء، ولاحتى فى خصومة مع بعض الناس، هذه ليست قضية كبرياء فقط، ولكنها أيضا قضية حقيقة، فأنا لا أعتبر أن ما قيل عنى -خصوصا من قائليه- يمكن أن يسبب لى ضررا، بل العكس.!

وقال أيضا: كنت أعرف أن الحملة على وعلى الكتاب سوف تكون بدعوى الوفاء والحرص على ما فات بما فيه حرمة الأموات، وهو ادعاء حق يراد به باطل، والحقيقة أن هناك مصالح وأقدارا ومقادير تريد أن تحافظ على نفسها وليس على أنور السادات. أمس فقط رآنى مواطن مصرى بسيط وأقبل على مشجعا يقول لى: لا تخف من أحد. الحقيقة كلها ظاهرة أمام الناس. الحقيقة فى القفص وكلنا نراها فى عصمت السادات. ولا نحتاج غير ذلك إلى شىء. إن حيثيات الحكم حسمت فى منطق عصر بأكمله، لكن بقايا القوى والجماعات المستفيدة من ذلك العهد لا تزال تحارب معركة بقائها، وأظن أن ما قلته فى (خريف الغضب) يمس كثيرا من النقط الحساسة بالنسبة لهذه القوى والجماعات.. وحين علمت بقرار مصادرة كتاب (خريف الغضب) لأسباب أمن، فإنى كنت على استعداد لأن أفهم بل ألتمس الأعذار للقرار مع أسفى له، وقد ابتسمت عندما أخبرنى أحدهم بقرار المنع وهو يضيف أن هناك قصة عنوانها (الشمس لا تشرق مرة واحدة).

وقال: هناك أيضا الذين انتهزوا الفرصة من الكتاب المحترفين لتصفية ما يعتبرونه حسابات معى، وهؤلاء يقولون إننى كنت الكاتب الأوحد، وإننى غاضب لأننى فقدت هذه المكانة.. وأنا لم أكن كاتبا أوحد، فقد كانوا جميعا يكتبون وينشرون.

وقال: ليس فى (خريف الغضب) شىء لم أقله عن السادات فى حياته.. نعم توسعت وهذا طبيعى.. لأن ظاهرة السادات السياسية اكتملت فصولها بحادث المنصة فكان طبيعيا أن ترد إلى أصولها وأن تفسر ليفهمها الناس.

وأخيرا قال: لماذا لا نأخذ بالتقليد المتحضر الذى تلجأ إليه كثير من الدول فى موضوعات مشابهة. لماذا لا تشكل لجنة للحوار السياسى حول الكتاب.. حوار هادئ وموضوعى.. تتقصى ما به من حقائق، وتسألنى فيها؟. لماذا لا تكون هذه اللجنة علنية؟. وماذا لو شكلت هذه اللجنة على مستوى سياسى قومى من رؤساء الأحزاب، وأمنائها

العامين، ولا أمانع أن يضم إليها رئيس محكمة القيم والمدعى الاشتراكى ورئيس محكمة النقض؟ ولو ضمت شخصية عسكرية لها وزنها ومكانتها، وأحد المشايخ الأجلاء من رجال الدين فسوف يكون ذلك مفتاحا لمناقشة مثمرة ويستفيد منها الوطن.

وفى حديث مع صحيفة الأحرار قال هيكل إنه كان يختلف مع عبدالناصر فى التفاصيل، وكان يختلف مع السادات فى الاستراتيجية، وإن السادات قاد أمته فى فترة من أصعب فترات حياتها، وإذا كان قد أخفق فى بعض المواقف فقد نجح فى مواقف أخرى، ومن حقنا أن نغوص فى أعماقه ونحن نحلل شخصيته.

وفى النهاية لم يخرج هيكل من معركة خريف الغضب سالما!

لست رجلا لكل العصور!

سُئل محمد حسنين هيكل عن دوره بعد عبد الناصر والسادات فقال : لست رجلا لكل العصور.

وكرر مرة أخرى إن التاريخ لا يعيد نفسه مرتين، وإذا عاد فإنه يكون فى المرة الأولى حقيقة وفى المرة الثانية ملهاة.

ولهذا كان قراره عندما أخرج من الأهرام ألا يعود إليه مرة أخرى وألا يعود إلى منصب فى الصحافة المصرية أبدا. وعندما أبعد عن العمل السياسى قرر ألا يشارك فيه بعد ذلك أبدا. وأخيرا عندما بلغ من العمر ثمانين عاما فى يوم ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ قرر الاعتزال، وقدم طلب الاعتزال إلى قرائه -وليس إلى غيرهم- وكتب مقالين بعنوان استئذان فى الانصراف: رجاء ودعاء.. وتقرير ختامى.

قرر الانصراف وقد كان فى قمة تألقه بعد أن قدم أكثر من عشرين كتابا ترجمت إلى ١٢ لغة، وليس فى العالم العربى كاتب قدم مثل هذه الثروة الفكرية وبمثل هذا المستوى الراقى فى الفكر والمنهج. ولذلك فهو -دون منازع- الكاتب الصحفى العربى الوحيد الذى وصل إلى العالمية بجهده وتفوقه.

وقائمة مؤلفاته الطويلة تشمل مجموعة كتب متخصصة فى التاريخ الحديث، مثل: الاستعمار لعبته الملك- أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة- الانفجار: حرب الثلاثين سنة- خبايا السويس- الخليج العربى مكشوف- الزلزال السوفيتى- زيارة جديدة للتاريخ- سقوط نظام: لماذا كانت ثورة ١٩٥٢ لازمة؟- سنوات الغليان- الطريق إلى رمضان- العروش والجيوش- قصة السويس- لمصر لا لعبد الناصر- ما الذى جرى فى سوريا- مدافع آية الله- المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل.. إلخ.

وفى هذه الكتب أثبت هيكل أنه ليس فقط كاتبا صحفيا، ومفكرا سياسيا واستراتيجيا، ولكنه مؤرخ بالمعنى الدقيق الذى يجعله واحدا من أساتذة التاريخ الحديث. وليست هذه شهادتى له، ولكنها شهادة المؤرخين الكبار.

والدكتور يونان لبيب رزق من أكبر وأهم أساتذة التاريخ الحديث، كتب مقالا فى صحيفة السفير اللبنانية يوم ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ بعنوان: محمد حسنين هيكل زيارة جديدة للتاريخ. وقال فى مقاله إن هيكل قام بدور مهم فى خدمة الكتابة التاريخية، ولم يتعامل مع هذا النوع من الكتابة بمنطق الصحفى، أو بالمنطلق الأكاديمى الذى يغلب على كتابات المؤرخين الأكاديميين الذى يصطبغ بالجفاف، وهو ينكر أنه مؤرخ، ويتواضع فيذكر أنه ليس أكثر من قارئ للتاريخ، ويذكر أن كتابة التاريخ ليست صناعته ولا يدعيها، وأنه فقط يقدم قراءة للتاريخ، وأن هذا حقه وحق كل مهتم بالشئون العامة.. وهو-كما قال-وجد قراءة التاريخ صعبة بالنسبة له لأنه عاش وقائعه، وكان عليه أن يقرأ بأمانة، وأن يخضع للاختبار كثيرا مما كان يظن أنه يعلمه، وأن يطرح للمراجعة كثيرا مما كان يتوهم أنه يفهمه. ويحدد هيكل منهجه فى كتابة التاريخ بأنه منذ البداية يتخذ ما كان يتصور أن لديه علمًا به كمجرد دليل يقوده إلى مواقع البحث والتفتيش حتى تكون قراءته للتاريخ مستوفية ومتوازنة. وفى بعض الأحيان وجد ما يريد حيث قدر، وفى أحيان أخرى اكتشف أن اتجاهه يحتاج إلى إعادة تصحيح وإعادة ضبط، وحتى يوم ٢٣ يوليو الذى كان مشاركا فيه عاد إليه قارئا للتاريخ مرة أخرى وليس كاتبا له، ويقول أيضا. إن رحلة التاريخ مثل أية رحلة غيرها. تبدأ من موقف معين وتمشى منه نحو تصور مفترض يصح أو يختلف، وتلك هى طبيعة أى مغامرة فى طلب المعرفة.

ومع هذا الإلحاح من هيكل على أنه ليس مؤرخا ولكنه قارئ للتاريخ فإن أستاذ التاريخ الكبير الدكتور يونان لبيب رزق يقول: إن ذلك إما من فرط التواضع، وإما من

فرط الحساسية من أن يتصور المؤخرون الأكاديميون أنه يقتحم عليهم عالمهم، ويستدل على ذلك بمجموعة من الدلالات والشهادات:

-ففى مجال الدراسات الأكاديمية فى التاريخ الحديث فى رسائل الماجستير والدكتوراه أو الدراسات الجامعية التى يعدها أساتذة الجامعات فى موضوع أزمة الشرق الأوسط أو الصراع العربى الإسرائيلى، أصبح لازما الرجوع إلى العمل الموسوعى والتوثيقى الذى قدمه هيكل فى كتبه الأربعة عن حرب الثلاثين عاما.

-أما من الشهادات فلدينا ما كتبه الكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين تعليقا على الجزء الأول من هذا العمل، فقد وصفه بقوله: أهم كتاب فى فن وعلم التاريخ قرأته فى اللغات العربية والأجنبية منذ سنوات طويلة، إنه الكتاب الذى يلغى سائر الكتب، أى يلغى كل ما كتب قبله عن هذا الموضوع، فالمؤلف توافرت له مجموعة من عوامل مهمة: إنه شخصيا كان فى قلب تلك الأحداث، وإنه يمتلك مجموعة من الوثائق الأصلية لهذه المرحلة. وإنه مد جهده واطلاعه إلى كل ما نشر من مؤلفات، وكل من على قيد الحياة من شخصيات، وكل ما يوجد من وثائق بريطانية وأمريكية بما فيها مصادر لم يسبقه إليها أحد، كالأوراق الخاصة ببعض الرؤساء الأمريكيين فى مكتباتهم التذكارية.. فهو قد استخدم كمية لا مثيل لها من الوثائق الثابتة على هذا الحدث.

فالكتاب من أكثر من ٩٠٠ صفحة فيه ٣٠٠ صفحة من الوثائق الكاملة مما لا أعرف لها نظيرا. الأمر الثانى: أنه لم يقف عند الحدود التقليدية التى وقفت عندها كل المؤلفات عن (حرب السويس) ولكنه وسع دائرة العدسة بحيث شملت كل جذور الصراعات الدولية والإقليمية التى ما كانت حرب السويس إلا نقطة انفجارها بعد تفاعلات بالغة التعقيد. فالكتاب ليس عن حرب السويس ولكنه بدرجة كبيرة عن تاريخ المنطقة، وتاريخ الصراع الدولى فى تلك الحقبة من الزمن التى تغيرت فيها

موازين قوى العالم كله، غروب قوى وشروق غيرها وصعود غيرها، وخريطة المصالح الكبرى الجديدة التى لعبت الدور الأول فى أقدار المنطقة منذ سنة ١٩٥٢.

الأمر الثالث: أن حسنين هيكل- وقد حشد كل ما سبق، وكانت لديه ثقافة قارئ التاريخ ودارسه، وجاذبية الكاتب الصحفى فى العرض- رسم هذا الكم الهائل من المعلومات والتحليلات، ورد الأحداث إلى أصولها، والوقائع إلى أسبابها، فى نسيج جميل كنسيج القطعة النادرة من السجاد العجمى السنتيمتر الواحد منه يساوى عقده، ولكنها تبدو للعين صورة متكاملة خلابة..

ولا نظن أن كثيرين يمكن أن يجادلوا فى قيمة ما كان يكتبه الأستاذ أحمد بهاء الدين، فقد كان الرجل موضوعيا إلى أبعد الحدود.

□□□

-الشهادة الأخرى عن نفس العمل جاءت فى كتاب تلقاه هيكل من المؤرخ البريطانى السير هنرى رانسيمان أستاذ كرسى التاريخ فى جامعة كمبردج جاء فيه قوله: (هناك قول شائع لعلك تذكره، يقول: إن التاريخ له آذان، ولكن ليس له عيون، بمعنى أننا نسمع روايات عما جرى من وقائع منقولة لنا بالسماع والتواتر عن هذا أو ذاك من الناس، ومعظمها مكتوب بأثر رجعى يخلط الوهم بالحقيقة إلى درجة تتركنا مع نوع من الفولكلور الأسطورى يعذبنا فرزه كثيرا. ولقد كان ما أثار اهتمامى فى تجربتك أن التاريخ عندك له آذان وله أيضا عيون، وهذه تجربة أتمنى لو أناقشها معك إذا خطر لك يوما أن تعود إلى أكسفورد) .

وبمنهج الأستاذ الأكاديمى يقسم الدكتور يونان لبيب رزق المرحلة الأولى: هيكل صحفيا-وهى مرحلة غلبت عليها الصحافة سواء قبل أن يكون رئيسا لتحرير الأهرام (١٩٥٤-١٩٥٧) أم بعدها، وفى تلك المرحلة كان هيكل صحفيا له حس تاريخى، وهذا أمر يتوافر فى عدد من الصحفيين المثقفين يأتى فى طليعتهم الصحفى الكبير الراحل

أحمد بهاء الدين، وقد بدأ هذا الحس التاريخى فى مقال هيكل الأسبوعى فى الأهرام (بصراحة) الذى واظب على كتابته بشكل منتظم فى فترة رئاسته لتحرير الأهرام وأكسبه شهرة واسعة، ومنذ كان مخبرا صحفيا عكف على جمع تحقيقاته فى كتاب أشهرها عن إيران عام ١٩٥٠ حين احتدم الصراع بين الحركة الوطنية يمثلها محمد مصدق وبين محاولات الهيمنة الاستعمارية التى اتخذت من الشاه محمد رضا بهلوى حصان طروادة الذى اختفت بداخله. الكتاب اسمه (إيران فوق بركان).

وكان من الطبيعى أن تكتسب كتابات هيكل شهرة كبيرة وهو فى الأهرام وأقرب المقربين للرئيس جمال عبد الناصر، الأمر الذى فتح له منافذ المعرفة من أوسع أبوابها، غير إن نشاطه فى التأليف زاد كثيرا بعد وفاة عبد الناصر، ثم تضاعف بعد خروجه من الأهرام، وانصرافه عن العمل الإدارى فى إدارة مؤسسة كبيرة كالأهرام، وابتعاده عن دائرة العمل السياسى بعد اختلافه مع الرئيس أنور السادات، مما ساعده على التفرغ لإصدار المؤلفات التى اكتسبت شهرة واسعة، وكان أكثرها ما كتبه فى البداية نابعا من مشاهداته وتجاريه قبل أن يترك العمل فى الأهرام.

□□□

وفى رأى الدكتور يونان لبيب رزق أن هيكل كمؤرخ قد أفصح عن نفسه فى عملين كبيرين: الثلاثية التى لا تقل أهمية عن ثلاثية نجيب محفوظ فى الرواية والتى صدرت فى ثلاثة أقسام وأربعة أجزاء، الأول (ملفات السويس حرب الثلاثين سنة)، والثانى فى جزأين أولهما (سنوات الغليان)، والثانى (الانفجار)، والأخير (أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة). وقد أحدث صدور هذه الثلاثية رَدَّ فِعْلٍ قَوِيًّا فى الأوساط الأكاديمية.

العمل الثانى:(سقوط نظام: لماذا كانت ثورة ١٩٥٢ لازمة؟) وهو- فى تقرير الدكتور يونان لبيب رزق- من أهم الأعمال التى كتبت عن تاريخ مصر خلال السنوات العشر السابقة على قيام الثورة وعلى وجه التحديد بدءًا من حادث٤فبراير١٩٤٢ إلى ٢٣يوليو١٩٥٢، وقد صدر أولا على شكل دراسات منفصلة فى مجلة(وجهات نظر)

الشهرية، ثم جمعها فى هذا المجلد، وإن كان مذاقها فى الكتاب مختلفاً عن مذاقها فى المجلة.

ويقول الدكتور يونان لبيب رزق: إنه من العسير وضع هذه الأعمال موضع النقد التاريخى، غير أنه يمكن إبداء مجموعة من الملاحظات الأساسية عليها:

الملاحظة الأولى : أنها أعمال من الوزن الثقيل. فالكتاب الأول من الثلاثية تجاوز ٩٠٠ صفحة، فى حين تجاوز الكتاب الثانى بجزأيه ألفى صفحة، والأخير اقترب من ٩٠٠ صفحة، أى إن العمل بمُجمل أجزائه قارب أربعة آلاف صفحة بما حولها من أسْفَارٍ. أما الكتاب الثانى (سقوط نظام) فقد زاد على ٦٠٠ صفحة. ولا نعرف فى الدراسات التاريخية أعمالا بهذا الحجم سوى بعض الرسائل العلمية،وإن كان الفارق كبيرًا بين أعمال تجريبية، مثل رسائل الماجستير والدكتوراه التى يعزى تضخمها لعدم قدرة أصحابها على الانتقاء، وبين أعمال هيكل التى يصعب على القارئ أن يتجاوز سطرًا منها، وليس فقط بحكم الجاذبية التى اشتهر بها أسلوبه، ولكن أيضًا بحكم التماسك بين سائر الأفكار التى يضمها العمل، حتى إنه يصعب أن تقفز من صفحة إلى صفحة أخرى دون الانتهاء منها، فَكُتُب هيكل غير قابلة (للتقليب)، برغم ضخامتها. وذلك لحرص هيكل المؤرخ على أن يوثق كتاباته على نحو غير مألوف، فهو يحشد الأعمال التوثيقية فى المتن، ويفرد أقسامًا كبيرة كملاحق وثائقية بلغت فى كتابه الأول من الثلاثية حوالى ٣٠٠ صفحة، أى ثلث الكتاب تقريبًا، ونحو ٤٠٠ صفحة فى الكتاب الثانى بجزأيه، ونحو ١٥٠ صفحة فى الكتاب الثالث. وذلك من الأمور غير المعتادة فى الكتابات التاريخية. فالملاحق عادة تتضمن (عينات) من الوثائق وليس النصوص. وهذا يجعل من الكتاب مرجعًا وثائقيًا فوق كونه مرجعًا تاريخيًا، ولعله أراد بذلك أن يؤكد على تمكنه من المادة التاريخية، وهو ما لا يُمَارى فيه أحد.

الملاحظة الثانية: أن هيكل المؤرخ لم يستطع أن يتخلص من هيكل الصحفى، على الأقل فيما يتصل بالعناوين التى اختارها لكتبه، وهى عناوين ذات جاذبية خاصة

أكثر منها عناوين ذات دلالة على المضمون، مثل: ٧ رصاصات وحرب. ملك تحت الحصار. الثورة تدق الباب. الساعة تدق منتصف الليل. ليال طوال.

الملاحظة الثالثة : أن هيكل لم يتمكن من الاختفاء تمامًا كما يفعل المؤرخون المحترفون، فقد كان يظهر بعض الأحيان بين السطور، ويظهر في أحيان أخرى عليها، وقد لازمته عادة تسجيل كل شيء، حتى إنه كان بمجرد أن تبدأ مكالمة بينه وبين الرئيس عبد الناصر على الخط الساخن يمسك القلم ليسجل مضمون المكالمة -إن لم يكن نصها- الأمر الذى أتاح له كَمًّا هائلاً من المعلومات استخدمه بعد ذلك في كتاباته التاريخية، وهو ما لا يتوافر - لسوء الحظ - في الْمَظَانِّ الرسمية.

الملاحظة الرابعة: أن هيكل نجح في الحصول على المادة العلمية التي قد لا تتاح لباحث عادى مهما بلغ شأنه، ففضلا عن المصادر التقليدية في دار الوثائق البريطانية، أو في المكتبة الأهلية الفرنسية، أو مكتبة الكونجرس، فقد أطل على ميادين قَلَّمَا تتاح لأحد، ويمكن القول: إنه كان منذ وقت طويل يعد نفسه لهذا الدور، ولعل قصته مع حسن يوسف (باشا) وكيل الديوان الملكي السابق (١٩٤٢-١٩٥٢) الذى عينه هيكل رئيسًا لوحدة التاريخ في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، تدل على ذلك. صحيح أن الرجل أدى خدمة للمركز من خلال الوثائق البريطانية التي كان يذهب بين الحين والحين لاستجلابها من دار الوثائق العامة في لندن (والتي استفاد منها الدكتور يونان شخصيا في كتابه عن تاريخ الوزارات المصرية (١٨٧٦-١٩٥٣)، وفي العمل الكبير الذى أشرف على إعداده الأستاذ الكبير أحمد عزت عبد الكريم الذى صدر عام ١٩٦٩ بعنوان (٥٠ سنة على ثورة ١٩١٩).. كل هذا صحيح، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإن هيكل جعل الرجل يدلى بشهادة مسجلة عن فترة وجوده في قصر عابدين، وقد أشار هيكل إلى ذلك في أكثر من موقع.. وكذلك فقد أتيح لهيكل المؤرخ أن يطلع على الوثائق المصرية المودعة في رئاسة مجلس الوزراء واستفاد منها استفادة واسعة في كتاب (سقوط عصر) وهو ما لا يتاح بنفس الدرجة للباحثين الأكاديميين لسوء الحظ.

الملاحظة الخامسة: أن هيكل نجح فى أن يفصل بصرامة بين الموضوع والذات، وكان مدركا طول الوقت أن قربه من الأحداث سواء خلال عهد عبد الناصر أم قبله أم بعده يمكن أن يشكل قيدا على رؤيته الموضوعية، الأمر الذى دفعه إلى أن يفرد مساحات قليلة لدوره السياسى كلما سار قدما فى كتاباته التاريخية، على عكس الحال فى كتاباته السابقة على الثلاثية وعلى (سقوط نظام) حين كان موجودا فى كل صفحة.

كان هيكل واعيا بأهمية الالتزام بالموضوعية.

الملاحظة السادسة:مما يضع هيكل فى موضع التميز عن المؤرخين المحترفين قدرته على إضفاء اللمسة الإنسانية على الحدث التاريخى، وقد مكنه من ذلك ماضيه الصحفى، وفى كثير من الأحوال يشعر القارئ كأنه داخل الحدث بحكم اهتمام هيكل بالتفاصيل الإنسانية الصغيرة، وهذا الأسلوب من أهم أسباب الإقبال على قراءة أعماله التاريخية ، على عكس أعمال الكثيرين من المحترفين أو الهواة الذين انصرفت كتاباتهم للأحداث الكبيرة، وجعلوا من قراءة التاريخ عملا يتسم بالمعاناة.

الملاحظة السابعة : أن هيكل لم يخضع لبعض الصور الرائجة لعدد من الشخصيات التاريخية، فقد كان موضوعيا لأقصى حد فى التعامل مع شخصية الملك فاروق، ولم يمض فى الطريق الذى رسمه الكثيرون لهدف الشخصية بعد أن أطاحت به الثورة، صورة الملك العربيد المستهتر، ورسم صورة جديدة لشخصية فاروق من خلال الوثائق حتى أنه خصص موضوعاً فى الفصل الذى جاء بعنوان (الساعة تدق منتصف الليل) فى كتاب (سقوط نظام) وأسماه (فاروق لم يكن عبيطا).

الملاحظة الثامنة: أن هيكل نجح فى استخدام أدوات المؤرخين المحترفين من حيث القدرة على (ضبط النص)، وكان حريصا إلى حد المبالغة أحيانا فى تقديم النص باللغة الإنجليزية جنبا إلى جنب مع الترجمة العربية، وقد زاد هيكل فى ذلك فى كتابه

(سقوط نظام) فلم يكد يخلو موضوع من هذا الكتاب من السعى لضبط عبارة، أو كلمة صدرت من هنا أو هناك خاصة من المصادر الأمريكية والبريطانية، فكان يأتى بالترجمة العربية ويضع إلى جانبها الأصل الإنجليزى.

الملاحظة التاسعة والأخيرة: أن هيكل نجح فى توثيق بعض الوقائع التاريخية التى ظلت لفترة قصيرة لا تزيد على كونها (إشاعات) منها انهماك وزير الداخلية وقت أن كانت القاهرة تحترق فى صفقة شراء عمارة عريضة فى شارع قصر النيل، ويقول الدكتور يونان: ولا ندرى من أين أتى بأوراق توثيق هذه الصفقة! ومنها أيضا قضية الرشوة التى دفعها أحمد عبود باشا (مليون فرنك سويسرى بما يساوى وقتها عام ١٩٥٢، مليون جنيه مصرى) لقصر عابدين للتخلص من حكومة نجيب الهلالى الأولى، والتى فسرت أهم الأسباب وراء تعاقب الوزارات على هذا النحو المثير خلال الشهور الستة بين حريق القاهرة فى ٢٦ يناير وقيام الثورة فى ٢٣ يوليو.

كل ذلك قاله الدكتور يونان لبيب رزق ولم أجد شهادة أفضل من شهادته بحكم نزاهته ومكانته العلمية، وهو يزن كل كلمة ولا يجامل فى الحق كعهده دائما، ثم إنه لا يريد من هيكل شيئا، ولا يملك هيكل شيئا ليعطيه بعد أن انصرف.. ولكن تبقى كلمة الحق التى ختم بها الدكتور يونان دراسته بقوله: لا نجد مندوحة من إدراج اسم محمد حسنين هيكل على رأس قائمة مؤرخى هذا العصر على الرغم مما يمكن أن يؤدى إليه هذا القول من تذمر بعض المحترفين بل سخطهم، مما أعتقد أنه سوف ينصب على رأسى إن عاجلا أو آجلا، ولكنها أمانة الكلمة ولا نملك سوى ترديد العبارة التى استخدمها هيكل عنوانا لكتابه (لمصر لا لعبدالناصر) فنقول: للتاريخ وليس لهيكل!

□□□

وهيكل فعل دائما ما لم يفعله غيره. وفكر كما لم يفكر غيره. وكتب كما لم يكتب غيره. وحتى عندما قرر التقاعد بمناسبة بلوغه سن الثمانين لم يشأ أن ينسحب

ويتوارى، أو يكتفى بخبر فى صحيفة، ولكنه أراد أن يقدم فى مقالين ما يشبه التقرير الختامى عن حياته وأعماله بما فيها أيام حلوة وأيام مرة، ولم يشأ أن يقول: إنه قرر الاعتزال، أو التوقف عن التفكير والكتابة، لأنه يعرف أنه لن يستطيع ذلك حتى لو أراد، فهو مفكر وكاتب ومكتوب عليه أن يظل كذلك إلى آخر العمر. ولذلك اختار تعبير (الانصراف). وحين وجد ردود الفعل الغاضبة من انصرافه فى وقت لابد أن يكون فيه حاضرا، ختم مقاله الثانى فقال: إن بعض القريبين يروننى بينهم كل يوم وظنهم أن لدى الكفاية من صلاحية البدن والفكر تكفل الاستمرار سنوات قادمة يعلمها الله، وكان ردى أن تلك بشارة خير لكن صلب الموضوع أنه لا يحق لأحد تجاهل المؤشرات التى تقول بها قواعد الحساب وأحكام الطبيعة، ولا أرى بأسا فى الانتقال من ومض الضوء إلى ظل الغروب (وليس عتمة الليل)، ومن متن الحياة العامة إلى هامشها (وليس الفراغ بعد الهامش).. ومن صدق تكريم الحياة ووجوب احترامها أن الناس لا يصح لهم أن يتسمروا حيث هم حتى آخر قطرة زيت فى المشكاة، وإنما الأفضل أن تظل لديهم بقايا همة تسمح لهم- بعيدا عن الزحام- بالنظر إلى حركة التقدم الإنسانى العظيمة، ومتابعة حيوية التاريخ الهائلة قادرين على ذلك بأشواق تيسرها بقية من عافية وعقل، تحفظ لهم صلة ممكنة بعصور مذهلة (ومتوحشة)، تقوم الآن فعلا على تغيير الدنيا شكلا وموضوعا.

ويضيف فى النهاية: إن مساحة البعد تمنح صاحبها فرصة أوسع للتفكير والتأمل، والنظر إلى الوراء فى أناة وروية، والنظر إلى الأمام بعقل وقلب ما زال فيهما حس ونبض، خصوصا من رجل كان له حظ موفور مع الدنيا والناس، وذلك فى حد ذاته يكفى وزيادة لمدد من الطاقة له سحر التجدد ولمسة من الحيوية- وربما الشباب- حتى عند الثمانين.

وإن كان قد بدأ مقاله الأول بأنه كان يَردُ على باله منذ سنوات أن الوقت يقترب من لحظة يمكن فيها لمحارب قديم أن يستأذن فى الانصراف، وأن هذه اللحظة حل

موعدها بالنسبة له.. وإنه في حالتي تواصل حساب زمن العمل دون انقطاع قرابة اثنتين وستين سنة، لأن تجربته بدأت بالتحديد يوم ٨ فبراير ١٩٤٢، وقال: إن من الصواب أن يقر كل إنسان بأن أية حياة- عمرا وعملا- لها فترة صلاحية بدنية وعقلية، ومن اللائق أن يجيء مثل هذا الإقرار قبولا ورضا وليس إكراها وقسرا. وقال أيضا: إنه يفضل أن يتساءل الناس (لماذا يستأذن هذا الرجل في الانصراف متعجلا) بدلا من أن يكون سؤالهم (لماذا يتلكأ هذا الرجل متثاقلا؟).

□□□

وهيكل فكر في الانصراف قبل ذلك أكثر من مرة، كان أولها عقب وفاة عبدالناصر ويقول: إنه لمح نذير إحتكاك قادم حتى وإن حاول البعض تفاديه، وفي أجواء صراع على السلطة يكون الاستقطاب حادًا وعنيفًا، يفرض إما انحيازا غير مقنع إلى طرف، وإما عداء لا مبرر له مع طرف آخر، وعلى ذلك كان أمامه أحد موقفين: إما الانصراف فور تشييع الراحل الكبير إلى مرقده الأخير، وإما الانسياق إلى صراع لا يريده، وبوسائل لا يملكها ولا يريد أن يملكها. وهكذا قدم استقالته إلى السادات من منصب وزير الإرشاد، لكن السادات اشترط عليه البقاء في مجلس الوزراء إلى ما بعد الاستفتاء على رئاسته حتى لا يقول الناس (إن أقرب أصدقاء جمال عبدالناصر لم يطق الصبر عليه يوما). وكان هيكل وقتها في السابعة والأربعين.

وطوال أيام حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان هيكل مع الرئيس السادات كل مساء وحتى قرب منتصف الليل. وشارك في التخطيط الإعلامي والتحضير السياسي للحرب، وعهد إليه السادات بكتابة التوجيه الاستراتيجي الصادر عنه بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة إلى القائد العام، وكتب الخطاب الذي ألقاه السادات في مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣. إلى أن ظهر الخلاف بينهما يوم ٢٠ يناير ١٩٧٤ في موضوع قبول قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ وكان له تحفظات عليه أبداها في حضور المهندس سيد

مرعى والسيد حافظ إسماعيل والدكتور أشرف مروان. وطرح هيكل تعديلات على نص القرار وامتد الخلاف، وعندما وصل هنرى كيسنجر إلى القاهرة أول مرة يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣ طلب أن يقابل هيكل فحاول أن يعتذر بواسطة السفير أشرف غربال وكان وقتها المستشار الصحفى لرئيس الجمهورية، بعد أن قرأ نص مشروع النقاط التى عرضها كيسنجر على الرئيس السادات ونالت موافقته فى لقائهما الأول. لكن الرئيس السادات كان قاطعا فى ضرورة مقابلته وفعلا قابل كيسنجر واستمع منه إلى مشروعه لحل الصراع العربى الإسرائيلى خطوة خطوة فى كل بلد، وفى البلاد العربية بلدا بعد بلد، وأية مفاوضات تجرى تحت إشراف أمريكى لا دور فيها للاتحاد السوفيتى ولا أوربا إلا عندما يحل دور المراسم. وكان رأى هيكل أنه يصعب الاعتماد على كيسنجر لأنه بالضرورة منحاز، وانحيازه طائفى وفكرى وسياسى محكوم بصراع الحرب الباردة وليس بسلام عادل فى صراع الشرق الأوسط. وكان رد الرئيس السادات أن كيسنجر هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن ينجز المهمة، فهو الساحر الذى أنهى حرب فيتنام وفتح باب الصين، والذى لا يتفاوض حتى مع الاتحاد السوفيتى إلا مع الزعيم ليونيد بريجنيف ولا أحد غيره، ثم كون كيسنجر يهوديا فهذا يؤهله للضغط على إسرائيل إذا اقتنع.. يقول هيكل بعد هذا الحوار خرجت من قصر الطاهرة شاعرا أنها نهاية النهاية وعلىّ أن أحدد موقفى، فكتبت مجموعة مقالات كنت أعرف مسبقا أنها لن ترضيه، وكانت بالفعل مفترق طرق لا دخل فيه لعامل ذاتى، لأن الرجل على المستوى الإنسانى كان شخصية جذابة ومثيرة. وموضوع الخلاف بيننا صدر عن رؤى مغايرة وأحيانا متناقضة.

وقد انكشف بعد ذلك الدور الذى قام به كيسنجر فى كتابه الأخير الذى سجل فيه مكالماته التليفونية ومنها مكالمته مع وزير الدفاع الأمريكى جيمس شيلزنجر فى الساعات الأولى التى تأكد فيها نجاح الهجوم المصرى والسورى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بأكثر مما كان مقصورا أو متوقعا أو محسوبا وكانت المكالمة المسجّلة كما يلى بالنص:

الساعة ١,٣٠ بعد الظهر- الأحد ٧ أكتوبر ١٩٧٣ صفحة ٩٥.

كيسنجر: لقد كنت على اتصال بالرئيس طول الوقت لأننا تلقينا طلبات عاجلة من الإسرائيليين تطلب ذخائر ومعدات عسكرية كثيرة منها ٤٠ طائرة فانتوم. وأعرف أن ذلك صعب فى هذه اللحظة- لكن الرأى أن نساعدهم بكل وسيلة على استيعاب الهجوم عليهم والرد المضاد حتى يستعيدوا زمام المبادرة ويعطونا الفرصة لعمل سياسى لصالحهم.

شيلزنجر: هنرى.. إنهم مهتمون جدا على الفور بصواريخ (سايد ويندر).

كيسنجر: هل ترى أن وزارة الدفاع تستطيع أن تتولى هذا الأمر بسرعة دون أن يتسرب شىء؟

شيلزنجر: أظن أننا نستطيع.

كيسنجر: لقد فعلناها سنة ١٩٦٧.

ثم يعود الحديث على صفحة ٩١ بالمحادثة الآتية.

يوم ٧ أكتوبر الساعة ٣,٤٥ بعد الظهر.

كيسنجر: تكلمت مع الرئيس الآن (صدمة الهجوم المصرى السورى) عن ضرورة إمداد إسرائيل بكل ما تحتاج إليه أيا كان بدون أن يكشف أحد حقيقة ما نقوم به.

شيلزنجر: لا أستطيع أن أضمن ذلك فى الظروف الراهنة لأن الجميع منتبهون.

كيسنجر: ولكننا فعلنا ذلك سنة ٦٧ ولم يستطع أحد أن يكشف السر حتى الآن، وعلى فرض أنهم عرفوا فذلك لا يهم لأن إسرائيل فى خطر.

شيلزنجر: هل أنت مستعد لاستعمال حاملات الطائرات؟

كيسنجر: ليس هذه الساعة، ولكن مجموعة الحاملات لديها الأمر بأن تتحرك نحو شرق البحر الأبيض.

يقول هيكل: لقد رفعت صوتى، وتركت موقعى فى الأهرام دون أن يخطر ببالى هاجس الانصراف من الساحة، بل على العكس وجدت نفسى أواصل الكتابة خارج مصر فى مواجهة حسبتها قدرا مقدورا وكنت أقدر أننى سوف أتعرض لحملات جامحة.. واكتفيت بأن قلت كلمتى ومشيت، وخطاى على الأرض، لا فضاء النسر، ولا قفص الببغاء! وكانت تلك مرحلة أخرى من العمر، وكنت وقتها فى الخمسين..

□□□

يقول هيكل: عندما أعلنت القوانين الاشتراكية وضمنها ربط الحد الأعلى للمرتبات بخمسة آلاف جنيه سنويا نقص مرتبى ألف جنيه فى السنة، وذابت تلك النسبة المقررة لى فى أرباح الأهرام وكانت قد بدأت تعطى مما دعانى إلى توظيف حصتى منها فى شراء مجموعة أسهم فى الشركة المالكة للأهرام، لكن قانون تنظيم الصحافة جعل من هذه الأسهم صكوكا تذكارية.

كان صافى المرتب الشهرى الذى يحصل عليه هيكل من الأهرام بعد خدمة زادت على ١٧ سنة ٢٨٦ جنيها و٤٥٠ مليما. وكان مقاله الأسبوعى (بصراحة) ينشر فى الخارج عن طريق وكالة أنباء الشرق الأوسط مقابل ٢٠٪ من الحقوق المالية. وبعد أن ترك الأهرام ظل مرتبه يحول لحسابه فى البنك الأهلى لأكثر من سنة، ثم توقف التحويل حين أحيل إلى التقاعد فى يونيو ١٩٧٥ بقرار من الرئيس السادات بعد أن نفد صبره. واعتبر مرتب تلك السنة مكافأة لنهاية الخدمة.

□□□

يقول هيكل: هكذا مع أوائل السبعينات، وعند منتصف العمر وجدت نفسى أمام ضرورة الاختيار من جديد وكأنها نقطة الصفر أعود إليها فى قرار عملى ومستقبلى. كان مستحيلا بعد ما جرى أن أجد عملا أو مستقبلا فى مؤسسات الصحافة المصرية، ولا كنت أريد.. وكان صعبا علىّ أن أقبل عرضا خارج مصر يجىء من العالم العربى. وقد

تلقيت بالفعل عروضا محددة، أولها من دولة خليجية كريمة سألتنى إذا كنت مستعدا لقبول منصب مستشار (فوق العادة) للأمير، وشكرت عارفا بالجميل.

وكان الثانى من مجلس قيادة الثورة الليبية حمله إلىّ أحد أعضائه البارزين (الرائد عبدالسلام جلود نائب رئيسها وقتها) والاقتراح أن أقوم على إنشاء مشروع صحفى كبير فى بيروت يتوافر له كل ما أطلبه من موارد، وأديره بأقصى قدر أتمناه من الحرية.. ومرة أخرى شكرت عارفا بالجميل.

فى هذا الوقت كانت دور النشر فى لندن وباريس ونيويورك وطوكيو وبرلين وغيرها تطلب من هيكل أن يكتب عن الشرق الأوسط، ودعاه اللورد مايكل هارتويل صاحب دار التلجراف البريطانية، والسير دنيس هاملتون رئيس مجلس إدارة التيمس وكلاهما صديق قديم لنشر فصول كتابه الأول فى صحفهما، أما الكتاب فقد وصل إلى مدير النشر فى مؤسسة كولينز، فعُرض على أستاذ متخصص فى الشرق الأوسط من جامعة اكسفورد لمراجعته، كما عُرض على سفير سابق خدم فى المنطقة ليراجع السرد ويستوثق من الوقائع- مع اعتبار اختلاف المواقف. وعرض أيضا على قارئ عادى تقاس عليه ما يسمونه جاذبية القراءة، لأن الكتاب فى النهاية عرض وطلب. ورصدت دار كولينز خمسة ملايين جنيه استرلينى لنشر الكتاب وضمنها حملة إعلانية تكلفت نصف مليون جنيه استرلينى. وحضر هيكل معرض فرانكفورت وتحدث مرات أمام مئات من الناشرين، وشارك فى مناقشات واسعة، وبعد يومين عرف أن أكبر دور النشر فى العالم تسابقت على حقوق الكتاب (فلاماريون فى فرنسا- ومولدن فى ألمانيا- واساهى فى اليابان- إلى جانب كولينز فى لندن ونيويورك).

وحصل هيكل- عن هذا الكتاب- على مائة ألف جنيه استرلينى حولها إلى الفرع الرئيس للبنك الأهلى بالقاهرة من حساب مقدم العقود. وطبقا لقواعد النقد الأجنبى فى ذلك الوقت تم تحويل الجنيه الاسترلينى إلى الجنيه المصرى بسعر سبعة وتسعين قرشا ونصف مصرى.

يقول هيكل: هكذا.. فى اللحظة التى وقع فيها الحظر على ما أكتب هنا، سقطت الحواجز أمامى هناك (أحد عشر كتابا لكبريات دور النشر الدولى، وأكثر من أربعمائة مقال وتحقيق وتقرير إخبارى احتل بعضها الصفحة الأولى فى جرائد بوزن الصنداى تيمس، والتيمس، والصنداى تلجراف).

وكانت تلك حقبة حافلة غطت بقية السبعينات ومطلع الثمانينات ومعظم التسعينات.

□□□

ثم تعرض هيكل لأزمة الإحالة إلى المدعى الاشتراكى والمنع من السفر. ثم تعرض للسجن فى سبتمبر ١٩٨١. وبعد خروجه من السجن عاوده هاجس الاستئذان فى الانصراف مرة أخرى فقد كان العمر قريبا من سن الستين.

يقول هيكل: ثم لاحت لى بادرة للكتابة فى مصر، ومن باب أداء الحق لأصحابه فقد كان الأستاذ مكرم محمد أحمد أول من بادر إلى محاولة لفتح باب نوع من العودة أمامى، وبالفعل كتبت لمجلة المصور مجموعة من ست مقالات عرضت فيها تصورى للممكن والمطلوب فى مرحلة مستجدة، وطلبت من الأستاذ مكرم- عارفا طبيعته ودقته- مقدّرا لالتزامه المهنى- ألا ينفرد بقرار ورجوته -ملحا ومخلصًا- أن يراجع قبل النشر، وحدث بعد أسبوعين أن مجموعة المقالات الست التى كتبها للمصور عادت إلىّ يحملها الدكتور أسامة الباز مصحوبة برسالة شفوية رقيقة تقبلتها برضا واحترام. وملخص الرسالة أن ما كتبته فى المقالات الست يسبب إحراجاً فى الوقت الحاضر ثم إن الأمر متروك لى. وكان ردى دون تحفظ أننى آخر من يخطر له إحراج نظام لا يزال يحاول- أوائل سنة ١٩٨٣- تثبيت أوضاعه، واستجماع خطوطه للقيام على مسئولية الوطن فى ظرف دام ومحتقن- وأزحت المقالات الست جانبا لم أنشرها لا فى مصر ولا فى خارجها- حتى بعد مرور عشرين سنة!

□□□

ويقول هيكل إن الأستاذ إبراهيم سعده زاره بعد سنوات طالبا منه أن يكتب فى أخبار اليوم، وكتب مقالين لمس بعدهما ما جرى وخاف على رئيس تحرير أخبار اليوم فأعفاه من نشر المقال الثالث.

ويقول: وأخيرا توصل الأخ والصديق الأستاذ إبراهيم نافع- بهدوء وصبر- إلى الصيغة الموفقة، فقد تفاوض مباشرة مع دور النشر التى تصدر عنها كتبى فى لندن، وحصل على حقوق الطبعة العربية الأولى لستة كتب توالى ظهورها عن الأهرام.. ومشت عقارب الساعة حتى وصلت إلى دار الشروق تتحمل مسئولية ما أكتب وتضعه بانتظام بين أغلفة كتب تصل إلى قارئها كما يصح أن يصل الكتاب. إلى جانب محاضرة سنوية فى منتدى عام مثل معرض الكتاب السنوى، أو جامعة القاهرة، أو الجامعة الأمريكية. لكن العوائق راحت تظهر على الطرقات واحدا بعد واحد.

□□□

وفى سبتمبر ١٩٩٩ اكتشف ابنه الدكتور على الأستاذ بكلية الطب وجودا لخلايا سرطانية، وأظهرت الأشعة وجود بؤرة خطيرة أخرى. وهكذا وجد نفسه فى الولايات المتحدة لإجراء جراحة دقيقة فى الكلى لاستئصال الورم.

وكان هيكل وقتها فى الخامسة والسبعين.. ويقول: عقب تلك التجربة عاودنى هاجس الاستئذان فى الانصراف ولكنى اعتبرته فى تلك الظروف تنكرا، وربما جحودا.

فى أواخر عام ٢٠٠٠ غاب هيكل عن مصر وقت إجراء الجراحة أكثر من شهر، ثم عاد، وبعد سنة غاب مرة أخرى للعلاج بالإشعاع فى أمريكا قرابة شهرين، وبعد عودته لاحظ اختفاء بعض أوراقه ومحفوظاته فى مصر، وكان من بين ما اختفى عشرات من كتبه، ويقول: كان فى استطاعتى أن أفهم لماذا تمتد يد إلى الأوراق والملفات، إلا أن اختفاء الكتب حيرنى. وأزعجنى الموضوع فى مجمله، ومع أنه لم يكن فى هذه الأوراق والمحفوظات والكتب شىء فريد أو خطير. فإن ما حدث كان غليظا، ودعا هيكل اثنين

من خبراء الأمن المصريين لبحث الأمر، ووصل من البحث معهما إلى أن الواقعة ليست جنائية، وإنما شيء آخر لا يجدى معه ضيق الصدر أو نفاد الصبر، ومجال الظنون فيه واسع خصوصا والتجربة السياسية التى عاشها لا تزال تهم كثيرين فى العالم الخارجى كما فى الإقليم- أو ربما!

ويقول هيكل: إنه بعد مفاجأة أحداث ١١ سبتمبر فى الولايات المتحدة وما سبقها منذ أن استولت المجموعة الإمبراطورية الجديدة على سلطة القرار فى البيت الأبيض، أحس أن الحاجة إلى الاستئذان فى البقاء أشد من خاطر الاستئذان فى الانصراف، وأن المشاركة فى رؤية مشتركة للمستقبل أولى وأحق. وحاول المشاركة من خلال مجلة (وجهات النظر) وكانت مقالاته فيها تنشر فى نفس الوقت فى عدد من صحف العالم العربى.

ووافق على الظهور على شاشة قناة دريم التليفزيونية المصرية، فى محاولة لاستثارة حوار فى مصر والأمة العربية قد يساعد على تخفيف الشعور بالإحباط والركود والعجز ووجه إلى نفسه السؤال الذى أجراه شكسبير على لسان أحد أبطاله: (إذا لم أتكلم أنا.. فمن؟ وإذا لم أتكلم الآن.. فمتى؟) وكان الاعتراض على الحوار واردا فى المناخ السائد، وبالتالى فإنه عندما وقع لم يكن مفاجأة، لكن الأسلوب الذى تم به الاعتراض كان داعيا للاستغراب ويقول: إننى لم أدفع ضريبة ما قلت بما يحتمله من صواب أو خطأ، وإنما دفع غيرى، وجاء الدفع فى موضع الوجع (ومرة أخرى لا أزيد)!

ووجهت إليه دعوات لنقل الحوار إلى خارج مصر، ولكنه رفض مناقشة قضايا مصرية خارج مصر.

ويقول بعد ذلك: إنه تحدث فى الأمر مع الأقربين، فكان رأى زوجته التى يقول عنها إنها حبيبة القلب والعقل ونور الطريق والضمير أن الاستئذان فى الانصراف مفهوم ومعقول، لكنه قرار مرة واحدة، وذلك يدعو إلى إطالة التفكير. وكان هناك رأى

آخر عزيز وغال: لماذا الاستئذان وهو يستطيع أن يتوقف حين يشاء؟ وكان جوابه أن أى شخص يعطيه الناس مساحة من وقتهم فهو مدين لهم بقيمتها، وبالتالى فإن عليه واجب الاستئذان. وأخيرا كان هناك رأى يخشى أن التوقف عن العمل هو فى العادة بداية عزوف عن الحياة. وشرح لأصحاب هذا الرأى أنه لا يعتزم الاختفاء، بمعنى أنه قرر الابتعاد وليس الغياب، فما يزال لديه ما يريد أداءه ضمن جدول أعمال يكفيه، حتى وإن ظهر على شكل ملفات خام أصلية. وأنه قد يفكر فيما هو معروض عليه كحلقات تليفزيونية مصورة موثقة يتحدث فيها، وفى الإطار وثائق أصلية تعزز ما أقول. أى إنه لا يزال جهد الدارس الممارس ولكن من ركن ناء بعيد.

هكذا اتصل هيكل بناشر كتبه فى لندن ونيويورك يعتذر عن إعداد الكتاب الثالث الذى اتفق عليه مبدئيا. تكملة لكتابيه (أوهام القوة والنصر)، و(المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل)، وقد ظهرا منذ سنوات، وكان الباقى هو كتاب عن الإسلام السياسى.. كما اتصل هيكل أيضا بعدد من الصحف الأوربية بينها الجارديان البريطانية، ويميورى اليابانية يعتذر عن عدم الاستمرار فى كتابة المقال الذى كان يكتبه لهما مقالا منتظما، وكانت هذه المقالات تنشر فى ثلاثة آلاف صحيفة فى شرق آسيا وغرب أمريكا. وأخيرا اعتذر عن عدم إلقاء محاضرتين كان قد قبل الدعوة إليهما مبدئيا واحدة فى الجامعة الأمريكية، والثانية فى مركز الدراسات الفلسطينية فى بيروت.

وكان لهذين المقالين أصداء واسعة، فقد كتب كثيرون اعتراضا على هذا الانصراف، بينما هو قادر على مواصلة العطاء، وإن كان يواجه عقبات، فقد كان مسار حياته كلها مليئا بالعقبات ولم تدعه إلى الانصراف.

□□□

والآن، قد يكون الوقت مبكرا لنسأل: ماذا يتبقى من هيكل؟

ومع ذلك فإن ما سيبقى منه كثير. سيبقى منه النموذج لصحفى أرسى للمهنة مبادئ أخلاقية وقيما فى التعامل وتناول الأشخاص والقضايا دون إسفاف أو ابتزاز، ويبقى منه أنه جعل مهنة الصحافة مهنة لها احترامها فى المجتمع، وجعل للصحفى مكانة لم تكن له من قبل، ولم يكن ذلك سهلا، فكم من بين الصحفيين من كان همه استغلال القلم لتحقيق مآرب شخصية، وكم منهم من استغل موقعه ليعمل وسيطا أو سمسارا فى عقد صفقات أو إبرام عقود، وكم منهم من ساند وأعطى صورة براقة لأصحاب شركات توظيف الأموال وكانوا على كشوف البركة، وكم منهم من حقق ثروات تفوق الخيال دون أن يقولوا من أين لهم هذا. أما هيكل فقد تكاثر عليه الباحثون عن ثغرة لاصطياده، وبعد أن فتشوا فى أوراقه، وبحثوا فى علاقاته واتصالاته لم يجدوا تصرفا واحدا يمس الذمة أو يخدش الكرامة أو الضمير.

ويبقى منه النهج والأسلوب. أسلوب الحياة وأسلوب الكتابة. أما أسلوب حياته فهو درس لكل من يريد أن يحقق نجاحا حقيقيا، وخلاصة الدرس أن النجاح ليس صدفة أو ضربة حظ، ولكنه عمل ومجهود ودراسة وتفوق وسهر وأخذ الأمور بجدية وتفرغ فيما يشبه الانقطاع للعمل.. ولعلنا نلاحظ أن هيكل لم يتقدم فى عمله لأنه قريب أو نسيب أو صديق، ولكنه تقدم لأنه كان الأكفأ والأكثر موهبة، ونلاحظ أيضا أن هيكل- ليس مثل البعض- بالونة من صنع الدعايات والعلاقات العامة، ولكنه رجل يقدم نفسه مستندا على عمله وليس على أى شىء آخر.

وسيبقى منه دراساته عن فترة من أهم فترات التاريخ الحديث، وحرص على توثيق كل ما يقوله بالوثائق الأصلية، ولم يلق الكلام والأحكام جزافا كما يفعل البعض.

وسيبقى موقفه القوى فى رفض دعوة الدكتور سعد الدين إبراهيم لاعتبار أقباط مصر أقلية وبحث شئونهم بهذا الاعتبار فى مؤتمر دعا إليه عن حقوق الأقليات فى الوطن العربى والشرق الأوسط، وكتب مقالا كان له تأثير كبير فى مصر وخارجها

بعنوان (أقباط مصر ليسوا أقلية وإنما جزء من الكتلة الإنسانية الحضارية للشعب المصرى) نشره الأهرام يوم ٢٢ إبريل ١٩٩٤ وقال فيه: إن أقباط مصر ليسوا أقلية ضمن أقليات العالم العربي والشرق الأوسط، لا بالمعنى العرقى مثل الأكراد فى العراق والبربر فى المغرب العربى، ولا بالمعنى الطائفى مثل الدروز أو الأرمن فى إسرائيل أو لبنان، ولا بالمعنى الدينى وحده، وذلك سر الخصوصية المصرية طوال التجربة الإنسانية فى هذا الوطن، كما أنه سر وحدة وتماسك الكتلة الحضارية للشعب المصرى، ولعل هذه الكتلة الحضارية هى القصد المقصود فى التعبير المأثور عن اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مطلع القرن العشرين، وهو صاحب سياسة فرق تسد، الذى لم يتمالك نفسه عند انتهاء خدمته وسفره معزولا من أن يقول: (لم أجد فارقا بين مسلم وقبطى فى مصر غير أن أحدهما يصلى فى مسجد والثانى يصلى فى كنيسة) ثم يجيء بعضنا عند مداخل القرن الحادى والعشرين ليرسم خطا فاصلا نتراجع وراءه مائة عام.. مئات الأعوام؟!

وقد نبه هيكل فى هذا المقال إلى كثرة المبالغ المرصودة لأغراض البحوث الاجتماعية والسياسية فى مصر والتى تزيد على مائة مليون دولار سنويا معظمها تقدمه هيئات أجنبية. والمشكلة: أننا لا نعرف يقينا مَن المولون؟!، فنحن نقرأ أسماء هيئات دولية، لكن الأسماء- كما تعلمنا التجارب- لا تدل بالضرورة على المسميات، ثم إننا لا نعرف أين تبدأ المقاصد وأين تنتهى النتائج، وما نراه هو مجموعات فرق بحث تمسح البلاد بالطول والعرض والعمق، ثم تطالعنا أوراق لا تبدو مساوية للجهد، ثم تنزل أستار النسيان تدريجيا على كل شيء.. ونحن حقيقة فى عصر المعرفة، ويجب ألا نحجب شيئا، ولكن هناك فرق بين المعرفة والاستباحة.. والتاريخ ليس مؤامرة ولكن المؤامرة قد توجد فى التاريخ.. وهذا البلد مستهدف، ونحن نرى كيف تجرى الحرب على هذا البلد اقتصادية وسياسية ونفسية وعسكرية عند اللزوم.

وأخيرا سيبقى من هيكل أنه أخلص لبلده، ولم يساوم على هذا الإخلاص، ولم يعرض قلمه للبيع أو للإيجار، ولم يلتمس الرضا على حساب ما يعتقد أنه الصواب.

وسيبقى منه قيمة الوفاء لرجل أحبه واقتنع بفكره وشاركه فى انتصاره وسيبقى منه ما أضافه إلى الأهرام وجعل منه مؤسسة بمعنى الكلمة وصحيفة هى واحدة بين أكبر عشر صحف فى العالم، وانكساره، لم يغير جلده ويتنكر للسابق زلفى للاحق كما فعل البعض.

وسيبقى منه حبه الذى لا شك فيه لبلده. وفى ذلك يقول: إن أى إنسان لا يحتاج إلى أن يتحدث عن حبه لوطنه. حب الإنسان لوطنه من كيانه ووجوده. ولست متحمسا لنوع الوطنية المسطحة التى نسمعها عن حب مصر والولاء لمصر والوفاء لمصر إلى آخره، هذه كلها أعراض أزمة وليست دلائل حب.. حب الوطن ليس بالكلام، ولكن بالعمل للناس فى هذا الوطن. الشعب هو التجسيد الحى للوطن وللأرض وللتراث وللتاريخ. أن يحب إنسان وطنه معناه أن يلتزم بقضايا الناس وبحياتهم ومستقبلهم. هناك خلط شديد يجعل الوطنية نوعا من الهستيريا.. والوطنية ليست حلقة «زار»..

وأخيرا فإن هيكل عاش وفقا لمبادئه وقناعاته.. وكتب ما يعتقد أنه صواب.. ومع نموه الفكرى والسياسى عاش مراحل تطورت فيها أفكاره ومواقفه لكنه لم يغير مبادئه.

وفى الختام يقول: لقد تمثلت دائما بنصيحة الفيلسوف القديم: (قَل كلمتك وامش).. وقد قلت كلمتى ومشيت، ولم أسمح لنفسى أن أتلكأ على باب، أو أقف فى انتظار دقة جرس.

كتب أخرى للمؤلف

- البحث عن المستقبل - طبعة ثانية — المكتبة الأكاديمية
- تاريخ ليس للبيع - طبعة ثانية - دار المعارف
- الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام - طبعة ثانية -دار المعارف
- ابتسامة صغيرة - مجموعة قصص - هيئة الكتاب
- الغرب والإسلام — طبعة ثانية — دار المعارف
- المصريون فى المرآة - سلسلة اقرأ - دار المعارف
- الأقباط فى مصر والمهجر - طبعة ثالثة - دار المعارف
- معجزات الخلق والخالق - دار المعارف
- رحلة إلى الصين - دار المعارف
- صناعة العداء للإسلام - دار المعارف
- أمريكا .. رؤية من الداخل - دار المعارف

المحتويات

رقم الإيداع	٢٠٠٤/٣١٩٦	
الترقيم الدولى	977-02-6070-5	ISBN

١/٢٠٠٣/٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)